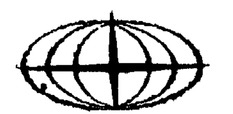
من الشرق والغرب



الفتوحات العربية الكبرى

بقلم جون باجوت جلوب

تعريب وتعليق
خيري حماد





من الشرق والغرب

الفتوحات العربية الكبرى

بقلم

جون باجوت جلوب

تعريب وتعليق

خيري حماد



« على الزمن ألا يمحو الماضى من تاريخ الانسانية ، وعلينا
ألا ننكر على الاعمال العظيمة الرائعة حقها فى الشهرة »

هيرودتس



تقدمة المعرب

عندما صدر هذا الكتاب في لندن قبل زهاء شهرين أو ثلاثة تساءلنا ــ نحن الذين عرفنا مؤلفه جلوب عندما كان في بلدنا الحبيب الاردن ، يعمل رئيسا لأركان جيشنا وينفذ عن طريق مركزه هذا مخطط بلاده الاستعماري في الوطن العربي كله ــ عما قصده جلوب من كتابه • وقلنا لأنفسنا ترى هل مل جلوب من كثرة ما شوهه قولا وعملا في تاريخنا الحديث فأراد أن ينتقل الآن الى تاريخنا القديم يعمل فيه معاول الهدم والتشويه ، لينفث سموم حقده الاسود على الشعب الذى مل ألاعيبه الاستعمارية وحيله الماكرة في تنفيذ مخطط بلاده • فأخرجه من بلادنا شبه مطرود مما حمله حقدا أسود على كل ما هو عربي ، بالاضافة الى ما كان يحمله في الماضي من عواطف عدائية للعرب بسبب تأثره بسياسة بلاده الاستعمارية •

وصدر الكتاب • وطلعت صحف الغرب تلقاه بالاطراء والتقريظ فجلوب في نظرها خبير كبير في الشئون العربية بل لعله أعظم هؤلاء الخبراء فلقد صرم زهاء ثلاثين عاما أو يزيد من عمره ، يجوب الصحارى العربية وينتقل بينها مختلطا ببدوها ومتحكما في حضرها وناشرا سلطان بلاده على ربوعها • وقد تعلم اللغة العربية ولاسيما لهجات البدو منها فأجادها وعاش مع العرب في خيامهم يشاركهم طعامهم • وينام نومهم ملتحفا السماء ومفترشا الغبراء ثم بعد أن عاد الى بلاده متقاعدا مطرودا جعلت منه الدوائر المسئولة خبيرا تشاوره في كل ما يمت الى البلاد العربية بصلة • وصيرت منه الصحافة اخصائيا ترجع اليه في كل مشكلة تتعلق بالعرب ، تسأله الرأى والتعليق • واغتنم هو بدوره هذه الفرصة فأخذ ينشر المقالات تلو المقالات ، ويصدر الكتاب تلو الكتاب وكلها عن تجاربه واختباراته في الوطن العربي • وما مر به من خواطر وذكريات راعى فيها جانب التضليل وتشويه الحقائق ليجيء ما يسرده معبرا عن حقده الاسود ومنسجما مع سياسات بلاده الاستعمارية وغاياتها •

ولكن عندما صدر هذا الكتاب • وقرأنا عنه في صحافة الغرب ما

قرأناه من اطراء وتقريظ وثناء، خيل الينا ـ وان كنا لانعرف عن جلوب أنه مؤرخ أو بحاثة أو متعمق فى دراسة التاريخ الاسلامى ـ أنه قد يكون فى كتابه هذا قد بحث تاريخ العرب من الزاوية العسكرية • وحلل أحداث هذا التاريخ ووقائعه وفسرها على ضوء معلوماته العسكرية وخبرته بالبلاد التى وقعت فيها هذه الاحداث • وقلنا لعل جلوب قد عثر فى بعض الكتب الرومانية أو البيزنطية على أشياء نجهلها أدرجها فى كتابه وربط بينهـا وبين روايات التاريخ العربى ليخرج لنا من كل ذلك بشىء جديد•وتوقعنا بعد ما قرأنا من تقريظ لهذا الكتاب أن نجد فيه منحى جـديدا فى قراءة التاريخ العربى مستمدا من الوقائع العسكرية ، وقائما على أساس المفاهيم فى فنون الحرب ، من سوقية وتعبوية •

ووصل الكتاب الينا فقرأناه • وكلما أوغلنا فى قراءته رأينا العجب العجاب فالكتاب مستمد فى وقائعه من كتب التاريخ والسير العربية ليس الا ، كسيرة ابن هشام وتواريخ الطبرى والبلاذرى والخضرى • وكل ما فيه من جدة هـو الربط بين الاحداث وصـوغ قصـتها على أساس الاتسـاق الزمنى • مع بعض الاستنتاجات والآراء الخاصة التى لا تتطلب خبـرة « جنرال » عسكرى ، أو عالم بفنون الحرب وخططها وانما يمكن أن يصل اليها كل باحث يتوخى فهم الاحداث وتفسيرها •

ولكن أهم ما فى الكتاب هى المحاولة البـارزة فى كل ناحيـة من نواحيه للتشويه والتضليل ورسم الصور الزائفة التى تشكك القارىء فى الشخصيات العربية العظيمة ابتداء من النبى صلى الله عليه وسلم وانتهاء بصغار القادة ، عبورا بأبى بكر وعمر وعثمـان وعلى ومعاوية وخالد وأبى عبيدة وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص وغيرهم • وقد استند فى عمليات التشويه هذه على ذكاء نادر فى فن التضـليل ، وعلى روايات ابتكرها من خياله ، أو وجد أثرا منها فى بعض الكتب الصفراء التى وضعها الشعوبيون فى مختلف العصور • تنفيذا لغايات لا تقـل فى مكرها عن الغايات التى ساورت المؤلف وهو يضع كتابه هذا •

ولقد اتضحت لنا من قراءة الكتاب ناحية كانت كما أعتقد خافيـة على الجميع من الـذين عرفوا جلوب أثنـاء عمله فى بلادنا • وهى تشـيعه لليهود والصهيونية تشيعا كاملا لا شك فيه ولا لبس ولا غموض • وانى أقول ان هذه الناحية كانت خفية على الجميع•ذلك لان جلوب كان يتظاهر بحب العرب حبـا شخصيا قويا جعل الـكثيرين يخدعون به ، فيعتقدون رغم ايمانهم بأن جلوب ينفـذ سياسة بلاده الاستعمارية فى وطننـا وان

اخلاصه لهذه السياسة هو الذى يدفعه أحيانا الى الظهور بمظهر المؤيد لليهود ، يعتقدون انه لو ترك وشأنه لعواطفه الشخصية لكان مع العرب ضد اليهود قلبا وقالبا ٠ ولكن لا حيلة له ، فهو منفذ للسياسة الاستعمارية التى وضعته فى الاردن حاكما بأمره ، رغم وجود الحكم الوهمى فيه ٠

لكن كتابه هذا أزال ذلك القناع الزائف الذى وضعه جلوب على وجهه والذى خدع به الكثيرين من سليمى النية من العرب ٠ فهو يظهرفى كتابه مؤيدا لليهود كل التأييد وان لم يعلن تأييده هذا صراحة ٠ فهومثلا يروى قصص اجلاء النبى لليهود من يثرب (المدينة المنورة) ومن خيبر كبنى النضير وبنى قريظه وبنى القينقاع دون أن يذكرالاسباب التىدفعت النبى الى اتخاذ هذه الخطوات ، ومنها ، نقضهم لعهودهم معه وخياناتهم لاتفاقاتهم ومحاولتهم طعن المسلمين فى ظهورهم ابان غزوة الاحزاب وحصار المدينة أو أثناء معركة أحد ٠ على الرغم من وجود اتفاقات معقودة بينهم وبين النبى ٠ أو سعيهم الى اغتيال الرسول ، وما شابه ذلك من الخيانات التى تستحق أكثر من عقوبة الطرد والاجلاء عن الديار لانها تشابه ما قام به رجال « الطابور الخامس » ابان الحرب الكونية الاخيرة ٠ ولا ريب فى أن تجاهل جلوب الحديث عن كل هذه الامور واكتفاءه بالحديث عن اخراج النبى لليهود من ديارهم ، انما هو عمل مقصود لاظهار العرب بمظهر المضطهدين لليهود ، وتصوير النبى صلى الله عليه وسلم على أنه هتلر آخر ٠

وفكرت طويلا ٠٠ هل أنقل هذا الكتاب بما فيه من تضليل وتشويه للتاريخ العربى الى العربية أو لا أنقله ٠ ووصلت الى نتيجة واحدة ٠ وهى أن نقله ضرورة قومية ٠ وضرورة دينية أيضا ٠ فاغفاله وتجاهله أمر لايجوز اطلاقا اذ أنه طبع ووزع فى كل مكان فى العالم الناطق بالانجليزية وقراؤه كثر ، اذ أن جلوب كما قلت يعتبر خبيرا فذا فى الشئون العربية عند الغربيين ، وسيحمل هؤلاء القراء كل ما قاله على محمل التصديق والثقة ٠ ناهيك عن أن أجيالا ستنقضى وسيعتبر هذا الكتاب بعدها مرجعا من المراجع لان أحدا لم ينبر فى حينه للرد عليه ٠

وقلت لنفسى أيضا ان كثيرين من العرب قد يقرءونه فيصدق بعضهم على الاقل ما جاء فيه ، كما قد ينبرى عربى فيترجمه ترجمة أمينة دون أن يعلق أو يرد عليه ردا علميا صحيحا ٠ وبذلك يكون المؤلف قد حقق الغاية التى توخاها من وضع كتابه ٠ وهكذا تم العزم على تعريب هذا الكتاب ٠ وتوزيع ترجمته على أوسع نطاق ممكن ٠ مع الرد عليه حيث يقتضى الرد،

وتصحيح ما فيه من أخطاء وتشويه حيث يتحتم التصحيح ، وتقـــرر أن يصدر عن دارين للنشر ٠ الدار القومية فى القاهرة والمكتب التجارى فى بيروت وكلى أمل أن نوفق فى ترجمة الردود والتعليقات والتصحيحات الى اللغـة الانجليزية لتنشر مع الاصـل الانجليزى ٠ وبذلك تتحقق الغـاية الكاملة من الرد عليه ٠ وبذلك أيضا يتاح المجال لكل قارىء من قـــراء الكتاب ليرى الحقيقة التى حاول المؤلف اخفاءها بذكاء وبراعة ٠ ويحكم على ضوء تفكيره ووعيه على صحتها أو زيفها ، كما نحفظ للأجيال القـــادمة من القراء وثيقـة تبين أن هذا الكتاب قد صدر وصدر الرد عليه احقـاقا للحق والحقيقة ٠

وقد راعيت فى التعريب الامانة كل الامانة لأبين لكل قارىء ـ قد يكون لايزال مخدوعا بجلوب ـ حقيقة هذا الرجل الذى عاش بين ظهرانينا قرابة ثلاثين عاما ، كان فيها المنفذ لسياسة الاستعمار البريطانى فى بلادنا . والمخطط أحيانا لهذه السياسة ٠ وسيكون هذا الدور الذى مثـــله على مسرحنا موضـوع كتـاب خاص أعتزم وضعه فى حلقـة « أعمدة الاستعمار البريطانى السبعة فى الوطن العربى » ، وهى الحلقة التى أصدرت منها أول كتاب عن « عبد الله فيلبى » وسأتبعه عما قريب باذن الله بالـكتاب الثانى وعنوانه « أسطورة لورنس » ٠

وكلى أمل أن أكون قد حققت الغاية التى توخيتها من تعريب هـذا الـكتاب الطريف برغم ما فيه من تشـويه ، والمهم كل الاهميـة برغم كل ما فيه من تضليل ٠

القاهرة فى ١٩٦٣/٦/١٥

خيرى حماد

« ابرز العرب أنفسهم منذ أيام محمد ، على صعيد عالمي ، بفضل قوتهم العسكرية وتفوقهم العلمي . ولهذا لا يقل تفهم شئونهم ضرورة ان لم يزد عن تفهم أي شعب من الشعوب التي ازدهرت منذ أن سارت الامبراطورية الرومانية في طريق الانحلال » .

سيمون أوكلي ... تاريخ العرب

***

« قد نعجز عن الفهم ... الا اذا كنا راغبين في أن نضع نصب أعيننا حقيقتين اضافيتين أولاهما ما في الطبيعة البشرية من تشابه أساسي على مر الدهور وثانيتهما ما في الأجواء الانسانية من اختلاف وافتقار الى التماثل ... ولاريب في أن هاتين الحقيقتين توضحان ما يبدو عند أصحاب الشخصيات المثلى من ايمان ذاتي مومق وما يصدر عن الجماهير من لامبالاة يشير اليها عدم نفاذ التعاليم الدينية لديها بعيدا الى الاعماق الا فيما ندر ... »

جي.جي.كولتون ـ صورة جلوية للعصور الوسطى



مقدمة

بعثت قبل أيام الى رئيس تحرير احدى الصحف بمقال عن بلد عربي ضمنته صورة جانبية سريعة عن تاريخ هذا البلد في فقرتين أو ثلاث فقرات . انتقلت منها الى شرح أوضاعه على النحو الذي هي عليه اليوم . وقد رد رئيس التحرير المقال الى مرفقا اياه بمذكرة قصيرة قال فيها انه على استعداد لنشره اذا حذفت منه مقدمته التاريخية . وأنهى مذكرته قائلا : « لم يعد الناس يهتمون اليوم بالتاريخ وكل ما يودون معرفته هو رأيك في الوضع السياسي اليوم » . واذا ما حكمنا على الامور على ضوء الاخطاء المفجعة التي ارتكبناها في الشرق الاوسط في السنوات الاخيرة ، تبين لنا ان هذا الرأي لا يحمله هذا الصحفي وحده ، وانما يسود على أوسع نطاق ممكن . وتشترك فيه حكومتنا مع الرأي العام في بلادنا .

ولعل من الغريب كل الغرابة ، أن يكون هذا هو الواقع في عصر يكثر من الحديث عن علم النفس ، وينفق الكثير من الاموال في اعداد أطباء التحليل النفسي وتمكينهم من أداء تجاربهم . ولا يقتصر تأكيد الخبراء المستمر في هذا الميدان على أهمية خصائص آبائنا وأسلافنا التي قد نكون ورثناها عنهم . وانما يتعداها الى الاوضاع التي نشأنا فيها والتي أحاطت بطفولتنا وصبانا . وكثيرا ما سمعنا أن الظروف التي عشناها في الايام الاولى من حياتنا تؤثر على عقلياتنا ما تبقى من هذه الحياة . واذا صح ما سمعناه فان مما يثير الدهشة حقا أن نرفض تطبيق هذه الاعتبارات نفسها على الامم الاخرى وأن نرفض دراسة تاريخها . في الوقت الذي نبذل فيه كل جهد لتفهم الاسباب التي تدعوها الى سلوك ما تسلكه اليوم .

ولو كان للتاريخ من معنى . فان هذا المعنى يجب أن يتناول وبكل تأكيد تطور الجنس البشري منذ أيامه الاولى حتى أوضاعه الراهنة . ولضمان فهم هذه العملية وادراكها يجب أن يتوافر فيها عنصر الاستمرار والاتصال . ولو حصرنا أنفسنا في تسليط أضوائنا الكاشفة على بلد أو بلدين ، وعلى عهد أو عهدين ، وقعت فيهما الاحداث بشكل يتفق مع أهوائنا وعقائدنا وتركنا ما يتبقى من سير تطورنا يقبع في غياهب الظلمات ، فان الصورة

التى سنحصل عليها · ستخلو حتما من كل انسجام وتناسق ، ويظل موضوع التطور البشرى كله ، وكأنه لا معنى له · وهى حقيقة يحس بها طلاب المدارس · والاكتفاء بتعلم فترة قصيرة من التاريخ الرومانى ينتهى بالامبراطور أوغسطس،ثم القفز منها الى تاريخ انجلترا ابتداء بعام ١٠٦٦م انكار لفكرة التطور البشرى المستمر كلها · ومع ذلك فان الاغلبية الغالبة من أبناء بريطانيا والولايات المتحدة لم تسمع قط الا فيما ندر شيئا عن امبراطورية البيزنطيين أو الفتوحات العربية · ولكننى أرى ان القصة التى سأسردها فى هذا الكتاب تنطوى على مفتاح من المفاتيح الرئيسية لتفهم العالم المعاصر الذى عاد المسلمون يلعبون فيه دورا أساسيا بارزا ·

ولقد واجه مؤرخو الفتوحات العربية الاولى مشاكل عدة من النوع الذى يقطع الانفاس حله · فعندما اندفع العرب فى القرن السابع للميلاد من جزيرتهم ليقيموا امبراطورية كانوا لا يزالون بوجه عام خامات غير مصقولة ، تجهل القراءة والكتابة · ولما كان جل اهتمامهم منصرفا الى العمل ؛ فقد فاتهم أن يدونوا ما عملوه بل لم يكلفوا أنفسهم عناء تدوينه · وكان أبناء الجزيرة العربية ، هم وحدهم الذين قاموا بهذه الفتوحات العظيمة الاولى ؛ وكان جلهم من أبناء البادية الرحل · أما الشعوب التى فتحوا بلادها فكانت فى غالبها غير عربية · وكان معظمها وارثا لحضارات عريقة تليدة وظل أبناء الجزيرة يحتلون مركز الصدارة فى الامبراطورية العظيمة التى أقاموها طيلة المائة عام الاولى بعد الفتوحات (١) · ولكن مع انقضاء هذه المدة ، فقد المحتلون العرب الاصليون مكانتهم بتأثير أحد عاملين اما عامل الاقامة فى البلادالمحتلة والتزاوج مع أهلها المتباينى الاجناس ، والضياع وسط هذه الشعوب المختلفة أو عامل البقاء على حياة البادية فى الجزيرة العربية وما يتبع هذه الحياة من جمود ، ومن عزلة عن مراكز النشاط والحيوية فى الامبراطورية التى أقاموها ·

فلقد انتقل السلطان الى الخلافة العباسية فى عام (٧٥٠) ميلادية · أى بعد مائة وثمانية عشر عاما من وفاة محمد · ومنذ ذلك التاريخ · وبعد

---

(١) اعتقد أن تحديد هذه المدة بمائة عام خطأ تاريخى وقع فيه المؤلف فالمعروف أن عهد الفتوحات العربية بدأ بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في سنة (٦٣٢) ميلادية . والمعروف أن السيطرة العربية على الامبراطورية الاسلامية ظلت قائمة بشكل كامل حتى بداية عهد الخليفة العباسي المأمون في عام (٨١٣) ميلادية عندما شرع الاعاجم في التدخل في شئون الامبراطورية ويتبين من هذا أن السيطرة العربية المطلقة ظلت قائمة (١٨١) عاما لا مائة عام كما قال المؤلف . (المعرب)

نقل العاصمة الى بغداد ، اكتسبت الامبراطورية طابع الشعوبية ولم يعد أساسها القومية العربية وانما الاسلام • ولم يظهر المؤرخون (العرب) الكبار الا بعد نحو قرنين من وفاة النبى وبعد أن تحولت السيطرة فى الامبراطورية الاسلامية من أيدى العرب الى أيدى الشعوبيين •

ومن هنا نستطيع القول بأن وجهـــات نظر هؤلاء المؤرخين كانت اسلامية أكثر منها عربية • ويضاف الى هذا أن أيا من المؤرخين لم يكن من أصـــل عربى صميم • وقد نشأوا فى بلاد مختلفة فبعضهم من المغرب وبعضـهم من الاندلس وبعضهم الثالث من فارس • ولم يكن بينهم مؤرخ واحـد من العرب البداة الذين جاءوا من الجزيرة العربيـــة وحققوا تلك الفتوحات العظيمة • ومن هنا يتبين أن مؤرخى العصر العباسى ، لم يكونوا على اطلاع صحيح على الحياة البدوية التى عاشها الفاتحون الاول • كما انهم لم يكونوا كثيرى العناية بالعمليات العسكرية • ولم يكونوا يهتمون أيضـــا بالغ الاهتمـــام بالتواريخ والارقام والحقـــائق ، وهى المظاهر التى يعتبرها المؤرخون اليوم شيئا حيويا • وكانوا يكتفون فى وصف معركة من المعارك الحربية بالقول بأن « مشيئة الله أرادت أن ينهزم الـــكفرة » وكثيرا ما افتقرت التواريخ التى أوردوها الى الدقة • وكان الواحـــد منهم يختلف عن الآخر ، فى تحديد تاريخ معركة من المعارك بنحو عامين عـــلى الاقل • وكثيرا ما لف الغموض والابهام تقديراتهم للقوات المتحاربة•وعلى الرغم من ميلهم الى اعطاء الارقام القريبة من الصحيحة بالنسبة الى قوات المسلمين ، الا أنهم كانوا ميالين كل الميل الى المبـــالغة فى تقـــدير قوة أعدائهم (١) •

وبالاضافة الى افتقار هؤلاء المؤرخين الىالاهتمام بالعملياتالعسكرية فانهم دونوا تواريخهم ، وقـــد حرموا من ضرورة وجود خرائط عســـكرية تشرح هذه المعـــارك • فبالنسبة الينا نحن ألفنـــا النظر الى الخرائط

---

(١) ليس ثمة من شك في أن هذه الحملة التى يشنها جلوب على المؤرخين العرب مستمدة من وحى مايحس به الغربيون من كراهية عامة للعرب ولو كان في حملته هذه موضوعيا ينحو المنحى العلمى لاورد على ماقاله الادلة والشواهد ، دون أن يكتفى بالاحكام العامة التى تجعل كتابه مفتقرا الى الثقل العلمى • ولربمـــا اندفع الى حملته هـــذه برغبته في ارضاء قرائه الذين يعرف انهم يستمرئون كل حملة علىالعرب بالنظر الىجذور الكراهية المتأصلة في أعماقهم منذ أيام الحـــروب الصليبية متجـــاوبا في الوقت نفسه مع حزازاته الشخصـية التى لابد وان تكون قد تضاعفت بعد خروجه من الوطن العربى على النحو الذى خرج فيه • (المعرب)

منذ نعومة أظفارنا وتعودنا تصور المواقع المتصلة بمختلف الاماكن • نرى من المتعذر علينا أن نتصور كيف يمكن للمرء أن يتابع الحديث عن معركة من المعارك دون أن تكون هناك خريطة يتابع عليها هــذا الحديث • ومن الواضح حقا ان المؤرخين العرب لم يكونوا على فهم صحيح بالمعارك والحملات الحربية التى يتحدثون عنها • وكل مابقى هنالك اسم موقع هنا أو موقع هناك • تناقلته القصص والروايات القديمة • وما زال قيد الاســتعمال حتى يومنا هذا متيحا المجال للمؤرخ المعاصر العثور على أثر أو علامة تصل به الى الحقيقة •

وأرى لزاما على أن أورد هنا نقطة أخرى تتعلق بالسجلات العربية الاولى فلم يكن المؤرخون وناقلو السير واضحين كل الوضــوح فى ترديد أسماء مصادرهم أو في الرجوع بهذه المصادر الى أولئك الذين شهدوا هذه الاحداث التي يدونونها هم عند وقوعها • وكان المؤرخ يحس بعد أن يسرد قائمة بأســماء مصادره أن مهمتــه قد انتهت • فلا يقــوم بأية محــاولة أخرى للتثبت مما اذا كانت الاحداث التى يصفها ويسردها قد وقعت حقا • وعندما تكون هنــاك روايتان عن حادث واحد ، أو مجموعة من الروايات المتناقضة ، يكتفى المؤرخ بسردها كلها • ساندا كل رواية منهــا الى مصادرها ومراجعها • وتاركا للقارىء نفســــه مهمة الخروج بالرواية الصحيحة من هذه الروايات المتضاربة •

وقد سارت هذه المتاعب الموروثة من الماضى جنبا الى جنب مع متاعب لا تقل عنها أهمية نشأت فى العصور الحديثة • فلقد كانت العربية تعلم منذ قرون فى انجلترا ، وهــذه هى الصعوبة الاولى وكأنها احدى اللغــات الميتة • وقد قام المستشرقون الاوربيون بمهمة عظيمة بترجمتهم كتب الادب العربية القديمة الى الانجليزية ؛ وان كانوا قد ركزوا عملهم على النــواحى الدينية والسياسية والعلمية فى المخطوطات الباقية دون أى تركيز على النواحى العسكرية• ولم تكن الفرصة لتتاح الا نادرا للعسكريين المحترفين لتعلم لغة من اللغات الميتة مع ما فى هذه اللغة من صعوبة •

أما الصعوبة الثانية فهى أن الجزيرة العربية كانت حتى الخمسين سنة الاخيرةمنيعة الاختراق الا لاكثرالمكتشفين جرأة ومخاطرة، وهكذا كان من المستحيل بالنسبة الى المؤرخ الغربى أن يدرس على الطبيعة مواقع هذه المعارك • أو يطلع بنفسه على طراز العرب الذين خاض أمثالهم تلك المعارك التى أدت الى هذه الفتوحات العظيمة •

أما الصعوبة الثالثة فهىان أوروبا ظلت قرونا طويلة تعتبرالفتوحات

الاسلامية كوارث رهيبة • ولم يكن ثمة مسيحي يود أن يذكره الناس بها وليس المؤرخون الا بشرا • ولذا تثبط عزائمهم اذا لم يجدوا من يقرأ لهم فلقد كتب سيمون أوكلي ، وهو أحد المؤرخين الانجليز الاوائل الذين ارخوا الفتوحات العربية بعض كتبه العظيمة وهو رهن السجن في كمبردج وفاء لدين عليه • ولم يكن دخله من بيع كتبه كافيا لتمكينه من اعالة اسرته • ولقد كتبت الوف الكتب منذ عصر النهضة عن تاريخ الامبراطورية الرومانية • أما عدد الكتب ذات المستوى الطيب عن الفتوحات العربية في اللغة الانجليزية فلا يعدو أصابع اليد الواحدة • وليس غريبا والحالة هذه اذا ما ارتكبنا هذا العدد الضخم من الاخطاء الجذرية في سياستنا نحو العرب • طالما أن موقفنا منهم يرتكز على مثل هذا الاساس الواهي من المعرفة •

ولكن اذا كان مؤرخ الفتوحات العربية يمارس عمله أمام مثل هذا العدد الكبير من المتاعب فانه أيضا يحبى بنعمة من النعم الممتازة • فما زال هناك بعض البداة في قلب الجزيرة العربية ، يعيشون على النحو الذي كان يعيش فيه أسلافهم في القرن السابع الميلادي دون أي تبديل أو تغيير (١) • ولا ريب في أن مثل هذا الوضع فريد في نوعه في العالم وهناك بالطبع أجناس بشرية غير متحضرة وبدائية لم يطرأ على نمط حياتها أي تبدل منذ الوف السنين • ولكن هذه الاجناس لا تمثل شعوبا لعبت دورا قياديا في تاريخ الحضارة العالمية كالدور الذي لعبه العرب •

ترى ألا يكون من الانباء المثيرة كل الاثارة لو عثر في احدى الجزر الضائعة على جماعة من الجمهوريين الرومان ، يعيشون اليوم على النحو الذي كان يعيش فيه اسلافهم في أيام ماريوس وصولا ، أو بومبي وقيصر ؟ ومع هذا فان مثل هذا المجتمع موجود في الواقع في قلب الجزيرة العربية • اذ ما زالت القبائل هناك تعيش على النحو الذي كان يعيش فيه أبناء قبيلتي هوازن وبكر ، في القرن السابع •

***

(١) ان هذه النعمة التى يشير اليها المؤلف • هى في الواقع ادانة قاطعة على نظام الحكم السعودى الذى يسود الجزيرة العربية • فلقد عمل هذا النظام على الرغم من مئات الملايين من الجنيهات التى يدرها الزيت في كل عام على هذه البلاد ، على ابقاء اهلها يعيشون في اوضاع القرن السابع اى قبل الف وثلثمائة عام لان هذا النظام ينفقه على لهو الملك والامراء ومباذلهم ولا يأبه لاحوال الشعب • (المعرب)

وكان الحماس الديني هو الحافز على الفتوحات العربية ولكن أثر ماطرأ على الاندفاع العاطفي الاول من خفوت تدريجي • أخذت طبيعه الامبراطورية الجديدة في التبدل • وقد تحولت من دولة دينية ثيوقراطية مثالية الى امبراطورية علمانية ، ما لبثت أن لجأت الى سياسات القوة للدفاع عن نفسها ولتوسيع حدودها وسيطرتها ، واستغرقت عملية التحول هذه عددا من السنوات • ولقد كان هدفي من هذا الكتاب بصورة عامة أن أعرض عصر الحماس الديني • وكل أمل في أن أتمكن في كتاب آخر من الحديث عن قصة الامبراطورية العربية كدولة عظمى في ظل الخلافة الاموية ومستهل عهد الخلافة العباسية • ويبدو أن خلافة معاوية تمثل عهد الانتقال من نظام يقوم على الاساس الديني الى نظام سياسي عالمي بصورة رئيسية • وعلى الرغم من أن الحكومة في هذا العهد كانت تستوحي أعمالها على الغالب من حوافز دنيوية الا أن الروح الدينية الصادقة كانت لا تزال سائدة أوساط الجنود والشعب ولهذا فقد آثرت انهاء كتابي هذا بوفاة معاوية •

ولقد سبق لي أن أوضحت في هذه المقدمة أن العسكريين المحترفين ماكانوا يجدون الفرصة لتعلم لغة صعبة ميتة • واني لأبدو بهذا الاعتراف وكأني قد حكمت على هذا الكتاب بالموت سلفا • ولكن سلسلة بارزة من الاحداث المتزامنة شجعتني على كتابته ، وأول هذه الاحداث انني تعلمت العربية لا كلغة ميتة ، بل بالعيش مع الشعب الذي يتكلمها الى الحد الذي جعلني أنطقها بنفس السهولة التي انطق بها الانجليزية • أما الثاني فهو انني قدت بالفعل ولمدة ثلاثين عاما جنودا جمعوا من نفس تلك القبائل التي قام أبناؤها بتلك الفتوحات العربية العظيمة ، والتي لم يطرأ عليها أي تبدل منذ ثلاثة عشر قرنا • يضاف الى هذا انني خضت مع هؤلاء الجنود عمليات عسكرية في نفس تلك المناطق التي حاربت فيها الجيوش العربية القديمة •

وتحتل بعض المعالم الطبيعية في أي بلاد كالجبال والمضايق والانهار والصحاري ، أهمية كبرى بالنسبة الى العمليات العسكرية ؛ ومع ذلك ؛ فمن الممكن أن يعيش المرء حياته كلها على مقربة منها دون أن يوليها أهمية بارزة • ولكن عندما يجد المرء نفسه خائضا في عمليات عسكرية على نفس هذه الاراضي • فان تلك المعالم الطبيعية ذات الاهمية الاستراتيجية ، سرعان ما تقفز أمام عينيه • وعندما يقرأ المرء بعد مروره بهذه التجارب وصفا للحملات العسكرية القديمة التي دارت فوق تلك الاراضي فانه يدرك على الفور كل ما كان ينتويه القادة العسكريون

الاوائل الذين قادوا تلك الحملات • وكانت هذه هى الطريقة التى قفزت بها الفتوحات العربية القديمة فجأة أمامى لتحتل جماع تفكيرى •

وانى طبقا لمعرفتى لا أعتقد أن مؤلفا سبقنى سواء أكان عربيا أم أوربيا تمكن من اخراج قصة معقولة وواضحة للفتوحات العربية التى وقعت فى العشرين سنة الاولى بعد وفاة محمد • وكلى أمل فى أن تكون ظروفى المواتية التى شرحتها قد حققت لى النجاح فى تحقيق هذه الغاية• ومن سوء الحظ (طبعا !) ان المزايا الهائلة التى أتيحت لى لحسن طالعى لن تتكرر لاى كاتب آخر باللغة الانجليزية • ولم يكن أى قائد عسكرى بريطانى قد حارب حتى نشوب الحرب الكونية الاولى على أرض هذه البلاد• وقد لا تتاح هذه الفرصة لاى قائد بريطانى فى المستقبل أبدا (١) • يضاف الى هذا ان استقلال هذه البلاد أدى الى عدم احتمال تولى أى ضابط بريطانى قيادة القوات العربية فى هذه المناطق فى المستقبل • وأخيرا فان تصنيع الجزيرة العربية سيؤدى قريبا الى اختفاء الطريقة البدوية فى الحياة • وهى الطريقة التى احتفظت الجزيرة بها ألوف السنين وكأنها « متحجرة » مطمورة فى الارض •

واعتمادا على هذه الظروف المواتية لا على معرفتى وعلمى ، أجد نفسى مضطرا الى المغامرة باصدار هذا المؤلف الى القراء متحدثا عن حقبة من أكثر الحقب أهمية فى التاريخ وهى حقبة الفتوحات العربية العظيمة •

ويسن دود سنت دونستان

جون باجوت جلوب

ميفيلد ــ سيسكس

---

(١) يكاد جلوب يفضح نفسه في مقدمته . ويفضح نياته الاستعمارية والدور الذى كان يؤديه في المنطقة العربية . فهو يعتبر أن من سوء حظ بريطانيا طبعا أن أيا من رجالها لن يحتل في المنطقة المركز الذى احتله هو . وهو لابود أن يجزم بأن أى قائد بريطانى لن يحارب في المستقبل على أراضيها ، لان أحلام الامبراطورية مازالت تراوده وتمنيه هو أو من هم على شاكلته بالعودة الى المنطقة وقيادة الجيوش العربية فيها . ولكننا نود أن نجزم لجلوب ونؤكد له أنه لن يعود لا هو ولا غيره من أعمدة الاستعمار البريطانى الى أرضنا العربيةالتى طهرها وسيطرعليها شعبناالعربى من مخلفاته وعملائه . ونود أننشترك معه في قوله بأن ما أتيح له لن يتاح لغيره أبدا لان هذه هى ارادة الشعب العربى .

(المعرب)



إيضاح للمؤلف

لجأت فى اسماء المواقع فى معظم الحالات الى اللفظ العربى للاسم اما بالنسبة الى المواقع المعروفة الى القراء الانجليز فقد استعملت الاسم الشائع المعروف عندهم ، كأسماء القاهرة مثلا ودمشق والقدس ودجلة والفرات • وقد أطلقت على استمبول أحيانا اسم القسطنطينية وأحيانا أخرى اسم بيزنطية •

وتحتاج بعض الاسماء العربية الشخصية الى بعض الايضاح فالعرب يلجئون الى طريقة غريبة تثير البلبلة والحيرة • وهى تسمية الشخص باسم أبوته لولده الاكبر ويبدو أن هذه العادة كانت أكثر شيوعا فى القرن السابع للميلاد منها فى وقتنا هذا حتى ان الاسم الاول الشخصى للرجل كثيرا ماينسى ولا يذكر أبدا وكثيرا ما تتضمن الكنية اسم الولد الاكبر الذى يكون قد مات فى طفولته ، وهكذا فقد يكنى الرجل طيلة القسم الاكبر من حياته باسم «أبى القاسم» مع أن «القاسم» ولده الاكبر توفى فى الشهر الاول من عمره ولم يسبق لأحد أن رآه أو سمع باسمه • ويفسر هذا المألوف الغريب تسمية عدد كبير من الاشخاص فى كتابنا هذا ، باسم ابى فلان • وهناك نقطة أخرى وهى أن عبارة «أبو» تصبح «أبى» فى حالات الجر أما الابناء الآخرون لابى القاسم والذين قد يعيشون فيكنون بأسماء فلان « ابن أبى القاسم » •

وعند تدوين الكلمات والاسماء العربية راعيت تهجئتها بحيث يتمكن القارىء الانجليزى من لفظها فى صورتها العربية الصحيحة • وتكتب العربية بحروف تختلف عن حروفنا ولهذا يصعب أحيانا نقل الاسماء العربية الى الحروف الانجليزية عن طريق وضع الحرف الانجليزى محل ما يعادله من لفظ عربى • وليست لبعض الحروف العربية حروف انجليزية تماثلها • وقد راعيت على الغالب حذف ال التعريف العربية من أول الاسماء مع العلم أنها تسبق جميع أسماء الاماكن والاشخاص •

وقد حاولت بكل ما لدى من جهد أن أحصل على قصتى من مصادرها

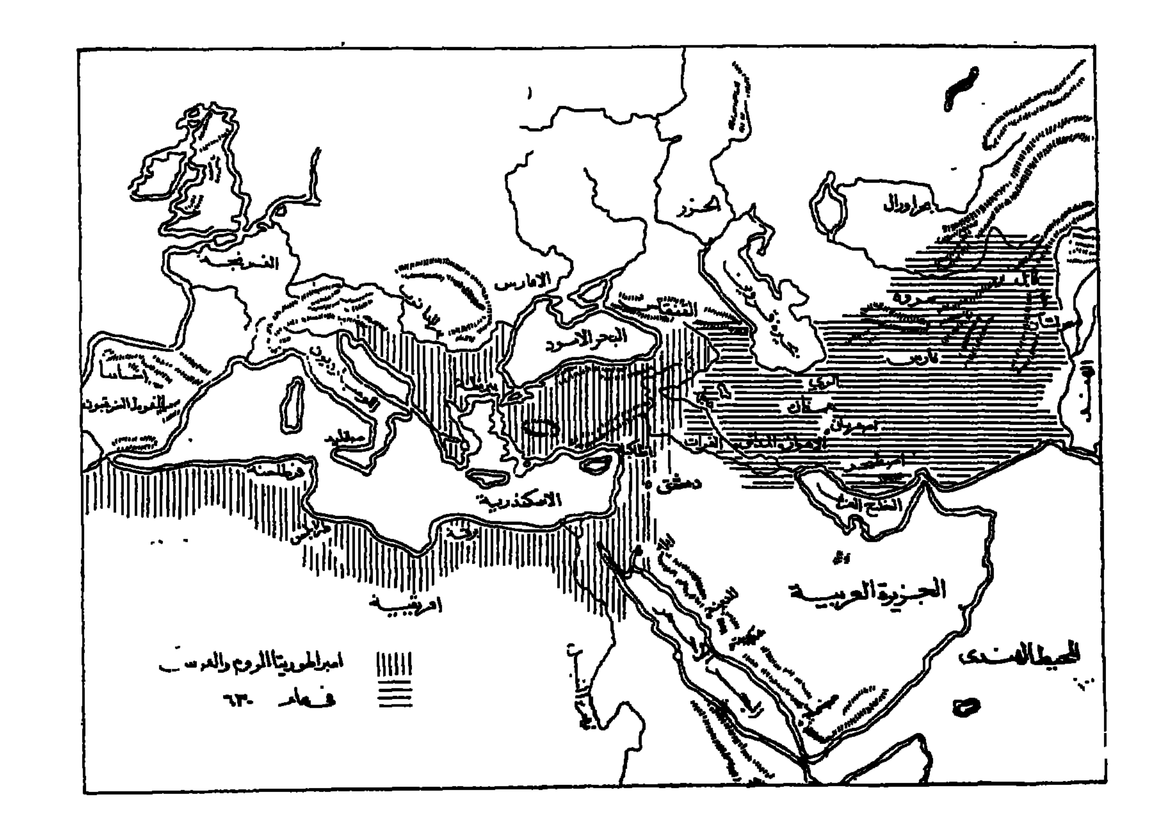
العربية الأصلية مباشرة • ولعـــل أهم هذه المصـــادر تاريخ الطبرى الذى يســـمى كثيرا «بليفى» العرب[1] • ولكن سرده للحملات الحربية لا يتسم دائما بالوضوح • ولا أعرف ان هنـــاك ترجمة انجليزية كاملة لتاريخ الطبرى • وقد أفدت كذلك من عدد من الترجمات الاوروبية الرائعة لبعض الآثار العربية ولا سيما فى الانجليزية والفرنســية ولم الجأ الى مضايقة القارىء بالاكثار من الهوامش والشروح والاشارة الى مصادر كل واقعة أو حكم • وقد لا أزعم ان كتابى هذا مؤلف علمى دقيق • ولكننى أجرؤ فأقول اننى حاولت تطبيق القـــواعد العلمية المعروفة على الحقائق الواقعة وأن أفسر النصـــوص التاريخية على صعيد التجارب العملية التى مررت بها •

***

وأود أن أتقدم قبل ختام ايضاحى هذا بالشكر العميق الى أمين مكتبة معهد الدراسات الشرقية والافريقية فى جامعة لندن المسترجى • دى • بيرسون • والى نائبه المستر • آر•جى هوى • اللذين لولا مساعدتهمـا القيمة لى لما صدر هذا الكتاب • وأود أن أتقدم بالشكر أيضـــا الى أمين المكتبة العامة فى معهد تونبردج ويلز المستر آر جى • بيرد ، وكذلك الى الاستاذ أى • جى اربرى أســـتاذ اللغة العربية فى جامعة كمبردج على المساعدات القيمة • ولا سيما تلك التى قدمها الى الاخير لايضـــاح بعض النقاط الغامضة فى العربية التى كانت خافية على •

---

(١) تيتوس ليفى (من ٥٩ قبل الميلاد الى ١٧ بعد الميلاد) مؤرخ رومانى مشهور ولد فى بادوا من أسرة طيبة ودرس دراسة عالية متخصصا فى أدب الاغريق والمنطق والفلسفة • كان من مؤيدى الحزب الجمهورى اثناء الحرب الاهلية ورفض التملق للامبراطور أوغسطس على الرغم من المحاولات التى بذلها هذا لاجتذابه متنبئا له بسقوط الامبراطورية الرومانية مات فى مزرعته فى اكتيوم • أشهر كتبه التاريخ المعروف باسمه والذى اعتمده مكيافلى فى كتابه «مطارحاته» التى قمت بتعريبها ولا تعتبر حقائقه التاريخية صادقة دائما على الرغم من وفرة المصادر التى اعتمدها • (المعرب)



الجزيرة العربية
المحيط الهندي
البحر الاسود
الاسكندرية
دمشق
افريقية
الخزر
فارس
امبراطوريتا الروم والفرس
في عام ٦٣٠



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجـــاهليّـة

« وقد اغضى الله عن أزمنة هـذا الجهل فيبشر الآن جميع النـــاس فى كل مكان أن يتوبوا • لانه قد عين يوما فيه يدين العالم بالعدل » •

أعمال الرسل ـ الفصل السابع عشر ـ الآية الثلاثون

***

« علينا لكى ندرك طبيعة ما أحدثه محمـــد من تبدلات ، وطبيعة نتائجها ، أن نفهم تفهما كاملا حقيقة الاوضاع التى وجدها قائمة عند ظهوره فى بلاده العربية وفى امبراطوريتى الرومان والفرس المجاورتين لبلاده ، وهما الامبراطوريتان اللتان احتلت قوات خلفـــائه المنتصرة ثانيتهما احتلالا كاملا ، واحتلت أجزاء كبيرة من أولاهما » •

اى • اى • فريمان ـ تاريخ العرب •



كانت الجزيرة العربية تحتل في مستهل القرن السابع للميلاد ، مركزا في السياسات العالمية ، لا يختلف عن المركز الذى تحتله اليوم • وكان ما ندعوه اليوم بالشرق الاوسط ، موضع التنازع آنذاك ، كما هو اليوم بين كتلتين دوليتين ، احداهما شرقية والاخرى غربية • وكانت امبراطورية البيزنطيين الرومانية – الاغريقية تمثل كتلة الغرب ، بينما كانت فارس تمثل كتلة الشرق • وكانت أعالى دجله والفرات تمثل بصورة عامة الحدود الفاصلة بين الكتلتين • وكان العرب يسكنون على مقربة منهما الى الجنوب ، وعلى اتصال مباشر بالكتلتين • وكانت التجزئة والفرقة تسودان العرب آنذاك كما تسودانهم اليوم • وكان هؤلاء يحاولون كما يحاولون اليوم الافادة من التنافس القائم بين الدولتين الكبيرتين في حين يسعون هم الى البقاء على الحياد (١) •

ويعود النزاع بين رومة وفارس الى عدة قرون خلت • فقبل ثلاثة وخمسين عاما من ميلاد المسيح منى كراسوس القائد الرومانى – وكان على رأس عشرة فيالق رومانية – بهزيمة شنيعة فى « قرهى » ، وكانت هذه الهزيمة كارثة ، لم يخف أثرها الا بعد ثلاثة وثلاثين عاما ، عندما تمكنت دبلوماتية الامبراطور أوغسطس من اقناع ملك البارثيين باعادة النسور الرومانية التى سلبها المنتصرون وأذلوها كل الاذلال • وتمكن الجندى الامبراطور تراجان فى عام ١١٥ ميلادية ، من الزحف على رأس جيوشه الرومانية الظافرة ، عبر سهول العراق حتى وصل بها الى مياه الخليج العربى ، حيث تطلع الى مياهه ، متمنيا لو عاد الى شبابه كالاسكندر المقدونى ليواصل زحفه الموفق الى الهند •

ولكن هنا على سهول العراق المحرقة ، أصيب الامبراطور الرومانى جوليان فى السادس والعشرين من حزيران (يونيو) عام ٣٦٣ للميلاد بجراح مميتة فى معركة يائسة خاضها مع الفرس ، واضطرت رومة وهى صاغرة الى عقد صلح ، وافقت بموجبه على التنازل عن خمس مقاطعات من

---

(١) يشوه المؤلف هنا صورة الحياد العربى فيحاول أن يرسمه على شكل انتهاز يهدف الى استغلال التنافس القائم بين الشرق والغرب والافادة منه ، بينما الحقيقة أن هذا الحياد نابع من فكرة اصيلة قوامها الايمان بالسلام العالمى ، والايمان بالا شأن للعرب بهذا النزاع المذهبى والمصلحى بين الشرق والغرب • (المعرب)

امبراطوريتها الى العدو المنتصر · وما أوردته هنا ليس الا لمحة خاطفة من هذا الصراع الذى طال بين الدولتين · اذ استمرت المنافسة الحادة على أشـــدها مدة خمسة قرون ، بين حرب باردة وأخرى ساخنة ، وبين مد وجزر ، ينقلب فيهما التيار أحيانا الى مصلحة هذه ، ليعود فينقلب بعد حين الى مصلحة تلك ، وأخيرا وفى عام ٤٧٥ للميـــلاد ، سلم روميولس أوغستولوس ، آخر أباطرة الرومان فى الغرب ، مظاهر الابهة الرومانية الى البرابرة · مقدما اوروبة الغربية بأسرها فريسة لهم · وظلت منذ ذلك التاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية فى بيزنطه وحدها ، تحتمل أعباء الصراع مع الفرس ، وهو الصراع الذى اســـتنزف من رومة طيلة خمسة قرون كاملة مواردها كلها ، وهى فى عنفوان قوتها وسلطانها ·

وارتقى جوستنيان بعد نحو من خمسين عاما من زوال الامبراطورية الغربية ، عرش بيزنطه ، واشتبك وهو محجم فى حرب من تلك الحروب التى لا نهاية لها مع فارس ، ليبتاع بعد خمس سنوات من الاشتباكات غير الحاسمة فى عام ٥٣٢ للميلاد هدنة مهزوزة ، دفع ثمنهـا جزية كبيرة · وقد وقع هذا الاتفاق عن الجانب الفارسى كسرى أنوشروان ، الذى كان قبل عامين ليس الا ، قد ارتقى عرش فارس · وقد أطلق عليه الموقعون على الاتفاق اسما متحذلقا هو اسم « الصلح الازلى » ·

وسأوضح عما قريب ان كلتا الامبراطوريتين كانت قد عقدت أحلافا مع الامراء العرب المقيمين على حدودهما الجنـــوبية · ولم يستسغ الغزاة العرب الذين دأبوا على السلب والنهب ، مذاق هذا «الصلح الازلى» حتما ، ولم يمض طويل عهد حتى كان خالد بن غســـان أمير الغساسنة الحليف لبيزنطة ، يسارع الى خرقه بغزوه مملـــكة المنذر فى الحيرة التابعـــة للفرس ·

وثار كسرى لنقض العهد ، وهرع الى السلاح يجعله حكما بينه وبين أعدائه ، وزحفت جيوشه تجتاح الامبراطورية البيزنطية ، فاحتلت مدينتى حلب وحمص ونهبتهما · واضطر البيزنطيون الى شراء الصلح من جديد بعد أن تنازلوا عن جميع المدن التى احتلتها جيوش كسرى · لكن توقف العمليـــات الحربية لم يخفف الا قليـــلا من غلواء التنافس بين الشرق والغرب ، وتابع الفريقان السعي لتحقيق أطماعهما المشتركة ، بأساليب نعرفها اليوم حق المعرفة ، تضم الدســـائس وحرب الدعاية والتنافس التجارى ·

ومات كسرى أنوشروان فى عام ٥٧٩ للميـــلاد ليخلفه ولده هرمز



الحدود بين الفرس والروم في عام ٦٠٠
البحر الاسود
بيزنطه
سينوب
طرابزون
شلسيدون
امبراطورية البيزنطيين
اسيا الصغرى
باكو
تفليس
ارمينيا
نهر اراكيس
بحيرة وان
بحيرة قزوين
بامفيليا
حلب
انطاكية
ديار بكر
الرقه
قبرص
البحر المتوسط
حمص
تدمر
دمشق
قيسارية
القدس
مصر
الجزيرة العربيه
الحيرة
المدائن
العراق
الفرات
امبراطورية الفرس

الرابع ، الذى ما لبث ان خلع عن العرش فى عام ٥٩٠ ليخلفه عليه كسرى ابرويز • وثار الجيش الفارسى على الملك الغاصب الجديد ، واضطر هذا الى الفرار ناجيا بحيـــاته الى ســوريا حيث استنجد بعدوه ومنافسه الامبراطور موريس البيزنطى • وتمكن كسرى ابرويز بمساعدة الجيش البيزنطى من اســتعادة العرش ، وأصـــبح الامبراطوران حليفين لفترة قصيرة ، ساد فيها السلام العالم المعروف آنذاك •

لكن فترة الهدوء هذه لم تطل • ففى سنة ٦٠٢ ميـــلادية ، أعلن الجيش البيزنطى بدوره العصيان ، وخلع امبراطوره موريس • وسرعان ماهب كسرى أبرويز يعلن استعداده للثـأر لحليفه الامبراطور الذى كان قد نصره فى محنته المماثلة • وزحف كسرى بجيوشه على الاراضى البيزنطية التى اجتاحها ونهبها ودمرها ، دون أن يلقى مقاومة وظلت جيوش فارس تحتل مدة خمسة وعشرين عاما ، امارات مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى التابعة لبيزنطة • وكان العصاة قد ذبحوا الامبراطور موريس بعد الفتنة • وقدر لخليفته «فوقا» ، وهو ضابط فظ كان معروفا بادمانه شرب الخمر ، أن ينزل بســمعة الامبراطورية عن طريق عهره وفجوره وغلظته الى الحضيض •

وأخيرا أعلن هرقل نجل الحاكم البيزنطى فى افريقيا الثورة فى عام ٦١٠ ، وراح يبحر على رأس أسطول ضخم يحمل جيشا كبيرا الى العاصمة ليحتلها • وجر «فوقا» الشرير من العرش جرا ، ليلقى العذاب والموت ، وأعلن هرقل نفسه امبراطورا ، هلل الشعب له ، وصفق معربا عن فرحه بانقاذه من الطاغية •

وكان كسرى ابرويز ، قد تظاهر بالرغبة فى الثأر لمصرع موريس صاحب الفضل عليه ، متذرعا بهذه الحجة لاحتلال ما احتله من أراضى الامبراطورية البيزنطية ، وها هو ذا هرقل يحقق له الآن هــذه الغاية • وسرعان ما حسرت الجهود المضاعفة التى بذلها ملك الفرس الآن لتشديد قبضته على الاراضى البيزنطية التى يحتلها ، كذب المبررات التى تذرع بها لتغطية مطامحه العسكرية واخفائها اذ راح فى عام ٦١٣ للميلاد ، وقبل أن يتمــكن هرقل من اعادة الامن الى ربوع الامبراطورية الذاهلة ، يحتــل دمشـــق ليتبعها فى عام ٦١٤ بالقدس ، وليحمــل منهـا الى بلاده خشبة الصليب المقدسة التى شهدت صلب المسيح • وغزا كسرى فى عام ٦١٦ مصر وآسيا الصغرى فى وقت واحد ووصلت جيوشه الى مقربة من أسوار بيزنطة •

(وبينما كانت هذه الأحداث العظيمة ، تهز أركان أكبر امبراطوريتين

فى العالم ، كان هناك طفل يتيم ، يدب على معارج الحياة والنمو فى بلدة صحراوية نائية من بلاد الجزيرة العربية . ففى العشرين من آب (اغسطس) عام ٥٧٠ للميلاد ولد محمد فى مكة . وكان الامبراطور جوستنيان قد مات قبل ولادته بخمس سنوات ، بينما قدر لكسرى أنوشروان ان يعيش حتى كان محمد قد بلغ التاسعة من عمره . وفى عام ٦١٢ طلع محمد النبى العربى برسالته ، فى الوقت الذى كانت فيه جيوش فارس تحتل عدة مقاطعات بيزنطية .

الحرب الباردة :

وبينما كان التنافس مستمرا على هذا النحو بين بيزنطة وفارس، ليتخذ شكل الحرب والسلام فترات متراوحة على حدودهما ، كانت مظاهر البغضاء التى لا تنتهى بينهما ، تمتد على شكل حرب باردة الى الجنوب ، باتجاه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا . وقد اتخذ التنافس بينهما هنا شكل سباق تجارى من ناحية ، وشكل صراع على مناطق النفوذ تتخلله بعض الحروب الموضعية الصغيرة والمعاهدات السلمية من ناحية اخرى .

وكانت أهمية الجزيرة العربية ونفوذها آنذاك مستمدين كما هما اليوم من موقعها الجغرافى كفاصل بين المحيط الهندى وجنوب آسيا وبين البحر الابيض المتوسط وأوروبا . وكانت التجارة مع الشرق لا تقل فى أهميتها بالنسبة الى الامبراطورية البيزنطية فى القرنين السادس والسابع عن أهميتها اليوم وفى القرن العشرين بالنسبة الى أوروبا الغربية . وكانت هذه التجارة تسير هينة سهلة ، أو صعبة تقوم أمامها العوائق تبعا للدولة التى تسيطر بنفوذها على الجزيرة العربية والبحر الاحمر .

وكان المرشد البحرى الاغريقى هيبالوس قد اكتشف منذ عام ٤٥ بعد الميلاد سر الرياح الموسمية ، وسارت التجارة منذ ذلك التاريخ وباستمرار نشطة بين الهند وبين الامبراطورية الرومانية ، اذ اخذت السفن تبحر مباشرة من بومباى أو من سواحل الهند الجنوبية . ولقد روى بلينى (١) فى عام ٧٧ بعد الميلاد ، أن باخرة أبحرت الى الهند

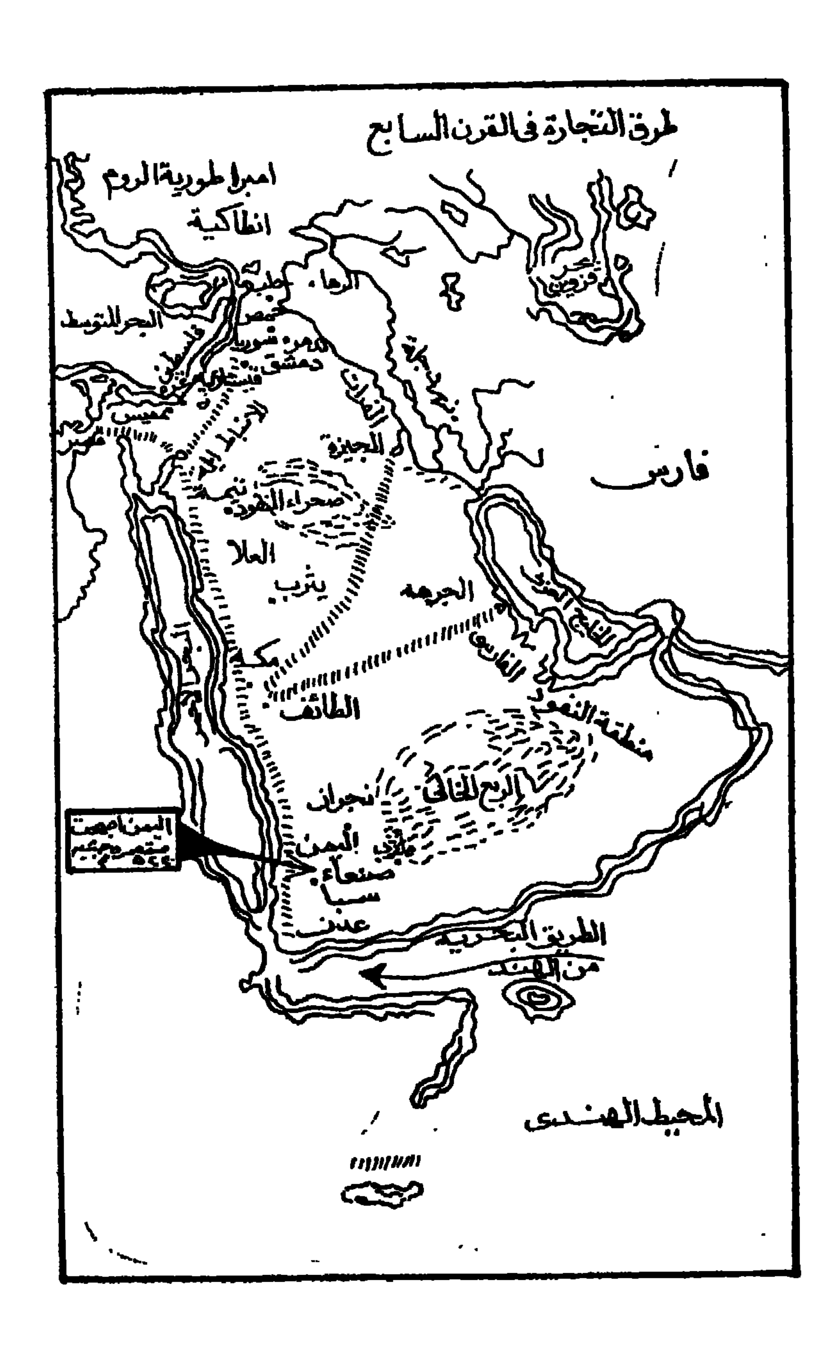
---

(١) غالوس بينيوس سيكوندوس (بلينى الكبير ٢٣ قم — ٧٩ ب . م) كاتب روماني في التاريخ الطبيعى . عمل في أماكن عدة في افريقيا والمانيا واليونان وتابع دراساته الى آخر أيام حياته . واشتهر امره بانه أعظم علماء عصره . يعتبر مؤلفه «التاريخ الطبيعى» من أعظم الكتب القديمة في الموضوع . (المعرب)

فوصلتها فى مدة لا يكاد يصدقها العقل وهى خمسة عشر يوما . ولكن معظم البحارة ، كانوا يتجنبون الملاحة فى البحر الأحمر ، لأن مياهه كانت فى الغالب تحت سيطرة القرصان ، ولأن سواحله كانت تفتقر الى الموانى الصالحة ، وعسيرة على الملاحة بسبب الصخور المرجانية المنتشرة فيها . ولهذا كانت البواخر كلها أو معظمها تفرغ شحناتها التجارية فى عدن أو على الساحل اليمنى ، لتفيد فى عودتها السريعة الى الهند من هبوب الرياح الموسمية فى المحيط الهندى .

وكانت قوافل الابل تحمل هذه الشحنات التجارية من طرف الجزيرة الجنوبية الى ميناء أيلة (العقبة) ، فى شمال البحر الاحمر ، على طول الساحل الشرقى لهذا البحر . ومن أيلة كانت القوافل تتفرع فبعضها يتجه الى دمشق شمالا ، وبعضها الآخر الى غزه ومصر غربا ، ومنها تنتشر السلع الى عالم البحر الابيض المتوسط ، وقد أدت تجارة الشرق هذه منذ أقدم العصور الى قيام ممالك متحضرة فى جنوب الجزيرة العربية والى ازدهارها ، كممالك المعينيين والسبئيين والحميريين . وتحدثنا التوراة عن ملكة سبأ التى زارت سليمان و « أسرت اليه بكل ما فى فؤادها » . وكانت التهم بتولد الغرام اللاهب بين الملكين قد انتشرت وذاع أمرها . لكن السبب فى الزيارة ، كما ارى ، لم يكن الغرام ، وانما التجارة ؛ لأن سليمان كان قد وسع ملكه فشمل شرق الاردن من العقبة الى دمشق ، وبات فى وضع يمكنه من التدخل فى طرق قوافل سبأ التجارية . ولا ريب فى أن سبب رحلة الملكة يعود الى رغبتها فى الحصول على وعد من سليمان بعدم اعتراض طريق هذه القوافل .

وقبل قرنين من ميلاد السيد المسيح ، كانت هناك قبيلة عربية تدعى الأنباط يبدو أنها عملت أيضا فى هذه التجارة المربحة . ولا ريب فى أن السبئيين كانوا قد بدءوا فى الانحلال آنذاك ، أو أنهم شرعوا يصلون بالقوافل الى موقعى « العلا » و « تيمة » فى الحجاز ، حيث يسلمون البضائع التى يحملونها الى تجار الشمال . وقد وصلت دولة الأنباط بعاصمتها الوردية الحمراء والاسطورية فى البتراء الواقعة فى الاردن الحديث قمة ازدهارها فى القرن الاول للميلاد ، وفرض ملوكها سلطانهم شمالا حتى حدود دمشق . ويحدثنا بولس الرسول فى الآية الثلاثين من الفصل الحادى عشر من رسالته الثانية الى أهل كورنث ، كيف « كان الحاكم بدمشق تحت أمرة ارتاس الملك يحرس مدينة الدمشقيين ليقبض على » مما أدى الى ان يدلى الرسول « من كوة فى السور فى


طرق التجارة في القرن السابع
امبراطورية الروم
انطاكية
الرها
حمص
البحر المتوسط
دمشق
الفرات
دجلة
بحر قزوين
فارس
الحجر
صحراء النفود
العلا
يثرب
الجرهه
مكة
الطائف
منطقة النفود
الربع الخالي
نجران
اليمن
صنعاء
سبا
عدن
الطريق البحرية من الهند
المحيط الهندي

زنبيـــل لينجو من يديه » . ولم يكن ارتاس الا الاســـم الاغريقى « للحارث » ملك الانباط ، واحتل الامبراطور الرومانى تراجان فى عام (١٠٦) للميلاد البتراء عاصمة الأنبـاط ، بعد أن حطم مملكتها ، وحول أرضها (شرق الاردن الحديث) الى امارة العـرب الرومانية وأدت هذه الكارثة التى حلت بالأنباط ، الى اختفاء تجارهم وقوافلهم من الميدان .

وشيد ملوك العرب فى الجنوب فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد امبراطورية عسكرية ، وراح الملك آسعد أبو القرب يغزو العـراق فى عام (٢٠٦) بعد الميلاد بجيش لجب ، هزم به الفرس متوغلا فى مملكتهم . وبالطبع لم يكن هذا ممكنا ، لولا أن فارس كانت فى ذلك الحين تمزقها الحروب الأهلية (١) . ومع ذلك فالواضح أن هذا الملك العربى أصبح بلا منازع الحاكم المطلق للجزيرة العربية .

ويبدو أن جميع القبائل العربية قد خضـــعت لسلطان ملوك الجنوب فى اليمن وظلت خاضعة له حتى عام (٥٢٢) للميلاد ، عندما غزا الاحباش أرض اليمن كما سنرى بعد قليل . ويظهر من هذا كله ، ان العرب لقرون طويلة قبل محمد ، شـــهدوا دولا عدة ، لهـا شأنهـا فى القوة والحضارة ، وان لم تصل الى نفس المنزلة التى وصلت اليها فارس ورومه .

ومن المعتقد أن سد مأرب العظيم الذى كان يؤمن الرى لقسم كبير من الأراضى فى جنوب الجزيرة العربية « قد انهار فى عام (٤٥٠) او حوالى هذا التاريخ . وأدى انهيار السد الى أزمات اقتصـــادية ضخمة ، ممـا حمل عددا من القبائل الى الهجرة شـمالا وأسفر عن نقل العاصمة من مأرب الى صنعاء ، عاصمة اليمن اليوم . واختفى اسم السبئيين منذ ذلك التاريخ ليحل محله اسم الحميريين .

---

(١) لا ادرى كيف يسمح جلوب لنفســه وهو يزعم انه يضع تاريخـا للفتوحـات الاسلامية ان يطلع بمثل هذا الحكم العام الذى لايقيم عليه الدليل أو البرهان . فالمعروف ان العرب كانوا من خيرة المحاربين ، وقد هزموا الفرس في الجاهلية أكثر من مرة ولعـل معركة ذى قار التى انتصر فيها بنو شيبان على الفرس خير دليل على مانقول واذا كانت قبيلة واحدة انضم اليها بعض الاحلاف من القبائل الاخرى المجاورة قد تمكنت من هـزم الفرس في « ذى قار » أيصعب عليهم وكانت الجزيرة العربية كلها متحدة في ظل ملك اليمن كما يعترف المؤلف ، أن يهزموا الفرس ؟ نتيجة لا ريب في أن جلوب لم يشأ أن يضعها نصب عينيه . (المعرب)

وعلى كل حال فانه مهما كانت الأوضاع الاقتصادية أو الأوضاع السياسية الداخلية التى سادت مملكة الجنوب العربى ، فان هذه المملكة لعبت دورا بارزا فى الحرب الباردة بين البيزنطيين والفرس . فلقد كانت المستودع الرئيسى للتجارة الوافدة من الشرق ، وكانت المستقر الذى تصل اليه السفن القادمة من الهند .

وكانت اليهودية والمسيحية آنذاك تسيران فى طريق الانتشار . فلقد ضمت نجران فى الجنوب العربى مجتمعا مسيحيا مزدهرا له كاتدرائيته وله مطرانه . وتقول الأساطير ان ذا نواس ملك الحميريين فى صنعاء ، تحول الى اليهودية فى مطلع القرن السادس . وراح مدفوعا بالحماس الدينى المألوف عند من يتحول الى دين جديد يذبح نصارى نجران . ويقال ان أحد هؤلاء الضحايا تمكن من الفرار والوصول الى بيزنطة ، حاملا معه نسخة محروقة من الانجيل ، وناشد امبراطور البيزنطيين التدخل لحماية اخوانه النصارى . ولم يكن فى وسع الامبراطور أن يبعث بحملة عسكرية أو بحرية الى الجنوب العربى ، فراح يسلمه رسالة الى امير الحبشة المسيحى ، يحثه فيها على أداء واجبه فى انقاذ بنى دينه .

وكانت الحبشة تطمع فى الجزيرة العربية وتتشهاها منذ أمد طويل . ويحدثنا التاريخ عن محاولات بدأتها منذ القرن الرابع لفرض نفوذها وسلطانها على هذه البلاد وكان بينها اقامة أسطول بحرى ، حاول السيطرة على مضيق باب المندب . وتشجع الاحباش الآن برسالة الامبراطور . واعتمدوا على ما زودهم به من ستمائة مركب لنقل الجنود (١) ، فراحوا يغزون الجنوب العربى فى عام (٥٢٢) للميلاد وخلعوا ذا نواس عن عرشه ليقيموا بدله حكما حبشيا مباشرا فى البلاد .

وهكذا ينسب المؤرخون تدخل الاحباش فى البلاد العربية الى

---

(١) لايحاول المؤلف هنا ان يشرح لنا كيف تمكن امبراطور بيزنطه من ايصال هذه المراكب الستمائة الى أمير الحبشة ، واكتفى بأن روى الرواية التى لم يبتكرها وانما جاءت في بعض كتب التاريخ دون أن يناقشها . مع العلم انه لم يكن ثمة سبيل للاتصال البحرى بين بيزنطه والحبشة . وهناك من يقول انها نقلت عن طريق النيل ولكن وجود منطقة الشلالات تستبعد هذا الاحتمال . وهناك من يقول انها نقلت من غزة الى أيله (خليج العقبة) على ظهور الجمال ثم مخرت في البحر ولكنها فرضية أخرى مستبعدة ولعل هذه الهفوة من المؤلف تبين الحقيقة العلمية للكتاب . (المعرب)

الدوافع الدينية ولكننى لا أستبعد على أى حال أن تكون سياسات القوة وتوازن القوى ، قد لعبت دورا فى هذا التدخل . اذ المعروف أن الفرس كانوا يحاولون نشر نفوذهم جنوبا على الساحل العربى فى منطقة الخليج وعمان . وكانت الدولتان الشرقية والغربية تحاولان فى الحقيقة تمهيد الطريق أمامهما للسيطرة على طرق التجارة الشرقية . وكانت الحبشة النصرانية حليفة لبيزنطة ، واذا ما أصبح الأحباش مسيطرين سيطرة وطيدة الاقدام على الجنوب العربى ، فان التجارة بين الهند وبيزنطة تصبح فى مأمن . ولكن هذه التقلبات السياسية قد أدت الى افتقار كبار التجار الحميريين . ولهذا فاننا نرى تجارة القوافل تنتقل فى هذه الآونة الى أيدى تجار مكة ؛ وهى مدينة كانت منذ أمد طويل محطة استراحة على الطريق التجارى الرئيسى .

* * *

الحلفاء العرب :

كانت هذه هى الصراعات العسكرية والتجارية والسياسية التى تدور فى الجنوب العربى فى القرن الذى شهد مولد محمد . أما فى الشمال فقد كان العرب فى غضون ذلك يلعبون دورا أكثر نشاطا وحيوية فى الحربين الباردة والساخنة بين بيزنطة وفارس .

تتألف الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية من شبه جزيرة تقوم الى الجنوب من خط يمتد من رأس الخليج العربى الى ايلة (العقبة) ومن مثلث يكون هذا الخط قاعدته وتقوم مدينة حلب فى رأسه . وكل هذه المنطقة صحراوية الطبيعة . ويتألف المثلث الشمالى من سهول فسيحة دوارة ، أما القسم الجنوبى فيتألف من هضبة عظيمة تمتد من قمم جبال الحجاز لتأخذ فى الانحدار بصورة متدرجة حتى تصل الخليج العربى . وتقوم داخل هذه المنطقة صحراوان من الكثبان الرملية صغراهما تسمى صحراء النفود فى الشمال وكبراهما تسمى الربع الخالى فى الجنوب . وتنتشر فى شبه الجزيرة الواسعة هذه ، الواحات والمدن الصغيرة والقرى ، ولكن القسم الأكبر منها يتألف من مراع فسيحة تجول فيها القبائل البدوية الرحل (١) .

وكانت الابل هى الوسيلة الوحيدة للمواصلات عبر الصحراء .

---

(١) اطلقت معان كثيرة على اسم البدو . أما فى هذا الكتاب فيعنى تعبير البدو قبائل البادية الرحل التى تعيش على رعاية الابل . (المعرب)

وكان العرب محتكرى هذا الحيوان النافع . وهكذا لم يكن فى وسع البيزنطيين أو جيوش الفرس أن تجوز الصحراء وتعبرها ، أو أن تجرى أى اتصال بينهما الا الى الشمال الشرقى من حلب حيث تنتهى حدود الصحراء . وهنا كانت تقوم حدود ثابتة بين الفريقين تمتد من نهر الفرات الى القفقاس . وقد يكون البحر عقبة أمام أولئك الذين لا يملكون السفن . ولكنه بالنسبة الى الشعوب التى ألفت الملاحة ، طريق لتجارة والحرب فى آن واحد . وكان العرب على ظهور ابلهم ، ملاحى هذه الصحراء ، بينما كان الفرس والبيزنطيون من رجال البر لا يملكون السفن .

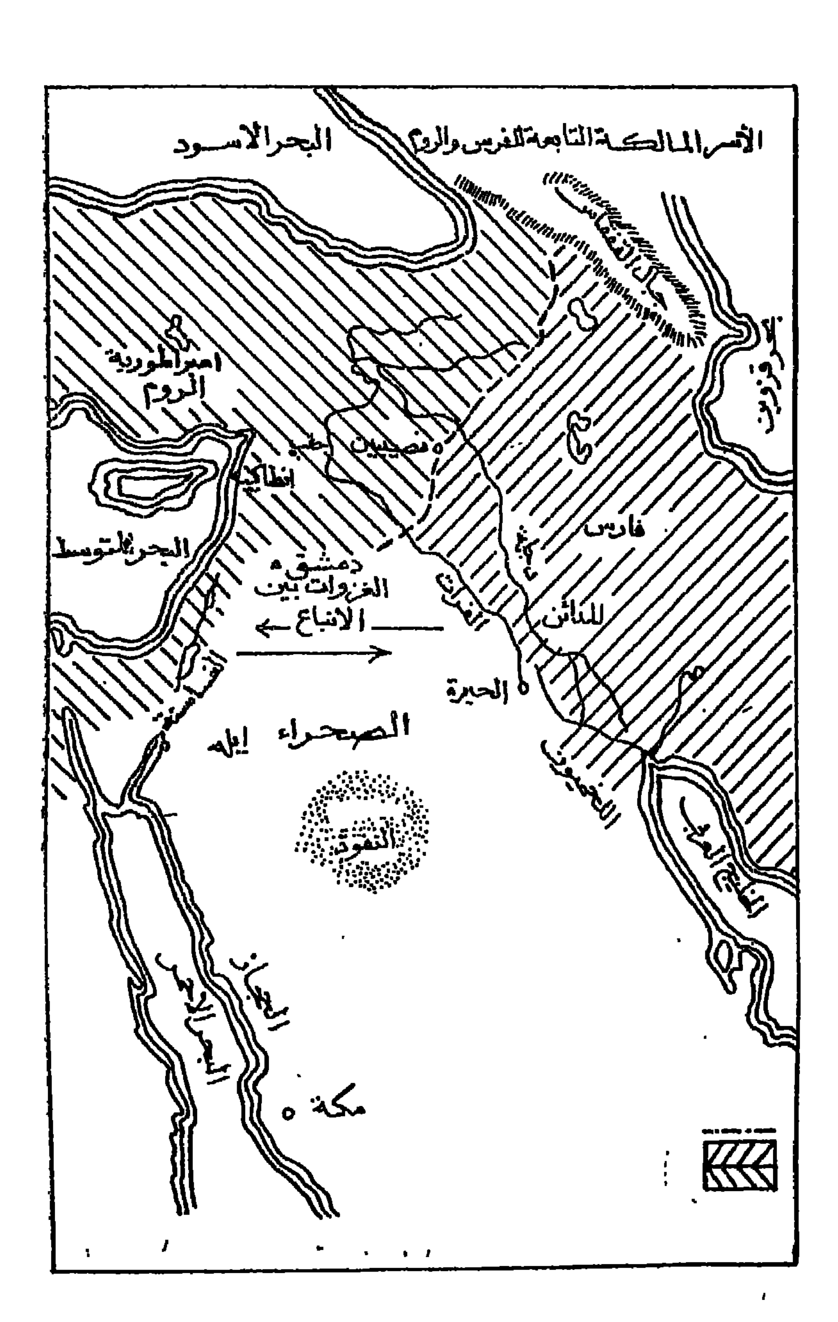
وانتشرت على الحدود الفارسية ــ البيزنطية الممتدة من الفرات الى القفقاس سلسلة ضخمة من القلاع ، ولكن كلتا الامبراطوريتين كانت مكشوفة من ناحية الجزيرة العربية ، الاولى على خط الفرات الذى يضم ما يسمى اليوم بالعراق والثانية على خط الحدود من دمشق الى أيلة (العقبة الحديثة) .

وقد احتفظت الدولتان بيزنطة وفارس بدولتين عربيتين تابعتين لهما لحماية جناحيهما الجنوبيين المكشوفين . ففى الغرب كان ملوك الغساسنة حلفاء للامبراطور البيزنطى ، بينما كان ملوك اللخميين العرب على الفرات يتولون حماية الجناح الجنوبى لامبراطورية الفرس . وكان أمراء الأسرتين العربيتين يحتلون منزلة رفيعة فى الامبراطوريتين اللتين يتبعونهما ، فكان الامير الغسانى يحتل منزلة الشريف الرومانى فى بلاط بيزنطة ، وكان الحاكم اللخمى يحتل منزلة الامير الاقطاعى فى ظل العرش الفارسى (١) .

وقد شغلت الاسرتان العربيتان المتنافستان نفسيهما فى حروب صحراوية دائمة ، وكانتا تتبادلان الغزوات . وقد سبق لنا ان رأينا أن « السلم الأزلى » بين جوستنيان وكسرى انوشروان ، قد انتهى قبل أوانه فى عام ٥٣٢ ميلادية اثر هجوم شنه الغساسنة على منافسيهم اللخميين .

---

(١) اعتقد أن جلوب وهو يكتب هذه الفقرة ، كان يرى أمامه صورة الملوك والامراء العرب ، الذين أقامهم الاستعمار البريطانى فى المنطقة أو رماهم فى القرن العشرين لخدمة اهدافه . وكان يرى فى هؤلاء الملوك والامراء صورة مجسدة لأمراء لخم وغسان . حقا أن التاريخ يعيد نفسه . وكما تحرر العرب وانتهى عهد الاتباع من لخم وغسان ، فسيتحررون عما قريب وينتهى عهد الاتباع من الملوك والامراء . (المعرب)


البحر الأسود
الأسر المالكة التابعة للفرس والروم
امبراطورية الروم
نصيبين
انطاكية
البحر المتوسط
دمشق
الغزوات بين
الاتباع
فارس
المدائن
الفرات
الحيرة
الصحراء
ايله
النفود
مكة

وبلغت أسرة اللخميين أوج قوتها فى أواسط القرن السادس أيام المنذر الثانى ، وعندما عقد « الصلح الازلى » بين بيزنطة وفارس فى عام (٥٣٢) ميلادية دفع الامبراطور جوستنيان التعويضات النقدية المباشرة الى المنذر بالاضافة الى ما دفعه الى كسرى . ولكن المنذر ما لبث أن وقع أسيرا فى أيدى الرومان ، الذين أبعدوه الى صقلية حيث لقى حتفه فيها . وكان قد خلفه على عرش الحيرة النعمان الخامس .

وسبق لنا أن ذكرنا أن الاحباش قضوا على دولة الحميريين فى الجنوب العربى فى عام ٥٢٢ ميلادية بتحريض من الامبراطور البيزنطى . ولكن عرب اليمن مالبثوا بعد خمسين عاما من حكم الاحباش أن ملوا هذا الحكم . وقام وفد من الحميريين فى عام ٥٧٣ أو ٥٧٤ ، بزيارة الحيرة عاصمة اللخميين ليشكو الى النعمان من ظلم الاحباش . واستصحب النعمان الوفد لمقابلة كسرى . ولم يتردد الفرس فى استغلال الفرصة ، لاكتساب الشهرة عن طريق الاشتراك فى « حرب للتحرير » (١) وأوفدوا قوة الى الجنوب العربى تولت طرد الاحباش . واختار كسرى بعد فترة من الاضطراب نائبا له فى الجنوب العربى فى عام ٥٩٧ ، وأصبح الجنوب الذى سأطلق عليه منذ الآن اسم اليمن مستعمرة فارسية . وكان محمد النبى المنتظر ، قد بلغ فى ذلك الحين السابعة والعشرين من عمره .

ووقع نزاع فى عام ٦٠٥ بين النعمان وكسرى ، الذى قضى على مملكة اللخميين ولكن عرب الفرات والخليج ظلوا منذ ذلك التاريخ فى حالة تشبه العصيان على الفرس حتى جاء المسلمون فى الفتح الاسلامى (٢) وأدت هذه الأوضاع الى ضعف النفوذ الفارسى الذى كان

---

(١) أختلف مع المؤلف في تحديد الدافع الى ارسال قوة فارسية الى اليمن لطرد الاحباش منها . فلم تكن الغاية مطلقا الاشتراك في حرب للتحرير ، وانما كانت ، اخراج الاحباش وهم حلفاء الروم من اليمن التى تبدأ منها طرق التجارة بين الشرق والغرب ، واضعاف نفوذ الروم ، أعداء الفرس في كل مكان .

(٢) تجاهل المؤلف هنا كل التجاهل معركة ذى قار ، مع أن تواريخ العرب كلها تجمع على أنها من أبرز أيام العرب في الجاهلية ، اذ انتصرت قوات العرب نصرا مبينا على الفرس . ولا ريب في أن هذا النصر ، أضعف شوكة الفرس في نظر العرب ، وازال منهم هالة القوة ، مما شجع العرب بعد نحو من أربعين عاما على مهاجمة امبراطورية الفرس وازالتها من عالم الوجود . يضاف الى هذا أن المؤلف وقع في خطأ تاريخى ضخم . فهو يصور أن مملكة الحيرة قد أزيلت من الوجود بعد نزاع كسرى والنعمان ولم تعد أبدا .

قد بلغ فى مرحلة من المراحل درجة الحكم الاستعمارى فى الخليج وعمان واليمن ، وقامت القبائل العربية الثائرة فى جنوب الفرات ، بعد أن حرمت من حكامها العرب ، بقطع طرق المواصلات بين فارس وبين مستعمراتها فى الجنوب العربى (١) .

وقد ألف العرب بعد ظهور الاسلام ، أن يطلقوا على الفترة التى سبقت رسالة محمد اسم الجاهلية ؛ ولا يمكن تطبيق هذا التعبير تطبيقا عادلا الا على الصعيد الدينى • فلقد كان بعض العرب قد تثقفوا على صعيد الثقافة والسياسة ، قبل ظهور الاسلام بأمد طويل ، وكانوا قادرين على أداء دورهم فى حقول الدبلوماتية والسلام والحرب مع الدول العظمى فى أيامهم (٢) •

* * *

العوامل الدينية :

ووقفت الامبراطورية الرومانية لأول مرة فى عام ٣٣٠ ميلادية ، موقف التسامح ، رسميا من المسيحية ، التى باتت فى عام ٣٧٥ الدين الرسمى للدولة . وبدأ فى هذه الفترة بالضبط تحول العرب على حدود سوريا الصحراوية الى النصرانية . واعترف الامبراطور جوستنيان فى عام ٥٢٩ بالحارث الرابع الغسانى أميرا قبليا برتبة شريف رومانى ، مع العلم أن نحوا من مائتى عام كانت قد انقضت على ظهور الاسرة الغسانية ، وكان الغساسنة وجميع عرب الحدود السورية قد تحولوا قبل ذلك التاريخ الى النصرانية •

— بينما الحقيقة أن الزوال كان مؤقتا وان دولة اللخميين عادت الى الوجود بعد الصلح بينهم وبين الفرس وكانت جيوش الفتح الاسلامى هى التى قضت على دولة اللخميين القضاء النهائى . (المعرب)

(١) ليس ثمة من دليل تاريخى مطلقا يؤيد وجهة نظر المؤلف في أن الفرس قد استعمروا الجنوب العربى . وكل مافي الامر انه على أثر المساعدة التى تلقاها الحميريون من الفرس لطرد الاحباش من بلادهم ، حاول الفرس استعمار اليمن وحكمه ، ولكن أيامهم فيه كانت معدودة . ولذا لايمكن القول بأن الجنوب العربى كان في وقت من الاوقات مستعمرة فارسية . (المعرب)

(٢) يبدو أن المؤلف لم يفهم تمام الفهم حقيقة مايعنيه التعبير العربى عن الجاهلية. فالجهل لايقتصر على الناحية الدينية مطلقا وانما يتعداها الى النواحى السياسية والاجتماعية . ولقد جاءالاسلام فأنارالطريق للعرب لافي شئون دينهم فحسب ، بل فيشئون دنياهم أيضا ، ومن هنا يتبين لنا مايعنيه بعض المفكرين العرب ، عندما يصفون العصر الذى سبق الوثبة العربية المعاصرة ، بالجاهلية الثانية . (المعرب)

ومزقت الخلافات والانشقاقات فى القرنين الخامس والسادس ، وما أعقبهما من قرون ، الكنيسة الارثوذكســـية البيزنطية • وبينما كانت الخلافات السابقة منحصرة فى محاولة تحديد طبيعة الثـــالوث المقدس ، أخذت الهرطقات الجديدة تتركز على تحليل العقيدة المتعلقة بتجسد الاقنوم الثانى وعلى التعبير عنهـــا فى الإصطلاحات الفنية المألوفة لدى الفلسفة الاغريقية • ولا ريب فى أن المنافســـات الحـــادة التى استفزتها هذه المناقشات التى أولع الاغريق بعقولهم الذكية والماكرة بهـــا ، كانت من الاسباب الرئيسية التى أدت الى هذه السرعة الهائلة التى تمت بهـــا الفتوحات العربية(١) •

وراح القديس نسطور يبشر فى عام (٤٢٠) للميلاد برأى جديد فى موضوع تجسيد الاقنوم الثانى ، ولكن المجمع المقدس الذى عقد فى مدينة افيزوس فى عام ٤٣١ استنكر هـــذا الرأى وحمل عليه أشد الحملات • وتلت ذلك حملة اضطهاد رهيبة ، واضطر عدد كبير من النســـاطرة الى اللجـــوء الى فارس ، حيث حظوا برعاية الشاهنشاه وكريم ضيافته • وبالطبع كان هؤلاء النساطرة أكثر ثقـــافة من الفرس ولا سيما فى علم الطب وارتقى بعضهم أعلى المناصب فى بلاط الشاه الذى تظاهر بالعطف عليهم نظرا لما عانوه من احن وظلم على يد غريمه امبراطور بيزنطه • وكان النساطرة من أنشط المبشرين بالنصرانية وقد تمكنوا من تحويل كثيرين من عرب الفرات والخليج الى المسيحية •

ولم يكد النساطرة يطردون من الامبراطورية ، حتى ظهرت فيهـــا هرطقة جديدة فقد خرج فى بيزنطة راهب يدعى يوتيشر ، أخـذ يبشر بأن العنصر البشرى فى المسيح يتألف من الجسد بعقله وروحه ، ولكن عندما حلت فيه الروح القدس ، امتصت الروح البشرية منه ليصبح جزءا منها • وأعلن المجمع المقدس الذى عقد فى كلدونيا فى عـــام ٤٥١ تحريم تعاليم هذا الراهب • وقد أطلق على الهرطقة الجديدة اسم « الطبيعـــة الواحدة » ومعناه ان للمسيح طبيعة واحدة ، وهى الطبيعة الالهية • وتؤمن الكنيسة الارثوذكسية ان هذه الطبيعة جماع من الطبيعتين الالهية والانســـانية •

---

(١) قد يكون هذا السبب الذى ذكره المؤلف ، من الاسباب الثانوية لسرعة الفتح الاسلامى ولكنه ليس من الاسباب الرئيسية كما يدعى المؤلف ، مدفوعا بالرغبة الواضحة في الانتقاص من شان العبقرية العسكرية العربية . ومظهرا أن سبب هذه السرعة ، هو مجرد انقسام الرومان داخليا . ولو كان هذا السبب رئيسيا كما يدعى جلوب ، لتمكن الفرس مثلا من تحطيم الامبراطورية الرومانية في الحقب الاخيرة التى سبقت الاسـلام ، لكن غرض المؤلف واضح . (المعرب)

ويبدو ان جميع أتباع الكنيسة فى مصر قد تحولوا الى المذهب الجديد كما تحول اليه أيضا غالبية الناس فى فلسطين وسوريا ولاسيما من الغساسنة وأفراد القبائل البدوية • وشرع جهاز الحكم فى الامبراطورية البيزنطية ، يعمل بشدة وعنف على اضطهاد أتباع المذهب الجديد الذى كانوا حوالى عام (٥٤٠) ميلادية فى حالة ثورة تقريبا فى كل مكان •

وهكذا فى الوقت الذى كان فيه كسرى الفرس قد أثار عداء حلفائه من العرب وسخطهم ، عن طريق اضطهاد النعمان ملك الحيرة كان الامبراطور البيزنطى أيضا قد دفع بالغساسنة الى موقف المعارضة عن طريق اضطهادهم كاتباع مذهب « الطبيعة الواحدة » • واتبعت الكنيسة الحبشية أيضا نفس المذهب ، كما اتبعته على الغالب كنيسة نجران التى أشرنا اليها فيما سبق • واعتقل أمير الغساسنة فى عام ٥٨١ ، واقتيد أسيرا الى القسطنطينة • وشق أولاده عصا الطاعة ، ولكن جيوش الروم تمكنت من اخضاع ثورتهم ، وسحب الرومان اعترافهم بالاسرة الغسانية الحاكمة ، كما منعوا عنها الجرايات والمساعدات • وظل عرب الحدود البيزنطية منذ ذلك التاريخ فى حالة عصيان وشبه ثورة ضد القسطنطينية ، تماما كما كانت حالة اخوانهم عرب الفرات ضد الفرس • وكان محمد نبى المستقبل قد بلغ الحادية عشرة من عمره ، عندما تحول العرب من حماة الحدود البيزنطية الى موقف العداء •

وعلى الرغم من الجوار الذى كان قائما بين الاغريق والعرب فى سوريا الا أن فجوة هائلة كانت تفصل بين العقليتين • ولقد كان الاغريق دائما من الفلاسفة ورجال الخيال وأصحاب النظريات الفكرية • أما العرب فكانوا على النقيض من ذلك رجالا عمليين لا يعنى التفكير الادراكى لهم شيئا كبيرا • وكانت عبقريتهم تتمثل فى الفعل لا فى القول وفى العمل لا فى الخيال • وبينما كان الاغريق غارقين فى محاولاتهم تعريف طبيعة الله ، كان العرب أكثر اهتماما بمعرفة مايريد الله منهم أن يفعلوا • وكانت اليهودية والمسيحية فى الواقع ديانتين عمليتين فى البداية ، تعنيان بالطريقة التى يطيع فيها الانسان ارادة الله ، وذلك لان كلتا الديانتين نشأت بين القبائل السامية والفلاحين الذين يمتون الى أصل واحد مع العرب • ولكن المسيحية لم تصل الى العرب عن طريق اليهود الذين طردهم تيتوس الرومانى من القدس فى عام ٧٠ للميلاد (١) ، وانما وصلتهم بعد

---

(١) الصواب عام ٧٩ ميلادية • وهى السنة التى يؤرخ اليهود فيها خراب هيكل سليمان •
(المعرب)

عدة قرون متسللة اليهـــــم عن طريق خبث الاغريق ، ويراعتهم العقلية ولا ريب في أن نصرانية الاناجيل ، كانت تستهوى العرب كما استهوت صيادى بحيرة طبريا ، ولكن النصرانيـــة التى وصلت اليهم فى القرنين الخامس والسادس لم تكن تلك العقيدة البسيطة التى بشر بها المسيح على الجبل • أما الاسلام فكان من الناحية الأخرى ، عقيدة واضحة ومستقيمة فى عمليتها ، ومتحررة من كل ما فى الفلسفات من خبث ودهاء • فلا بدع ان استهوت هذه العقيدة عقول العرب البسطاء ، الذين رأوا فيها أساسا مرضيا للحياة ، يفوق تلك العقائد المتزمته والمماحكة التى نشرها الاغريق. وكثيرا ما أطلق على الاسلام تعبير « هرطقة مسيحية » ولكن الهرطقـات تكون دائما ردود فعل مغرقة فى العنف لسوء التصرف فى الاصل (١) • ومن هنا قد يكون الاسلام احتجاجا عنيفا ضد الحقيقة الواقعة • وهى ان الرسالة الحقيقية للمســـيحية كانت قد غرقت فى تعقيــــدات التزمت الاغريقى •

***

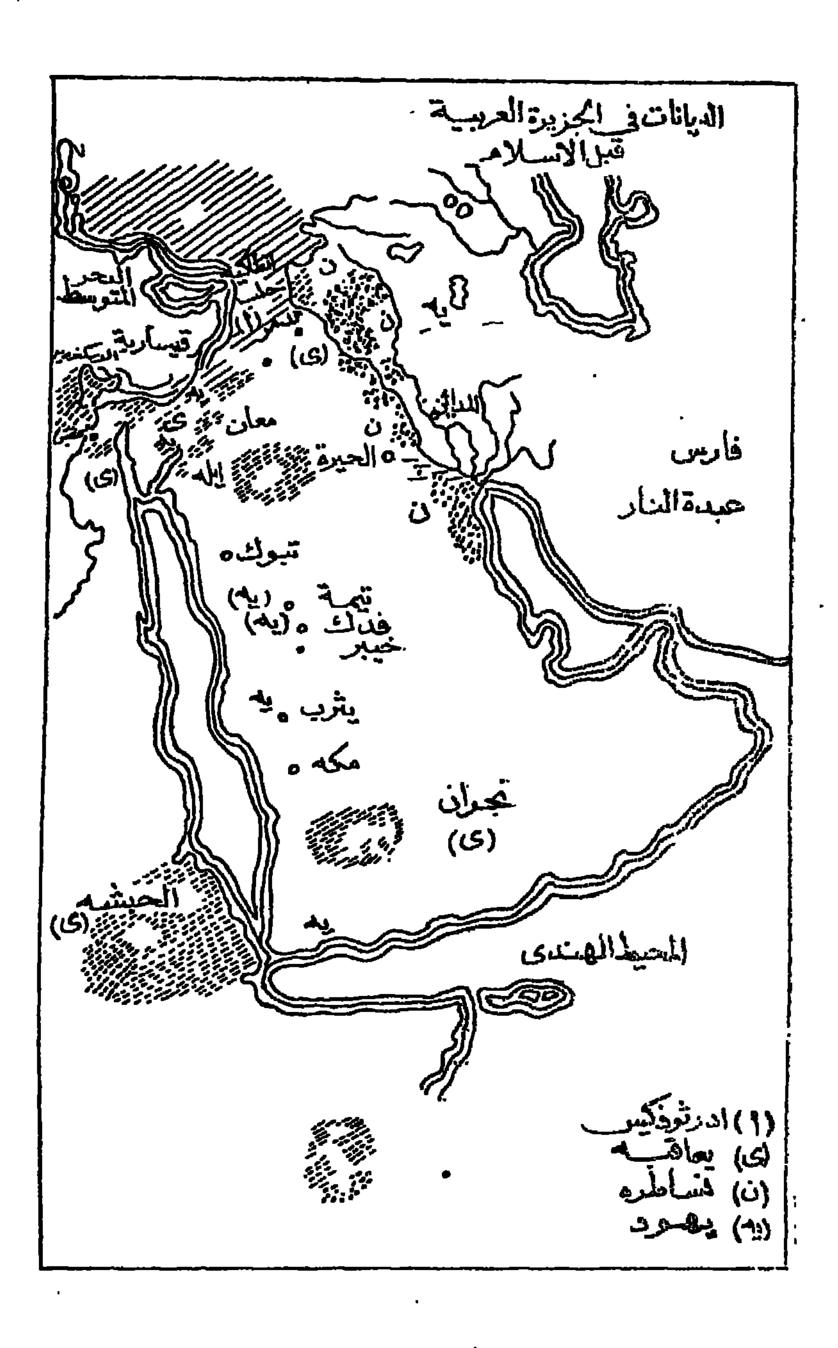
وكانت هناك عدة جاليات يهـــودية أقامت فى الجزيرة العربية فى القرن السادس الميلادى ، بالاضافة الى المســـيحيين • وكانت الجماعات اليهودية التى تعيش فى حوضى دجلة والفرات منذ أيام سبى بابل ، تحظى بالتسامح الدينى فى ظل ملوك الفرس • وسبق لنا أن رأينا أحد ملوك الحميريين فى اليمن يتحول الى اليهودية فيضطهد نصارى نجران • وظل عدد كبير من اليهود يعيش فى اليمن حتى عام ١٩٤٨ عندما هبط هذا العدد كثيرا اثر هجرتهم الى فلسطين المحتلة •

وكانت هناك فى القرن السادس بالاضافة الى يهـــود اليمن ، عدة جاليات يهودية تقيم فى شمال الحجاز ولا ســـيما فى تيمة وفدك وخيبر ويثرب (المدينة المنورة) • ولم تتوافر الأدلة الواضحة على المكان الذى جاء منه هؤلاء اليهـــود ، وهل كانوا يهـــودا من العبرانيين أو عربا دانوا باليهودية(٢) • ولكننا عندما نشرع فى التعرف اليهم فى حياة محمد ، نرى أن لغتهم كانت العربية وأنهم كانوا منظمين فى قبـــائل تماما كالقبائل العربية •

---

(١) لاأدرى من أين جاء جلوب بهذه التسمية • وقد تكون احدى شطحات الخيال •

(٢) يقـول المرحوم الخضرى في محـاضراته ان اليهـودية جاءت الى الحجـاز مع اسرائيليين فارقوا الشام اثر اضطهادهم هناك • ويضيف أن بعض القبائل العربية قد تهودت على أيدى هؤلاء الوافدين • ومن هنا انتشرت اليهودية • (المعرب)


الديانات في الجزيرة العربية
قبل الإسلام
البحر المتوسط
قيسارية
معان
الحيرة
ايله
المدائن
فارس
عبدة النار
تبوك
تيمة (يه)
فدك (يه)
خيبر
يثرب يه
مكه
نجران (ى)
الحبشه (ى)
المحيط الهندى
(ا) ارثوذكس
(ى) يعاقبه
(ن) نساطره
(يه) يهود

عبدة الأصنام :

لم يعرف الا القليل عن ديانة العرب القديمة ، وذلك لان المؤرخين المسلمين لم يروا فيها شيئا يستحق التسجيل • ويبدو ان العرب كانوا يعبدون في الاصل نصبا حجرية وأشجارا على الرغم من أن هـذه الاشياء المقدسة لم تكتسب قداستها الا من الاعتبار، لا من واقعها، أى من اعتبارها المستقر الذى تأوى اليه بعض الارواح •

ويبدو أن عبادة الاصنام المنحوتة ، جاءت تطورا متأخرا • فعبـادة الاصنام الحجرية المنحوتة فى شكل مخلوقات بشرية ، كانت الى حد ما ، انحرافا فاسدا نقل الىالاشياء المادية الاحترام والتوقير اللذين كانا يوجهان فى يوم ما الى الارواح النقية الصافية • ومن المحتمل أن تكون الاصنام المنحوتة قد نقلت كما تشير التقاليد من سوريا حيث كانت تماثيل آلهه الاغريق والرومان منتشرة فيها ، ولا ريب ، قبل انتشار المسيحية •

وكان العرب البدائيون يعتقدون ان فى مكنتهم الحصول على البركة عن طريق تقبيل شىء مقدس أو لمسه أو دعكه بأصابعهم • وما زال أبنـاء القبائل حتى يومنا هذا يقومون بلمس أضرحة الاولياء المحليين عند زيارتهم لها بأيديهم أو تقبيلها بشفاههم ، ثم يمسحون وجوههم بأيديهم طلبـا للبركة •

ومن المحتمل أيضا أن تكون هذه الاصنام المنحوتة ، مخلفات عصر قديم من عصور «الطواطم» • حيث كانت كل قبيلة تضع لنفسها شعارا (طوطما) تستمد رموزه من الطبيعة ، أو تربطه بالاقوال المتنـاقلة عن أسلافها • وكثيرا ماارتبطت الاصنام بمكان مقدس ، لتكون الروح الامينة الحارسة لينبوع من الينابيع أو مجموعة من الآبار • وكانوا يعتبرون الصنم الاله أو الروح الذى يتولى حراسة القبيلة طيلة اقامتها الى جانب هـذا الينبوع أو تلك البئر • ولكن عند ماتسبب الحروب أو المجاعات أو تزايد السكان ، هجرة القبيلة الى مناطق أخرى للرعى ، فان القبيلة الجديدةالتى تحل محلها تجعل من أرواح الآبار المحلية أو الاشجار أو الصخور الآلهة الخاصة بها •

وكانت جماعات بنى صخر فى شرق الاردن حتى الحقبة الثانية أو الثالثة من القرن الحالى ، اذا مامرت بآبار (باير) (١) فى وسط الصحراء

(١) مكان في صحراء الاردن ، فيه معتقل صحراوى ، كثيرا ما استخدمه جلوبوغيره من حكام الاردن سجنا ينفون اليه الاحرار للتنكيل بهم • (المعرب)

تتولى ذبح بعير من أباعرها تكريما لضريح جد القبيلة «أسد» ، الذى يقال انه موجود فى هذا المكان ولا ريب أن هذه الآبار موجودة منذ ألوف السنين. ومن المحتمل أن تكون هى التى أشار اليها سفر العدد فى التوراة فى الآية السادسة عشرة من الفصل الحادى والعشرين اذ قال : «ورحلوا من ثم الى البئر وهى البئر التى قال الرب فيها لموسى اجمع الشعب حتى أعطيهم ماء .. بئر احتفرها الرؤساء ، احتفرها اشراف الشعب» . تكن قبيلة بنى صخر لم تفد الى شرق الاردن الا منذ نحو من ثلاثة قرون . ومن هذا يبدو أن أسد ، الذى يرجع تاريخه الى ماقبل الاسلام لم يكن الا الروح المقيمة فى هذه الآبار ، ثم بنى الضريح الذى يستعقل هذه الروح بعد قرون طويلة ، ليرمز الى جد بنى صخر ، عندما احتلت القبيلة هذه المنطقة وسنرى بعد قليل كيف أن مكة نفسها انتقلت من قبيلة الى أخرى ، بطريقة لاتختلف عن هذه كثيرا .

ويبدو أن عبادة الاجرام السماوية التى انتقلت من الكلدانيين فى العراق ، قد اختلطت فى هذه الآونة بعبادة هذه الارواح الممثلة للسيول والصخور والاشجار . ولا ريب فى أن وفرة عدد من كانوا يسمون «بعبد شمس» فى العهود التى سبقت الاسلام ، تقوم دليلا على صحة هذه الحقيقة .

وكان الشعر هو أعظم ماتميز به العرب فى العهود التى سبقت الاسلام . ولما كانوا محرومين من التأثيرات الروحية ، ومفتقرين الى الايمان بالحياة الثانية ، فان جل اشعارهم كانت تتناول موضوعات الحرب والفخر والنساء والخمر .. فقد جاء فى ديوان الحماسة .

ان شنواء ونشوة (١) وخبب البازل الأمون
يجشمها المرء فى الهوى مسافة الغائط البطين
والبيض يرفلن كالدمى فى الربط والمذهب المصون
والكثر والخفض آمنا وشرع المزهر الحنون
من لذة العيش والفتى للدهر والدهر ذو فنون
والعسر كاليسر والغنى كالعدم والحى للمنون

---

(١) اخطأ نيكولسون المستشرق المعروف بعض الاخطاء في ترجمة هذه الابيات الى الانجليزية فذكر الخمر مثلا . وقد استمدها من النشوة ، مع أن معنى النشوة هنا الجمر وهي والخبب ضرب من سير الابل . كما قال ان الانسان هو حماقة الدهر أو الزمن مع أن القصد كما يبدو في البيت أن الانسان هو ملك الدهر يتصرف فيه كيف يشاء .

(المعرب)

ويقال أن الكعبة فى مكة كانت تضم فى عصر الجـاهلية نحوا من (٣٦٠) صنما ، ومن اشهر هذه الاصنام العزى واللات ومناة ، وثلاثتهـا من الآلهات، وهبل وهو كبير الاصنام المذكورة ، ويقال انه جاء من سوريا· وقد تصـدق الروايات التى قيلت فى هـذا الصدد · اذ عثر فى كتـابات الأنباط فى البتراء فى شرق الاردن والتى يعود عهدها الى عدة قرون خلت على اسم «هبل» بين الآثار المكتوبة ·

ولكن على الرغم من أن العرب كانوا يعبدون كما يبدو ، أو يبجلون عددا كبيرا من الأوثان والاصنام قبل ظهور الاسلام ، الا أنهم كانوا على علم كما يبدو بفكرة «الله» كالمهيمن المطلق على الـكون · وانى لأرى أن من واجبنا أن نحذر من الاستنتاج بأن العرب كانوا قوما من المتوحشين الجهلة لأنهم عبدوا الأصنام والأوثان · فلقد بات الدين الذى كانوا يعتنقونه سحيقا فى مجاهل التاريخ ، بحيث اصبح من العسير علينا أن نشرح حقيقة ما عناه هذا الدين لهم · ولقد رأينا أن اجلال الاصنام فى التاريخ سار جنبا الى جنب مع المقاييس الرفيعة للثقافة والفكر · ولقد رأينا رومة فى عهودها الذهبية فى أيام أوغسطس والأباطرة الانطونيين ، تعيش فى عصر الوثنية وذلك بعد قرون طويلة ، من الافـكار الرفيعة التى جـاء بها افلاطون وسقراط ·

***

والخلاصة ···

لايمكن مطلقا أن يتكون لدينا الانطباع بأن العرب فى عهود ماقبل الاسلام كانوا قبائل متوحشة تعيش على النهب والسلب · فلقـد كانت الجزيرة العربية ، تقع كما تقع اليوم بين المحيط الهندى والبحر الابيض المتوسط ، وكانت أهم طرق التجارة العالمية التى لم يتغير حالها منذ الأزل تمر عبرها أو حولها · وقد أدى هذا الموقع السـوقى الهام الى نتيجتين أولاهما أن التجار العرب ، وكثيرون منهم من الاغنياء والناجحين ، كانوا يؤمون أسواق فارس وسوريا ومصر ، وكانوا يؤلفون ولا ريب مجتمعـا مختلطا يسوده الرخاء والثراء ، أما النتيجة الثانية فهى أن دولا عربيـة غنية ومتحضرة نمت وازدهرت قبل قرون طويلة من ظهور الاسلام عـلى الطرق التى تسير فيها تجارة الشرق · ومن هذه الدول دولة سـبأ فى الجنوب العربى والانباط فى شرق الاردن ، والغســاسنة فى سـوريا واللخميين فى الحيرة · وكان أمراء الدولتين الاخيرتين يعرفون حق المعرفة بلاطات القياصرة والأكاسرة ·

ومن الصحيح أن يقال ان الجزء الاكبر من داخل الجزيرة العربية ، كان يتألف من سهوب شبه صحراوية يضطر ساكنوها الى كسب قوتهم اليومى كقبائل رحل من انتجاع الكلأ للابل والماعز والاغنام التى يربونها • وتجعل حياة البدو التى تتطلب الترحال الدائم المستمر من العلم وحتى من مجرد القراءة والكتابة ، أمرا يكاد يشبه المستحيل • ولم تفتح ثقافة الشعوب الغربية الطريق أمام توفير العلم للجميع الا فى عصرنا هذا • فقبل نحو من مائتى عام كان الفلاحون وأهل الارياف فى فرنسا وايطاليا واسبانيا وانجلترا ، وهى أكثر بلاد العالم حضارة آنذاك ، أميين ويؤمنون بالخرافات والاشباح ، فلا بدع ان عاشت الثقافة والهمجية فى القرون القديمة جنبا الى جنب فى بلاد واحدة •

وكانت المسيحية واليهودية منتشرتين الى حد كبير بين العرب فى حقل الدين وكان بين المؤمنين بهما عدد من القبائل البدوية التى يدين بعضها بالنصرانية اسما على الاقل • أما الغالبية فكانت لاتزال تعبد أرواحا لا عد لها ولا حصر ، تقيم فى الصخور ومسايل المياه والاشجار وتقدم تقديسها الى حد ما الى الشمس والقمر والنجوم ولكنها تعترف فى الوقت نفسه وبطريقة يشوبها بعض الغموض بوجود ديان سماوى أعظم يهيمن على الكون •

وقدر لهذا الشعب ـ المتميز بالقسوة والتعود على شظف العيش ، وعلى اثارة الفتن والذى يضم مجموعة من العقائد الدينية المختلفة وتسوده الفرقة والتجزئة نتيجة فروق شاسعة على الصعدان الثقافية ، أن يخلق تيارا عاصفا من المحاربين الملتهبين حماسة والمتقدين حيوية وايمانا والذين شاء لهم قضاؤهم أن يبدلوا تاريخ العالم بأسره • وقدر لهذا التفجر البركانى أن يتزامن مع عهد من الضعف المتزايد والاضطراب فى كل من امبراطوريتى فارس وبيزنطة • وقد نجمت هذه الحالة من الاجهاد التى أصابت الدولتين الكبيرتين من الدمار الذى لحق بكلتيهما من جراء الحروب التى لانهاية لها والتى شنتها الواحدة منهما على الاخرى ، تماما كما حدث اليوم بالنسبة الى الدول الكبرى فى أوروبا • أما بالنسبة الى بيزنطه ، فقد تزايد هذا الضعف الخارجى ثمرة للفتن التى أثارتها الخلافات والاضطهادات الدينية •

تواريخ بارزة

(سنلحق قائمة عامة بالتواريخ فى نهاية الكتاب)

بعد الميلاد

احتلال الاحباش لليمن	٥٢٢
مولد محمـد	٥٧٠
طرد الاحباش من اليمن بمساعـدة الفرس . . .	٥٧٤
الامبراطورية البيزنطية تقضى على دولة الغســاسنة .	٥٨١
كسرى ابرويز يغزو الامبراطورية البيزنطية ليثأر للامبراطور موريس	٦٠٢
القضاء على دولة المناذرة	٦٠٢
هرقل يصبح امبراطورا	٦١٠
كسرى يحتل مصر وآسيا الصغرى	٦١٦

***

قائمة الملوك

أباطرة القسطنطينية	التاريخ (الارتقاء)	أكاسرة الفرس	التاريخ
	ب . م		ب . م
جوستنيان	٥٢٧	كسرى أنوشروان	
جوستنيان الثانى	٥٦٥	هرمز الرابع	٥٧٩
طيبيريوس	٥٧٤	كسرى ابرويز	٥٩٠
موريس	٥٨٢		
فوقا	٦٠٢		
هرقل	٦١٠		



قريش

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل • ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول»

(القرآن الكريم ــ سورة الفيل)

«لايلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » •

(القرآن الكريم ــ سورة قريش)



نسب قريش

- قصى (ولد حوالى ٤٠٠ ميلادية)
  - عبد العزى
  - عبد مناف (ولد حوالى ٤٣٠ ميلادية)
    - نوفل
    - هاشم (ولد حوالى ٤٦٤)
      - عبد المطلب (ولد حوالى ٤٩٧)
        - حمزة
        - العباس
          - عبد الله
        - عبد الله
          - محمد
        - أبو جهل(١)
        - أبو لهب
        - أبو طالب
          - على
            - الحسين
            - الحسن
          - جعفر
          - عقيل
        - الحارث
    - عبد شمس
      - أمية
        - حرب
          - أبو سفيان
            - معاوية
  - عبد الدار

(١) أخطأ المؤلف خطأ كبيرا اذ جعل أبا جهل من أبناء عبد المطلب مع أن أبا جهل واسمه عمرو بن هشام من بنى عبد الدار لا من بنى هاشم بن عبد مناف . وهذا خطأ يظهر حقيقة قيمة الكتاب من الناحية التاريخية والعلمية . (المعرب)

رأينا فى الفصل السابق كيف أن تجارة الشرق والتوابل ، ظلت تمر طيلة نحو من ألف عام قبل القرن السادس للهجرة من الجنوب العربى حيث تحملها السفن الى الشمال عن طريق القوافل التى تبدأ مسيرهـــا من مملكتى سبأ وحمير الى مصر وسوريا فرومة وبيزنطـــة • وكانت مكة تقع تقريبـــا فى منتصف الطريق بين مملـــكة الجنوب العربى وبين مراكز التوزيع على البحر الابيض المتوسط فى مصر وغزة وسوريا • وكانت طرق القوافل تتفرع من مكة أيضا الى الشمال الشرقى باتجاه الجرهة (القطيف المحاصرة)(١) الواقعة على الخليج ومنها باتجاه الشمال الى الحيرة على الفرات متجنبة صحراء الربع الخالى وصحراء النفوذ • ويتبين من هذا أن مكة ظلت قرونا طويلة ، مركزا مهما من مراكز القوافل •

وكانت تضم منذ أقدم العصور بناء الكعبة التى كان يؤمها أبنـــاء القبائل الدانية والقاصية من كل فج عميق لأداء الحج ، نظرا لما تحتله من مكانة القداسة فى عيونهم • ويبدو أن بئر مكة وكعبتها أضحتا منذ عام (١٠٠) قبل الميلاد ، فى رعاية قبيلة عربية تدعى بنى جرهم• ومن المحتمل أن تكون هذه القبيلة قد اخرجت من أرضها فى القرن الثالث للميلاد أمام الهجرات المألوفة نحو الشمال الناجمة عن الفاقة التى أحاقت بدولة سبأ وأن تكون قبيلة خزاعة ، وهى فرع من قبائل الأزد التى هاجرت من اليمن نحو الشمال قد حلت محلها •

وكانت هناك قبائل عدنانية من نسل اسماعيـــل بن ابراهيم قد أقامت فى شمال الحجاز ، وكانت بينها قبيلة قريش(٢) • ويقال ان فهر زعيم قريش بنى فى عام ٢٣٥ للميلاد بامرأة من خزاعة ، هى ابنة شيخها

---

(١) أختلف مع المؤلف في اعتباره القطيف اسما حديثا • فالقطيف اسم قديم وقد اورده البلاذرى في أكثر من مكان من كتابه « فتوح البلدان » كما أورده ياقوت الحموى في كتابه « معجم البلدان » • ونقل الاستاذ الخضرى الاسم نفسه في كتابه • (المعرب)

(٢) يتفق المؤرخون العرب على تقســيم الجنس العربى الاصلى الى مجموعتين اولاهما شمالية والثانية جنوبية • ويرد أصل المجموعة الشمالية الى اسماعيل بن ابراهيم ويقال انها نشأت فيما يؤلف الآن شمال الحجاز وجنوب الاردن • وتتألف المجموعة الثانية من تلك القبائل التى هاجرت شمالا من اليمن الى أواسـط الجـزيرة العـربية حيث تم الاختلاط بين المجموعتين وكانت قريش تنتمى الى المجموعة الشمالية • (المؤلف)

الذى كان يتولى سدانة الكعبة ، وعاد قصى وهو من ذرية فهر فتزوج فى عام ٤٢٠ ميلادية بابنة رئيس خزاعة • ويبـــدو أن الخزاعى أعجب كثيرا بصهره قصى فأسلمه مفاتيح الكعبة ، وانابه عنه فى سدانتها وخدمتها • ولما توفى الرئيس الخزاعى ، أراد قصى أن ينقل هذا الشرف أصالة الى نفسه لا وكالة عن خزاعة ، ولكن رجال القبيلة عارضوه فيما أراده ، ومع ذلك فقد تمكن قصى الذى أعد للأمر عدته • واستنجد بأبنـاء قبيلته من قريش ، من تحقيق ماأراد • ودارت رحى معركة عنيفة فى عام (٤٤٠) ميلادية هزمت فيها خزاعة ، وأصبح قصى سادن الكعبة وحارسها ، فى حين تحولت خزاعة الى مركز ثانوى •

ويبدو أن قصيا هذا ، كان رجلا بارزا فى شخصيته وذكائه • اذ لم يكد يسيطر على مكة سيطرة كاملة حتى شرع ينظم أمره فيها • ولم تكن هناك حتى هذا التاريخ أية أبنية فى المدينة باستثناء بناء الكعبة والمصلى أما العرب فكانوا يقيمون فى خيام فى الوديان المحيطة بشعابها • وقـد أصـدر قصى أمره الى قريش ببناء البيوت حول المصـلى • وكانت القبائل العربية هنا تسير على السنة القمرية ، نظرا لسهولة هذا الحساب بالنسبة الى الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة لقدرتهـــم على تمييز الدورة القمرية فى مراحلها المختلفة • لكن السنة القمرية تقل أحـــد عشر يوما وجزءا من اليوم عن السنة الشمسية • وهكذا فان موسم الحج الى الكعبة المحدد فى الشهر الاخير من السنة القمرية يرتد كل سنة أحد عشر يوما الى الوراء تقريبا وبذلك يطوف جميع فصول السنة الشمسية وأيامهـــا مرة كل ثلاث وثلاثين سنة • ولما كان قصى قد أدرك أن الخريف هو أفضل فصل لأداء موسم الحج ، فقد أفلح فى اقناع العرب بقبول ضم شهر ثالث عشر الى السنة القمرية مرة كل ثلاث سنوات • وكانت هذه المحاولة جريئة للتوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية ، وان كان هذا التوفيق لايتم على نحو دقيق تماما • (ولكن النبى محمدا لامر نجهله ، وهو من احفاد قصى ، أمر بالغاء هذا الشهر الاضافى ، مما أدى الى بقاء فرق الأحد عشر يوما وكسور اليوم بين السنتين الشمسية والقمرية منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا • لكن الحادث يوضح لنا على أى حال مااتصف به قصى من ذكاء واقدام) •

أما وقد انتهى الزعيم من تحديد الموسم السنوى للحج ، فقد شرع فى تنظيم الترتيبات السنوية الخاصة به • وكانت الواجبات المرتبطـة بالحج مثلثة الشكل ، فهى تشمل سدانة الكعبة ، وتأمين الغذاء للحجاج طيلة أيام الفروض الدينية الثلاثة ، وتأمين السقاية والماء لهم ، وهو عمل

كان يعتبر شاقا الى حد ما ، ويبدو أنه قرر أن الشرف الرفيع الذى تحظى به قريش من سدانة الكعبة ، يجعل من المحتوم عليها ، أن تتـــولى رفادة الحجيج وسقايتهم بلا مقابل طيلة الايام الثلاثة • وليؤمن هـــذه النتيجة فرض قصى ضريبة على أهـــله من قريش بدلا من أن يفرض رسوما على الحجيج •

وقد يتساءل المرء ، كيف كان بالامكان ايجاد الموارد الكافية لمثل هذا الانفاق الضخم • لكن أسواقا تجارية كانت تعقد في موسم الحج فى مكة وفى الشعاب المجاورة لها • فعندما كانت القوافل تمضى الى سورية ومصر محملة ببضائع الشرق ومنتجاته كانت تئوب من هناك الى مـكة مثقلة بما تحمله من بضائع نطلق عليهـا اليوم اسم السلع الاستهلاكية ، مصنوعة فى منطقـة البحر الابيض المتوسط • وفى وسـعنا أن نفترض أن قريشا حافظت على مكانتهـا عن طريق التجـارة التى تحملها هذه القوافل وبيع سلعهـا الى الحجيج فى هـذه الاسواق المحلية • ومن هنـا يظهر أن خدمة الحجيج المجانيـة ، على الرغم من ظاهرها الورع التقى ، كانت حافزا فى الوقت نفسه على تنشيط تجـارة قريش عن طريق زيادة عدد المتعـاملين معهـا • وأرى لزاما على أن أذكر اجراءين آخرين ابتدعهمـا قصى أولهمـا انشـاء مجلس لشـيوخ قريش شـيد له مقـرا على مقربة من الـكعبة وثانيهما العادة التى جرى عليها وهى أن يسلم الى قائد أية حملة عسكرية تبعث بها القبيلة ، رمحا يعقد هو بنفسه على رأسه قطعة بيضاء من القماش لتكون راية القبيلة ، يلتف حولها المحاربون • وقد قدر لبعض هذه العادات التى استنها هذا الرجل المتفوق اللامع لابناء عشيرته انصاف العراة المقيمين فى أكواخهم الطينية حول هذه البئر الصحراوية ، فى منطقة مجدبة وغير ذات زرع من الجزيرة العربية ، أن تعمر قرونا طويلة ، كطقوس مبجلة فى امبراطورية تعتبر من أعظم ما شهده العالم من امبراطوريات •

وقد غدا قصى رجلا له مكانته المرموقة ، عن طريق هذا التنظيم الفعال فى الميدانين الدينى والتجارى ، وطارت شهرته الى أقاصى الشمال والجنوب ، يحملها تجـار القوافل ، والى صحارى الجزيرة العربيـة ينقلها الحجاج من أبناء القبائل الذين كانوا يفدون الى الكعبة المقدسة من كل فج عميق •

وتوفى قصى حوالى عام ٤٥٠ أو ٤٦٠ ميلادية مخلفا مركزه المرموق الى أكبر أولاده عبد الدار • وتبدو الاهمية التى كان قصى يعلقها على التزاماته الدينية فى الاسـماء التى اختارها لاولاده وهى عبد الدار أى خادم الدار والمعنى بالدار «الكعبة» ، وعبد مناف وعبد العزى ، ومناف والعزى صنمان

من أصنام الكعبة • وانجب عبد مناف عددا من الاولاد ومنهم عبد شمس ، ونوفل وهاشم • واستعرت الاحقاد والغيرة بين ذرية عبد الدار وذرية عبد مناف ، مما أدى الى تجزئة مسئوليات القبيلة بين الاسرتين • واحتفظ آل عبد الدار بسدانة الكعبة والحق فى عقد الراية أيام الحروب ، وتسمى اللواء وكذلك بالندوة فى حين كان من نصيب آل عبد مناف الحق فى سقاية الحجاج ورفادتهم •

وكان هاشم أبرز أبناء عبد مناف • وكان أخوه عبد شمس قد تولى الحق الوراثى فى قيادة قريش فى حروبها ، بينما كان هاشم الذى أثرى من تجارة القوافل قد اكتسب الشهرة وذيوع الصيت بجوده وبالغ كرمه فى رفادة الحجيج القادمين من مختلف أطراف الجزيرة العربية • وبنى هاشم أثناء رحلاته التجارية بامرأة من يثرب وهى بلدة تقع على بعد نحو من مائتين وخمسين ميلا الى الشمال من مكة • وكانت سلمة التى تزوجها هاشم من قبيلة بنى النجار التى تقيم على مقربة من البلدة وقد امتازت بشخصيتها البارزة وقد وضعت فى عام ٤٩٧ غلاما أسماه أبوه «عبد المطلب» وقد تولى عن أبيه ، بعد بلوغه سن الرشد مسئوليات رفادة الحجيج وسقايتهم فى مكة •

وسرعان ما ذاع صيت عبد المطلب فى كل مكان ، حتى بز صيت والده هاشم ، وكاد يضارع شهرة جده قصى • وكان بنو عبد الدار قد هووا فى المنزلة الى الرتبة الثانية وان كان حرب بن أمية ، حفيد عبد شمس قد حاول منافسة عبد المطلب فى مكانته وشهرته • لكن محاولاته باءت بالفشل ولكن قدر لهذه المنافسة التى قامت بين هاتين العشيرتين العربيتين وما قام بينهما من حزازات أن تهز العالم المتحضر بعد نحو من قرن من الزمان • ولكن من الواجب أن نلاحظ هنا أن قريشا لم تعد تدين لرئيس واحد ، فلقد كان لكل عشيرة رئيسها ، وكان لكل واحدة منها فى بعض الحالات ، واجباتها الخاصة بها وامتيازاتها • ولقد نمت المنافسة بصورة خاصة بين ذرية هاشم وذرية أمية •

وقد تحدثنا فى الفصل الاول عن احتلال الاحباش للجنوب العربى فى عام ٥٢٢ • وكان قد سبق لنجران فى أيام الوثنية ان ضمت كعبة ، يحج اليها الناس • فلما تحولت نجران الى النصرانية ، تحولت هذه الكعبة الى كاتدرائية • وتقول الاساطير ان ابرهة ، نائب ملك الحبشة فى اليمن ، أراد بدافع تعلقه بالنصرانية أن يدمر كعبة قريش فى مكة ، ليحول الحجيج من أبناء القبائل العربية الى نجران النصرانية • ومهما

كانت دوافع ابرهة ، وسواء أكانت دينية أم استعمارية فانه زحف على مكة فى عام ٥٧٠ ووصل الى نقطة لا تبعد الا بضعة أميال عن المدينة • وكانت قريش أضعف أو أجبن من أن تقف أمام الجيش الحبشى ، ومضى عبد المطلب على رأس وفد لمفاوضة ابرهة • وأعلن الجيش للوفد انه لا يقصد تدمير المدينة ولكنه يريد أن يدمر الكعبة الوثنية ، وهو طلب رفض المكيون باصرار الاذعان له •

وعاد الوفد الى المدينة ، وقلوب أفراده مثقلة بالهموم والاعباء • ونصح عبد المطلب أفراد شعبه بأن يجلوا عن مساكنهم وأن يلجأوا الى الكهوف القائمة فى الجبال القريبة ويقال انه قبل أن يغادر المدينة أمسك بقضبان الكعبة وراح يصلى الى الله طالبا حماية بيته • ويستحيل علينا هنا أن نقرر ما اذا كان دعاؤه يحمل حقا هذا المعنى من الوحدانية ، أو أن المؤرخين المسلمين اللاحقين هم الذين نسبوا اليه دعاءه لكن الصورة كلها تعكس على أى حال اخلاص أهل مكة لكعبتهم • اذ آثروا أن يهجروا مدينتهم ودورهم لجيش العدو على أن يوافقوا على هدم الكعبة التى يقدسونها •

ويبدو فى غضون ذلك ان الجدرى قد انتشر بسرعة بين رجال الجيش الحبشى ونسى الجنود هدف الحملة ، وتخلى أبرهة عن هدفه فى هدم الكعبة ، وشرع الجيش فى عملية انسحاب هى أقرب الى الهزيمة ، ليموت أبرهة بعد وصوله الى صنعاء • وكان الاحباش قد جاءوا معهم بفيل الى مكة ، ولهذا فقد أطلق على عام ٥٧٠ ، منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا اسم عام الفيل الذى ورد فى صفحات القرآن أيضا(١) •

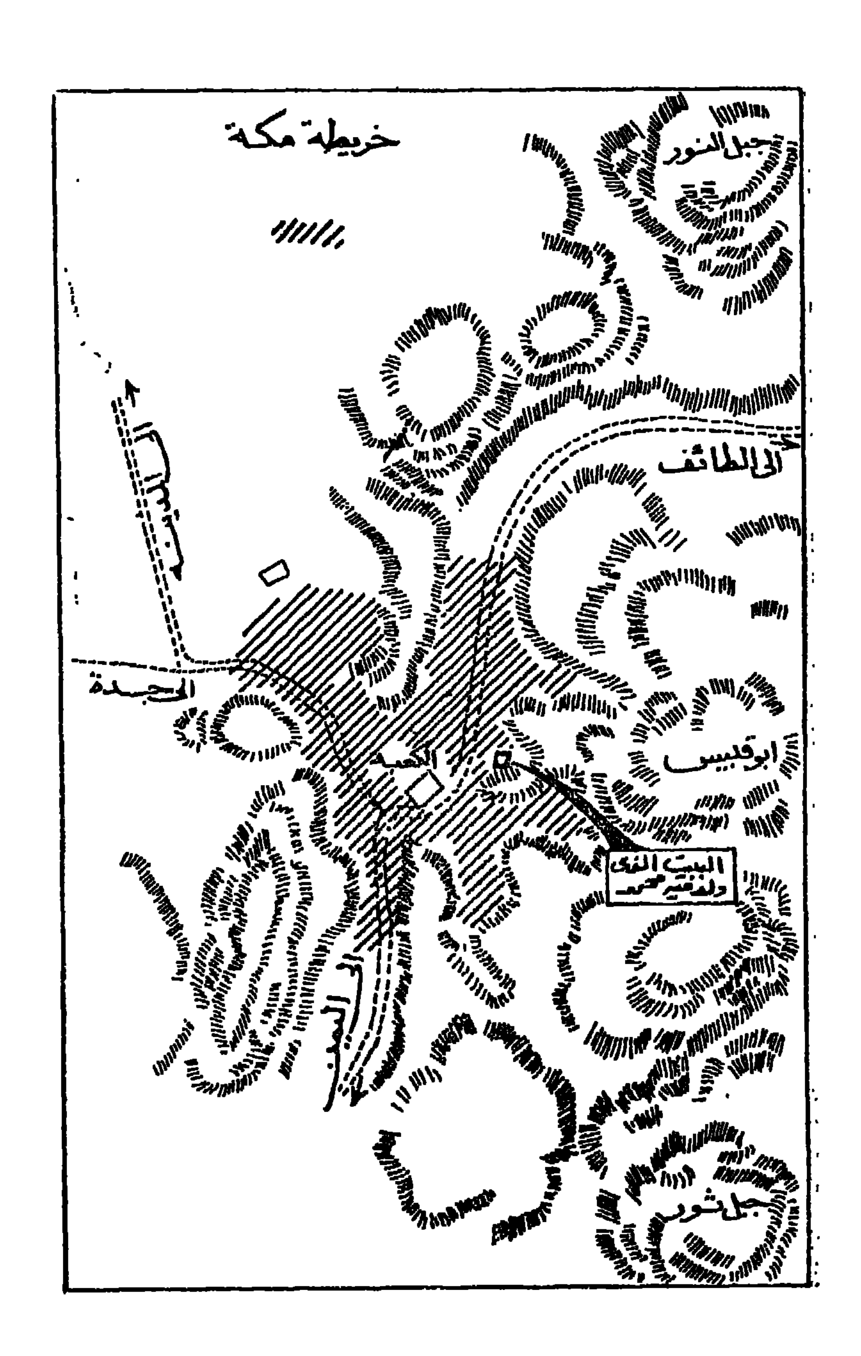
***

وشهد عام ٥٧٠ حادثا آخر أكثر أهمية من الكارثة التى أحاقت بالجيش الحبشى • ففى العشرين من أغسطس (٢) من تلك السنة ولد محمد نبى الاسلام المنتظر فى مكة • وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب قد توفى قبل بضعة أشهر من ولادته • أما أمه آمنة فهى من

---

(١) تقول رواية سيرة ابن هشام أن الجدرى والحصبة قد انتشرا بين الاحباش •

(٢) يقول المرحوم الخضرى في تاريخه ان الرسول ولد صبيحة الاثنين التاسع من ربيع الاول لاول عام من حادثة الفيل ، وهو الموافق العشرين من شهر ابريل سنة ٥٧١ ميلادية • أما المؤلف فقد استقى روايته من برسيفال في كتابه « العرب قبل الاسلام » • (المعرب)


خريطة مكة
جبل النور
الى الطائف
الى جدة
الكعبة
ابو قبيس
البيت الذى
ولد فيه محمد
الى اليمن
جبل ثور

عشيرة زهرة التي كان جدها أخا لقصي الشهير • ولما كان الطفل يتيم الاب ، فقد احتضنه جده عبد المطلب ، شيخ العشيرة الوقور وكان قد جاوز الآن السبعين من عمره • وكانت عادة قريش قد جرت على التماس المراضع لأولادهم في البادية عند نساء القبائل المجاورة ، ليستنشقوا هواء البادية النقي الصافي مما في المدن من عفونات وغبار • وهكذا عهد برضاعة محمد الى امرأة من بني سعد النازلين على مقربة من مكة •

وعاد الطفل الى أمه في مكة وكان في السادسة من عمره(١) ولكن لم تمض قرابة سنة حتى توفيت بعد أن تركته يتيم الابوين ، وان كانت هناك أمة لجده تسمى أم أيمن ظلت تعنى به وترعاه • ونقله عبد المطلب الى داره وغدا شديد التعلق به ، وكثيرا ما كان يداعبه ويلهو معه • ولكن جده ما لبث أن توفي وهو في الثامنة من عمره ، وعاد مستقبل الطفل من جديد عرضة للاقدار ، وان كان الزعيم المحتضر قد أوصى وهو على فراش الموت ، بحفيده الى عناية ولده أبي طالب عم محمد •

وهكذا أصيبت حياة الطفل من جديد بانقلاب كلي • ولكن المشاعر القبلية كانت أقوى بكثير من أن تسمح باهمال طفل أو التخلي عنه ، وان كانت هذه التبدلات المستمرة في المكان الذي يعيش فيه الطفل قد ولدت لديه مشاعر من عدم الاستقرار والاحساس بالوحدة ، مما يخلق عادة عند ذوي هذه المشاعر مزاجا دائم التأمل كثير التفكير • ولكن الحامي الجديد الذي تولى رعايته كان على أي حال لطيفا كل اللطف ، وكان ذا شخصية نبيلة ، وسرعان ما غدا شديد التعلق بمحمد ، واستصحبه معه ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، في احدى رحلاته طلبا للتجارة الى سورية ، وهي رحلات كان يعتمد عليها تجار مكة في كسب أودهم •

واذا ما استثنينا هذه الرحلة ، فان الحياة ظلت على وتيرة واحدة بالنسبة الى محمد الفتى ، الذي كان يعيش كواحد من أسرة عمه • لكن أبا طالب على الرغم من لطفه وكرمه لم يكن بالرجل الثري • وكان عدد أولاده آخذا في التزايد مما استنزف موارده وأنضبها • ولم تكن لمحمد موارد خاصة ولذا فكان يقنع بان يكسب ما يستطيع اما عن طريق بعض الصفقات التجارية أو عن طريق رعاية الماشية • وظل في فتوته يتميز بطابع الهدوء والتحفظ والجدية والوقار ، وكلها صفات قد تكون ناجمة عن

---

(١) تقول جميع السير وكتب التاريخ ان محمدا عاد من البادية وهو في الرابعة من عمره • (المعرب)

اوضاع يتمه ، وعما عاناه في طفولته من رزايا • واقترح عليه عمه أبو طالب عنـــدما بلغ الخامسة والعشرين من عمره أن يستصحب احدى القوافل المسافرة الى سورية • وكانت هناك أرملة ثرية موفورة الحال من قريش تدعى خديجة تتعهد شئونها بنفسها، وتقوم على تصريف مشروعاتها التجارية التى تشمل الاشتراك فى تجارة القوافل • وكانت خديجة فى حاجة الى وكيل أمين موثوق به ليصحب رجالها فى القافلة المسافرة الى الشمال وليشرف على بيع بضائعها وعلى شراء شحنة من البضائع السورية بما يتجمع من عملية البيع الاولى ، لبيعها فى مكة • وقد تمكن أبو طالب من تعيين ابن أخيه فى هذا المنصب ، ولاسيما وأن محمدا نال شهرة عطرة بما عرف عنه من صدق وأمانة •

ومن المحتمل أن تكون هذه الرحلة قد استفزت تفكير الشاب الكثير التأمل • ويبدو ان العملية نجحت كل النجاح من الناحية المالية ، مما أرضى خديجة كل الرضى وجعلها تعجب بوكيلها الجديد • ولم تمض بضعة أسابيع على عودته من رحلته حتى كانت توفد اليه من يقترح عليه الزواج بها • ويقال انها كانت فى ذلك الحين فى الاربعين من عمرها فى حين كان محمد فى الخامس والعشرين • واذا ما اســتثنينا فارق السن فان الزواج كان مرضيا للفريقين من جميع النواحى • فلقد كان خويلد والد خديجة من وجوه مكة ويمت فى نسبه أيضا الى قصى • وقبل محمد الاقتراح وتم الزفاف •

وعلى الرغم من فارق السن فلقـــد كان الزواج موفقا كل التوفيق وحملت خديجة لمحمد بولدين توفيا فى سن الطفولة وبأربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وقد يثير حملها لستة أولاد الشك فى الرواية التى تقول بأن خديجة كانت فى الاربعين من عمرها عندما بنى بها محمد ، ومن المحتمل أن تكون جاهلة لحقيقة سنها كمـــا هى الحالة بالنسبة الى كثيرات من بنات القبائل العربية حتى يومنا هذا •

وحرر ثراء خديجة زوجها محمدا من العوز ، وأتاح له المجال لاحتلال مركز اجتماعى مرموق فى مجتمع مكة الذى كان يقدر الثراء (١) • لكنها واصلت على أى حال ادارة أعمالهـــا التجارية بنفسها وبذلك حررته من

---

(١) لم يكن المركز المرموق الذى احتله محمد في مجتمع مكة بفضل ثروة خديجةوانما كان بفضل اخلاقه التى أجمع المؤرخون على أنها ضمت صـــدق الحـديث والامانة حتى سموه بالامين والامتناع عن الشر وعن حياة اللهو ، والوفاء • (المعرب)

المتاعب المالية ليجد الوقت الكافي لاشباع رغباته في الوحدة والتأمل وهي رغبات ازدادت قوة مع نضوج سنه • وعلى الرغم من أن محمدا كان موزونا ومتحفظا ، صموتا ميالا الى الهدوء ، الا انه كان يحس بالراحة الى العشرة الطيبة فتنفرج أساريره فى مثل هذه الحالات ويغدو انسانا سمحا رقيق المعشر ميالا الى المزاح البرىء •

وعندما أحس محمد بالاستقرار فى حياته شرع ـ مدفوعا بحبه لعمه أبى طالب الذى احتضنه ورعاه ـ يحاول التخفيف من ضائقته وعرض على عمه أن يهون عليه بعض نفقاته ، وأن يحتضن أحد أولاده ليتولى الانفاق عليه •• ووقع الاختيـــار آنذاك على على ، وكان فى السادسة من عمره فنشأ فى كنف ابن عمه محمد وكأنه أحد أولاده •

وكان لخديجة عبـــد يدعى زيد بن حارثة ، وهو ينتمى الى قبيلة أضرة (١) العربية المسيحية التى كانت تقيم فى جنـــوب سورية فسرقه بعض اللصوص وهو طفل ثم باعوه عبدا فى أسواق مكة الى أن وصل أخيرا الى يد خديجة • وقد أولع محمد ولعا شديدا بهذا الخادم وتعلق به فانتدبته خديجة ليتولى خدمته الشخصية • ولم يمض طويل وقت حتى كان والد زيد الذى ظل يبحث عنه السنوات الطوال قد وصل الى مكة متقفيا أثر ولده فعرض على خديجة مبلغا كبيرا من المال يفتدى به حرية ولده من الرق • واستدعى محمد زيدا أمام أبيه وخيره بين اللحاق بأبيه فى الشام أو البقاء معه فى مكة ، ولكن الشاب كان قد تعلق بمحمد تعلقا شديدا فى حين لم يكن يعرف أباه الذى فارقه وهو طفل • واختار زيد البقاء مع محمد • وسر محمد بهـــذا الوفاء النادر فقاد الفتى من يده الى الكعبة حيث أعلن فى حرمها عتقه له وتبنيه اياه •

وعلى الرغم من أن أوثان الكعبة كانت موضع العبادة الرسمية فى مكة الا ان كثيرين من أهلها كانوا قد فقدوا ايمـــانهم بمثل هذه العبادة الفطرية الجاهلة • ولقد سبق لنا أن بينا ان عددا كبيرا من العرب كان قد اعتنق النصرانية وان الجاليات النصرانية كانت منتشرة فى كل مكان • ولم تخل قريش نفسها من رجال تحولوا الى النصرانية وكان ورقة بن نوفل وهو ابن عم لخديجة من أولئك الباحثين عن ديانة روحية أعمق من

---

(١) أجمع مؤرخو العرب على ان زيدا من بنى كلب لا من بنى أضره كما يقول المؤلف، ولذا كان يسمى زيد بن حارثة الكلبى •

(المعرب)

ديانة قريش ، ويقال ان رجلا آخر يدعى زيد بن الطفيـــل(١) وهو من قريش ، وقد توفى فى هــذا الوقت تقريبــا ، اثر على محمــد الشاب فى تطلعاته وبحثه عن الله •

واقترب عام (٦١٠) ميلادية وكان محمد قد بلغ الاربعين من عمره وازداد ميله الى الوحـــدة والتأمل • وكان يهرب من طرقات مكة المحرقة المغبرة ويلجأ الى كهوف الجبال القريبة من الوادى العتيق الذى تقبع فيه المدينة ليقضى فيها أحيانا أياما متوالية • وتسرح أفكار الرجل متأملا فى هذه القمم الجرداء الداكنة التى يراها أمامه من فتحـــات الكهوف والتى لاتظهر عليها نأمة حياة ، ولاتفصلها بعضها عن بعض الا شعاب عميقة ضيقة من الاخاديد والوديان الجافة وتعـــود فتتركز على فلسفة الحياة الاخرى التى كان قد سمع نتفا عنها من اليهود والنصـــارى ، وعلى وجود اله واحد أحد ، قوى صمد عنده الجنة السرمدية والحياة السعيدة الأزلية يمنحها للمؤمنين من عباده ، وعنده جحيم جهنم بما فيها من عذاب لا نهاية له ينزله بالكفرة وغير الصالحين • وكان يعود الى بيته وقد أثقلته هذه الافكار فيبوح بها الى زوجته الوفية خديجة التى مابرح يجد عندها المستقر والمراح والحث والتشجيع وقد مزجت فى رعايتهــــا له بين حب الزوج وحنان الام •

وألف محمد اللجوء الى الغار فى الجبال فى فترات معينة من شهر رمضان طلبا للتأمل والتعبد والتفكير والتهجد • وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته اذ نزل عليه جبريل رأس الملائكة •• وروى محمد •• قائلا : وجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال •• اقرأ، قلت ما أقرأ •• ثم غشينى حتى ظننت انه الموت ثم أرسلنى فقال اقرأ ، قلت ماذا أقرأ ، وعاد فغشينى حتى ظننت انه الموت ثم أرسلنى فقــال اقرأ •• قلت ما أقرأ ، فقال : «اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » • •

وقرأ محمـــد ما قاله الملاك ، وانتهت الرؤيا وهب من نومه فزعا ويكاد عقله يضطرم •• ويمضى محمد فيقول : « وخيل الى أن أذهب الى الجبل وأقذف بنفسى منه لأستريح •• فاذا ما كنت فى الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) فرفعت

---

(١) زيد بن عمرو بن نفيل العدوى ... لا زيد بن الطفيل ... وهو الاسم الذى أورده البلاذرى في « فتوح البلدان » وابن هشام في سيرته (المعرب)

رأسي الى السماء أنظر فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء » .

وهزته هذه الرؤيا وعاد محمد الى بيته وأتى خديجة ليروى على مسامعها كل ما وقع له فقالت : أبشر يابن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده انى لارجو أن تكون نبى هذه الامة (١) ، وكانت خديجة أولى المؤمنات برسالة محمد . وكان ابن عمه على بن أبى طالب ثانى من آمن وكان فى العاشرة من عمره ليتبعه ابن محمد بالتبنى زيد بن حارثة .

وكان بين تجار مكة المعتبرين تاجر يدعى عبد الله أو عتيق ، أبو بكر بن أبى قحافة وينتمى الى فرع من فروع قريش . وكان أبو بكر من الرجال المحبوبين ذوى المنزلة لما عرف عنه من خلق طيب ودماثة وكرم . وكان يصغر محمدا بسنتين وجاء ترتيبه الرابع بين من آمنوا برسالته . ولا ريب فى أن مما يقيم الدليل على صدق محمد واخلاصه أن يكون المؤمنون به الأوائل زوجته وولديه بالتبنى وصديقه الحميم اذ ان هؤلاء الاربعة كانوا على اتصال وثيق به فى كل يوم بحيث كانوا أعرف الناس بمدى صدقه .

ولم يرب عدد من آمن بالرسالة فى أيامها الاولى على حفنة من الناس ، نذكر منهم عثمان بن عفان من خلفاء المستقبل والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وهى أسماء قدر لها بعد بضع سنوات أن تصبح مدوية معروفة فى العالم المتحضر بأسره ، وكانوا جميعا من قريش فلقد كان عثمان من بنى أميه الذين يذكر القارىء ولا شك انهم كانوا ينافسون بنى هاشم على الزعامة فى قريش . أما الزبير فكان من أقارب خديجة ومن الذين يتصل نسبهم بنسب محمد أما سعد فكان قريبا لمحمد عن طريق أمه .

وظلت الدعوة فردية ثلاث سنوات صدر الامر بعدها لمحمد بأن يجهر بدعوته الى الدين . وكان محمد فى الثالثة والاربعين عندما انتهى تردده وخرج الى ساحة المدينة التى تقوم الكعبة فى وسطها يدعو الى دينه متحديا المشركين من عبدة الأوثان(٢) . وكانت خطوط دعوته متناهية فى

---

(١) يقول المؤلف انه نقل هذه الرواية من ترجمة الاستاذ جيوم لرواية ابن اسحق وقد قارنتها مع رواية ابن هشام فوجدتها قريبة منها كل القرب . واذا كان قد وقع بعض التحريف في اللفظ وهو قليل نادر فانما مصدره ترجمة رواية جيوم . (المعرب)

(٢) كانت انجلترا لا تزال في ذلك الحين وثنية . فقد هبط القديس أوغسطين =

بساطتها فهو يقول للناس ان هناك الها واحدا وان الاوثان شرك لا نفع منها ولا ضير ويجب أن تزال ، وانه رسول الله جاء مبشرا ونذيرا ، وأنّ يوم الحساب قريب حيث يخرج النـــاس من قبورهم اشتاتا فيمضى منهم الى فراديس النعيم الصـــالحون المؤمنون ، ويمضى الى غياهب الجحيم الاشرار المشركون حيث يصلون سعيرها الى أبد الآبدين •

وذكر محمد ليعزز أقواله ان الوحى الالهى يهبط عليه مباشرة • وقال ان جبريل كان ينزل عليه بسور القرآن متحدثا اليه كمـــا يتحدث الرجل للرجل وقيل أيضا ان الوحى كان يهبـــط عليه أحيانا على شكل صوت داخلى يوحى له بما يقول •

وسرعان ما تمكن القريبون منه من تمييز علائم الرسالة فيه • فلقد كان يبدو قبل مجىء الوحى بلحظات متوتر الاعصاب قلقها تنتابه حمى وبرداء ولا ينفصم عنه التنزيل الا وجبينه يتفصد عرقا وقد أضيف الى القرآن فصل جديد • ولم يكن هذا هو المالوف الدائم لنزول الوحى • فكثيرا ما جاءه على شكل ايحاء ابان حياته العادية •

وكان مذهب ابراهيم الاساس فى تعاليم الرسول الجديدة • وكان يقول ان الرسالة الصافية النقية التى نزلت على ابراهيم تعرضت لتشويه اليهود الذين أفسدوها وجاء عيسى بن مريم رســـولا من عند الله ليطهر الدين مما أدخله اليهود عليه من هرطقة وتشويه • وقد آمن محمد بطهارة العذراء وميلاد عيسى وقال ان المسيح من روح الله وانه جاء رسولا يدعو الى رسالة ابراهيم النقية الصافية • ولكنه يعود فيقول ان المســـيحيين أيضا شوهوا العقيدة الصافية كما فعل اليهود من قبل ، فجاء هو رسولا من الله الى الناس جميعا يدعوهم الى الدين النقى الصافى •

ومن هنا يظهر ان النبى لم يدع الى دين جديد لا علاقة له بالديانات الاخرى وانما دعا الى الدين الذى بشر به من قبل ابراهيم وموسى وعيسى • وقد روى كثيرا من القصص التى رواها العهد القديم وان كانت رواياته تختلف أحيانا عنها فى التفاصيل على الاقل ، ولما كان المعروف ان محمدا لا يقرأ ولا يكتب فمن المحتمل انه سمع هذه القصص وأعاد تلاوتها معتمدا

= ارض انجلترا في عام ٥٩٧ ليعمل على تحويلها الى المسيحية اى قبل ستة عشر عاما من بداية رسالة محمد • (المؤلف)

على ذاكرته(١) • ويمكن القول ان تعاليمه كانت تحمل شـــيئا من طابع العهد القديم • فمثلا هنـــاك آيات في القرآن تأمر المؤمنين بأن يحاربوا الكفرة والمشركين ، وفي الامكان مقارنة معانيها بما ورد في العهد القديم عندما صور الرب «يهوه» وهو يأمر بابادة العمالقة(٢) • ويبدو ان اطلاع محمد على اليهودية لم يكن أوسع من اطلاعه على النصرانية فقد آمن مثلا بأن عقيدة التثليث تتألف من الله والمسيح والعذراء (٣) •

وكان يقول ان القرآن كلام الله أنزله عليه • وكثيرا ما تســـبق الآيات والاوامر والنواهي بكلمة «قل» وهي الامر الالهي لمحمد بأن يقول ويتكلم • وكثيرا ما يجيئه الوحي محذرا اياه مما قد يثيره المشركون من مسائل واعتراضات أو ما قد يثيره المؤمنون من أسئلة فيبين له طريق الرد عليها •• كما جاء في سورة المائدة «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات» أو كما جاء في سورة يونس «قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون • متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ، واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ، ياقوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت ••» •

وكان أقوى حافز دفع العرب الى فتوحاتهم العظيمة وعد الله لهم بأن كل من يستشهد في الحرب ضد الكفرة يروح الى فراديس النعيم فورا • يضاف الى هذا ان الوصف المسهب للجنة بما فيهـــا من جداول وأنهار • وماء عذب سلسبيل وثمار تشتهاها الانفس والاعين وما فيها من حور عين عذارى أبكار في منتهى الجمال وفي شباب دائم كان مغريا للبداة الحفـــاة ، العراة والجفاة ، الذين ألفوا شـــظف العيش والذين كانت حيـــاتهم صراعا لا ينتهي مع الطبيعة وما فيهـــا من مشاق لا تطاق • وتسرد جميع كتب المسلمين ما كان يسود المسلمين الاوائل من رغبة عارمة في الوصول الى النعيم المقيم عن طريق الاستشهاد • وحتى في عام ١٩٢٠ كانت هتافات الوهابيين وهم يقذفون بأنفسهم في اتون المعركة على أعدائهم •• الجنه يامسلمين الجنة •• ياحوارى الجنة •• جينا •• ونحن في الطريق •

وأخذ الاسلام في الانتشار ولكن ببطء برغم كل ما بذله الرسول

---

(١) لاتستغرب هذه الطريقة في الكتابة من المؤلف الذى لايؤمن بالاسلام • ولذا فان مناقشة اقواله في هذا الصدد لاتجدى فتيلا لانه غير مؤمن بالرسالة المحمدية •

(٢) سفر الملوك الاول ــ الفصل الخامس عشر ــ الآية الثالثة •

(٣) كذب صراح • فالاسلام لم يؤمن بالتثليث ، ولا يؤمن الا بالواحد الاحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ... اما المسيح فهو من روح الله ليس الا • (المعرب)

من جهد • ولم يكن عدد المسلمين قد تجـــاوز الخمسين حتى بعد أربع سنوات من بدء الرسالة • لكن سخط الكثيرين في مكة اشتد وتعاظم على هذه البدعة • فالمدينـة وقريش نفسها مدينتان بالـكثير من أهميتهما الى ما يبديه العرب فى كل مكان من اجلال لكعبتهم وما فيهـــا من أصنام وأوثان ، وهو اجلال سبق لى أن أشرت اليه عند الحديث عن غزو الاحباش لها فى ذلك العام المسمى بعام الفيل • وقد اشتدت المعارضة لمحمد عند قريش عندما راح يعلن لهم • ان آباءهم وأسلافهم يصلون السعير ونار جهنم لاشراكهم بالله • فالمعروف عن العرب انهم يوقرون جدودهم توقيرا شديدا ويجلونهم اجلالا جما • وكثيرا ما سمعت بعض البدو يقولون حتى فى أيامنا هذه وهم يحاولون تعزية رفاق لهم أو التسرية عنهم •• « رحم الله أباك وجعل الجنة مثواه » •

ولكن على الرغم من نقمة الكثيرين من القرشيين على تعاليم محمد فان العرف البدوى كان يحميه من غضبهم ونقمتهم • ومن الواجب علينا هنا أن نؤكد عاملا يصعب علينا اليوم فهمه تمام الصعوبة وهو عدم وجود أية حكومة في الحجاز فى ذلك الحين أى فى القرن الســـابع للميلاد • ويصعب علينا أن نتصور مجتمعا لا سلطة مسيطرة فيه توجهه ولا قوانين تحكمه ولا شرطة ولا أية وســـائل أو اجراءات تفرض العقاب • وكانت الامبراطوريتان الفارسية والبيزنطية بالطبع منظمتين غاية التنظيم على نحو ما نعرف ولكن شيئا من هذا النوع لم يكن موجودا فى الجزيرة العربية الا عندما كانت اليمن تابعة اما للاحباش أو للفرس(١) •

وكان الناس فى مثل هذه الظروف يجدون الامان والملجأ فى رحاب القبيلة التى ينتمون اليها • وكانت القبيلة تمنع جميع أفرادها وتحميهم من كل اعتداء خارجى ولـكن لم يكن هنـاك أى تعريف محدود للقبيلة • فالقبائل الكبرى التى تعد الواحدة منها عدة ألوف من الناس قد تشتبك فى معارك الواحدة منها مع الاخرى فى حين قد تنشب المنازعات وأحيانا الحروب وان كان على نطاق أضيق داخل القبيلة الكبرى نفسهـــا بين العشائر والاسر المختلفة • ولم تكن الحمـــاية التى تضفيها القبيلة أو

---

(١) لاأدرى لم هذا الانكار من جانب المؤلف ؟ لقد كان للعرب دول في اليمن كدولة حمير وقبلها دولتا سبأ ومعين • وكان لهذه الدول انظمتها أيضا • فلايجوز أن يقول ان العرب لم يعرفوا التنظيم الا عندما كانوا مستعمرين للاحباش أو الفرس الا اذا أراد أن يطبق قوله على حاضرنا فيزعم أن العرب لم يعرفوا النظام الا عندما كانوا مستعمرين له ولدولته بريطانيا ••• (المعرب)

العشيرة على أعضائها تعتمد على ما فى أعمالهم من تطابق مع الاخلاق أو نبو عنها • فالقبيلة تحمى ابنها اذا كان قاتلا أو سارقا تماما كما تحميه اذا كان بطلا أو قديسا وهو ما تفعله شركات التأمين عنـــدما تعوض على الخسارة الناجمة من حادثة سيارة سواء كان صاحب السيارة المؤمن عليها هو المسئول عن الحادث أو ضحيته •

فحيث تنعـدم السـلطات العـامة لا يكون ثمـة مجـال لعقوبة على جريمة • وجل ما يمكن الحصول عليه من المسىء هو التعويض أو اعادة الحق الى صاحبه • وتعين القبيلة أو العشيرة ابنها على ضمان حقوقه على هذا النحو أو على أن ينزل بخصمه ضررا هو عين الضرر الذى أنزلههو به • ويعترف العرب بالحـــق فى الثأر • العين بالعين والسن بالسن والروح بالروح •

وكان حق الانسان الذى لحق به الاذى فى أن يثأر ، ناجما عن عدم وجود آية سلطة عامة قادرة على حمايته •

كان محمد ينتمى الى بنى هاشم • وهم أحد البيوتات التى تضمها قريش والتى تسلسلت عن هاشم • وسواء أكان بنو هاشم مؤيدين لمـــا يقوم به من نشاط أم معارضين له • فقد كان العرف القبلى يفرض عليهم حمـايته من التعرض الى أى أذى بدنى أو عنف ، وكذلك حمـاية مريدية الشابين على بن أبى طالب وزيد بن حارثة ابن محمد بالتبنى • وكان غير هؤلاء من المسلمين القرشيين يلقون الحماية نفسهـــا من البيوتات التى ينتمون اليها • لكن بعض المسلمين كانوا على أى حال من العبيد أو الخدم ولم يكونوا يحظون بأية رعاية قبلية • ونفثت قريش سموم غلها وحقدها فى هؤلاء • ويقال ان قريشا أمسكت ذات يوم بعبد حبشى طويل القامة نحيل العود يدعى بلالا كان قد اعتنق الاســـلام فطرحه سيده أرضا فى وهج الشمس وحرارته وقد أثقل صدره بالحجارة الضخمة لتحول بينه وبين الوقـــــوف أملا فى ارغامه على الارتداد عن دينه • وعلى الرغم من العذاب الشديد الذى عاناه من الظمأ فقد ظل يهتف « أحد ، أحد ، أحد صمد » متحديا مضطهديه من المشركين • وكان أبو بكر الصديق الرجل الثرى التقى الذى وقف نفسه وروحه لدعوة محمد يستخدم ماله فى شراء العبيد المسلمين من سادتهم المشركين ليعتقهم ومع ذلك فقد ظل عدد من فقراء المسلمين يعانون العذاب والاضطهاد • وعلى الرغم من أن محمدا كان فى منجاة من الاغتيال الا انه كان يتعرض دائمـــا للعديد من المزعجات والاهانات • وكانت النسوة المشركات يقذفن الرســـول بالنفايات من

أسطحة منازلهن ، وأولادهن يلقونه بالاهانات فى الشوارع في حين تضع امرأة عمه أبى لهب الاشواك على عتبة داره لتدمى بها قدماه عندما يخرج حافيا •

وراح محمد ينصح أتباعه في عام ٦١٥ ، أى بعد خمس سنوات من نزول الوحي بالهجرة من مكة بعد أن عجز بما عرف عنه من طيبة خلق عن رؤيتهم وهم يعانون ويلات العذاب وصنوف الاضطهاد • وكانت الحبشة المملكة النصرانية قريبة لا يفصلها عن الجزيرة العربية الا البحر الاحمر وتمكن أحد عشر رجلا وأربع من النساء من الخروج من مكة والابحار الى الحبشة وبينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة محمد(١) •

وبدت آمال الدعوة المحمدية في أسوأ أوضاعهـــا • فلقد انقضت خمس سنوات على الدعوة ولم تحقق الا نجـــاحا جزئيا اذ لم يتحول الى الاسلام الا حفنة من النـاس بعضهم عاد فارتد عنه (٢) فى حين اضطرت غالبية الباقين الى الهجرة من البلاد وبدا ان محمدا قد ظل وحيدا باستثناء بعض ذوى قرباه من أمثال خديجة وعلى وزيد وصديقه الوفى المخلص أبى بكر • وعـلى الرغم من أن مـكة شـهدت أناســا يبحثون عن عقيـدة روحيـة سامية الا ان معظم هؤلاء كانوا من الفلاسفة الذين ينشدون معرفة الله لانفسهم ، وكان محمد قد أثار معارضة قريش له بهذه الحملة العنيفة التى شنها على الاوثان القائمة فى الحرم المكى ، وبتأكيداته المتوالية من أن اسلاف قريش يصلون نار جهنم وان الذين ينكرون دعوته من المواطنين ويرفضون رسالته سيصلون العذاب الدائم • وقد أدت معــارضتهم هذه وسخطهم الى النقمة على الحركة كلها • أو ليس ثمة من مجال لتفاهم أو ترضية ؟ لو انه خفف من غلواء هجومه على عقيدتهم فلربما تمكن من أن يقود أهله وأبناء مدينته بأساليب المهادنة التدريجية الى طريق البحث عن اله واحد •

ولا يقضى الناس فى أجواء الجزيرة العربية الحارة وقتا طويلا داخل بيوتهم • وكانت باحة الكعبة المكان الذى يلتئم فيه شـــمل أهل مكة

---

(١) تؤكد كتب التاريخ العربى ان عدد الذين هاجروا الى الحبشة كانوا ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة وعددا من الاطفال ويمثلون جميع بطون قريش • (المعرب)

(٢) لم يرد في كتب السير أو التاريخ العربى اى ذكر لمسلمين ارتدوا عن الاسلام في هذه الاونة ولا أدرى من أين جاء جلوب بهذه الرواية الغريبة التى لا أصل لها في كتب العرب • (المعرب)

ويعقدون اجتماعاتهم . فالبسط تنشر على الارض ويجلس شيوخ القبيلة في حلقات يتذاكرون شئون اليوم . وعندما تشتد الهاجرة تنقل البسط الى ظل الكعبة أو ظلال البيوت المجاورة . وكانوا لا يفتحون ندوة قصى الا فى الحالات النادرة وعندما يتســـاقط المطر أو تهب الزوابع الرملية ولم يكن فى هذه القاعة التى تطل على ساحة الكعبة أى فراش أو أثاث . وانما هى مجرد بنـــاء من الحجر المقـــوى بالطين والمسقوف بالاغصان والاخشاب والتراب .

وكان وجوه مكة وشيوخها يجلسون ذات يوم فى العراء على مقربة من الكعبة عندما اقترب منهم محمـــد واقتعد مجلسه معهم ، وبعد صمت قصير بدأ النبى يتلو على مسامعهم ســـورة النجم ، فيحدثهم عن الوحى والتنزيل وكيف وقف الملاك جبريل على بعد خطوتين منه ثم حدثهم عن زيارة الملاك الثانية « عند سدرة المنتهى » ثم مضى يقول : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى . افرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الاخرى . الكم الذكر وله الانثى ، تلك اذا قسمة ضيزى » ورأى ســادة قريش الرسول وهو يشهد لهذه الالهة الثلاث ثم رأوه فى نهاية السورة وهو يسجد فى صلاته فسجدوا معه جميعا وأخذوا يصلون معه(١) .

ولا ريب فى أن هذا الحادث يقيم الدليـــل على أن أهل مكة كانوا يعترفون بصورة عامة بوجود اله عظيم واحد . ولكنهم كانوا يرون أن آلهتهم المحلية هذه هى سبيل للوساطة عنده . وكانوا يقولون انهم على استعداد لاتباع النبى فى عبادة الله شريطة أن يكون على استعداد للاعتراف

---

(١) لاأدرى من اين جاء جلوب بهذه القصة المختلقة التى يظهر اختلاقها جليا واضحا في وقوفه عند هذا الحد من السورة الكريمة دون أن يكملها ثم انتقاله فجأة الى حـــادث السجود وهو يود أن يظهر وكأن الرسول قد سجد لاصنام الكعبة ... حقا انه اختلاق معيب .. فبعد الآيات الكريمة التى أوردها جلوب ووقف عندها تمضي السورة الكريمـــة قائلة .. « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للانسان ماتمنى . فلله الآخرة والاولى ... » الى أن تصل السورة الكريمة الى نهايتها .. « فاسجدوا لله واعبدوا » وهنا سجد الرسول لله تعالى لا لاوثان الكعبة كما يحاول جلوب ان يقول .. ومن هنا يظهر اختلاق القصة كلها .

(المعرب)

بدور آلهتهم الصغرى . وسرعان ما وقعت مهادنة آنية وتوقفت حملات العذاب والاضطهاد (١) .

ولكن الرسول ما فتىء ان عاد الى داره وشعر بضميره يعذبه فهل من الحق أن يهادن الشرك حتى ولو كانت غايته انقاذ اتباعه من الاضطهاد ؟ وظهر له جبريل من جديد وأخذ يعاتبه . وأحس بالالم والخوف من الله . انه لا يرضى عن تراجعه وقرر أن يتراجع عن موقفه السابق وأن يواجه من جديد غضب قومه . وعاد الى القوم فأكمل على مسامعهم السورة على النحو الذى يبدو فى القرآن . وأثار هذا التراجع سخط أهل مكة واستفزهم فعادوا الى اضطهاد المسلمين(٢) .

واستدعى القرشيون فى سورة غضبهم أبا طالب وناشدوه أن يتخلى عن نصرة ابن أخيه وأن يتراجع عما تفرضه عليه التقاليد القبلية وأن يسمح لهم بمحاسبة محمد . ورد الرجل الشيخ عليهم مهدئا ثم بعث فى طلب ابن أخيه مسرا اليه بمخـــاوفه وقلقه ولم يكن أبو طالب من المسلمين ، ولكن لم يكن فى وسعه أن يسحب حمايته لابن أخيه وهى الحماية التى تفرضها عليه التقاليد القبلية لا ســيما وانه يحبه حبا جما . أولا يمكن لمحمد أن يفعل شيئا ليساعده وذلك بسلوكه سلوكا يحمل طابع التهادن والتفاهم ؟ ولكن النبى عانى كثيرا فى قرارة ضميره منذ المحاولة السابقة فرد على عمه قائلا : « لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر ما تركته » .. ثم انخرط مجهشا بالبكاء . وقد تأثر عمه العجوز من بكائه واســـتدعاه الى جانبه مؤكدا له أن فى وسعه أن يمضى فى دعوته كما يشاء فهو لن يتخلى عنه .

وبينما كانت أوضاع المسلمين على هذا النحو من السوء تحـــول

---

(١) هناك ناحية أخرى تكذب هذه القصة . وهى القصة التى أوردتها جميع كتب السيرة والتاريخ الاسلامى عن مجىء أبى طالب الى النبى (صلعم) بعد أن هددته قريش اذ قال له .. يابن أخى ان قومك جاءونى وقالوا لى كذا وكذا فأبق على وعلى نفســك ولا تحملنى مالا أطيق فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه وانه ضعف من نصرته والقيام معه فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله او أهلك دونه ماتركته . ثم استعبر وبكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : اقبل يابن أخى ، فلما اقبل عليه قال له « اذهب فقل ماأحببت فوالله لاأسلمك لشيء أبدا » . (المعرب)

(٢) هذه هى تكملة القصة المختلقة التى لم أجد لها أثرا في كتب السيرة ، وأنا اعتقد ان جلوب قد نقلها عن بعض الكتب الغربية وحتى لو صح هذا الاعتقاد فان جلوب هو الملوم لانه لم يتثبت من صحتها من الكتب التاريخية . (المعرب)

شخصان الى الاسلام فأدى اسلامهما الى تحسن الوضع مؤقتا وأولهما حمزة عم النبي ، وهو محارب معروف مشهور بالفتوة والنجدة وقوة البنية وقد فرض مهابته على الناس ، وثانيهما عمر بن الخطاب من بيت آخر من بيوت قريش وكان معروفا بحدة الطبع كما كان حتى لحظة اسلامه من أشد أعداء الدعوة المحمدية •

وتروى القصة ان عمر مضى ذات يوم الى دار شقيقة له متزوجة وعندما دخل من الباب الخارجي سمع صوتا يقرأ شيئا لا يعرفه • واقتحم عمر الغرفة فرأى صهره وشقيقته يجلسان معا فبادرهما قائلا وهو غاضب «ما هذا الصوت الذى سمعته ؟ » فرد الاثنان معا « لاشيء » مع انهما كانا يتلوان في الحقيقة سورة «طه» من القرآن • وانبرى يوجه اليهما السباب، وقد استشاط غضبه فضرب صهره وركله بقدمه ثم لطم شقيقته على وجهها • وفجأة رأى الدماء تنزف من أنفها وفمها وسرعان ما هدأ غضبه وراح يقول لهما بهدوء وحنان انه يود أن يرى ما كانا يقرآنه وانه تأثر بالغ التأثر بما سمعه منهما • وأمسك صهره بيده ومضى به الى محمد الذى تقبل اسلامه ولم يمض عشرون عاما على هذا الحادث حتى كان عمر ابن الخطاب قد غدا أعظم حاكم في العالم •

وعلى الرغم من ان اسلام هذين الرجلين قد شجع النبى الا انه فى الوقت نفسه حفز كبراء قريش على أن يوسعوا من نشاطهم ضد الدعوة الاسلامية • وخافوا أن يؤدى اغتيالهم المسلمين من القرشيين الى منازعات دموية فى المدينة ولا سيما مع بنى هاشم • وقررت قريش مقاطعة بنى هاشم • ويبدو ان كل عشيرة كانت تقيم فى حى خاص بها فى مكة • ويبدو ان بنى هاشم كانوا يحتلون واديا ضيقا يقبع وراء صخور أبى قبيس الشاهقة التى تطل على المدينة • وقد أقام بنو هاشم فى هذا الوادى أو الشعب حيث قاطعتهم قريش بعد أن التزموا فىصحيفة كتبوها بألا يشتروا شيئا من بنى هاشم أو لا يبيعوهم شيئا ولا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم وأن يتجنبوا الحديث اليهم • ويبدو ان المشاعر القبلية كانت قوية الى الحد الذى دعا بنى هاشم جميعا الى الانحياز الى أبى طالب والاذعان للمقاطعة • على أن يتخلوا عن محمد على الرغم من أن معظمهم لم يكونوا قد آمنوا بدعوته ولم يخرج عليهم الا أحد أعمام الرسول وهو أبو جهل(١) الذى انضم الى قريش وظاهرهم وأوفدت قريش الى الحبشه

---

(١) أخطأ المؤلف ثانية فذكر أبا جهل وهو ليس بعم الرسول والمقصود في الحقيقة عمه أبو لهب • (المعرب)

رجلين(١) من رجالها لاقناع النجاشي برد مهـــاجرى المسلمين الى بلادهم ولكن البعثة منيت بالفشل • وهكذا انقضت السنة الســـادسة منذ بدء الدعوة والرسول مازال عرضة في كل مكان للزراية والسخرية والاضطهاد من قومه ، في حين كان قسم من أتباعه لا يزالون يقضون حياتهم في المنفى في الحبشة أما الباقون فمحاصرون في بيوتهم في مكة •

ودامت المقاطعة ثلاث سنوات ولم تؤد في النهـــاية الا الى تحول المشاعر نحو بني هاشم والعطف عليهم ولا سيما أن بعض هؤلاء المحاصرين لم يكونوا من المســـلمين وان لم تتبـــدل مشاعرهم تجـــاه الرسول نفســـه فقد تقرر في النهاية الغاء المقاطعة • واصبح محمد ثانية حرا طليقـــا في الانتقال في المدينة حيث يشاء • وفي هذا الوقت بالذات أعلن النبي ذات صباح انه أسرى به في الليلة الفائتة من مكة الى القـــدس حيث عرج منها الى السماء والتقى بالانبيـــاء والرسل كآدم وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم حتى وصل الى سدرة المنتهى • وقوبلت هذه الرواية بالسخرية من المشركين من أبنـــاء قريش وبالايمـــان العميق من أتبـــاعه وفي مقـــدمتهم أبو بكر •

وفجع الرسول وهو يعاني في دعـــــوته كل هذه الآلام بفجيعتين شخصيتين ففي ديسمبر (كانون الاول) عام ٦١٩ توفيت شريكة حياته الامينة خديجة ففقد بوفاتها ماكان يلقاه عندها من حب وحنـــان وعطف وتشجيع • ولم يمض الا شهر واحد على هذه الفجيعة حتى كان عمـــه وحاميـــه أبو طالب الوقور ينتقل بدوره الى الرفيق الأعلى ، وأحس محمد بهول الفاجعة فلقد ظل هذا العم له نحوا من أربعين عاما بمثابة الوالد الحنون والحامي الأمين • وعلى الرغم من أن أبا طالب لم يقتنع برسالة ابن أخيه السماوية الا انه احتمل الوعيد والتهديد والخطر والخسائر المادية في سبيل وقاية محمد من غل أعدائه وحقدهم •

وبدا مركز الرسول واهنا ويائسا في هذه الآونة • فلقد كان نفوذ أبي طالب هو الذي وحد بني هاشم في الدفاع عن محمد ، وانقضى طويل وقت دون أن يتحول الى الاسلام نفر جديد • والمسلمون مهددون بانفجار غضب قريش في أية لحظة من اللحظات وقد يؤدي هـــذا التفجر الى ابادة

---

(١) يقول المؤلف ان احد الرجلين هو عمرو بن العاص الذى فتح مصر فيمابعد وهذا صحيح اما الرجل الثاني ولم يذكره المؤلف فهو عبد الله بن ابى ربيعة •

(المعرب)

المسلمين المنشقين على قريش • وبدا أن مناعة قريش على الدين الجديد من النوع الذى لايمكن أن يخرق •

وكانت مدينة الطائف تقع على بعد أربعين ميلا الى الشرق من مكة فى واد فى سلسلة جبال الحجاز العالية • وتقيم قبيلة ثقيف فى هـذه البلدة • وراح محمد يرتحل راجلا الى هذه البلدة لا يصحبه الا زيد ولده بالتبنى ليدعو أهل البلدة الى الاسلام • وقصد اول ماقصد ثلاثة من رؤساء الطائف • ولكن حديثه اليهم لم يترك أثرا فى نفوسهم وانما ردوا عليه ساخرين : «اذا كان لابد لله أن يبعث رسولا أو لم يستطع أن يجد من هو خير منك لحمل رسالته ؟ » وعاد يجرب حظه مع أهل البلدة فى شوارعها فهزئوا به وسخروا منه وراحوا أخيرا يرشقونه بالحجارة مما اضطره الى مغادرة البلدة ناجيا بروحه والدماء تنزف من جراحة الكثر ولا معين له الا رفيقه الامين زيد الذى أصيب بدوره بعدة جراح • ولا ريب فى أن الرسول شرب فى ذلك اليوم كأس الأذى حتى الثمالة ويقال انه هتف بربه شاكيا له أذى الناس وطالبا رحمته وعونه • ولا ريب فى أنه عاد مرتعدا الى بيته فى مكة • ولم يخرج منه بعد ذلك الا فيما ندر الى الشوارع والاماكن العامة(١) •

وكان موسم الحج قد بات وشيكا وفى مثل هذا الموسم يفد الناس افواجا من انحاء الجزيرة العربية الى مكة ليحجوا الى كعبتها • ولما يئس من هداية أهله من قريش انصرف يحاول هداية بعض الوافدين من الحجاج • وانتهز فرصة لقائه بسبعة رجال من يثرب (المدينة المنورة) فدعاهم الى الجلوس معه فى ناحية ليتحدث اليهم فى هدوء عن أمر يهمهم (٢) • وكان أهل يثرب أخواله اذ يذكر القارىء أن جده الاول هاشما كان قد بنى بامرأة من أهل تلك المدينة • وأعرب الرجال السبعة بعد أن استمعوا طويلا اليه عن اقتناعهم بصحة رسالته • هنا سألهم

---

(١) رواية كاذبة مختلقة تجمع على كذبها كل كتب السيرة . فقد روت كلها ان الرسول عندما عاد الى مكة أرسل الى المطعم بن عدى يخبره انه يدخل مكة في جواره ، فأجابه الى ذلك ثم تسلح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم بعث الى رسول الله أن ادخل ، فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف الى منزله وفي ذلك يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول في رثاء المطعم لما توفي :

اجرت رسول الله منهم فاصبحوا عبيدك مالبى مهل واحرما

(٢) ستة رجال لا سبعة ... بذلك قالت كتب السيرة .

(المعرب)

الرسول عما اذا كان ممكنا أن يهاجر الى يثرب ليعيش فى حمايتهم(١) . ولكنهم ردوا عليه ردا حذرا وكان أهل المدينة يتفرعون الى قبيلتين هما الأوس والخزرج وكانتا فى حـــالة نزاع مستمر ، ولم يكن قد مضى أربع سنوات على نشوب معركة حامية الوطيس بينهما وهكذا لم تكن الحياة قد استقرت بعد فى المدينة وتردد هؤلاء فى أن يعـدوا محمدا بحمايتهم .

وقد وقع هذا الحديث مع رجال يثرب فى مارس عام ٦٢٠ ميلادية. وانقضى عام آخر فى حالة من القلق والترقب . وحل موسم الحج أخيرا واجتمع اثنا عشر رجلا من اهل يثرب الى النبى فى واد ضيق فى الجبال الواقعة الى الشرق من مكة . وقد أعلن هؤلاء ايمانهم بمحمد واقسموا على الا يعبدوا الا الله والا يطيعوا الا أمر نبيه . وان يمتنعوا عن نواهيه وبينها السلب والزنا ووأد البنات والكذب . كان الرسول يعدهم بأنهم اذا عملوا بهذه الشروط فان مثواهم الجنة فى الحياة الاخرى وقد اسميت هذه البيعة ببيعة العقبة(٢) ، وهو اسم الشعب الصغير الذى تم فيه أخـــذ المواثيق .

ولم يكن كسب اثنى عشر رجلا الى الاسلام فى بلدة تقع على بعد مائتين وخمسين ميلا عن مكة بالشىء المثير حقا . ولكن هؤلاء المسلمين الجدد عادوا الى يثرب يلهبهم حماس الايمـــان وشرعوا يكسبون الى صفوفهم المزيد من المسلمين من رجال الاوس والخزرج . يضاف الى هذا ان حالة الامن فى البلدة قد تحسنت . فلقد ارتضت القبيلتان برئيس واحد هو عبـد الله بن أبى ووضعتا بذلك حدا لعدائهما المستمر وأوفد النبى مصعب بن عمير من قريش وهو أحد المسلمين الاوائل الى المدينة ليعلم اهلها الدين الحنيف .

---

(١) هذه رواية كاذبة اخرى . فالرسول كما تجمع كتب السيرة لم يطلب الهجرة الى المدينة ولاسيما في ذلك اللقاء الاول فقد وقع بعد ذلك اللقاء بعام أى في موسم الحج التالى لقاء ثان مع اثنى عشر رجلا من أهل المدينة في العقبة يبايعوه على الاسلام ببيعـة تسمى في التاريخ ببيعة النساء ، وبعث معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين . وفي العام التالى أقبل مصعب على رأس جمع كبير من المسلمين واجتمعوا في الشعب عند العقبة الى النبى (ص) وكان عددهم (٧٣) رجـلا وامرأتين . وجاءهم النبى ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو لايزال على دين قريش . فدعا المسلمون من أهل يثرب النبى الى الهجرة الى المدينة فلم يقبل بها الا بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق وبعد أن أكدها (١٢) نقيبا من الاوس والخزرج كانوا بمثابة الكفلاء .

(٢) هذه بيعة النساء وليست بيعة العقبة كما أوردنا في الهامش السابق .
(المعرب)

وانقضى عام طويل آخر فى مكة • لكن اليأس لم يعرف طريقه الى محمد فقد تركزت أفكاره الآن على يثرب • ولم يقم بأية محاولة جدية فى مكة فى هذه الآونة للتبشير بديانته جهرا (١) • وهدأت سورة قريش بعض الشيء وانصرفوا من جديد الى امور تجارتهم وتكديس ثرواتهم •

وحل موسم الحج من جديد فى مارس عام ٦٢٢ . ووفد مصعب من يثرب الى مكة قبل الحج بأيام لينقل الى النبى انباء النجاح الذى حققه . وتم اعداد اجتماع بين النبى وبين أهل المدينة فى اليوم الاخير من الحج • وكانت طقوس الفريضة قد انتهت • وكان من المقرر أن تنفر قوافل الحجيج خفافا عند الفجر تضرب الصحراء طولا وعرضا عائدة الى بلادها • ووقع الاختيار على نفسه الشعب الصغير نفسه المسمى «بالعقبة» والواقع على بعد نحو من أربعة أميال من مكة وسط الجبال ليكون مكان اللقاء على أن يتم الاجتماع قبل ساعة من منتصف الليل . ووصل النبى راجلا يصحبه عمه العباس • وهنا تتجلى العصبية العائلية من جديد اذ ان العباس الذى كان الرفيق الوحيد لمحمد فى هذه المخاطرة الغريبة كان لايزال من المشركين • وأقعى الرجلان على بساط الصحراء فى هدأة الليل العميق • ولم تمض هنيهة حتى أخذ أهل يثرب يتوافدون أزواجا أزواجا ليتجنبوا العيون والارصاد • واجتمع ثلاثة وسبعون رجلا فى الوادى المدلهم الذى لا يضيئه الا قمر الصحراء يبعث بشعاعه الفضى . وراح احدهم يروى فيما بعد قائلا ... « اخذنا ندب الى المكان كالقطا لنجتمع الى رسول الله » .

وبعد ان خطب النبى فى القوم دعاهم الى ان يقسموا على الاخلاص له وعلى أن يتولوا حمايته فى يثرب اذا وفد اليهم . وكان البراء بن معرور وهو من سادة يثرب من أول الذين اقسموا على أن يمنعوا الرسول وسرعان ما لحق به الرجال الاثنان والسبعون يمرون فرادى بمحمد فى ظلمة الليل فيمسك الواحد منهم بيده ويهزها قائلا « ... أنا منك وانت منى ..» ورد النبى فى النهاية هاتفا «أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . واختير اثنا عشر رجلا من صفوة القوم ليكونوا كفلاء على عهد قومهم ، تقليدا كما يظهر ، لحواريى عيسى بن مريم وكان ثلاثة منهم من الاوس وتسعة من الخزرج • وتفرق المسلمون بهدوء بعد ذلك وعادوا

---

(١) ليس ثمة من دليل على أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تقاعس عن دعوته او توانى فيها ولكن استجابة قريش لها كانت بطيئة ومن هنا كان العدد القليل من المسلمين الذين أقبلوا على الدين الجديد فى هذه الفترة . (المعرب)

كما جاءوا أزواجا ، وأطلق على هـــذه البيعة فى التاريخ الاسلامى اسم بيعة العقبة الثانية . وقدر لهؤلاء السبعين بدويا عربيا الذين اجتمعوا على مسيل ماء فى مكان ناء من أرض العرب ان يغيروا مجرى التاريخ العالمى .

تواريخ مشهورة

	بعد الميلاد
تم الأمر لقصى فى مكة	٤٤٠
ولد عبد المطلب جد النبى	٤٩٧
احتل الأحباش اليمن	٥٢٢
عام الفيل ــ ولادة النبى	٥٧٠
وفاة عبد المطلب ــ محمد فى رعاية عمه ابى طالب	٥٧٨
زواج محمد بخديجة	٥٩٥
نزول الوحى	٦١٠
هجرة المسلمين الى الحبشة	٦١٥
وفاة خديجة	٦١٩
بيعة العقبة الثانية	٦٢٢

شخصيات مشهورة

عبد المطلب	جد النبى	
ابو طالب	عم النبى	
خديجة	زوجة النبى	
على بن ابى طالب	ابن عم النبى نشأ فى بيته	
زيد بن حارثه	ابن النبى بالتبنى	
ابو بكر الصديق	صديق النبى	شخصيات اسلمت ولعبت دورا فى التاريخ الاسلامى
عمر بن الخطاب		
عثمان بن عفان	زوج بنت النبى	
الزبير بن العوام	من أقارب النبى	
حمزه	عم النبى	
سعد بن أبى وقاص	من أقارب النبى	



دلو البئر

« وجد النبى الذى لا كرامة له فى عشيرته الولاء والاجلال فى مدينة الهجرة . وأخذ النبى يظهر تدريجيا فى صورة جديدة . فالنبى المضطهد يتحول الآن الى محارب ظافر . واذا فشلت نذر النبى وبشائره فى اقناع قريش فان سلطان الفاتح سيرغمهم على الاقتناع »

فريمان ـ تاريخ العرب

* * *

« اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين »

القرآن الكريم ـ سورة الانفال

* * *

« قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

القرآن الكريم ـ سورة آل عمران



أصـــدر محمد أمره بعد أيام من بيعة العقبة الثانية الى اتباعه بالهجرة سرا وفى جماعات صغيرة الى يثرب . وكانت غالبيتهم من الفقراء ولم تتمكن الا قلة منهم من الحصول على الابل فكان يركب البعير الواحد منهم رجلان • واضطر الكثيرون منهم الى قطع المسافة التى تقع فى (٢٥٠) ميلا راجلين . ولم تنقض سبعة أســـابيع أو ثمانية حتى كان جميع المسلمين قد هاجروا من مكة باستثناء النبى نفسه وابن عمه على بن ابى طالب وولده بالتبنى زيد بن حارثة ورفيقــه الامين أبى بكر الصــديق • وارتد عن الاســـلام نفر خوفا من أهلهم ، بينما حاله هؤلاء دون هجرة نفر آخر(١) • وجدير بنا أن نعترف هنا بأن محمدا أبدى جرأة منقطعة النظير ببقائه فى مكة حيث لم يعد يحظى بحماية عمه ابى طالب كبير بنى هاشم الذى انتقل كما روينا الى الرفيق الاعلى .

وأدركت قريش خطـورة ما وقع من تطـور وهالهـم أن المسـلمين أخذوا يقيمون فى يثرب الآن مجتمعا متلاحم الوشائج خارجا على نفوذهم وبعيدا عن متناول ايديهم ، وانهم شرعوا يكسبون الانصار الى جانبهم من أبناء القبائل الاخرى الذين قد يتحولون الى معاداة قريش ، واجتمع كبار القوم فىدار الندوة يتشاورون فى أمر محمد . ورأى بعضهم ان محمـــدا هو ســـبب كلّ ما يواجهونه من متاعب وان من الخير لهم لو تخلصوا منه فى اسرع وقت ممكن قبل ان يتمكن من اللحاق باصحابه فى يثرب . واعد أبو جهل عم النبى (٢) والذى كان قد خرج على بنى هاشم ابان المقاطعة وكان من أشـــد خصوم النبى واعدائه خطة لقتل النبى والخلاص منه • واقترح أن تختار كل قبيلة من قريش شابا من فتياتها ، وان يشترك هؤلاء جميعا فى قتله ليتفرق دمه فى القبائل كلها فلا يستطيع بنو هاشم حرب القبائل مجتمعة ثأرا لمحمد ووصلت انباء المؤامرة الى مسامع النبى فخرج من داره الى أبي بكر، وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه اليها ثم هيـأ ما يلزم لهذا السفر • وأمر

(١) ليس هناك اى تأييد لادعاء المؤلف بان نفرا من المسلمين قد ارتدوا عن الدين في هذه الاونة ،.

(المعرب)

(٢) يصر جلوب على خطئه الكبير في الخلط بين أبى جهل وأبى لهب وتسمية الاول بعم النبى ا،. (المعرب)

النبى ابن عمه عليا وكان قد بلغ الآن العشرين من عمره بأن يتسجى ببرده وان ينام مكانه لئلا يرتاب أحد فى وجوده ببيته ، وعندما جن الظلام خرج النبى وصاحبه أبو بكر من خوخة لابى بكر فى ظهر بيته وراحا يتسلقان الصخور فى بطن الجبل المسمى بجبل ثور ، والواقع بأسفل مكة حيث قررا أن يلجئا الى غار هناك يقيمان فيه حتى تهدأ الضجة وتعدل قريش عن طلبهما . وكان أبو بكر قد أعد للامر عدته وأمر ابنته اسماء أن تأتى اليهما بالطعام فى كل مساء بعد ان يجن الدجى كما أمر ابنه عبد الله بالبقاء فى مكة يتسمع لهما الاخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر واتماما للخطة أمر مولاه بأن يرعى غنمه نهاره مارا بها أمام الغار ليعفى اثر عبد الله وأسماء ، وهيأ فى غضون ذلك راحلتين على استعداد فى كل لحظة للسفر . وحمل أبو بكر وهو التاجر الحصيف معه كيسا من النقود أما محمد فلم يحمل معه شيئا لأنه لا يحسب للمال أى حساب . وكان الرجلان من أبناء المدينة ولا علم لهما بالصحراء ودروبها ، ولم يكن من السهل عليهما أن يعرفا طريقهما الى المدينة الا اذا اتبعا طريق القوافل المألوف ولهذا قرر ابوبكر ان يستأجر دليلا يرشدهما الى الطريق وهو من الذين سبق لهم التعامل مع أبى بكر وان كان من المشركين .

ولم يكد رجال قريش يسمعون بفرار محمد حتى هاجوا وماجوا وبعثوا بالرسل فى طلبه الى كل مكان وجعلوا لمن يأتيهم به حيا أو ميتا مائة ناقة . وكان فى مكنة العائلة البدوية الواحدة ان تعيش على خمس نياق ، ولهذا كانت الجائزة كافية لخمس أسر . ولم يكن المكيون أنفسهم خبراء فى الصحراء ومسالكها ومجاهلها بحيث يستطيعون القيام بالبحث عنه بانفسهم . واستمرت ضجة البحث ثلاثة أيام بلياليها . وجاء عبد الله ابن أبى بكر فى نهاية اليوم الثالث ينبئهما بأن الطلب فى أثرهما قد هدأ وأن فى مكنتهما أن يبادرا بالرحيل فأمره أبوه بأن يأتى بالراحلتين فى اليوم التالى .

ووصلت ثلاث رواحل فى المساء التالى بعد أن جن الليل الى فتحة الغار وكانت اسماء قد حملت معها بعض الطعام وحزمته الى احدى الرواحل بنطاقها وامتطى الدليل بعيره . وحمل أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة خلفه واستقل النبى البعير الثالث . ومضى الركب فى طريقه يهبط مع الجبل نحو الساحل، وقد سار الدليل فى المقدمة وبعد مسيرة طويلة نحو الغرب تحرك الركب نحو الشمال مع الساحل ليعود من جديد فيقطع طريق القوافل عند عسفان ويتبع طريقا غير مطروق عبر التلال . ويقال ان فارسا

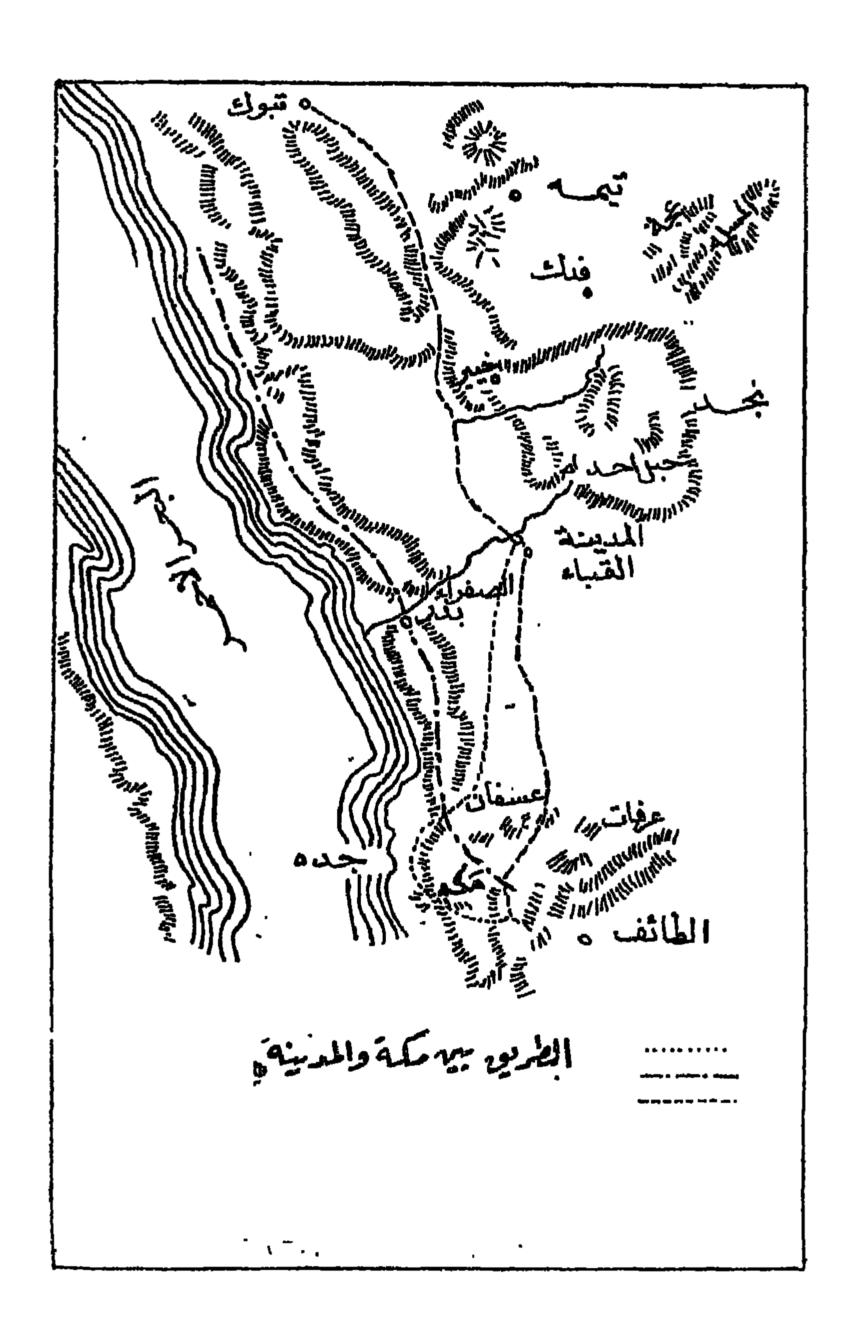
من العرب قد تمكن من اللحاق بالركب • وكان يطارده طمعا فى الجائزة التى رصدتها قريش ولكن النبى ورفيقه تمكنا من اقناعه بعدم افشاء طريقهما الى قريش • على أى حال لم تكد أنباء الطريق التى سلكها الركب تصل الى مسامع قريش حتى كان النبى وصاحبه قد أصبحا فى نجوة من المطاردة •

وكانت أنباء خروج الرسول من مكة قد سبقته الى المدينة ولم يكن المهاجرون قد عرفوا بأمر اختفائه فى الغار أربعة أيام فلما انتهت المدة التى قدروها لوصوله الى المدينة ولم يكن قد وصل بعد عمهم القلق • وكانوا يخرجون فى كل يوم فيرتقون الجبل الى الجنوب من المدينة يتطلعون بلهفة الى الافق البعيد فى الطريق الذاهب الى مكة يحرقهم الشوق الى رؤية الركب . وما كانوا ليعودوا الى المدينة الا فى الهاجرة عندما يشتد وهج الشمس ويكثر السراب قاطعا الرؤية الى مسافات بعيدة . وبعد ظهر الثامن والعشرين من يونيو (حزيران) عام ٦٢٢ ميلادية (١) قطع المسافرون المجهدون المرحلة الأخيرة عبر الجبال الصخرية الجرداء التى تغطى سفوحها فى هذا المكان صخور بركانية سوداء لانبات فيها ولا طير ولا عشب ولا شجر •

وعندما اجتازوا أخيرا المضيق امتدت أمامهم مناظر ورؤى مختلفة كل الاختلاف فبدلا من مكة القاحلة التى الفوها بشعابها الصخرية الجرداء رأوا أمامهم يثرب وقد أحاطتها الآبار والينابيع وأبصروا بواد تقع فيه المدينة وقد اكتظت فيه أشجار النخيل وامتدت على مرأى البصر الحقول المزروعة الخضراء تبعث الراحة فى النفس والطمأنينة الى البصر بعد أن كاد يعشى من وهج الصحراء • وامتدت فوق ذلك الوادى الواسع مساكن لا عد لها ولا حصر تقع فى مجموعات تقيم فى كل مجموعة منها تكاد تشبه القرية القائمة بنفسها عشيرة من العشائر التى تؤلف أهل المدينة • وقد أحاطت كل منها قريتها بالحصون والقلاع المبنية من الحجر والطين . ولا ريب فى أن هذا الوادى الخصيب يوحى بعد الصخور المحرقة والقمم الجرداء السامقة بالوفرة والامن والطمأنينة والرضا . ومضت القافلة الصغيرة خببا الى قباء ، الواحة الاولى من واحات يثرب

كانت المدينة مأهولة عندما هاجر اليها النبى بقبائل عدة منها العربية ومنها اليهودية • (أرى من الاسهل التمييز بينها على هذا النحو ، وان كان من يدعون باليهود قد لا يخرجون عن كونهم عربا تحولوا الى

(١) يجمع مؤرخو العرب على ان وصول النبى الى المدينة كان يوم الجمعة فى الثانى عشر من ربيع الاول المصادف ٢٤ سبتمبر (أيلول) عام ٦٢٢ ميلادية .
(المعرب)



الطريق بين مكة والمدينة

اليهودية) . وكان اليهود ينقسمون الى ثلاث قبائل تعمل اثنتان منها فى الزراعة وتعيش على زراعة النخيل والحبوب أما الثالثة فتضم فنيين يعملون فى صياغة الذهب والفضة وصناعة الاسلحة . أما العرب فكانوا قبيلتين ، الأوس والخزرج ولم تكن قد انقضت أربع سنوات على توقف الحرب بينهما ليحل محلها السلام وليصبح للقبيلتين رئيس واحد هو عبد الله بن أبى يتولى قيادتهما وزعامتهما معا .

وهكذا كان عبد الله بن أبى عند وصول الرسول أقوى زعيم عربى فى واحة يثرب كلها ويبدو ان ابن ابى هذا لم يعترض على مجىء النبى فى البداية اذ كان مهاجرا لا حول له ولا طول . وعلى الرغم من أنه ينتمى الى الخزرج فلقد رفض عندما نشبت الحرب بينها وبين الاوس ان يشترك مع قبيلته وظل يعمل من اجل السلام والتفاهم ، ولا ريب فى ان الشهرة التى اكتسبها بحياده واعتداله هى التى اقنعت القبيلتين بقبوله رئيسا لهما معا . ولكن عبد الله هذا ما لبث ان وجد نفسه بعد ان اخذ نفوذ النبى فى التزايد والقوة وقد انتقل الى مرتبة ثانوية . ومن المحتمل ان تكون الغيرة قد لعبت دورها فى نفسه .ولكن الشىء الثابت ان حقدا خفيا تولد فى نفسه على المسلمين وعلى الرغم من أنه تحول الى الاسلام بعد قليل الا ان النبى كثيرا ما ساورته الشكوك فيه وبأنه ينشر الشائعات والدسائس ضد المسلمين . ويبدو ان الاشارات الكثيرة عن المنافقين التى وردت فى أوائل السور القرآنية المدنية انما كانت ترمز الى عبد الله ابن أبى ومؤيديه .

ولم تجهر قبائل اليهود بعدائها للنبى منذ بداية الامر ولا سيما أن محمدا كان قد أعلن أن العقيدة التى يبشر بها ويدعو اليها ليست الا ملة ابراهيم حنيفا . وكان المسلمون حتى تلك الساعة يتوجهون فى صلاتهم الى القدس ، كما كان النبى ميالا كل الميل الى التواد معهم ولذا فقد عقد معهم اتفاقا يقضى بالتعاون المتبادل .

وعم الفرح المهاجرين بوصول النبى سليما معافى وهو فرح سرعان ما اشترك فيه عرب الاوس والخزرج الذين كان معظمهم لا يزال على الشرك . ولم يكن فى وسع اليهود أن يرفضوا ايواء المسلمين فى يثرب فحق الجار فى المنعة والحماية حق مقدس يفرضه الشرف على جميع القبائل العربية . وانتشرت الانباء السارة بوصول النبى سالما كالبرق بين المهاجرين والأنصار . وهرع الناس من كل فج والفرحة تعلو وجوههم يهتفون بصوت واحد ... «لقد أقبل ... لقد أقبل» وانتقلت هذه العبارة من شفة الى شفة وكأنها الرسالة السحرية .

وعلى الرغم من هـذا الاستقبال الودى والسعيد فان الرسول .كمـا يبدو كان على علم بطبيعة وضعه الغريب فى المدينة ولم يكن عدد المهاجرين يربو على السبعين رجلا • أما عدد الانصار من أهل المدينة فكان يزيد على عددهم •• وكان معظم المهـاجرين لا يملـكون شيئا فقد نجوا من بلدهم بجلدهم مخلفين وراءهم كل ما يملكونه • وقد يقع الاحتكاك بسهولة بين الجماعتين ، ورغبة من محمـد فى عدم وقوع أى خلاف آخر بين المهاجرين والأنصار كتب عهدا بينهم كما كتب عهدا للمجتمع الاسلامى الجديد أكد فيه أن جميع المسلمين يؤلفون جماعة واحدة وان على كل مسلم أن يقف الى جانب أخيه المسلم والاينصر مشركا عليه• وعنى هذا التنظيم الغاء العصبية العـائلية والقبلية القوية وان يستعاض عنهمـا بتضامن يشـمل المجتمع الاسلامى كله •

وابتاع أبو بكر بأمواله بعـد أيام بستانا من بسـاتين النخيل على مقربة من وسـط الواحة • وبدأ العمـل فى بنـاء المسـجد وبنـاء دار (لا نعتقد أنهـا أكثر من مجرد بيت صـغير عادى) يقيم فيها الرسول • وراح المهاجرون والانصار يعملون معا فى بناء المسجد وهم ينشـدون وهم يضعون الطوب واحدة فوق أخرى وعلى رأسهم النبى وقد تعـالى انشادهم قائلين : « اللهـم لا عيش الا عيش الآخـرة ••• اللهـم ارحم الانصـار والمهاجرة » .

وأراد محمد أن يضرب المثل لرجاله فشرع ينشد معهم ويشترك فى البناء ويتولى على بن أبى طالب قيادة الجمع فى النشيد •

والحداء عنـد العرب أثنـاء العمل كأغانى البحر عند الملاحين ، عادة قديمـة قدم التاريخ كله .• ويبتكر كل واحد من الذين يعملون بيتـا ينشده فيردده الآخرون معه وكأنهم أفراد جوقة موسيقية الى أن يقوم آخر فيطلع ببيت جديد ينتقل اليه المنشدون ولا ريب ان كل من رآى جماعات من العمال العرب ينشـدون ابان ادائهم العمل يستطيع ان يتخيل أو يتصور هذا المنظر الجميل •

وكان النبى ذا مزاج رقيق ومولعـا باطلاق النعوت والاسماء ولذا فقد أطلق على مسلمى المدينة اسم الانصـار وعلى لاجئى مـكة اسم المهاجرين وقد قدر لهذين الفريقين اللذين لم يرب عدد أفرادهما على بضع مئات أن يؤلفا ولعدة قرون الطبقة الارستقراطية فى الاسلام وان تتردد أسماؤهم على كل شفة ولسان فى العـالم الذى يضم ملايين المسلمين •

ولم يمض طويل وقت على وصول النبى الى المدينة حتى كان يبنى بعائشة ابنة صديقه أبى بكر الذى رافقه فى هجرته من مكة ، وتقول كتب التاريخ العربى : انها كانت فى التاسعة من عمرها عندما تزوجها النبى وكان فى الثالثة والخمسين • وقد تزوج الرسول قبل وفاته باحدى عشرة امرأة لكن هذه الحقيقة يجب ألا تعزى مطلقا الى ان النبى كان مغرقا فى حياته العاطفية فلقد ظل خمسا وعشرين سنة الزوج الوفى المخلص لامرأة واحدة هى خديجة مع أنها تكبره سنا وانما لأسباب أخرى بعضها سياسى وبعضها شخصى ، فلقد كانت عائشة هى الشابة الوحيدة التى اختارها • أما الباقيات فكن أرامل • وقد اختارهن الرسول كما يبدو لدوافع سياسية لتوثيق الصلات بينه وبين الاسر التى ينتمين اليها • وتظهر الحقيقة الواقعة وهى ان معظم زيجاته قد تمت فى خمسينات حياته ، ان من الدوافع أيضا رغبته فى أن تلد احداهن له ولدا يظل على قيد الحياة اذ من المعروف عنه انه كان مولعا بالاولاد •

* * *

وكان النبى قد أظهر طيلة الاثنى عشر عاما التى انصرمت منذ بدء الرسالة فى مكة درجة غير عادية من الصبر والاحتمال لكل ما وجه اليه من أذى وسوء معاملة •• أما الآن فقد تحولت طبيعته تمام التحول • وراح يقول للمسلمين ان الوحى قد أمره بفرض الجهاد على المسلمين ضد المشركين • وكان موقع المدينة من الناحية السوقية (الاستراتيجية) يمكنها من أن تكون قاعدة صالحة للعمليات الحربية ضد مكة •

ولقد سبق لى أن أوضحت ان مكة كانت تعيش فى هذا الوقت بالذات على تجارة القوافل بين اليمن وسوريا أما أهل المدينة فكانوا يعيشون حياة مغايرة تماما لحياة أهل مكة : اذ بينما تقوم المدينة الاخيرة فى واد ضيق تحرقه أشعة الشمس اللاهبة بين سلاسل التلال الصخرية الجرداء من كل نبات ، كانت المدينة تقبع فى منخفض أوسع ترويه مياه الآبار وكان أهلها يعيشون على ما تنتجه حقولهم الخضراء وبساتينهم فى حين كان أهل مكة القاحلة يعيشون على مغامراتهم التجارية التى تمتد الى مسافات بعيدة •

ولقد وقع حادث بعد وصول النبى الى المدينة يشرح لنا شرحا وافيا جهل أهل مكة بالشئون الزراعية • فالمعروف ان أشجار النخيل على نوعين منها الذكر ومنها الأنثى • ويتسلق الزارع فى كل عام الشجرة الذكر فيأخذ منها لقاحها ليطعم به الأشجار الاناث • ولم يكن النبى قد سمع

بهذه العملية من قبل وعندما وصل الى المدينة راح يأمر بمنعها وبالطبع لم تثمر أشجار أولئك الذين أطاعوا أمر الحظر مما دعا النبى الى الغائه والاقرار بعدم معرفته بالشئون الزراعية (١) ٠

وتتألف السواحل الغربية للجزيرة العربية من سهل ساحلى يضيق عرضا ويتسع طولا وتقوم وراءه سلسلة من الجبـــال الجرداء ذات القمم العالية تقوم وراءها هضبة نجد الفسيحة الواسعة التى تمتد نحـــوا من ستمائة وخمسين ميلا لتهبط بصورة متدرجة باتجـــاه الخليج العربى ٠ وكانت قوافل المكيين تتجه شمالا الى سوريا على طول الطريق الممتد فى السهل الساحلى مارا بين المدينة وساحل البحر الأحمر وهى فجوة لا يتسع عرضها أكثر من ثمانين ميـــلا ٠ ومن هنا كان مسلمو المدينة على مرمى تستطيع القوات الضاربة استخدامه لقطع شريان الحياة التجارى الممتد بين مكة وسوريا ٠

وكانت الخطط السوقية التى اتبعها النبى بين عامى ٦٢٣ و ٦٣٠ هى عين الخطط السوقية التى أتبعها فيصل ولورنس فى الحملة بين عامى ١٩١٦ ، ١٩١٨ ٠ فلقد احتفظ الاتراك فى الحرب العالمية الاولى بحاميات ضخمة فى مكة والمدينة وكانت هذه الحاميات تعتمد فى بقائهـــا لا على قوافل الابل بل على الخط الحديدى بين المدينة ودمشق ٠ وقد عزز الامير فيصل ولورنس مواقعهما الى الشــــمال من المدينة حيث كانا فى وضع يمكنهما من قطع شريان حياتها مع سوريا ٠

لكن عمليات النبى العسكرية لم تبدأ على الفور على أى حال ٠ فلقد انقضت ستة أشهر على الأقل قضاها محمد فى توطين المهاجرين فى المدينة وفى تثبيت مكانته الشخصية بين أهلها ٠

لكن بعض المهـــاجرين كانوا قد أصبحوا فى غضون ذلك فى أمس الضيق والحــاجة ، وكان بعضهم قد ترك أهله فى مكة ولم يكن يجد مكانا يأوى اليه لينام الا فى ساحة المسجد المكشوفة ٠ وكان عدد منهم يعمل لحساب أهل المدينة وان كانوا كما ذكرنا من قبل يجهلون كل ما يتعلق بالشئون الزراعية ٠ وقد أحس النبى نفسه بما يعانيه اتباعه من ضيق وجوع ٠ وكان فى استطاعته بالطبع أن يحيا حياة أسعد ولكنه لم يكن

---

(١) لم ترد هذه القصة الا في كتاب واحد من كتب التـاريخ الاسلامى في حين لم تشر اليها كتب السيرة الصحيحة ، مما قد يوحى باختلاقها من قبل بعض الشـعوبيين الذين تظاهروا بالاسلام ليحاولوا افساده ٠ (المعرب)

ليرغب في أن يعيش في رخاء ودعة في حين أن أتباعه يتضورون جوعا • ولقد ذكرت عائشة بعد سنوات طويلة أن بيت النبي كان يخلو اسبوعا بعد اسبوع من الحطب اللازم لاشعال النار كما لم تكن هناك حاجة الى اشعال النيران اذ لم يكن في البيت ما يصلح لان يطهى وكان غذاؤه وأهل بيته التمر والماء •

وكان الغزو بالنسبة الى العرب وسيلة طبيعية للخلاص من العوز • ولقد تولت القيام بالغزوات الصغيرة الاولى جماعات صغيرة من المهاجرين • ولم يشترك أهل المدينة في هذه المشروعات لكن أهل مكة والمدينة على السواء لم يكونوا قد ألفوا العمليات الحربية • وهي العمليات التي يقضي فيها البدو الرحل أوقات فراغهم • ولا تعرفها الجماعات التي تعمل في التجارة أو الزراعة • لكن أيا من الغزوات الاولى لم تحقق نجاحا مذكورا فلقد كانت أنباء الحملة تصل الى قريش قبل وقوعها في حين كانت الأنباء التي تصل الى المسلمين اما متأخرة أو مفتقرة الى الدقة • وفي خريف عام ٦٢٣ ميلادية مرت قافلة كبيرة تضم نحوا من ألف بعير محملة بالبضائع التي تملكها قريش ويتولى قيادتها أبو سفيان أحد كبار أعداء النبي في مكة قاصدة الشمال الى غزة • وقد حاول المسلمون قطع الطريق عليها في ذهابها ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك •

ولكن بينما كان رجال مكة والمدينة يعيشون في هاتين المدينتين كانت الصحراء الفسيحة المكشوفة ماهولة بقبائل متفرقة من البدو وتعيش على الرعي • وبدأ النبي يدرك ان مساعدة هؤلاء البدو ضرورية لنجاح حملاته الصحراوية ولذا فقد شرع بصورة تدريجية يقيم علاقات معهم ولا سيما مع قبيلة جهينة التي كانت تقيم آنذاك كما تقيم اليوم بين المدينة والبحر •

وكان من المتوقع في يناير (كانون الثاني) عام ٦٢٤ ميلادية أن تمر قافلة أبي سفيان على مقربة من المدينة في طريق عودتها من الشمال وقرر النبي أن يضع يده عليها • ولكن خطة النبي سرعان ما عرفت ووصل التحذير الى أبي سفيان وهو على مقربة من الزرقاء (في شرق الاردن على بعد ١٠٠ ميل الى الجنوب من دمشق) في طريق عودته من سوريا • وسرعان ما أوفد أبو سفيان رجلا الى مكة يستنفر قريشا الى حمل السلاح ويطلب اليهم أن يرسلوا قوة لملاقاته على مقربة من المدينة تتولى حراسة القافلة وحمايتها من الخطر •

وفى الثامن من يناير(١) (كانون الثانى) عام ٦٢٤ ميلادية خرج محمد على رأس قوة قوامها (٣١٤) رجلا منهم ثمانون من المهاجرين ومائتان وأربعة وثلاثون من الانصار من المدينة لقطع الطريق على القافلة • وكان المسلمون على درجة من الفقر بحيث لم يستطيعوا توفير أكثر من سبعين بعيرا وجوادين لاستخدامها فى الحملة ففى آماد الصحراء الفسيحة لم يكن فى وسع المحاربين أن يقاتلوا راجلين وكان الافتقار الى الحيوانات يحد كثيرا من قدرتهم على الحركة •

وعندما وصل النبى بجيشه الى الصفراء التى تقع على بعد ستين ميلا الى الغرب من المدينة أوفد رجلين من عيونه يستطلعان أحوال الآبار فى بدر على طريق القوافل الى سوريا وهى الطريق التى لابد لقافلة أبى سفيان من سلوكها • وسمع الرجلان من بعض النسوة وكن يملأن الجرار من البئر بأن من المتوقع وصول قافلة كبيرة فى اليوم التالى فعادا بسرعة الى النبى ينقلان اليه ماسمعاه ليتمكن من نشر قواته قبل الموعد المنتظر •

وبينما كان محمد على بعد خمسة وعشرين ميلا الى الشمال الشرقى من بدر ينتظر وصول كشافيه وتقريرهما كانت قافلة أبى سفيان على بعد مماثل من الآبار الى الشمال الغربى وكانت تسير ببطء نحوها مصممة على الوصول اليها للسقاية من مائها • لو واصل الفريقان سيرهما على النحو الذى كانا يسيران فيه آنذاك لالتقى المسلمون بالقافلة المكية على الآبار فى اليوم التالى • ولكن أبا سفيان كان قائدا مجربا ومحنكا للقوافل • وكان القلق قد استحوذ عليه اذ لم تصل اليه أنباء من الرجل الذى أوفده ولا عن الحامية التى طلبها من مكة لتتولى حراسته وأيقن ان الساعات الاربع والعشرين القادمة ستكون حرجة كل الحرج وخطرة كل الخطورة • وكانت بدر أقرب نقطة الى المدينة على الطريق التى يسير فيها • فقرر أن يمضى قبل القافلة الى بدر ليستطلع الوضع بنفسه • وعندما وصل الآبار وجد شيخ جهينة القبيلة البدوية التى تقيم فى الناحية فسأله عما اذا كان قد رأى غرباء فى المنطقة ورد البدوى بالنفى قائلا انه لم ير سوى رجلين على ناقتيهما غادرا المكان قبل قليل بعد أن وردا البئر• وترجل أبو سفيان عن ناقته كما يفعل أى مسافر فى الصحراء ومشى حذرا الى البئر متطلعا الى الارض بامعان الى أن عثر على آثار البعيرين

---

(١) يقول الاستاذ الخضرى طبقا لتقويم محمد مختار المصرى ان خروج النبى من المدينة كان في الخامس من مارس (اذار) عام ٦٢٤ • (المعرب)

وهداه بحثه الى العثور على بعض روثهما ففركه بين أصابعه ووجد بعض نوى التمر فيه وسرعان ماميزه بأنه من أنواع التمر التى يثمرها نخيل المدينة • فلقد كان يعرف أن ليس فى البدو من يطعم بعيره تمرا • وقرر على الفور أن الرجلين لابد وأن يكونا من أهل المدينة وانهما من عيون محمد • الذى لابد وأن يكون قد نصب كمينه على مقربة لاصطياد القافلة• وراح أبو سفيان يمتطى بعيره ليغذ به السير عائدا الى قافلتـه التى تدب فى طريقها الى بدر ليلقاها قبل أن تصل •

وكان الرسول الذى أوفده أبو سفيان من سورية الى قريش قد وصل الى مكة وان لم يعلم بوصوله محمد أو أبو سفيان • وكان أهل مكة قد فزعوا على أموالهم فراحوا الى سلاحهم ينتضونه والى ابلهم يركبونهـا ليسرعوا الى انقاذ القافلة وخرجت من مكة قوة تضم سبعمائة وخمسين رجلا من راكبى الابل ومائة من الفرسان المدرعين بالزرد(١) وراحت هـذه القوة تغذ سيرها على طريق القوافل الى بدر قادمة من الجنوب وهكذا كانت الفئات الثلاث تتقدم الى المكان نفسه والواحدة منهـــا لاتعرف شيئا عن الاخـــرى •

والتقى أبو سفيان الداهية بقافلته على بعد بضعة أميال الى الشمال من بدر وأمر بتحويل اتجاهها غربا نحو الساحل وأخذ بعد ذلك يتابع السير فى الليل والنهار دون توقف مارا على بعد اثنى عشر ميلا الى الغرب من بدر ومتجها الى الجنوب بأقصى ما أمكنه من سرعة الى أن غدا فى نجوة من الخطر •

وبينما كانت القافلة تفلح فى الافلات من الخطر كانت قوة النبى المؤلفة من ثلثمائة رجل يتناوبون الركوب على السبعين بعيرا التى ترافقهم تتقدم ببطء نحو بدر انتظارا لوصول القافلة الضعيفة الحراسة اذ لم يكن يتولى حراستها أكثر من ثلاثين رجلا يواجهون ثلثمائة محارب من المسلمين ، ولكن قبـل أن يصل المسلمون الى بدر قابلوا بعض المسافرين الذين أبلغوهم ان قوة من قريش تضم نحوا من ألف رجل هى فى طريقها لانقاذ القافلة • وكان هذا أول نبأ وصل الى النبى عن أن قريشا قد استنفرت رجالها لحماية قافلتها المعرضة للخطر • وفزع النبى من هذه الأنباء ولا سيما أنه لم يكن قد عرض ولاء مسلمى المدينة لمحك التجربة

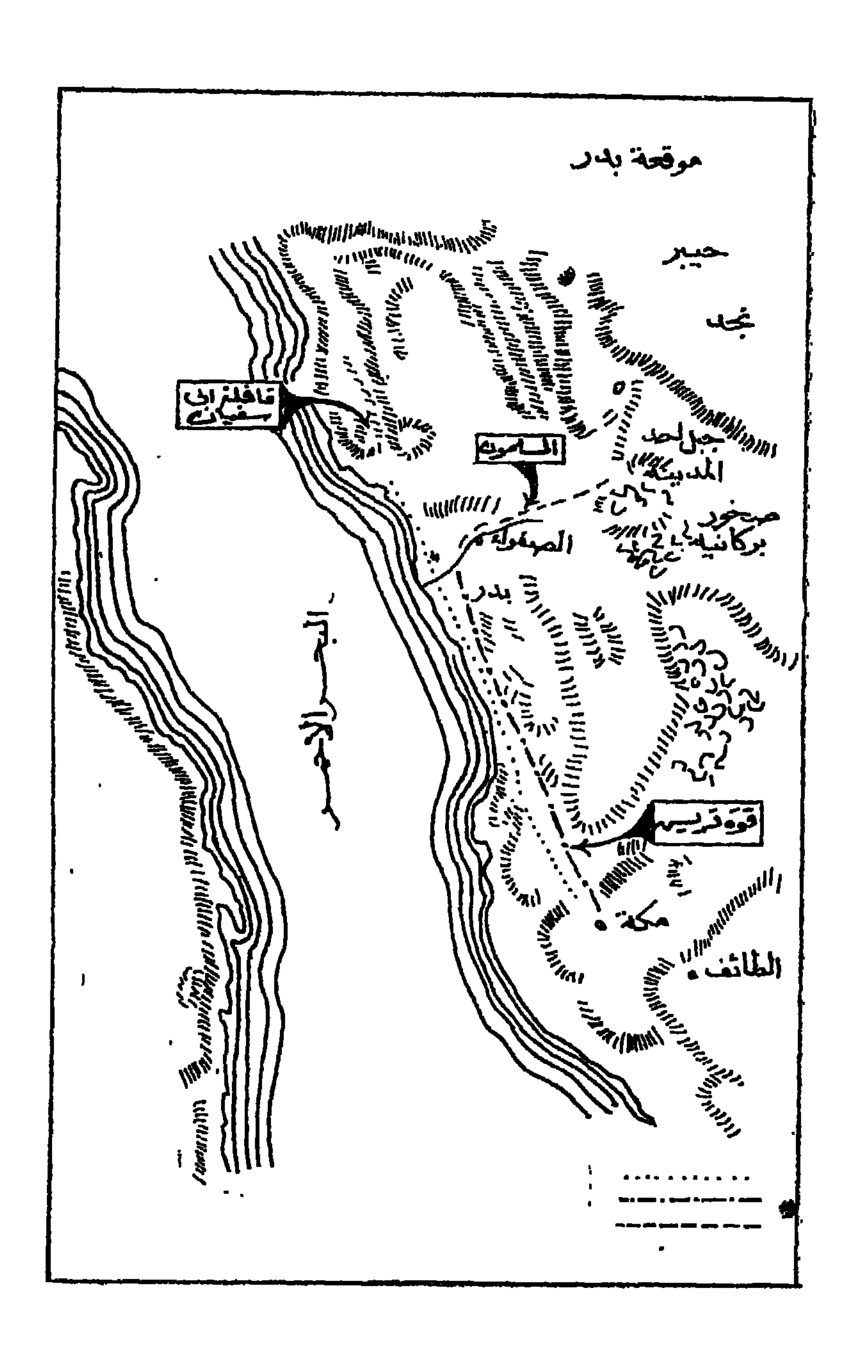
---

(١) قدرت كتب التاريخ العربى عدد محاربى قريش بالف ما بين فارس وهجان .
(المعرب)

العملية بعد فعقد مجلسا عسكريا للتشاور فى الامر فأيدوا جميعا رغبتهم فى المضى الى القتال •

وعندما اقترب النبى من بدر أوفد على بن أبى طالب على رأس جماعة من الكشافين لاستطلاع الوضع فلما وصلوا البئر باعتوا رهطا من قريش كان يستقى الماء • وقال لهم هؤلاء ان رفاقهم قد وصلوا فى هذه اللحظة الى مسافة بضعة أميال فقط من البئر وانهم يقيمون على خط وراء التلال الرملية القريبة وهكذا وجد المسلمون أمامهم بدلا من القافلة الكبيرة المغرية بثرواتها العظيمة قوة عسكرية تبلغ ثلاثة أضعافهم • ورابط المسلمون على أقرب بئر من العدو ضامنين لانفسهم السقاية من الماء ، ومانعين الماء عن قريش • وتراءى الجيشان ولم يكن من الحرب بد فى الصباح التالى وكان لابد للقوة المسلمة الصغيرة من أن تخوض المعركة مع قريش ، وسلمت راية المعركة بالنسبة الى المهاجرين الى مصعب بن عمير الرجل الذى كان النبى قد أوفده الى المدينة قبل سنتين لتعليم مسلميها الدين الحنيف • أما راية الخزرج فقد حملها الحباب بن المنذر فى حين حمل سعد بن معاذ من زعماء الأوس راية قومه •

وانتشر الاضطراب فى غضون ذلك فى معسكر قريش • وقد سبق لى أن أوضحت ما للعصبية القبلية من أثر عند العرب وبينت أن محمدا كان يلقى الحماية وهو فى مكة من بنى هاشم على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا لا يزالون من المشركين • وكان رسول ابى سفيان قد وصل الى مكة ليقول لاهلها ان القافلة قد أضحت فى نجوة من الخطر وانها تغذ السير فى طريقها الى مكة • وأشار عدد كبير من القرشيين بالتراجع بدلا من أن يسفكوا دماء أبناء عمومتهم من المهاجرين • ولم تكن قوافل مكة التجارية ملكا خاصا للتجار الاثرياء فلقد كان فى وسع كل رجل من أبناء المدينة يستطيع أن يؤمن مبلغا من المال مهما صغر هذا المبلغ ، ان يبعث به مع أحد الموثوق بهم من أصحاب القافلة على أمل استثماره فى صفقة تجارية رابحة • وهكذا فان أى تهديد للقافلة يعنى تعريض كل ما وفره المكيون جميعا من أموال للخطر • أما وقد أصبحت ثروتهم الآن فى مأمن من الخطر فلم يعد هناك أى مبرر للقتال • فالمهاجرون الذين لحقوا بالرسول ينتمون الى جميع عشائر قريش وبطونها • ومن هنا كان تردد القرشيين فى خوض معركة لا ضرورة لها وتسفك فيها دماء اخوانهم وأولاد عمومتهم• لكن الفريق المؤيد للقتال ما لبث أن تغلب على المترددين وذلك بفضل



موقعة بدر
خيبر
نجد
قافلة أبي سفيان
المسلمون
جبل أحد
المدينة
صخور بركانية
الصفراء
بدر
البحر الأحمر
قوة قريش
مكة
الطائف

ما أبداه أبو جهل عم النبى(١) من اصرار ومن حماسة فى حديثه ، لمحاربة المسلمين •

وهكذا تقدمت قريش الى المعركة وهى موزعة بين الاقبال والاحجام كما أن بنى زهرة اخوال النبى رفضوا القتال وعادوا الى مكة • أما نفسية المسلمين فكانت على النقيض من ذلك تماما فلقد كان المهاجرون يائسين ، تخلوا عن كل مايملكونه فى مكة ولا يحملون الا سيوفهم ، يضاف الى هذا ان المسلمين تخلوا عن العصبيات القبلية والعائلية التى تربطهم بعد أن أكد لهم النبى ان المسلمين هم اخوانهم فقط فالخوف من سفك دماء الاقرباء وهى النزعة التى كبحت جماح قريش وحدت من اقبالهم على المعركة، والتى لا تزال مسيطرة على عقلية البدو من العرب حتى اليوم لم تكن معروفة عند المسلمين الاول ، الذين قيل أن بعضهم قتلوا آباءهم أو اخوانهم اذا كانوا من المشركين • يضاف الى هذا أن تعودهم الوقوف فى صفوف منتظمة خمس مرات فى اليوم لاداء فريضة الصلاة مؤتمين بقائدهم قد أوحى الى عقولهم الباطنة بشىء من الانضباط ومن الروح العسكرية المنظمة• يضاف الى هذا أن المهاجرين والانصار كانوا تحت تأثير حمية دينية طاغية وهم يشهدون قائدهم محمد وسطهم يشترك معهم فى القتال (٢) •

وكانت التلال العالية تقوم الى الشمال والشرق من الوادى الذى يضم آبار بدر • اما الى الجنوب فتقوم نتوءات صخرية تحد من الرؤية وتضيق من نطاق المجال للمناورة فى حين كان هناك الى الغرب حيث تنحدر الارض باتجاه البحر سلسلة خفيضة من التلال والكثبان الرملية التى تغلق الوادى • وتقدم المكيون فوق هذه الكثبان باتجاه المسلمين الذين وقفوا فى صفوف أمام الآبار يرفعون راياتهم القبلية الثلاث • وكان أبناء عبدالدار وفقا لتقاليد قريش يرفعون رايات المكيين فى قلب الجيش وجناحيه • وعندما ظهر جيش المكيين من وراء الكثبان دعا النبى ربه طالبا نصرته على أعدائه وأعداء رسوله الذين ينكرون رسالته ويحاربون كلمة الله •

ويبدو لى أن من التشويه للحقيقة عند الحديث عن هذه المعارك

---

(١) اصرار جديد من المؤلف على جهله وتسمية أبى جهل بعم النبى • مع انه لاتربطه به اية رابطة سوى رابطة القرابة فى قريش • (المعرب)

(٢) يبدو لى أن المؤلف اراد التاكيد على قوة العصبية القبلية عند قريش ليظهر قريشا بمظهر العازف عن القتال المتردد فيه رغبة منه فى تقليل اهمية النصر العسكرى الذى حققه المسلمون فى هذه المعركة الفاصلة فى التاريخ الاسلامى وان كان لرايه بعض الاثر لو كان صحيحا ، لكن كتب السيرة والتاريخ الاسلامى اكدت ان قريشا اقبلت على المعركة بحماسة منقطعة النظير وتصميم على قتال المسلمين • (المعرب)

الاسلامية الاولى أن نتكلم كما تكلم بعض المؤرخين الاوربيين بلغة الجيوش والقادة العسكريين والجنود • فلقد كان من المتوقع فى الجزيرة العربية أن يحارب كل رجل فى أوقات الطوارىء دفاعا عن قبيلته • أما فى الاوقات التى لا أزمات فيها ولا طوارىء فليس ثمة من جنود نظاميين وليس ثمة من تدريب يعتبر ضروريا وكان المقاتلون يحاربون لا فى سرايا أو أفواج وانما فى جماعات قبلية أو عشيرية يقود كل جماعة منها رئيس القبيلة أو العشيرة • وكانت المعارك تبدأ فى العادة بمبارزات فردية بين أبطال المتحاربين تقف قوات الفريقين موقف التطلع اليها ومشاهدتها • وأخيرا يكر الفريقان فى شكل هجوم ويقرر مصير المعركة فى اشتباك عنيف ينطوى على عدد كبير من حالات الصراع بالايدى وكان السيف هو السلاح الرئيسى فى القتال ولكن المتحاربين كانوا يلجئون أيضا الى الأسنة والرماح وكانت النبال تؤلف نار التغطية كالمدفعية فى يومنا هذا ، وكانوا يستعملون أيضا الحراب والرماح التى تقذف، وهى أسلحة قيل ان المرتزقة من أبناء القبائل البدوية التى كانت قريش تستأجرها لحماية قوافلها يؤثرونها(١) • أما الاسلحة الدفاعية فغالية التكاليف • وكان العرب يستوردونها من البلاد المتقدمة تقنيا كفارس وبيزنطة • وتتألف هذه الاسلحة عادة من خوذ فولاذية ودروع من الزرد مصنوعة من الحديد • لكن العرب بما كانوا عليه من فقر كانوا أعجز من أن يستطيعوا شراء الدروع والاسلحة الدفاعية •

وتقدم من صفوف القرشيين ثلاثة قادة هم شيبة وعتبة والوليد بن عتبةوتحدوا المسلمين أن يخرجوا اليهم ثلاثة لمبارزتهم، فخرجوا اليهم ثلاثة من الانصار ولكن محمدا أمرهم بالعودة وهتف بالمهاجرين طالبا أن يخرج اليهم ثلاثة من بنى هاشم • وتقدم ثلاثة كانوا مدرعين بالدروع أولهم حمزة عم النبى وثانيهم على بن أبى طالب ابن عمه وربيبه وثالثهم عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه •

واشتبك الشابان أولا ، على والوليد ولم تمض لحظات على المبارزة حتى كان الوليد يسقط مضرجا بدمائه بضربة سيف قاتلة من على واشتبك حمزة عم النبى مع شيبة فضربه بسيفه ضربة بترته نصفين • أما عبيدة ابن الحارث البطل المسلم الثالث فكان قد أربى على الستين وتقدم منه عتبة فأصابه بسيفه فى فخذه وأوقعه على الارض ولكن بعد أن أصيب

---

(١) كانت القبائل البدوية تسخر من قريش وتقول ان رجالها يخشون الخروج الى الصحراء دون حراسة مسلحة من غيرهم • (المعرب)

بجراح من سيف عبيدة • وهوى المتبارزان على الارض • فتقدم حمزة وعلى وأجهزا على عتبة ثم حملا عبيدة الى صفوف المسلمين حيث توفى متأثرا من جراحه(١) •

وكان النبى قد أصدر أوامره الى المسلمين بأن يثبتوا فى مواقعهم حتى تهاجم قريش على أن يحرصوا على جناحيهم نظرا لان صفوف قريش كانت أطول من صفوفهم وذلك تحت حراسة الرماة ، وتقدمت قريش مهاجمة ، لكنها عانت من عدة عوامل ضعف تعبوية (تكتيكية) • فلقد ارتفعت الشمس آنذاك فى كبد السماء وكانت تواجه المسكيين المهاجمين وبينمـا تقطعت أنفاسـهم وهم يخوضـون الكثبان الرملية للوصـول الى المسلمين كان هؤلاء ثابتين فى أماكنهم وقد خلفوا الشمس وراءهم • وكان الصباح عاصفا اثر مطرة ليلية شديدة وعندما أصبح الفريقان على وشك الالتحام هبت زوبعةرملية شديدة فى وجوه المكيين وهتف النبى بحماسة دافقة يقول ان الفا من الملائكة يقودهم جبريل قد هاجموا العدو •

وحمى وطيس القتال وامتلأ المكان بهتافات الحرب وصراخ المتحاربين وصليل السيوف ، وظلت المعركة معلقة فى كفة القدر بعضا من وقت دون أن يضعف أحد الفريقين • وكان محمد قد أقام مع أبى بكر فى عريش بناه له المسلمون فى الليلة الماضية حيث راح يصلى الى الله مبتهلا اليه أن ينصر جنده ويعز دينه • وكان يردد القول بأن خسارة المسلمين تعنى انعدام من يعبد الله • وظل النبى يمد يديه متضرعا الى الله مناشدا اياه نصرته الى أن هوت عباءته من فوق كتفيه دون أن يحس بها •• وهنا أمسك به أبو بكر قائلا : كفى يا رسول الله فلا بد أن يصدق الله ما وعده المؤمنين •

وخرج محمد مع أبى بكر من العريش يرقبان المعركة •• وكان يردد وعده للمسلمين بأن كل من استشهد اليوم دفاعـا عن دين الله فمأواه الجنة • وكان هناك شاب يقف الى جانب النبى يلهو بأكل حفنة من التمر فعندما سمع ماقاله النبى صرخ هاتفا •• أبيني وبين الجنة أن أقتل فى المعركة ؟ وانتضى سيفه بعد أن قذف بما يحمله من تمر وهجم على صفوف قريش وظل يعمل فيهم قتلا الى أن استشهد متأثرا بجراحه . هذا هو الايمان المجرد البسيط الذى غمر المسلمين الاوائل •

---

(١) تختلف رواية المؤرخين عن رواية المؤلف .. فلقد ذكرت كتب السيرة أن عبيدة وعتبة اختلفا ضربتين كلاهما اثبت من صاحبه ثم حمل حمزة وعلى على عتبة فقفزا عليه واحتملا عبيده وهو جريح الى صفوف المسلمين • (المعرب)

وانحنى النبى على الارض يلتقط حفنة من الحصى وقذف بهـا فى اتجاه العدو مبتهلا الى الله أن يوقع الارتباك فى صفوفه • وبدأت قريش تترنح من شدة ضربات المسلمين فازداد هؤلاء حماسة وضراوة فى هجومهم وأخذ العـدو فى التراجع • وكان من المحال أن يتم تراجع منظم من قبـل قوات كهذه تفتقر الى نظـام • وسرعان ما تحـول التراجع الى هزيمة ساحقة • وقتل من قريش تسـعة وأربعون وأسر المسلمون منهم عددا مماثلا(١) • وكان أبو جهل أشد أعداء النبى بين القتلى وبعث الرسول مولاه فقطع هذا رأس أبى جهل وعاد به الى النبى ليقذف به أمامه فهتف الرسول فرحا •• « هذا رأس عدو الله • الحمد لله ولا اله الا الله» •

وبلغت حماسة المسلمين حدا ضاريا حتى ان بعضهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب طالب الرسول بقتل الاسرى • لكن النبى أمر بابقائهم على قيد الحياة طلبا للفدية ، وهو حل أكثر عملية من الذبح ، اذ أن المهاجرين كانوا فى أشـد حالات الفقر والضنك • وكان العبـاس عم النبى والذى صاحبه فى بيعة العقبـة بين الاسرى ولكن النبى أصر على أن يدفع أهله فديته • وأمر الرسـول بدفن الموتى ثم عاد على رأس المسلمين تكلل هاماتهم أكاليل النصر الى المدينة •

وجدير بنا أن نذكر هنا ان بعض الاسرى شرعوا وهـم ينتظرون الفدية من أهلهم فى تعليم أهل المدينة القراءة والكتابة• وجدير بنا أن نذكر أيضا أن تجار مكة كانوا يرون فى الكتابة على النقيض من مزارعى المدينة أمرا ضروريا لتصريف أعمالهم •

وكان انتصـار بدر حجر الزاوية فى التاريخ المبكر للاسلام • فلو قدر للمسلمين أن يهزموا أو لو قدر لمحمد أن يستشهد فى هذه المعركة لما ظل الاسلام قائما ولاختفى هذا المذهب الجديد من عالم الوجود ، بدلا من أن يكسب كما كسب بالفعل انصارا جدذا • ولم يتردد محمد فى أن يعزو هذا النصر على عدد يعد ثلاثة أضعاف قواته الى عون الله وأن يعتبره دليلا ساطعا على هـذه النصرة الالهية ومن هنا كان قراره فى أن يكون انتصاره هذا وسيلة جديدة لتوسيع سلطانه •

وقد سبق لى أن ذكرت شيئا عن وجود قبـائل يهودية فى المدينة وسبق لى ان بينت أيضا ان النبى اتبع مع هذه القبائل أول وصوله الى المدينة سياسة ودية وعقد نوعا من الاتفاق معها • ولم يكن قد انقضى على

---

(١) تجمع كتب السيرة على أن عدد الاسرى بلغ سبعين رجلا .

ـ المعرب ـ

وجوده في المدينة حول كامل عندما نشب الاحتكاك بين المسلمين واليهود فقد رفض هؤلاء الاقرار بنبوة محمد وراحوا يعربون عن زرايتهم بالمسلمين واستهانتهم بهم • ونشب شجار بعد معركة بدر بين أحد المسلمين وأحد اليهود فقام النبى بحصار بنى القينقاع • وهم الذين ينتمى اليهم ذلك اليهودى فى الحى الذين يقيمون فيه الى أن استسلموا لحصاره • وخشى اليهود أن يأمر النبى بذبحهم عن بكرة أبيهم الا أن عبد الله بن أبى الزعيم الاكبر للأوس والخزرج تشفع لهم بقوة عند النبى فعفا عنهم واكتفى بأن يصدر أمره اليهم بالهجرة من المدينة الى سوريا بعـــد أن وزع مساكنهم وأموالهم على المسلمين • وهكذا ارتحل بنو القينقاع الى ســـــوريا حيث أقاموا فى ناحية درعا (١) •

وأثارت غلبة محمد على بني القينقاع واجلاؤهم من المدينة الفزع عند جميع أولئك الذين كانوا يعارضون النبى فى المدينة سرا أو علانية• وكان عبد الله بن أبى زعيم الأوس والخزرج قد توقع تضاؤل شهرته ونفوذه بصورة متدرجة بالنسبة الى شهرة محمد ونفوذه الآخذين فى الارتفــاع والازدياد • وأدى فزع من تبقى من اليهود الذين كانوا لا يتورعون عن اظهار سخريتهم بما يقوله النبى عن الوحى الذى ينزل عليه الى أن يسكتوا مرغمين • يضاف الى هذا ان أموال بنى القينقاع ومساكنهم كانت نافعة ومفيدة فى سد حاجات المهاجرين المادية الذين وجدوا فيها ما أغناهم عن الحاجة المذلة الى العيش على حساب اخوانهم من الانصار وجودهم • وهكذا نجدهم يخطون فى الواقع خطوات فى طريق الثراء(٢) •

وتعزز سلطان محمد فى المدينة بوقوع عدد من الاغتيالات فيهـــا • وكان شديد الحساسية من قصائد الهجو التى يقولها بعضهم فيه والتى ينشرونها بين العرب بصورة مستمرة ولذا فقد حمل على الشعراء حملات عنيفة • وكان قول الشعر وتناقله شفويا من فم الى فم ســـــواء أكان فى

---

(١) لم يذكر المؤلف ان بنى القينقاع هم الذين نقضوا عهدهم للنبى وانهم هم الذين تحدوا المسلمين عندما اعتـــدى رجل منهم على امرأة من العـــرب تعديا معيبـــا فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين قام الى اليهودي فقتله فقام اليهود على المسلم فقتلوه. ولا ريب في أن اغفاله للسبب مقصود لاظهار المسلمين بمظهر المعتدين • (المعرب)

(٢) يكثر جلوب ، رغبة منه فيتشويه التاريخ الاسلامى من الحديث عن فقر المهاجرين وعيشهم على حساب الانصار • ولئن كان الانصار قد قدموا العون الى اخـــوانهم اول هجرتهم فان هذا العون أمر تفرضه الشريعة الاسلامية على المسلمين وليس فيه من منة ــ يضاف الى هذا ان المهاجرين مالبثوا أن أخذوا يعملون وسرعان ما أصبحوا في غنى عن العون • (المعرب)

المديح أم الهجـاء أهم وسيلة من وسـائل ما نسميه اليوم بالدعاية عنـد العرب الذين تنتشر الامية بينهم • وعندما قتل اثنان من هؤلاء الشعراء الذين دأبوا على هجاء المسلمين فان من تبقى منهم من ناقدين قد أرغم على السكوت • وكان بين الذين أغتيلوا امرأة طعنت وهى نائمة فى فراشها مع أطفالها (١) •

وكان الحادث الذى أثار الناس فى المدينة أكثر من غيره من الاحداث اغتيال كعب بن الاشرف هو رجل ينتمى الى قبيـلة طيىء وان كانت أمه يهودية من بنى النضير • وقد عاش الرجل مع اخواله من يهـود المدينة ونشأ فى كنفهم • وكان كعب بن الاشرف قد نصر محمدا فى بداية الامر ولكنه ما لبث ان ارتد عن نصرته وقد قام بزيارة مكة بعد موقعة بدر ويقال انه شجع القرشيين على حرب المسلمين وتقرر أن يمضى خمسة من المسلمين لاغتياله • وقد مضوا الى بيت كعب بعد أن خيم الدجى ويقال ان النبى قد رافقهم جزءا من الطريق ثم تمنى لهم التوفيق عائدا وحده • وقـد استخدم أخ لكعب فى الرضاع وهو من المسلمين لخداع كعب واخراجه من منزله حيث هاجمه المتآمرون • وقطعوه اربا اربا بسيوفهم • ومنذ هذا الحادث أخذ يهود المدينة يعيشون فى رعب دائم (٢) •

---

(١) صورة مشوهة اخرى . فليس في الموضوع اغتيال مطلقا . وانما هناك عداء لنظام ودين يظهر أحيانا على شكل هجاء مقذع يعيب نساء المسلمين واعراضهم وليس من الغريب والحالة هذه أن يكون نصيب من يمس الاعراض ويقاوم النظام القتـل من مؤمن متحمس للعقيدة لكن رواية الاغتيال هذه لم ترد الا في كتاب أو كتابين من كتب التاريخ القديمة ولعلها لا تخلو من الغرض من الشعوبيين • (المعرب)

(٢) يخرج القارىء البرىء الذى لايعرف شيئا من تاريخ الاسلام من هذه القصة التى يرويها جلوب بعد أن وضع حقائقها فى الصورة التى يريدها بالانطباع بان اليهود كانوا ضحية للمسلمين وان اغتيال ـ كما شاء أن يسمى القصـاص العادى ـ كعب بن الاشرف عمل بعيد من سنن الاخلاق . ولا ريب في أن المؤلف يكشف عن خبيئة نفسه في هذه القصة ويعرض عطفه على اليهود الذين دفعه حبه لهم الى تزييف الوقائع . فالقصة الحقيقية كما ترويها جميع كتب التاريخ والسير النبوية هى على النحو التالى :

« كان كعب بن الاشرف يهوديا من طيىء ثم بنى نبهان وأمه من بنى النضير فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش قال كعب : « والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها » ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب ابن ابى وداعة السهمى فانزلته امراته واكرمته وجعل يحرض على رسـول الله ويقول الاشعار ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال : =

ولجأ النبى بالاضافة الى اغتيال أعدائه من الشـــعراء الى استئجار آخرين يتولون الدفاع عنه • وكان من أشهر هؤلاء حسان بن ثابت وهو شاعر من أهل المدينة (١) ويقال انه عندما نمى اليه أن النبى فى حاجة الى خدماته مد لسانه قائلا : «ليس هناك من درع يصمد أمام هذا السلاح» • ويقال ان النبى استوضح منه عن الطريقة التى يمكنه فيهــــا أن يهجو قريشا دون أن يسىء الى النبى وهو منهم فرد الشاعر قائلا : « لاتخش يارسول الله ففى وسعى أن أستلك من وسطهم كما أستل الشعرة من العجين » •

وكانت قريش فى غضون ذلك تعيش فى متاعب ومشاق بالغة فلقد كانت حياتها تعتمد على تجارة القوافل وقد أصابها الفزع بعد معركة بدر من ايفاد قافلة أخــرى الى ســـوريا . واخيرا قررت قريش فى سبتمبر عام ٦٢٤ أن توفد قافلة الى الشـــمال عن طريق نجد بدلا من طريق ساحل البحر الاحمر . ولكن أنباء عزمهم هذا وصلت الى المدينة فأوفد محمد ربيبه زيد بن حارثة على رأس قوة لتهاجم هـــذه القافلة وتقطع عليها طريقها ونجحت المحاولة تمام النجاح ، واستولى المسلمون على القافلة بكاملها وغنموا غنائم كبيرة من الحرير والدمقس والسلع التجارية واقتسموها بينهم .

وعلى الرغم من أن العداء كان فى هذه الفترة قائما بين مدينتى مكة والمدينة الا أن القبائل البدوية التى تعيش فى الصحارى المجاورة لعبت دورا هاما فى المشاحنات التى قامت بين المدينتين . وكان هؤلاء البدو بتجوالهم المستمر بين المدينتين يؤدون دورا بارزا فى نقل الاخبار والمخابرات وهى ضرورة عسكرية كان المســـلمون مفتقرين اليها اشد

= طحنت رحـا بـدر لمهلك اهــله ، ولمثــل بــدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ، لا تبعــــدوا ان الملوك تصرع
كم قـد اصيب به رفيق ماجد ، ذو بهجــة تأوى اليه الضــيع

الى آخر القصيدة .. ثم رجع الى المدينــة فشبب بنســاء المسلمين حتى اذاهم فارسل له عليه السلام نفرا من الانصار لقتلوه جزاء خيانته العهد .

(المعرب)

(١) غريب امر جلوب هذا فقد جعل من الشعراء اعداء المســلمين اناسا يدافعــون من عقيدتهم اما الشعراء من المسلمين وبينهم حسان بن ثابت شاعر الرسول فهم اجراء استأجرهم النبى ليدافعوا عنه ـ حقا انه عداء ظاهر يجعل جلوب بعيــدا من صــفوف المؤرخين ويجيز لنا أن نعامله في تعليقاتنا على اقواله بما يستحقه من نقد لاذع

(المعرب)

الافتقار فى البداية ، يضـــاف الى هذا أن هذه القوافل كانت تحتل الصحراء المكشوفة وكانت قادرة عن هــذا الطريق على حمــاية القوافل أو نهبها وكانت قريش واثقة من أنها لو استطاعت ضمان ولاء هؤلاء البداة فان قوافلها تســـتطيع أن تنجو من الغزاة المسلمين . أما اذا افلح النبى فى كسب ولاء هذه القبــائل فان أهل مكة ســيصبحون محصورين داخــل مدينتهم ويتعرضون للتضور جوعا . وكان المســلمون قد فازوا بصداقة قبيلة جهينة التى تقيم فى السهل الســـاحلى لكن قبيلتى غطفان وبنى سليم المقيمتين الى الشرق من المدينة ظلتا حليفتين لقريش . ودفعت هذه الأوضاع المسلمين الى القيام بغزوات صغيرة عدة ضد هاتين القبيلتين لارهابهما واقناعهما بأن صــداقة محمــد خير لهما من التحالف مع أهل مكة .

وبدأ العام الثالث من هجرة المسلمين الى المدينة بداية ســيئة ففى ينـــاير (كانون الثـانى) ٦٢٥ (١) خرجت قريش من مـكة بقوة تضم نحوا من ثلاثة آلاف رجل وقد صممت على الثأر لهزيمتها فى بدر وعلى فتح طريق القوافل أمام تجارتها . وكانت الطريق الى المدينة من ناحية الجنوب تمر عبر جبـــال جــرداء قاحلة وهكذا مرت القوة المكية الى الغرب من المدينــة ثم اتجهت الى اليمين لتدخل واديا واســعا الى الشمال من المدينة عند ســـفح جبل أحد الذى تكثــر فيه الصخور . وهنا انتشرت القوة القرشية منتظرة من المسلمين أن يبدءوا هجومهم .

ولم يكن القلق الذى أثاره وصول هذه القوة الضخمة التى تبلغ فى عددها ثلاثة أضعاف القوة التى خاضت معركة بدر قليلا أو تافها . وكان من رأى محمد وعبد الله بن أبى وعدد من شيوخ المدينة البقاء فيها وعدم الخروج منها للقاء قريش . وكانت كل عشيرة سواء أكانت من الاوس أم الخزرج أم من قبائل اليهود تعيش فى حيها الخاص بها حيث تقوم البيوت مجتمعة داخل أسوار تجعلها أشبه ما تكون بالقلاع عصية على الاقتحام من رجال لا سلاح لهم الا السيوف والسهام . ولما كان الجيش المكى قوة تفتقر الى تنظيم الجيوش وما تحتاج اليه من تموين فانها كانت ولا ريب عاجزة عن فرض حصار طويل على المدينة . لكن الشبان من المسلمين وقد أثملهم انتصـــار بدر ضجوا مطالبين بالخروج لمقابلة قريش فى معركة مكشــوفة مما حمل النبى أخيرا على

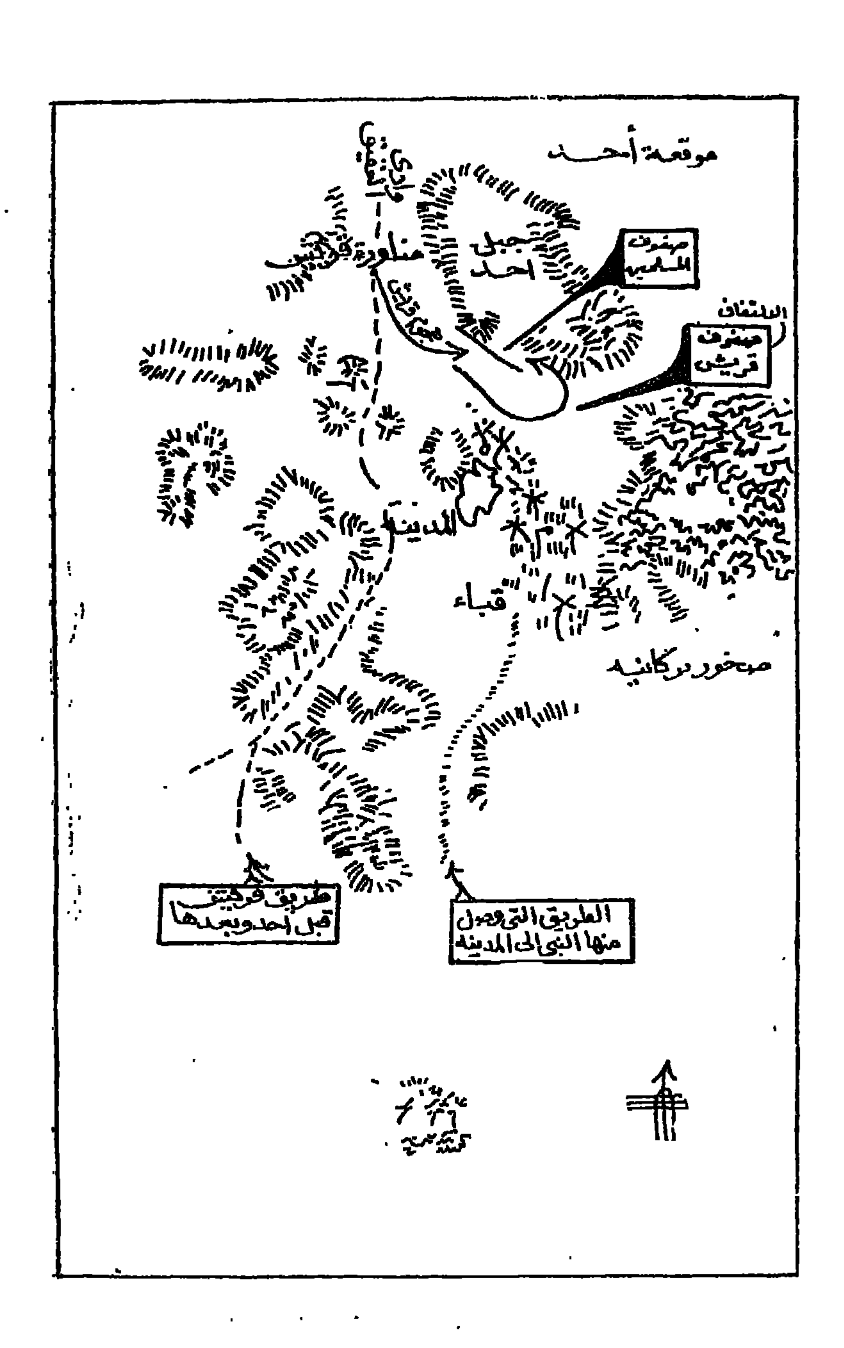
(١) يختلف هذا التاريخ عن التاريخ الاسلامى فقد كان خروج قريش فى الثـالث عشر من شوال الذى عاد له تقويم مختار المصرى بالتاسع عشر من مارس سنة ١٩٢٥ . (المعرب)

التسليم برأيهم . وخرج الرسول بعد أداء صلاة الظهر على رأس أتباعه للقتال . وحاول بعض اليهود أن يلحقوا بالقوة الاسلامية كرديف لها يقدم العون ولكن النبى ردهم معلنا أن المسلمين وحدهم أصحاب الحق فى الدفاع عن دين الله واتخذت القوة الاسلامية مواقعها فى الليل لتشرع فى التقدم نحو العدو عند فجر اليوم التالى ، وهنا وفى هذه اللحظة الحرجة انخذل عبد الله بن أبى بنحو من ثلثمائة رجل عائدا الى المدينة متأثرا بغيرته من سلطان النبى ومن رفضه العمل بمشورته وهى البقاء فى المدينة. وهكذا تقدم المسلمون وقد خذلهم ابن أبى وصحبه فى هذه اللحظة الشديدة الخطر بنحو من سبعمائة رجل ليحاربوا عددا يعد نحوا من ثلاثة آلاف يضاف الى هذا أن القوة الاسلامية كانت تفتقر الى الجنود من أصحاب الدروع اذ لا يزيد عدد المتسربلين بها عندهم على المائة وتفتقر أيضا الى الجياد بينما حشدت قريش وحلفاؤها نحوا من سبعمائة رجل بدروعهم ومن مائتى فارس.

ولم يكن ثمة من شك فى أن المسلمين وقد شعروا بقلة عددهم ازاء العدو ودوا لو حموا ظهورهم بالجبل وبالفعل جعلوا أحدا وراء ظهورهم وخلف جناحهم الايمن بينما ظل جناحهم الايسر مكشوفا ومعرضا لهجوم يشنه فرسان العدو واحتاط محمد لهذا الخطر فوضع خمسين شخصا من الرماة لحماية هذا الجناح مصدرا أمره اليهم بالا يتركوا مواقعهم مهما حدث . اذ أن هذه المواقع تحمى جناح الجيش من فرسان قريش .

وكان أبو سفيان بن حرب بن امية يتولى قيادة أهل مكة وحرى بنا ان نتذكر هنا ان التنافس كان قويا قبل الاسلام بين بنى أمية وبنى هاشم على البروز والنفوذ ، وان بنى امية كانوا يتولون بالوراثة قيادة جيوش قريش بينما يتولى بنو هاشم رفادة الحجاج وسقايتهم ولهذا فقد تولى أبو سفيان قيادة الجيش المكى بحق الوراثة بينما حمل بنو عبد الدار الراية على مألوف عادتهم . وعهد النبى براية المهاجرين الى مصعب بين عمير الذى حملها فى موقعة بدر والذى يمت الى بنى عبد الدار أيضا . واصطف المكيون يواجهون المسلمين الذين جعلوا جبل أحد فى مؤخرتهم ففصلوا بذلك بين المسلمين وبين المدينة .

واشتمل النبى بدرعين من الزرد ثم استل سيفه وهتف بالمسلمين قائلا : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ وخرج من صفوف المسلمين رجل يدعى ابو دجانة فسأل الرسول قائلا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال


موقعة أحـــد
جبل أحـد
صفوف المسلمين
الالتفاف
صفوف قريش
المدينة
قباء
صخور بركانية
طريق قريش قبل أحد وبعدها
الطريق التي وصل منها النبي الى المدينة

أن تضرب به العدو حتى ينحنى ، وتسلم أبو دجانة السيف من النبى واخذ يختال بين صفوف الجيش قائلا :

أنا الذى عاهـــدنى خليلى	ونحن بالسفح لدى النخيل
الا اقوم الدهر فى الكيول (١)	أضرب بسيف الله والرسول

وراح النبى يقول وهو يرى ابا دجانة يتبختر فى مشيته ... انها لمشية يبغضها الله الا فى مثل هذا الموطن .

وكانت قريش قد حملت معها الى المعركة عـــددا من النسوة يحملونهن فى هوادج ، وهى عادة ظلت قائمة عند بدو نجد حتى بداية القرن العشرين . وعندما اقترب الفريقان بعضـهما من بعض ، شرعت نســاء قريش فى إيقـاد الحماســة فى صــدور رجالهن بقـرع الدفوف وانشاد اغانى الحرب وارخاء شعورهن الطويلة . وكان أبو سفيان قد استفز حماســة بنى عبد الدار بتعييرهم بأن جبنهـم كان السـبب فى هزيمة بدر ، وهنا خرج طلحة بن عبد العزى من صفوف قريش ـ وهو من بنى عبد الدار ـ يحمل راية قريش ويتحـدى المسلمين طالبا ان يخرج اليه أحدهم لمبارزته . وخرج اليه على بن أبى طالب وسرعان ما ضربه بسيفه ضربة اسقطته مضرجا بدمائه . وخرج أخو طلحة على الفور ويدعى عثمان من صفوف قريش فرفع الراية الســاقطة بينما ارتفع التكبير من صفوف المسلمين . وأعاد عثمان تحدى أخيه القتيل للبراز فخرج اليه حمزة عم النبى ، وبعـد اشتباك قصـير هوت راية قريش من جديد الى الأرض وعاد حمزة ظافرا الى صفوف المسلمين بعد أن صرع خصـمه . ولم تأت عشـية ذلك النهار حتى كان خمسة من بنى عبد الدار قد خروا قتلى فى ميدان المعركة وهم يحملون راية قريش .

وكانت فترة المبارزات الفردية قد انتهت الآن وكر المسلمون على رجال قريش بعزيمة ومضاء . وحمل عبد حبشى لآل عبد الدار راية قريش بعد أن رفعها من الرغام وظل يقاتل حتى قطعت يداه فهوى على ركبتيه وهو يحمل الراية بينهما الى صدره الى أن قتل مثخنـا بالجراح وكر المسلمون بعزيمة يؤمنون بأن الاستشهاد فى سبيل الله هو سبيلهم السريع الى الجنة . وأخـــذت صفوف قريش تترنح أمام ضربات المسلمين القاصمة وظل أبو دجانة وقد لف منـديلا أحمر على لامته يضرب بسيف النبى ضربات قاتلات اما حمزة فكان يصـول ويجول فى

(١) الكيول آخر الصفوف في الحرب .

الميدان فتتهاوى الرءوس أمام ضرباته يمنة ويسرة • وحاول فرسان قريش الالتفاف حول جناح المسلمين ولكن رماة المسلمين الخمسين صدوهم على أعقابهم • وظل على بن أبى طالب يواصل الضغط على صفوف العدو وعادت معجزة بدر الى الظهور فالمسلمون لا يقهرون •

وظلت نساء قريش تقودهن هند زوجة أبى سفيان ينشدن ويهزجن وراء الخطوط ويعزفن على الدفوف ••• وهند تقول :

نحن بنات طارق •••

الى أن تقول •••

أن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وفجأة انطلق أبو دجانة يضرب بسيف الرسول يمنة ويسرة فاخترق صفوف قريش حتى وصل الى النسوة فرحن يتبعثرن هنا وهنالك ينشدن الخمار •

ولكن الغرور سرعان ما استخف ببعض المسلمين • فقد تاهوا اعجابا وفخارا وخيل اليهم أنهم حققوا النصر فاقبلوا على النهب (١) • وكانت الحماسة التى رافقت هجومهم قد فرقت صفوفهم وبددتها • ولعل ما هو اسوا من ذلك ان الرماة الخمسين أو قد تصوروا أن المعركة قد انتهت ، تخلوا عن موقعهم على الجناح الايسر طلبا للنهب • وكان بين البارزين من رجال قريش فى ذلك اليوم رجلان قدر لهما أن ينالا شهرة خالدة كقادة عسكريين للمسلمين وهما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص• وقد راى هذان القائدان الفرصة التى اتاحها تخلى الرماة المسلمين عن موقعهم فقادا فرسانهما والتفا بهم حول الجناح الايسر للمسلمين ثم اتجها الى اليسار ثانية وهاجما خطوط المسلمين من مؤخرتها (٢) • وكان النبى يرافقه عدد من الصحابة يقومون على حراسته يسير وراء

---

(١) لا ادرى من أين جاء المؤلف بهذه الرواية المشوهة فلقد اجمعت كتب السيرة وفي طليعتها سيرة ابن هشام نقلا عن الزبير بن العوام قوله يصف تحول المعركة : ولقد رايتنى انظر الى هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب وما دون اخذهن قليل ولا كثير اذ مالت الرماة الى المعسكر حين كشفنا القوم عنه وخلوا ظهورنا للخيل فاتينا من خلفنا وصرخ صارخ الا ان محمدا قد قتل فانكفانا وانكفأ علينا القوم •

(٢) تجمع كتب التاريخ العربى على ان خالد بن الوليد وحده هو الذى قاد فرسان قريش اما عمرو بن العاص فكان قائدا في المعركة • — المعرب —

الصف الزاحف من المسلمين يرقب سير المعركة عند ما داهمته من المؤخرة ثلة من فرسان قريش اقتحمت طريقهـا متجهـة الى الامام واستشهد مصعب بن عمير وهوت راية المهاجرين وبوغت المسلمون بهذا الهجوم الصاعق من المؤخرة وتمزقت صفوفهم وتفرقوا شـذر مذر وارتفع صوت النذير يقول ان محمـدا قد قتل وراح الناجون من المسـلمين يولون الادبار لينجوا الى سـفوح أحد ورأءهم . وكان المسلمون يمرون بالرسول فى طريق فرارهم فيهتف بهم قائلا : أين تذهبون ؟ .. عودوا انا رسول الله ولكن دون جدوى (١)

وكانت راية قريش لا تزال ملقاة على الثرى منذ قتل المحاربين من بنى عبد الدار واسرعت فتاة شجاعة تدعى عمرة بنت علقمة فرفعت الراية التى التفت حولها قريش بعد أن أعادت تنظيم صفوفها وأخذت تهزج بأهازيج العزى وهبل من الأصنام وعادت قريش الى الهجوم على المسلمين . وعندما سمع بعض المسلمين النداء بأن محمـدا قد قتل هب رجل منهم يدعى أنس بن النضر فهتف قائلا : « قتل رسول الله ، فماذا تصـنعون بالحيـاة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله » ثم استقبل القوم فظل يقاتل يمنة ويسرة حتى قتل . وتقول الروايات أن المسلمين وجـدوا بعد المعـركة فى بدنه سبعين ضربة .

وسرعان ما ضيق العدو الخناق على الفئة القليـلة العدد التى تتولى حراسة النبى وانهالت الحجارة والنبال كالأمطار على حراس النبى . وأصحاب حجر رسول الله فى وجهه فشجه وأصـاب شـفته وثناياه . ووقعت ضربة على رباعيته فوق هامته ... وهتف النبى يطلب العون بعد أن وقع فى الحفرة . وسرعان ما هب خمسـة من المسلمين لنجدته اذ سمعوه يقول : « من يشرى لنا نفسه » . وظل هؤلاء الخمسة يدافعون عن النبى حتى اسـتشهدوا عن آخرهم .

---

(١) هذه رواية أخرى من روايات المؤلف المشوهة . فلقـد دافع المسـلمون عن النبى دفاع الابطال ولم يرو اى راوية ان النبى قال لهم هذا القول فلقد روى ابن هشام أن أم عمارة نسيبة بن كعب المازنية قاتلت يوم احد دفاعا عن الرسول الى ان اصيبت. وروى ابن اسحاق ان ابادجانه ترس دون رسول الله يقع النبل في ظهره وهـو منحن عليه حتى كثر فيه النبل . واضاف ان سعد بن ابى وقاص رمى دون رسول الله كما رمى عنه قتادة بن النعمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم كثر من صحابة الرسول ومن هنا تظهر رواية المؤلف المشوهة .

(المعرب)

وتمكن فارس مشهور من قريش يدعى ابن قمئة من الوصول الى النبى فضربه بسيفه ولكن طلحة بن عبيــد الله من أقارب النبى درأ الضربة بيديه فتحطمت اصـــابعه . ووقع النبى على الأرض والدم ينزف من وجهه بينما واصل ابن قمئة صراخه معانـــا قريشا انه قتل محمدا . ومن الغريب أن يفكر المرء اليوم كيف كان من الممكن أن يتغير مجـرى التاريخ لو أن ضربة ســيف ابن قمئة قد اصـــابت هدفها قبل ألف وثلثمائة عام .

وكان نفر من المسلمين قد تحلقوا حول النبى فى غضون ذلك ومن المحتمل أن يكون ادعاء ابن قمئة بأنه قتل محمدا قد خفف من عزيمة قريش ودعاهم الى الاسترخاء اذ أن نضالهم كان مع محمد وحده ، واغتنم طلحة بن عبيــد الله فرصة هــذا الاســترخاء فرفع النبى برغم جراحه من الحفرة التى وقع فيها ، والتف حول النبى أبو بكر وعلى وغيرهما من الصحابة المقربين يحملونه ويدرءون عنه الأذى حتى وصلوا به الى صخور احد حيث أنزلوه مكانا أمينـــا ، ومضى على يطلب ماء ليمسح به جراح النبى بينمـــا هتف الرسول قائلا : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم ؟ !

وهكذا انتهت المعركة وباتت قريش مسيطرة على ميدانها تمام السيطرة ولجأ من تبقى من المســلمين الى شعاب أحد يرقبون منها رجال قريش دونهم فى سفح الجبل وأصبحت المدينة نفسها مفتقرة الى من يدافع عنها لو أراد المشركون غزوها . لكن المكيين اشتغلوا فى غضون ذلك فى نزع الملابس عن قتـلى المسلمين وتشويه جثثهم فلقـد قتل نحو من خمسة وسبعين من المســلمين بينما لم تخسر قريش الا عشرين رجلا (١) . وقد حزن الرسول أكثر ما حزن على عمه حمزة . فقـد استأجرت هند زوجة أبى سفيان رجلا حبشيا يدعى وحشيا اشــتهر بمهارته فى قذف الحربة ليقتل حمزة ثأرا لوالدها الذى قتله حمزة فى موقعة بدر (٢) . وكمن وحشى لضـــحيته الذى لا يشق له غبار فى

(١) روت كتب السيرة ان شهداء المسلمين بلغوا (٧٠) وان قتلى قريش كانوا (٢٢) .

(٢) تؤكد كتب السيرة وفي طليعتها سيرة ابن اسحاق ان حبشيا كان غلاما لرجل يدعى جبير بن مطعم وكان عم هذا ويدعى طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش الى احد قال له جبير ان قتلت حمزة عم محمد بعمى فانت عتيق . وتمضي الرواية وهى على لسان حبشي تقول .. فخرجت مع الناس انظر حمـزة وابصره وليست لى بقية سواه الى أن قتلته .

(المعرب)

شجاعته وشدة بأسه حتى لاحت له منه سانحة وهو يبارز قرشيا فضربه بحربته فوقعت فى ثنيته حتى خرجت من بين رجليه وخر صريعا لتوه • وعثرت هند على الجثة بعد المعركة فثارت لنفسها بجدع أذنيه وانفه وراحت بعد ذلك تفتح بطنه لتنهش من كبده .

وعندما انتهت قريش من التمثيل بجثث المسلمين وارادت الانصراف تقدم أبو سفيان فاشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته ليسمعه المسلمون القابعون فوقه بين صخور الجبل : « أنعمت فعال وان الحرب سجال • يوم بيوم • أعل هبل ، ان موعدكم بدر للعام المقبل » ، وامتطى المكيون اثر ذلك ابلهم وراحوا يغادرون المكان وخشى النبى أن تكون وجهتهم المدينة وأن يحتلوها بسهولة لعدم وجود قوة تدافع عنها ، فأوفد على بن ابى طالب فى أثرهم لينقل اليه أخبارهم وحركاتهم ، وسرعان ما عاد « على » ليقول ان قريشا اتجهت الى الجنوب فى طريق مكة وانها جاوزت المدينة وفرغ المسلمون بعد ذلك لقتلاهم يدفنونهم • وقيل : ان محمدا غضب غضبا شديدا عندما رأى ما رآه من تمثيل قريش بشهداء المسلمين ولا سيما بجثة عمه حمزة وتوعد قريشا أن اظهره الله عليها فى موقعة من المواقع أن يمثل بثلاثين رجلا منهم . ولكن الرسول سرعان ما ندم على قوله وأصدر أمره بتحريم المثلة بالأموات .

وبالنظر الى أننا الفنا فكرة الحرب الجماعية بكل ما فيها من قسوة وخشونة ووحشية فان الأساليب العرضية والمتنافرة التى يتبعها العرب تبدو لنا غير مفهومة اطلاقا فنحن نرى فى الوحشية التى ابدتها قريش فى التمثيل بجثث قتلى المسلمين شيئا يرمز الى الكراهية التى لا تنطفىء ولا تخمد ، ومع ذلك فان قريشا تقاعست عندما بات النصر الكامل فى متناول يديها عن طريق احتلال المدينة عن هذا العمل، وعاد رجالها الى بلدهم مكتفين بتحدى المسلمين للقتال فى بدر فى العام المقبل . ويبدو أن مثل هذا التحدى لمعركة فى كل سنة كان شيئا تقليديا بالنسبة الى عرب تلك الايام ، فلقد نشبت الحرب قبل سنوات عدة بين قريش وهوازن ، عندما كان محمد لا يزال فتى غض الاهاب • ودارت خمس معارك سنوية كانت الواحدة منها تقرر فى السنة التى تسبقها ويتلاقى الفريقان على موعد بالقتال وذلك قبل أن يعقد الصلح النهائى بينهما .

وقد استمرت طرق الحرب بين القبائل البدوية فى وسط الجزيرة العربية على هذا النحو والى حد كبير حتى القرن العشرين •

فلقد كانت هناك قبائل معينة تخوض باستمرار المعارك بعضها ضد بعض دون أن يرغب احد الفريقين أدنى رغبة فى قيام الصلح النهائى بينهما . وكانت أوضاع هذه الحروب التى لا تنتهى تؤمن المواضيع الابداعية الرومانطيقية التى تمكن فتيان العرب وبواسلهم ومغامريهم من أداء أعمال البطولة التى اضفت على شعرهم ذلك الرونق والمجد الذى لا تؤمنه لهم حياتهم الرتيبة التى يعيشونها . وصحيح أن قريشا لم تكن قبيلة بدوية وكانت مصالحها الأساسية معتمدة على التجارة ولكنها عندما تخوض حربا من الحروب كانت تميل الى اتباع العادات الحربية المألوفة فى عصرها حتى ولو كانت هذه العادات والتقاليد ناشئة فى أجواء بدوية .

لكن المنازعات الدموية كانت تنفذ خلال هذه المشاحنات العارضة والرومانطيقية لتؤدى فى أحايين كثيرة الى المزيد من الكراهيات ومن أعمال الانتقام الوحشية ، ومن هنا كان التناقض يبرز كل البروز . فالحروب تدور فى صورة عرضية وتتبع فيها أنظمة الفروسية وتخاض المعارك بمواعيد مسبقة تسبقها مبارزات فردية ولكن عندما يصبح من المعروف أن هذا الفارس قد قتل الفارس الآخر اذ لا يعرف فى الاشتباكات الدموية من القاتل ومن القتيل ، فان حزازات دموية سرعان ما تنشأ لا بين القبيلتين المتقاتلتين فحسب بل وبين أسرتى القاتل والقتيل فى كل حادث معين . ولم يكن التمثيل بجثة حمزه ناشئة عن تعصب دينى بل عن الحقيقة الواقعة وهى أن حمزة قد قتل والد هند فى معركة بدر (١) .

وقد استمرت عادات القبائل العربية فى القتال كما سبق لى أن اوضحت حتى القرن الحالى . ولكن من الطريف أن نبين أنه فى غضون الثلاثة عشر قرنا الماضية كانت الاندفاعات الدينية تنشب من وقت الى آخر وكان آخرها قيام الوهابيين بين عامى ١٩١٢ و ١٩٣٠ ، وكانت هذه التفجرات الزمنية من الحماس الدينى لا تستمر فى كل مرة أكثر من ثلاثين عاما تقريبا . وفى هذه الفترات كان المتقاتلون يخرجون جزئيا أو كليا على التقاليد القبلية القديمة وكان أصحاب الدعوة الجديدة يقاتلون بقصد الفوز والكسب . والاساليب التى تتجنب سبل الرحمة حتى وان كانت التقاليد البدوية القبلية لا تسمح بها

(١) سبق لنا ان ذكرنا فى هامش سابق الرواية الصحيحة التى اوردتها سيرة ابن هشام من مقتل حمزة عم النبى .

(المعرب)

تصبح مبرورة اذا كان القصد منها خدمة الله ، وسنرى فى الصفحات المقبلة كيف انه فى الوقت الذى كانت فيه قريش والقبائل الاخـــرى تتبع الاساليب القديمة العرضية كان محمد يقاتل ليفوز ويربح ٠

* * *

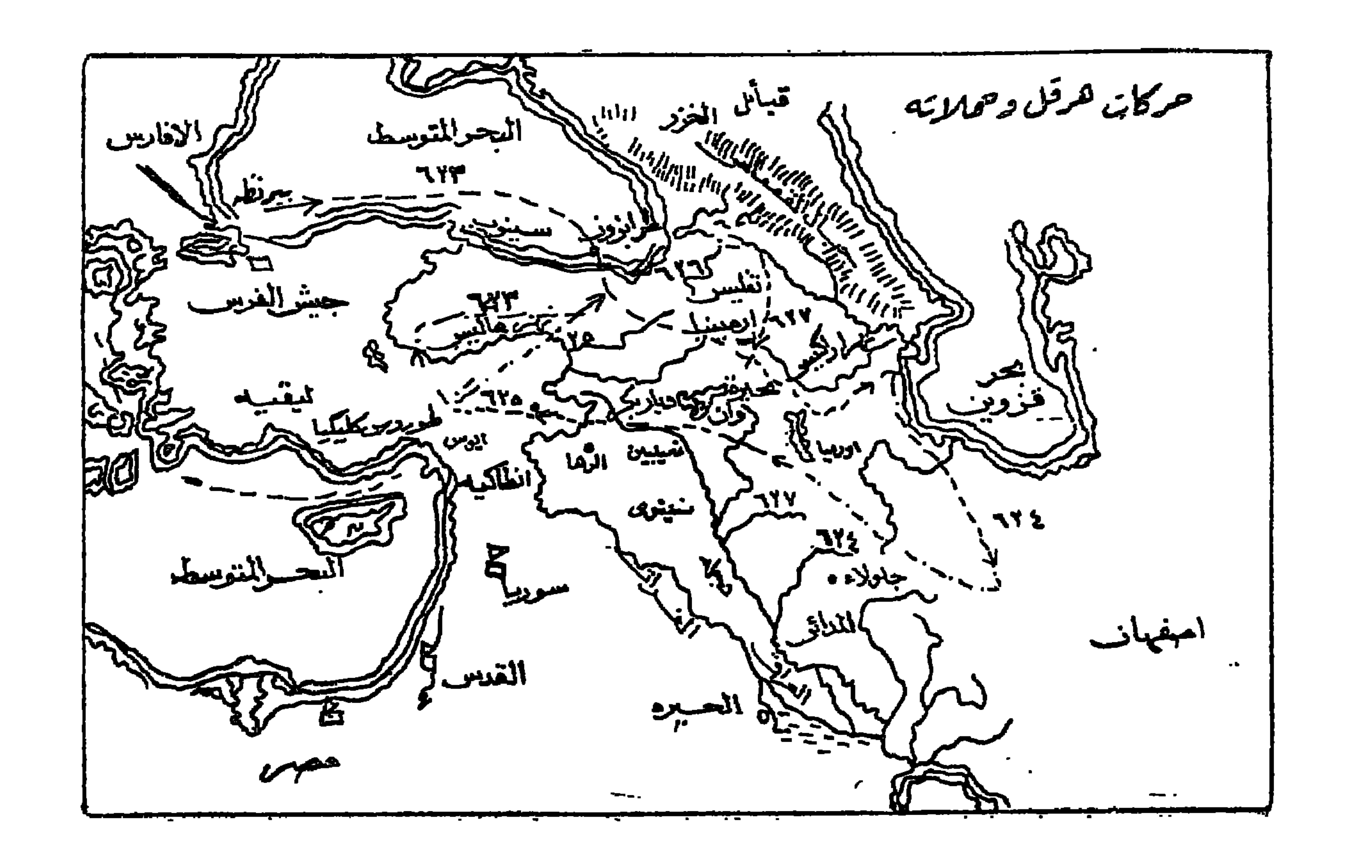
ولم تكن حظوظ العرب فى صعود وهبوط وكانها دلو فى بئر فى الجزيرة العربية وحدها فلقد كانت الامبراطوريتان العظيمتان فى ذلك العهد تمران بشرور مماثلة . ولقد سبق لنا آن راينا كيف أن هرقل قد ارتقى عرش القسطنطينية فى عام ٦١٠ وكانت أولى الانباء التى استقبلته بعد ارتقائه العرش من جبهة فارس فقد جاءه نبأ سـقوط انطاكية فى أيدى أعدائه واحتلت جيوش كسرى مدينة القدس فى عـام ٦١٤ كما احتلت مصر فى عام ٦١٦ ، واكتسحت جيوش فارسية أخرى آسيا الصغرى ، ووصـــلت الى أبواب القسطنطينية على مضـــيق البوسفور ، وتراءت أمامها أبراج بيزنطة وأسوارها ٠ وفى غضون ذلك كان شعب من البرابرة يدعى الافارس قد زحف من مناطق روســيا الجنوبية على البلقان فاحتل شبه الجـــزيرة حتى وصل الى أسوار العاصمة . ورأى هرقل أن الأعداء يحيطون به من كل جانب وأن هؤلاء الأعداء أشداء ولا حول له ولا طول على قراعهم ففـــكر فى الجلاء عن بيزنطة والرحيل بحكومته الى قرطاجنة فى الشمال الافريقى . ولـكن البطريرك حمله على البقاء وراح يوفد البعثات والسفراء الى كسرى مناشدا اياه السلام ولم ينج من الموت والاغتيال الا بأعجوبة عنـــدما سعى بنفسه الى لقاء زعيم البـــرابرة . ورفض كسرى فى بداية الأمر عروض الامبراطور ولكنه وافق فى النهاية على عقد هدنة مقابل جزية سنوية قدرها الف طالن (وزن قديم) من الذهب وألف طالن من الفضة وألف رداء من الحرير وألف جواد وألف فتاة من الابكار . وقد انحى المؤرخون على هرقل باللوم لانه فشـــل فى الاثنى عشر عاما الاولى من حكمه فى طرد الغزاة من اراضيه . لكن بعضهم وجد له العذر فىالصراع الداخلى الذى نشأ بينه وبين مجلس الشـــيوخ على السـلطان مما أدى الى استحالة قيام ســياسة قومية جريئة . وانى لأرى أن المعلومات المتوافرة لنا عن الموضوع اقل من ان تمكننا من الوصـــول الى حكم سليم فيه .

وسلم الامبراطور بعد يومين من عيد الفصح فى عام ٦٢٢ مقاليد الامور فى القسطنطينية الى البطريرك والى مجلس الشـــيوخ . وعلى الرغم من أن الحصار على المدينة كان شديدا من ناحيتى الشرق والغرب

أى من جانب الفرس والافارس فان البيزنطيين كانوا مسيطرين على البحر وحمل هرقل جيشه على أسطوله ومر به عبر الدردنيل لينزل به على الساحل الشمالى من خليج الاسكندرون حيث سيطر فورا على المضيق المعروف فى جبال طوروس ببوابة كليكية . وأقام هرقل معسكره على مقربة من اضنة (ايسوس) التى كان الاسكندر الاكبر فيها قد قهر جيش « دارا » ملك الفرس قبل نحو من ألف عام • وهزم هرقل جيشا فارسيا جاء لمحاربته واجتاح كبادوكيا قاطعا مواصلات الجيش الفارسى المرابط أمام القسطنطينية ، وخلف جيشه مرابطا على نهر هاليس ليقضى الشتاء فيها . وعاد فى نهاية عام ٦٢٢ الى القسطنطينية وكان النبى محمد قد غادر فى يونيو (حزيران) من العام نفسه مكة مهاجرا الى المدينة .

وابحر هرقل فى ربيع عام ٦٢٣ من بيزنطة الى البحر الأسود يقود جيشا مختارا قوامه خمسة آلاف رجل ونزل هذا الجيش فى طرابيزون ثم زحف جنوبا الى أن التقى بجيشه المرابط طيلة الشتاء فى كابادوكيا . وراح يجتاح بعد ذلك آرمينيا الى أن وصل الى نهر أراكسيس حيث قضى الشتاء التالى داخل الامبراطورية الفارسية على سواحل بحر الخزر (قزوين) الجنوبية . وكانت معركة بدر قد وقعت آنذاك فى عام ٦٢٤ ويقال ان الامبراطور وصل فى صيف عام ٦٢٤ الى قزوين التى تبعد مائة ميل الى الشمال الغربى من طهران الحالية ، لكن المعلومات الجغرافية عن هذه الحملات ضئيلة وغامضة • ويبدو أن « هرقل » قضى شتاءه الثالث فى بلدة اميده (ديار بكر الحالية) وعاد فى عام ٦٢٥ فهزم الفرس من جديد فى كليكيا وعاد فى خريف ذلك العام وبعد أن قضى ثلاثة أعوام يشن حملاته داخل الاراضى الفارسية الى سواحل البحر الاسود •

وكان كسرى قد اتفق مع الافارس فى غضون ذلك على ضرورة احتلال القسطنطينية ، واضطر هرقل الى اعادة « ١٢ » الف رجل الى عاصمته لتعزيز الدفاع عنها . وراحت الامواج المتلاحقة من جيوش البرابرة تقذف بنفسها لمدة عشرة أيام فى صيف عام ٦٢٦ على أسوار القسطنطينية . وكان الافارس قد برعوا فى فنون الحرب فنصبوا الابراج الخشبية على مقربة من الاسوار وعبروا الخنادق والحفر وتمنطقوا بالدروع والزرد لحمايتهم من الصواريخ البيزنطية . ولكن بعد عشرة أيام من القتال المرير المنيف اضطر الافارس الى الانسحاب تعبين مجهدين • وكان هرقل قد أفلح فى غضون ذلك فى مواجهة الحلف بين كسرى والافارس بحلف عقده مع شعب الخزر التركى المقيم على



حركات هرقل وحملاته
قبائل الخزر
الافارس
البحر المتوسط
٦٢٣
بيزنطة
سينوب
طرابزون
٦٢٦
تفليس
جيش الفرس
٦٢٣
هاليس
ارمينيا
٦٢٧
٦٢٥
بحر قزوين
ليقيه
٦٢٥
كيليكيا
ايوس
انطاكية
الرها
نصيبين
اورميا
نينوى
٦٢٧
٦٢٤
٦٢٤
جلولاء
البحر المتوسط
سوريا
المدائن
اصفهان
القدس
الحيرة
مصر

مصب الفولجا • واجتمع رئيس هذا الشعب مع هرقل في «تفليس» وقدم الى جيشه نجدة قوامها أربعون ألف رجل .

وزحف هرقل في صيف عام ٦٢٧ جنوبا من جديد عبر ارمينيا واحرز في الاول من ديسمبر (كانون الاول) نصرا حاسما على الفرس في «نينوى» • ولم يكتف الفرس بالانسحاب من ضفاف البوسفور بل انسحبوا أيضا من مصر وسوريا وبدأت مملكة الفـرس في التفسـخ والانحلال . وقام شيرويه باغتيـال والده كسرى ابرويز في عام ٦٢٨ ميلادية وعمت الفوضى جميع أنحاء المملكة . وتم أخيرا الوصول الى الصلح وعقدت معاهدة بعد ستة وعشرين عاما من القتـال والدمار أعادت الحـدود بين الامبراطوريتين الى ما كانت عليه في عام ٦٠٢ . وقد لحق الخراب بكلتا الامبراطوريتين وخلت خزائنهما من المال وأصاب الدمار أراضيهما الغنية وشلت تجارتهما وصناعتهما •

ولقد رأيت من الضروري أن أقدم هـذا التحليل لسببين أولهمـا واهمهما : أن ماأصاب الدولتين من انهاك في هذه الحروب التي استمرت ستة وعشرين عاما قد فتحت الطريق أمام الفتوحات العربية العظيمة • وثانيهما : ان الخطة السوقية التي اتبعها هرقل في حروبه هذه عاد فحاول تطبيقها ولكن بنتائج مغايرة تماما أدت الى كارثته وذلك ضـد الغزو العربي لامبراطوريته .

وقد لا يلام المسلمون اذا رأوا في هـذه المذابح المتبادلة الحمقاء بين بيزنطة وفارس قضاء من الله ونصرة لهم ولا سيما انها وقعت في السنوات نفسها التي كان المسلمون فيها يوثقون من وحدتهم ويبنون قوتهم قبل أن يخرجوا من حدود الجزيرة العربية لاحتـلال الامبراطوريتين العظيمتين اللتين تحيطان بهم والاستيلاء على معالم حضارتهما العريقة •



تواريخ مشهورة

هرقل يبحر من بيزنطة	عيد الفصح عام ٦٢٢
وصول النبي الى المدينة	٢٨ من يونيو (حزيران) ٦٢٢
معركة بدر	يناير (كانون الثانى) ٦٢٤
معركة أحد	يناير (كانون الثانى) ٦٢٥
هجوم البرابرة على بيزنطة	صيف عام ٦٢٦
معركة نينوى	أول ديسمبر (كانون الاول) ٦٢٧
اغتيال كسرى ابرويز وعقد الصلح بين بيزنطة وفارس	فبراير (شباط) ٦٢٨

***

شخصيات مشهورة

على بن أبى طالب	ابن عم الرسول وقد نشأ فى كنفه
زيد بن حارثة	ابن الرسول بالتبنى
أبو بكر	أصدق صديق للنبى
عبد الله بن أبى	زعيم من زعماء المدينة (كبير المنافقين)
أبو سفيان	قائد قريش ضد المسلمين
هرقل	امبراطور بيزنطة
كسرى	ملك الفرس

النصر والوفاة

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين • واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم • »

سورة البقرة ــ القرآن الكريم

***

« انا فتحنا لك فتحا مبينا • ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تاخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما • وينصرك الله نصرا عزيزا • هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، ولله جنود السموات والارض وكان الله عليما حكيما •

ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما • ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء » •

سورة الفتح ــ القرآن الكريم

« سواء سميتموه نبيا او مصلحا أو أى شيء آخر فان راعى الابل فى مكة وفاتح المدينة يفوق أى انسان آخر عرفه تاريخ الشرق وليس ثمة فى تاريخ العالم رجل واحد نستطيع أن نعزو اليه مباشرة آثارا عظيمة كالآثار التى تعزى الى هذا الرجل • »

أى•أى•فريمان ــ فتوحات العرب

***

« أمامه يجثو اهل البادية وأعداؤه يلحسون التراب• ملوك ترشيش والجزائر يحملون اليه الهدايا • ملوك شبأ وسبأ يقربون له العطايا »

المزمور الحادى والسبعون ــ سفر المزامير



أصابت هزيمة «أحد» الدعوة الاسلامية بما يشبه الجزر بعد المد الذى حققه نصر بدر ولما كان النصر فى بدر قد عزى الى نصرة الله وعونه للمؤمنين فقد صعب على هؤلاء أن يفهموا لماذا ضنت العناية الالهية عليهم بالنصرة فى أحد • وتوالت الآيات منزلات على النبى • لتعينه فى الحفاظ على الروح المعنوية القوية عند المسلمين • وسورة آل عمران فى القرآن طافحة باللوم والتثريب على عبد الله بن أبى واتباعه لتخاذلهم وبالوعد للمسلمين بالنصر النهائى والتأكيد لهم بأن اللهأراد لهم الانكسار ليبتليهم ويمتحنهم •

ولم يكد المسلمون ينالون قسطا من الراحة من عناء ما ألم بهم فى أحد حتى كان محمد يعاود السعى لبسط نفوذه ونشر سلطانه • وغزا المسلمون بنى أسد وهى قبيلة من أشد القبائل بأسا تقيم فى نجد على مودة لقريش ونهبوا أبلها وخيلها وقتلوا شيخ بنى لهيان وكان قد أظهر العداء للمسلمين وقطعوا رأسه وحملوهامعهم الى المدينة • ولكن بنى لهيان خطفوا ستة من المسلمين ثأرا لشيخهم وقتلوا أربعة منهم ثم باعوا الاثنين الباقيين الى قريش ليقتلهما أقرباء قتلى بدر من المشركين(١) ويعتبر هذان وهما زيد وخبيب من الشهداء عند المسلمين ويقال ان أهل مكة عندما شرعوا يجلدون خبيبا بسياطهم بعد أن صلبوه هتف قائلا : « اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا » وعندما شد القرشيون وثاق الرجلين سلمت الرماح الى أبناء قتلى بدر وطلب اليهم أن يطعنوهما

---

(١) تشويه آخر في الروايات من جانب المؤلف فكتب السيرة تجمع على ان رهطا من عفل والقارة وهما بطنان من خزيمة (لا لهيان كما يقول المؤلف) قدم على رسول الله (صلعم) بعد أحد فقالوا يارسول الله ان فينا اسلاما فلو ارسلت معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا في ديننا ويقرئوننا القرآن ويعلموننا الاسلام فبعث معهم ستة من أصحابه اميرهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى فخرجوا معهم حتى اذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم في رجالهم الا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل : انا لانريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من اهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه الا نغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب الى العهد ثلاثة فقتل أحدهم بالطريق والآخران بيعا بمكة فقتلا هناك •

(المعرب)

بهـا حتى يموتا • ويظهر تراجع قريش بعـد معركة أحد دون استغلال نصرهم والوحشية القاسية فى فتل زيد وخبيب بعد صلبهما عفوية العرب فى أساليب قتالهم من ناحية وقسوتهم التى لا تعـرف الرحمة فى الثأر لقتلاهم من الناحية الاخرى

ولعل المفارقة العظيمة بين الجانبين فى هذه الفترة من سنوات المعارك تبدو واضحة جلية فيما امتاز به المسلمون من نشاط لا حـدود له وما اتسمت به قريش من سلبية وجمود • وظل المسـلمون يقومون بغزوات وسرايا من هذا النوع ، من قاعدتهم فى المدينة وضد القبـائل البدوية الحليفة لقريش مستعينين فيها بحلفائهم من البدو ، أما الافـراد الذين يظهرون عداء شديدا للمسلمين أو للنبى فكان مصيرهم القتـل فى معظم الحالات وبوسـائل من النوع الذى نسميه اليوم بالوسـائل الارهابية (١) • وأوفد النبى فى هذه الآونة رجلا الى مكة لاغتيـال أبى سفيان ولكن الخطة لم تنجح (٢) • ومشت الدعوة الاسلامية جنبـا الى جنب مع الاغتيالات ومع الدعاية كمحاولة للتأثير على عقول عـدد آخر من الناس . ولعل كون محمد نبيا وحاكما وقائدا عسكريا فى آن واحد هو الذى أدى الى ترابط فى وسائل القوة ووسائل الاقناع السياسى والتأثير الدينى التى اتبعها .

وكانت هذه الاعمال تصرف عند الجماعات القديمة ومنها قريش بالطبع من قبل جهات عدة لعدم وجود زعيم واحد لها مما أدى الى الافتقار الى التنسيق بين التعاون الكامل والوثيق للدعاية السياسية وبين التهديد باستخدام القوة العسكرية • وهكذا فان محمدا كان يتمتـع بالنسبة الى

---

(١) يظهر المؤلف في هذه اللهجة حقده الاسود الدفين على الاسـلام والمسـلمين فهو يتهم المسلمين بأعمال الاغتيال دون أن يشير الى ماقام به أعداؤهم من أعمال الاغتيال والغدر بالمسلمين وبينها محاولات عدة لاغتيال النبى نفسه . وهذه الحوادث كثيرة منها غدر أبى براء بالبعثة التى طلب من النبى ايفادها الى نجد لتعليم النجديين شـئون الدين ومنها غدر عامر بن الطفيل برجلين مسلمين من بنى سليم وغـدر بنى النضـير برجلين مسلمين ومحاولتهم اغتيال الرسول وغير ذلك من الحوادث التى لاحد لهـا ولا حصر . واذا ما أخذ المرء كل هذه المحاولات والاعمال الاجرامية بعين الاعتبار تبين له مافي ابتعاد المؤلف عن الموضوعية من تحيز ضد المسلمين كما وجـد المبرر لثأر المسـلمين من الغادرين •

(المعرب)

(٢) لم أجد في كتب السيرة اى تأييد لهذه الرواية التى جاء بها المؤلف

(المعرب)

المكيين بالمزايا نفسها التي يتمتع بها الديكتاتوريون المعاصرون في تعاملهم مع الديموقراطيات القديمة (١) •

وفي امكاننا المضي بهذه المقارنة الى مدى أبعد فلقد كان في مكنة المسلمين ــ كالشيوعيين اليوم ــ أن يضمنوا حماسة عظيمة تثيرها العقيدة الجديدة ولاسيما عند الشبان • واضطرت قريش بطريقتها القديمة في الحياة الى أن تلجأ الى موقف الدفاع وبدلا من أن تكون كمحمد مشتبكة بصورة دائمة في عمل هجومي لا يستقر على حال نراها سلبية جامدة لا نشاط لها الا في الازمات الموسمية الطارئة •

وكان اجلاء بني النضير أهم حادث وقع في السنة التي تلت معركة أحد وتعتبر هذه القبيلة ، القبيلة اليهودية الثانية في المدينة وكانت تعيش في قرية منفصلة تحيط بها بساتين النخيل الى الجنوب من المدينة. وقد أذعنت القبيلة ــ في سبتمبر (أيلول) عام ٦٢٥ وبعد حصار دام خمسة عشر يوما ــ الى أمر الرسول بالجلاء عن بيوتها والهجرة الى سوريا حيث أقامت في أريحا وفي منطقة درعا . وبينما كان بقو القينقاع وهي القبيلة اليهودية الاولى التي أجلاها المسلمون من الصاغة وصناع الاسلحة فان بني النضير كانوا من الفلاحين وتوزع المسلمون دورهم وحدائقهم وحقولهم (٢) •

وهكذا واصل النبي على رغم الهزيمة في أحد بسط نفوذه طيلة العام الذي انقضى بعد هذه الغزوة• وكان بغاراته على البدو يأمل في اقناعهم بأن من الخير لهم لو انضووا الى جانبه بدلا من جانب قريش وهي جماعة

---

(١) مقارنة سخيفة باطلة . لا وجود لاى مقومات التشابه فيها . فليس أبعد من الاسلام عن الديكتاتورية وليس أبعد من تصرفات النبي عن أعمال الديكتاتور . فلقد نص الاسلام على أن الامر شورى بينهم وليس أبعد من الشورى عن الديكتاتورية . وكان النبي لا يقدم على عمل سياسي أو عسكري الا بعد التشاور مع صحابته الا اذا كان هناك امر صريح من الله عز وجل . وقد رأينا كيف نفذ النبي رأى الاغلبية في معركة احد بالخروج لملاقاة قريش مع أن رغبته هو كانت في البقاء في المدينة . ــ المعرب ــ

(٢) تحيز واضح سافر لليهود فقد تحدث المؤلف عن جلاء بني النضير دون أن يذكر السبب الذى دعا اليه وذلك عن قصد سيء وهو أن يظهر لقرائه ظلم المسلمين لليهود ولو كان منصفا لذكر السبب الذى اجمعت عليه كتب السيرة . وهو تآمرهم على حياة النبي عندما مضي اليهم ليحدثهم في أمر مسلمين قتلهما بنو عامر حلفاء بني النضير وارادوا القاء صخرة على راسه وهو متكيء على جدار في أرضهم ليقتلوه فوقاه الله منهم •

(المعرب)

تجارية لاتعرف الغارات والغزو وتوخى من اجلاء بنى النضير أضعاف قوة الجماعات غير الموالية له فى المدينة ، وايجاد وسيلة أكثر رخاء ليعيش المهاجرون الذين خلفوا ممتلكاتهم فى مكة .

وبعد انقضاء الحول على « أحد » أى فى يناير عام ٦٢٦ حلت الساعة اللازم لتقبل التحدى الذى كان أبو سفيان قد وجهه الى المسلمين للقاء فى بدر بعد عام ــ وكانت السنة سنة أمطار شحيحة وهى حالة تجعل الحركة والتنقل متعذرين فى الجزيرة العربية حتى يومنا هذا نظرا لاعتماد الابل والخيل (وهى وسائل التنقل) فى غذائها على ما ترعاه من الارض . وأوفدت قريش رجلا الى المدينة ليذيع فيها أن المشركين يقومون باعدادات واسعة لالقاء الذعر فى قلوب المسلمين ومنعهم من المضى الى الموعد المضروب . وكادت المكيدة تحقق نجاحها الا أن تصميم النبى أفلح فى النهاية فى حشد نحو من ألف وخمسمائة رجل للمعركة وهو عدد يقارب ضعف العدد الذى خاض به معركة أحد . وكانت النتيجة ان قريشا هى التى تخلفت عن الموعد وظل المسلمون يرابطون ثمانية أيام فى بدر دون أية مقاومة وحققوا نصرا أبيض لم يسفكوا فيه قطرة .

واستمرت سياسة توسيع الغزوات والغارات القبلية طيلة السنة الخامسة للهجرة واتسعت شمالا حتى وصلت الى الحدود البيزنطية وكان هدف احدى هذه الغزوات قبيلة صغيرة تسمى « بنى المصطلق » وقد وقع ابانها حادث مؤسف . فلقد ألف الرسول أن يصطحب احدى زوجاته فى هذه الحملات وكانت رفيقته فى هذه الحملة ، زوجته عائشة بنت أبى بكر وفى الليلة الاخيرة من الحملة ــ وكان الناس قد بدءوا فى الرحيل ــ خرجت عائشة لبعض حاجتها بعيدا عن المعسكر وعندما عادت الى الرحل افتقدت عقدا كان فى عنقها فرجعت الى المكان الذى كانت فيه فى ظلمة الدجى ، وعندما كانت تبحث عن عقدها الضائع كان الركب قد ارتحل مخلفا اياها وراءه دون أن يحس بها أحد . وحمل الناس هودجها وهم يظنون انها فيه اذ كانت ستائره مسدلة . وعندما عادت الى المعسكر رأت القوم وقد ارتحلوا فتلففت بجلبابها ثم اضطجعت فى مكانها متصورة انهم سيفتقدونها ويعودون للبحث عنها .

وبينما هى فى نومها مر بالمكان شاب يدعى صفوان كان على بعيره قاصدا المدينة . ولما رآها فى حالها هذه حملها على جمله وأخذ برأسه وانطلق به يقصد الناس . وأثار وصول زوجة النبى على بعير يقوده شخص غريب الاقاويل وأحاديث الافك .

وأخذ أعداء النبي يروجون الشائعات بسرعة للطعن في شرفهـا والاضرار بسمعتها وثارت في نفس النبي الشكوك • ويقال ان عليا اقترح على محمد أن يستخلف عائشة قائلا له ان النساء لكثيرات •

وبعد شهر من القلق نزل الوحي ببراءة عائشة وعاد الانسجام الى صفوف المسلمين لكن موقف «علي» أحدث جفاء بينه وبين عائشة قدر له أن يترك آثارا مفجعة بعد وفاة الرسول • وكان من نتائج هذه القضية أيضا نزول سورة «النور» التي تشترط وجود الشهود الاربعة لاثبات جريمة الزنا والتي تفرض عقوبة الحد الشرعي ثمانين جلدة على كل من يطعن في النساء المحصنات دون اقامة الدليل بوجود الشهود الاربعة (١) •

***

وساد الذعر قريشا من رؤية نفوذهم يتقلص أمام نفوذ محمد الذي يلجأ الى أساليب سياسية يجهلونها فقررت الا أن تضع نهاية للمسلمين في المدينة • وحشدت في عام ٦٢٧ قوة لا يقل عددها عن العشرة آلاف أي ثلاثة أضعاف ماكان لهم من قوة في معركة أحد • وكان نحو من أربعة آلاف من هذه القوة من قريش أماالبقيةفمن قبائل غطفان و«بني سليم» و «بني كنانة» وهي قبائل حليفة لهم • وأثارت أنباء هذاالجيش الضخم المتأهب للغزو قلقا كبيرا في المدينة •

وحدث أن ضمت المدينة في هذه الايام فارسيا أعتنق الاسلام اسمه «سلمان» وكان هذا الرجل كما يبدو قد مربتجارب علمتهشيئا من الاساليب الحربية الفنية المتبعة في الامبراطوريةالفارسية • وقد اقترح هذا الرجل تحصين المدينة بحفر الخندق لدفع الاعداء عنها • ويبدو أن القسم الاكبر من محيط المدينة كان محميا بالاسوار والبيوت لكن الجانب الشمالي منها كان مكشوفا معرضا للاعداء • وشرعت أيدي المسلمين جميعا في الحفر وعلى رأسهم محمد الذي حفر بيديه والتراب يعلوه منشدا مع المسلمين والمعول في يديه لاستثارة الحمية في نفوسهم • وتم حفر الخندق في ستة أيام أي في الوقت المناسب قبل وصول العدو اليها لاقتحامها بهجوم كاسح •

---

(١) المقصود هنا الآية الكريمة .. « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون » (المعرب)

وتظهر محافظة العرب على أساليبهم القديمة فى الحرب من الحقيقة الواقعة وهى أن قريشا لم تكترث مطلقا بهذا التطور غير المتوقع الذى وضعته والزراية تنضح فى نظرتها اليه بأنه عمل غير عربى وبعيد عن الشجاعة والشرف · وعسكرت قريش أمام الخندق دون أن تقوم بأية محاولة لشن هجوم عام على المدينة على الرغم من أن عددها كان يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلمين · واقتحم أربعة من فرسان قريش الخندق مدفوعين بهذا الايثار النموذجى لاعمال البطولة الفردية ووجدوا أنفسهم وسط المدافعين عن المدينة متحدينهم الى مبارزات فردية · وخرج على بن أبى طالب كعادته من صفوف المسلمين فبارز قائدهم وقتله مما أرغم الثلاثة الآخرين على الفرار فوق الخندق ·

ولم يكن حلفاء قريش من قبائل البادية يستسيغون طعم الحرب الثابتة وسرعان ما أخذت المؤن تنضب والاحتكاك ينشب بين الاحزاب · وقد أثار الكثير منه رسل محمد الذين أخذوا يبذرون الخلافات سرا فى صفوف المشركين وراحت ابل قريش وجيادها تنفق لنقص المرعى · وعلى الرغم من أن أبا سفيان كان القائد العام للحملة اسميا الا أن الاحزاب اتبعت نظاما غريبا للقيادة وهو اسناد أمرها فى كل يوم الى واحد من رؤسائهم · وعلى الرغم من أن هذا النظام كان ضروريا لتهدئة حوافز الغيرة والحسد بين مختلف القادة الا أن مثل هذا الترتيب جعل أية عمليات منظمة للحصار أمرا مستحيلا ·

وكان القلق فى غضون ذلك قد استشرى فى المدينة · وفزع الرسول نفسه من تخاذل بعض أتباعه فشرع يفاوض سرا رؤساء غطفان عارضا عليهم ثلث محصول المدينة فى كل عام من التمر شريطة انسحاب غطفان من الحصار والعودة الى أراضيها · وقد قبل شيوخ غطفان هذا العرض ولكن قبل أن يعقد محمد الاتفاق النهائى معهم بعث فى طلب رئيسى الاوس والخزرج ليستشيرهما فى الخطة التى اعتزم تنفيذها · وراح الزعيمان يسألانه ··· أهو أمر نحبه فنصنعه أم شىء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شىء تصنعه لنا ؟ · ورد الرسول قائلا : بل شىء أصنعه لكم · ورد الزعيمان قائلين ·· « يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الاوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » وكانت هذه احدى حالات كثيرة أثبت فيها المسلمون

أنهم كانوا أكثر تصميما على القتال من النبي نفسه (١) ٠

وبعد انقضاء عشرين يوما من الحصار هبت عاصفة شديدة ذات ليلة باردة على الواحة وأخذت الريح المربدة المزمجرة تعصف بخيام المحاصرين وتطفىء نيرانهم وتكفأ قدورهم بينما ظل المطر ينهمـر مدرارا ٠ ولم تكد تنقضى العاصفة حتى استدعى أبو سفيان رجال قريش وزعماءها الى اجتماع عاجل وأبلغهم أنه قرر الرحيل والعودة الى مكة ٠ ولم تكد قريش ترتحل حتى راح حلفاؤهم من البدو يتفرقون بددا في الصحراء وهكذا ارتفـع الحصار وزالت الغمة عن المسلمين ٠

وبينما كان الاعداء يختفون من ظاهر المدينة عائدين الى مكة انصرف محمد عائدا الى بيته وهو مجهد وبدأ المسلمون فى وضع سلاحهم وفجأة أتى جبريل رسول الله على بغلة عليها رحالة وقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم ٠ فقال جبريل فما وضعت الملائكة السلاح بعد٠ ومارجعت الآن الا من طلب القوم ٠ ان الله عز وجل يأمرك يامحمد بالمسير الى بنى قريظه فانى عامد اليهم فمزلزل بهـم ٠ فأمر النبى مؤذنا يؤذن بالناس طالبا اليهم العودة الى سلاحهم والمسير الى بنى قريظة ومضى على ابن أبى طالب يقود الزحف على بنى قريظة وقد حمل راية الرسول ، وهى مقيمة فى قرية مجاورة للمدينة ، وكانت هـذه القبيلة آخر قبيلة يهودية ظلت فى واحة المدينة ٠ وقد لا يكون غريبا أن تقف القبيلة موقف العداء من المسـلمين الذين كانوا قـد أخرجوا اخوانهم اليهود من ديارهم (٢) ٠ وكان وصول قريش على رأس تلك القوة الضخمة الى المدينة قد شجع بنى قريظة على الثأر ولذا فقد اتصلوا بقريش وعندما انسحبت قريش فجأة رافعة الحصار عن المدينة ظل اليهود وحدهم يواجهون نقمة المسـلمين وسخطهم ٠

---

(١) صورة أخرى من صور الكراهية التى يحملها المؤلف للرسول ٠ ايجـوز له وهو يدعى الموضوعية أن يقول هذا القول لمجرد ان النبى راى رأيا غير ما رآه صحبه ؟ ان هذه القصة على اى حال دليل على دحض اتهام المؤلف للنبى بالديـكتاتورية اذ انه عمل برأى انصاره ٠ (المعرب)

(٢) تجاهل المؤلف مسايرة منه لعواطفه الواضحة مع اليهود ادراج الحقيقة التى اجمعت عليها كافة الروايات وهى ان اليهود هم الذين حرضوا قريشا وغطفان على حرب « الاحزاب » وان بنى قريظة نكثت بعهدها وحلفها للمسلمين عندما وصلت قوات المشركين الكبيرة أمام المدينة وراحت تعمل على طعن المسلمين من خلفهم فهم والحالة هـذه خونة وجزاء الخائن القتل ولا سيما في أيام الحروب ولا ريب في أن تجاهله هذا يزيل كل ادعاء له بالموضوعية ٠ (المعرب)

ودام الحصار على بني قريظة خمسا وعشرين ليلة • ونزل اليهـود اخيرا على حكم النبي دون قيد أو شرط • وكان هؤلاء قد أقاموا في المدينة منذ عهد طويل حلفاء لاهلها وأصدقاء ووافق الرسول على أن يولي أمرهم حليفهم السابق سعد بن معاذ زعيم الأوس ليقول كلمته في مصيرهم • وكان سعد من المؤمنين الاوائل من أهل المدينة، وقد حمل راية الخزرج في موقعة بدر وكان يحتضر الآن من جرح أصابه به سهم ابان معركة الخندق • ويبدو أن جرحه هذا قد أحفظ فؤاده على اليهود حلفائه فأعلن قراره وهو يقضي بقتل الرجال وتقسيم الاموال وسبي الذراري والنساء • ورضي الرسـول بحكم سعد بن معاذ وأمر بتنفيذه • وحفرت الخنادق في الليل في سوق المدينة ثم بعث اليهم فضربت أعناقهم في جماعات صغيرة وهم قابعون في الخنادق ، وقد ربطت أيديهم • وقد عرض عليهم الاسلام قبل تنفيذ حكم الموت فيهم وكان في مكنتهم عن طريق الشهادة أن يتحولوا من مجرمين حكم عليهم بالموت الى مسلمين لهم من الحقوق مالسواهم ولكنهم رفضوا ذلك •

* * *

كانت قريش قد بذلت جهدا هائلا في حشد ألف رجل لحصـــار المدينة ولذا فقد وصلت مكانة محمد بعد فشل المشروع العظيم الى الاوج وكان مصير بني قريظة انذارا كافيا للخونة والمارقين •

ورأى النبي في نومه في مطلع عام ٦٢٨ انه دخل مكة دون مقاومة وانه أدى فريضة الحج في كعبتها • وراح يعلن على الفور عزمه على ذلك• ولا تؤدى فريضة الحج الا في موسمها المحدد له وقت معين من كل عام ، أما العمرة وهي الحـج الاصغر ، فيمكن أن تؤدى في أي وقت من أوقات السنة . وقد ارتأى محمد أن يؤدي العمرة وكان العرب في الجاهلية قد جروا على اعتبار أربعة أشهر في السنة من الاشهر الحرم التي لايجوز القتال فيها ولا الغزو • وهكذا قرر الرسول ان يزور مكة في هذه الفترة من السنة التي تفرض التقاليد الهدنة فيها • ولم يكن من حق قريش من الناحية النظرية أن تعترض سبيله وأن تحول بينه وبين زيارة الكعبة •

وفي فبراير (شباط) عام ٦٢٨ ، أي بعد عام من حصار المدينة خرج النبي يريد مكة معتمرا على رأس ألف وخمسمائة من أتباعه • لكن قريشا لم تقتنع بنيات الرسول السلمية • فسارعت تسلح نفسها وتتخذ مواقعها على طريق المدينة للدفاع عن مكة • ولم يكن المعتمرون من المسلمين يحملون الا السيوف ولم يكونوا في وضع يمكنهم من خوض القتال ويبدو أن محمدا

بحركته هذه مع جماعته نصف مسلحين قد ارتضى المغامرة وكانت مغامرة من طراز نادر • وعندما وجد المسلمون طريق مكة مغلقا في وجوههم انحرفوا ناحية اليمين ومروا الى الغرب من مواقع العدو واقتربوا من مكة من الطريق المؤدى اليها من ساحل البحر ثم توقفوا عند الحديبية وهى على مسيرة يوم الى الغرب من مكة •

وعندما سمع أهل مكة بأن محمدا قد التف حول جناح مواقعهم الدفاعية تراجعوا مسرعين الى مكة وراحوا يوفدون الرسل لمفاوضته وكان بديل بن ورقاء شيخ خزاعة وهى القبيلة التى كانت تقيم فى مكة قبل قريش أول هؤلاء الرسل • وقد أوضح له النبى أنه جاء لا يريد حربا وانما لزيارة البيت ثم عرض عليه ـ ليؤكد له نياته السلمية ـ الماشية التى جاء بها المسلمون ليذبحوها اكراما للبيت العتيق . وتوافد الرسل بعد ذلك على محمد من قريش وقد خلف لنا أحدهم فى تقريره الى قريش عن نتائج بعثته صورة ناطقة عن المكانة التى يحتلها محمد عند صحابته اذ قال ... «لقد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه » • وعندما ندهش من الاسباب التى أدت الى رفعة الاسلام علينا أن نذكر هذه السطور القليلة • وفى وسعنا فقط أن نقدر العوامل المادية التى كانت سببا فى انتصار المكيين أو فى انتصار المسلمين • أما الهالة التى كانت تحيط بشخصية النبى فهى فوق مستوى مداركنا وأفهامنا وان كان هناك ولا ريب فى هذه الشخصية شىء يوحى بهذا الاخلاص الكلى عند اتباعه وهو ايحاء يؤلف أحد الاسباب الرئيسية التى أدت الى نجاح الاسلام • وحرى بنا ان نذكر أن روح الحركة كلها قد تبدلت فور وفاة آخر صحابى من صحابة الرسول •

وعاد رسل مكة الى قريش يحدثون قادتها بما رأوه وسمعوه وأوفد النبى عثمان بن عفان لمقابلة قادة قريش ، وكان عثمان من المسلمين الاوائل وأحد المهاجرين الاول الى الحبشة • وكان قد تزوج من رقية ابنة النبى فلما توفاها الله بنى بشقيقتها أم كلثوم فصاهر الرسول بذلك مرتين• ولكنه ينتمى الى بنى أمية وهو البطن من قريش الذى يرأسه أبو سفيان • وهكذا كان عثمان قريب أقوى رجل فى قريش وأكثرهم ثراء •

وكانت الحديبية قريبة من مكة ولذا فقد توقع المسلمون عودة عثمان فى غضون بضع ساعات ، ولكن الساعات مرت متثاقلة وعثمان لا يعود ، وفجأة وصل الى محمد نبأ لم نعرف مصدره يقول ان قريشا قتلت عثمان•

ولو صح أن قريشا قد قتلت عثمان متجاهلة بذلك ما تؤمن به من عصبية قبلية نظرا لانتمائه الى بنى أمية فانها بعملها هذا تكون قد قررت القيام باجراءات حاسمة متطرفة وان اجراءاتها هذه لابد وان تكون قد حفزتها على حشد قوة ضخمة للهجوم على المسلمين وابادتهم مرة والى الأبد • ولما كان المسلمون يفتقرون الى السلاح ولا يحملون الا السيوف فقد وجدوا أنفسهم فى وضع غريب وشاذ ، وعندما أخذت الساعات تمر بطيئة متثاقلة دون وصول أية أنباء عن عثمان أدرك جميع الحاضرين خطورة الوضع الذى يواجهونه •

ويبدو أن النبى نفسه فكر فى أن الحرب واقعة لا محالة ووقف النبى تحت شجرة من تلك الاشجار الشائكة التى تطلع هنا أو هنالك فى هذه الجبال الصخرية الجرداء ودعا جميع الحاضرين الى بيعته على الموت • ولا ريب فى أن عمل النبى هذا يدل دلالة واضحة على ادراكه خطورة الوضع الذى كان فيه • وأخذ المسلمون فى جو من التوتر الكبير يمرون بالنبى فيصافحونه مبايعين تماما كما فعل الحجاج من الانصار قبل سبع سنوات فى بيعة العقبة الثانية • وكان المسلمون فى هذه اللحظة فى غمرة من الايمان الطاغى والحماسة • وبعد سنوات طويلة عندما كانت جيوش المسلمين قد تمكنت من اقامة الامبراطورية الاسلامية العظيمة وكان الرفاق السابقون يتحدثون كما يتحدث العسكريون دائما عن التجارب التى مرت بهم مستعيدين ذكرى أمجاد الايام الاولى ، كانوا يظهرون دائما أعمق الاجلال للذين حاربوا فى بدر والذين بايعوا النبى فى الحديبية • وتظهر هذه الذكريات الطويلة الدائمة مدى القلق الذى أحس به المسلمون فى تلك الفترة الطويلة من الانتظار المتلهف •

وفجاة ظهر رجل يستقل بعيرا قادما من ناحية مكة واتجهت الأعين كلها اليه • وكان القادم سهيل بن عمرو وهو مبعوث آخر من المبعوثين الذين أوفدتهم قريش وعندما تبينه النبى من بعيد هتف قائلا وقد اطمأنت نفسه وسرى عنه ••• « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » • وكان سهيل من أبلغ المتكلمين ومن أبرع الدبلوماسيين وأقواهم حجة ومنطقا • وطال أمر المفاوضات قبل أن يصل مع المسلمين الى صيغة اتفاق ورفض سهيل ادراج عبارة « محمد رسول الله » فى مقدمة العقد وأخيرا تم عقد الاتفاق بين محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو وتقررت الهدنة بين قريش والمسلمين لمدة عشر سنوات وأن يعود المسلمون عن مكة هذا العام دون أداء الحج على أن يسمح لهم بالحج فى العام المقبل • ونص الاتفاق على

السماح للطرفين المتعاقدين بعقد الأحلاف مع القبائل التى يريدانها وان اشترط اعادة أى مكى من المدينة اذا ترك مكه قاصدا المدينة دون اذن من وليه ·

ولم يكد التوقيع على الاتفاق يتم حتى وصل أبو جندل بن سهيل بن عمرو المفاوض القرشى قادما من مكة طالبا اعتناق الاسلام · وهنا طالب والده بتنفيذ الاتفاق الذى تم توقيعه وراح النبى يأمر الرجل الذى جاء يطلب الاسلام بالعودة الى مكة وهو متألم لامره ، هذا وعندما جىء بالشاب وهو يرسف فى قيوده ليقاد الى مكة · ويقال : ان عمر بن الخطاب النارى المزاج سار الى جانبه وهو يحمل سيفه بيده ويدنيه منه · ويقال : ان عمر قال فيما بعد وهو يذكر الحادث « وكنت أرجو أن يأخذ السيف فيضرب به أباه » · ولكنه ضن بأبيه ونفذ الميثاق ·

وتوضح المادة — التى اشترطت فيها قريش على محمد أن يرفض من يأتيه من قريش طالبا الاسلام من غير اذن وليه مع الحادثة التى وقعت لابن سهيل بن عمرو — السبب فى ضعف قريش على الرغم من قوتها المادية الظاهرة ، فمما لا ريب فيه أن قريشا كانت تحس بعدم الولاء فى صفوفها ولا سيما بين الشبان · اذ تعددت الحوادث طيلة سنوات الهجرة الطويلة عن وجود شبان فى صفوف المسلمين ما زال آباؤهم يحاربون الى جانب قريش · ويقال ان ابن عبد الله بن أبى شيخ المنافقين طلب من الرسول السماح له بقتل أبيه ومن هذا يبدو أن العرب باتوا أكثر نضوجا لتقبل هذا الدين التقدمي الجديد الذى كان الشبان على استعداد للترحيب به وقبوله بينما كان كبارهم لا يزالون متمسكين بتقاليد الايام الغابرة ·

وقد أصيب كثيرون من المسلمين بخيبة الأمل اثر صلح الحديبية وذلك لرجوعهم عن مكة دون الطواف بالبيت وكانوا يتوقعون الدخول ظافرين اليه · وراح عمر بن الخطاب — على مألوف عادته — يعلن سخطه على هذا الصلح قائلا لأبى بكر: «ياأبا بكر أليس برسول الله ؟» قال أبو بكر الهادىء الوديع بلى، قال عمر «أولسنا بالمسلمين؟» قال بلى ، قال «أوليسوا بالمشركين؟» قال بلى ، قال «فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟» قال أبو بكر ، وهو هادىء ··· يا عمر الزم غرزه (أى الزم أمره) فانى أشهد أنه رسول الله » ثم انصرف الرسول بالمسلمين قافلا الى المدينة حتى اذا جاءت نهاية اليوم الاول من العودة هبط الوحى على النبى بسورة الفتح التى صورت الصلح على أنه نصر عظيم ومن الصعب علينا نحن ألا نتصور أن المسير الى الحديبية بهذه القوة الصغيرة التى لا سلاح لها الا السيوف لم يكن

خطأ عسكريا خطيرا • ولو كانت قريش أكثر جرأة أو كان لها قائد واحد حازم لكان فى امكانها أن تلحق بالمسلمين هزيمة خطيرة أو أن تزيل المسلمين من عالم الوجود اذ ان المسلمين الذين اشتركوا فى المسيرة كانوا مجموعة من اعتنق الاسلام • ولم يكن محمد فى الحقيقة قائدا عسكريا ذا مواهب عسكرية بالغة ، ولم يكن يشترك بنفسه فى المعارك بل يظل فى الصفوف الخلفية لا يشترك فى القتال اشتراكا فعليا • ولا ريب فى أن هذه الناحية جديرة بالملاحظة اذا أخذنا بعين الاعتبار ان العادة فى تلك الايام كانت قد جرت على أن يسير القائد على رأس جنوده شخصيا ويحمل الراية الحربية بيديه (١) •

ومن الصحيح انه استخدم وسائل الاغتيال والقتل أو رتب حوادثهما ولكنه تمكن فى الغالب من التأثير تأثيرا مطلقا على اتباعه الاكثر ميلا منه الى سفك الدماء (٢) • فلقد عاش فى مجتمع لا يعرف الرحمة وكان كأى فرد منا والى حد كبير ثمرة عصره ومحيطه • لكنه بطبيعته كان ميالا الى التأمل والى اللين والرأفة لا الى الشدة ولعل من المفارقات ان هذه الشخصية البعيدة عن العسكرية بطبيعتها قد جاءت بالاسلام دين الجندية والقوة •

---

(١) لاريب فى ان جلوب دفعه كرهه للاسلام والمسلمين الى الخروج عن الموضوعية تماما مخالفا بذلك حتى الكثيرين من المؤرخين الغربيين الذين اعترفوا بالحقيقة برغم كرههم للاسلام فقد انكر على محمد (صلعم) مهارته كقائد عسكرى وزعم انه كان خلوا من المواهب العسكرية لكن الواقع الفعلى، اذا تركنا اى اعتبار آخر، يقيم الدليل على سفه رأى جلوب هذا ، فلقد اثبتت الحروب الصغرى التى خاضها النبى انه كان الى جانب رسالته النبوية قائدا عسكريا بفطرته اذ استطاع أن يخلق من العدم نواة جيش قام بعدئذ بفتح عسكرى لم يشهد له التاريخ البشرى مثيلا. ناهيك عن ان اختلاف الخطط الحربية التى كان النبى يتبعها فى كل معركة من المعارك بحسب طبيعة المعركة وأرضها والقوات المشتركة فيها يدل دلالة واضحة لا تقبل الشك ولا الجدال على أن محمدا كان عبقريا فى شئون الحرب كعبقريته فى شئون السياسة ، وانه قاد أمته الى النصر والى العظمة بشكل وقف له التاريخ كله اعجابا •

(المعرب)

(٢) عاد المؤلف هنا ثانية الى نفث سمومه ولقد سبق لى ان اوضحت فى هامش سابق كذب هذا الادعاء ولو شئنا تعداد كل من قتلهم المسلمون تبين لنا أن جميع هؤلاء كانوا من اشد أعداء المسلمين ومن اكثرهم تعريضا بهم وبأعراضهم • ناهيك من أن هذا القصاص الذى كان ينزله المسلمون بأعدائهم كان الوسيلة الوحيدة لعقاب المجرمين الذين لا يتورعون عن الغدر بالمسلمين ، نظرا لافتقار المجتمع العربى آنذاك الى الحكومات التى تتولى مثل هذا العقاب •

(المعرب)

وهكذا كما أزال النبى ما أحس به المسلمون في أحد من خيبة أمل بغزو اليهود من بني النضير فانه بعد ستة أسابيع من صلح الحديبية أزال ما لحق بالمسلمين من خيبة أمل ، ورد اليهم معنوياتهم بالسير فى حملة فى يونيو (تموز) من عام ٦٢٨ على خيبر وهي واحة يهودية تقع على بعد ثمانين ميلا الى الشمال من المدينة (١) • ولقد أبدى اليهود بعض المقاومة ولكن المسلمين تمكنوا من اقتحامها حصنا بعد حصن • ولم يقم النبى باجلاء اليهود الزارعين هذه المرة وانما أبقاهم على أرضهم اذ أراد الابقاء على أتباعه الى جانبه في المدينة • ولهذا لم يرغب فى أن يقطعهم أرضا أو يمنحهم دورا في خيبر وأسفرت خطة الرسول هذه عن الابقاء على اليهود فى أراضيهم شريطة أن يدفعوا للمسلمين نصف ثمارها جزية • أما المنقولات والاموال والمجوهرات والابل والماشية ومخزونات التمر والزيت والقمح فقد حملها المسلمون غنيمة لهم وسلبوها (٢) •

---

(١) مرة اخرى يظهر المؤلف تشيعه الظاهر لليهود فهو لايذكر السبب الذى حمل النبى (صلعم) على القيام بغزوة خيبر مكتفيا بان يقول انه أراد منها أن تكون وسيلة لرفع معنويات المسلمين بعد خيبة الامل التى منوا بها في صلح الحديبية. لكن وقائع التاريخ تؤكد وجود أسباب أخرى منها اشتراك يهود خيبر في تحريض قريش على حملة الاحزاب وحصار المدينة، ومنها انهم لم يتعظوا بمصير يهود المدينة فراحوا يستعدون لحرب يعلنونها على المسلمين . ومنها ان سلام بن مشكم وهو من زعماء يهود خيبر اعلن لقومه أن خطرا يهدد كيان اليهود في شمال الحجاز وان عليهم أن يبادروا لتاليف اتحاد يهودى يجمع يهود خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء ، ثم يزحفون على يثرب دون أن يعتمدوا على البطون العربية المشركة. وقد علم النبى بكل ذلك وعلم ماهم عليه من قوة بأس ووفرة مال وسلاح. ولم يكن هناك كما يقول الاستاذ محمود الدرة في كتابه « تاريخ العرب العسكرى » اى امل في ان يعتنقوا الاسلام ولما كان الغرض الذى يرمى اليه النبى جمع العرب على دين واحد وتاليف كتلة متحدة منهم فقد وجد ان عليه أن يقضي على هذا الخطر الجديد الذى بدا يتململ للانقضاض عليه قبل ان يفكر في غزو بلاد الروم والفرس ، وهو مابدا يفكر به النبى جديا في هذه الايام كما يظهر من رسائله الى ملوكهم داعيا اياهم الى الاسلام .

(المعرب)

(٢) تظهر الطريقة التى يعرض فيها المؤلف الموقف، الحقد الدفين والخروج على الموضوعية ولو كان المؤلف منصفا بعض الانصاف لما سمى غنائم المسلمين نهبا اذ انها شرعة الحرب ، ولعل المؤلف لم ينس مافرضته دولته بريطانيا بعد انتصارها وحلفائها على المانيا في نهاية الحربين العالميتين من غرائم حربية على الشعب الالمانى . كما نعتقد انه لم يكن لينسي مطلقا ما كانت تبتزه بلاده من الاراضي التى تحتلها او تستعمرها في افريقية وآسيا .

(المعرب)

وكان النبى قد زوج ابنته فاطمة من ابن عمه على بن أبى طالب الذى كان قد رباه وكأنه ولده وقد وضعت فاطمة ولدين هما الحسن والحسين اللذان قدر لمصيرهما المفجع أن يؤثر تأثيرا عميقا فى التاريخ الاسلامى ولكن فى هذه الايام المبكرة لم يكن هناك أى تكهن بالمصائب التى ستحل فى المستقبل ، ولما كان النبى من أكثر الناس ولوعا بالاطفال فانه كان دائب اللعب مع حفيديه . وكانا حتى فى الاوقات التى يؤدى فيها صلاته لايتورعان عن الطلوع الى ظهره فينزلهما بكل رقة وحنان ويمضى فى صلاته وعبادته

***

وتقول الروايات : انه فى هذه الفترة فى عام ٦٢٨ بعث برسله الى ملك الفرس وامبراطور الروم وحاكم مصر ونجاشي الحبشة يدعوهم الى الاسلام . ويقال: ان كسرى الفرس مزق رسالة النبى وأساء الى حاملها أما هرقل امبراطور الروم فقد تسلم الرسالة بشىء أقل من الغضب سائلا عن هوية مرسلها ، أما المقوقس حاكم مصر فقد تلقى الرسالة بقبول حسن ورد عليها معتذرا عن قبول الاسلام ، ولكنه حمل الرسول هدية الى النبى تضم جوادا جميلا وبغلة وحمارا للركوب وجاريتين كانت احداهما مارية القبطية التى ولدت للنبى ابنه ابراهيم وهو الولد الذى توفى فى سنى طفولته .

وتقول الروايات بالنسبة الى هرقل : ان أبا سفيان سار بعد صلح الحديبية على رأس قافلة تجارية الى الشام فالقت شرطة الروم القبض عليه فى دمشق(١) . وكان هرقل قد أصدر أوامره بأنه راغب فى لقاء أى قادم من الحجاز وهكذا نقل أبو سفيان الى القدس ليقابل الامبراطور فيها . وراح الامبراطور يسأله عن تفاصيل ما يقال عن اضطرابات فى الحجاز وعن هذا النبى الجديد . ورد أبو سفيان بان اتباع هذا النبى هم الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وان معارضيه هم ذوو الأسنان والشرف من قومه . ولو صحت هذه الرواية فانها لا تقيم الدليل على أن الامبراطور قد تسلم رسالة من محمد ، فلابد أن يكون هرقل ــ وهذا شىء

---

(١) تقول رواية أبى سفيان نفسه ان القاء القبض عليه تم في غزة لا في دمشق كما يقول المؤلف . وفي هذا دليل على افتقار المؤلف للدقة التاريخية .

(المعرب)

طبيعي ـ قد تلقى معلومات من مخابرات حكومته عن الحركة الجديدة في الحجاز ولا بد أن يكون قد رغب في سؤال أي قادم من مكة عما سمعه للحصول على ما يريده من تفصيلات جديدة ·

لكن بعض المؤرخين المعاصرين أثاروا بعض الشكوك في موضوع الرسائل فليس هناك فيما حفظ عن حياة النبي ما يشير الى أن النبي قد تصور أو توقع احتلال سوريا وفارس ولقد أدهشت الانتصارات العظيمة التي حققها العرب بعد وفاة النبي ، المسلمين أنفسهم وهي انتصارات ما كانت لتتحقق لو أن النبي قد تنبأ بوقوعها لكن مارية القبطية كانت من الناحية الاخرى شخصية تاريخية · ولا ريب في أن صورة بدوي بسيط حافي القدمين يتحدى ملك الملوك في قصره بفارس ، تعتبر صورة دراماتية مسرحية(١) ·

***

(١) لا ادري علة هذا التشكيك في الرسائل ، فلقد اجمعت كتب التاريخ الاسلامي على وجود هذه الرسائل ونقلت نصوصها واسماء الذين حملوها وروت كيف استقبل كل منهم في المكان الذي قصده . فقد حمل دحية بن خليفة الكلبي الرسالة الى ملك الروم وهذا نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم : السلام على من اتبع الهدى . اما بعد اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان تتول فان اثم الاكارين عليك » . وتضيف الروايات وهي صحيحة ان قيصر عندما تسلم رسالته جمع بطارقته وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فاظهروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال انما قلت ماقلت لاختبر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب في احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤته كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الامر قبل استفحاله .

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب الى المنذر بن الحارث بن شمر الغساني صاحب دمشق وكتب اليه « سلام على من اتبع الهدى وآمن بي واني ادعوك الى انتؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك » . ولما وصله الكتاب قال : « من ينزع ملكي مني انا سائر اليه » ولم يسلم .

وبعث عمرو بن امية الضمري الى النجاشي بكتاب يدعوه فيه الى الاسلام ويطلب منه ان يرسل جعفرا ومن معه من مهاجري الحبشة ففعل النجاشي ما طلب منه فأرسل جعفرا واجاب الى الاسلام كما اعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ومعه كتاب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد الا اله الا الله واني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا . اسلم تسلم فان أبيت فانما عليك اثم المجوس » فمزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك رسول الله (صلعم) قال « مزق الله ملكه » ، ثم كتب كسرى الى باذان عامله على اليمن « ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك فليأتياني به » ولكن أمره لم ينفذ .

أراد المسلمون فى السنة السابعة للهجرة • أى بعد عام واحد من صلح الحديبية أن ينفذوا الحق الذى نص عليه هذا الصلح وهو الحج الى مكة • وخرج نحو من ألفين من المسلمين ينتهزون الفرصة لأداء العمرة. وراحت قريش رغبة منها فى اجتناب الصدام المسلح مع المسلمين أو خشية منها فى أن يتمكن الرسول ببليغ قوله وفصيح كلمه من هداية عدد جديد من أبنائها وتحويلهم الى الاسلام تجلو عن مكة جلاء كاملا وتنتشر على سفوح الجبال المطلة على المدينة وقد استبد بها الفضول لرؤية ما سيفعله المسلمون • وظهرت أخيرا طليعة الركب مطلة من الوادى الضيق الملىء بالغبار والذى تسير فيه الطريق المؤدية الى المدينة • وكان النبى على رأس الركب وقد أحاط به أبو بكر وعلى بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ورهط من صحابته وسار وراءه وسط عاصفة من الرمال نحو ألفين من المسلمين بعضهم يركب الابل والبعض الآخر يمشى على الاقدام واتجه النبى فورا الى الكعبة فلمس الحجر الاسود ثم طاف بالبيت سبع مرات • وكان هذا الطواف من التقاليد التى عرفتها قريش فى عهد الجاهلية ثم سار عليها الاسلام •

وكان العباس بن عبد المطلب عم النبى قد بقى فى مكة ولم يبرحها مع قريش وان لم يكن قد أشهر اسلامه بعد • وكان قد بعث برسالة سرية الى ابن أخيه قبل معركة أحد يحذره فيها من نيات قريش • وراح يرحب به الآن وهو يدخل الى مكة مبلغا اياه انه قد أعد له عروسا يبنى بها على الفور محاولا بذلك أن يكسب مودة ابن أخيه الذى بدا له الآن جديرا بالتقرب والود(١) • وقد اختلف المؤرخون فى سلوك العباس اختلافا

= وبعث خاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذى بعث الى رسول الله (صلعم) « بمارية القبطية » أم ابراهيم فكان بذلك الرحم الذى بين العرب وأهل مصر •

وبعث سليط بن عمرو العامرى الى هوذة بن على الحنفى وبعث العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص الى جيفر واخيه عباد الازديين

هذه حقائق ترويها كتب التاريخ العربى وتروى اسماء حاملى الرسائل فهل يمكن لمؤرخ يدعى الموضوعية أن ينكرها الا اذا كان يريد المغالطة ويريد التشكيك فى صحة التاريخ الاسلامى !! (المعرب)

(١) يناقض المؤلف نفسه بنفسه فهو يقول قبل قليل بانه كان على اتصال سرى بالنبى منذ امد طويل مما يظهر اخلاصه له ثم يعود فيحاول تصويره بالانسان الانتهازى الذى مال الى التقرب من النبى بعد ان قويت شوكته واصبح جديرا بالتقرب • أما التفسير الصحيح لسلوك العباس فى رأيى فهو ان العصبية القبلية عنده كانت اقوى من

كبيرا فادعى بعضهم انه كان قد أسلم منذ أمد طويل وانه كان مخلصا فى اسلامه ولم يبق كل تلك المدة فى مكة متظاهرا بالشرك الا لخدمة مصالح ابن أخيه • ورأى بعضهم انه كان صورة مبكرة لراعى أبرشية برى (The vicar of Bray) (١) متظاهرا بالاخلاص لقريش ومتصلا سرا بالمسلمين • وقد قدر لهذا العربى الذكى ان لم نقل هذا البدوى الماكر أن يكون جد أسرة أضحت من أقوى الاسر الحاكمة فى تاريخ العالم ومن هنا تنشأ الصعوبة اليوم فى الحكم على شخصيته وسلوكه • فلقد رأى المؤرخون العرب بعد نحو من قرن وبعد أن أصبح أحفاد العباس خلفاء ان مصلحتهم تقضى بأن يصوروه فى أحسن صورة •

وكان من أهم النتائج التى حققها اتساع نفوذ محمد وانتشار شهرته الآن تحول عدد من أبرز قادة قريش العسكريين الى الاسلام وفى طليعتهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة • ولقد سبق لنا أن رأينا ان خالدا وعمرا كانا السبب فى انتصار قريش فى أحد • وذلك بالتفافهما على رأس الفرسان حول جناح المسلمين وقدر لهما أن يصبحا من أعظم قادة المسلمين العسكريين بعد قليل • أما عثمان بن طلحة فكان من أبرز رجالات قريش اذ بيده سدانة الكعبة وهو حق وراثى فى آل عبد الدار أبرز بطون قريش ، وهكذا تحول سادن كعبة المشركين الى الاسلام ، وليس ثمة من شك فى أن تحول هؤلاء البارزين الى الاسلام وسلوك المسلمين الرائع فى مكة فى أيام العمرة الثلاثة قد تركا أثرا ملحوظا عند أهل المدينة •

وعلى الرغم من أن خروج العام المنصرم الى الحديبية كان عملا سابقا لأوانه الا أن فكرة النبى فى أداء فريضة الحج كانت فكرة رائعة حقا فلقد

= ايمانه بأصنام الكعبة وان لم يكن قلبه قد اهتدى حتى تلك اللحظة بنور الاسلام ، ومن هنا فان مساعدته للنبى كانت ثمرة ارتباطه العائلى به لا ثمرة انتهازية او نفاق كما يحاول المؤلف ان يصوره • (المعرب)

(١) راعى ابراشية «برى» في انجلترا .. هو وصف يطلق على كل انتهازى منافق لا مبدأ له ولا عقيدة ويدعى هذا الرجل « سيمون الين » وكان راعيا لكنيسة برى في عهد هنرى الثامن ملك انكلترا. وتمكن من المحافظة على منصبه رغما عن التقلبات الدينية في انجلترا في تلك الايام طيلة عهود ادوارد السادس ومارى واليصابات عن طريق تكييف عقيدته طبقا للعهد الحاكم اى بالتقلب من الكثلكة الى البروتستانتية، وبالعكس وكانت شخصيته الفكرة التى صورتها قصيدة « في العصر الذهبى أيام شارل الثانى الطيب » واضحت بعد ذلك مثلا يضرب للانتهازية والتلون العقائدى • (المعرب)

كان من أهم أسباب مقاومة قريش للاسلام اعتقادهم بأن تقبل هذا الدين الجديد سيؤدى الى الحط من شأن الكعبة ويضع نهـــاية لمركزها المبجل كمدينة مقدسة ، أما وقد أظهر النبى انه يحترم هذه الكعبة وان الاسلام يفرض على أتباعه أداء طقوس الحج القديمة ، فانه بعمله هذا أقنع المكيين بأن الاسلام لن يؤدى بأية حالة من الاحوال الى الحط من شأن مدينتهم وقد تأيد هذا الاجراء بالقول بأن ابراهيم النبى هو الذى بنى الكعبة وان رسالة محمد هى بعث دين ابراهيم حنيفا • وكان النبى يقول : ان اليهود والنصارى قد انحرفوا عما فى دين ابراهيم الجد من طهر ونقاء كما أن قريشا بجعلها الكعبة مستودعا للاصنام والاوثان قد انحرفت أيضا عن دين ابراهيم • لكن شرك قريش لم يؤد على أى حـــال الى الانقاص من قداسة الكعبة بيت الله العتيق وكل ما يطلب الآن هو تطهيرها من رجس هذه الاوثان • وكانت هذه الاقوال كافية لاقنـــاع أهل مكة بأن الاسلام لا ينتقص من قدرهم ولا من قدر كعبتهم •

يضاف الى هذا أن محمدا قد غدا الآن وعلى الرغم من اعتباره رسمية العدو الاول لمكة صاحب قوة وسلطان يفرضان على العرب فى جميع أنحاء الجزيرة احترام صاحبهما، واخذ القرشيون يتساءلون فى قرارة ضمائرهم ترى هل من الحكمة أن يناصبوا العداء أعظم من أنجبته قبيلتهم من رجال؟ وليس ثمة من شك فى أنهم كانوا يتابعون بشىء من الحسد والغيرة هذه الوفود وهى تتجه من جميع أنحاء الجزيرة الى محمد لتعرض عليه احترامها واجلالها • وسرعان ما غدا هذا التحول فى الرأى العـام فى مكة طاغيا يتسلط على أغلبية الناس فيها •

وأوفد النبى فى عام ٦٢٩ عددا من الحملات العسكرية والغزوات • وكان النصر من نصيب بعضها كما كان الفشل نصيب بعضها الاخر • وقد يكون من الطريف كل الطرافة أن نقـــارن هذه الاساليب بتلك التى اتبعها الوهابيون فى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين • فلقد وضع الوهابيون مخططهم عن سابق عمد واصرار على الاسس نفسها التى اتبعها المسلمون الاول ولم يكن النبى قد وجه أية قوة ضخمة كبيرة لمحاربة قبائل البادية اذ ركز عملياته العسكرية الكبيرة على محاربة قريش أما الحملات على البدو فكانت من النوع الارتجالى ، وتقوم بها قوات صغيرة وبهذا يمكن تفسير نجاح بعضها وفشل بعضها الآخر وان كان تكررها يحمل طابع الفائدة اذ يقنع القبائل البدوية بألا خلاص لها من هذا الازعاج الا بالاذعان لارادة محمد •

ويبدو لى أن أساليب الوهابيين التعبوية كانت أكثر كفاية ونشاطا اذ بينما كان ابن سعود يسمح لرجاله بغزو القبـــائل غير الوهابية متى شاءت فانه كان يحشد قواته كاملة من وقت الى آخر ليهاجم بها هجوما كاسحا قبيلة كانت ترفض الاذعان له باعثا بما يوجهه اليها من ضربات عنيفة ، الفزع والرعب فى قلوب القبـــائل الاخرى ، مما يدفعهـــا الى الاستسلام له فورا وسنرى فيما بعد كيف ان الخلفاء اتبعوا هذه الاساليب بعد وفاة النبى ، ولا ريب فى ان عدم لجوء النبى الى هذه الاساليب يمكن أن يعزى الى أن النبى لم يكن واسع الاهتمام بالشئون العسكرية ولم يكن يوليها الكثير من تفكيره • يضاف الى هذا ان شخصية النبى كانت طاغية بما عرف عنه من قدرة على الاقنـــاع والتأثير بحيث استطاع أن يكسب الانصار دون الحاجة الى اللجوء الى نظام عسكرى فعـــال • وأصبح من الضرورى بعد وفاته اللجوء الى استخدام القوة بصورة أكثر تنظيما وذلك بضبط المسلمين والسيطرة عليهم •

ومع كل هذه العوامل فقد أعد النبى فى شهر سبتمبر (ايلول) عام ٦٢٩ حملة عسكرية كبيرة الاهمية وكثيرة التنظيم وكان القصد منها غزو بعض الاراضى الخاضعة للسيطرة البيزنطية ، وتقول الروايات العربية : ان القصد من الحملة كان الثأر لبعض الرسل المسلمين الذين أوفدهم النبى الى المنطقة(١) • وكان الثأر دافعا اقـــوى فى الحروب العربية من الفتح والاحتلال • وكان النبى قد بلغ الواحدة والستين من عمره فى هذه الآونة ووخط الشيب فوديه ولذا لم يرافق أيا من الحملات التى أوفدها فى تلك السنة الثامنة للهجرة .

وأقام النبى معسكرا على بعد بضعة أميال الى الشمـــال من المدينة وأمر المتطوعين من المسلمين بالتجمع فيه وولى زيد بن حارثة ولده بالتبنى قيادة الحملة التى ضمت نحـــوا من ثلاثة آلاف رجل • وكانت هذه هى الحملة الاســـلامية الاولى على هذا النطاق الضخم التى خرجت الى هدف بعيد عن المدينة . وتطلب اعداد مثل هـــذه الحملة وقتا طويلا ولذا فان أنباءها بلغت ما يسمى الآن بشرق الاردن قبل تحركها .

---

(١) تروى كتب السيرة أن شرحبيل بن عمرو أمير الغساسنة كان قد قتل الحارث ابن عمير الازدى الذى أوفده النبى عليه السلام الى هرقل وان مقتله سبب ألما شـــديدا للنبى فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله .

(المعرب)

ويبدو أن المسلمين وكانوا لا يزالون يعتمدون فى نصرهم على النصرة الالهية وعلى معنوياتهم العالية قد أهملوا ايفاد العيون لرصد حركات العدو وتنقلاته ولم تبلغهم أنباء حشد العدو لقوة عسكرية ضخمة فى موآب (الكرك) من أرض البلقاء حتى كانوا قد وصلوا الى معان · وأمر القائد قوته بالتوقف وانقضى يومان فى نقاش بين قادة المسلمين ليقرروا اما المضى فى حملتهم أو الرجوع الى المدينة · وكان موقف عبد الله بن رواحة وهو أحد المسلمين الاوائل ومن أشد المسلمين حماسة وتعصبا هو الذى قلب الوضع تماما فقد انبرى يقول : « يا قوم والله ان التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة · وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة وما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فانما هى احدى الحسنيين اما ظهور واما شهادة » وصدق الناس ابن رواحة ومضوا على التو فى زحفهم للقاء الروم ·

واتجه الغزاة شمالا وقد جعلوا سلسلة جبال البلقاء العالية والطويلة الى يسارهم بينما انحدرت سفوحها نحو الشرق لتذوب فى هذه الآماد الفسيحة من الصحراء وعبر المسلمون هذه السفوح على بعد خمسين ميلا الى الشمال من معان ليجدوا أنفسهم وجها الى وجه أمام قوة تبلغ أضعاف أضعافهم جلها من القبائل البدوية الموالية للروم وتعززها كما تقول الروايات العربية بعض قوات الروم ، ولعلها كانت تؤلف بعض الحاميات الرومانية المرابطة فى المنطقة · وهناك على مقربة من قرية مؤتة الصغيرة سهل صغير يقبع بين هذه السلاسل الجبلية المسماة بجبال البلقاء · وقرر المسلمون أن يخوضوا المعركة فى هذا السهل · والتقى الناس واقتتلوا وقاد زيد بن حارثة ، وراية النبى فى يده ، هجوم المسلمين مقتحما صفوف الروم حتى قتل برماحهم ، وانبرى جعفر بن أبى طالب ابن عم النبى يحمل الراية من زيد الشهيد ويقتحم صفوف الروم قائلا ···

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
على أن لاقيتها ضرابها

ويبدو ان عرف العرب بأن يحمل القائد نفسه الراية ويخوض بها المعركة لم يكن يصلح للمعارك المنظمة وان صلح لطراز الحروب العربية · وأطبق العدو على جعفر البطل وسرعان ما وقع مثخنا بالجراح · وتقول الروايات العربية : أن جعفرا أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذه بشماله

فقطعت فاحتضنه بعضده حتى قتل على يد جندى رومانى ، وراح عبد الله.
ابن رواحة يحمل الراية فورا وعندما نظر الى صفوف المسلمين وقد علاها الاضطراب اقتحم صفوف العدو وهو يقول :

يا نفس الا تقتلى تمـــوتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقـــد أعطيـــت ان تفعـــلى فعلهمــــا هديت

وظل يقاتل ويتقدم حتى قتل وهو ينشد الجنة التى طالمـــا تلهف اليها •

وكان خالد بن الوليد وقد تحول أخيرا الى الاســـلام يقاتل بين المسلمين • وكان أكثر خبرة فى القيادة العسكرية من زيد أو جعفر وقد يكون أقل تشوقا منهما الى الجنة(١)• وعندما تولى القيادة فى هذه اللحظة من الانكسار أفلح فى أن يسيطر بشخصيته القوية الآسرة على من تبقى من المسلمين • وثبت أحد الانصـــار الراية فى الارض فالتف حولها المسلمون • وأخذ خالد يتأخر بهم قليلا قليلا مع الاحتفاظ بالنظام حتى انسحب من الميدان دون أن يلحق به الروم الذين كانوا قد أجهدوا كل الاجهاد (٢) •

ويقوم مسجد الآن فى أرض مؤتة وله مئذنتان عاليتـــان وفى هذا المسجد ضريح جعفر بن أبى طالب وكان الضريح مهدما ومهملا فى عشرينات. القرن الحالى وانى لأعتز كل الاعتزاز لان الجيش العربى الاردنى هو الذى تولى اصلاح الضريح وبناء مئذنتيه (٣) ومازال أهل مؤتة يعتقدون حتى

---

(١) محاولة ماكرة من المؤلف للتشكيك في صدق اسلام خالد بن الوليد مع ان اى تفكير في طبيعة هذا القائد الكبير تجعله أبعد الناس عن الزيف ولا سيما أنه لم يكن مرغما على الاسلام لو لم تكن نيته صادقة فيه . مع العلم بأنه كان يحتل منزلة رفيعة في قريش بسبب مهارته العسكرية •

(المعرب)

(٢) تقول احدى الروايات العربية ان الروم لم يلحقوا بجيش المسلمين لانهم ظنوا أن خالدا يخدعهم حتى يرمى بهم في الصحراء •

(٣) دليل واضـــح واعتراف صريح من المؤلف بالدور الذى كان يؤديه في الاردن بتوليه قيادة الجيش العربى الاردنى الذى كان يعتبره جلوب جيشه الخاص أو جيش بلاده بريطانيا التى يتولى خدمة مصالحها ، فهو يعلن اعتزازه.لان الجيش الاردنى هـــو الذي بنى المسجد ، وأنا لا أفهم هذا الاعتزاز اذا كان جلوب يعتبر نفســـه مجرد قائد لهذا الجيش لكن اعتزازه هذا ناجم عن اعتباره الجيش ملكا له ومن هنا نستطيع أن نفهم حقيقة الدور الذى أداه جلوب في قيادته لهذا الجيش ابان حـــرب فلســطين وفي جميع المعارك العربية التى تلت هذه الحروب الى أن أخرج ضباطه الاحرار جلوب من قيادته ليعربوا الجيش ويحولوه الى جيش عربى يخدم العروبة ليس الا •

(المعرب)

يومنا هذا ان جيشا من أشباح المسلمين يزحف عند فجر كل يوم من أيام الجمعة عبر السهل متجها الى الشرق حاملا رايته البيضاء ليشن هجوما عنيفا كاسحا على المكان الذى كان يقف فيه جنود الروم ٠

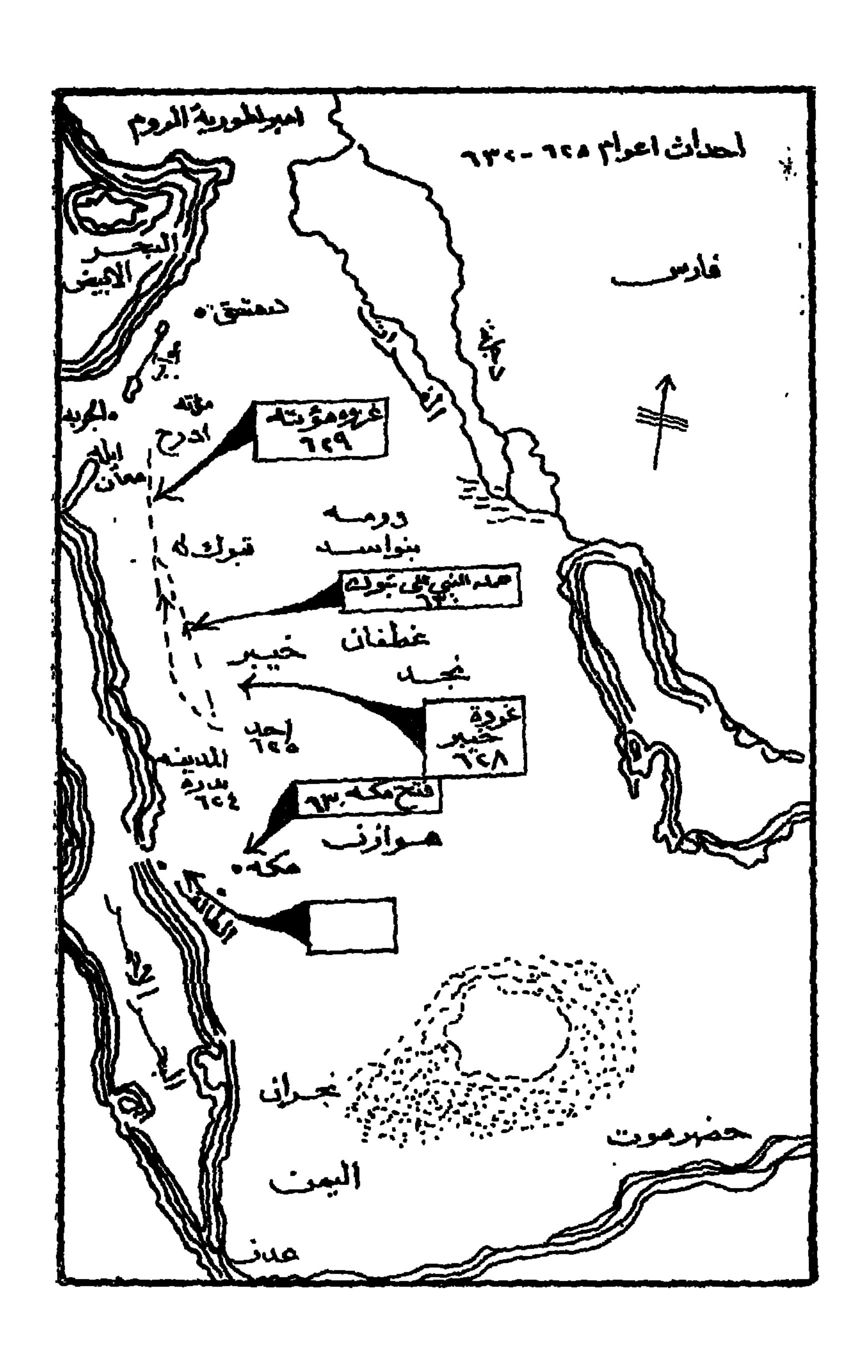
وعندما اقترب المسلمون المتراجعون من المدينة تلقـاهم رسول الله والمسلمون فى خارجها وأخذ الناس يحثون على الجنود التراب ويقولون « يافرار فررتم فى سبيل الله » ولكن محمدا بتلك الابوة الرحيمة التى عرفت عنه والتى كان يحسن استعمالها راح يقـول : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ان شاء الله تعـالى» ٠ وأسرع النبى الى بيت ابن عمه جعفر حيث احتضن أولاده وعيناه مغرورقتان بالدمع ثم قصد بيت زيد حيث احتضن طفلته الصغيرة التى جاءت الى النبى مهرولة وقد أشرق وجهها بالدمع ، وراح النبى يعلن فى المسجد فى اليوم التالى انه رأى فى نومه شهداء مؤتة فى فراديس النعيم على سرر من ذهب ، وكان جعفر على هيئـة ملاك له جناحان خضبتهما دماء الشهادة ٠ ولعل هذا هو السبب الذى دعا الناس فيما بعد الى تسمية جعفر بالطيار ٠

وعلى الرغم من نكسة مؤتة فان عددا من القبـائل العربية أوفدت رسلها وبعوثها طيلة عام ٦٢٩ تنشد صداقة النبى والتحالف معه ٠

***

وكان الرأى العام فى مكة قد تحول فى هذه الآونة تحولا واضحا الى جانب المسلمين وأدرك النبى ان الوقت قد حان لتوجيه ضربته النهائية الى قريش ٠ وسرعان ما أمنت له القبائل البدوية الذريعة أو المبرر ٠ وكانت هناك قبيلتان احداهما تسمى خزاعة والاخرى بنوبكر تعيشان متجاورتين خارج مكة وبينهما ثارات قديمة منذ عهد الجاهلية ٠ وكانت خزاعة حليفة للنبى بينما كان بنو بكر حلفاء لقريش . وحدث فى هذه الآونة أن أرادت بكر الثأر من خزاعة فخرج نفر منها لمبـاغتة أعدائهم على ماء خارج مكة وأوقعوا بالخزاعيين عددا من الاصابات القاتلة ٠ وخرج بديل بن ورقاء أحد شيوخ خزاعة والذى قام بدور الوساطة فى الحديبية على رأس وفد من قومه الى المدينة فأخبروا النبى بنقض قريش لعهـدها وان غـدر بنى بكر حلفاء قريش يعتبر خرقا لمعاهدة الحديبية .

ويبدو أن النبى قرر ان الفرصة جد مواتية للقيام بعمل حاسم ازاء قريش وراح فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٣٠ يأمر المسلمين بالتأهب للحرب وسيطر الرعب على زعماء قريش الذين كانوا يدركون ولا شـك


احداث اعوام ٦٢٨ - ٦٣٠
امبراطورية الروم
البحر الابيض
دمشق
فارس
الفرات
مؤته
ادرح
الجربه
ايله
معان
غزوه مؤته
٦٢٩
دومه
بنو اسد
تبوك
غطفان
خيبر
نجد
غزوة خيبر
٦٢٨
احد
٦٢٥
المدينه
بدر
٦٢٤
فتح مكه ٦٣٠
هوازن
مكه
الطائف
نجران
حضرموت
اليمن
عدن

ما بلغ اليه نفوذ محمد وسلطانه وراح أبو سفيان قائدها في معركة أحد وأحد كبـــار أعداء النبي ومعارضيه يسرع الى المدينة ولكن هذا القائد المتغطرس وزعيم قريش لم يستطع مقابلة النبي اذ رفض السمـــاح له بمقابلته واضطر الى أن يرجو أبا بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب الوساطة والشفاعة عند محمد فضنوا بهـــا عليه وعاد الى مكة مخذولا مهانا(١) .

---

(١) في رواية المؤلف بعض الخطأ فلقد قابل أبو سفيان النبي (صلعم) ولكنه لم يستمع اليه كما ان سـفارة ابي سفيان لم تكن نتيجـة علم قريش بما اعتزمه النبي اذ حافظ النبي اشد الحفاظ على سرية الحملة ولم يطلع عليها حتى اشد النـاس قربا اليه ، وانما كانت نتيجة خوف قريش من النبي بعد نقضها لعهدها في النزاع الذي وقع بين خزاعة وبني بكر . وهذه هي الرواية الصحيحة كما نقلها ابن اسحق وابن هشام

خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله (صلعم) في المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول (صلعم) طوته عنـه فقال يابنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني قالت بل هو فراش رسول الله وانت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله (صلعم) قال : والله لقد أصابك يابنية بعدي شر ثم خرج حتى أتى النبي فكلمه فلم يرد عليه شيئا ثم ذهب الى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله (صلعم) فقال ما انا بفـاعل ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال أانا أشفع لكم الى رسول الله (صلعم) ! فو الله لو لم أجـد الا الذر لجاهدتكم به . ثم خرج الى علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت النبي (صلعم) وعندها الحسن بن علي غلام يدب بين يديها ، فقال ياعلي انك أمس القوم بي رحمـا واني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا فاشفع لي الى رسول الله . فقـال علي : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله (صلعم) على أمر ما نستطيع ان نكلمه فيه فالتفت الى فاطمة وقال : يا ابنة محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر . قالت : والله ما بلغ بني ذاك أن يجير بين الناس وما يجير احد على رسول الله . قال : يا أبا الحسن اني أرى الامور قـد اشتدت علي فانصحني قال : والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك شيئا ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال : أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا قال : لا والله ما اظنه ولكني لا أجد لك غير ذلك فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيهـا الناس اني قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا : ماوراءك قال جئت محمدا فكلمته فو الله مارد علي شيئا ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيـه خيرا . ثم جئت ابن الخطاب فوجـدته أعدى العدو ثم جئت عليـا فوجـدته الين القوم وقد أشار علي بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يغني ذلك شـيئا أم لا ؟ . قالوا : وبم أمرك قال أن أجير بين الناس ففعلت قالوا هل أجاز ذلك محمد ؟ قال لا : قالوا ويلك ! والله ان زاد الرجل على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت .

(المعرب)

وخرج محمد فى عشرة آلاف من المسلمين قاصدا مكة فى يناير عام ٦٣٠ • وكان المهاجرون والانصار يسيرون خلفه مسيرة رجل واحد ولكن معظم القوة كان من أبنـــاء القبائل (١) وانضم اليه بنو سليم وكانوا لا يزالون معادين له وهو فى طريقه الى مكة ومضى الجيش فى زحف سريع حتى بلغ «مر الظهران» فى خارج مكة ولم تكن قريش قد عرفت بعد بمافعله المسلمون • وأدرك العباس عم النبى • ان النهـــاية غدت قريبة وحتمية فهجر مكة أخيرا وانضم الى جيش المسلمين الزاحف(٢) •

وجاء أبو سفيان نفسه فى تلك الليلة طالبـــا الاستسلام لمحمد • وهب عمر بن الخطاب يطلب من النبى السماح له بقتله ولكن النبى دعاه بلهجة رقيقة الى الاسلام وراح هذا المحارب العجوز الكبير حتى فى موقفه هذا وهو وحيد بين عشرة آلاف مسلم يعترف بوحدانية الله ويظهر بعض الشكوك فى رسالة النبى ولكن شكوكه هذه ما فتئت ان زالت عندما راح العباس يقول له بحماسة من أسلم حديثا « ويحك أسلم واشهد ألا اله الا الله وان محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك» • ولم يكن فى وسع أبى سفيان أن يناقش فأشهر اسلامه فورا(٣) •

---

(١) تروى كتب السيرة ان قوة المسلمين ضمت سبعمائة من قبيلة سليم والفا من مزينة واربعمائة من بنى غفار واربعمائة من بنى أسلم ونفرا آخر من تميم وقيس وأسد :.

(٢) يحاول المؤلف مرة أخرى التشكيك في اسلام العباس مع أن السياق التاريخى للقصة يشير الى أن العباس كان على اتصال بالنبى قبل أن يسلم علنا • وهذا الاتصال هو وحده الذى يفسر كيف علم العباس بمسيرة المسلمين الى مكة في الوقت الذى لم تكن قريش تعرف عنها شيئا كما سنروى في الهامش اللاحق وكيف ذهب الى لقاء محمـــد قبل أن تعرف قريش شيئا عن مجيئه •

(٣) في قصة اسلام أبى سفيان بعض الاخطاء • وأرى أن أرويها كما رواها ابن هشام في سيرته : « لما نزل النبى مر الظهران قال العباس بن عبد المطلب واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله (صلعم) مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه فانه لهلاك قريش الى آخر الدهر • وخرج العباس على بغلة الرسول البيضاء حتى وصل الاراك فلعله يجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان الرسول ليخرجوا اليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة • وبينما هو في طريقه سمع كلاما تبينه بأنه كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء وسمع أبا سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا وبديل يرد عليه : هـــذه والله خزاعة حمستها الحـرب ، ويرد أبو سفيان قائلا خزاعة أقل من أن تكون هذه نيرانها وعساكرها ، وهتف العبـاس بهما قائلا : ويحك أبا أبا سفيان هذا رسـول الله في النـاس واصباح قريش والله وقال أبو سفيان فما الحيلة ؟ فداك أبى وأمى • قال العباس والله لئن ظفر بك ليضربن =

وأملى النبى شروطه • وأمر أبا سفيان بالعودة سراعا الى مكة ليعلن فى الناس ان من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد (الكعبة) فهو آمن •

وراح جيش المسلمين الذى يضم عشرة آلاف مقاتل يخرج من بطون الجبال متجها الى مكة وقرر النبى تقسيم قوته الى أربعة ارتال أولها رتل يقــــوده أبو عبيدة بن الجراح الذى سنسمع عنه كثيرا فيما بعد ويضم المهاجرين وبينهم النبى نفسه ليدخل المدينة من شمالهــــا الغربى • والى اليسار رتل يقوده الزبير بن العـــــوام ويسير فى خط مواز لخط الرتل الاول • أما الرتل الثالث فيقوده سعد بن عباده شيخ الخزرج ويدخل من الناحية الغربية بينما يقود خالد بن الوليد الرتل الرابع الذى يضم فئات من مختلف القبائل ومهمته الالتفاف حول المدينة والدخول اليهـــــا من الجنوب • وأمر النبى قادة الارتال بشىء من الصرامة بألا يقاتلوا ولايسفكوا دما • وأقيمت للنبى قبة على أرض مرتفعة تطل على المدينة التى كان النبى قد غادرها قبل ثمانى سنوات فرارا من بطش أهلهـــــا تحت جنح الظلام والتى اختفى منها فى غار ثور القريب منهـــــا ثلاثة أيام وهو الغار الذى يراه الآن من قبته • أما الآن فهناك ثلاثة آلاف محـــارب يسيرون تحت امرته لاقتحام مدينته التى نشأ فيها والتى تقف الآن جاثية أمام ارادته •

وبعد استراحة قصيرة ركب النبى ناقته القصواء ودخل المدينة الى أن جاء البيت فطاف به ســــبعا على راحلته ثم وقف على باب الكعبة وأمر

ـ عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رســـول الله فاستأمنه لك ، فركب ابو سفيان خلفه ورجع صاحبه وجاء به الرسول ثم دخل عمر بن الخطاب قائلا : يارسول الله هذا أبو سفيان قد امكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعنى فلاضرب عنقه • ورد العباس •• يارسول الله انى قد اجرته • وجلس العباس الى رسول الله (صلعم) فاخذ براســه وقال : والله لايناجيه الليلة دونى رجل فلماأكثر عمر في شأنه قال العباس: مهلا ياعمر وقال النبى •• اذهب به ياعباس الى رحلك فاذا أصبحت فأتنى به ، فذهب به وبات عنده ولما أصبح غدا به الى رسول الله •• فلما رآه الرسول قال •• ويحك يا أبا سفيان الم يأن لك أن تعلم انه لا اله الا الله ؟ قال : بأبى أنت وامى ما أحــلمك وما اكرمك واوصلك والله لقد ظننت انه لو كان مع الله اله غيره لقد اغنى عنى شيئا بعدقال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك ان تعلم انى رسول الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ما أحلمك وما اكرمك واوصلك اما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئا فقــال له العباس ، ويحك اسلم واشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله قبل انتضرب عنقك فشهد أبو سفيان شهادة الحق وأسلم •

(المعرب)

بتطهيرها من الاصنام والقذف بها من أماكنها • ثم أمر مؤذنه بلالا الحبشى بأن يؤذن للصلاة ووقف المسلمون وراء النبى يؤمهم فى صلاته ويؤدون الفريضة • وعاد فأمر المنادين بأن ينـــادوا فى الشوارع بتحطيم جميع الاصنام والتماثيل فى البيوت •

ولم يخطر ببال محمد المنتصر الفاتح أن يثأر أو ينتقم فقد أعلن لأهل مكة •• « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ولم يستثن من هذا العفو العام الا عددا قليلا دون العشرة أمر النبى بقتل أربعة منهم فقط لكثرة ما كان منهم من أذى للمسلمين • وفر عكرمة بن أبى جهل الى اليمن فتشفعت له زوجـــه عند النبى فعفا عنه وعاد بعد أن ذهبت اليه هذه المرأة الباسلة لتستدعيه وبات عكرمة بعد سنوات قليـــلة من أبرز قادة المسلمين • وكانت هند زوج أبى سفيان المرأة المتوحشة التى مثلت بجثة حمزة فى معركة أحد بين اللائى أهدر الرسول دماءهن ثم عاد فعفا عنها •

وكانت الخطوة التالية التى قام بها النبى استدعاءه أهل مكة جميعا الى الكعبة لأداء يمين الولاء له • وراح الرجال يمرون بالنبى أولا ، وكل منهم يصافحه ويمسك بيده برقة ودماثة ويبايعه تماما كما بايعه السبعون الاول من الانصار من أهل المدينة فى بيعة العقبة قبل ثمانى سنوات • وعندما انتهت بيعة الرجال جىء بالنسوة الى ســاحة الكعبة وجاءت هند امرأة أبى سفيان مع النسوة وقد اختمرت لتخفى وجهها عن النبى وبدأ النبى حديثه اليهن بخطبة قصيرة أعلمهن فيها أنه يريد منهن أن يبايعنه ويقسمن على الولاء للاسلام ويشهدن شـــهادة الا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وكان النبى قـــد اكتفى بطلب البيعة من الرجال فهبت هند والنبى لا يعرفها تقول : « انك تطلب الينا ما لم تطلبه من الرجال » • وعرف النبى على الفور هوية التى قاطعته فسألها أو لست هندا ؟ « قالت بشىء من الجرأة » أجل أنا هند •• فأكد لها النبى بصوته الهادىء الوقور انه قد عفا عنها لان الله غفور رحيم (١) •

وعاد النبى يواصل حديثه اليهن عن عادات الجـــاهلية وأن يحصن فروجهن ولا يئدن بناتهن • وراحت هند تقـــاطعه قائلة : « لقد أنشأنا أولادنا وجئت تقتلهم بعد أن شبوا فى بدر » ولا ريب فى أن هذه المرأة

---

(١) لم أستطع العثور على تأييد لهذه الرواية في كتب السيرة .
(المعرب)

كانت من النوع الذى لا يحتمل لعنفوانها وغطرستها • ومن حقنا أن نرثى لأبى سفيان احتماله العيش معها •

وأمر النبى عمر بن الخطاب بأن يتلقى البيعة من النسوة نيابة عنه اذ عرف ان النبى لم يلمس فى حياته يد امرأة غريبة عنه • ولا ريب فى أن هذه الحشمة قد تكون موضع الاستغراب عند الاوربيين نظرا لسماعهم بأن النبى قد بنى باحدى عشرة زوجة وجارية واحدة. ولكن هذا الاستغراب يزول اذا عرفت الاسباب التى أدت الى زواج النبى من هذا العدد الكبير من النسوة، يضاف الى هذا ان هناك ناحية فى الاسلام يصعب على الغرب فهمها ، فللمسلم اذا شاء أن يتزوج من أربع نسوة ولكن عقاب العلاقات الجنسية غير المشروعة صارم فى الاسلام كل الصرامة • ويعتز الغرب كل الاعتزاز بأن نظامه يقوم على الزواج بواحدة ولكن الغربى يلهو بعدد من العلاقات غير الزوجية • ويظهر هذا الحادث ان نساء المسلمين الاول لم يكن من النوع الذى يقبع فى الجحور وان العرب لم يعرفوا ظاهرة « الحريم » التى تلصق خطأ بالعرب وقد عفا النبى عن هند ولكنه لم يعف عن قينة كانت تنشد الاغانى فى هجاء النبى والمسلمين •

وهكذا تم فتح مكة دون اراقة دماء الى حد كبير • وقد قتل خالد بن الوليد الحاد المزاج بعض الناس عند باب المدينة الجنوبى وأنبه النبى تأنيبا حادا على ما فعله(١) • وعلى الرغم من ان النبى كان قد عانى الاضطهاد فى مكة وعلى الرغم من أن عددا من ألد أعدائه كانوا لا يزالون يعيشون فيها الا أنه اكتسب قلوب الجميع بما أظهره من رحمة وعفو فى يوم انتصاره. ولا ريب فى أن هذا التسامح أو هذه الفطنة السياسية التى اتصف بها النبى كرجل دولة كانت غريبة على العرب الذين كانت صفة

---

(١) يحاول المؤلف هنا أن يعطى صورة مشوهة عن الحقيقة ليظهر ان خالد بن الوليد عصي أمر الرسول بقتله بعض الناس وان النبى أنبه على عصيانه ، أما الحقيقة التى روتها كتب التاريخ العربى فهى أن بعض مقاتلة قريش اعترضت رتل خالد بن الوليد عند أسفل مكة ومنهم نفر من بنى بكر والاحابيش وعلى رأسهم عكرمة بن ابى جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وكانوا قد اتخذوا موضعا على جبل يدعى الخندمة. ولما اقتربت طلائع رتل خالد رشقوها بوابل من النبال فلم يمهلهم خالد لحظة ، وفي كرة واحدة شتت شملهم بعد أن قتل منهم اثنى عشر رجلا وانهزم الباقون وفيهم زعماء الحركة ولم يقتل من رتل خالد الا رجلان وقد أسف محمد (ولم يؤنب خالدا كما زعم المؤلف) على ما حدث اذ كان يتمنى لو لم يسفك دم بدخول مكة ولكنها مشيئة الله .

(المعرب)

الانتقام من خصالهم ومزاياهم • وقد حقق النصر الكبير بسياسته ودبلوماسيته أكثر منه بعمله العسكرى • ولا ريب فى أن عظمته تقوم فى أنه أدرك فى عصر يسوده العنف وسفك الدماء ، ان الافكار أقوى من القوة والعنف •

***

يذكر القارىء ان النبى زار الطائف ابان ذروة الاضطهاد فى مكة قبل الهجرة وهى بلدة تقع على بعد أربعين ميلا الى الشرق من مكة وانه قوبل ابان هذه الزيارة بالازدراء ، وقذفه أهلها بالتراب والحجارة ولكن سقوط مكة فى أيدى المسلمين ملأ قلوب أهل الطائف رعبا وذعرا ، فقرروا أن يأخذوا زمام المبادرة وأن يبادروا المسلمين فى مكة بالهجوم قبل أن تصل جيوش محمد اليهم ، وكانت قبيلة ثقيف هى التى تقيم فى الطائف ولكنها تحالفت مع هوازن وهى مجموعة من البطون تعيش فى الصحراء المجاورة لمكة وتنتمى مع ثقيف الى أصل واحد هو قيس عيلان • وأجمعت القبائل على المسير الى حرب المسلمين وحشدوا رجالهم استعدادا لمهاجمة مكة •

وعلم النبى الذى كان قد أتقن الآن صناعة الحرب وأدرك أهمية المخابرات العسكرية بأمر هذا الاستعداد من عين له كان قد أوفده الى المنطقة وقدم اليه تقريرا عن تأهب القبائل فخرج اليها للقائها على رأس جيش يضم عشرة آلاف محارب انضم اليهم ألف محارب من قريش بعد أن رأوا من النبى فى فتح مكة ما رأوه من رأفة ورحمة •

وكانت كثرة المسلمين العددية وثقتهم من النصر سببين ـ كما يبدو ـ فى اظهار ماأظهروه فى هذه المعركة من افتقار الى الاستعداد والحيطة • فلم يكد المسلمون يتحركون عند الفجر عبر وادى حنين الضيق حتى باغتهم العدو من جميع الجهات بعد أن كمن لهم فى شعاب الوادى • وكانت المباغتة كاملة تمام الكمال ولم يتح لهم الوقت للثبات وتنظيم صفوفهم • وتراجعت طلائعهم فزعة لاتلوى على شىء وسرعان مادب الذعر فى الجيش كله وراح ينهزم محاولا الفرار من الوادى الضيق وقد سادته الفوضى •

وكان النبى فى مؤخرة الجيش فلما رأى الناس لا يلوون على شىء انحاز الى جهة اليمين وثبت عند منحدر الجبل الذى يحد الوادى الضيق وحوله النخبة الممتازة من صفوة الرجال أمثال أبى بكر وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعمه العباس وأسامة بن زيد نجل قائد مؤتة الشهير، وأخذ يهتف عاليا •• أين أيها الناس ؟ هلموا الى أنا رسول الله ، أنامحمد

ابن عبد الله ، يا معشر الانصار الذين آووا ونصروا • يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة وراح أبو سفيان العجوز وكان مرافقا للنبى فى حملته هذه يهمس فى أذن من حوله بمكر قائلا « لا تنتهى هزيمتهم دون البحر » •

وكان فى مقدمة هوازن رجل يتولى مطاردة المسلمين المنهزمين وقد امتطى جملا أحمر اللون يحمل راية سوداء فى يده ورمحا طويلا وكان ان أدرك أحد الفارين ، طعنه برمحه فى ظهره ثم رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه، وراح على بن أبى طالب يتبع ذلك الهوزانى صاحب الراية وضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ووثب أحد الانصار على الرجل فقتله •

وكان المسلمون قد بدءوا فى غضون ذلك يفيقون من ذهول المفاجأة ويعودون الى الالتفاف حول النبى ومعظمهم من الانصار . وسرعان ما التف حوله نحو من مائة رجل من المسلمين فعبأهم أمام المشركين يصدون سيلهم الجارف وظل العباس وهو جهير الصوت يصرخ بأمر من النبى •• «يامعشر الانصار يامعشر أصحاب السمرة !» وتوقف هجوم هوازن ورجع المسلمون الذين كانوا قد ولوا عن المعركة الى الميدان • ولم يكن فى وسع المشركين أن يصمدوا أمام هذا العدد الطاغى من المسلمين وشن بنو سليم وهم قبيلة من البدو اعتنقت الاسلام حديثا ، هجوما كله حماسة ، وبدأت هوازن ترتد على أعقابها ، ثم سرعان ما انقلب ارتدادها الى هزيمة وأخذ المنهزمون ينشدون الملاذ فى الجبال المحيطة ، وانسحب أهل الطائف الى مدينتهم وأغلقوا على أنفسهم أبوابها وكان أى بناء من الحجر يؤلف عقبة كاداء فى طريق أية قوة عربية لا سلاح لها الا السيوف والرماح والنبال ولذا فقد أمر النبى بعد خمسة عشر يوما من الحصار على المدينة برفعه دون فائدة •

وكان انتصار المسلمين فى حنين كاملا حتى انهم كسبوا غنائم كثيرة بينها أعداد وفيرة من الابل والغنم كما أسروا عددا ضـــخما من الاسرى معظمهم من نساء هوازن وأطفالها وعندما عاد النبى عن الطائف دون أن يتمكن من فتحها شرع يقسم الغنائم والاسلاب بين رجاله • ووصل اليه وفد من هوازن المهزومة على أمرها يرجوه اطلاق سراح النسوة والاطفال من الاسرى ، وسرعان ما لبى النبى الطلب بماعرف عنه من دماثة وتسامح، فلقد كان ينشد من جديد فى ذروة انتصاره أن يكسب الناس أكثر من نشدانه عقابهم وقصاصهم • وحدث ان كانت قبيلة بنى سعد التى حضنت الرسول فى طفولته ، اذ رضع من حليمة وهى احدى نسائها ، بين القبائل المهزومة فى صفين وساقوا الى النبى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى

أخت الرسول في الرضاعة فعنفوا عليها في السياق فقالت للمسلمين : تعلموا والله أني لأخت صاحبكم في الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها الى الرسول قالت : يارسول الله • انى أختك في الرضاعة قال : وما علامة ذلك ، قالت عضة عضضتها في ظهرى وأنا متوركتك «حاملتك على وركى» وبتلك الروح الديموقراطية السمحاء التى عرفت عنه والتى اكتسبت بها قلوب الناس نشر النبى عباءته على الارض وأجلسهـا الى جانبه متحدثا اليها عن الايام القديمة الطيبة وراح يردها الى قومها بعد أن أنعم عليهـا بالهدايا والهبات •

وبينما كان النبى يرد سبايا حنين الى أهلها من هوازن كان اتباعه ينتظرون تقسيم الغنائم بفارغ الصبر وعنـدما رأوه يقصد خيمته أتبعه الناس يقولون •• يا رسول الله أقسم علينا فيئنا من الابل والغنم ، حتى ألجئوه الى شجرة فاختطفت عنه رداءه فقال : «ردوا على ردائى أيها الناس فوالله ان لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم » ومثل هذا المنظر يعتبر شيئا ممتعا لكل من عرف قبائل البدو فى يومنا هذا فهـو يجسد لنا رغبة أهل القبائل فى غنـائم الغزو ممزوجة بموقفهم الذى ينطوى على الاجلال والحب والاعجاب والانطلاق مع القـائد القريب الى قلوبهم • ان أوضاع الصحراء على حالها لم تتبدل برغم انقضـاء هذه القرون الطويلة •

وعندما شرع فى تقسيم الاسلاب والغنائم أخذ منها الخمس لنفسه كما تنص الشريعة الاسلامية ولكنه لم يحتفظ بشىء من حصته وانما وزعها على المكيين الذين اعتنقوا الاسلام مؤخرا وعلى شيوخ قبائل البدو ليكسب قلوبهم وعلى الرغم من أن النبى كان ينـظر الى نفسه كرسول وكمصلح دينى أولا وأخيرا الا انه كان يلجأ الى الاساليب العلمـانية أيضا ليفوز بقلوب الناس ، وليفرض نفوذه عليهم • وكان يؤكد للمسلمين المؤمنين ان لهم النعمى فى الدارين الاولى والآخرة ، ولم يكن يطلب من الاثرياء الشبان أن يبيعوا كل ما يملكونه وأن يتبعوه • وقد تلقى أبو سفيان وولداه يزيد ومعاوية هدايا ممتازة •

وليس ثمة من مشقة أبلغ وأشد من توزيع الاسلاب على البدو الكثيرى الضجيج والعجيج اذ اننى جربت ذلك بنفسى وان كانت تجربتى على نطاق أضيق ، ولا ريب فى ان محمـدا كان يظهر أقصى ما يمكن من الكياسة والاناة والصبر والدماثة حتى ينال كل رجل نصيبه • فقد أعاد لمالك بن عوف شيخ هوزاف والرجل الذى قاد قبيلته لحرب المسلمين كل ماكان

له من ماشية وابل مقابل اعتناق الاسلام(١) • وسرعان ما طبق مالك بن عوف سنة البدو المعروفة ، بالانقلاب من جانب الى آخر بسهولة وأخذ على عاتقه محاربة حلفائه السابقين من ثقيف فشرع يغير على مالأهل الطائف من ماشية ويهاجم من يخرج منهم من المدينة(٢) واستخلف النبى أخيرا رجلا على مكة وعاد الى المدينة(٣) •

لكن النبى لم ينج على أية حال من النقد على الطريقة التى وزع فيها غنائم حنين ، فليس ثمة من شك فى أنه لجأ الى اغراء الهدايا والاموال الدنيوية لاكتساب الاعداء وتحويل المشركين الى الاسلام(٤) • وكان يكتفى دائما من الاعراب بقول الشهادتين دون أن يتحقق من صدق اسلامهم ولكن أهم ما وجه اليه من نقد هو أنه فى تقسيمه للغنائم لم يبذل أية محاولة لمكافأة أنصاره الصادقين المؤمنين ، بل استخدم الشطر الأعظم من الغنائم

---

(١) تقول كتب السيرة ان رسول الله (صلعم) سأل عن مالك بن عوف فقيل له انه بالطائف مع ثقيف . فقال : أخبروا مالكا انه ان أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل . وقد فعل مالك ما أراده الرسول وحسن اسلامه .

(٢) تظهر رغبة المؤلف في الانتقاص من شأن الاسلام والمسلمين في كل عبارة يقولها وليس ادل على ذلك من حديثه عن مالك بن عوف زعيم هوازن وتصويره اياه بصورة الانتهازى القلب متخذا منه مثلا على تقلب البدو متأثرين بالاغراء المادى . أما بالنسبة الى مالك فقد ذكر المؤرخون العرب انه أسلم وحسن اسلامه ولعل التفسير الصحيح لموقفه هو انه شأنه في ذلك شأن غيره من الكثيرين من عرب الجاهلية لم يكن قوى الايمان بالاوثان والاصنام ، فلما أسلم متأثرا بأوضاعه بعد هزيمة حنين تفتح قلبه للايمان ورأى في الاسلام دين الحق والحقيقة فأصبح مسلما صادقا أبلى في الدفاع عن حياضه أحسن البلاء واذا كان المؤلف يأخذ على البدو تقلبهم وتأثرهم بعوامل الاغراء متخذا من بعض الحوادث التي مرت به ـــ ابان الدور الذى أداه معهم في خدمة امبراطوريته الاستعمارية، دليلا يدفعه تغرضه الى جعله وسيلة لمثل هذه القاعدة العامة الخارجة عن الموضوعية التى يطلقها فلماذا لا يأخذ على الانتهازيين من أفراد أو دول في عالمه الغربى تقلبهم وهم كثر مع العلم انهم لايقارنون بالبدو الجهلة في مجالات العلم . ان الانتهازية غريزة عند الكثيرين وهى توجد عند بدو الصحراء كما توجد عند أرفع الناس في كل مكان وفي مقدمتها بلاده . (المعرب)

(٣) استخلف النبى على مكة عتاب بن اسيد ومعه معاذ بن جبل يفقه النـاس في دينهم ويعلمهم القران .

(٤) تعريض آخر بالرسول الكريم (صلعم) ولكن المؤلف نسي الموضوعية في اتهامه هذا بل وفي كل اتهاماته . فلقـــد بات النبى في هذه المرحلة رجـــل دولة وقائد أمة بالاضافة الى رسالته الدينية السامية ولا يستغرب من رجـــل الدولة والقـائد أن يستخدم بعض الوسـائل الدنيوية في تثبيت الحـكم وتوطيد أركانه . لكنه الهـوى من المؤلف . (المعرب)

محاولا ترضية أعدائه • فلم يتلق الانصار من أهل المدينة الذين كانوا أول من استجاب لنداء الرسول بعد نكسة حنين فى بادىء الامر أى شطر من الغنيمة • وعندما أعرب بعضهم عن تذمره راح النبى يجمعهم ويخاطبهم مثنيا على اخلاصهم ووفائهم ومؤكدا لهم ان اعتماده على صدق آيمانهم هو الذى دفعه الى أن يفعل ما فعل ، ثم قال : « ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار» ثم رفع النبى يده الى السماء وهتف قائلا : اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الانصار » • هذه صورة من صور شخصيته المغناطيسية اذ أنه ما كاد يقول قولته حتى بكى القوم واخضلت لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا •

وأصبح محمد الآن • وفى نظر الجميع صاحب أضخم قوة فى الجزيرة العربية كلها • وأخذت الوفود تصل باستمرار حاملة اليه ولاء جميع القبائل من أطراف الجزيرة القاصية والدانية وذلك رغبة منها فى تجنب الوقوف موقف العداء من المسلمين •

وفى سبتمبر (ايلول) عام ٦٣٠ تولى النبى بنفسه قيادة قوة قوامها عدة ألوف من المحاربين سار بها فى اتجاه الشمال الى حدود الروم • والطقس فى هذا الشهر من السنة فى الحجاز شديد الحرارة • وتكون الصحراء أشبه بالأتون اللاهب . وأظهر بعض المسلمين ميلا الى عدم الاشتراك فى الحملة حتى تكون حدة الحر قد انتهت (١) • ولكن سرعان ما جاء التنزيل على النبى يقول ... فى سورة التوبة « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم

---

(١) يظهر المؤلف بقوله هذا ان المسلمين جميعا ترددوا بالاشتراك في غزوة تبوك مع ان المنافقين ودعاة الهزيمة هم وحدهم الدين وقفوا هذا الموقف ، وكان هذا هو السبب في الموقف الصريح الحازم الذى وقفه النبى منهم اذ طلب الى زعيمهم عبد الله ابن أبى ، البقاء مع رجاله في المدينة لعدم ثقته به وبجيشه ، كما بعث الى دار سويلم اليهودى التى كان تجمع الانهزاميين فيها لتدبير المؤامرات وتهويل أمر الحملة في نفوس المسلمين فأحرقها ، مما أجبر المتامرين على الفرار وعدم العودة الى مثلها . وأخطأ المؤلف هنا خطأ ثانيا فقد ذكر ان جيش المسلمين كان يعد بضعة ألوف في حين تجمع كتب التاريخ الاسلامى أن الجيش زاد على الثلاثين ألفا وهو رقم لم يشهد العرب له مثيلا من قبل •

(المعرب)

وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . »

وعندما وصل النبى بجيشه الى تبوك بعث فى طلب يوحنا أمير ايلة المسيحى وعندما جاءه هذا صالح الرسول على عهد بدفع الجزيه وجاءته وفود من أهل جرباء واذرح ـ والاخيرة كانت فيما مضى معسكرا للرومان ـ فتصالح معها على أن تدفع جزية سنوية على الرغم من أن هذه الاماكن كلها كانت من المحميات الرومانية . وبعث وهو فى تبوك بخالد بن الوليد الى الاكيدر الحاكم المسيحى لدومة الجندل وهو الاسم القديم لبلدة الجوف الحالية . وقد عقد معه النبى الصلح أيضا على دفع الجزية وعاد الجيش الاسلامى بعد أن قضى عشرة أيام فى تبوك الى المدينة دون قتال (١) .

ولا ريب فى أن الهدف من هذه الحملة كان رفع الراية الاسلامية على حدود الروم ولم يكن النبى قد نسى معركة مؤته ولذا فقد عزم على الثأر لها وفى ديسمبر (كانون الاول) من عام ٦٣٠ ميلادية جاءه وفد من ثقيف يبايعه ويعلن له استسلام الطائف .

وحل موسم الحج فى مارس (اذار) عام ٦٣١ م. وكانت المرة الأولى التى يحل فيها هذا الموسم بعد أن غدت مكة فى حيازة المسلمين وبعث النبى بصاحبه ابى بكر اميرا على الحج لاداء الفريضة على رأس المسلمين ونزلت ابان ذلك براءة تحرم على المشركين زيارة البيت وأداء الفريضة . وجدير بنا أن نذكر هنا أن طقوس الحج كانت حتى ذلك التاريخ طقوسا جاهلية لا اسلامية . أما الآن وقد تطهر البيت من الاصنام والأوثان فلم يعد من حق المشركين أن يدخلوه ووجه انذارا فى

---

(١) يحاول المؤلف جريا على عادته تشويه الحقائق المتعلقة بالفتوحات الاسلامية اذ لم يشرح الاسباب التى أدت الى عودة الحملة الاسلامية دون قتال ولم يذكر ان الروم وقد علموا بوصول النبى صلى الله عليه وسلم الى تبوك ، آثروا الانسحاب الى داخلية البلاد مفضلين قتال المسلمين قريبا من قواعدهم بدلا من حرب الصحراء التى يقرون بتفوق العرب فيها . فلما رأى النبى انسحابهم اكتفى بفرض سلطانه على أمراء المناطق المجاورة الذين ما كانوا يدفعون الجزية وهم في حماية الرومان لولا ثقتهم من ضعف حماتهم أمام المسلمين . (المعرب)

الوقت نفسه الى جميع القبائل العربية يعطيها مهلة أربعة أشهر تقبل في غضونها الاسلام أو تتأهب لحرب المسلمين(١) ٠

وظلت الوفود تصل الى النبى طيلة عام ٦٣١ من جميع أرجاء الجزيرة العربية بما فيها الأماكن النائية كالبحرين وعمـــان وحضرموت واليمن وكان بين الوافدين وائل بن حجـــر الحضرمى أمير حضرموت واليمن . الذى تلقاه محمد بكثير من التجلة والاكرام . واختار النبى معاوية بن ابى سفيان وكان قد جعله من أمناء سره اكراما لا بيه ليقوم بدور المضيف لوائل وان ينزله في دار له في واحة قريبة ليتولى اكرام مثواه . وكانت الهاجرة فى كبد السماء ترسل اشعتها المحرقة عندما قصد الرجلان الى الواحة وقد امتطى وائل بعيره مخلفا مضيفه يسير على قدميه وطلب معـــاوية من ضيفه أن يردفه على ظهر بعيره فأبى عليـــه ذلك ٠ وقال معاوية أخيرا ٠٠٠ اذن فأعرنى نعلك أقى به قدمى حـــر التراب فرد وائل بشيء من الكبرياء قائلا ... وماذا يقول الناس عنى اذا سمحت لمثلك من عامة الناس باحتذاء نعلى . وقد وصـــف النبى عندما ســـمع هذا الحــــادث بأنه من مخلفات الجاهلية ولم يكن وائل ليتصور آنذاك ان هذا الشاب الذى يركض الى جانب بعيره سيصبح فى يوم قريب أعظم حاكم فى العالم المعروف .

وغدا النبى فى السنتين الأخيرتين حاكما ذا ســـلطان عظيم وكان يصرف سحابة نهاره وشطرا من ليله فى استقبال الوفود واملاء الرسائل وفض المنازعات وتصريف الشـــئون العـــامة دون أن يكون الى جانبه موظفون مدربون ، ودون أن تتوافر له وهو الذى لا يعرف القراءة

---

(١) تقول كتب التاريخ الاسلامى ان النبى (صلعم) دعا على بن أبى طالب وكان ابو بكر على راس الحجيج في مكة فقال له ... اخرج بهذه القصـــة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا منى ، انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولايطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله (صلعم) عهد فهـو له الى مدته « فخرج على الى مكة على ناقة النبى العضباء حتى ادرك أبا بكر فيالطريق فقال له ... امير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ثم مضيا فأقام ابو بكر للناس الحج والعرب اذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها في الجاهلية حتى اذا كان يوم النحر قام على فأذن بالناس وقال : أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافـر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله صـــلى الله عليه وسلم عهد فهو له الى مدته وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم الى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة الا لاحد كان له عند الرســول عهد الى مدة فهو الى مدته فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان .

(المعرب)

والكتابة التسهيلات التى تتوافر للحكام. وكثيرا ما وجه النقاد الغربيون الى النبى صفة الاصطناع عن طريق مقارنة حيـــاته الأولى فى مكة وقد تلقى الرسالة وما كان فيها من بساطة وتأمل ، بحياته الثانية فى المدينة. حيث أصبح سياسيا دنيويا أكثر منه انســــانا روحيا ، وقد أقر بأن البون شاسع ، ولكننى أرى من الظلم القول بأنه آثر فى القسم الاخير من حياته أمور الدنيا على القيم الروحية (١) .

ولا أستطيع أن أنكر أن النبى تزوج احدى عشرة امرأة مما يشـير الى اهتمامه بالنساء (٢) ولكننى أقول انه لم يهتم بالمال قط فى حيـاته

---

(١) اتهام ظالم ومغرض كل الغرض للنبى . فقد ظل عليه الصلاة والسلام الى آخر يوم من حياته الكريمة مثال الرجل السمح الكريم الخلق الجم التواضع الذى لم تصرفه شئون الحكم عن رسالته الروحية السامية لكن الاسلام عقيدة دين ودنيـا ، ومن واجب القائد الموجه أن يهتم بشئون مجتمعه الدنيوية بقدر اهتمامه بالتـوجيه الروحى ومن هنا كان القول المأثور .. اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لاخـرتك كأنك تموت غدا . (المعرب)

(٢) هذه حجة طالما استخدمها أعداء الاسلام للطعن في النبى صلم االله عليـه وسلم فلقد بلغت أخلاقه الشخصية من الكمال حدا جعله موضع رضي ربه الذى أدبه فأحسن تأديبه اذ خاطبه تعالى قائلا «وانك لعلى خلق عظيم». وكانت خلاله سببا في اجتذابه النفوس والقلوبه مما الان له من شكيمة قومه بعد الاباء وجعلهم يدخلون في دين الله أفواجا مناصرين مؤازرين .

أما قصة الزواج هذه فان من الثابت ان النبى كان يرى في أن يجمع نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن وحملها على الالتفاف حول النبى فلقد كان الصهر عند العرب بابا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقـد كان زواجه بخديجة وهو بمكة أكبر مساعد له ومبعدا عنه اذى الكثيرين من أعـدائه ، فلما كان بالمدينة صاهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب . ولعل نظرة واحدة الى نساء النبى ونسبهن تثبت هذه الحقيقة التى يرفض النقاد الغربيون الاعتراف بها وهن رضي الله عنهن ... (١) خديجة بنت خويلد من بنى أسد (٢) عائشة بنت أبى بكر الصديق (٣) سودة بنت زمعة من بنى عامر (٤) حفصة بنت عمـــر بن الخطاب (٥) أم سلمة هند بنت أبى أمية من بنى مخزوم (٦) زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة (٧) أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب (٨) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة (٩) صفية بنت حيى بن أخطب من يهود خيبر (١٠) ميمـونة بنت الحارث من بنى عامر بن صعصـــــعة (١١) زينب بنت خزيمــة من بنى عامر بن صعصعة . وهناك اثنتان تزوجهما ولم يدخل بهما وهما أسماء بنت النعمان من بنى كندة وعمرة بنت يزيد من بنى كلاب .

ومن مجرد ذكر هذه الاسماء يتبين لكل منصف أن معظم حالات الزواج عنـد النبى كانت لاسباب سياسية وليس لشيء آخر .. ومن هنا يتبين سخف ادعاء المؤلفين الغربيين . (المعرب)

حتى عندما أصبح وفى قدرته ان يجمع أكبر الثروات . فقد توفى وهو معدم تقريبا كما أن طعامه البسيط لم يتغير لحظة واحدة وعاش حتى اللحظة الاخيرة فى بيت عادى بسيط لا يصلح ان يكون بيتا لحاكم عادى

ومن المحتمل ألا يكون النبى نفسه قد توقع فى البداية هـذا التحول من طبيعة التأمل الى طبيعة النشاط السياسى البالغ الحدود . ومن المحتمل أن يكون هذا التحول قد جاء بصورة طبيعية عندما هاجر من مكة الى المدينة حيث وجد نفسه يقـود مجتمعا جديدا بعض أفراده من المعدمين الذين هاجروا وباتوا لا يملكون شيئا وقد حز فى نفوس بعض أهل المدينة ممن لم يكن الاسلام قد تأصل فى نفوسهم أن يؤووا هؤلاء المهاجرين وأن يشاركوهم أرزاقهم مما حملهم على التآمر عليهم . ومال المهاجرون الى الغزو كوسيلة من وسـائل العيش . وكطريقة للانتقام من قريش التى أخرجتهم من ديارهم . وسرعان ما وجد النبى نفسه وسط جو من الحروب والدسائس فحملته قيـادته لمجتمعه على أن ينأى عن حياة التأمل التى تفترض الوحدة . ويعبر القرآن نفسه عن هذا التحول . فالسور المكية تحمل طابعا روحيا أعمق من السـور المدنية التى أخذت تعنى بصورة متزايدة بالشئون الدنيوية من سياسة وحرب وتشريع .

ولا ريب فى أن تحول محمد من صورة النبى التى تغلب على أنبياء العهد القديم الى صورة السياسى الحاكم والمشرع الاجتماعى قد أثر تأثيرا عميقا على تطور الاسلام حتى يومنا هذا . وقد سار جميع خلفائه بصورة آلية رتيبة على سنته ومنواله وطبعوا حكمهم بصـورة المزيج بين الدين والسياسة ولم يعرف الاسلام قط ذلك التنافس الذى قـام بين البابوات والأباطرة والذى خلق حالة من الاضطراب فى أوربة القرون الوسطى . أما الدولة العلمانية الاسلامية التى تكون فيها الحكومة الزمانية مستقلة عن الحكم الدينى ، فبدعة عرفها المسلمون فى القرن العشرين مقلدين فيها أوربا .

وحرى بنا ان نذكر دائما أن محمدا قد تأثر بالكثير من المؤثرات المسيحية واليهودية (١) . فلقد كان عدد اليهود فى المدينة لا يقل عن

---

(١) تستمد هذه النظرة الى الاسلام جذورها من عدم ايمان المؤلف أو الكتاب الغربيين برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) ولذا فهم يرون أن مرد التشابه بين الاسلام من ناحية واليهودية والنصرانية من ناحية أخرى الى تأثر النبى بهاتين الديانتين مع العلم أن هذه النظرة خاطئة لان الاسلام دين الله جاء به محمد بعد اليهـودية =

عدد العرب ، ولم تكن هناك جالية مسيحية فى مكة أو فى المدينـــة وان وجد عدد من الأفراد المسيحيين هنـــا أو هناك • يضـــاف الى هذا أن المرحلة العامة للتطور التى وصل اليها عرب الصحراء قبيل الاسلام فى القرن السابع لم تكن لتبعد كثيرا عن الحالة التى كان فيهـــا يهود العهد القديم • ومن الممكن أن نقـــارن بين ما قاله النبى عن النضـــال والجهاد بعدد من أقوال العهد القديم ولا سيما فى الكتب الخمسة الأولى • وهناك كثيرون من الغربيين يقولون ان محمدا لو ظهر بين موسى وعيسى لاعتبر بحق من أكثر المصلحين الدينيين فى العالم(١) •

***

وتهيأ النبى فى شهر فبراير (شباط)(٢) عام ٦٣٢ لاداء فريضـــة الحج على رأس جمع كبير من المسلمين . وقد راقب المسلمون كل عمل قام به الرسول ابان ادائه للفريضة هذا العام واعتبروها طقسا من طقوس الحج • وقد ألقى النبى فى الحجيج خطبة ذلك العام ونهاهـــا متطلعا الى السماء وهو يقول .. « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » وبعد ان أتم مناسك الحج عاد بأصحابه الى المدينة وتفرق الحجيج الى بلادهم آمنين مطمئنين •

وكان بعض مدعى النبوة قد ظهروا فى الايام الاخيرة من حياة النبى فى نواح عدة من الجزيرة العربية ولكن نشاطهم لم يكن كبيرا بحيث يؤلف خطرا كافيا يثير القلق فى المدينة ولم يقدر لهذه الدعوات ان تبرز اهميتها الا بعد وفاة النبى . ويبدو ان كل مقاومة عسكرية للنبى كانت قد توقفت فى الجزيرة العربية فى هذه الآونة ولكن النبى أصدر أمره فى مستهل عام ٦٣٢ للقيـــام بحملة على حدود الروم وأراد أن يؤكد رغبته فى الثأر لشهداء مؤتة فأسند قيادها الى أسامة بن زيد نجل قائد حملة مؤتة وان لم يكن الشاب قد جاوز العشرين من عمره . وقد اثار هذا الاختيار بعض الامتعاض عند من هم أكثر من أســـامة دراية وخبرة

= والنصرانية ولذا فان التشـــابه يقوم في أن مصـــدر الاديان السماوية واحـد. وهـو الله .

(١) طبعا نحن نختلف مع المؤلف في قوله هذا لان الاسلام هو دين الكمال وقـد جاء مكملا للرسالات الســماوية التى سبقته ولكن المؤلف كان حكيما بعض الحـكمة عندما نسب قوله هذا الى غيره .

(٢) تجمع كتب التـاريخ العـربى على أن حجة الوداع كانت في مارس (آذار) من ذلك العام . (المعرب)

في القيـــادة العسكرية • وجدير بى أن أذكر أن هذه الفكرة من الثأر العائلى ما زالت تتكرر فى بلاد العرب منذ اقدم العهود حتى اليوم (١) •

ولم تمض أيام حتى كان النبى ذات صباح يشكو من بعض الصداع والحمى وذلك فى شهر يونيو من عام ٦٣٢ ولكنه أفاق فى اليوم التالى وقد خف أله فخرج من بيته ليسلم الراية الى أســـامة بن زيد على رأس الحملة ولكن الحمى ما لبثت أن عاودته وعاد اليه الصداع وان ظل يومين أو ثلاثة أيام يغالب المرض ليؤدى أعماله اليومية كالمعتاد • وأخيرا اشتد عليه المرض فأوى الى فراشه يشـــكو من الحمى فى غرفة عائشـــة زوجه الامين وابنة أقرب الناس اليه أبى بكر الصديق • ويروى ان امرأة بدوية قالت للرسول انه مصاب بذات الجنب فانكر عليها ذلك مؤكدا ان مرضه ناشيء عن محاولة يهود خيبر تسميمه قبل أربع سنوات • ومن المحتمل أن يكون النبى أراد أن يظهر للناس انه من الشهداء وان الكفرة هم الذين قتلوه(٢) لكن الظواهر التى رواها المؤرخون تشير الى أن الوفاة نجمت عن الاصابة بذات الرئة •

---

(١) كان اول ما فكر فيه النبى بعد عودته من حجة الوداع استئناف الحـركات العسكرية على حدود الروم لتوطيد نفوذ الاسلام بين القبائل العربية القاطنة هناك • وقد جهز النبى الحملة واشترك فيها المهاجرون الاول أمثـــال أبى بكر وعمر ثم أناط قيادتها بمولاه أسامة بن زيد بن حارثة وهو دون الثامنة عشرة فأثار هذا التعيين دهشة واستغرابا في نفوس المسلمين وقال بعضهم أمر غلاما حدثا على حملة المهاجرين والانصار وتباطأ البعض بالفعل في الخروج الى مكان اجتماع الجيش في الجرن فبلغ ذلك محمـدا وهو مريض فخرج الى المسجد وخطب المسلمين قائلا : أيها الناس انفذوا بعث أســامة فلعمرى لئن قلتم في امارته لقد قلتم في امارة أبيه من قبله وانه لخليق للامارة وان كان ابوه لخليقا بها • (المعرب)

(٢) رأى في منتهى السخف من المؤلف اذ لم يكن النبى الذى آمن الناس برسالته والذى عظمت « الشـــهادة » في نظـــرهم من أقواله بحاجة الى التظـــاهر بانه من الشـــهداء ، ولكنها محاولة أخـرى من المؤلف لتشـويه التاريخ الاســلامى ، أما القصة الحقيقية كما ترويها كتب الســـيرة وفي مقدمتها ســـيرة ابن هشام فهى على النحو التـــالى :

اجتمع الى النبى عدد من نسائه ونساء من المسلمات وعنده عمه العباس فأجمعوا أن يلدوه (يجعلوا الدواء في شق فمه) ، وقال العباس لالدنه فلدوه فلما أفاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال من صنع هذا بى قالوا : يا رسول الله عمك ، قال هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الارض وأشار نحو أرض الحبشة قال ولم فعلتم ذلك ؟ فقال عمه العباس خشينا يارسول الله أن يكون بك ذات الجنب فقال : ان ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به لا يبق في البيت أحد الا لد الاعمى ، ولقـد لدت ميمونة وانها لصائمة عقوبة لهم بما صنعوا به • (المعرب)

واشتدت وطأة الحمى على النبى ولما انقضى اسبوع على مرضه وأدرك أن حالته الصحية آخذة فى السوء قرر أن يخطب الناس فطلب أن يصبوا عليه الماء البارد لتهبيط الحمى المحرقة التى كان يشكو منها ثم خرج من بيته متكئا على صاحبيه وتحدث الى الناس مدافعا عن تعيينه اسامة أميرا على الجيش • ولكن الجهد الذى عاناه من الاستحمام بالماء البارد ومن القاء الخطاب زاد من حالته سوءا وعجز فى اليوم التالى عن القيام من فراشه • وراح يصدر أمره بصوت خافت الى أبى بكر ليؤم الناس فى الصلاة•• وكان أبو بكر غائبا ذات يوم فأم عمر بن الخطاب الناس فى الصلاة فلما سمع صوته وتميزه اذ كانت غرفة عائشة تطل على المسجد هتف النبى قائلا «أين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون» (١)

وساءت حال النبى الصحية كل السوء فى اليوم العاشر من مرضه• وكان كثيرا ما يغيب عن الوعى وتضعفه الحمى التى كانت تلهبه • وفى صباح اليوم التالى وكان أبو بكر يؤم الناس فى صلاة الفجر خرج النبى الى باب غرفة عائشة ووجهه مشرق • ومشى وئيدا الى الامام متكئا الى رجلين الى أن وصل الى جانب أبى بكر فجلس واشترك فى الصلاة وانفض الجمع فرحين وقد ظنوا ان النبى قد ابل من مرضه • وعاد وئيد الخطى الى حجرة عائشة •

لكن هذا الجهد الاخير الذى بذله كان نتيجة الصحوة التى تسبق

---

(١) تقول الرواية التى أوردتها كتب السيرة ان الوجع اشتد بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال هريقوا على سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج الى الناس فأعهد اليهم فأقعدوه في مخضب لحفصة بنت عمر ثم صبوا عليه الماء حتى طفق يقول : حسبكم حسبكم •

• وخرج الرسول يمشي بين رجلين من أهله احدهما الفضل بن العباس وثانيهما على بن ابى طالب •

• اما قصة عمر فترويها كتب السيرة على النحو التالى : أمر النبى بأن يصلى ابو بكر بالناس فقالت له عائشة زوجه وابنة أبى بكر : يا نبى الله ان ابا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء اذا قرأ القرآن . قال : مروه فليصل بالناس فكررت ما قالته فقال : انكن صواحب يوسف فمروه فليصل بالناس •

وروى عبد الله بن زمعة انه كان عند النبى في نفر من المسلمين فأذن بلال الى الصلاة فقال مروا من يصلى بالناس فخرجت فاذا عمر في الناس وكان ابو بكر غائبا فقلت قم يا عمر فصل بالناس فقام فلما كبر سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صوته وكان عمر رجلا مجهرا ، فقال : اين ابو بكر يأبى الله ذلك والمسلمون يأبى الله ذلك والمسلمون • (المعرب)

الوفاة لا الشفاء من العلة وعاد الى فراشه متعبا فاستلقى عليه وقد أصبح عاجزا عن الحركة واستجمع قواه فجأة وطلب بعض الماء ليبلل وجهه به ثم هتف قائلا ٠٠ « بل الرفيق الأعلى فى الجنة » ٠

لاحظت عائشة فجأة أن رأس الرسول قد ثقل فى حجرها فذهبت تنظر فى وجهه فاذا بصره قد شخص ٠ لقد مضى نبى العرب الى الرفيق الأعلى ٠

***

تواريخ بارزة

حصار المدينة	فبراير (شباط) ٦٢٧
صلح الحديبية	فبراير (شباط) ٦٢٨
عقد الصلح بين الروم والفرس	صيف عام ٦٢٨
حج المسلمين الى مكة	فبراير (شباط) ٦٢٩
معركة مؤتة	سبتمبر (ايلول) ٦٢٩
فتح مكة	يناير (كانون الثانى) ٦٣٠
موقعة حنين	ربيع عام ٦٣٠
غزوة تبوك	سبتمبر (ايلول) ٦٣٠
وفاة النبى	يونيو ٦٣٢

شخصيات بارزة

عثمان بن عفان	صهر النبى
عمر بن الخطاب	الصحابى الثانى بعد أبى بكر
الحسن والحسين	ولدا على وفاطمة وحفيدا النبى
خالد بن الوليد عمرو بن العاص	من قادة قريش العسكريين الذين تحولوا الى الاسلام
معاوية بن أبى سفيان	من أمناء سر النبى بعد فتح مكة
عباس بن عبد المطلب	عم النبى

الـــــردة

« ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينـــه فسوف يأتى الله بقـوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى ســبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشـاء والله واســع عليم • »

القرآن الكريم ــ سورة المائدة

***

« ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » •

القرآن الكريم ــ سورة البقرة



عندما ظهر النبى صبيحة يوم وفاته مبتسما مشرق الوجه وقت أداء صلاة الفجر اعتقد أبو بكر انه قد ابل من سقامه وطلب منه أن يسمح له بقضاء يومه ذاك فى واحة بعيدة • وهكذا كان عمر بن الخطاب أول صحابى بارز وصل الى جانب فراش النبى فرفع الغطاء عن وجهه وتطلع الى وجه نبيه • وكان عمر قد قضى سنوات طويلة وهو يكاد يحب محمدا الى درجة العبادة • ولذا فقد عجز تفكيره للوهلة الاولى عن تقبل فكرة وفاته وراح يسرع بالخروج من حجرة عائشة الى باحة المسجد حيث اجتمع القوم ليعلن لهم بصوته الجهورى أن محمدا لم يمت • وراح يقول •• أو لم يقض موسى أربعين يوما فى الصحراء مع ربه على الجبل بينما ظن بنو اسرائيل أنه قد مات • وعاد يؤكد أن محمدا سيعود فيقطع أيدى من قالوا بموته وأرجلهم • وظل عمر وهو متأثر بالصدمة التى أصابته يردد هذه الاقوال المتحمسة باستمرار •

ووصل أبو بكر وهذا المنظر المحموم فى عنفوانه ومضى يعبر فناء المسجد حيث كان عمر يخطب الناس متجها الى غرفة عائشة وركع الى جوار نبيه المتوفى ورفع الغطاء عن وجهه النبيل وقبله • وعندما تأكد من أن النبى قد انتقل الى الرفيق الاعلى أعاد الغطاء الى وجهه وخرج الى الفناء المكتظ بالناس • ولما رأى ان عمر يرفض أن يصمت ، مضى أبو بكر الى ناحية من الفناء وأخذ يخطب فى بعض الناس قائلا : أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، ثم راح يتلو الآية الكريمة •• « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » • وأعادت كلمات أبى بكر الهادئة الرصينه عمر الى صوابه ونفذت الحقيقة المؤلمة الى تفكيره أول مرة فاغرق فى صمت عميق •

ولم يكد هذا المنظر العنيف ينتهى حتى جاء رجل الى أبى بكر سراعا يقول له ان الأنصار من أهل المدينة قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة وانهم يفكرون فى اختيار سعد بن عبادة زعيم الخزرج خليفة للنبى ولم تكن قد انقضت ساعة على وفاة النبى حتى كاد الصراع على السلطان يهدد بشطر المسلمين الى فئات وشيع • وأسرع أبو بكر الهادىء وعمر

الحاد المزاج الى السقيفة ليواجها التحدى الجديد • ورافقهما أبو عبيده بن الجراح الرقيق الطبع والواسع الحكمة ، وهو من الصحابة الاوائل الذين سنسمع عنهم كثيرا فيما بعد •

وكان الانصار قبل نحو من عشر سنوات قد رحبوا بالنبى الذى اضطهده قومه فى مدينتهم وقدموا له النصرة التى حمته من عشيرته ولكنه ما لبث ان تقوى سلطانه واتسعت شهرته وأخذ اعتماده على صحابته من قريش يزداد يوما بعد آخر • ووجد الانصار انهم بعد أن كانوا حماة الاسلام والمسلمين قد انقلبوا فجأة الى مركز ثانوى فى مدينتهم ولكنهم لم يجهروا بأى نقد فى حياة النبى فلما سمعوا بوفاته قرر الأوس والخزرج أن يخلعوا عنهم سلطان قريش قائلين : « منا أمير ومنهم أمير ولن نرضى بدون هذا» (١) ورأى أبو بكر الرجل الوديع الهادىء الذى

• (١) في الرواية بعض التحريف .. فقد ذكرت كتب التاريخ الاسلامى .. ان الانصار اجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة وكان نظرهم متوجها الى اختيار سعد بن عبادة وقام سعد فخطب فيهم مبينا ما للانصار من الفضل والسبق الى حماية رسول الله وانه لا ينبغى أن ينازعهم في هذا الامر احد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فان أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا تقول لهم فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها ... هذا أول الوهن .

ونقل السيوطى في كتابه تاريخ الخلفاء عن عمر بن الخطاب قوله .. اجتمع المهاجرون الى أبى بكر فقلت له .. يا أبا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكرا لنا الذى صنع القوم فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلت نريد اخواننا من الانصار فقالا : عليكم الا تقربوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين ؟ قلت : والله لنأتينهم فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بنى ساعدة فاذا هم مجتمعون واذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت : من هذا ؟ قالوا سعد ابن عبادة فقلت : ماله ؟ قالوا : وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله وقال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الاسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا وتحضنونا من الامر . فلما سكت أردت ان أتكلم وقد كنت زورت مقالة اعجبتنى أردت أن أقولها بين يدى أبى بكر وقد كنت اداري منه بعض الحد وهو كان أحلم منى وأوقر فقال أبو بكر : على رسلك فكرهت أن أغضبه وكان أعلم منى والله ما ترك من كلمة أعجبتنى في تزويرى الا قال في بداهته مثلها وأفضل حتى سكت فقال : أما بعد فما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحى من قريش هم أوسط العرب نسبا ودارا وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم فأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة ابن الجراح .

(العرب ٢)

أثقلت سنواته الســـتون ظهره انه يواجه أزمة من أخطر الازمات تهدد المجتمع الاسلامي بالفوضى وقد واجهها بمنتهى الهدوء والوقار فقال : « يا معشر الانصار أما بعد فما ذكرتم فيكم من خير فانتم أهله ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحي من قريش » .

وارتفع صوت يقول : « لا . لا .. هذا لا يجوز منا أمير ومنكم أمير ..» وساد السقيفة هرج ومرج وأصبحت القضية معلقـــة في كفة القدر وازدادت الفوضى .

ورد أبو بكر قائلا .. بكل تصميم : «لا. لا.. نحن أوسط العرب نسبا ودارا .. نحن الامراء وانتم الوزراء وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهمـــا شئتم وأشار الى رفيقيه عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح .

وقال عمر : « لا والله لا نتولى هذا الامر عليك . يامعشر الانصار ألستم تعلمون أن رسول الله قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر .. لا والله انك أفضل المهاجرين وثانى اثنين اذ هما فى الغار . أبسط يدك لنبايعك ومد عمر يده اليه فبايعه .

وبينما كان هذا الاجتماع الصاخب قائما كان هناك نفر آخر من المسلمين وبينهم بعض المكيين قد انضموا الى الاجتماع وقد سارعوا بعد سماع كلام عمر الى السير على منواله ، وليس ثمة من ريب فى أن أبا بكر بما عرف عنه من ولاء للنبى ومن بساطة فى طبيعته كان موضع الثقة من الجميع ، وسرعان ما تحولت عواطف المجتمعين كلهم الى جـــانبه وهب الانصار أنفسهم يبايعونه . وهكذا انتهت الازمة ولكنها كانت أزمة خطيرة حقا . ولم يحضر على بن أبى طالب أقرب الناس الى النبى وصهره وابن عمه هذا الاجتماع ، اذ تخلف فى حجرة عائشة يعد جثمان النبى لدفنه . ويزعم بعض مؤرخى العرب ان عليا لم يرض عن استخلاف أبى بكر اذ انه كان يبغى الخلافة لنفسه . وقد تأخر عن البيعة ستة أشـــهر ومعه بعض بنى هاشم . ولم يكن أبو بكر ينتمى الى أى من البيتين المتنافسين من قريش وهما بنو هاشم وبنو أمية وانما الى بطن آخر أقل أهمية من بطون قريش .

وثار خلاف حول المكان الذى يدفن فيه الرســـول الى أن أصدر أبو بكر أمره بدفنه فى المكان الذى توفى فيه أى فى حجرة عائشة .

***

وكان محمد قد غدا فى السنتين الاخيرتين أو السنوات الثلاث الاخيرة من حياته أبرز رجل فى شبه الجزيرة العربية كلها ولكنه ظل بعيدا عن أن يصبح حاكما بالمعنى الصحيح للكلمة فلقـــد ظل ولاء الفرد العربى لعشيرته وقبيلته قبل ولائه لأى شىء آخر • ولم تكن الجزيرة العربية ولا الحجاز أيضا قد عرفتا بعد نظام الحكومة التى تقوم فوق القبائل بعد • وقد ترغم قبيلة من القبائل على الطاعة اسما لجار قوى لمدة سنة أو سنتين ولكن القبائل العربية لم تكن لترغب فى أن تتخلى عن سيادتها لهذا النظام الجديد : وحرى بنا أن نذكر هنا ان المسلمين ظلوا يواصلون الاغارة على القبائل العربية طيلة حياة النبى • وقد قاد الرســـول نفسه فى غزوة تبوك عدة ألوف من المحاربين ولم يكن فى وسع أية قبيلة بدوية ألفت حياة التنقل فى الصحراء بحثا عن المرعى أن تحشد بصورة عملية مثل هذا العدد الضخم من المحاربين للقتـــال • والبدوى عملى فى دبلوماتيته وهو يعرف ما يتحتم عليه أن يعمله ومالا يتحتم • وكان من الاسهل على القبائل البدوية فى مثل هذه الظروف التى وجدت نفسها فيها أن توفد بعوثها الى المدينة للوصول الى تفاهم مع المسلمين • ولم تكن الشروط التى يفرضها النبى ثقيلة أو صارمة فعلى العربى أولا أن ينطق بالشهادتين • وكان معظم القبـــائل يدين بالوثنية وكان البعض منها يدين اســـما بالنصرانية ويبدو أنهم لم يكونوا ينظرون الى النصرانية نظرة جدية اذ انها كما يبدو لم تفلح فى تغيير عاداتهم التى نشئوا عليها منذ أقدم عصور التاريخ وفى مقدمتها الغزو والنهب والشعر والثأر • ولم يكن مثل هؤلاء الناس ليجدوا أية مشقة فى تكرار الشهادتين ، لكن الصعوبة الحقيقية مثلت أمامهم فى الضريبة التى فرضها عليهم النبى وهى الزكاة • فالقبائل شديدة التعلق باستقلالها والزكاة لا تعنى بالنسبة الى البدوى مجرد عبء مادى بل تعنى أيضا الخضوع وهو ما يحس البدوى بمرارته ، فليس للبدوى من هدف فى حياته الا الامجاد التى لا تتحقق له الا فى الغزو والنهب والا أعمال الجود والكرم الخيالية وكلهـــا يخلدها البدوى فى شعره • ولقد كان عصر الجاهلية أشبه ما يكون بعصر هوميروس فى شعره وفى تفاخره • وكان فى وسع أبى بكر أن يزهو بأن قريشا هى « أوسط العرب حسبا ونسبا » ولكن البدوى لم يكن ليرى فى قريش الا جماعة من سكان المدن أى من التجار •

واذا ما استثنينا فرض الشهادتين ودفع الزكاة فان النبى لم يكن فى الواقع قد اســـتطاع أن يحكم العرب حكما دنيويا فعليا • فلم تكن لديه حكومة أو موظفون أو شرطة أو سجلات • وكان اذا ما أراد القيام

بغزوة أو غارة • دعا المسلمين الى القتال • وكان جزاء المحارب حصة فى اقتسام الغنائم • وهكذا كان شيوخ القبائل يعودون من زياراتهم الى المدينة دون أن يفقدوا شيئا من استقلالهم ومع ذلك فقد كان بدو الحجاز ونجد قد باتوا الى حد كبير تحت تأثير المسلمين • أما فى المناطق النائية فى عمان وحضرموت واليمن فان النبى لم يمارس أية سلطة دنيوية فعلية أو مارس مجرد سلطة ضئيلة •

ولم يكد نبأ وفاة النبى ينتشر فى أطراف الجــزيرة العربية حتى كانت غالبية القبائل قد حزمت أمرها على وقف دفع الزكاة • وقد عرفت هذه الحركة فى التاريخ الاسلامى بعهد الردة • لكن الواقع على أى حال ان من المشكوك فيه أن تكون نسبة من اعتنق الاسلام من أهل الجزيرة العربية كبيرة ، فلقد فرضت شخصية محمد على العرب الاعجاب والاجلال والمهابة • أما وقد انتقل محمد الى الرفيق الاعلى فقد خيل للقبائل ان هذا الحدث قد انتهى وان فى وسعها أن تعود الى حياتها فى الجاهلية(١) •

وسبق لنا أن ذكرنا ان جيش اسامة بن زيد ابن النبى بالتبنى كان قد تأهب للخروج الى حدود الروم للثأر من مؤتة • وكان وضع أهـــل الردة من الخطورة كبيرا بحيث حمل حتى عمر صاحب المزاج المتحمس على أن يوجه النصح الى أبى بكر بالعدول عن ايفـــاد جيش اسامة ، وأن يحشد قوات المسلمين فى المدينة لمواجهة جميع التطورات • ولكن هذا الانسان الهادىء الوادع ظهر الآن فجأة بمظهر صاحب العزيمة الصادقة والتصميم المطلق اذ رد على عمر قائلا : « عدمتـــك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله (صلعم) وتأمرنى أن أنزعه» • وخرج اسامة من المدينة بجيشه فخلت من المحاربين وأحاطتها القبائل المعادية من كل جانب • وخرج أبو بكر نفسه الى ظاهر المدينة الى المكان الذى يرابط فيه جيش أسامة على بُعد عدة أميال منها لوداع الجيش وسار الى جانب أسامه يتحدث اليه •• وهتف القائد الشاب بالخليفة : « اما أن تركب أو أنزل الى جانبك » فرد الخليفة المهيب باصرار قائلا : «لا • لن أركب • فسأسير فى طاعة الله » ثم أوصى جيش أسامة وودعه وعاد الى المدينة(٢) •

---

(١) يؤكد المؤرخون العرب أن كثيرين من أعراب البادية في نجد واليمن لم يكونوا قد تأثروا بعد بأثر الاسلام . ولم تزك نفوسهم الزكاة المطلوبة . وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة الحجرات .. « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم . »

(٢) تجاهل المؤلف وصية أبى بكر لجيش أسامة مع انها تضع القواعد التى =

وفى غضون ذلك أخذ خطر جديد يبرز ماثلا يهدد المدينة فقد استفز ما وصل اليه محمد من سلطان عن طريق النبوة ، عددا من الاعراب على ادعاء النبوة ، وقام طلحة شيخ قبيلة بنى أسد الوافرة العدد والمرابطة فيما يسمى اليوم بجبل شمر فى شمال نجد بادعائها • وقد تحول اسم طلحة فى التاريخ الاسلامى الى طليحة استصغارا لشأنه لأنه ادعى النبوة لنفسه • والى الشرق من ذلك المكان قام دعى آخر للنبوة اسمه مسلمة • أطلق عليه المسلمون أيضا اسم مسيلمة تصغيرا له • وجاءت الانباء فى الوقت نفسه من كل مكان من أطراف الجزيرة العربية تقول ان الموت على أيدى الاعراب كان مصير معظم جباة الزكاة الذين كان النبى قد أوفدهم قبل وفاته للجباية وان بعضهم نجا من هذا المصير بأعجوبة •

وقد اكتفت القبائل البعيدة عن المدينة بطرد الجباة أما القبائل القريبة منها فقد خافت هجوم المسلمين ، اذا لم تبادر هى الى مهاجمتهم • ويبدو ان قبيلتى عبس وذبيان وكانتا تقيمان الى الشمال من المدينة كانتا أول من سارع الى العمل اذ حشدتا رجالهما فى مكان يدعى ذى القصة ويقع على بعد ثلاثين ميلا الى الشرق من المدينة (١) • وبعثتا بالرسل الى أبى بكر يعرضون الدخول فى الاسلام شريطة الغاء الزكاة • ولو كان أبو بكر من الساسة الماكرين لقبل العرض أملا فى كسب الوقت حتى يعود جيش أسامة من حملته فى الشمال ولكن أبا بكر أعاد الرسل قائلا : والله لو منعونى عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله عليه الصلاة والسلام لقاتلتهم على منعها •

ولم تمض أيام ثلاثة حتى كان بعض البدو يغيرون على مشارف المدينة ولكن القلة من محاربى المسلمين الباقين فى المدينة تمكنت من

= اتبعها المسلمون فى حربهم وهى قواعد تمثل النبل والتسامى اللذين ود المؤلف الا يطلع قراءه من الغربيين عليهما ليبقى على الصورة المشوهة التى أرادها وهذا نص الوصية : « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امراة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لماكله وسوف تمرون باقوام فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا اكلتم منها شيئا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا يدفعها باسم الله .

(١) اسم المكان الربذة والابرق . وقد أقام فيهما ابو بكر أياما بعد أن غلب عبسا وذبيان .

(المعرب)

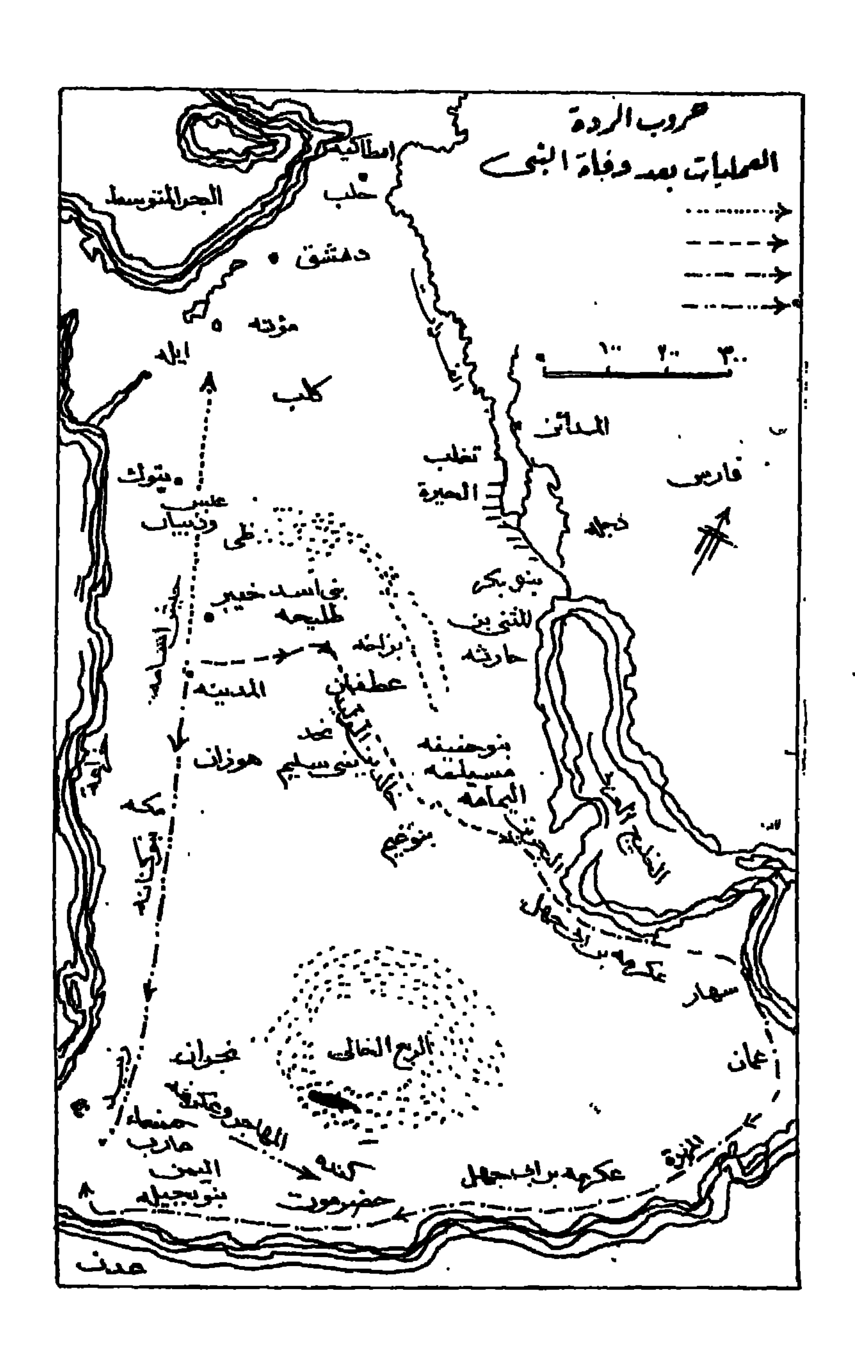
سدهم وتشتيت شملهم • وبدا ان الخليفة الهادىء الوديع قد انقلب الى أسد مزير • فقد سارع يحشد كل رجل يمكن له أن يحشده ويستطيع أن يحمل السلاح وخرج بقوته فى ظلمة الليل من المدينة ليداهم بهـا معسكر الاعداء فى ذى القصة عند الفجر ، وعلى الرغم من أن البدو كانوا يقضون حياتهم فى الحروب المستمرة الا انهم كانوا يفتقرون الى النظام العسكرى أو الى الحيـوية اللذين يفرضان عليهم أن يضـعوا الحرس والارصاد خارج مخيماتهم • وهكذا كان الهجوم مباغتا لهم كل البغتـة وسرعان ما ساد الاضطراب صفوف البدو ففروا لا يلوون على شىء من موقعهم ليضيعوا فى بطن الصحراء ، وبدا ان عنصرا جديدا قد أدخل على مألوف العرب فى الحرب وهو عنصر الحيوية والاندفاع الصارم •

وعاد أسامة على رأس حملته فى سبتمبر (ايلول) عام ٦٣٢ بعـد غياب شهرين عن المدينة يسـوق قطعانا من الابل والاغنام التى غنمها المسلمون وان كانت التفاصيل التى وصلت الينا عن العمليات الحربية التى قام بها قليلة للغاية (١) ويبدو أنه أغار على قبائل البدو لا على قوات الروم • ولم يكد الخليفة الذى لايكل ولا يمـل برغم بلوغه الستين من عمره يشعر بالاطمئنان على المدينة حتى راح يقود قواته متجاوزا بها ذى القصة ليهاجم عبسا وذبيان من جديد ، وقد رابطتا على بعد ثلاثين ميلا الى الشرق منزلا بهما هزيمة جديدة • وبرهن أبو بكر الهادىء الوديع بصورة غير متوقعة على أنه قائد لا يقل اندفاعا عن النبى • ومما يذكر ان عددا كبـيرا من المسلمين أتوا أبا بكر يناشدونه ألا يعرض نفسه قائلين : « انك ان تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فان أصيب بعثت بآخر » فقال : « والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى » •

ويقول المؤرخون العرب ان أبا بكر حشد بعد رجوع جيش أسامة احدى عشرة سرية تعمل كل منها وفى الوقت نفسه فى جهة من الجهـات لكفاح المرتدين لكن اذا صح ما قيل وان هذه الفكرة قد جالت فى خاطر

---

(١) يقول السيوطى في كتابه « تاريخ الخلفاء » نقلا عن أبى هـريرة ان جند أسامة لقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين ، ويقول الخضرى ان اسامة شن الغارة على بلاد قضاعة في شمال الجزيرة وكانت محميـة للروم وأخافهم وغنم منهم واستمر في بعثته اربعين يوما ثم عاد وكان هذا البعث مفيدا للمسلمين لان أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية • (المعرب)


حروب الردة
العمليات بعد وفاة النبي
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠
البحر المتوسط
انطاكية
حلب
دمشق
مؤته
ايله
كلب
المدائن
تغلب
الحيرة
فارس
دجله
تبوك
عبس وذبيان
طي
بني اسد خيبر
طليحه
بزاخه
بنو بكر
للمثنى بن حارثه
المدينه
غطفان
نجد
بني سليم
هوازن
بنو حنيفه
مسيلمه
اليمامه
مكه
بنو تميم
الخليج
عكرمه بن ابي جهل
سهار
عمان
الربع الخالي
نجران
صنعاء
مارب
اليمن
بنو بجيله
كنده
حضرموت
المهرة
عدن

الخليفة فانه لم يقم بتنفيذها على أى حـــال فقـــد اتبع الخليفة الطريق المعقول الصحيح وتمكن من اخضاع القبائل الثائرة واحدة بعد أخرى ٠

وكان المنهزمون من عبس وذبيان قد تراجعوا شرقا فى غضون ذلك وانضموا الى طليحة النبى الكذاب فى جماعته من بنى أسد وحشد أبو بكر كل ما أمكنه جمعه من محاربى المسلمين وأقام لهم معسكرا فى ذى القصة ٠ ووجه أبو بكر فى غضون ذلك رسالة الى المرتدين والعصاة قال فيها بعد أن بدأها باسم الله وذكر الرسالة والوفاة وبعد أن ذكر قوله تعالى : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا » راح يقول وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه ، أقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره واجابة للشيطان ثم قال انه قد بعث اليهم بجيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان وانه قد أمره بألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن اســـتجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى فقد أمره أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم شر قتلة ، وان يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد الا الاسلام ٠

ووكل أبو بكر أمر القيادة العامة الى خالد بن الوليد أكثر محاربى المسلمين دراية بشئون الحرب والذى حقق لقريش نصرها فى أحد وحقق للمسلمين انسحابهم الناجح فى مؤتة وهنا لا بد من أن نبين المفارقة بين أسلوب أبى بكر وأسلوب النبى فى الحرب فقد عهد النبى قبيل وفاته بقيادة الحملة الى الشمال الى أسامة بن زيد الذى لم يتجاوز العشرين من عمره رغبة منه فى أن يثأر الولد لأبيه الذى استشهد فى مؤتة والذى كان النبى قد رباه ٠ ومن هذا يبدو لنا ان اختيار النبى لقيادة هذه العملية الحربية استند الى أسباب عاطفية مجردة ، وهى الرغبة فى الثأر وتعلقه بذكرى ربيبـــه لا لأســـــباب عســـكرية عملية تتعلق بالكفاية ٠ ومن الصحيح أن يقال ان الجانب العاطفى من شخصية الرسول قد مكنه من أن يجمع قلوب أتباعه حوله ولكن الحرب فى حد ذاتها مهنة عملية صارمة لا شأن للعاطفة فيها ٠ وكان خالد بن الوليد قد اشترك فى جيش أسامة كجندى عادى فى صفوف المحاربين ولكنه ما كاد يعود ، ويصبح أبو بكر حرا فى اتخاذ قراراته ، حتى عهـــد الى أكثر قادته العسكريين تجربة ودراية بتولى قيادة قواته الرئيسية ٠

وسار خالد من ذى القصة على رأس جيش قوامه نحـــو من أربعة آلاف جندى الى نجد ، بعد أن وافق أبو بكر أخيرا على العودة الى المدينة

وتقدم خالد يطلب محاربة طليحة وقومه من بنى أسد الذين احتشدوا في بزاخة ، وهو ماء لقبيلة طيىء بأرض نجد . وكانت قبيلة طيىء قد انضمت الى طليحة فى عصيانه ، فلما علمت بمسيرة خالد اليهـا جاءته مستسلمة ــ وهذه القبيلة هى التى اشتهر أمرها فى الجاهلية بكرم شيخها حاتم الذى أصبح مضرب الامثال . وعسير علينا فى هذه الايام أن نكتشف المواهب التى جعلت من طليحة رجلا يستطيع ادعاء النبوة فتلتف حوله قبائل عدة وذلك لان مؤرخى العرب أضفوا على اسمه صورة ناطقة بالهزء والسخرية ولعلنا نستطيع الحصول على الصورة الصادقة عنه من عيينه شيخ غطفان ، الذى انضم اليه برجاله ، وقال قبيل المعركة يرد على بعض من عاب عليه هذا الانضمام .. « انه نبى منا ونبى منا خير من نبى من قريش ناهيك عن ان محمدا قد مات وان طليحة حى يرزق» (١)

ولم ينقل الينا مؤرخو المسلمين صـورة عن معركة بزاخة(٢)

---

(١) روى البلاذرى في كتابه فتوح البلدان أن عيينة بن حصن بن حذيفة كان مع طليحة على رأس سبعمائة من بنى فزارة من غطفان ، فلما رأى سيوف المسلمين قد استلحمت المشركين في بزاخة أتاه فقال له : اما ترى ما يصنع جيش أبى الفضل ؟ فهل جاءك جبريل بشيء ؟ قال : نعم . جاءنى فقال ان لك رحا كرحاه ويوما لا تنساه فقال عيينة أرى أن لك يوما لا تنساه ، يا بنى فزارة هذا كذاب ، وولى عن عسكره فانهزم الناس . ومن هنا يظهر أن انقلاب عيينة لم يكن عن انتهاز كما حاول المؤلف أن يقول وانما كان عن ظهور الحقيقة له وظهور كذب طليحة وشتان بين الانتهاز والرجوع الى الحق .

(٢) لقد تحدث مؤرخو العرب كثيرا عن معركة بزاخة خلافا لما يقوله المؤلف فقد روى السيوطى في تاريخ الخلفاء ان أبا بكر بعث خالدا وامره أن يقاتل الناس على خمس ، من ترك واحدة منها قاتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعا ، وهى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله واقامة الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت . وروى البلاذرى في كتابه فتوح البلدان أن ابا بكر عقد وهو بذى القصة لخالد بن الوليد على الناس وجعل على الانصار ثابت بن قيس وهو أحد من استشهد يوم اليمامة الا انه كان من تحت يد خالد وأمر خالدا أن يصمد لطليحة الاسدى وكان قد ادعى النبوة وهو يومئذ ببزاخة ، فسار اليه خالد وقدم أمامه عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم فلقيهما حبال بن خويلد فقتلاه ، وخرج طليحة وسلمة اخوه وقد بلغهما الخبر ، فلقيا عكاشة وثابتا فقتلاهما ثم التقى المسلمون وعدوهم واقتتلوا قتالا شديدا ، ثم وقعت حادثة عيينة (رويتها قبل قليل) وانهزم طليحة وظهر المسلمون واسر عيينة بن حصن فقدم به المدينة فحقن أبو بكر دمه وخلى سبيله ، اما طليحة فقد فر وأتى خالد بن رمان وابانين ، وهناك فل بزاخة فلم يقاتلوه وبايعوه لابى بكر ، وبعث بهشام ابن العاص الى بنى عامر بن صعصعة فلم يقاتلوه واظهروا الاسلام والاذان فانصرف منهم . ثم قصد خالد الى الغمر وهناك جماعة من بنى أسد وغطفان وغيرهم وعليهم خارجة بن حصن فقاتلوا المسلمين وقتل منهم جماعة وانهزم الباقون . (المعرب)

ويكفى أن نقول انه لما بدت بوادر الهزيمة على بنى أسد انسحب عيينة برجاله من غطفان من المعركة فانهـارت مقاومة بنى أسد وفروا وهرب طليحة مع أسرته الى سوريا(١) ثم عفا عنه الخليفة أخيرا بعد أن أسـلم وحسن اسلامه وأبلى بلاء حسنا فى حرب الفرس ٠ ويبدو أن الرجل كان كغيره من البدو خفيف الظل حاضر النكتة ٠ فقد حدث أن مر بالمدينة فى خلافة عمر بن الخطاب وقال له الخليفة مؤنبا اياه على قتل أحد شهداء المسلمين ابان حروب الردة ٠٠ اقتلت العبد الصالح عكاشه بن محصن ؟ فرد طليحة بهـدوء : « ان عكاشة بن محصن سعد بى وشقيت به وأنا أستغفر الله » .(٢) وقال عمر : «انت الكاذب على الله حين زعمت انه أنزل عليك ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم شيئا فاذكروا الله أعفة قياما فان الرغوة فوق الضريح» فقال : ياأمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذى هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضه فأسكت عمر ٠

وبعـد أن تمكن طليحة من الفرار استسلمت بنـو أسد فترك استسلامهم وانتصار المسلمين أثرا معنويا ضخما فى القبائل فسارع بنو سليم وهوازن الى الاستسلام ودفع الجزية ٠ وقد عفا الخليفة عن غالبيـة العصاة الا من عرف بأنه قتل مسلما ابان الردة فقد أنزل الخليفـة به العقاب على أساس العين بالعين والسن بالسن ٠ وقد أحرق بعض هؤلاء وهم أحياء ، ورجم بعضهم بالحجارة أو قذف به فى هوة أو صرع بالنبال٠

وكانت تعيش الى الجنوب الشرقى من أسد وغطفـان قبيلتا تميم وبنى حنيفة وما زال بنو تميم يعيشون فى هذه المنطقة ويعدون خلقا كبيرا فى واحاتها حتى يومنا هذا وان كان بعضهم قد ارتحل الى العراق حيث أقام الى الغرب من بغداد أما بنو حنيفة فكانوا أنصـار مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة وسارعت بطون عدة من بنى تميم الى خالد بن الوليد تعلن اذعانها له الا بنى يربوع الذين كان على رأسهم مالك بن نويرة فقد أبوا ورفضوا الاستسلام ٠

---

(١) يقول البلاذرى ان طليحة بن خويلد فر بعد معركة براخة فدخل خبـاء له فاغتسل وخرج فركب فرسه وأهل بعمرة ثم مضي الى مكة ثم أتى الى المدينة مسـلمة وقيل بل أتى الشام فأخذه المسلمون ممن كان غازيا وبعثوا به الى أبى بكر بالمدينة فأسلم وأبلى بعد في فتح العراق ونهاوند ٠

(٢) يعنى اسعدت عكاشة بقتلى اياه ٠ اذ استشهد ومضي الى الجنة اما انا فقد شقيت لان مصيرى الى النار ٠

(المعرب)

وكان مالك من أبرز زعماء القبائل اذ اشـــتهر بالشجاعة والكرم وقول الشعر وهى صفات ثلاث كان العرب يعجبون بها أشد الاعجاب • ويبدو أن مالكا صعب عليه أن يذعن لخالد لأن فى اذعانه انتقاصـــا من قدره فأمر رجاله من بنى يربوع بأن يتفرقوا وسار مع عائلته فى الصحراء ينهب أرضها نهبا • وكان أبو بكر قد أصدر أوامره الى خالد بأن يختبر المرتدين بأن يطلب اليهم آداء الشهادتين وأن يرقب سلوكهم عندما يدعو المؤذن الى الصلاة • ولهذا لم يكن هناك خطر كبير يهدد مالكا اذا رفض الاذعان لخالد شخصيا اذ لو أمسك به المسلمون فان فى وسعه أن يتـلو الشهادتين وأن يلبى نداء المؤذن الى الصلاة • ولكن خالدا آثر اتباع وسائل أكثر عنفا كما يبدو وبث سراياه مغيرة على القوم لجمع الهاربين وأخذ الغنائم منهم ، وجاءته احدى هذه السرايا بمالك بن نويرة وأهـله على الرغم من ادعائهم الاسلام • واحتج بعض المسلمين على خالد لقسوته مع مالك وأهله ، ولكن احتجاجهم لم يجد فتيلا اذ أمر بحبسهم ، ثم أمر بقتلهم فى الليل ، ولم تنقض أربع وعشرون ساعة على قتل مالك حتى كان خالد قد تزوج من امرأته •

ولم يكن ثمة أى خطأ فى الزواج من أرملة عدو قاتل فى المعركة وقتل • فلقد فعل النبى ذلك فى خيبر بعد قتل كنانة زعيم اليهود اذ تزوج من امرأته صفية فى نفس الليلة التى قتل فيها زوجها • ولكن كنانة لم يكن مسلما بينما قتل مالك بن نويرة وهو يدعى الاسلام ، ولا ريب فى أن عمل خالد بزواجه فورا من امرأته الجميلة ليلى قد أثار الشكوك فى ان مالكا قد قتل ليخلو الجو للقائد الظافر(١) •

---

(١) كان هذا الحادث مثار القيل والقال منذ ذلك اليوم وكان معظم الذين حملوا على خالد من المؤرخين من أصل غير عربى للطعن في خالد وتشويه سمعته • ولو كان خطؤه كما يحاول المؤلف ان يصوره من النوع الذى لا يغتفر لما تسامح معه ابو بكر وهو الخليفة المؤمن الصادق في اسلامه • وقبل مناقشة المؤلف مناقشة كاملة أود أن أورد الحقائق كما جاءت في كتب التاريخ العربى • كان النبى قد أمر على بطون تميم أمراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة ، فلما توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد الله عليـه فأرسل الزكاة الى أبى بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الامر • وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبينما هم على ذلك الخلاف اقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث • وكانت قد ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصـارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبى بكر فلما قربت من ديار بنى تميم ،•أرسلت الى مالك ابن نويرة سيد بنى يربوع ودعته الى الموادعة فوادعها وثناها عن غزو أبى بكر وحملهـا على أن تغزو بعض الاحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ، ثم أرسلت الى وكيع بن مالك

وقد ثار أهل المدينة الذين كانوا قد اعترضوا فيما مضى على أعمال خالد الصارمة القاسية لقتل مالك ، وسارع أبو قتادة وهو من صحابة النبى الاوائل الى المدينة يشكو خالدا الى أبى بكر الذى استدعى خالدا ليرد على الاتهـــام(١) وألح عمر بن الخطاب الذى كان يجمع بين صرامة خالد وقسوته وبين بساطة أبى بكر وتعلقه بالدين الحنيف على الخليفة ليسرح خالدا من قيادته • وقد أنكر خالد عند مجيئه الى المدينة انه قد أمر باعدام مالك • وأكد ان الحراس قد أساءوا فهم أوامره • ومهما كان رأى أبى بكر ـ المتناهى فى حكمته ـ فى سلوك قائده فانه كان على ثقة من

=سيد بني مالك بن حنظلة تدعوه الى مثل مادعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأى تميم يبدءون فسجعت لهم سجاح قائلة : أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب . فكانت بذلك خطوب في بطـون تميم وبينما هم على ذلك اذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد في جيوشه فتفرقت جموعهم وعادت الى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على ما فعل وتحير في أمره . وكذلك من فعـل فعله معه من رؤساء تميم غير ان من عداه ندموا ندما ظاهرا وأخرجوا الزكاة وأرسلوها الى خالد . وأما مالك فوقف وأمر بنى يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد أحدا فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءته بمالك في نفر من بنى يربوع فأمر بهم فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه . ولما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر ان في سيف خالد رهقا فان لم يكن هذا حقا حق عليه أن تقيده والحف عليه في ذلك. فقال أبو بكر هبه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك من خالد فبودى مالك وخذلان بنى يربوع عادت تميم كلها الى الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها الى أبى بكر .

من هذا التاريخ يمكن أن توجه الى مالك التهم التاليـة : (١) خيانة الامانة التى وكلت اليه وهى الولاية من رسول الله وخليفته من بعده (٢) مخالفة ركن أساسي من أركان الاسلام الخمسة وهى الزكاة لا بالنسبة الى نفسه فقط بل وبالنسبة الى كل من هم تحت امرته (٣) العصيان على الدولة ورفض الخضوع الى سلطانها (٤) الاعتراف بسجاح وهى نبية كاذبة والتعاون معها والانضمام اليها وفي ذلك ما فيه من مروق على الدين (٥) استخدام جيوش سجاح لمحاربة من ظل على صادق عهده مع المسلمين (٦) اتباع وسيلة العصيان المدنى مع جيش خالد والهروب من أمامه عن طريق الاختفاء (٧) التظاهر بالاسلام من جديد .

كل هذه التهم لا تدفع وأقل عقاب لها من الناحيتين الدينية والدنيـوية القتـل ولقد اعتبر خالد مالكا من المشركين بل هو أشـد جـريمة من المشـركين لانه مرتد ولا عدة لمشرك أو كافر على زوجته ، ومن هنا جاز له أن يتزوج من امرأته ليلة قتله . ولعله فعـل ذلك لسبب سـياسي كما ان رد أبى بكر وهو الحصـيف الرأى خير تبرئة له .

(المعرب)

(١) سبق أن بينت في هامش سابق أن أبا بكر لم يأخذ بالاتهامات التى وجهت الى خالد ولذا فقد أبقاه على قيادته ولم يستدعه الى المدينة كما يقول المؤلف .

(المعرب)

براعته في فنون القتال حتى انه قال لمنتقديه لن أشيم سيفا سله الله على الكفار ، وقد قبل الخليفة مبررات خالد الذى تبـادل قبل خروجه من المدينة عائدا الى قيادته بعض العبارات الحادة مع عمر بن الخطاب وهى عبارات قدر لها أن تترك نتائج سيئة فى السنوات التالية ٠

وكان الخليفة قد خول خالدا في غضون ذلك أن يواصـل تقدمه لمحاربة مسيلمة ورجاله من بنى حنيفة الذين كانوا لا يزالون يشقون عصا الطاعة ويمتشقون الحسام ٠ وكانت هذه القبيلة بطنا من بطون بكر بن وائل التى تعيش حياة الرعى فى الصـحارى الممتدة بين كثبان الدهناء الرملية وبين أدنى الفرات ٠ وكان بعض بنى بكر نصارى اسما على الاقل بينما كان البعض الآخر من عبدة الاوثان ٠ أما الآن فقد وقف بطن بنى حنيفة من قبيلة بكر الى جانب نبيهم مسيلمة وقفة صامدة وهو رجل ادعى النبوة حتى فى حياة النبى ، ثم ما لبث ان ادعى بعد وفاة النبى ان محمدا قد رأى فيه سيماء النبوة ٠

وتقول الروايات ان مسيلمة كان قد كتب الى النبى فى حيـاته يعرض عليه اقتسام العالم فيما بينهما اذ قال فى رسالته : « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ٠ أما بعد فان لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريشا لا ينصفون والسلام عليك » ويقال ان النبى رد عليه قائلا : « من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين والسلام على من اتبع الهدى » ٠

وكان أبو بكر قد بعث فى غضون ذلك النجدات من مكة والمدينة الى خالد الذى تقـدم الى الامام زاحفا على العدو ٠ والتقى الجيشان فى منبطح رملى يدعى « عقربة » فى اليمامة الى الجنوب الشرقى من نجد ٠ وكان بنو حنيفة البادئين بالقتال فشنوا هجوما ضاريا فى منتهى العنف على المسلمين حتى ان المسلمين انزاحوا عن مواقعهم ٠ وتمـكن البدو المتحمسون من اجتياح هذه المواقع وبينهـا خيمة خالد نفسه ٠ ولكن المسلمين ما لبثوا ان تجمعوا ونظموا صفوفهم وكان زيد بن الخطاب أخو عمر يحمل راية المهاجرين ويتقدم صفوفهم الى أن استشهد بسيوف البدو وتقدم ثابت بن قيس ، يحمل راية الانصـار على رأس رجاله الى أن استقبل الموت وسط صفوف الاعداء ٠ وظلت المعركة سجالا بين أخذ ورد سلاحها السيوف ٠ وزاد من حدتها هبوب رياح جنوبية تحمـل الرمال فتسفع وجوه المسلمين وأخذ الانحلال يدب فى صفوف بنى حنيفة بعـد عدة ساعات من القتال ، ويبدو أن المعركة قد دارت فى احدى الواحات

الصغيرة والكثيرة فى المنطقة اذ أن المنهزمين من بنى حنيفة ما لبثوا أن لجئوا الى حديقة نخيل مسورة واغلقوا على أنفسهم أبوابها • وأخيرا تمكن البراء ابن مالك وهو أحد المسلمين الأوائل من الانصار الذين بايعوا النبى تحت الشجرة وأبو دجانة وهو الذى حارب بسيف النبى فى أحد من الصعود الى السور عند الباب على ظهور رفاقهم • وقفز الفارسان وسط صفوف العدو وراء السور فمزقت سيوفهم أبادجانة فى لحظات • أما البراء فقد تمكن من الوصول الى الباب وفتحه • واقتحم المسلمون الباب كالعاصفة الجائحة • ودارت رحى معركة حامية الوطيس بالسيوف وسط أشجار النخيل التى تكتظ بها الحديقة • وكان بنو حنيفة يحاربون معركة يائسة اذ لم يكن لهم سبيل الى التراجع ولذا فقد قاتلوا وأظهرهم الى الأسوار • وأخيرا غلب المشركون على أمرهم وأبيدوا عن آخرهم •

وكان عدد الضحايا من المسلمين فى هذه المعركة أيضا أكبر منه فى أية معركة سابقة ولو حكمنا على المعركة على ضوء المقاييس الحديثة لتبين لنا أنها أول معركة جدية حقا اشتبك فيها المسلمون حتى ذلك التاريخ وانها أول ماذاقه المسلمون من طعم الحروب التى قدر لهم أن يواجهوها • فلقد خسرت قريش فى موقعة بدر تسعة وأربعين قتيلا من مجموع ألف محارب وخسر المسلمون فى موقعة أحد أربعة وسبعين شهيدا من مجموع سبعمائة مقاتل • أما فى هذه المعركة التى سميت بحديقة الموت فلقد قيل ان المسلمين خسروا نحوا من ألف ومائتى شهيد(١) • ولو افترضنا ان خالدا كان يقود خمسة آلاف رجل فان هذا العدد من الاصابات كبير للغاية لانه يشير الى عدد القتلى ليس الا • ومن المحتمل أن يكون عدد الجرحى قد عادل هذا الرقم أيضا وبذلك تكون الاصابات خمسة آلاف ، وعلينا أن نعترف على أية حال بأن الارقام التى يعددها المؤرخون العرب غامضة كل الغموض بحيث لا نستطيع الاعتماد عليها •

وقد قتل مسيلمة الكذاب نفسه فى المعركة وكان وحشى قاتل حمزة عم النبى فى معركة أحد هو الذى قتله • وكان وحشى قد تحول الى الاسلام كما تحول الكثيرون ممن يفوقونه منزلة ومكانة ، ولكن لم يكن

---

(١) اختلف مؤرخو العرب حقا في عدد من استشهد في المعركة فبينما يقول السيوطى ان عددهم كان لا يعدو السبعين • ذكر الطبرى ان عدد القتلى من الفريقين بلغ عشرة آلاف وقال الواقدى أن عدد شهداء المسلمين بلغ الفا ومائتين بينما قال غيره ان العدد بلغ الفا وسبعمائة •

(المعرب)

فى استطاعة وحشى هذا أن يدعى ان اسلامه قد حسن اذ انه ظل سكيرا مدمنا حتى نهاية حياته • وتقول الروايات ان وحشيا عنـــدما طعن فى السن كان يعرض سهما على زائريه ويهتف قائلا بهذا قتلت خير الناس وشر الناس •

وكانت حراجة الوضع فى نجد قبل معركة اليمامة أو حديقة الموت قد دفعت أبا بكر الى أن يبعث بامدادات قوية من المدينة الى خالد وكان فى هذه الامدادات عدد كبير من المهاجرين والانصار الذين خاضوا غمرة القتال مما أدى الى اصابة ومقتل عدد كبير من صحابة النبى ولقد كان بين القتلى عدد كبير من حفظة القرآن ، وآياته حتى تلك اللحظة محفـوظة فى ذاكرات الصحابة أو فى نتف مكتوبة هنا أو هناك دونها بعض من يحسنون القراءة والكتابة من العرب •

وكان بين شهداء المعركة زيد بن الخطاب شقيق عمر • ويقال انه عندما أتاه ولده عبد الله الى المدينة بعد انتهاء المعركة راح يعنفه على بقائه حيا بعد عمه زيد ويقال ان عبد الله رد على أبيه بأن عمه طلب الشهادة فاستجاب الله له وانه هو أى عبد الله ــ طلبهـــا ولكن الله لم يستجب لطلبه •

وسار خالد بعد المعركة بجيشه الى الهجر عاصمة مسيلمة وأوفد اليها أسيرا عنده من شيوخ بنى حنيفة ليطلب من أهلها التسليم ، وقد وعد خالد بأن يوفر على الحنيفيين أرواحهم شريطة أن يأخذ كل ما يملكونه وعاد الرسول ينقل الى خالد رد المدافعين مدعيا انهم يرون فى الشروط قسوة لا يستطيعون قبولها وانهم قرروا تبعـــا لذلك المضى فى القتال • ورأى خالد فى الوقت نفسه حشـودا من المسلحين تقـــوم على حراسة الاسوار • وكان الرسول فى الواقع هو الذى رتب الامر فجمع الشيوخ والنساء والاطفال وألبسهم الدروع والخوذ وطلب اليهم أن يصعدوا الى الاسوار ليظهروا عليها • وخدع خالد بما رآه ووافق على أن يقبـــــل تسليمهم مقابل الحصول على سلاحهم وذهبهم وفضتهم ليس الا • وبيع عدة ألوف من الاسرى كارقاء وبنى خالد بابنة شيخ بنى حنيفة مما أثار عليه غضب الخليفة الذى أعرب عن عجبه من تفكير خالد فى الزواج ودماء شهداء المسلمين لم تجف بعد (١)

---

(١) يقول البلاذرى ... وكانت الحرب قد نهكت المسلمين وبلغت منهم فقـــال مجاعة بن مرارة وهو أسير عند خالد من شيوخ بنى حنيفة لخالد : ان اكثر اهل اليمامة =

وأنهت معركة اليمامة التى دارت فى ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٢ ويناير (كانون الثانى) عام ٦٣٣ كل مقاومة فى نجد ومن القبائل الحليفة لبنى حنيفة ، وجاءت الوفود من كل مكان تعرض استسلام القبائل العاصية لخالد • وكان أبو بكر قد بعث برسالة الى خالد فى غضون ذلك يأمره بقتل جميع الذكور البالغين من أبناء القبائل الثائرة • ومن حسن حظ هذه القبائل ان الهدنة كانت قد وقعت عندما وصلت الرسالة الى خالد ، وقد قدر لبنى حنيفة أن يحاربوا بعد هذا التاريخ دفاعا عن الاسلام وأن يبلوا بلاء حسنا ولو قتل الالوف منهم تنفيذا لأمر الخليفة بعد هزيمتهم لكان هذا العمل خاطئا وخاليا من الرحمة •

ومن العسير علينا هنا أن نحلل الدوافع التى حملت أبا بكر الوادع الهادىء على أن يبعث بمثل هذا الامر الخالى من الشفقة ولكن أكثر ايضاح قريب للعقل هو أن أبا بكر كان مخلصا كل الاخلاص للنبى • ولقد سبق لنا أن رأينا كيف أصر على ايفاد أسامة بن زيد فى حملته على الحدود البيزنطية بعد وفاة النبى على الرغم من ان الجزيرة العربية كلها كانت ثائرة عليه ، وكان الوضع قد تغير الآن عما كان عليه عندما أصدر النبى أمره باعداد هذه الحملة ولكن أبا بكر رفض رفضا قاطعا الغاء الاوامر التى سبق للنبى أن أصدرها أو تعديلها • ولكن عندما كان ينشأ أى وضع جديد لا تعليمات سابقة للنبى فيه فان أبا بكر كان يستخدم فكره الخاص به ويتخذ ازاءه موقفا حاسما •

وكان من الظواهر البارزة فى سياسة النبى انه كان متسامحا مع

=لم يخرجوا لقتالكم وانما تتلتم منهم القليل وقد بلغوا منكم ما ارى وانا مصالحك عنهم • فصالحه على نصف السبى ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع • ثم ان خالدا توثق منه وبعثه اليهم فلما دخل اليمامة أمر الصبيان والنساء ومن باليمامة من المشايخ أن يلبسوا السلاح ويقوموا على الحصون ففعلوا ذلك • فلم يشك خالد والمسلمون حين نظروا اليهم انهم مقاتلة فقالوا لقد صدقنا مجاعة ثم ان مجاعة خرج حتى أتى عسكر المسلمين فقال : ان القوم لم يقبلوا ما صالحتك عليه منهم واستعدوا لحربك وهذه حصون العرض مملوءة رجالا ولم أزل بهم حتى رضوا بأن يصالحوا على ربع السبى ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع • واستقر الصلح على ذلك ورضي خالد به وامضاه وادخل مجاعة خالدا اليمامة فلما رأى من بقى بها قال خدعتنى يا مجاعة وأسلم أهل اليمامة فأخذت منهم الصدقة •

أما قصة زواج خالد الجديد وغضب الخليفة فلم اعثر عليها في كتب التاريخ العربى •

« المعرب »

الكفرة والمشركين وصارما لا يرحم مع المرتدين ولقد كان فى مكنة المشرك حتى ولو وقع أسيرا وهو يحمل السلاح ضد المسلمين أن يشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله وأن ينقذ بذلك حياته • وكثيرا ما شكا المؤمنون الى النبى فى حياته من حالات أعلن فيها بعض الناس اسلامهم دون أن يكونوا مخلصين فى اعلانهم هذا ، وكثيرا ما طارد المسلمون مشركا وقد فر من المعركة وكانوا على وشك تقطيعه بسيوفهم أو قتله برماحهم عندما يروح عدو الله هذا ينادى الا اله الا الله وان محمدا رسول الله فيجدون أنفسهم مضطرين الى أغماد سيوفهم وينجو المشرك من القتــــل وكثيرا ما كانوا يسألون النبى هل يمكن قبول هذا الشكل من الاسلام وحرمان المسلمين من الغنيمة ، لكن النبى كان يصر على أن مثل هؤلاء الناس يجب أن يعتبروا من المسلمين •

أما اذا عاد هؤلاء فارتدوا عن الاسلام بعد أداء الشهادة فان النبى كان يوقع بهم أشد العقوبة وهى عقوبة الموت وهكذا اذا اعتبر بنو حنيفة وانصارهم من المرتدين فان حكم النبى فيهم وفى أمثالهم قد صدر من قبل وهو الموت • وهكذا فاننــــا رأينا خليفته أبا بكر عزوفا عن استعمال صلاحياته فى موضوعهم أو الحكم عليهم حكما مخالفا وهذا عنى ان الخليفة كان يريد عقابهم بالموت دون تردد • ولكن من حسن حظهم ان النبى كان قد أمر بالوفاء بالعهد بعد صدوره وان على المسلمين الحفاظ على عهودهم ومن هنا كان لابد لأبى بكر أن يقبل عهد خالد وأن يقر شروط الهدنة التى عقدها مع بنى حنيفة ، ولذا فان الخليفة استقبل وفود هذه القبائل المرتدة المهزومة التى بعث بها خالد استقبالا طيبا عندما جاءته وأعادها الى ديارها سليمة معافاة •

وحرى بنا هنا أن نقول ان الملك ابن سعود أصدر أمره عندما ثارت قبيلة المطير على الحكم الوهابى فى عشرينات هذا القــــرن باعدام جميع الذكور من أفراد القبيلة المذكورة ، فلقد كان ابن السعود يعتبر العصيان السياسى نوعا من الردة(١) •

---

(١) مقارنة سخيفة كل السخف من جانب المؤلف بين حكم النبى من ناحية وحكم الملك ابن سعود من الناحية الثانية وبين المسلمين الاوائل والوهابيين المحدثين فلقــد كانت ردة القبائل العربية بعد وفاة النبى ردة على الاسلام نفسه وخروجا على حــكم اسلامى صحيح اما الثــورة على الســعوديين فثــورة وطنية شــعبية على حــكم دنيوى لايعمل بأوامر الاسلام ونواهيه • ومن هنا لايكون ثمة مجال للمقــارنة بين ردة بنى حنيفة فى صدر الاسلام وبين أية ثورة حديثة على الحكم السعودى

ويجد هذا الموقف جذوره فى الحقيقة الواقعة وهى أن محمدا كان انزعيم الدينى والحاكم السياسى لشعبه وان انحكومة أصبحت مرتبطة العرى بالقيادة السياسية فى الدول الاسلامية منذ عهد الرسول حتى القرن العشرين على الأقل · وكان هذا الربط بين الدين وبين الحكم السياسى سببا جوهريا فى سوء الفهم منجانب الأوربيين للبلاد الاسلامية · ويميل غير المسلمين الى نقد تدخل القيادات الدينية الاسلامية فى شئون السياسة وهم يتساءلون عن الأسباب التى تحول بينهم وبين حصر أنفسهم فى حقل التعليم الدينى · تاركين السياسة لأربابها لكنهذا الفصل بين الدين والسياسة وجهة نظر مسيحية · ولقد كان الدين والسياسة بالنسبة الى المسلم القديم لا بالنسبة الى القومى العربى الحديث أمرين لا ينفصلان · ومن هنا كان لابد أن تعتبر الثورة السياسية ردة دينية ·

***

كانت الصحارى الرملية الفسيحة فى النصف الجنوبى من الجزيرة العربية والمسماة بالربع الخالى دائما حدا يفصل بين مناطق عمان وحضرموت الساحلية وبين عرب نجد والأراضى الشمالية الخصبة فى سوريا والعراق وكانت هذه المناطق الواقعة على المحيط الهندىتتأثر كما تتأثر الآن بعوامل كثيرة تصل اليها من أماكن نائية فى فارس وبلوخستان والهند والملايو وافريقيا الشرقية · وكان وجود الصحارى الرملية وراء هذه المناطقسببا فى تطلعها دائما الى ما وراء البحار الى العالم الخارجى ، ومن هنا لم تلعب أى دور بارز فى تاريخ العرب الى الشمال · وقد تمكن خالد بانتصاراته فى أواسط الجزيرة من اخضاع أقوى القبائل المحاربة لحكم المدينة ولهذا فان فتوحات المناطق الواقعة وراء هذه الصحارى لم تكن أكثر من مجرد عمليات ثانوية فرعية اذا ما قورنت بالتيار الرئيسى للتوسع العربى ·

لكن اخضاع بنى حنيفة فى اليمامة لم يعن الا اخضاع شطر من مجموعة القبائل الكبيرة المسماة ببنى بكر بن وائل بن ربيعة وهى المجموعة التى تنتمى اليها قبيلة عنزه البدوية الحديثة الكبيرة · وكانت قبائل بكر تنتشر فى منطقة واسعة تمتد من الحيرة وأدنى الفرات الى السواحل الجنوبية للخليج العربىوكانت بكر تؤلف الجزءالاكبر منرعايا اللخميين من ملوك الحيرة فى أوج سلطانهم· ولكن يذكر القارىء ولا شك أنالنزاعكان قد نشب بين أمراء اللخميين وبين أكاسرة الفرس فى عام ٦٠٥ مما أدى الى انتداب أحد العمال الفرس لتولى حكم حوض الفرات الادنى مباشرة · وظل بنو بكر منذ ذلك التاريخ فى ثورة دائمة على الفرس وحققوا فى عام

٦٠٦ تقريبا أول نصر عربى على قوات الفرس عرف فى التـــاريخ العربى باسم يوم ذى قار ٠

وأدت هزيمة بنى حنيفة الفرع الى أن تجد قبيلة بنى بكر الأم نفسها بين شقى رحى أى بين قوتين سياسيتين عظيمتين ٠ وكانت هذه القبيلة تخوض منذ سنوات عدة حرب عصابات ضد الفرس ولكنها كانت تحس بالاطمئنان الى مؤخرتها اذ كانت قبائل نجد التى تعيش فى هذه المؤخرة مشغولة بمشاحناتها الدموية المألوفة ٠ لكن ظهور خالد بن الوليد الآن على رأس قوة ضخمة تعد بألوف المحاربين الفائزين فى جناحها الجنوبى وضعها فجأة بين نارين ٠

وكانت قبيلة بنى بكر شأنها فى ذلك شأن القبائل العربية الأخرى مجزأة ومنقسمة على نفسها وكان المثنى بن حارثة زعيم بنى شـــيبان من أبطال معركة ذى قار هو العامل فى اتخاذ القرار بتجربة حظهم مع المسلمين ٠ ويحاول مؤرخو العرب القدامى وهم من أبناء المدن الذين عاشوا فى تاريخ متأخر عن هذه الايام أن يعزوا كل عمل جرى فى هذه الآونة الى دوافع دينية ٠ ومن المحتمل كل الاحتمال أن يكون قرار بنى بكر فى هذه الآونة صادرا عن دوافع سياسية أكثر منها دوافع دينية ٠ فلقد كانت القبيلة فى نزاع دائم مع الفرس ٠ وفجأة رأت أمامها قوة ضخمة تتألف معظمها من البدو القبليين الذين لا يختلفون عن رجالها ٠ ترى هل من الأفضل لبكر أن تقاوم هذه القوة العربية الجديدة وأن تدخل معها فى صراع يؤدى الى دمارهما معا ، أو أن تضمن تأييدها لشن حملات جديدة على الفرس ؟ ولا ريب فى أن تأثير المثنى بن حارثة هو الذى أقنع بنى بكر بالانضمام الى المسلمين (١) والحصول على عونهم فى محاربة الفرس ٠ ولهذا سارع رئيس

---

(١) انا اختلف مع المؤلف في رايه هذا تمام الاختلاف . اذ لو صح ما قاله من أن بنى بكر قد انضموا الى الاسلام لدوافع سياسية وهى رغبتهم في محـاربة الفـرس فبماذا يفسر يا ترى انضمام بقية القبـائل العربية في الجزيرة وهى ليست في حالة نزاع مع الفرس . ان التفسير الصحيح هو أن النبى بدعوته الاسلامية قد أيقظ الوعى القومى عند العرب بعد أن اضفى على هذا الوعى عقيدة وحدوية جديدة هى الدعوة الاسلامية التى جاء بها وهذه الدعوة هى التى وحدت العرب تحت ظل قيادته . واذا كانت بعض القبائل قد ارتدت بعد وفاة النبى فان التفسير الصحيح لردتها هو أن الوعى لم يكن قد اكتمل ونضج بعد ، نظرا لقصر المدة . فلما عاد أبو بكر ووحد العرب ، كان الوعى قد اكتمل هذه المرة وأدى اكتماله الى الفتوحات الاسلامية العظيمة التى شملت العالم المعروف بأسره وهى فتوحات ما كانت لتتم لو أن انضمام القبائل العربية الى الاسلام كان عن انتهازية كما يحاول المؤلف ان يقول لتشويه تاريخنا العربى .

(المعرب)

القبيلة الى المدينة حيث استقبله الخليفة أبو بكر استقبالا حارا ٠

وقبل الشروع على أية حال فى الحديث عن الحرب مع الفرس أرى من الجدير بى أن أتحدث عن بعض العمليات الصغيرة التى وقعت قبل ان تنتهى حروب الردة نهاية كاملة ٠

***

واجه المسلمون بعض المقاومة فى البحرين بعد انتهاء معركة اليمامة ولكن الحرب ما لبثت أن انتقلت الى عمان وكانت بعض الجيوب الاسلامية ذات النفوذ قد ظلت فى المنطقة على الرغم من الردة التى شملت معظم أنحاء الجزيرة العربية ٠ وقد توجه عكرمة بن أبى جهل على رأس قوة من المسلمين ما لبث أن انضم اليها حذيفة وعرفجة وهما من شيوخ القبائل ٠ وتمت هزيمة العدو فى معركة واحدة واحتلت جيوش المسلمين المنطقة بكاملها ٠

ويذكر القارىء ان أبا جهل كان عم النبى (١) ٠ وانه كان من أشد أعدائه وقد قتل فى معـــــركة بدر ، لكن الوضع الآن تبدل كل التبدل وبدلا من أن ينظر زعماء مكة بعين الغيرة والحسد ، الى ما يقوم به قريبهم محمد الفقير من نشاط ٠ أخذوا يدركون الآن أن الاسلام أخذ فى تحويلهم بسرعة الى طبقة ارستقراطية حاكمة (٢) ٠ ولقد بات عكرمة بن أبى جهل الآن قائدا من قادة المسلمين كما أن أبا سفيان وأسرته أخذوا يحتلون الآن مكانة أعلى من مكانتهم السابقة ٠

وقد اختار الخليفة أبا حذيفة وهو من شيوخ قبائل المنطقة عامـلا له فى عمان ٠ ومن المحتمل أن يكون اختياره هذا دليلا على عـــدم اهتمام

---

(١) يعود المؤلف الى خطئه فيزعم أن أبا جهل كان عم النبى ولقد سبق لى أن وضحت في هامش سابق خطأ هذا الزعم .

(٢) لتشويه متعمد للتاريخ العربى لقريش لم تصبح في أى وقت من الاوقات طبقة ارستقراطية حاكمة كما يزعم المؤلف متخذا من اختيارالخليفة من قريش ذريعة لدعـم ادعائه ولقد اشترك العرب كلهم في تكوين الطبقة الحاكمة سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو الامويين أو صدر العصر العباسي . الى أن جاء الفرس وغيرهم من الاقوامالاسلامية فاشتركوا في الحكم مع العرب . وتحول الحكم الى اسلامى بدلا من أن يظل عربيا ولعل أبرز دليل على ذلك أن معظم القادة العسكريين والعمال (الولاة) لم يكونوا من قـريش بل كانوا من القبـائل العـربية الاخرى ، ومن هؤلاء المثنى بن حارثة الشيبانى وحـذيفة عامل عمان وموسي بن نصير ومحمد بن القاسم وطارق بن زياد وغيرهم كثير . ناهيك عن أن الاسلام كدين لم يفرق بين شخص وآخر الا بالتقوى .

المدينة بالمنطقة أو على عجز الخليفة عن ارسال قوة عسكرية ضخمة الى هذه المنطقة النائية(١) وكان عكرمة فى غضون ذلك يزحف عبر منطقة المهرة (٢) ويقال انه لاشىء يحقق النجاح كالنجاح نفسه ولا سيما عند القبائل المفتقرة الى الانضباط فقد أدت الانتصارات التى حققها خالد فى نجد وعودة الحكم الاسلامى الى الاستقرار فى عمان ٠ الى انضمام وحدات كبيرة من القبائل الى عكرمة بن أبى جهل فى زحفه نحو الجنوب ٠

وبعد أن تم اخضاع عمان والمهرة واجه المسلمون العصيان فى اليمن فلقد ظهر هناك فى حياة النبى مدع آخر من أدعياء النبوة يسمى الاسود العنسى ولكنه ما لبث أن قتل حتى قبل وفاة الرسول ٠ وقد انهارت حركته بعد موته وان تركت نجران واليمن فى حالة كاملة من الفوضى والاضطراب ولما كانت قبائل اليمن ورءوسها قد لعبت فيما بعد دورا كبيرا فى الفتوحات العربية ٠ فاننى أرى من المناسب أن أشير اليها هنا اشارة عابرة ٠

كان نصارى نجران قد عقدوا معاهدة مع النبى ٠ وقد جددها الآن خليفته أبو بكر ٠ أما أبرز القبائل التى ثارت الآن فقبيلة زبيد بزعامة عمرو بن معد يكرب الذى سنسمع عنه فيما بعد وقبيلة كندة بزعامة الاشعث بن قيس ٠ وكان شيخ آخر من شيوخ اليمن ويدعى قيس بن هبيرة المكشوح قد استولى على صنعاء (٣) ٠

---

(١) ما أتفه هذا التعليل الذى يتعمد التشويه . ان اختيار حذيفة لهذا المنصب دليل على أن الاسلام لم يعد يفرق بين عربى وآخر ولم يكن اختياره عاملا فى غسان الا ناجما عن صدق اسلامه ومكانته فى قومه ، وقدرته على ادارة المنطقة ادارة ناجحة .

(٢) ورد الاسم فى كتاب التاريخ العربى على انه النجير وليس المهرة كما يذكر المؤلف .

(المعرب)

(٣) يبدو أن المؤلف لم يفهم تمام الفهم حقيقة ما وقع فى اليمن كما انه اخطأ بين الاسماء فخلط بين قيس بن هبيرة المكشوح . وهو من المسلمين الذين ادوا دورا فى اليمن . وبين قيس بن عبد يغوث وكان من قادة العصاة وارى أن انقل هنا رواية البلاذرى ..... اذ قال :

« كان الاسود بن كعب العنسي قد تكهن وادعى النبوة فاتبعه بنو عبس وغيرهم فبعث اليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى السنة التى توفي فيها جرير بن عبد الله البجلى يدعوه الى الاسلام ، فلم يجبه . واتى الاسود صنعاء واخرج عنها عامل النبى ويدعى خالد بن سعد بن العاص وكان الاسود متجبرا فاستذل الابناء وهم اولاد أهل فارس الذين وجههم كسرى الى اليمن مع سيف بن ذى يزن واستخدمهم فاضر بهم وتزوج=

وأعلن جرير بن عبد الله · شيخ بني بجيلة في غضون ذلك خلاصه للاسلام · على أية حال لم تكن أية قبيلة من القبائل الكبيرة لتتبنى بجميع بطونها أية قضية من القضايا اذ تنفرد بعض البطون التي تعيش في الجبال برأيها المستقل وتشغل نفسها بالغزو والسلب من جاراتها ، وكانت هذه هي الحالة التي وصل اليها الجنـوب العربي الذي كان مزدهرا ومتحضرا في وقت من الاوقات · ويذكر القارىء أن الفرس كانوا قد استولوا عـلى أرض اليمن في عام ٥٧٤ وعينوا عليها مرزبانا ينوب عن كسرى في حكمها· ولكن انهيار الامبراطورية الفارسية بعد مصرع كسرى ابرويز · أدى الى انقطاع المواصلات مع فارس والى وقف النجدات عن المجيء الى اليمن وهكذا وجد الأبناء (أبناء المرزبان) ونسل الحاميات الفارسية أنفسهم مضطرين الى الدفاع عن أنفسهم فألفوا حزبا خاصا بهم شرع في التحالف مع بعض

= المرزبانة، امرأة ملكهم باذام فوجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قيس بن هبيرة المكشوح لقتاله وامره باستمالة الابناء وبعث معه فروة بن مسيك المرادى فلما صارا الى اليمن بلغتهما وفاة الرسول فاظهر قيس للاسود انه على رايه حتى خلى بينه وبين دخول صنعاء. فدخلها في جماعة من مذحج وهمدان وغيرهما ثم استمال فيروز بن الديلمى احد الابنـــاء وكان فيروز قد أسلم ثم أتيا باذام رأس الابناء او داذويه على قول بعض الروايات فأسـلم داذويه. ولقى قيس لباب بن ذى الجرة الحميرى فاستماله وبث داذويه دعاته في الابناء فأسلموا فتطابق هؤلاء جميعا على قتل الاسود واغتياله · ودسوا الى المرزبانة امراته من أعلمها الذى هم عليه وكانت شانئة له · فدلتهم على جدول يدخل اليــه منــه فدخلوا وقت السحر ويقال بل نقبوا جدار بيته بالخل نقبا ثم دخلوا عليه في السحر · وهو سكران نائم فذبحه قيس ذبحا فجعل يخـور خـوار الثور حتى أفـزع ذلك حرسـه · فقالوا ما شأن رحمن اليمن فبدرت امراته فقالت انه الوحى فقال الله أكبر فسكنوا وأمسكوا واحتز قيس رأسه · ثم علا سور المدينة حين اصبح فقال الله أكبر الله أكبر أشـهد ألا اله الا الله واشهد أن محمد رسول الله وأن الاسود كذاب عدو الله فاجتمع أصحاب الأسود فألقى اليهم راسه فتفرقوا اليه قليلا وخرج أصحاب قيس ففتحوا البـــاب ووضعوا في بقية أصحاب العنسي السيف فلم ينج الا من أسلم منهم وذكر بعض الرواة ان الذى قتل الاسود العنسي فيروز بن الاعمى وان قيسا اجهز عليه واحتز راسه وذكر بعضهم ان قتل الاسود كان قبل وفاة النبى (صلعم) بخمسة أيام فقال في مرضـــه : قد قتل الله الاسود العنسي قتله الرجل الصالح فيروز بن الاعمى وورد على أبى بكر بعد ما استخلف بعشر ليال وقال الرواة أيضا ان قيسا اتهم بعد ذلك بقتل داذويه وبلغ ابا بكر انه على وشك جـلاء الابنـاء عن صنعاء فأغضـــبه ذلك وكتب الى المهاجر بن أبى أمية حين دخل صنعاء وهو عامله عليها يأمره بحمـل قيس اليه فلما وفد عليـه أحلفه أبو بكر خمسين يمينا عند قبر النبى أنه ما قتل داذويه فحلف فخلى سـبيله ووجهه الى الشام مع المسلمين لغزو الروم ·

(المعرب)

القبائل لمحاربة بعضها البعض الآخر مما أدى الى مضاعفة الفوضى التى ضربت أطنابها فى البلاد بدلا من تقليلها •

وكان أبو بكر يفتقر الى المحاربين عندما وصلته أنباء الاضطراب فى اليمن اذ كان قد أوفد كل ما توافر لديه من المحاربين مع خالد بن الوليد لقتـــال مسيلمة الكذاب • لكن عزيمة أبى بكر لا تفل ، ولذا فقد أوفد المهاجر بن أبى أمية شقيق أم سلمة زوج النبى الى اليمن دون أية قوات تناصره •لإعادة الامن الى نصابه فىربوعه وعهد اليه بأن يجند منيستطيع تجنيدهم من أبناء القبائل المسلمة المخلصة بين اليمن وصـنعاء • وأوفد الخليفة فى غضون ذلك الى عكرمة بن أبى جهل،وكان فى عمان بأنيسارع بقواته عبر المهرة وأن ينزل من الساحل الى عدن لنصرة المهاجر •

وكانت القبائل الثائرة لحسن حظ المسلمين جريا على عاداتها البدوية فى حالة نزاع مستمر بين بعضها وبعض وان اتفقت فى ثورتها على الاسلام، ولذا فقد تعذر عليها الوصول الى خطة تشترك فى تنفيـذها وادرك عمرو ابن معديكرب أخيرا ان قواته من زبيد لا تستطيع الصـــمود أمام قوات المسلمين التى تفوقها عددا بعد ان وصل المهاجر على رأس قواته منالمجندين المسلمينالى اليمن • وبعد أن وصـل عكرمة بن ابى جهل على رأس قواته من عمان• ولما كان عمرو هذا من الغزاة المرحين الذين لا يحملون فىحياتهم هموما فقد شرع يفكر فورا فى طريقة تمكنه من عقد الصلح مع المسلمين ، وجالت فى خاطره فكرة وهيأن يختطف زميله فى الثورة قيس بن المكشوح (الصحيح قيس بن عبد يغوث) ونفذ عمرو خطته واقتاد الى المهاجر قيسا زميـله فى الردة يرسف فى اغلاله ليصـالح المسلمين مظهرا بعمله هـذا اخلاصه للمسلمين (١) لكن مهاجرا لم يخدع بمناورة عمرو بن معد يكرب فقيده بدوره وبعث به مع صاحبه قيس الى أبى بكر فى المدينة • ولكن الخليفة عفا عنهما وبعد أن آخذ منهما قسما بالولاء والاخلاص اعادهما الى قبيلتهما •

وبعد أن تم اخضاع كبار الثائرين فى اليمن جمع المهاجر وعكرمة قواتهما عند مأرب وراحا فى ربيع عام ٦٣٣ يتجهان معا شرقا لقتال قبيلة كندة وشيخها الاشعث بن قيس ، وكان هذا الشيخ قد مضى الى المدينة قبل عامين ومعه زعيم آخر من زعماء كندة هو وائل بن حجر صاحب القصة

---

(١) لم يذكر الطبرى فى تاريخه هذه الرواية •

(المعرب)

الشـهيرة التى سبق لى أن رويتهـا مع معاوية • وكان الاشعث قد كرس اخلاصه للاسلام فى هـذه الزيارة بخطوبته الى أخت ابى بكر • لـكنه لم يستطع بعد وفاة النبى مقاومة الاغراء بالردة والاستقلال عن المدينة •

وحاصره مهــاجر وعـكرمة فى قلعته فى النجير • وقاتلت كندة قتالا باسلا وخرجت من الحصن مرات عدة تحاول اقتحام صفوف المسلمين ولكنها فشلت وأخذت مؤونتها تنقص بصورة تدريجية ، وشرع الأشعث الداهية يفاوض عكرمة على الصلح ووافق على تسليم القلعة شريطة أن يعطى المسـلمون الامان لعشرة رجال ، واقر قائدا المسـلمين الشروط وفتحت أبواب الحصن وخرج الأشعث الى المسلمين بالرجال العشرة الذين أعطوا الامان وأمر مهاجر بعدم التعرض لهؤلاء العشرة • أما من تبقى من الرجال فقد أمر بقتلهم وأمر بالنساء والاطفال فبيعوا على أنهم من السبى •

واكتشف مهاجر أخيرا أن الأشعث لم يضع اسمه بين العشرة وكلهم من أسرته وأقاربه فأصدر أمره بقتل الأشعث ، ولكنه ما لبث أن اقنع بتعديل الأمر وبايفاد زعيم المرتدة الى الخليفة مقيدا بالسلاسل ولم يكتف أبو بكر بالعفو عن الاشعث وانما سمح له باتمام زواجه من شقيقته التى كان قد خطبها • (١)

---

(١) تختلف رواية المؤرخ عن الروايات العربية بعض الاختـلاف • فقد روى البلاذرى في فتوح البـلدان ان أبا بكر الصـديق ولى زياد بن لبيـد أمر كنـدة وكان هذا رجلا حازما صلبا فانقضت عليه كندة كلها وقتلت عددا من المسـلمين ووقعت معركة بين زياد وبين كندة بقيادة الاشعث فأصيب ناس من المسلمين وأرسل زياد الى الخليفة يستمده فكتب أبو بكر الى المهـاجر بن أمية يأمره بانجاده • ولقى المهـاجر وزياد الاشعث بن قيس ففضا جمعه وأوقعا بأصحابه وقتلا منهم مقتلة عظيمة ولجأ الاشعث الى النجير وهو حصن لهم فحصرهم المسلمون حتى جهدوا فطلب الاشعث الامان لعـدة منهم وأخرج نفسه من العدة وذلك أن معدان بن الاسود أخذ بحقوه وقال : اجعلنى من العدة فأدخله وأخرج نفسه ونزل الى زياد والمهاجر فبعثا به الى أبى بكر فمن عليـه وزوجه أخته أم فروة بنت أبى قحافة ، فولدت له محمدا واسحاق وقريبة وحبـابة وجعدة •

ولما تزوجها نزل الى السوق فلم ير بها جزورا «صغير الابل» الا كسف عرقوبيها وأعطى ثمنها وأطعمها الناس وأقام بالمدينة ثم سار الى الشـام والعـراق غازيا ومات بالكوفة وصلى عليه الحسن بن على بن أبى طالب •

(المعرب)

وباخضاع حضرموت تم اخضاع الجزيرة العربية كلها للاسلام ثانية ولا ريب فى أن خضوعها هذه المرة كان أقوى من سابقه ففى المرة الاولى تم الخضوع عن طريق وصول الوفود الى المدينة معلنين اسلام قبائلهم ، دون أن تكون هناك تجربة للقوة ، أما الآن فقد جربت القوى بعضها وهزم العصاة فى كل طرف من أطراف الجزيرة واضطروا الى الاستسلام ·

واستغرقت حروب الردة سنة واحدة بعد وفاة رسول الله وأصبحت الجزيرة العربية بعد انقضاء هذه السنة متحدة فى ظل حكم قوى واحد ، وراح المسلمون وقد انتشوا بحماسة الايمان الدينى اللاهب وبالتطلع الى المفاخر والأمجاد والاسلاب يتطلعون الى ميادين جديدة تبعد عن بلادهم يأملون فى احتلالها والسيطرة عليها ·

تواريخ مشهورة

وفاة النبى واختيار أبى بكر خليفة له	يونيو (حزيران) ٦٣٢
حملة اسامة	من يوليو (تموز) الى سبتمبر (ايلول) ٦٣٢
أبو بكر يشتت شمل القبائل المرتدة فى ذى القصة	أغسطس (آب) ٦٣٢
موقعة بزاخة وهزيمة طليحة	أكتوبر (تشرين الاول) ونوفمبر (تشرين الثانى) ٦٣٢
معركة اليمامة وهزيمة مسيلمة	ديسمبر (كانون الاول) أو يناير (كانون الثانى) ٦٣٣
اخضاع عمان	فبراير (شباط) أو مارس (اذار) ٦٣٣
اخضاع اليمن وانتهاء حروب الردة	مايو (ايار) – يونية (حزيران) ٦٣٣

شخصيات مشهورة

أبو بكر	خليفة المسلمين
على بن ابى طالب عمر بن الخطاب أبو عبيدة الجراح	كبار أعوان الخليفة
طليحة مسيلمة	من مدعى النبوة
خالد بن الوليد	كبير قادة المسلمين
المثنى بن حارثة	شيخ بنى شيبان
عكرمة بن ابى جهل	من قادة المسلمين
عمرو بن معد يكرب	شيخ بنى زبيد فى اليمن ـ ارتد ثم عاد فأصبح من قادة المسلمين
جرير بن عبد الله	شيخ بنى بجيلة فى اليمن ظل على ولائه للمسلمين ثم أصبح من قادة جيوشهم



سوقية القرصان

« .. كانوا دائما من الشعوب المحاربة ، لا يكادون يهدأون الى الصلح مع بعضهم البعض أو مع جيرانهم . وقد تفوقوا في قيادة الخيول واستخدام النبال والسيوف والرماح . كل ما يعرفونه هو الشعر . ففيه مجال عبقريتهم .

ـ أو كلى ـ تاريخ العرب

***

« يعيش البدو حياة فريدة . فلا أسوار تقيهم . ومن هنا يكون اعتمادهم على أنفسهم في حماية أرواحهم . هم دائما مسلحون ، وعلى أهبة ، حريصون من الخطر ، واثقون من شجاعتهم وقوتهم . ولقد باتت الشجاعة من أعمق مزاياهم . أما الجرأة فمزيتهم الثانية» .

ـ شارل عيساوى في كتابه فلسفة العرب للتاريخ ـ مقتبسة من تاريخ ابن خلدون .

***

« والشيء الثابت المؤكد هو أن من يسيطر على البحر ، يكون مطلق الحرية فهو الذى يقرر ، هل يخوض حربا كبيرة أو صغيرة طبقا لمشيئته ؟ » .

فرنسيس بيكون



أسفرت النهاية الناجحة للعمليات الحربية فى اليمن وحضرموت عن نهاية ما سمى بحروب الردة • فقد تم اخضاع الجزيرة العربية الى الجنوب من حدود الروم وفارس اخضاعا كاملا • ومن الطريف آن نلاحظ هنا أن الجزء الاكبر من هذه المنطقة كلها • كان قد خضع لسلطان محمد فى حياته، دون أن يضطر هو الى استخدام القوة وبالطبع لم تكن الحملات الصغيرة التى شنها المسلمون فى حياة النبى ، والتى لم تكن مؤثرة فى غالبيتها هى التى دفعت القبائل العربية الى الاذعان والخضوع • فالشىء الذى لا ريب فيه ولا جدال هو أن قبول معظم هـذه القبائل ، دفع الجزية الى المسلمين دون اكراه ، راجع الى شخصية محمد ، التى لا مثيل لها • وقد يكون صحيحا القول بأن خضوع هذه القبائل كان فى بعض الحالات أو فى كثير منهـا ، اسميا ، وقد تم عن طريق وصول شيوخها الى النبى فى المدينة على رأس وفود من هذه القبائل ولكن تأثير النبى على هؤلاء الشيوخ الذين كانوا يعتزون باستقلالهم وزعاماتهم ، كان كبيرا ولا ريب • ولكن لما كان معظم هؤلاء قد نكثوا بعهودهم فور سماعهم بوفاة النبى فان هذه الحقيقة تقيم الدليل على أن الاسلام لم يعن لهم أكثر من محمد • وقد يكون من الاكاديميه كل الاكاديمية ، أن يتساءل المرء عما كان سيحدث حقا لو أن النبى قدر له أن يعيش عشر سنوات أخرى • فهل كان فى وسعه أن يحافظ على سيطرته على هؤلاء العرب وأن يوطد دعائمها بنفس الوسائل السلمية التى طبقها آنذاك ونفس ما تميز به من سمو شخصى ؟• فمن المظاهر البارزة فى الطبيعة العربية اليوم كما فى الامس كرههم للسلطان وميلهم الدائم الى الجيشان والاضطراب ، ولذا فهم لا يرضون دائما عن أية حكومة تحكمهم • ومن هنا يكون استعدادهم الدائم تقريبا للترحيب بقلبها ، لتجربة نظام جديد على الاقل • ويجعل هذا الاضطراب المستمر والرغبة عن التبعية ، من البلاد العربية مناطق سهلة على الفتح والغزو ، ولا سـيما اذا حصل الفاتح على التعاون من جانب الساخطين من أهل البلاد • ولكن لا يكاد الفاتح يصبح حاكما، حتى تعود الروح التى سهلت له اجتياح البلاد واغتصاب السلطان الى العمل ثانية ولكن ضده هذه المرة فلقد أصبح هو الحكومة الآن •

وسرعان مايمل العرب من حكمه ويشرعون فى البحث عن بديل جديد (١) •

ولقد كان محمد طيلة القسم الأكبر من عهد رسالته يكافح فى سبيل البقاء ولم يتوج النصر جُهوده التى بذلها الا فى السنوات الاربع الاخيرة من نبوته ، ولم تصل وفود القبائل من كل مكان لبيعته الا فى السنتين الأخيرتين من حياته • وليس من المعقول أن تغدو جميع القبائل فى هذه الفترة القصيرة صادقة فى اسلامها • ومن هنا يستطيع المرء أن يقول ان ما ابدته هذه القبائل من اذعان لم يكن مصحوبا بمشاعر دينية بليغة • ولذا فان الردة كانت متوقعة فور انتهاء أمر تلك الجدة التى أدت الى تلك الثورة •

ومن المعروف عن العرب أنهم قوم شديدو الملل • ولكن فيهم أيضا مزية أخرى لا يعرفها عنهم الناس الا قليلا • فعلى الرغم من جيشانهم العاطفى وعدم اذعانهم بسهولة الا أنهم قادرون فى كل حين على تقدير كل مشاعر الحب والولاء للزعيم الذى يحترمونه ، ولكن هذا الحب والولاء ، لا يمكن أن يكرسا فى الجزيرة العربية الا للشخص الذى يلقاه الناس فعلا • ولا ريب فى أن النفوذ الضخم الذى حققه محمد عند العرب هو من هذا النوع ، ولذا فقد ظل الحب والولاء الشديدان مقتصرين على الاشخاص الذين اجتمع بهم وتحدث اليهم ولم يكن فى امكان هذا النفوذ أن يؤثر طويلا على القبائل النائية من أمثال بنى بكر أو قبائل عمان وحضرموت • ولو قدر للنبى أن يعيش عشر سنوات أخرى فان جاذبيته الشخصية كانت كافية لاكتساب عدد أكبر من الانصار من أولئك الذين قدر لهم أن يعرفوه،

---

(١) يحاول المؤلف في هذه الصورة التى يرسمها للعرب ان يظهرهم بمظهر القلب الذين لا يستقرون على حال ، والذين يرغبون في تغيير حاكميهم دائما . وهذه النظرة مستمدة من واقعين ، الواقع الاول هو ايمان المؤلف بالعنصرية اذ ليس هناك من مزايا أو طبائع لشعب دون آخر ، وكل ما يقال في هذا الموضوع انما هو عنصرى الطبيعة والنزعة . وثانيهما تصوير المؤلف لانطباعاته الشخصية بالنسبة الى الظروف التى عاش هو بين العرب فيها ، كممثل لنظام استعمارى بغيض ، يعمل دائبا على تقوية هذه الروح عند من يتصل بهم من العرب ليستغلها في تحقيق أهدافه والحفاظ على مصالح دولته الاستعمارية . ولعل خير مايدحض هذه الصورة الزائفة التى رسمها المؤلف ، عن العرب المعاصرين ، هو التفاف العرب الاحرار في جميع أرجاء الوطن العربى حول مثل الرئيس عبد الناصر وأهدافه ، لما يرون فيها من تطابق مع أسمى ما يؤمنون به من مثل واهداف .

(المعرب)

لكن اللجوء الى القوة كان أمرا لا مناص منه فى المناطق النائية حيث كان لا بد من اجراءات تأديبية فى فترات غير منظمة وفى مناطق مختلفة • ولو عاش النبى هذه المدة الأطول • لما ثارت الجزيرة العربية كلها فى وقت واحد • كما وقع فعــــلا ابان الردة بعد وفاة محمد ، ولما وقعت الردة عـــلى ذلك النحو العام الذى وقعت فيه • وبالنظر الى تمكن خالد من هزيمـة المرتدين بعد أن أعمل فيهم القتل والذبح فان سلطة المدينة على الجزيرة العربية أصبحت الآن أقوى مما كانت عليه فى أيام النبى •

لكن الخليفة واجه عددا من المشكلات • سواء أكان قد توقعها أم لم يتوقعها • فلقد كانت لقبائل البدو طريقتها الخاصة بالحياة التى عاشتها مئات السنين بل ألوفها • ولقد كانت الحروب القبلية التى لا تنتهى القاعدة فى وجود أفرادها العاطفى • ولم تكن الخسائر فى أية معــركة ، كبيرة • ولكن لما كانت العمليات الحربية لا تتوقف مطلقا فان مجموع الخسائر فى الرجال يصبح عظيما • وعلى الرغم من أنهم كانوا جميعــا من الفقراء فقرا هائلا • وذلك بالنسبة الى مقاييسنا على الاقل فلقد كان الهدف من حروبهم التى لا تنتهى وخصوماتهم ، الحفاظ على الشرف أكثر من الحصول على الكسب• وكانت حياة المرعى فى هذه الصحارى الشاسعة رتيبة الى حد كبير • وكان ما فى الغزوة من حماسة ثائرة ومن مجد ، منفذا عاطفيا يعوض على أهل الصحراء جمود حياتهم الصحراوية ، تماما كما تعمل الافلام السينمائية والقصص البوليسية ومجالس الشراب ، والتدخين، على التخفيف من رتابة الحياة فى المدن الصناعية الحديثة أما الدين فلم يكن بالشيء الذى يكثر البدو من الاهتمام به وكان بعضهم فى القرن السابع الميــلادى من النصارى ، ولكن نصرانيتهم لم تحل بينهم وبين متــابعة الحروب • وعلى الرغم من أن الاسلام فرض على اتبــاعه محاربة الكفرة ، الا أنه فى الوقت نفســه حظر الحروب بين المسلمين حظرا كاملا • وهــكذا كان على القبائل العربية بعــد اعتناقها الاسلام أن تتوقف عن محاربة بعضها بعضا •

ولا ريب فى أن مثل هــذا الوضع ، كان يفرض على أى ســياسى أو فاتح عظيم أن يتبنى فكرة جريئة وهى توحيد العرب ليهاجم بهم العالم غير العربى وليغنم من هذا العالم الاسلاب والغنائم • لكن أبا بكر لم يكن من رجال السياسة الافذاذ • ولا من الذين تتجه طبائعهم الى الفتح ، بل كان رجلا بسيطا متواضعا ، كرس نفسه لذكرى نبيه ، ولخدمة دينه ، ومن هنا حق لنا أن نستنتج أن الفتوحات العربية الــكبرى ، لم تكن ثمرة تخطيط

وتصميم • وقد حدثت هذه الفتوحات تلقائيا من نفسها نتيجة الظروف العارضة (١) •

وهكذا كانت الروح القتالية المحـــاربة عند العرب • التى وجدت نفسها الآن أسيرة أوامر الدين التى تحظر على المسلمين قتـــــال بعضهم البعض والتى جدت السلطة الكافية المطلقة لانفاذها ، هى العامل الاول فى التوسع الاسلامى• أما العامل الثانى : فكان مجرد صدفة عارضة حقا•

---

(١) يحاول المؤلف في قوله هذا «محاولة فاضحة» : تشويه التاريخ الاسلامى فهـو ينكر على أبى بكر رضي الله عنه صفة السياسة وصفة القيادة ، مع أن الاعمال العظيمة التى قام بها في عهد خلافته القصير تقيم الدليل على ما تمثل به أبو بكر من صـــفات اهلته لان يكون الخليفة الاول للنبى العظيم . واذا كان أبو بكر قد ظهر بمظهر الانسان الرقيق ذى الوجدان النقى والعاطفة الحيية ، فانه ظهر في الوقت نفسه بمظهر الانسان الصادق العزيمة الذى يبحث في الامر على قدر ما يتهيأ له من طرق البحث ويستعين بآراء غيره ان كان شوريا فاذا اتضح له السبيل عزم ، ومتى عزم لا يثنيه شيء عما عزم عليه حتى اذا راى الجبال أمامه تريد صده ، حاول أن يفتح له منها طريقا . وهاتان الصفتان لا تكونان فعلا الا في السياسي العظيم والقائد الكبير ، وهذا شأن أبى بكر الذى اظهر اول ما اظهر من صدق العزيمة في بعث جيش أسامة على الرغم من الانباء التى بلغته عن ردة العرب ، وعلى الرغم من نصائح بعض مشيريه بتأخير هذا البعث ولو تردد أبو بكر في الامر ، وأخر البعث لشرع للناس لاول مرة مخالفة أوامر النبى . ولو أذعن لالحاف عمر ، باستبدال أسامة بقائد آخر أكثر منه خبرة بشئون القتال ، لسن سنة بمخالفة ما جاء به نبيه . وفي موقفه هذا ، ومواقفه البطولية في حروب الردة ، وايفاده الجيوش لغزو امبراطوريتى الروم والفرس الدليـــــل الكافي على عظمة أبى بكر كقـــائد وزعيم ، كما أن في وصيته لجيش أسامة « وقد سبق لى أن أوردتها في هامش سابق » الدليل القاطع على فراسته السياسية وعظمته كسياسي .

أما وقد هدمنا هذا التشويه المقصود الذى حاوله المؤلف لتاريخ الخليفة الاول ولشخصيته . فان في وسعنا القول بأن استنتاجه الخاطىء بأن الفتوحات الاسلامية كانت ثمرة مصادفة عارضـــة . هو استنتاج واهم أو تشويه آخر متعمد لتاريخنـــا العـــربى .

فالواضح كل الوضوح أن الحروب التى شنها العرب على الامبراطوريتين انمـا كانت حرب تحرير قصد منها تحرير المناطق العربية التى تقع على تخوم هاتين الدولتين والتى يحكمها أمراء الغساسنة واللخميين اتباع الروم والفرس وعملائهم . ومن البـــديهى أن تتحول حروب التحرير هذه ـ بعد أن تبين للمنتصرين العرب في مســـتهل الحملات ، ضــعف الامبراطوريتين الكبـــيرتين ـ الى حرب عامة شاملة ، تهـــدف الى نشر الدعوة الاســـلامية ، والى جميـــع الاهداف الاخرى التى اتصلت بالحروب منذ أقدم العصــور حتى يومنا هذا .

(المعرب)

وهو ان امبراطوريتي الروم والفرس كانتا قد ألفتا قبيـــل هذه الفترة المملكتين العربيتين الصغيرتين اللتين تقومان في اكنافهما ، وحاولتا أن تحكما مباشرة مناطق الحدود التي تؤلف أراضي هاتين المملكتين • وأسفر هذا الوضع عن تحول عرب الحدود من حماة لمداخل هاتين الامبراطوريتين كما ظلوا قرونا طويلة ، الى أعداء لحكامهم السابقين • ولقد سبق لنا ان رأينا قبيلة بني بكر ، وقد اشتبكت في معارك متدابرة مع الفرس • كما رأيناها تنتصر على جيش الفرس في معركة ذي قار •

وكان الامبراطور الروماني هرقل ، في غضون ذلك ، وبعد معركة مؤتة قد أوقف بصـــورة مفاجئة دفع الجعول والمعونات المالية التي كان يدفعها هو واسلافه من قبل لشيوخ القبائل العربية المرابطة على الحدود • ويبدو ان عمله هذا لم يكن ناجما عن عدم رضاه عن سلوك هذه القبائل • وانما كان ضرورة اقتضتها الاجراءات الاقتصادية التي تتخذ بعد الحروب الطويلة عادة لاصلاح ما أفسدته الحرب • وقد يكون من السهل على المرء أن يعرف الحكمة والصواب بعد حدوث أي حادث ولكن في وسع المرء أن يقول أن عمل امبراطور الروم ، كان من أكثر الاعمال ـ التي يرتكبها أي انسان ـ حماقة • وهكذا غدت بعض القبائل العربية ، في المنطقة ، المقيمة في غزة ومؤاب (الكرك الحديثة) ودومة الجندل وايلة (العقبة) معادية للامبراطورية ولقد سبق لنا ان رأينا النبي يعقد اتفاقات ودية مع امراء ايلة ودومة الجندل ، وهم بعض من أوقف الامبراطور دفع معوناته المالية اليهم(١) •

ولم تكتف امبراطوريتا الروم والفرس باثارة عـــداء أتباعهم من

---

(١) جانب التوفيق المؤلف في هذه الصـــورة الزائفة التي حاول تصـــويرها • فهو يريد ان يقول ان القبائل العربية المقيمة على حدود امبراطوريتي الروم والفرس ، قد انقلبت على هاتين الامبراطوريتين لاســـباب مادية ليس الا اي بعـــد وقف الروم مساعداتهم المالية لهذه القبائل • ولو صحت فرضية المؤلف الخاطئة ، لما انقلبت هـــذه القبائل الى الصف الاسلامي ، بعد ان فرض عليهم المسلمون الجزية اثر غـــزوة تبوك كما سبق لنا ورأينا من قبل ، وهو ما اعترف به المؤلف نفسه • اذ ليس من المعقول لو كانت الدوافع مادية ليس الا أن تنضم هذه القبائل الى صف من فرضـــوا عليهم الجزية لمحاربة من قطعوا المعونة ، دون أن يفرضوا أية جزية • ولكن هوى المـــؤلف جعله يتجاهل حقيقة الوجـــود القومي ، والدوافع القوميـــة لينسب كل شيء الى الدوافع المادية •

(المعرب)

العرب فحسب بل ان الحروب التى استمرت بينهما طيلة ستة وعشرين عاما والتى انتهت فى عام ٦٢٨ قد انهكت قواهما ، وأتعبتهما • وكانت بيزنطة ، وهى التى انتصرت فى النهاية ، قد وصلت الى مرتبة الافلاس • وأخذت تعانى ممانسميه اليوم بالركود الاقتصادى الذى يخلف الحروب • ونحن نعرف فى أيامنا هذه صادق المعرفة ما تخلفه الحروب الطويلة فى نهايتها من ردود فعل تحمل طابع الانهيار الروحى والعقـلى ، أما فارس المهزومة فكانت فى حالة ثورة وفوضى كاملين •

ومن هنا لم يعرف التاريخ احداثا عارضة تشبه فى بروزها تلك التى تمثلت فى اجهاد امبراطوريتى بيزنطة وفارس وفى ظهور الاسـلام الفجائى والتى أثمرت الاندفاع الهائل من القبائل العربية نحو الخارج ، طلبا للفتح بعد أن حظر الاسلام الحروب القبلية بين العرب أنفسهم (١) •

***

قدر للاحداث الاولى فى الفتـــوحات العربية أن تقع فى الجبهة الفارسية ولقد سبق لنا ان رأينا بنى بكر يشتبكون فى حروب العصابات مع الفرس فى حوض الفرات الادنى منذ وقعت الحروب بين كسرى وبين أمراء اللخميين فى الحيرة ابتداء من عام ٦٠٥ • وظهر المسلمون بعد معركة اليمامة فى مؤخرة بنى بكر الذين وجدوا أنفسهم الآن بين نارين • ترى هل يصـــالحون المسلمين على حرب الفرس ؟ ولم يكن الجيش الفارسى يملك الآن أية قوة من الهجانة ، أو من المحاربين فى الصحراء بعد الغاء مملكة الحيرة • وقد يكون من المفروض أن يستطيع الفرس الدفاع عن المناطق المأهولة فى جنوب العراق ضد ساكنى الصحراء • ولكنهم أعجز من أن يستطيعوا الدفاع عن مراعى بنى بكر فى الصحراء ضد المسلمين • وعندما اشتد أمر الحملة الوهابية فى عشرينات القرن الحالى فى نجد ، وجدت قبائل العراق الصحراوية نفسها فى عين الموقف الذى كان عليه بنو بكر فى عام ٦٣٣ • ولم يكن حال حكومة العراق فى القرن الحالى أحسن من حال فارس قبل ألف وثلثمائة عام ، اذ لم يكن لديها قوات تستطيع العمل فى الصحراء • وادى هذا الوضع الى اضطرار جميع قبائل البدو غربى الفرات وجنوبيه الى التفاهم والتهادن مع الوهابيين •

---

(١) اختلف مع المؤلف فى ان هذه الاحداث التى يسميها بالعارضة لم يكن لهـا مثيل فى التاريخ ، فالتاريخ طافح بالشـواهد المماثلة . ولعل مثل الرومان وغزو قبـائل التيوتون للامبراطورية خير شاهد على ما اقول .

(المعرب)

وهكذا وجدت غالبية بنى بكر نفسهـــا مرغمة على التحـــالف مع المسلمين وان كان بعضهم قد تحالف ، كما تقول الروايات مع الفرس ، ولا سيما فى بداية القتال ، وكان المثنى بن حارثة الشيبانى هو الذى دبر هذا التحالف مع المسلمين وهو شـــيخ من شيوخ شيبان وهى بطن من بطون بكر ، وقد روى المؤرخون المسلمون انها اعتنقت الاسلام • وكانت غالبية رجال خالد ، قد عادوا بعد استقرار الوضع فى نجد الى مساكنهم فى الحجاز ، وخلفوه فى المنطقة على رأس قـــوة لا تزيد على التسعمائة محارب • وكانت صفة الخزى قد لحقت بالمرتدين الى الحد الذى دعا أبا بكر الى اتخاذ قراره بألا يسمح لأى من القبائل المرتدة بالحرب الى جانب المسلمين • ويكون ولاء البدو لقبائلهم ، ولذا فهم لا يرون سبة أو عارا فى التحول من جهة الى أخرى ، اذا كان هذا التحول أمرا اقتضته مصلحة القبيلة العليا ومن هنا كان لا بد لكثيرين من أفراد القبائل الذين هزمهم خالد فى حروب الردة من أن يتحولوا الى جانب خالد فى غزوه لاراضى الفرس ، لو كان يقبل تحولهم ، وهكذا كانت بطون بكر التى لم تسلم من قبل أو التى لم ترتد بعد اسلامها ، هى الوحيدة الصالحة لمحالفة خالد •

ولو حكمنا على ضوء ما تستطيع قبائل المنطقة تقديمه من رجال فى يومنا هذا ، لقلنا ان المثنى بن حارثة كان قادرا على تجنيد ألفى رجل أو ثلاثة آلاف لمساندة خالد • ومن هنا لابد وأن تكون قوات خالد والمثنى المشتركة لا تعدو حدود ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل • وقد عهد الى هذه القوة الصغيرة بالهجوم على الحدود الفارسية •

وليست لدينا صورة واضحة كل الوضـــوح عن حملات خالد فى العـــراق • فلقد روى الرواة أن المسلمين اجتمعوا فى مارس عام ٦٣٣ ميلادية فى الحفير وهى مكان يقع فى الصحراء الى الجنوب الغربى من الفرات (١) • وانضمت الى القوة الاسلامية هنا جماعة من طيىء • ولا ريب فى ان آبار الحفير الحديثة هى مكان مثالى يمكن لقوة من هجانة البدو أن تجتمع فيها قبل غزو العراق • كما أن هذه الآبار موقع مثالى يمكن أن يصلح كنقطة التقاء مع قبيلة طيىء التى كانت تعيش فى المكان الذى يعرف اليوم بجبل شمر •

وتقدم العرب من الحفير ليخوضوا معركتهم الاولى مع جيوش الفرس

---

(١) يقول الخضرى ان الحفير ماء بالقرب من البصرة • ولكننى اعتقد أن رواية جلوب هى الاصح وانها تقع فى شمالى نجد الى الشرق من الكويت الحالية •

(المعرب)

فى كاظمة التى يغلب على الظن انها تقع فى أرض الكويت الحديثة · أو فى الاراضى الواقعة بين الكويت والبصرة · وقد غلب جيش الفرس الذى كان مؤلفا من وحدات من القبائل العربية ووحدة من القـــوات النظامية الفارسية على أمره · ولما كان من الصعب على الفرس أن يحـــاربوا فى الصحراء فان هذه المعركة قد وقعت فى الغالب على مسيرة يومين من القصر الذى بنيت مدينة البصرة فيما بعد على أنقاضه ، أو على مقربة من خليج الكويت الحالى ·

وتقع بلدة الابلة وميناؤها على مكان لقـــاء نهرى دجلة والفرات المعروف اليوم بشط العرب · وكانت هذه البلدة محور تجارة الفرس البحرية مع الهند والقاعدة البرية لاسطولهم · وزحف خالد بجيشه على الابلة · ولكن سكان البلدة لم يمكنوه من الهجوم عليهم اذ صالحوه على دفع الجزية(١) وتشجع العرب بعـــد ذلك فعبروا نهر الفرات وقاتلوا الفرس فى الولجة التى يعتقد بانها كانت تقوم فى مكان بلدة الشطرة الحديثة ، ولكن عندما سمع خالد بأن العدو يجمع جنوده للقائه · عاد فعبر الفرات بسرعة هائلة متجها الى الصحراء ·

وكانت العنصر الرئيسى فى جميع العمليـــات المبـــكرة فى فارس وسوريا على حد سواء هو أن الفرس والروم كانوا عاجزين عن الحركة فى الصحراء ، نظرا لاستخدامهم الجيـــاد بدلا من الابل فى حربهم · وكان المسلمون أشبه ما يكونون بالقوة البحرية التى تمخر عباب البـــحر الى الشاطىء بسفنها ، بينما كان الروم والفرس مضطرين الى اتخاذ مواقعهم على الساحل أى فى المناطق المأهولة ، نظرا لعجزهم عن الهجوم فى البحر أى فى الصحراء العربية · وكان العرب فى البداية كقرصان النورمان أو الدانمركيين الذين هاجموا ســـواحل انجلترا يخشـــون من التوغل فى الداخل ، بعيدا عن سفنهم « أى صحرائهم » وكانوا يكتفون بالاغارة على سواحل الصحراء ليعودوا بسرعة الى صحرائهم ، عنـــدما يرون الخطر يهددهم · وهكذا نرى خالدا وقد سمع بتجمع العدو ، يعود فيعبر الفرات

---

(١) تختلف رواية مؤرخى العرب عن رواية المؤلف . اذ يقول البلاذرى ان أهـل الابلة بعد ان طلبوا الصلح سمعوا بأن خالدا قد غادر منطقة البصرة متجها الى الحيرة فنكثوا عهدهم فأمر خالد بالحملة عليهم قائلا .... احملوا عليهم انى أرى هيئة قوم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، فحملوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم بشرا وغـرق طائفـة منهم في دجلة .

(المعرب)

قاصدا أطراف الصحراء • حيث تلقى كما يبدو نجدات من وحدات من تميم • وعلى رأسهم زعيمهم القعقاع بن عمرو الذى سنسمع عنه كثيرا فيما بعد • ونشبت معركة أخرى فى اليس التى يبدو انها كانت تقع فى الضفة الغربية من الفرات فى ضواحى بلدة السماوة الحالية • ويبدو ان قوة الفرس كانت تتألف هذه المرة أيضا من القبائل العربية ، يقودها فارسى ، ويبدو ان المعركة كانت عنيفة للغاية وان المسلمين قد انتصروا فيها فى النهاية • وقد أصدر خالد أمره بقطع رءوس جميع الأسرى • ويروى المؤرخون العرب ان المذابح ظلت مستمرة ثلاثة أيام • وان عدد القتلى كان بالالوف وقد عرفت المعركة عند العرب فيما بعد بنهر الدم • لكن العرب لم يتدخلوا فى شئون الفلاحين الذين يزرعون الارض ، فقد طلب اليهم أن يدفعوا الجزية ليس الا على أن تضمن سلامتهم • وكان خالد يبعث الفيء وهو خمس الغنائم بعد كل نصر الى الخليفة فى المدينة طبقا للشريعة التى جاء بها النبى ، أما ما تبقى من الغنائم فيوزع على الجند الذين لا يتقاضون أية رواتب •

واستهوى النصر المسلمين فزحفوا على الحيرة ، عاصمة اللخميين ، الذين كان كسرى قد قضى على ملكهم قبل نحو من ربع قرن • ولو كان هؤلاء الامراء اللخميون لا يزالون فى اوج سلطانهم وملكهم لاختلفت نتيجة المعركة ، لان قبيلة بكر كانت موالية أشد الولاء لهذه الاسرة • لكن ما حدث الآن هو ان حاكم الحيرة الفارسى فر الى المدائن عند سماعه بوصول خالد(١) •

---

(١) تختلف روايات المؤرخين العرب كثيرا عن رواية المؤلف اذ يقول البلاذرى ان خالدا وصل الى مجتمع الانهار (ملتقى فرعى الفرات) فلقيه ازاذبة عامل كسرى على الكوفة فقاتله خالد حتى هزمه ـ أى ان العامل الفارسي لم يفر الى المدائن •

اما الاختلاف الثانى فهو ان القسم الاكبر من قبيلة بكر بن وائل كان مع الفرس ضد العرب وصاروا حربا على المسلمين. ولعل أصدق دليل على ذلك ان الرجال الثلاثة الذين صالحوا خالدا على الحيرة هم من بكر فأولهم عبد المسيح عمرو بن قيس وهو من الازد ، وثانيهم هو هانىء بن قبيصة بن مسعود الشيبانى وهو من شيبان ، وثالثهم هو اياس بن قبيصة الطائى وهو من طيىء . ومن هنا يبطل استنتاج المؤلف الذى أراد منه الحط من أهمية فتح خالد العسكرى للعراق . والذى قال فيه ان كسرى لو لم يقض على عرش اللخميين في الحيرة قبل ربع قرن لتغير تاريخ الفتح الاسلامى . انه الاستنتاج الخاطىء الناشىء عن الهوى والغرض •

(المعرب)

وكانت الحيرة محاطة بالاسوار التى يعجز البدو عن اقتحامهـــا ولكن معظم أهلها كانوا من العرب • وكانت القبائل العربية المحيطة بها قد خافت بطش خالد بعد نصره العظيم فى أليس • ولقد سبق لنا أن رأينا كيف عجزت مكة عن الصمود أمام محمد بعد أن أذعنت له القبائل المحيطة بها • ورأينا كيف ان الطائف قد استسلمت أيضا بعد أن انضمت قبيلة هوازن المجاورة الى المسلمين • وعلى الرغم من ان أهل المدن كانوا أكثر ثباتا من البدو فى المعارك الثابتة الا ان قدرة البدو على التحرك السريع كانت من الضخامة بحيث تعجز مدن الصحراء عن المقاومة دون مساعدة القبائل البدوية •

وقد نشأ الوضع نفسه فى الحيرة • فقد حوصر أهلهـــا داخل أسوارهم ولم يجدوا عونا من القبائل مما دعاهم الى محاولة التفاهم مع المسلمين ، لا سيما وان المبلغ الذى طلبه هؤلاء ، لم يكن كبيرا بالنسبة الى ثروة الحيرة ، وان كان ضخما بالنسبة الى البدو • وقد تعهد المسلمون مقابل هذه الجزية بحماية المدينة التى رفض أهلها رغم كونهم من العرب التخلى عن نصرانيتهم واعتناق الاسلام • ومن المعتقد ان هذا الاتفاق قد وقع فى مايو (ايار) عام ٦٣٣ أى عندما كانت جيوش المسلمين تقضى على آخر المرتدة فى اليمن •

وقد يتساءل المرء الآن كيف سمح كسرى لقوة من البـداة باحتلال مدينة مهمة كالحيرة • لا تبعد عن عاصمة ملكه المدائن أكثر من مائة ميل • واذا ما أراد المرء معرفة السبب تحتم عليه أن ينظر نظرةقصيرة الى الاحداثفىفارس • ولقد سبق لنا أن بينا كيف آن الامبراطور لرومانى هرقل كان قد أطاح بعرش كسرى ابرويز فى عامى ٦٢٧ ، ٦٢٨ • ولقد قام ولده شيرويه بقتله مع ثمـــانية عشر ولدا من أولاده ، ثم اغتصب العرش ، لكن هذه الجرائم التى اقترفها لم تجده قتيلا ، اذ اغتيل شيرويه فلجأ الى البحث عن كل ذكر من سلالة كسرى انو شروان ليقتله ، هادفا من وراء ذلك الى عدم الابقاء على أى فرد من الاسرة المالكة يستطيع منازعته العرش ، لكن هذه الجرائم التى اقترفها لم تجده فتيلا ، اذ اغتيل شيرويه نفسه بعد أن تبوأ الحكم بثمانية أشهر ليس الا(١) وسرعان ما سادت الفوضى والاضطرابات فارس بسبب المنازعات التى نشأت بين الاحزاب

---

(١) يقول مؤرخو العرب ان شيرويه حكم سنة وتسعة اشهر .
(المعرب)

المتنافسة • ولم يكن من السهل العثور على وريث شرعي للعرش اذ أن القتل كان نصيب معظم أفراد الاسرة المالكة من الذكور وتبوأ العرش في غضون السنوات الاربع التالية نحو من تسعة أشخاص كان بعضهم يخلع بعد أيام من ولايته ، وبينهم عدد من الاميرات نظرا لعدم وجود ذكور من الاسرة المالكة •

ولما كانت هذه الفوضى قد ضربت أطنابها في البلاد ، فان جل ماكان في وسع الجيش الفارسي أن يفعله ضد العرب ، هو أن يتخذ له موقعا دفاعيا الى الجنوب من المدائن لحماية العاصمة بينما تجتاح جيوش خالد أرض السواد الخصبة ، جامعة الجزية ، وسابية أهل البـــلاد ليباعوا كرقيق •

وعثر أخيرا في صيف عام ٦٣٢ أي بعـد وفاة النبي محمـــد في المدينة البعيدة ، على غلام من البيت المالك ، ظل مختفيا طيلة المذابح التي وقعت • ولقـــد كان يزدجرد في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره عندما ولي الملك • ولم يستطع تبعا لذلك تولي قيادة الجيوش وان أعلن ملكا على البلاد • وهكذا كانت مملكة فارس القوية قد تحولت بعد ستة وعشرين عاما من الحروب مع بيزنطة وبعد أربع سنوات من الفوضى والحروب الاهلية الى أرض يسودها الاعياء والدمار •

واستغل العرب ضعف الفرس وشللهم ، فاجتاحوا المناطق الزراعية الغنية الواقعة الى الشرق من الفرات • وسلبوا الغنائم منها وفرضوا الجزية على أهلها الذين يظهرون الرغبة في الصلح والتفاهم • فكانوا يحصلون على عهود مكتوبة من العرب يشترطون فيها دفع الجزية مع الوعد بالحماية والامن • وكانوا يحصلون على ايصالات من العرب عندما يدفعون الجزية • وعلى الرغم من اننا نرى في معاملة العرب لمن يقاومونهم بعض الغلظة الا اننا لا نستطيع الا أن نعترف بانهم كانوا دائما يفون بعهودهم تمـــام الوفاء •

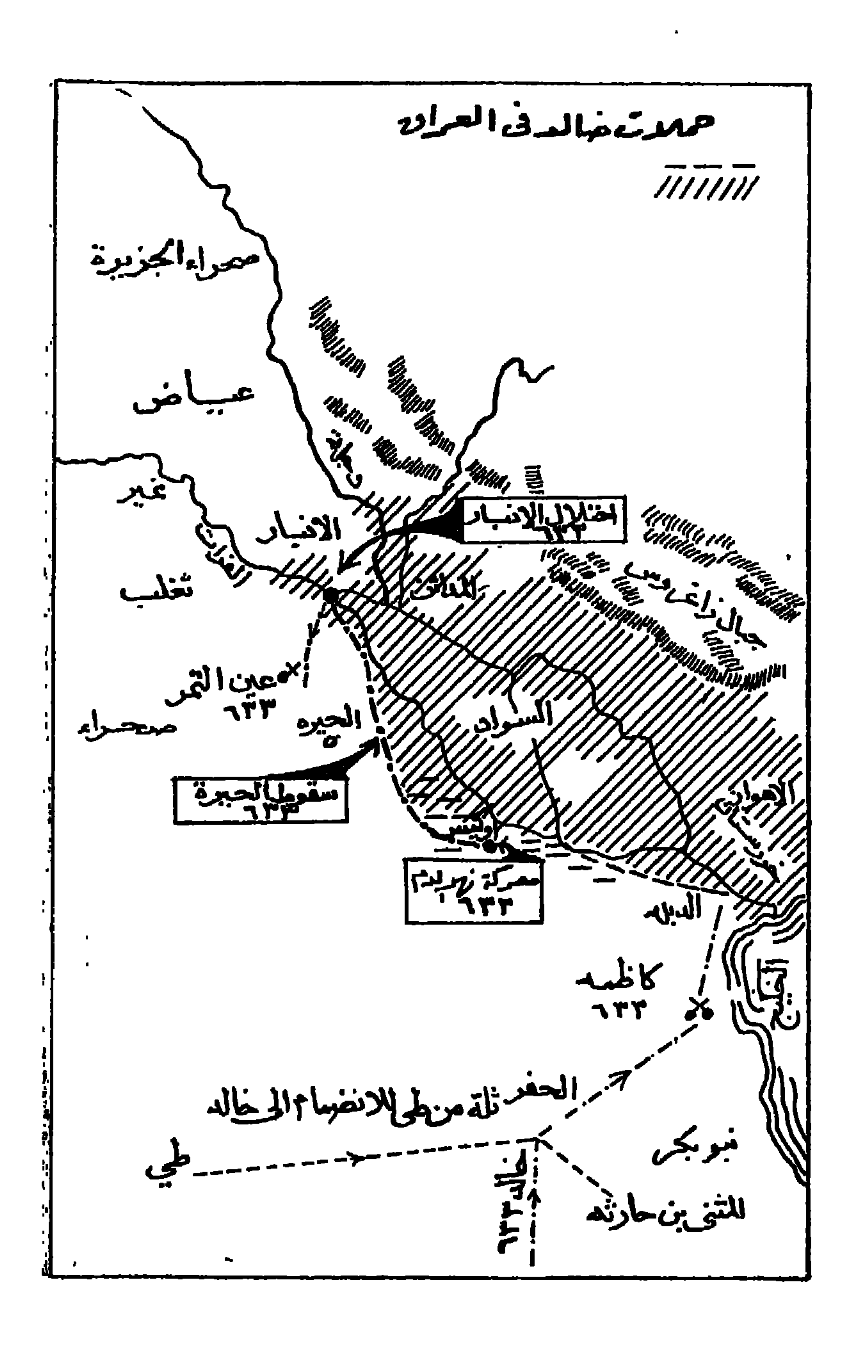
وعلى الرغم من ان الفرس كانوا عاجزين عن العمـــــل الحربي في الصحراء الا ان البدو من نصارى العرب المقيمين في أعالي الفرات كانوا قادرين على الحرب فيها • وكان في مكنة التغالبة وبطون بكر المتحالفة مع الفرس أن تهدد قوات المسلمين في الصحراء وأن تغير على مواصلاتهم مع المدينة • وكانت خطة العرب السوقية ترتكز الى الحقيقة الواقعة • وهي انهم يشعرون بالامن والسلامة في الصحراء وان في وسعهم أن يغيروا

على المناطق المأهولة ، على النحو الذى يريدونه • ولكن القبائل العربية المعادية لهم ، تستطيع الحرب فى الصحراء أيضا ، وفى وسعها أن تفسد عليهم خطتهم السوقية ، ولهذا فهم لا يتسامحون مطلقا مع أفرادها المعادين لهم • ولم يكن فى وسع خالد فى مثل هذا الوضع أن يجلس كما قال هو عن نفسه ، عاطلا عن العمل فى قصور الحيرة ، ممثلا دور المرأة • وسرعان ما أعد خطته الجديدة على أساس شن عمليات متحركة من جديد •

ولعـــل من الطريف أن نلاحظ عدم الاكتراث النسبى الذى أظهره زعماء قريش فى المدينة تجاه العمليـــــات العسكرية فى العراق فى هذه الآونة • فلقد كان كل اهتمامهم كما ســـنرى بعد قليل ، مركزا على سوريا • اذ انها المنطقة التى يعرفونها والتى كان النبى قد بعث اليهـــا بقوات حملتى مؤتة وأسامة بن زيد • وكان معظم الصحابة الذين حاربوا مع خالد فى معركته مع مسيلمة الكذاب ، قد عادوا الى المدينة وهكذا نرى ان معظم قادة جيش خالد ، لم يكونوا من أهـــل مكة أو المدينة بل من البدو • ولقد رأيناه يولى المثنى بن حارثة الشيبانى من بنى بكر قيادة القوة التى خلفها لمواجهة جيش الفرس الى الجنوب من المدائن • كما رأيناه يولى القعقاع بن عمرو ، شيخ تميم الذى انضم مؤخرا الى المسلمين الامر فى مدينة الحيرة بعد احتلالها •

وراح خالد بعد ذلك يتجه شمالا محاذيا الضفة الغربية لنهر الفرات، الى أن وصل الى المكان الذى تقوم فيه بلدة الفالوجة الحالية • حيث عبر النهر ليحاصر مدينة الانبار • وينتهى سواد العراق ، أو التربة الغرينية السوداء التى تؤلفها دلتا دجلة والفرات عنـــد خط يمتد من الشرق الى الغرب مارا بمدينة الانبار • ويسكن الى الجنـــوب من هذا الخط فى الواديين الخصيبين اللذين يسير فيهما نهرا دجلة والفرات ، شعب كادح عامل من المزارعين ينتمون الى جذور عراقيـــة مختلفة اذ ان منهم ذرارى السومريين القدماء والبابليين وبعض الاعجام • وبينهم بعض العرب الذين يعيشون على نهر الفرات • وكانت الارض الســـوداء الخصبة فى هذه المناطق مأهولة بالسكان ، وتقطعها أقنية الرى • ولذا فانهـا عسيرة على العمليات العسكرية لقوة من محاربى الصحراء الذين يمتطون الجياد أو الابل •

أما الى الشمال من هذا الخط الذى يجتاز الانبار ، فتقوم مناطق من الصخور الرملية يمر فيها الرافدان يشقان طريقهما عبرها • وتجتاز الصحراء السورية فى هذه المنطقة نهرى الفرات ودجلة حتى تصل الى



حملات خالد في العراق
صحراء الجزيرة
عياض
دجلة
غمير
الأنبار
تغلب
احتلال الانبار
٦٣٣
المدائن
جبال زاغروس
عين التمر
٦٣٣
الحيرة
صحراء
السواد
سقوط الحيرة
٦٣٣
الأهواز
٦٣٣
كاظمة
٦٣٣
الحفر
ثلة من طي للانضمام الى خالد
طي
بنو بكر
المثنى بن حارثة

سفوح جبال فارس • وكانت القبائل العربية من تغلب ونمير واياد المهاجرة من الصحراء العربية قد تسللت عبر نهر الفرات لترابط فى منطقة الجزيرة الواقعة بين النهرين • وهكذا نرى الصحراء تحيط بمدينة الأنبار الواقعة على الفرات من ناحيتى الغرب والشمال • وكان العرب قد أقاموا أو استولوا على هذه المدينةمنذ نحو من أربعة قرون ، وكانت لاتزال مأهولة بالعرب تماما كالحيرة وان تولت القوات الفارسية أعمال الحراسة فيها • وقد أحاطت الأسوار بالمدينة وأمام الأسوار خندق يحيط بها من جميع جهاتها ، وقد أمر خالد بذبح كل ما لديه من ضعيف الابل ، ليملأ الخندق بجثثها وعاد فاقتحم المدينة عنوة (١) •

ولم يكن خالد مجبرا فى احتلاله الانبار على التوغل فى المنطقة الخصبة المأهولة بالسكان ، وكان لا يزال يسير على المبدأ البدوى القديم بالطواف حول أطراف الصحراء مهاجما المدن « الساحلية » والقرى والتأهب دائما للاختفاء فى الصحراء بعيدا عن المطاردة فى حالة ظهور جيش نظامى كبير للاعداء أمامه • وطبقا لهذا الاسلوب فى القتال فقد عاد خالد بعد احتلال الانبار يتجه غربا الى الصحراء ، زاحفا على عين التمر • التى كانت تقع فى المنطقة التى تقوم فيها واحة شثاثا الحالية • وقد قاومه هنا بعض العرب من تغلب وغيرهم ولكنه تمكن من تبديد شملهم • واستولى خالد على الواحة التى يسكنها النصارى من العرب فى حماية قوة فارسية • وقد أمر خالد فى سورة من سورات غضبه بقتل جميع أفراد الحامية ووزع النساء والأطفال كسبايا على المسلمين • وقد أعدم فى البلدة أحد كبار شيوخ تغلب (٢) • وأسر المسلمون فى أحد

---

(١) تختلف رواية المؤلف هنا من روايات مؤرخي العرب فقد ذكر الشعبى أن خالد حاصر الانبار وحرق بعض نواحيها . فلما رأى أهلها ما نزل بهم ، صالحوا خالدا على شيء رضي به فاقرهم ، ويقول البلاذرى ان لاهل الانبار عهدا وعقدا . ويقول الخضرى أن قائد جند الانبار طلب الصلح من خالد على أن يخليه ويلحقه بمأمنه في جزيرة ليس معهم من المتاع والاموال شيء . فاجابه الى ذلك وتسلم الانبار وصالح من حولها .

(المعرب)

(٢) تجاهل المؤلف كعادته في تشويه التاريخ العربى ، ذكر الاسباب التى دعت خالدا الى القسوة مع اهل عين التمر . فلقد ذكر المؤرخون العرب ان خالدا قصد عين التمر وبها مهران بن بهرام في جمع عظيم من الفرس ، وعقة بن أبى عقة في جمع عظيم من العرب من قبائل نمير وتغلب واياد ، ومن لف لفهم وقد لزم مهران عين التمر وخرج عقة يريد مقابلة خالد في الطريق ، والتقيا واقتتل الجند وأسر خالد عقة ثم =

أديرة عين التمر النسطورية ، أربعين شابا عربيا ادعوا انهم من طلاب علم اللاهوت المسيحى • وقد وفر خالد عليهم أرواحهم طمعا فى الافادة من علومهم ومعارفهم • وبعث بهم الى المدينة ليعملوا فيها عبيدا أو كتبة • وكان نصير واحدا من هؤلاء • وقد خلف فى المدينة غلاما هو موسى بن نصير الذى قدر له بعد سنوات طويلة أن يصبح فاتح الاندلس •

وأرى أن نترك خالدا الآن فى عين التمر فى خريف عام ٦٣٣ لنتجه بأنظارنا الى احداث سوريا فى تلك الآونة •

***

رأينا فى السابق ان أبا بكر لم يوفد خالدا فى البداية لغزو فارس وانما أوفده للقضاء على الردة فى الجزيرة العربية عن طريق هزم النبيين الدعيين طليحة ومسليمة ، وهناك اتصل عرضا بالمثنى بن حارثة ، ورجاله من بنى بكر ، الذين اقترحوا عليه القيام ببعض الغـــــارات على حدود الفرس • وقصد المثنى الى المدينة حيث حصل على موافقة الخليفة • ولـما كان الخليفة قد تسلم خمس الفيء من الغنائم والسبايا ، فانه لم يعترض على هذه الغارات التى لم تكن فى مخططه • والتى تكللت بالنجاح نتيجة الفوضى الضاربة أطنابها فى مملكة الفرس(١) •

= انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة الى مهران هرب في جنـده تاركا الحصن الذى اعتصمت به فلول عقة ، حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجـــد بينهم اربعين غـــلاما يتعلمون الانجيـــل ، منهم نصير أبو موسى بن نصـير وســيرين أبو محمد بن سيرين فقســـمهم خالد في النـاس ، وكان من عقبهم علماء أجلاء.

(المعرب)

(١) محاولة اخرى من محاولات التشويه . فالمؤلف يريد أن يظهر ان غزو العرب لفارس كان أمرا عرضيا . مع أن جميع الدلائل التاريخية تؤكد أن هذا الغزو وقع طبقا لخطة منظمة فلقد ذكر الخضرى ان ابا بكر انتدب أعظم قواده خالد بن الوليـد بعد ان انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وامره بأن يبدأ بثغر الابله . وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس فى الشمال أى من شمال العراق . وامرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة والا يســـتعينا بمرتد . وقد وصل لخالد كتـاب التعيين وهـــو باليمامة ، فكتب الى هرمز عامل الفرس فى الابلة يقول : اما بعد اسلم ، تســـلم ، او اعتقد لنفسك وقومك الذمة واقر بالجزية . والا فلا تلومن الا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت ، كما تحبون الحياة .

وقال البلاذرى قدم المثنى بن حارثة على أبى بكر . فقال له : ياخليفة رسول الله . اســـتعملنى على من أسلم من قومى . اقاتل هـذه الاعاجم من أهل فارس . =

وكان الحكام الجدد في المدينة • في واقع الامر أكثر اهتماما بحدود الروم منهم بحدود الفرس • ولقد كانت قريش وهي القبيلة التي مونت المجتمع الاسلامي الجديد بجميع زعمائه وقادته العسكريين ، تعرف سوريا وفلسطين معرفة وثيقة منذ أيام عملها في التجارة • وكانت معركة مؤتة وحملة أسامة الثأرية ، هما استهلال هذه الحركات الحربية ، كما كانت غزوة تبوك التي قادها النبي بنفسه قد أسفرت عن اخضاع جميع قبائل الحدود ، والزامهم بدفع الجزية ، ولقد رأينا من قبل أن أمير دومة الجندل العربي النصراني ، قد أعلن اسلامه ، ولكن اسلامه كمـــا يبدو لم يكن صحيحا • اذ ماكادت أنباء وفاة النبي تصل اليه ، حتى كان قد سحب اعترافه وولاءه ، وتوقف عن دفع الزكاة •

أما من الناحية الاخرى • فلم تكد أنباء هزيمة مدعي النبوة في نجد تصل الى مسامع المدينة حتى كان الخليفة يقرر استئناف العمليات الحربية على حدود الروم ، وكتب الى أهل مكة والطائف واليمن والقبائل المحيطة بنجد والحجاز ، يستفزهم الى القتال ويستحثهم على ارسال المحاربين • واختار ثلاثة من القادة العسكريين لتولى القيادة • عقد لكل منهم لواء على السنة التي استنها الرسول(1) وكان هؤلاء القادة هم عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان ، أما والد الاخير ، قائد قريش في أحد وعدو النبي السابق ، فقد ركنه الى الرف بتعيينه عاملا له في اليمن ، ولم يوضح لنا مؤرخو العرب السبب في شـــطر الجيش الذي

ـ فكتب أبو بكر في ذلك مهدا ، فسار حتى نزل خفان ودعا قومه الى الاسلام فاسلموا. ثم ان أبا بكر رضي الله عنه كتب الى خالد بن الوليد يامره بالسير الى العـراق . وكتب أبو بكر الى المثنى بن حارثة يامره بالسمع والطاعة له وتلقيه . وكان مذعـور ابن عـدى العجلى قد كتب الى أبى بكر يعلمه حاله وحال قومه . ويسـأله توليتـه قتال الفرس . فكتب اليه يامره بأن ينضم الى خالد ، فيقيم معه اذا اقام . ويشخص اذا شخص .

يتبين من كل هذا ان الحرب مع الفرس لم تات عفوية عرضية كما يحاول جلوب ان يقول ، رغبة منه في تشويه الصورة العربية للفتوحات الاسلامية . بل كانت طبقا لخطة مقررة وعلى أساس تفكير سليم في نشر الدعوة الاسلامية .

(المعرب)

(1) على الرغم من أن بعض مؤرخي العرب ذكروا ان أبا بكر عهـد بالقيـادة الى الثلاثة الذين ذكرهم المؤلف الا ان الكثرة الغالبة من المؤرخين يقـولون ان الجيش قسم الى اربعة الوية . لكل منها قائد ، أما القائد الرابع فهو ابو عبيـدة عامر بن الجراح الذى عاد عمر بن الخطاب فولاه اثر توليه الخلافة القيادة العامة .

« المعرب »

توافر للخليفة الى ثلاثة جحافل • ولعل افتقار الطريق الصحراوى الى الماء وللنقاط التى يتوافر فيها قد حتم على الخليفة أن يبعث قواته على ثلاث دفعات • ولعل افتقار هذه الطريق أيضا الى المؤن نظرا ، لعدم وجود نظام للتموين هو السبب • أو لعل ما يحس به القادة من حسد لبعضهم البعض ورغبة الواحد منهم عن العمل تحت قيادة سواه ، كان السبب الصحيح(١) • ومن المنطق كل المنطق أن يرى الانسان فى تقسيم أبى بكر دليلا على ان تفكيره لم يكن متجها الى الفتح والاجتياح • وانما اتجه الى الغزو والاغارة • لكن أساليب القتال عند العرب ، كانت من النوع العفوى العارض فى هذه الآونة ، بحيث لا يستطيع المرء الوصول الى مثل هذا الاستنتاج واعتماده بثقة وطمأنينة(٢) •

ويقال ان أبا بكر أصدر أمره الى عمرو بن العاص بالاتجاه الى ايلة (العقبة) • للعبور منها الى جنوب فلسطين باتجاه غزة التى تعرفها قريش من أيام قوافلها وتجارتها خير معرفة أما الرتل الثانى ، بقيادة يزيد بن أبى سفيان ، فقد صدرت اليه الاوامر بالاتجاه شمالا عن طريق تبوك ، ليعود فيميل نحو الغرب باتجاه الساحل الشرقى للبحر الميت • بينما صدرت الاوامر للرتل الثالث بقيادة شرحبيل بالاتجاه نحو الشمال الشرقى للمسير على دمشق وبصرى • وكانت أوامره صريحة بأن تتجه الارتال كلها

---

(١) هذا تشويه آخر متعمد للتاريخ الاسلامى • فالغيرة لم تكن معروفة عند القادة من صحابة رسول الله . والشواهد على ذلك كثيرة . أبرزها حملة أسامة بن زيد القائد الشاب الذى لم يتجاوز العشرين ربيعا . وكان النبى قد أمر أبا بكر وعمر وهما كبيرا صحابته بالتوجه معه كجنديين عاديين . وكذلك عزل خالد عن القيادة ابان معركة اليرموك وتولية أبى عبيدة على أن يظل خالد وهو القائد الكبير جنديا تحت امرته . وكذلك ما سبق قوله من كتاب أبى بكر للمثنى بن حارثة شيخ بنى شيبان بأن يكون تابعا لخالد ، عند استهلال الحملة على الفرس ، بالاضافة الى امثلة اخرى لا عد لها ولا حصر ،تدحض ادعاء المؤلف .

(المعرب)

(٢) يجمع المؤرخون العرب على أن الخليفة عقد اللواء لكل قائد من القادة الاربعة على ثلاثة آلاف جندى فى بدء الحملة . ثم واصل اتباعهم بالامداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة رجل . ولايمكن أن يكون القصد من مثل هذا العدد الكبير من الرجال مجرد الاغارة والغزو كما يحاول المؤلف أن يقول .. يضاف الى هذا أن توجيه كل قائد من طريق الى هدف معين كفلسطين لعمرو بن العاص ودمشق ليزيد وحمص لابى عبيدة والاردن لشرحبيل ، يدل على أن غاية أبى بكر من هذا التقسيم كانت توزيع قوات العدو وانزال الارتباك فيها، لتتمكن جيوش المسلمين من تحقيق غايتها فى الفتح لا فى الغزو كما يحاول المؤلف ان يقول .. (المعرب)

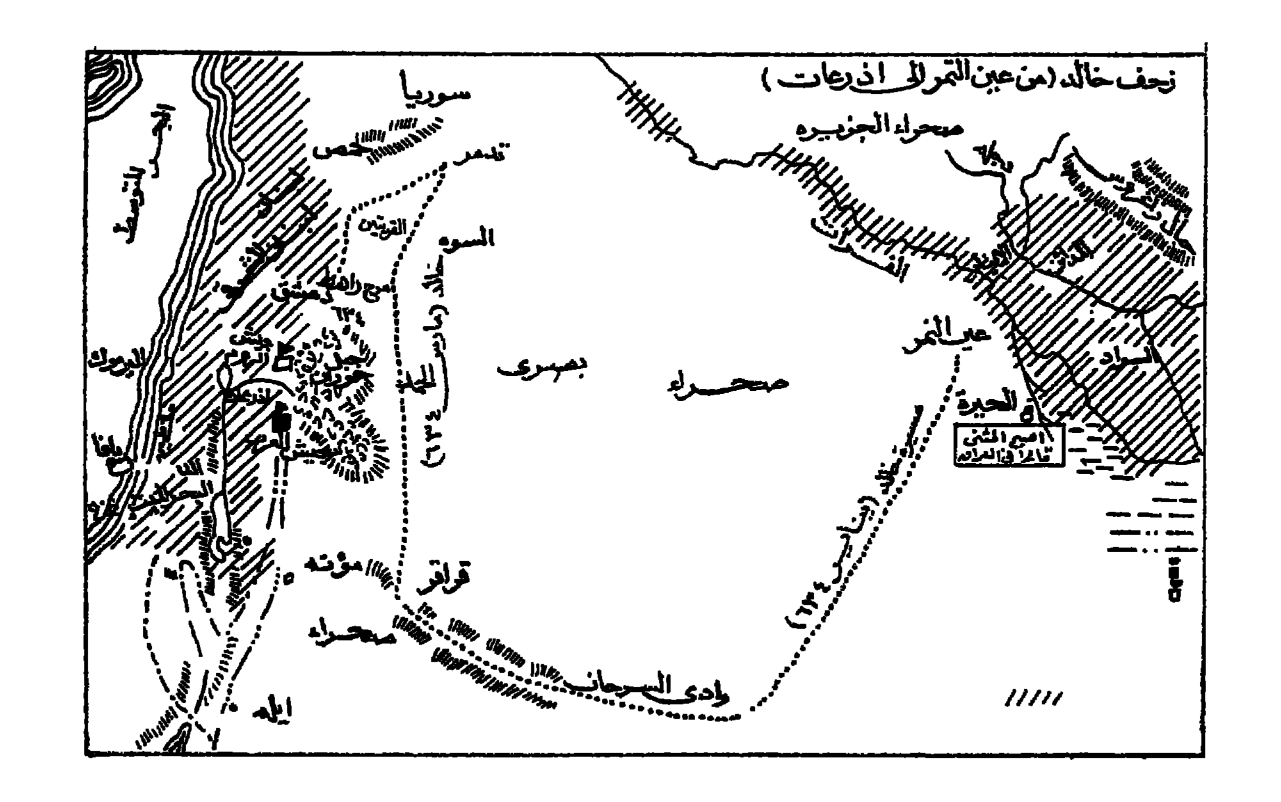
لنجدة أى منها يلقى فى طريقه مقاومة عنيدة ، على أن يتولى القيادة العامة القائد الذى تدور العملية فى منطقته • وما كاد المحاربون يتوافدون على المدينة منتصرين من حروب الردة فى نجد وعمان واليمن ، حتى كان الخليفة يحشدهم فى قوات يبعث بها كنجدات لتعزيز القوات الزاحفة على سوريا •

واشتبك رتل عمرو بن العاص مع الروم فى داثن على الطريق بين ايلة وغزة ، فهزمهم كما أرغم يزيد بن أبى سفيان سيرجيوس بطريق قيصرية على التراجع بعد معركة فى وادى عربة وطارد يزيد الجيش الرومانى المنسحب ، فلحق به وبدد شمله وقتل قائده سيرجيوس (١) وسرعان ما انتشرت قوات العرب فى جميع أنحاء السهل الساحلى الجنوبى فى فلسطين حتى بلغت على الغالب اللد ويافا •

وعندما وجد أبو بكر ان قواته تشتبك فى سوريا وفلسطين مع الروم فى عمليات حربية ضخمة ، كتب الى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه من العراق ، لتعزيز المسلمين على حدود الروم • ويقول بعض المؤرخين ان خالدا جاء من عين التمر الى دومة الجندل ليحتلها بعد أن ارتد صاحبها ، كما سبق لنا أن ذكرنا ، وكان الخليفة قد أوفد اليها قوة لاعادة سيطرة المسلمين عليها • ولكن هذه القوة عجزت عن التغلب على مقاومتها ويقول مؤرخون آخرون ان خالدا استدعى لتعزيز قوات المسلمين فى سوريا وأنه فى طريقه اليها أنهى أمر دومة الجندل المرتدة على الاسلام • ومهما كان دافع خالد ، فان من الواضح انه تحرك من عين التمر فى العراق فى مطلع عام ٦٣٤ وتمكن من اقتحام الدومة فى سرعة هائلة بما عرف عنه من جرأة وحيوية • فانزل القتل بأهلها وصلب أحد قادتها وذبح كل من وقع فى الاسر من رجالها وبعد أن انتدب أحد رجاله حاكما عليها ، وبعث بالنساء والاطفال والغنائم الى المدينة سار خالد

---

(١) تختلف رواية المؤلف عن الروايات العربية بعض الاختلاف . فهو يقول ان داثن يحتمل أن تكون دوقان ، التى ورد ذكرها في التوراة على انها المكان الذى كان اخوة يوسف يرعون اغنامهم فيها ، وان كان يستبعد ذلك لان دوقان قريبة من حيفا ولكن الطبرى والبلاذرى يؤكدان أن داثن من قرى غزة ، وهذا هو الصحيح لان جيوش العرب لم تكن قد وصلت بعد الى شمال فلسطين . أما عن موقعة العربة . فيقول ابو مخنف ان ستة من قواد الروم نزلوا العربة في ثلاثة آلاف فسار اليهم ابو امامة ــ (من رجال يزيد) في كثف من المسلمين فهزمهم وقتل أحد قوادهم ، فصاروا الى الدابية فهزمهم وغنم المسلمون غنما حسنا .
(المعرب)



زحف خالد (من عين التمر الى اذرعات)
صحراء الجزيره
الفرات
السواد
عين التمر
الحيرة
صحراء
بصرى
السوى
تدمر
سوريا
حمص
القريتين
دمشق
البحر المتوسط
اليرموك
قراقر
مؤته
صحراء
وادي السرحان
ايله
مسيرة خالد (يناير ٦٣٤)

باتجاه الشمال الغربى نحو وادى «بطن السير» الذى يعرف اليوم باسم وادى السرحان • وأصبح بعمله هذا على بعد خمسة أيام أو ستة من القوات الاسلامية العاملة فى شرق الاردن ، وبات قادرا على اللحاق بها • ولكن خالدا لم يفعل ذلك لأن هذه القوات كانت عاجزة عن الحركة شمالا • اذ يواجهها جيش من الروم يرابط فى مواقع دفاعية فى شعب ضيق على مقربة من بلدة درعا الحديثة ، وكان جيشا يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة قد التقيا هنا لمواجهة هذا الجيش المعادى ولكنهما لم يستطيعا ارغامه على التخلى عن مواقعه ، وهكذا وقف الجيشان يقابل أحدهما الآخر فى شبه حالة تجمد(١) •

وقرر خالد بموافقة القادة الآخرين أن يقوم بحركة التفاف واسعة حول جناح العدو (٢) وبعد أن روى جيشه بالماء من بئر قراقر ، الذى لا يزال قائما ومعروفا بهذا الاسم حتى اليوم ، قام بحركة التفاف واسعة باتجاه الشمال عبر الصحراء قاطعا نحوا من مائتى ميل فى أرض لا ماء فيها ، عبر أرض صحراوية مسطحة تعرف اليوم بصحراء الحمد وليس فى هذه المنطقة أية آبار دائمة ، وان كانت مياه الامطار تختزن عادة فى بعض شعابها • ولو كانت مسيرة خالد قد وقعت كما هو الغالب فى مارس (آذار) عام ٦٣٤ فانه ما كان ليجد فيهـا ماء ، لو أن المطر كان شحيحا فى شتاء تلك السنة • ووصل جيش خالد أخيرا الى مكان يطلق عليه المؤرخون العرب اسم « سوى » ولعله المكان الذى نسميه الآن « بالسبع ابيار » • وقد اتبع خالد قبل مغادرته قراقر طريقة مازال البدو يلجأون اليها حتى يومنا هذا • فلقد جمع عددا من الابل ، ومنع عنها الماء عدة أيام لتصبح عطشى كل العطش • وعاد فأرواها كل الرى • وتختزن الابل فى مثل هذه الحالة الماء فى مثاناتها لعدة أيام • ثم تعود

---

(١) سبق لنا أن قلنا ان خالدا تلقى وهو فى عين التمر امر أبى بكر باللحاق بالمسلمين في الشام لنجدتهم ، فخلف المثنى بن حارثة على قيادة الجيش وسار بثمانمائة رجل ويقال في في ستمائة الى صندوداء وبها قوم من كندة واياد والعجم فقاتله أهلها فظفر ، وخلف بها سعد بن حرام الانصارى فولده اليوم بها ، وبلغ خالدا أن جمعا لبنى تغلب بالمضيح والحصيد مرتدين وعليهم ربيعة بن بجير ، فأتاهم ، فقاتلوه وهزمهم وسبى وغنم وبعث بالسبى الى أبى بكر • ثم اغار على قراقر • واتى على دومة الجندل ففتحها عنوة •

(٢) أختلف مع المؤلف في قوله بأن خالدا قام بحركة التفاف واسعة حول جناح العدو بموافقة القادة الآخرين • اذ ان الاتصال بهم لم يكن متيسرا له • (المعرب)

فتستهلكه بصورة متدرجة • وكان ينحر هذه الرواحل بعد أن بدأ سيره يوما بعد آخر ، ليشرب وأصحابه الماء من بطنها • ولعل الصعوبة التى واجهها خالد لم تكن تامين الماء لرجاله ، وانما تأمينه لخيله أيضا •

ونضب كل ما لدى خالد من الماء بعد مسيرة خمسة أيام • كما أتى على آخر راحلة من الرواحل التى اكتنز الماء فى بطونهـــا • وبدأ الاعياء يصيب خيله ورجله وكان الدليل وهو عربى من طيىء ويدعى رافع بن عمير ، على ثقة من ان الماء بات قريبا • ولكن الضعف كان قد أصابه بدوره مما جعله عاجزا عن البحث عن البئر ، ويقال انه أصيب بالرمد فبات عاجزا عن الرؤية • وكان كل ما استطاع قوله ، ان هناك عسلوجا من الشوك عند البئر وان على الرجال أن يبحثوا عن هذا العسلوج • ولا ريب فى ان من السهل رؤية مثل هذه الشجيرة من بعد عدة أميال اذ ان الصحراء فى هذه المنطقة خالية من كل نبات • وتعرض الجيش كله للخطر ساعات طويلة • وتعرف روايات البدو الكثير من الكوارث التى تعرضت لهـــا جماعات من الغزاة بسبب افتقارها الى الماء فى مثل تلك الحرارة اللاهبة وسط الصحراء المحرقة لكن الجنود الظماء تمكنوا أخيرا من العثــور على العسلوج • فأخذوا يحفرون وسرعان ما عثروا على الماء • ونجا الرجال وخيلهم من الموت • واتجه خالد بعد ذلك الى تدمر فهاجمها واستولى عليها ثم استدار غربا نحو القريتين •

كان خالد فى سيره شمالا من قراقر الى سوى ، قد أصبح مقطوعا عن منطقة حوران المأهولة بسلسلة من الجبال البركانية التى تسمى بجبل الدروز • ولهذا فان وصوله الى تدمر كان مفاجأة مذهلة للعدو • ولكن مع اتجاهه جنوبا نحو دمشق أخذت أنباؤه تصل الى الروم واشتبك مع العدو فى معركة مرج راهط التى تبعد نحوا من خمسة عشر ميلا الى الشرق من دمشق • وذلك يوم عيد الفصح من عام ٦٣٤ • وعاد فاتجه جنوبا ملتفا حول سفوح جبل حوران • (جبل الدروز) حيث اتصل بجيوش المسلمين عند درعا • ويقال ان عدة جيش خالد كانت تسعة آلاف مقاتل(١) •

---

(١) يقول المؤرخون العرب ان خالدا أتى بعد دومة الجندل الى قصم • فصالحه بنو مشجعة من قضاعة وكتب لهم أمانا • ثم أتى تدمر فامتنع أهلها وتحصنوا • ثم طلبــوا الامان فامنهم على ان يكونوا ذمة • وعلى أن يقروا للمسلمين ويرضخوا لهم ، ثم أتى القريتين فقاتله أهلها وظفر وغنم ، ثم أتى حوارين من سنير فأغار على مواشي أهلهــا فقاتلوه • وقد جاءهم مدد أهل بعلبك وأهل بصرى وهى مدينة حوران فظفر بهم فسبى وقتل • ثم أتى مرج راهط فأغارا على غسان في يوم فصحهم وهم نصارى فسبى وقتل =

ويصف المؤرخون العرب مسيرة خالد بالنصر العظيم ويؤكدون انه انتصر في مرج راهط نصرا ضخما لكنني أرى أن هذا الادعاء يفتقر الى الاثبات والدليل • ولعل التفسير المعقول للعملية كلها هو ان خالدا قام بحركة التفافه هذه ليهـــدد دمشق ويرغم جيش الروم على ترك مواقعه الدفاعية في درعا • ولو كان خالد قد انتصر في مرج راهط لحتم عليه الموقف العسكري أن يقترب من دمشق ، فيرغم الروم على التراجع عن درعا ، ولا ريب في ان اتجاهه جنوبا بعد مرج راهط وتخليه عن خطته الاولى يشير الى انه أصيب بنكسة في مرج راهط(١) •

وفي التاريخ العسكري المعاصر حادث مواز لهذا الحادث • فلقد قام الجيش البريطاني في مايو (آيار) عام ١٩٤١ ، ومعه قوات فرنسا الحرة بغزو سوريا التي كانت تسيطر عليها قوات حكومة فيشي • وتقدمت القوات من شرق الاردن • واتجه رتل بريطاني الى الشمال عبر درعا ولكن المواقع الفرنسية الدفاعية الى الجنوب من دمشق تمكنت من وقفه • ورغبة في اجبار الفرنسيين على اخلاء هذه المواقع • تقـــدم رتل بريطاني آخر تصحبه قوات الجيش الاردني فعبر بادية الشام ليهاجم تدمر ويحتلهـا

= ثم وجه خالد بسر بن أبي أرطاة العامري من قريش وحبيب بن مسلمة الفهري الى غوطة دمشق، فاغارا على قرى من قراها . وصار خالد الى الثنية التي تعرف بثنية العقاب بدمشق فوقف عليها ناشرا رايته ، وهي راية كانت لرسول الله (صلعم) ســوداء ، فسميت ثنية العقاب يومئذ . ونزل خالد بالباب الشرقي من دمشق ويقال بل نزل بباب الجابية . فاخرج اليه اسقف دمشق نزلا وخدمة . فقال : احفظ لي هذا العهد. فوعده بذلك . ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين وهم بقناة بصرى .

(المعرب)

(١) اذا كان جلوب يعتبر في كتابه «الجيش العربي الاردني» مسيرة قوات البـادية التابعة للجيش والذى كان يتولى قيادته عبر صحراء الشام الى الرطبة في مايو عام ١٩٤١ لمحاربة الجيش العراقي أثناء ثورة رشيد عالي الوطنية نصرا وهي في سـياراتها المدرعة ، أفلا يعتبر قطع خالد للصحراء برجاله نصرا ، في وقت لم تكن الطرق فيـه مرصوفة ، ولا القوات الآلية معروفة . لقد كان خالد أول قائد في العالم قطع هــذه الصحراء اذ كان محاربو الشرق والغرب في التاريخ القديم ينتقلون من العــراق الى سوريا أو بالعكس عن طريق الشمال اى بين الفرات وحلب والمسافة الصـحراوية فيها قصيرة أما ان يقطع الصحراء من وسطها كما قطعها خالد . فنصر كبير لا ينكره الا مكابر أو جاحد . أما قول جلوب بأن خالدا مني بنكسة في مرج راهط فقول مضلل لا يستند الى دليل تاريخي كما يخالف اقوال المؤرخين العرب الذين أجمعوا على انتصار خالد في الموقعة .

(المعرب)



سوريا
قبرص
حمص
تدمر
البحر المتوسط
دمشق
صحراء الحماد
جبل الدروز
درعا
عمان
قراقر
غزة
وادي السرحان

غزو البريطانيين عام ١٩٤١ -

ويتجه غربا منها الى حمص • واضطر الفرنسيون خوفا من قطع خط رجعتهم الى اخلاء دمشق والانسحاب شمالا • وقد احتل الجيش الاردنى ابان هذه الحملة السبع ابيار حيث كاد جنود خالد يموتون عطشا • وحيث أقام الفرنسيون مركزا عسكريا • ولا ريب فى أن هذه العملية صورة طبق الاصل من عملية خالد الالتفافية • لكنها تختلف عنها فى أنها نجحت بينما فشلت عملية خالد ، لكن القوات البريطانية وقوات الجيش العربى كانت آلية ، بينما كان جنود خالد من الهجانة(١) •

---

(١) يريد جلوب في هذه المقارنة السخيفة أن يشبه نفسه ضمنا ، وان لم يكن صراحة بخالد بن الوليد . وأن ينسب لنفسه النصر بينما ينسب لخالد الفشل . فلقد ذكر هو فى كتابه « قصة الجيش العربى الاردنى » انه تولى قيادة الرتل الذى زحف عبر الصحراء ليهاجم تدمر لكن السخف يبدو واضحا من مقارنته بالاضافة الى التضليل في النتيجة التى توصل اليها . فجيش خالد كان يهاجم أعظم امبراطورية فى العالم آنذاك ، وهى امبراطورية الروم ، وكانت المواصلات بين المناطق التى هاجمها خالد ومركز هذه الامبراطورية سليمة لا يهددها خطر بينما كان جيش جلوب وبريطانيوه يهاجمون فلولا فرنسية ، وجدت نفسها في سوريا معزولة عن قاعدتها في فيشي (فى فرنسا) اذ قطع الاسطول البريطانى في البحر المتوسط طريقها وليس لديها من المعدات والمؤن ما يكفيها مدة طويلة . وكان خالد قد جاء من العراق قاطعا الصحراء كلها بينما استند جلوب ورجاله الى القواعد البريطانية في المفرق والجفور والزرقاء وهى قريبة من منطقة القتال، وكان خالد يعتمد على الابل والخيل في حركته بينما اعتمد جلوب على المدرعات والدبابات والسيارات السريعة بالاضافة الى الطائرات . ومن هذه النقط وحدها تنعدم مقومات المقارنة أما القول بالنجاح والفشل فتضليل ما بعده تضليل اذ لا يعقل أن يكون خالد وهو القائد العبقرى ، قد فكر مطلقا ، بأن يهاجم ، بقواته التى لا تعدو المئات حتى ولو كانت بضعة ألوف كما يرغب بعض المؤرخين أن يقولوا ، وهو الرقم الذى تبناه جلوب فى هذا المكان بالذات ، رغم ميله في أماكن أخرى الى تكذيب الارقام العربية وذلك ليدعم مقارنته الخاطئة وليصل الى النتيجة المضللة التى توصل اليها ، مدينة كدمشق فيها قواتها الضخمة . ومع اتصالها بقواعد تموينها ، وأمامها جيش معاد يعد كما قال المؤرخون (٢٤٠) ألفا . ومن هنا يكون استنتاج جلوب في تقرير الفشل خاطئا من أساسه . اذ لم يضع خالد خطة لاحتلال دمشق ليكون تراجعه عنها نكسة أو فشلا . ومن هنا يكون خالد قد قام بحركته هذه ، لبث الرعب والذعر في مؤخرة جيش العدو المرابط على اليرموك لاضعاف معنويته . وليقوم ببعض العمليات التى تعتبر في عرف الحرب العصرية عمليات مؤخرة لارباك صفوف المقدمة وهى خطة لا شك فى أن خالد قد نجح فيها نجاحا كبيرا كما يثبت من سياق الاحداث التالية .

(المعرب)

تواريخ مشهورة

الحدث	التاريخ
فترة من الفتن والفوضى فى فارس	٦٢٨ ــ ٦٣٢
يزدجرد يرتقى العرش	٦٣٢ أو ٦٣٣
خضوع الحيرة	مايو (أيار) ٦٣٣
الاستيلاء على الانبار وعين التمر	خريف ٦٣٣
ثلاثة أرتال عربية تغزو فلسطين والاردن	شتاء ٦٣٣ ــ ٦٣٤
خالد بن الوليد يجتاز البادية من العراق الى سوريا عن طريق دومة الجنــــدل	من يناير (كانون الثانى) الى مارس (آذار) ٦٣٤
اشتباكات لخالد مع الروم فى مرج راهط خارج دمشق	ابريل (نيسان) ٦٣٤
ايقاف الارتال العربية عند اليرموك	مايو (أيار) ٦٣٤

شخصيات بارزة

الشخصية	الصفة
خالد بن الوليد	قائد العرب فى العراق
يزدجرد	كسرى الفرس الشاب الجديد
عمرو بن العاص شرحبيل بن حسنة يزيد بن أبى سفيان	قادة الارتال العربيـــــة فى فلسطين والاردن وثلاثتهم من قريش
المثنى بن حارثة ــ زعيم بنى بكر القعقاع بن عمرو ــ زعيم بنى تميم جرير بن عبد الله ــ زعيم بنى بجيلة	قادة العرب فى العراق وكلهم من رجالات القبائل البدوية

بداية الانتصارات

« كان مجلس الشيوخ يستهدف فى أيام انتصارات الجمهورية الرومانيـــة أن تحارب الجيوش الرومانية عدوا واحدا فى وقت واحد • وان تقضى على هذا العدو قضاء مبرما قبل أن تشتبك فى أية معارك مع عـــدو ثان ، وقد استهان الخلفاء العرب بما عرف عنهم من حماس ومن عظمة بهذه القواعد المنطوية على الخوف ، والجبن ٠٠وقد تمكنوا بعين الدرجة من الباس والنجاح من غزو خلفاء القيـــــاصرة والاكاسرة وأصـــبحت الامبراطوريتان المتنافستان فى وقت واحـــد فريستين سهلتين للعدو كانتا قد الفتا منذ عهد طويل الاستهانة به وازدراءه » ••• ــ جيبون ــ انحـــلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ــ.

***

« وتفترس جميع الشعوب الذين يدفعهم اليك الرب الهك • فلا تشفق عيناك عليهم ، ولا تعبد آلهتهم فان ذلك وهق لك • « فان قلت فى نفســـك هؤلاء الأمم اكثر منى ، فكيف أستطيع أن أطردهم فلا تخفهم » • ــ سفر تثنية الاشتراع ــ الفصل السابع ــ ١٦ ــ



لم تكن المهمة سـهلة أمام قادة المسلمين الذين قرروا الدخول فى حروب مع البيزنطيين • فلقد كانت الامبراطورية الرومانية تقوم وتصـان منذ أربعة قرون على أكتاف المشـاة الرومانيين الذين اعتبرت فيالقهم المشهورة ، المثـل الاعلى للانضباط العسكرى • لكن جيش بيزنطة فى القرن السابق ، لم يكن يشبه بحال من الاحوال تلك الفيالق • فلقد بدأ التحول بعد معركة ادرنة المشهورة فى عام ٣٣٨ ميلادية عندما تمكن فرسان القوط من اكتساح الجيش الرومانى وابادته ، بعد أن كان نموذج الجيوش فى العالم • وتبعت هذه المعركة ثورة شاملة فى الشئون العسكرية ، اذ قدر للخيالة أن يسيطروا على ميادين المعارك للألف سنة التالية • وكان السيف والمزراق سلاح الجندى الرومانى من المشاة • أما سلاحه الدفاعى فالخوذة والدرع والزرد وهو سلاح غير كاف لمقاومة أساليب الصاعقة التى يلجأ اليها الفرسان فى هجومهم الثقيل •

وكان الرومان أنفسهم قد حلوا فيالق مشاتهم المشهورة بعد معركة ادرنة واختفت باختفائهم قرون طويلة من التقاليد والامجـاد وأصبح الفرسان السلاح الاول فى جيوشهم (١) • ولما كان السيف والحربة لم يعودا كافيين لمقاومة أى هجوم ثقيل يقوم به الفرسـان فقد لجأوا الى القوس والنبال وسرعان ماتحولت كتائب الفرسان الى ثقيلة وخفيفة • أما الكتائب الخفيفة فسلاحها السهام والقوس ، وفى وسعها أن تطلق نبالها وهى فى حالة الركض والخبب فى جميع الاتجاهات ، أما الكتائب الثقيلة فسلاحها الرماح وتستعمل فى عمليات الصـاعقة • وقد تمكن الامبراطور يوستنيان بجيش من هذا النوع من استعادة الامبراطورية الرومانية لسابق عهدها بين عامى ٥٣٣ و ٥٦٥ • أما انجلترا فظلت عدة قرون متخلفة عن هذا التبدل الجذرى فى السلاح من المشاة الى الفرسان

---

(١) عاد سلاح المشاة الى أهميته « كسيد الحرب » بعد ظهور البارود والاسلحة النارية . أما في يومنا هذا فقد ادى اكتشاف سلاح الفرسان المدرع الآلى الى اضعاف قوة المشاة من جديد . وهى ثورة جديدة في عالم الحـرب تشبه ثورة معـركة ادرنة في عام ٣٧٨ •

(المؤلف)

والرمـــــاة ، وكان الانجليز لايزالون يقـــاتلون فى معركة هيستينجز (١٠٦٦ ميلادية) بسلاح المشـــاة ، بينما استخدم النورمان اعداؤهم الفرسان المدرعين والرمـــــاة • وكانت الكتيبة هى الوحدة فى الجيش الرومانى وتضم نحوا من أربعمائة جندى ويتألف اللواء من ثلاث كتائب أو أكثر بينما تتألف الفرقة من ثلاثة ألوية • وكان لكل كتيبة اشارتها الخاصة بها ، واللون الخاص بملابس رجالها (١) وكان البيزنطيون على خلاف العرب ، قد نظموا الخدمات الادارية والتنظيمية فى جيشهم على أحسن منوال • فلقد كان لكل فصيل من المشاة مؤلف من ستة عشر رجلا عربة خاصة بالفصيل تحمل لجنوده الفئوس والمجارف لأعمال الحفر ومطحنة لطحن القمح ، وغير ذلك من الادوات والمعدات • وتسير مع الجيش وحدة اسعاف تضم الاطباء والجراحين وحملة ناقلات الجرحى • وكان التدريب التعبوى والعسكرى ينفذ بدقة ونظام ومثابرة • كما توافرت لطلبة العلوم العسكرية كتب عدة لدراسة الفنون الحربية •

وأمام هذا الجيش النظامى الرفيع التدريب • يقف العـــرب فى جماعات من أبناء القبائل غير المدربين • فهم لا يعرفون شيئا عن التعبئة وفنـــون الحرب • ولا عن النظام أو الكتب العسكرية • وليست لديهم ادارة ، أو رواتب أو أطباء • وكان سلاحهم أقل شأنا وأهمية من سلاح عدوهم ومع ذلك فانهم بعد مؤتة لم يخسروا أية معـــركة فى حربهم مع الروم ، ومن المحتمل أن يكون شظف العيش الذى ألفوه واحتمـــالهم للمشاق وافتقارهم لاى تدريب منظم قد جعل منهم قوة أسرع على الحركة من عدوهم • لكن الفضل الأول والأخير فى انتصاراتهم يجب أن يعزى الى روحهم المعنوية العـــالية • فهم ناريو المزاج محاربون بطبيعتهم • وأدى تطلعهم الى الشهادة طمعا فى فراديس الجنان التى وعدوا بها ، الى أن يقاتلوا بحمية تفوق تمامـــا ما كان لدى أعدائهم من الروم من تفوق فى السلاح والانضباط •

***

والصور التى نقلها الرواة لنا عن الحرب بين العرب وجيوش الروم فى سوريا متناقضة تمام التناقض • فنحن نعتمد فى مصادرنا على المؤرخين العرب • الذين كتبوا تاريخ هذه الحرب بعد أكثر من قرن من وقوعها • والذين على الرغم من تدوينهم لأحداثها ، كانوا ـ كما هو واضح ـ يجهلونها

(١) ادمان ـ فن الحرب فى العصور الوسطى •

و لا يبالون بها وبما دار فيهـــا من عمليات حربية ولكننى تمكنت عن طريق الصدفة العارضة من اكتشاف مايبدو لى اليوم بأنه مفتاح التفهم لحملة العرب على سوريا • وهو المضيق الضيق القائم بين نهر اليرموك وبين جبل الدروز عند بلدة درعا • وقد عثرت على هذا الاكتشـــاف على النحو التالى :

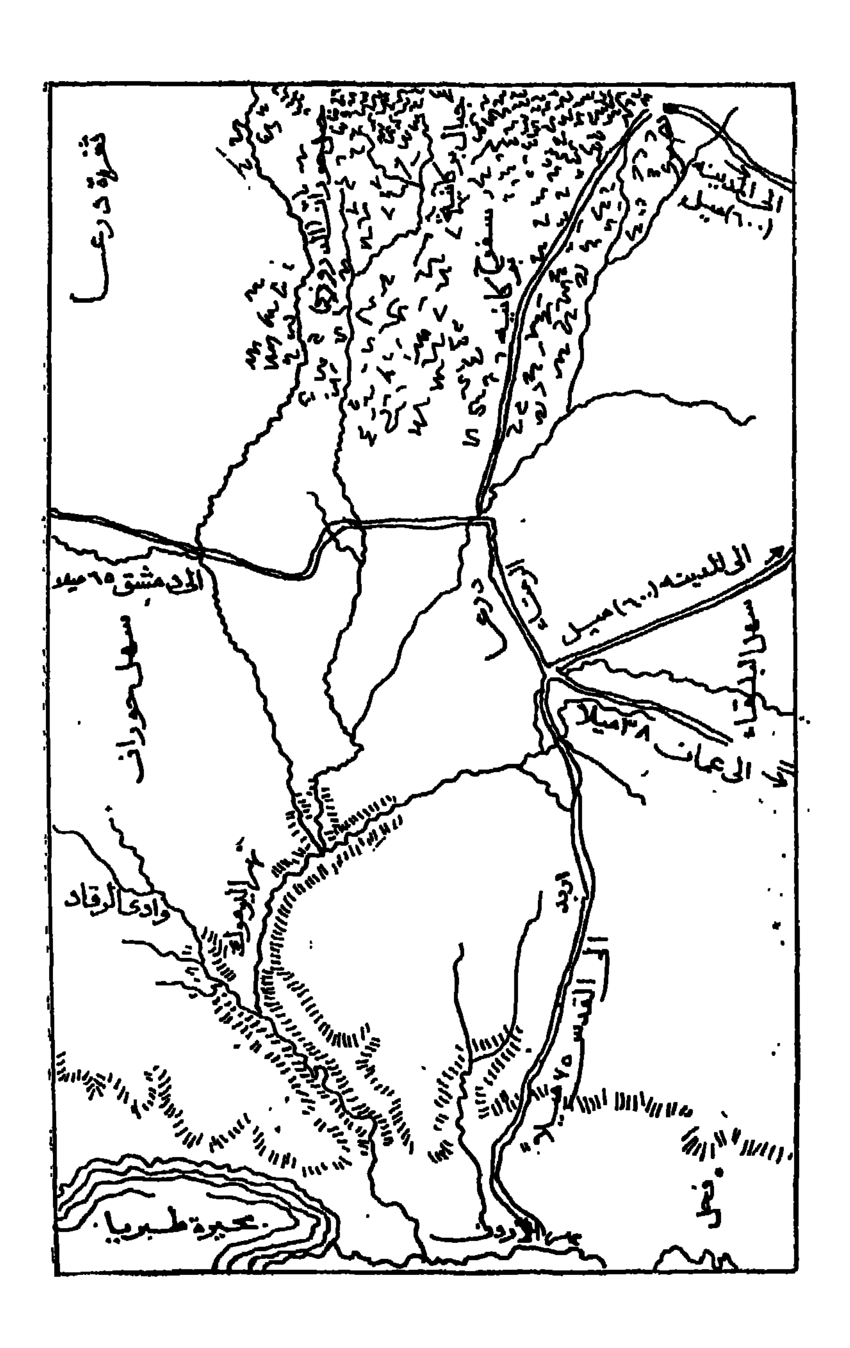
احتلت القوات البريطانية فى يوليو (تموز) عـــام ١٩٤١ كلا من سوريا والعراق ، وكانت القيادة البريطانية تخشى أن يقوم الجيش الالمانى الذى احتل البلقـــان باجتياح تركيا للزحف منهـــا جنوبا عبر سوريا وفلسطين الى مصر التى كان الجيش الالمانى يهاجمها من ناحية الغرب من ليبيا • ولم تكن هناك تقريبا أية قوات فى سوريا وفلسطين • كما لم تكن هناك أية دبابات وأسلحة مضادة للدبابات وكان من الصعب وقف الالمان لو اجتاحوا تركيا بوحداتهم الصاعقة المدرعة ولهذا كان من المهم العثور على جميع المضائق الضيقة الموجودة حيث يمكن لقوات الدفاع أن تصمد أمام القوات الآلية المدرعة وأن توقف زحف الارتال الالمانية ، وقد عهد الى ــ تحقيقا لهذه الغاية ــ بالتحرى فى المنطقة المحيطة بدرعا (١) •

يعتبر نهر اليرموك المسيل المائى الذى يصرف مياه منطقة حوران • وقد قام هذا النهر مع ممر ألوف السنين بحفر أخدود عميق يسيل فيـه ليصب فى وادى الاردن الذى ينخفض نحوا من ثلاثة آلاف قدم عن سهل حوران • ويبدأ هذا الاخدود عند بلدة درعا • وتقوم الى الشرق والشمال الشرقى من هذه البلدة سلسلة ضخمة من الجبال التى ولدتها البراكين الخامدة والتى تكتظ سفوحها بكتل ضـــخمة من الســـوائل البركانية المنصهرة • وتصعب الحركة فى بعض الجهات فى هذه المنـــطقة حتى على المشاة بينما يتعذر السير فيها على الجياد أو الابل أو العجلات مهما كان نوعها • وتهبط هذه النتوءات البركانية نحو السهل تدريجا الى أن تصل تقريبا الى نقطة يصبح فيها نهر اليرموك ضيقا لا يصلح للمرور مطلقا •

---

(١) اعتراف واضح وصريح من جلوب . بأنه كان وهو يقود جيش الاردن الدولة المستقلة اسما ــ ينفذ لبريطانيا أهدافها وغاياتها العسكرية في المنطقة . وقد فضح جلوب باعترافه هذا نفسه . كما فضح استقلال الاردن الزائف . واثبت أن الكيـان الاردنى لم يقم الا لتنفيذ مخططات بريطانيا الاستعمارية وللحفاظ على مصالحها وخططها السوقية. ولعل هذا الاعتراف نفسه يصلح دليلا على اثبات تهمة الخيانة في حرب فلسطين عـــام ١٩٤٨ . اذ أن جلوب هذا كان قائد الجيش الاردنى في تلك الحرب . كما كان رئيس أركان القائد الاعلى للجيوش العربية كلها وهو الملك عبد الله .

(المعرب)

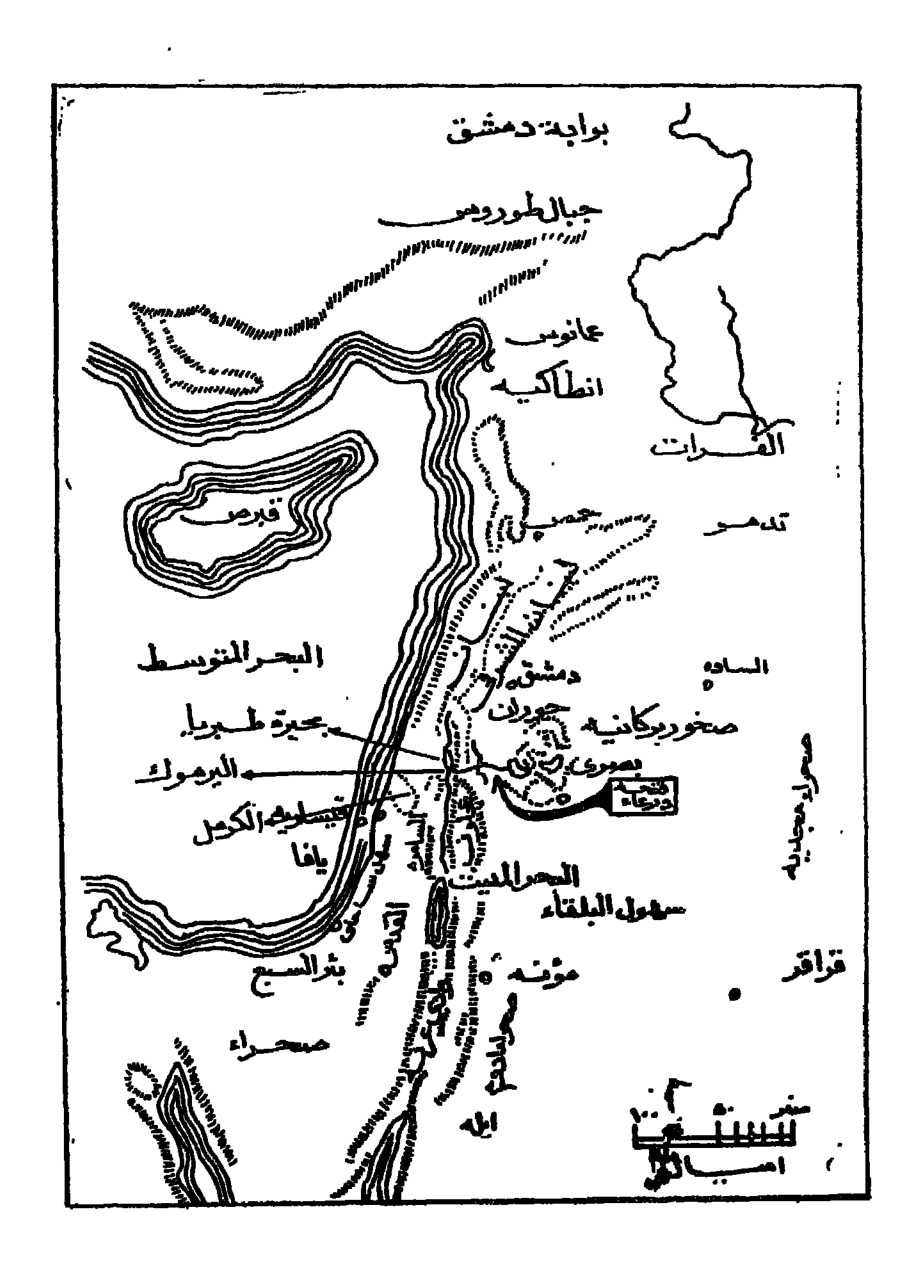

الى دمشق ٦٥ ميلا
سهل حوران
وادى الرقاد
نهر اليرموك
بحيرة طبريا
الاردن
درعا
الى المدينة (٦٠٠) ميل
الى عمان ٣٨ ميلا
الى القدس ٧٥ ميلا
فحل

وعلى الرغم من ان الفجوة الصغيرة بين الارض البركانية وبين اليرموك كانت تعتبر فى عام ٦٣٤ ، وما زالت تعتبر حتى يومنا هذا ، الطريق الرئيسى بين دمشق وبين فلسطين وعمان وايلة (العقبة) ٠ وقد أطلقنا فى عام ١٩٤٥ على هذا المضيق اسم «فجوة درعا» وقررنا أن نحفر فيها خنادق لمقاومة الدبابات وأن نقيم عليها مراكز محصنة للواء من المشاة لاغلاق الفجوة ٠

ويشكو جميع المؤرخين الاوربيين للفتح الاسلامى لسوريا من غموض الروايات العربية وافتقارها الى الدقة فهذه الروايات تذكر المرة تلو المرة ان جيشى العرب والروم كانا متقابلين على نهر اليرموك ثم تعود هذه الروايات وتذكر انهما تفرقا عن المكان دون الوصول الى نتيجة ، فهل وقعت معارك عدة على هذا النهر ؟ ولماذا يتكرر ظهور هذا الاسم — اليرموك — فى الروايات ؟ ان الصورة الصحيحة لم تتضح أمامى الا فجأة وبعد أن قمت باستطلاع هذه المنطقة لاغراض عسكرية ٠ ولقد أدركت ان هذا المضيق على ما هو عليه من نفع فى صد أى هجوم ألمانى من الشمال ، صالح صلاحا أكبر وأكثر أهمية لصد أى هجوم قادم من الجنوب أيضا ، وفى وسعى أن أقول أن « فجوة درعا » تقوم أمام أى غزو من الجزيرة العربية مقام مضيق ترموبولى فى اليونان ٠

ولقد كان الألمان فى عام ١٩٤١ لا يقهرون فى أية حرب آلية صاعقة فهم يزجون فى الحرب بتيهور ضخم من المدرعات والسيارات المدرعة وغير المدرعة والمدافع الذاتية الدفع والتوجيه وفى وسع هذا التيهور أن يجتاح المناطق السهلة مكتسحا أمامه كل مقاومة ٠ وكانت الطريقة الوحيدة فى مقاومة هذا التيهور الآلى الهائل الصمود أمامه فى منطقة ضيقة فى الجبال والمضائق والفجوات الضيقة حيث لا تستطيع القوات الآلية المرور الافرادى ٠

وكان المسلمون سريعى الحركة الى درجة هائلة وكان أسلوبهم المعنوى يتركز فى هجوم عنيف شرس وفى حركات تقدم وتراجع والتفاف تتم بسرعة مع قطع طرق المواصلات والتموين ٠ ولم يكن فى وسع القوات البيزنطية الثقيلة والبطيئة الحركة أن تصمد أمام هذه السرعة فى التحرك فى أراض فسيحة منبسطة ، لكن العرب لم يكونوا قادرين على خوض أية معركة للمشاة متقاربة الصفوف ، يدور فيها القتال بالحراب ٠ فلم يكن جنود المسلمين يملكون أسلحة دفاعية كافية أو دروعا وقائية ولم يكونوا ذوى خبرة فى حروب الصفوف المتقاربة والحسنة الانضباط ٠ يضاف الى هذا افتقارهم الى أسلحة الاسناد الثقيلة ٠ وكانت سحب النبال هى


بوابة دمشق
جبال طوروس
عمانوس
انطاكيه
الفرات
قبرص
حمص
تدمر
البحر المتوسط
دمشق
السماوه
حوران
صخور بركانيه
بحيرة طبريا
اليرموك
بصرى
قيساريه
الكرمل
يافا
البحر الميت
سهول البلقاء
مؤته
قراقر
بئر السبع
صحراء
ايله

نيران التغطية الوحيدة لديهم • ولعـــل هذا الوضع يفسر لنا اجتياحهم السهل لصحارى شرق الاردن وجنوب فلسطين وسهولهـا وخشيتهم من القتال عند الجبال والمضـــائق • وقد فزع البيزنطيون من حرب العرب الصاعقة فأقام جيشهم فى عام ٦٣٤ « كما أقام الجيش البريطانى فى عام ١٩٤١ » معسكرا دفاعيا منيعا على مقربة من درعا فى الثغرة الواقعة بين اليرموك والاراضى البركانية فكان العرب يقدمون على الاشتباك مع الروم أمام هذه المواقع الدفاعية ليعودوا ، فينسحبوا ، ولكن افتقارهم الى العلم العسكرى جعل من الصعب عليهم اقتحام هذه المواقع • ومن هنا يتبين ان عمليات خالد حول تدمر وقرب دمشق التى وصفتها فى آلفصل السابق كانت تهدف الى اقناع الروم بالانسحاب من درعا لحماية مؤخرتهم وهو هدف لم يتحقق على أى حال •

وكان أبو بكر قد أوفد فى غضون ذلك الى سوريا أبا عبيدة بن الجراح أحد الصحابة الكبار • ولا يتحدث المؤرخون المسلمون عن مراكز القادة المسلمين المتعددين أو سلطاتهم • ولكن المفروض ان أبا بكر انتدب أبا عبيدة قائدا عاما على عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل ابن حسنه • ولقد كان أبو عبيده فى أواسط العمر رجلا هادىء الطباع مؤمنا واعيا شديد الايمان وكان قاضيا عدلا ومديرا منظما ولكنه لم يكن عسكريا عبقريا ولذا عندما وصل خالد الى المسرح لم يعترض أبو عبيدة على توليه المسئولية والقيادة العامة (١) •

---

(١) تختلف روايات المؤرخين المسلمين عن رواية المؤلف تمام الاختـلاف فأبو عبيدة لم يات متاخرا كما قال المؤلف وانما كان موجودا على رأس جيشه في المنطقة ، ولم يعينه ابو بكر قائدا عاما وانما كان قائدا على جيشه مثل القادة الثلاثة الاخر • وارى هنا أن انقل للقارىء رواية المؤرخين العرب كما ذكرها الطبرى •••

لما علم الروم بمسير المسلمين اليهم اهتم هرقل بالامر وكان في حمص وعلم بتفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لان العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل امير بأضعاف ما معه• ولما علم بذلك الرؤساء الاربعة تكاتبوا وكان من رأى عمرو بن العاص أن يجتمعوا اذ ان اجتماع المسلمين يمكنهم من الفوز وقال « أما اذا تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن منه لاحد ممن استقبلنا واستحسن القادة الثلاثة رأيه فتواعدوا على اللقاء في اليرموك ، وكتبوا الى أبى بكر فجاءهم كتابه بمثل رأى عمرو وامرهم أن يجتمعوا باليرموك متســاندين وان كل رجل بأصحابه • وبلغ هـرقل ذلك فكتب الى قواده ان اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا منزلا واسع العطل ، واسع المطرد ، ضيق المهرب وكان ذلك في الواقوصـة وهو واد في حوران على ضفة اليرموك وجعلوا من الوادى خندقا لهم وقد وافتهم الجنود الاسلامية الى هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق الا عليهم فصاروا وكأنهم محصورون • وظلوا على هذا الحال طيلة أشـهر

ولم يكن خالد من طراز القـــادة الذين يخلدون الى السكينة والى محاصرة موقع الروم على نهر اليرموك ، ولذا فسرعان ما تحولت العملية إلى حركة هجومية دائمة • وكان أول عمل قام به احتلال مدينة بصرى وهي احدى المدن الاغريقية العشر التى بناها الاسـكندر المقدونى قبـــل نحو من عشر سنوات • وقد صالح أهل المدينة العرب على دفع الجزية •

وكان عمرو بن العاص لا يزال يواصل غزو سهول فلسطين الجنوبية وجمع الغنائم منها ، من القاعدة التى أقامها لنفسه فى وادى عربة • وكان راغبا عن المغامرة واقتحام جبال السامرة واليهودية والكرمل اذ أن العرب كما سبق لنا ان قلنا بارعون فى حروب الصحراء ليس الا •

وكان هرقل امبراطور بيزنطة مقيما فى حمص ويشغل نفســـه باعداد جيش جديد يبعث به الى جنوب فلسطين ويبدو من فكرة ارسال هذا الجيش ان هرقل كان على ثقة من جمود تحصينات اليرموك فى وجه العرب والا لما كان يغامر بارسال جيش الى ذلك المكان النـــائى • وقد استعاد بعمله هذا زمام المبادرة وأرغم العرب على تعديل خططهم لمواجهة خطته •

= صفر وربيع لا يقدرون من الروم على شيء والواقوصة وراءهم والخنـــدق أمامهم وكان المسلمون قد استمدوا أبا بكر في شهر صفر فكتب الى خالد ليلحق بهم • وصادف قدوم خالد ان قدم مدد عظيم على الروم وبلغت عـدتهم ٢٤٠ ألفا وجاء خالد فـــوجد المسلمين يتقاتلون متساندين أى أن كل أمير يحرك جنوده مستقلا من غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الامراء وخطب فيهم قائلا ان هذا اليوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى اخلصوا جهادكم واريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية ، وأنتم على تساند وانتشار ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغى وان من وراتكم لو يعلم علمكم لحال بينكم وبين هـــذا فاعمـــلوا فيمـــــا لم تؤمروا به بالذى ترون انه الرأى ، قالوا فهـــــات فما الرأى قال : ان ابا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى اننا سنتساير ولو علم الذى كان ويكون لكان قد جمعكم ، ان الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفـــع للمشركين من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه ان دان لاحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليـــه ان دانوا له • ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله اعلموا فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاود الامارة فليكن عليها بعضنا اليوم والاخــر غــدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعونى اليكم اليوم فأمروه •

(المعرب)

ونقد سبق لى فى الفصل الثالث من هذا الكتاب أن تحـدثت عن حملات هرقل العسكرية ضد الفرس وسبق لى ان بينت ان هرقل وجد فى نفسه الشجاعة . وكان كسرى ابرويز يحاصر عاصـمته القسطنطينية ليغادر العاصمة عن طريق البحر الاسود لينزل قواته على بعد خمسمائة ميل الى الشرق ، ويزحف بها عـلى أرمينيا ٠ وانتصر هرقل على الفرس فى نينوى ثم أصبح فى وضع مكنه من الزحف على المدائن مرغما كسرى على رفع الحصار عن القسطنطينية والجلاء عن أراضى الروم ٠ ومن الواضح والحالة هذه ان خطة الصمود أمام العـدو فى خط تقدمه الرئيسى ثم ارغامه على الانسحاب بحركة التفافية واسعة تسهلها سيطرته على البحر كانت عملية سوقية يعرفها الامبراطور خـير معرفة وقد شرع الآن فى تنفيذها من جديد ٠

اعتمد هرقل على تحصينات اليرموك لوقف الزحف العربى على دمشق ولاحظ أن عمرو بن العاص وحيـد فى منطقة بئر السبع وراح يبعث بجيشه الرئيسى الى الجنوب نحو فلسـطين عن طريق طبريا فالناصرة فقيسارية التى يستطيع ان يستعملها بعد الآن قاعدة امامية. وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر وفى وسعهم تموين جيوشهم فى فلسطين من ميناء قيسارية أو من مينائى يافا وغزة فيما بعد وكان الهدف من العملية كلها الانتصـار على عمرو بن العاص فى منطقة بئر السبع فى الوقت الذى تنشغل فيه قـوات المسـلمين الرئيسـية فى اليرموك . واعتقد هرقل انه اذا حقق هذه الغاية فانه يصبح قادرا على الزحف الى ايلة (العقبة) ليهدد منها طريق مواصلات المسلمين مع مكة والمدينة مرغما بذلك قواتهم الرئيسية على التراجع عن اليرموك

وينظر معظم المؤرخين ــ على ضوء هزيمة الروم النهائية ــ الى هرقل على انه انسان احمق ضعيف يثير الدهشة لا سيما وقد اظهر جرأة وبسالة ضد الفرس فى الماضى ٠٠ وعجزا فاضحا أمام العرب فيما بعد ٠ ولكن اذا صح تقديرى العسكرى للوضع فاننى أرى أن الامبراطور أراد أن يستعمل فى سوريا وفلسطين نفس الاساليب السوقية الجزئية التى مكنته من الانتصار على كسرى . وكان مفتاح الخطة كما هو واضح تحطيم جيش عمرو بن العاص عند بئر السبع قبل أن تصله النجـدات من جيش المسلمين الرئيسى عند اليرموك .

وكان لابد لانباء زحف جيش الروم فى سوريا الى فلسـطين من ان تصل الى قادة العرب عند اليرموك . ووجد القادة انفسهم فى وضع

غريب وحرج كل الحرج ، فلقد افترقت هذه الجيوش الاسلامية فى بداية زحفها عن الرتل المتجه الى بئر السبع فى الصحراء المحيطة بايلة • وراحت هذه الجيوش تزحف ، مدفوعة بغريزتها فى الميل الى القتال فى المناطق الصحراوية التى تألفها ، نحو الشمال ، الى بصرى ودرعا مخلفة وراءها جبال موآب والبلقاء دون أن تمسها ، لتصبح الى الغرب من خط زحفها ولم تكن هذه الجبال صحراوية بل كانت أراضى مزروعة تنتشر فيها المدن والقرى وتؤلف حاجزا يفصل بين قوات عمرو بن العاص فى بئر السبع وقوات خالد وأبى عبيدة عند اليرموك وعندما وصلت الى مسامع القادة العرب انباء زحف الجيش البيزنطى جنوبا عبر طبرية وقيسارية كان الوقت قد فات على تمكينهم من الوصول الى عمرو بن العاص فى الوقت المناسب عن طريق ايلة ولكنهم آمنوا انهم اذا لم يصلوا اليه بسرعة فان قواته ستنهار وتتحطم .

وتؤلف جبال شرق الاردن – وهى سلاسل عجلون والبلقاء والكرك حاجزا من الصخور لا يمكن اجتيازه • وليس فى هذه السلاسل الا ممر واحد يؤدى الى بئر السبع ويقع الى الجنوب من البحر الميت وتمر هذه الطريق عبر جبال الكرك (موآب) ثم تلتف حول السواحل الجنوبية للبحر الميت لتعود فترتفع عن طريق عين الحصب لتصل الى بئر السبع • أما الى الشمال من هذا الممر فان جبال شرق الاردن تنحدر تماما وبصورة مفاجئة عميقة الى البحر الميت . والى الجنوب من هذا الممر تعود الجبال الى الارتفاع العمودى بحيث يضطر الفرسان أوراكبو الابل الى الترجل عن جيادهم أو رواحلهم ليتجنبوا خطر الهاويات العميقة ولم يكن فى وسع العرب ان يعبروا نهر الاردن الى الشمال من البحر الميت اذ أن الروم كانوا لا يزالون يحتلون القدس وجبالها (جبال اليهودية) .

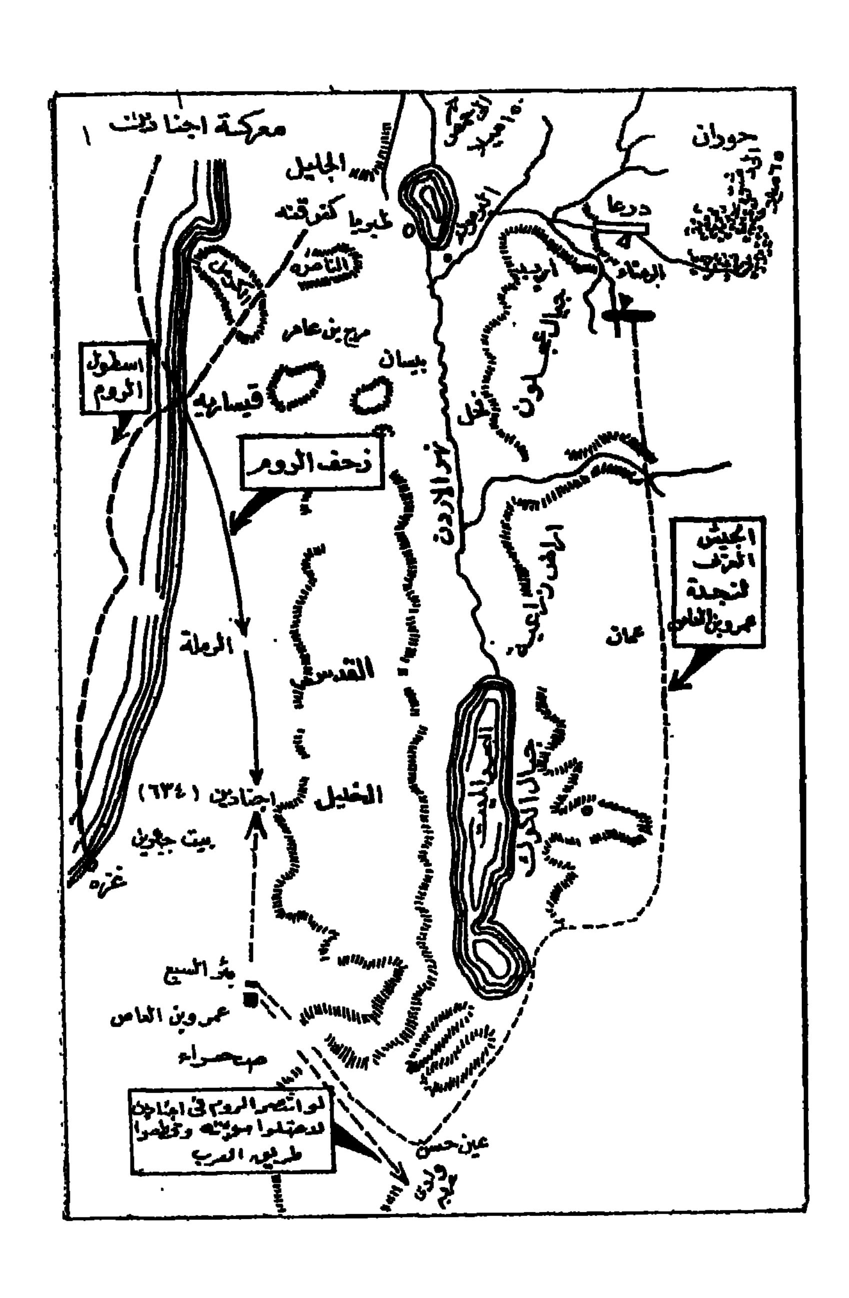
ولم يكن ثمة وقت يضاع قبل نجدة عمرو بن العاص وانقاذه . واختفى العرب فجأة من موقع اليرموك وراحوا يسيرون ليلا ونهارا باتجاه الممر المشار اليه ووجد أهل الكرك (موآب) انفسهم فجأة يواجهون عاصفة قوية من راكبى الابل فراحوا يعقدون الصلح معهم ويفتحون لهم طريق المضيق • وكان يقيم فى بلدة الكرك وقراها أقوام هم من انصاف العرب يدينون بالمسيحية النسطورية . وعلى عداء مستحكم مع الكنيستين الارثوذكسية والرومية الكاثوليكية • وتدفق المسلمون عبر المضيق وعبر وادى عربة ليعودوا فيرتقوا صعدا الى سهل بئر السبع شبه الصحراوى فى الوقت نفسه الذى كان جيش الروم

فيه يزحف جنوبا من قيسارية . وهكذا كسب البدو السريعو الحركة على ابلهم بتعودهم علـى شظف العيش والرحيل ليلا ونهـــارا معتمدين فى غذائهم على قصعة من الخبز ، السباق مع الجيش الرومانى البليـــد المترهل الذى يثقل ســـيره بما يحمله من معدات الحضارة وأدواتها •
ووقعت معركة عظيمة فى شهر يوليو (تموز) من عام ٦٣٤ فى اجنادين التى تقع بين الرملة وبين بيت جبرين ومنى الروم بهزيمة كاملة . وكان خالد بن الوليد قائد هـذه المعركة التى استشهد فيهـا عكرمة بن أبى جهل قائد المسلمين فى حروب الردة فى عمان وحضرموت •

وهكذا طاش ســـــهم هرقل فى معركة اجنادين وتحطمت خطته السوقية لشن الهجوم المضاد وعادت قوات المســـلمين الرئيسية الى اليرموك حيث كانت حصون الروم الدفاعية تقف سدا امام الزحف العربى على دمشق . وترك العرب مؤقتا المناطق الجبلية فى شـــمال فلسطين وشرقها دون ان يمسوها جريا على ما الفوه من ايثار الحرب فى الصحراء أو فى السهول المكشوفة على الاقل ، يضاف الى هذا ان جيش الروم على اليرموك كان القوة المعادية الوحيدة التى مازالت فى الميدان . ولو تمكن العرب من هزم هذا الجيش فان المدن المحصنة ذات الاســـوار يمكن ان تصفى على مهل . وعادت القوات العربية مرة ثانية فى شهر اغسطس (آب) عام ٦٣٤ الى مواجهة حصون البيزنطيين عند ثغرة درعـــا .

***

أرى لزاما علينا على أى حال أن نترك الجبهة الســـورية بعض الوقت لندرس ما وقع من تطورات فى العراق • ولعلنـــا نذكر أن خالدا عبر بادية الشام فى ديسمبر (كانون الاول) عام ٦٣٣ أو فى ينـــاير (كانون الثانى) عام ٦٣٤ على رأس نصف الجيش الاســـلامى من العراق لنجدة قوات المسلمين فى الشام وكان المثنى بن حارثة شيخ بنى شيبان قد تولى قيادة المسلمين بعد رحيل خالد عن العراق ويبدو ان المسلمين فى المدينة لم يكونوا يعلقون كبير اهمية على جبهة الفرس وهذا يظهر من صدور الأمر بسير نصف قواتهم فيها الى سوريا ، ويعهـــد بقيادة من تبقى الى شيخ بدوى • فلقـــد كانت قريش مصرة حتى ذلك التاريخ على احتكار السلطة كلها وحصر القيادات العليا فى رجالاتها . وحتى فى حالة تعيين احد المهاجرين أو الانصار لهذه القيادات فان هذا المعين يكون حضريا من أهل مكة أو المدينة ولا ريب فى أن العصبية التى



معركة اجنادين ١
الجليل
الأردن ١٥٠ الف
طبريا
كفرقنه
الناصرة
الكرمل
مرج بن عامر
بيسان
قيسارية
اسطول الروم
زحف الروم
حوران
درعا
اليرموك
اربد
جبال عجلون
فحل
نهر الاردن
الجيش الزاحف لنجدة عمرو بن العاص
عمان
الرملة
القدس
البحر الميت
جبال الكرك
الخليل
اجنادين (٦٣٤)
بيت جبرين
غزة
بئر السبع
عمرو بن العاص
صحراء
لو انتصر الروم في اجنادين لدخلوا سوريه وقطعوا طريق العرب
عين حسن
وادي

تفصل اليوم بين البدو والحضر كانت موجودة وقوية قبل ألف وثلثمائة عام . ولم يكن المثنى قرشيا أو حضريا بل كان بدويا من بنى بكر ومن هنا كان لابد وان يكون المنصب الذى سمح له بالاحتفاظ به منصبا ثانويا لا أهمية له (١) .

ومهما كان الأصل الذى ينتمى اليه هذا القائد فلقد كان رجلا فذ الشجاعة ، شديد الاخلاص ، والولاء ، على استعداد لمقابلة الشاهنشاه وجها لوجه بحفنة من رجاله البدو . ولم يكن قد انقضى على تبوء الملك الفتى (يزدجرد) عرش الاكاسرة الا فترة قصيرة وراح يعد العدة ليمجد ارتقاءه العرش باخراج هؤلاء الغزاة من أبناء الصحراء . وقرر المثنى ان يخوض المعركة عند خرائب بابل القديمة حيث وقف مع رجاله ينتظرون هجوم الفرس الذين يقودهم أحد الفيلة . ولم يكن العرب قد الفوا بعد طريقة معالجة هذا الطراز البكر من هجمات « الدبابات » . وسرعان ما أوقع الفيل بعض الاضطراب فى البداية فى صفوف العرب . وكانت عادة العرب فى هذه المعارك الاولية ان ينشد قائدهم المجد لنفسه بتولى زمام المبادرة فى البراز وتحدى قائد الاعداء الى مبارزة فردية ليضرب مثلا فى البسالة لرجاله . وراح المثنى يصحبه بعض رجاله يهاجم الفيل فأوقعه أرضا وعندما فقد الفرس عون فيلهم انهزموا وانتصر العرب فى المعركة .

ولا يمكن تفسير ما تميزت به حركات الفرس من بطء وتذبذب فى وجه هذه القوة الصغيرة من البدو التى يقودها المثنى الا بالفوضى التى كانت قد ضربت اطنابها فى امبراطوريتهم فى غضون السنوات الخمس الأخيرة .

وهكذا احتفظ المثنى ورجاله بعد معركة بابل (٢) بمدينة الحيرة وبكلتا ضفتى الفرات من الانبار حتى رأس خليج البصرة وأحس المثنى

---

(١) سبق لى ان بينت في هامش سابق خطل هذا الراى الذى جاء به المؤلف وقلت ان الاسلام لم يفرق بين شخص وآخر الا بالتقوى ، اما اذا كانت القيادات في مطلع العهد الاسلامى من نصيب قريش او الانصار فان السبب في ذلك راجع الى أن الخليفة كان لايزال يعتمد على رجاله من صحابة رسول الله ، لاسيما وان حروب الردة أثبتت انه لا يمكن الركون الى القبائل البعيدة .

(المعرب)

(٢) يطلق العرب على المعركة اسم موقعة الجسر .

(المعرب)

بالقلق فقد أدرك أن الفرس لابد وأن يبعثوا اليه بقوة كبيرة اذ أن حروبهم الأهلية كانت قد انتهت ، فصحيح أن (يزدجرد) كان لايزال فتيا الا أنه لم يلق معارضة فى حكمه وكان الامراء والقادة يبذلون كل ما لديهم من جهود لاعادة تنظيم الدولة والجيش ٠

ولا ريب فى أن المثنى بوصفه رئيسا من رؤساء بكر كان على علم تام بأوضاع الحكومة الفارسية يضاف الى هذا أن المدائن عاصمة الأكاسرة لم تكن لتبعد الا ثمانين ميلا عن مقر قيادته فى الحيرة ٠ ومن المفروض أنه كان على علم بأن الفرس لن يكملوا استعداداتهم لحربه قبل انقضاء بضعة أسابيع ولذا فقد حزم أمره على انتهاز فرصة الهدوء الذى سيسود الجبهة فى هذه الفترة ، وأسرع الى المدينة ليقابل الخليفة شخصيا محتجا اليه على ما يبديه من عدم اكتراث بجبهة الفرس ٠ وقرر أن يلح على الخليفة بوجوب ارسال قوات كافية لنجدة قواته ٠

***

كان أبو بكر يصغر النبى بثلاث سنوات ٠ ولذا كان فى التاسعة والخمسين أو الستين من عمره عندما ولى الخلافة ٠ وقد انقضى العام الأول من خلافته في حروب الردة واخماد العصيان فى الجزيرة العربية ٠ ولقد رأينا فيما سلف كيف أن الخليفة نفسه قاد أهل المدينة لمحاربة القبائل الثائرة في ذى القصة ٠ أما فى السنة الثانية من خلافته فقد اجتاح تيار الحرب فارس وسوريا ٠ وتمكن أبو بكر من قيادة موسم الحج بنفسه ٠ وتذكر أبو بكر أن صديقه ونبيه محمدا كان قد قاد موسم الحج قبل عامين فكانت حجة الوداع ودمعت عينا أبى بكر الوفى وجلس الخليفة في صحن الكعبة « كما جرت العادة منذ أيام الجاهليةحتى اليوم» ٠ وراح يسأل الحجيج عما اذا كان لدى أحدهم مظلمة يود أن يرفعها اليه ليعيد اليه حقه ٠ وتؤكد الروايات : أن أيا من الحجاج لم يتقدم بمظلمة ٠

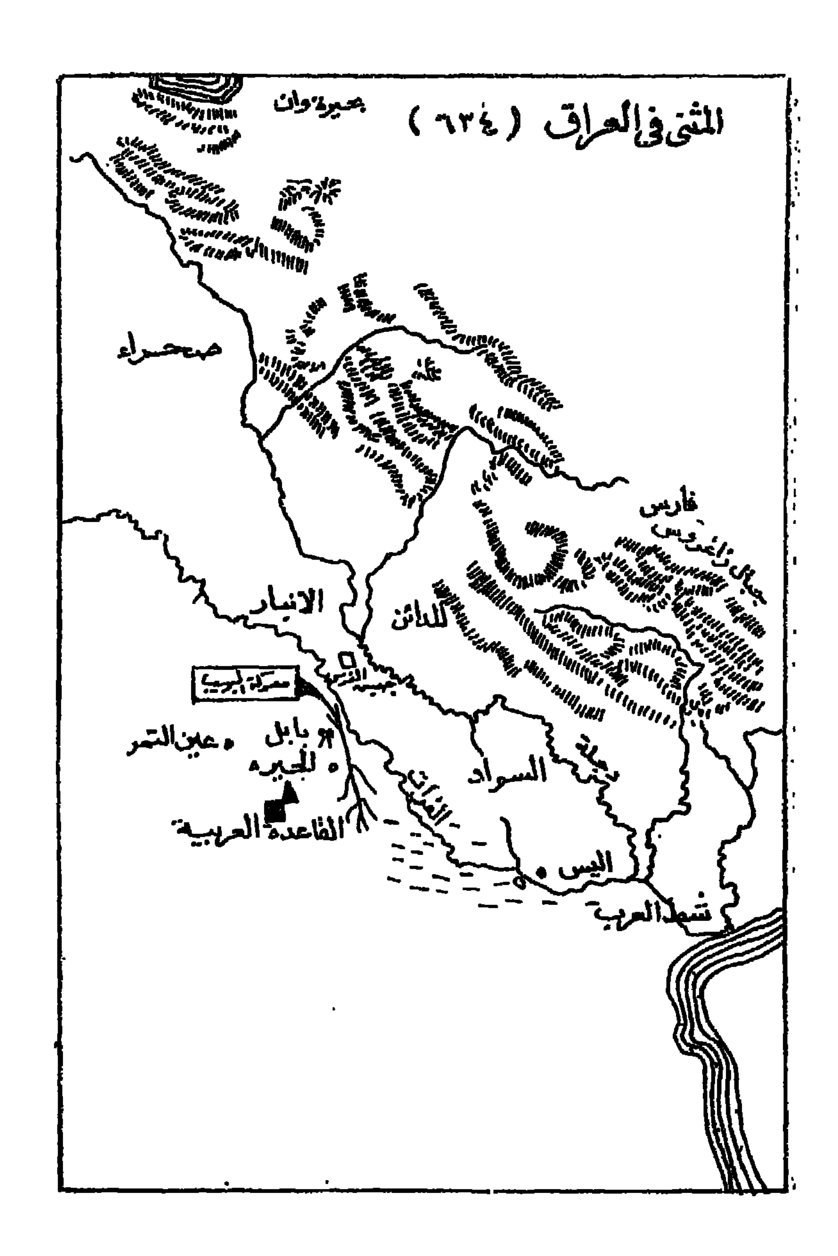
وعاد الخليفة الى المدينة وأخذ يصرف وقته بارسال النجدات الى سوريا حيث كان الجيش الاسلامى عاجزا عن تخطى حصون الروم فى اليرموك ٠ وأصيب الخليفة بالحمى فى شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٤ بعد أن استحم فى يوم قر وأخذت حرارته فى الارتفاع مما أرغمه على ابقاء عمر بن الخطاب ليصلى بالمسلمين نيابة عنه ووصلت اليه وهو فى مرضه أنباء انتصار العرب فى معركة أجنادين مما يشير الى أن المعركة وقعت فى يولية (تموز) عام ٦٣٤ ٠

وظل الضعف يشتد يوما بعد يوم بالخليفة الى أن أدرك بعد انقضاء عشرة أيام أو اثني عشر يومـــا اقتراب أجله ، وعادت به الذاكرة الى الفوضى التى كادت تضرب أطنابها بعد وفاة النبى فقرر أن يختار للمسلمين خليفة ، وراح يدعو عبد الرحمن بن عوف أولا ليتبعه بعثمان بن عفان فطلحة بن عبيد الله فغيرهم من المهاجرين والانصار وكلهم من صـحابة رسول الله ليستشيرهم فى خليفته • ولما وجد أن غالبية الصحابة تؤيد اختيار عمر بن الخطاب مع خشية بعضهم من شدته وحدة مزاجه راح يملى على عثمان بن عفان أمره باستخلاف عمر ، وأوعز بعد ذلك بأن يقرأ أمره على المسلمين المجتمعين فى المسجد ، اذ كان أبو بكر يقيم فى منزل صغير كمنزل النبى يطل على صحن المسجد ثم أشرف على النـاس تمسكه زوجته وراح يقول بصوت جمع فيه كل ما تبقى منقوة •• انه اختار عمر بن الخطاب لخلافته لانه يراه أجدر الناس بها وطلب اليهم أن يسمعوا اليه ويطيعوا فرد الناس بصوت واحد « سمعنا وأطعنا » •

وعندما شعر أبو بكر بنهايته قال : أى يوم هذا ؟ قالوا يوم الاثنين وهو اليوم الذى توفى فيه النبى فقال : فان مت من ليلتى فلا تنتظروا بى لغد ، فان أحب الأيام والليالى الى أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وقد وصل المثنى بن حارثة الى المدينة وقابل أبا بكر وهو يحتضر يسأله ارسال النجدات الى جبهة الفرس وراح الخليفة المحتضر يأمر عمر ابن الخطاب بانتداب الناس لنجدة المثنى وقواته فى العـــراق ثم راح يوصيه بالتخفيف من شدته وحدته • وان يعتمد الاقناع واللين سبيلا له • وسرعان ما انتقل الى الرفيق الأعلى ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتمتم بصلاته الأخيرة وكان ذلك فى الثالث والعشرين من أغسطس (آب) عام ٦٣٤ •

ولقد قيل ان حياة أبى بكر وسلوكه كانا من أقوى الادلة على صدق دعوة النبى واخلاصه فلقد كان أبو بكر من أوائل الصـحابة وكان رفيق النبى فى هجرته من مكة وأقرب الصحابة الى قلبه ولقد كان الخليفة الاول رجلا بسيط الشخصية عميق الايمان والاخلاص • وقد سار على ســنة النبى ولم تؤثر على سبيله فى الحياة الانتصارات العظيمة التى تحققت فى عهده ولا الثروات الطـــائلة التى تدفقت على المسلمين من جراء هـــذه الانتصارات • ولقد ظل يعيش فى بيت بسيط قريب الى ما نسميه نحن بالكوخ مبنى من الطين المجفف واللبن وتغطى سقفه غصون الاشجار ولقد


المثنى في العراق (٦٣٤)
بحيرة وان
صحراء
فارس
جبال زاغروس
الانبار
المدائن
معركة البويب
بابل
عين التمر
الحيرة
القاعدة العربية
الفرات
السواد
دجلة
أليس
شط العرب

ظل رغم أنه الحاكم فى امبراطورية آخذة فى الاتساع السريع يرتدى ملابس بسيطة قوامها قميص من القطن وعباءة خشنة هى عين ما كان يرتديه قبل خمسة عشر عاما عند ما كان مواطنا عاديا فى مكة ، وكان يواصل حلب الشياه لأسرته الصغيرة حتى عندما كانت جيوشه تجتاح فيالق القياصرة وجيوش الأكاسرة .

ولقد ظلت الانظمة المالية للامبراطورية الجديدة فى عهده هى انبساطة بعينها . فلقد كان خمس الغنائم يصل الى المدينة من جبهات القتال حيث يقوم الخليفة بتوزيعه فور وصوله ، وكان يلجأ فى بعض الأحايين الى ابتياع السلاح والخيل والدروع لجنوده من بعض هذا الفيء أما مايتبقى فيوزعه على المحتاجين من المسلمين ولم تكن هناك حسابات منظمة ، أما ما يصيب بيت المال من فراغ فيعالج فورا بما يصل اليه من غنائم جديدة حققتهــا الانتصارات الباهرة .

ولقد جرت سنة رسول الله على عدم الاحتفاظ بشيء من متاع الدنيا لاستعماله الخاص . وعلى الرغم من تدفق مبالغ كبيرة من المال الى يديه على شكل الفيء أو خمس الغنائم ـ فان هذا الفيء كان يوزع عــلى الفقــراء والمحتاجين وأرامل الشهداء . ولقد سار أبو بكر فى كل هذه الأمور كما فى غيرها على سنة الرسول مطبقا اياها بجميع حذافيرها وتفاصيلها .

***

ولا ريب فى أن أنباء معركة أجنادين وصلت الى جبهة اليرموك فرفعت من معنويات العرب فيها بينما أصابت الروم بما يشبه الذهول ، ومهما كان السبب فان القتال ما لبث أن اشتد فى ثغرة درعا وتمكن المسلمون أخيرا فى نهاية شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٤ من احتــلال المواقع وارغام جيش الروم على الانسحاب منها . وهكذا بات باب ســـوريا مفتوحا على مصراعيه أمام جيوش المسلمين وكان خالد بن الوليد هو القائد العام فى هذه العمليات كلها . وتلقى أبو عبيدة ، والمعركة فى ذروتها ، اذ أنها استمرت عدة أيام ، رسالة من المدينة تنبئه بوفاة أبى بكر وبتولى عمر ابن الخطاب الخلافة بعده وحمل نفس الرسول رسالة أخرى من عمر تقيل خالدا من قيادة الجيش وتعين أبا عبيدة مكانه ، ولكن لما كانت المعركة فى أوجها ، فقد آثر أبو عبيدة اخفاء الرسالة الى أن أكمل خالد النصر العظيم الذى كان قد بدأه .

فلقد كان هناك شيء من النفور الشخصى يقوم منــذ أمد بعيـــد بين

الخليفة الجديد وبين خالد بن الوليد ، ولا ريب فى أن القارىء يذكر ان عمر كانقد نصح أبا بكر بعزل خالد من القيادة اثر قتله مالك بن نويرة فى حروب الردة • ولكن أبا بكر رفض مشورة عمر وقبل من خالد تبريره لذلك العمل • وقد أدى هذا الحادث وبعض الحوادث المماثلة الى زيادة النفور بين الرجلين مما حمل الخليفة الجديد على أن يكون عزل خالد وهو أكثر القادة نجاحا من قيادته من أول الاعمال التى قام بها • ومن السهل على من يقرأ هذا أن يتهم الخليفة الجديد بالحقد الشخصى المجرد ، ولكن سلوكه طيلة السنوات العشر التى قضاها فى الخلافة دلل تمام التدليل على أنه كان رجلا شديد الايمان والورع جم التواضع عميق الصدق والاخلاص ، ولقد كان خالد قائدا عظيما وذا كفاية وجرأة قادرا على تسلم زمام المبادرة فى كل حين ، وعلى احتمال المسئولية ، ولكن قيل عنه ان الاسلام لم يكن عميقا فى نفسه ، ويقال انه حصل من النبى قبل وفاته على خصلة من شعره وضعها فى غطاء رأسه ، وكان يعزو نجاته من جميع المعارك التى خاضها الى هذه الرقية • وقد يكون هذا العمل منه ايمانا بالخرافات أكثر منه بالدين ولكنه يظهر على أى حال ايمانا عميقا ومخلصا للرسول •

وعلينا أن نذكر على أى حال ان النبى وأقرب صحابته اليه كانوا يعتمدون فى الوصول الى النصر على المعونة الالهية أكثر من اعتمادهم على البراعة البشرية ، ومن المحتمل أن يكون الخليفة بايمانه البسيط غير المعقد قد اعتقد بأن النصر أكثر ضمانة على يد قائد مثل أبى عبيدة ، وان لم تكن كفايته العسكرية بارزة ، منه على يد عسكرى بارز كخالد بن الوليد يفتقر الى التقى والورع مما لا يجعله موضع عناية الله ورعايته (١) •

---

(١) لا أدرى كيف يسمح مؤلف لنفسه بأن يهبط الى هذا المستوى من الموضوعية كمؤلفنا جلوب • فلقد ركز كل تفكيره على محاولة النيل من خالد ومن صدق اسلامه وطعن ايمانه دون أى مبرر أو سند تاريخى • سوى تأخره في الاسلام وحادثته مع مالك ابن نويره • وقد سبق لنا ان بينا ان لخالد عذره حتى من الناحية الدينية في قتل مالك لانه مرتد ولانه نقض عهد الله ورسوله وعصي وهو الحاكم المعين من النبى ، أمر خليفته كما أن التأخر في الاسلام لا يمكن أن يكون مبررا للطعن في ايمانه ، فلقد تأخر عمر ابن الخطاب نفسه عن الاسلام ولكنه كان من أصدق صحابة الرسول بعد اسلامه وتأخر غيره كثيرون ثم صدقوا اسلامهم وابلوا في سبيل الله بلاء حسنا كأبى محجن الثقفى وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما من ابطال الحرب الذين قدموا ارواحهم في خدمة الاسلام وهذا هو مثال التضحية .

يضاف الى هذا أن النبى أسمى خالدا بسيف الله ولم يكن ليطلق عليه هذا الاسم لولا ثقته بايمانه . وعندما عزل خالد من قيادة الجيش قال : الحمد لله الذى =

والغيرة الشخصية نقيصة من أشـــد النقائص وأقواها فى الخلق العربى (١) وكان من المنتظر من شخص عنيد وصلب كخالد أن ينسحب حاقدا مغيظا من الجيش والحياة العامة لهذا العـــزل الذى كوفىء به على انتصاراته العظيمة الرائعة ، لكن شيئا من هذا لم يحدث مطلقا فلقد أسلم خالد القيادة عن رضى الى أبى عبيدة الدمث التقى ، وقنع بالعمل تحت لوائه ويبدو أن هذين الرجلين قد توصلا على الرغم مما بينهما من خـــلاف فى الشخصية الى شىء من التفاهم الشخصى الوثيق • ولايتحدث المؤرخون عن وقوع أى احتكاك نابع عن الغيرة بينهما • وليس ثمة من ريب فى أن أبا عبيدة المتواضع السمح كان على استعداد لتقبل نصيحة مساعده الجبـــار القوى فى كافة الشئون العسكرية ، كما ان الانتصارات المذهلة التى حققها خالد للقضية العربية لا بد وأن تكون قد كسبت له اجماع المسلمين على احترامه واجلاله حتى ولو لم يعد قائدهم العسكرى بصورة رسمية •

= قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب الى من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر وكان ابغض الى من ابى بكر ثم الزمنى حبه ، وفي هذا القول مثـــل سام من امثلة الايمان والارتفاع عن الانتهاز والحزازات والاحقاد . وقد اثبت خالد ايمانه فعلا فظل يحارب طيلة فتوح سوريا تحت امرة ابى عبيدة كجندى بسيط من جنود المسلمين ويبلى في كل معركة بلاء حسنا متفانيا في ايمانه الى ان توفاه الله فى حمص وقال قبل وفاته قولته المشهورة التى تشير الى الايمان العميق وحب الاستشهاد في سبيل الله .

ويبدو ان المؤلف لم يستطع أن يفهم أو لم يرد أن يفهم ان ما كان بين عمـــر وخالد لم يكن خلافا شخصيا نابعا من حزازات أو أحقاد وانما كان خلافا بين عظيمـــين ومؤمنين صادقين في الرأى سواء في الخطة العسكرية أو في معاملة المشركين بعد اخضاعهم، لكن المؤلف سار في محاولته استغلال حادث عزل خالد على غرار ما فعله بعض المؤرخين الشعوبيين من المسلمين الذين رأوا فى الحادث وسيلة للنيل من عمر وخالد فى وقت واحد .

(المعرب)

(١) جعل المؤلف من نفسه هنا محللا نفسيا يطلق الاحكام العامة على أمة بأسرها ولا ريب فى أن السنوات التى قضاها مع العرب فى خدمة امبراطوريته واســـتعمارها فى الوطن العربى ، قد اضفت عليه صفة الغرور المطلق التى حملتـــه على اصدار مثـــل هذا الحكم العام دون أن يقيم الادلة عليه ، أو يثبت صحته .

والقول بأن هذا الشعب يتصف بهذه الصفة العامة أو تلك فكرة عنصرية نابعة عن الايمان بالتمييز العنصرى على أساس الطبائع والصفات فهى والحـــالة هذه تتنـــافى مع العلم المجرد ومع النظر الى الانسان كانسان دون تمييز يقوم على العنصرية .

فالغيرة الشخصية غريزة بشرية تقوى عند بعض الناس كأفراد لا كشعوب وتتحول الى انتهاز وأثرة وعمل للمصلحة الذاتية وتضعف عند البعض الآخر كأفراد أيضـــا فتتحول الى ايثار وتضحية ونكران للذات . ومن هنا كان خطأ المؤلف في تعبيره وجاء سلوك خالد بعد عزله وهو الذى أورده بعد حكمه مناقضا لرأيه تمام المناقضة .

(المعرب)

تواريخ مشهورة

معركة بابل فى العراق	ربيع عام ٦٣٤
معركة اجنادين فى فلسطين	يوليو (تموز) عام ٦٣٤
وفاة أبى بكر	٢٣ أغسطس (آب) عام ٦٣٤
معركة اليرموك الاولى	نهاية آغسطس آو أوائل سبتمبر (أيلول) ٦٣٤

شخصيات مشهورة

أبو عبيدة	القائد العام الجديد فى سوريا
عمر بن الخطاب	الخليفة الثانى للمسلمين
المثنى بن حارثة	قائد المسلمين فى العراق
عمرو بن العاص يزيد بن أبى سفيان شرحبيل بن حسنه	قادةالجيوش الاسلامية فىفلسطين وسوريا
خالد بن الوليد	عزله عمر عن القيادة العامة
يزدجــــرد	كسرى الفرس الجديد

***

المعركة تتأرجح

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شـــيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

القرآن الكريم ــ سورة البقرة

***

« قد لا يكون من المهم من يتولى قيادتنا العامة ، اذا كان الله هو قائدنا »

أوليفر كرومويل

***

بدا الخليفة الجديد مختلفا فى نواح عدة ، اختلافا كبيرا عن سلفه فلقد كان أبو بكر رجلا نحيلا ،ضعيف البنية ؛ شاحب الوجه فى شيخوخته وذا مزاج وادع ومتسامح • أما عمر فكان طويل القامة ، فارع العود ، حتى انه كان كما يقول كاتب عربى يرتفع بهامته فوق الناس وكأنه يمتطى جوادا •وكان ذا مزاج حاد ، ميالا الى الاغراق فى الحديث والعنف والاحتدام فيه ، و أكثر تعلقا بالصرامة منه باللين • ومع ذلك كان فى وسع أبى بكر الوادع الدمث ، أن يعرض وقت الازمات صلابة وحيوية دينامية دافقة • كما كان عمر الحاد المزاج • يعرض فى بعض الحالات وبنفس الطريقة لينا يفوق لين أبى بكر الهادىء الوديع • وكان الرجلان متفقين فى خصلة واحدة على الاقل • وهى تصميمهما المطلق على اتباع سنة الرسول فى كل تفصيل من تفاصيلها • وقد حملهما هذا التصميم على التواضع • اذ انهما لم يكونا يبحثان عن نفعهما الخاص أو عن أمجادهما الخاصة • وأظهر الرجلان تلك البساطة الشفافة التى تميز دائما الرجال المخلصين لدينهم • ولقد روى عن النبى انه قال عن عمر « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » •

وعلى الرغم من أن الخليفتين الاولين كانا يحتلان سلطانا لا يقل عن سلطان الاباطرة الا انهما ظلا فقيرين ، يلبسان ثيابا بسيطة عادية ويعيشان فى بيتهما حياة الفلاحين الفقراء • ويروى عن عمر نفسه انه لم يسمح لنفسه الا بارتداء لباسين أحدهما للشتاء والآخر للصيف • ولا يأخذ من المال الا ما يمكنه من اداء فريضة الحج • وكان طعامه وطعام أسرته لا يعدو أن يكون طعام أى رجل عادى من قريش ليس من أغناهم ولا من افقرهم • وكان يتوقع من مساعديه أن يسيروا على منواله فى خشونة العيش وشظفه • وكان عندما يعين حاكما لمقاطعة تم احتلالها ، يحرص أشد الحرص على تحذيره من عدم الركون الى رغد العيش ولينه فى المآكل أو فى الملبس ومن اغلاق بابه فى وجه الفقراء والمساكين • وعد بعض الشهود عدد الرقع فى ملابس الخليفة ويقولون انه لم يكن يصطحب خيمة معه عندما يعتزم القيام بأى سفر ، بل كان يكتفى بالقاء عباءته على شجيرة صغيرة لينام فى ظلها • ومازال البدو يفعلون ذلك حتى يومنا هذا • وكثيرا ما عملت الشيء نفسه وأنا أرتحل فى صحبتهم •

سبق لى أن رويت فى الفصل السابق ، ان المسلمين كانوا فى مطلع سبتمبر (أيلول) عام ٦٣٤ قد اجتاحوا حصون الروم فى اليرموك ٠ وتقدموا الى منطقة حوران التى لم يسبق لعملياتهم الحربيـــة أن وصلت اليهـــا والواقعة الى الجنوب من دمشق ٠

وعندما زحف جيش الروم الى سهول فلسطين الجنوبيـــة ، ليمنى بأشنع هزيمة فى تاريخه فى أجنادين كان قد سلك فى زحفه الطريق من بعلبك الى طبريا عابرا التلال المنخفضة المطلة على بحيرة الحولة ٠ والتى ألقى عليها السيد المسيح موعظة الجبل المعروفة ٠

ومن المحتمل أن يكون جيش الروم قد شرع فى ارتقاء الطريق الصاعد من طبريا الى الناصرة عن طريق كفركنه ، حيث أحال المسيح الماء الى خمر ، ومن الناصرة الى قيسارية عن طريق مرج ابن عامر ٠ وكان هذا الطريق محميا من أى خطر عربى ، لاسيما وقد عرفنا ان العرب كانوا يرابطون عند درعا فى قلعتى فحل وبيسان ٠ وكانت مدينة طبريا نفســها من المــدن المحصنة ٠ أما فحل فكانت مركزا من المراكز المهمة كل الاهمية اذ كانت احدى المدن العشر التى بناها الاسكندر المقدونى والتى يقع عدد منهـــا فى هذه المنطقة بنيها قدس التى ورد ذكرها فى التوراة وبصرى التى رأينـــا المسلمين يفرضون الجزية عليها وفيلادلفيا التى أصبحت الآن عمـــان ٠ وجيراسة التى أصبح اسمها الآن جرش ٠ وكانت الطرق المهمة تمر فى القرن السابع فى هذه المنطقة ٠ كما كانت تمر بها فى أيام الاسكندر أى قبل نحو من ألف عام ٠ وكان من المهم بالنسبة الى الرومان أن يدافعوا عن هذه الطرق ضد غزاة الصحراء ٠ وكانت الطريق الحربيـــة الرئيسية من الشمال الى فلسطين تمر من دمشق الى درعا فالربض وبيسان ٠ وكانت حصون اليرموك تغلقها فى وجه أى عدو ٠ ومن هنا وجـــد الدافع فى أن يبعث هرقل بقواته عن طريق طبريا والناصرة الى اجنادين ٠

ويذكر القارىء ان القوات العربية الرئيسية سارعت بالعودة بعـــد معركة اجنادين الى اليرموك ٠ بينما ظل عمرو بن العاص على رأس قواته فى بئر السبع ٠ ومن المحتمل أن تكون فاول جيش الروم قد انســحبت بعد هزيمة اجنادين الى القدس وقيسارية حيث ذهب شطر منها الى فحل لتهديد مواصلات الجيش العربى المتحرك الآن باتجاه الشمال الى دمشق ٠ ويبدو أن قادة المسلمين قرروا الاستيلاء على فحل لحماية مواصــلاتهم ٠ وتتضمن الروايات العربية بعض الاشارات الغامضة الى الفيضانات التى أحدثها الروم عند فحل لعرقلة الزحف العربى عن طريقهـــا ٠ ويكفى أنه

نقول الآن ان أبا عبيدة زحف فى يناير (كانون الثانى) أو فبراير (شباط) من عام ٦٣٥ ، على فحل • فهزم القوة الرومانية فى خارجها ، والمعتقد أن الهزيمة تمت فى وادى الاردن الذى تغمره الفيضانات وفرض الحصار على البلدة نفسها •وطلب أهلها التفاوض على الاستسلام فى النهاية ووافقوا على أن يدفعوا الجزية عن رءوسهم والخراج عن أرضهم الى المسلمين • وأمنهم أبو عبيدة مقابل ذلك على أنفسهم وأموالهم وأمر بألا تهدم مساكنهم وحيطانهم (١) •

ولما تأكدالعرب من سلامة طريق مواصلاتهم تقدموا شمالا الى دمشق وبذل الجيش الرومانى آخر محاولة لانقاذ المدينة • فوقف أمام العرب فى معركة مرج الصفر التى يعتقد انها وقعت على بعد عشرين ميلا الى الجنوب من دمشق •

ولقد خاض فرنسيو فيشى فى عام ١٩٤١ ، معركة فى المكان نفسه تقريبا كمحاولة منهم لانقاذ دمشق عندما غزا الجيش البريطانى سوريا عبر ثغرة درعا • وفى هذا المكان مواقع استراتيجية تصلح للدفاع (٢)• وقد دارت معركة مرج الصفر فى شهر فبراير (شباط) عام ٦٣٥ •وانتصر العرب من جديد ، وانسحب الجيش البيزنطى بعد معركة كلفته الكثير من الخسائر وخاضها الروم ببسالة ، وهكذا وصل (٣) العرب الى أسوار دمشق فى أواسط مارس (آذار) عام ٦٣٥ •

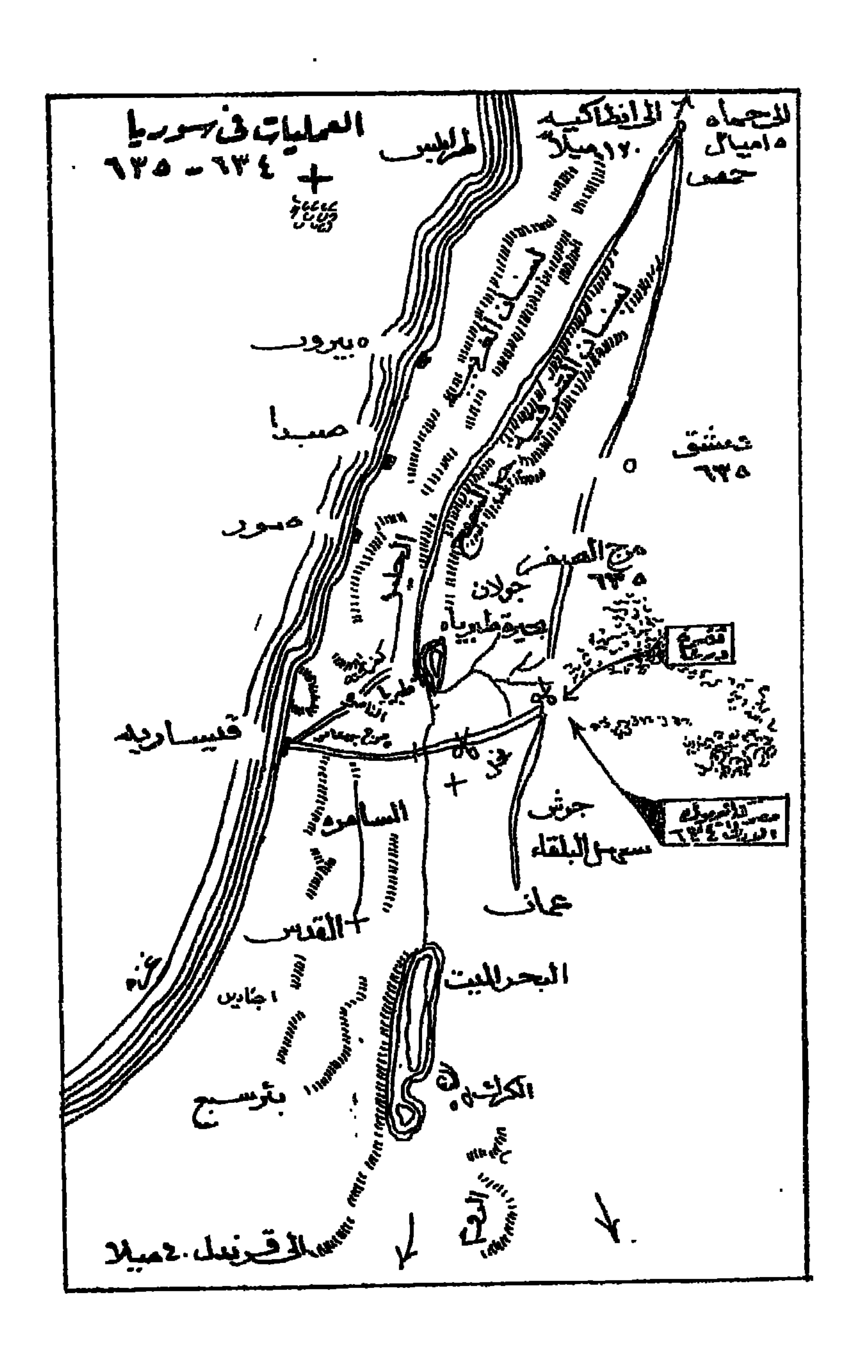
يذكر القارىء أن ارتال المسلمين التى بعث بها أبو بكر الى سوريا كانت بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وعندما جاء خالد من العراق تولى القيادة العامة التى أسلمها بعد تولى عمر ابن الخطاب الخلافة الى أبى عبيدة • وقد احتفظ خالد بقيادة القوة التى جاء بها من العراق • وهكذا أصبحت جيوش العرب فى سوريا مقسمة الى أربعة أرتال متفرقة بقيادة عليا واحدة ، هى قيادة أبى عبيدة •

---

(١) تقول روايات أخرى ان معركة فحل وقعت بعد احتلال دمشق . ولكن المعتقد أن هذه الرواية هى الصحيحة اذ انها اقرب الى المنطق .

(٢) يقال ان بولس الرسول . رأى الرؤيا التى مالت به الى المسيحية على هذا الجبل .

(٣) يقول البلاذرى ... ثم اجتمعت الروم جمعا عظيما وأمدهم هرقل بمدد فلقيهم المسلمون بمرج الصفر وهم متوجهون الى دمشق فاقتتلوا قتالا شديدا حتى جرت الدماء في الماء وجرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف ثم ولى الكثرة منهزمين مغلوبين لا يلوون على شيء حتى أتوا دمشق .


العمليات في سوريا
٦٣٤ - ٦٣٥
طرابلس
حمص
لبنان الغربي
لبنان الشرقي
بيروت
صيدا
صور
دمشق
٦٣٥
مرج الصفر
٦٣٥
جولان
بحيرة طبرية
الجليل
قيسارية
السامرة
القدس
جرش
سهل البلقاء
عمان
البحر الميت
اجنادين
بئر سبع

ورابط خالد بجيشه الذى يعد نحوا منخمسة آلافعند باب دمشق الشرقى وحل أبو عبيدة عند الطرف الجنوبى الغربى منها • فى حين تقاسم القادة الآخرون أطراف الاسوار كلها •

ولم يكن العرب قد ألفوا حصار المدن الكبيرة • أو تدربوا عليه أو أعدوا له العدة بما يحتاج اليه من سلاح • ولقد سبق لنا أن رأينا كيف ان النبى أنقذ المدينة من قريش بابتكاره وسيلة حفر الخندق حولها • ولكن على الرغم من أن العرب لم يكونوا قادرين على قصف أسوار المدينة بأى سلاح منأسلحتهم • الا أنهم كانوا ولا شك كبيرى الفعالية فىاجتياح المناطق المجاورة وقطع المدينة عن طريق مواصلاتها وتموينها • ويبدو أن حصار دمشق قد بدأ فى النصفالثانى منشهر مارس (آذار) عام ٦٣٥ • ولكن العرب لم يحققوا أى نصر قبل الايام الاخيرة من صيف ذلك العام • فلقد مكن قرب دمشق من الصحراء أهلها من أن يكونوا جد عليمين بطبيعة البدو المتقلبة وكانوا يرجون أن تؤدى اطالة الحصار شهرا أو شهرين الى تثبيط عزيمة البدو وأن يذوب الجيش العربى تماما كما ذاب جيشقريش أمام المدينة •

ويذكر القارىء أن خالد بن الوليد كان قد اشتبك مع الروم خارج مدينة دمشق ابان مسيرته المشهورة من العراق • ويقال بأن اتصالا جرى بين خالد وبين أسقف المدينة النصرانى ابان هذا الاشتباك (١) • ولسنا على ثقة من أن هذا الاتصال قد تم فى المرة السابقة ولكننا نعرف الآن أن مثل هذا الاتصال جرى فى هذه المرة أى فى صيف عام ٦٣٥ ، ولا ريب فى أن هذا الاسقف كان من النساطرة آى معاديا للحكومة البيزنطية والكنيسة الارثوذكسية اليونانية •

وتختلف الروايات فى كيفية فتح دمشق فى بعض تفاصيلها وتقول أكثر الروايات ثقة ، ان الاسقف بعث رسولا الى خالد ليقول له ان المدينة ستحتفل فى ليلة حددها ، وان الباب الشرقى سيظل بلا حراسة تقريبا فى تلك الليلة • وكان هناك دير مسيحى خارج الاسوار • ويعتقد أن الدير كان تابعا لسلطان هذا الاسقف • وقد قدم الدير للعرب سلمين•وما لبث العرب أن نصبوهما على الاسوار عند الباب الشرقى قبيل الفجر •وتسلق عدد من العرب يقودهم القعقاع بن عمرو شيخ بنى تميم ــ الذى كان قد وفد

---

(١) يقول البلاذرى : ونزل خالد بالباب الشرقى فاخرج اليه اسقف دمشق نزلا وخدمة فقال احفظ لى هذا العهد فوعده بذلك . ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين وهم بقناة بصرى • (المعرب)

مع خالد من العراق - الاسوار بهدوء وصمت . وسرعان ما قتلوا حارس الباب ، وفتحوه لجموع المسلمين . وقبيل شروق الشمس كان العرب يقتحمون المدينة ، ويعلون الاسوار وهتافاتهم « الله أكبر » « الله أكبر » تعلو الى كبد السماء وفي أيديهم السيوف والخناجر (١) .

---

(١) تتفق الرواية التي أوردها المؤلف مع رواية البلاذري الذي يسرد الكتاب الذي صالح به خالد الاسقف على دخول المدينة وهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى به خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها اعطاهم امانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم . ولا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلعم) والخلفاء والمؤمنين لايعرض الا بخير اذا أعطوا الجزية » . ولكنها تختلف مع رواية البلاذري في أن هذا يقول ان خالدا دخل من الباب الشرقي صلحا وان ابا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة وانهما التقيا بالمقسلاط وهي رواية أكثر منطقا من رواية المؤلف - اي جلوب - الذي يحاول أن يجمع بين رواية البلاذري هذه وبين الرواية الاخرى التي يوردها الطبري وهي ان خالدا كان لاينام ولا ينيم ولا يخفى عنه شيء من أمر العدد وهو معنى بما يليه فاتخذ حبالا كهيئة السلالم وادهاقا فبلغه ذات ليلة ان الناس غافلون في فرح لعظيمهم فنهد بمن معه من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع وقال للجند اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا الباب . فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم ، اخذوا يتسلقون وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق حتى اذا استووا على السور حدر عامة أصحابه معه . وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي . وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهد المسلمون الى الباب ومال الى الحبل بشر كثير وانتهى خالد الى اول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار اهل المدينة وفزع سائر الذين ارادوا الدخول عنوة وخاف اهل دمشق . فذهبوا الى الابواب الاخرى يطلبون الصلح . فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة . فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا واولئك صلحا .

يتضح من هاتين الروايتين ... ان جلوب : -

١ - اخذ من الرواية الاولى نصفها اي اتصال خالد بالاسقف لينفي الفضل في افتتاحها من خالد وينسبه الى عون الاسقف ومساعدة أهل الدير .

٢ - عاد فأهمل النصف الثاني من الرواية الاولى ليأخذ النصف الثاني من الرواية الثانية ويظهر خالد بمظهر المتنكر لعهده مع الاسقف .

٣ - تجاهل أن خالدا نفسه هو الذي قاد الفرسان الذين تسلقوا الاسوار ولو صح أن خالدا قد اتصل بالاسقف واعتمد على معلوماته ومساعداته لما اخلف عهده له ولا سيما بعد كتابه له . ولهذا فانني أرى أن الرواية الاخيرة هي الصحيحة وان الاتصال الذي جرى بين خالد وبين الاسقف - ان صح وقوعه - لا يعدو أن يكون اتصالا عاديا . اذ أن الاسقف كان عاجزا عن حمل الوالي الروماني على قبول شروط خالد ...

(المعرب)

ولم يكد والى المدينة الرومانى يسمع نبأ المعركة٠حتى بعث برسول على جناح السرعة الى أبى عبيدة ٠ يعرض عليه صلح المدينة وتسليمها ٠ ولم يكن القائد العام قد عرف بأن خالدا قد دخل المدينة عنوة من الباب الشرقى ــ وهى حقيقة لو صحت لدلت على الافتقار الى شىء من التعاون بين القائدين ومن الممكن من الناحية الاخرى أن يكون أبو عبيدة على علم بأن المسلمين قد دخلوا الى المدينة ٠ ولكنه كان بعيد النظر وكان يتوقع أن تغدو دمشق عاصمة اقليمية للعرب ٠ ولذا حرص على تجنب سفك الدماء فيها وعلى تجنب انزال السلب والنهب بها ٠ ويكفى أن نقول ان الوالى الرومانى فتح باب المدينة الجنوبى الغربى لأبى عبيدة فى حين أن القتال كان لايزال دائرا فى الناحية الشرقية منها ٠

والتقى القائدان فى سوق النحاسين فى وسط المدينة ٠ وقد أبلغ أبو عبيدة مساعده المتحمس ان القتال يجب أن يتوقف ، اذ أن الصلح قد عقد على تسليم المدينة٠ ويقال أنخالدا تذمر بادىء ذى بدء مؤكدا أن المدينة قد احتلت عنوة لا صلحا ٠ ولكن أبا عبيدة الوقور ــ أصر على أى حال على وجوب احترام الصلح الذى وقعه مهما كانت طريقة دخول المدينة ، وهكذا نجت هذه المدينة العظيمة العريقة ــ والتى تعتبر من أقدم المدن فى العالم اذ ورد ذكرها فى سفر الخليقة ــ من الدمار والنهب وسفك الدماء ، واستسلمت على الغالب فى شهر أغسطس (آب) أو سبتمبر (أيلول) من عام ٦٣٥ ٠

وهناك رواية عربية أخرى تعكس الدورين اللذين قام بهما القائدان فهذه الرواية تؤكد أن خالدا عقد الصلح مع الوالى الرومانى بينما دخل أبو عبيدة عنوة من باب الجابية ، ولكننى أرى أن الرواية الأولى أقرب الى الصدق والصحة لأنها أكثر اتفاقا مع طبيعة القائدين ٠

ونصت شروط الصلح على دفع الجزية بواقع دينار وجريب من القمح عن كل رأس ٠ وتقول بعض الروايات ان الصلح نص على تقسيم بيوت المدينة وبيعها وكنائسها مناصفة بين الفاتحين العرب وبين أهلها ٠ وكانت نتيجة ذلك تقسيم كاتدرائية القديس يوحنا الكبيرة بسور عال فى وسطها٠ فأصبح نصفها مسجدا يؤدى فيه المسلمون صلواتهم الجماعية فى حين ظل النصف الآخر كنيسة تقام فيها الطقوس المسيحية حتى يومنا هذا ٠

وقد ظلت الجيوش العربية منذ واقعة اجنادين نحوا من عام مركزة على الحملة بين اليرموك ودمشق ولكن مع سقوط دمشق خيل الى العرب ان مقاومة البيزنطيين قد انتهت ٠ ولذا فقد عاد كل رتل من الارتال الى

المنطقة التي كان قد وجه اليها في البداية • أجل عاد عمرو بن العاص الى فلسطين وفرض الحصـــار على القدس التي لم يستطع « كعادة العرب » مهاجمتها لاقتحامها عنوة • واتجه شرحبيل بن حسنة الى الاردن حيث استسلمت له طبريا وبيسان • وتحرك أبوعبيدة باتجاه الشمال فاستسلمت له بعلبك وحمص وحماة • وأقام خالد قيادته في حمص ، التي كان هرقل يرابط فيها في السابق • ثم اضطر الى الانسحاب منها الى انطاكية • ويذكر القارىء ولا شك أننا قلنا أن السلسلة الجبلية المسماة بالبلقاء وعجلون كانت في عهد معركة اجنادين في يد الروم وان كان العرب قد شقوا لهم طريقا فيها عنــد منطقة الــكرك لنجدة عمرو بن العــاص في بئر الســبع وعاد يزيد ابن أبي سفيان جنوبا الآن لتدارك مافات فاســتسلمت له منطقة الكرك كلها وجبال الشراة والبلقاء حتى موقع قرندل الذي أقمت فيه بعد نحو من ألف وثلاثمائة سنة قلعة للجيش الاردني • ولم تصمد في وجه العرب الا القدس وقيسارية في فلسطين والا مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس الساحلية في الشمــال اذ ظلت على ولائها للروم تشجعها في ذلك سيطرة هؤلاء على البحر •

كان هذا هو سير الاحداث في الحملة الســورية في عام ٦٣٥ ، وهو العام الاول من خلافة عمر بن الخطاب وجدير بنا أن نلتفت الآن الى دراسة الوضع في جبهة الفرس في الفترة ذاتها •

***

سبق لنا أن رأينا أن آخر ما فعله أبو بكر قبل وفاته ، استقباله المثنى ابن حارثة الشيباني • الذي كان قد طار من العراق الى المدينة ينشد العون من الخليفة ويطلب الاهتمام بالجبهة الفارسية المهملة • وكان أول ما فعله عمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة عزل خالد بن الوليد من قيــادة الجيش العامة في سوريا أما الخطوة الثانية فكانت تنفيذ امر أبي بكر ، قبل وفاته بارسال جيش جديد الى العراق لنجدة المسلمين فيه ، ورافق البطء سير التطوع في بداية الامر • اذ كانت الفكرة الغالبة على العرب ، أن الفرس أكثر كفاية في القتال من الروم • وهكذا ظل التطوع بطيئا على الرغم من الخطاب الذي القاه المثنى في صحن المسجد طالبا النجدة ــ ومغريا العرب

بكثرة الغنائم التى يحصل عليهـــا من يختار سبيل الله ويحارب عبدة النار (١) ٠

وكان أول منتدب للسير مواطن من أهل الطائف يسمى أبا عبيد ٠ وعندما تكاثر عدد المتطوعين اقترح بعضهم على عمر أن يختار قائدا عليهم اما من المهاجرين أو من الانصار أو من صحابة رسول الله لكن عمر ، كان ،كما يبدو ، مستاء من البطء فى تقدم المتطوعين فرد عمر أن فضل الصحابة على غيرهم يقوم فى استجابتهم لداعي الجهاد فى سبيل الله وقال : ان أسبق الناس اجابة هو أحقهم بالقيادة ، وهكذا وجد أبو عبيـدة الثقفى المغمور الاسم حتى ذلك التاريخ نفسه فجأة قائدا على المسلمين ٠

ولا ريب فى أن هذا الحادث الطريف جدير بالاهتمام والتأكيد اذ أنه يبين الاساليب العفوية التي فتح بها العرب هذه الامبراطوريات الواسعة ، يضاف الى هذا أن الحادث لم يكن فريدا فى نوعه فلقد سبق لنـا أن رأينا كيف اختار النبى نفسه أسامة ابن ربيبه زيد لقيـادة الحملة على سوريا واضعا خالد بن الوليـد القائد المجرب تحت امرته ، ولقد وجد هنـاك من يقول ، وهو على حق ، بأن العرب انتصروا لا بفضل قادتهم العسكريين بل رغما عنهم ويمكن القول أنه بالنسبة الى عمر بن الخطاب كان الايمـان بالله والاعتماد عليه ٠٠ هما اللذان يقرران له كل شيء ولهذا لم يكن للأدوات البشرية ــ القادة ــ من شأن كبير لديه شريطة أن يكونوا من المؤمنين الصادقين أما بالنسبة الى العرب عموما فيمكن القول بأن هذا الحادث يظهر أنهم كانوا يؤمنون بأن الشجاعة الكاملة هى التى تنتصر فى المعارك وأن القتال لا يحتاج الى خبرة أو مهارة أو تدريب أو تنظيم وهى صفات القادة ٠ ومع هذه الخامات الفكرية عن الحرب ظل العرب هم المنتصرون فى كل معركة تقريبا ٠

---

(١) تقول كتب التاريخ العربى ان عمر ندب الناس مع المثنى بعد وفاة أبى بكر وكان الناس يحجمون عن الخروج الى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة. فخطبهم المثنى وقال : أيها الناس : لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير سقى الســـواد . وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنـــا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها ، وقال لهم عمر ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه أهله الا بذلك . أين الطراد المهاجرون عن موعود الله ، ســيروا في الارض التى وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانه قال : ليظهره على الدين كله « والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الامم ـ أين عباد الله الصـــالحون (المعرب)

ولعل من الغرابة كل الغرابة أن الشعوب الناطقة بالعربية اليوم (١)، لاتزال تحمل الآراء نفسها على الرغم من أن الحرب غدت أكثر تقنية ومن أن جنودهم لم يعودوا من النوع الذى يلهبه الحماس الدينى الدافق ولقد قيض لى فى السنوات الواقعة بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٦ أن اشترك فى مناسبات عدة فى المحادثات التى أجراها قادتهم فى موضوع العمليات العسكرية ضد اسرائيل. ولقد سمعتهم المرة تلو المرة يقولون أن بضعة ألوف من الشجعان مسلحين بالبنادق، قادرون على الخلاص من هذا العدو ولم أسمعهم يشيرون. ولو اشارة عابرة الى التدريب أو التنظيم أو الى وجوب وجود القائد ذى الكفاية تماما كما كان يفعل أسلافهم فى أيام عمر بن الخطاب (٢).

وهناك ناحية آخرى مهمة فى هذا الاختيار وهى اهمال الخليفة للمثنى ابن حارثة الذى كان يحتل منصب القيادة فى العراق منذ أكثر من عام والذى حقق للعرب نصرهم فى معركة بابل والذى كانت نداءاته للناس وخطبه فى ذلك اليوم بالذات هى التى امنت هذا العدد من المتطوعة الذى شعر الخليفة بحاجته الى من يتولى قيادته. ولكن المثنى بدوى من بنى بكر، وهى قبيلة تقيم فى الطرف الآخر من الجزيرة العربية. ولن يستسيغ المهاجرون والانصار وصحابة النبى وأهل المدينة ومكة والطائف أن يحاربوا تحت قيادة بدوى مهما علا مركزه، ولكن كان من المتوقع أن يعترض محاربو بدر وأحد أيضا على العمل تحت قيادة شخص مغمور من أهل الطائف.

---

(١) تعبير جد سخيف للمؤلف يدل على نفسيته المشحونة بالكراهية للعرب. فهو لا يريد أن يعترف بأن العرب شعب واحد. وانما يحاول أن يصور لقرائه ان هناك شعوبا عدة تتكلم بالعربية لا رابطة بينها الا رابطة اللغة وكأنها في ذلك تشبه الناطقين بالانجليزية كالانجليز والامريكان والكنديين والافريقيين الجنوبيين والاستراليين وحتى الهنود والباكستانيين. انها العقلية الاستعمارية ليس الا. (المعرب)

(٢) ادعاء جرىء من المؤلف يثير الشك ولو حصر جاوب قوله هذا في فترة حرب فلسطين وما تبعها من سنوات قليلة قبيل ثورة ٢٣ يوليو لكان محقا اذ أن المقوبة رافقت الاعداد لحرب فلسطين في عام ١٩٤٨ كما كانت تبعية الحكام العرب للامبراطوريه التى يمثلها جلوب - تجعلهم لايخرجون عن مثل هذا الموقف المزرى. أما ان يقول بأن هذا الوضع قد استمر حتى عام ١٩٥٦ فمكابرة القصد منها واضح وهو النيل من العرب الاحرار ايضا. لكن مجرد السماح لشخص كجلوب وان كان يمثل عرشا عربيا وجيشا عربيا بالاشتراك في محادثات العرب العسكرية دليل على تبعية ذلك العرش للاستعمار وعلى خضوع ذلك الجيش لمشيئة الاستعمار. ومن هنا يكون اشتراك الاحرار في تلك المحادثات اشتراكا صوريا لعدم اقتناعهم بجديتها مع وجود شخص مثل جلوب فيها يمثل دولة من دول الجامعة العربية. (المعرب)

كأبى عبيد ، ولكن يبدو أن العصبية العامة بين أهل المدر والوبر كانت أقوى حتى من مشاعر الطموح الشخصى ومن هنـا كان تقبلهم لابى عبيد ورفضهم للمثنى (١) ٠

وقد أزال الخليفة فى غضون ذلك ، بناء على نصيحة المثنى كما يقول المؤرخون العرب احدى العوائق الرئيسية فى طريق الفتح العربى ٠ فالقراء يذكرون ولا شك أن أبا بكر كان قد قضى اثر انتهاء حروب الردة بهزيمة القبائل المرتدة بألا يسمح لأى فرد من هذه القبائل بالاشتراك فى الحرب الى جانب المسلمين ٠ وقد حال هذا الحظر بين غالبية قبـائل الجزيرة وبين القتال فى سبيل قضية العرب٠ وكانت جيوش العرب قد غزت فى غضون ذلك وفى وقت واحد ، أعظم امبراطوريتين عالميتين ٠ وكان النقص البشرى فى الجنود قد أصبح مشـكلة خطيرة وجاء رفع الحظر الآن فأطلق الطاقات الكامنة عند البدو المحاربين من عقالها لتهدر كالسيل ٠ ومنذ هذا التاريخ أخذت الجيوش العربية لا تتألف من المحاربين المتطوعين كما هى الحالة من قبل بل من قبائل برمتها تهاجر جملة ، وتضم الرجال ونسـاءهم وأطفالهم وخيامهم وقطعان مواشيهم ٠

وخرجت النجدات أخيرا من المدينة ٠ وكان المثنى فى قلق على رجاله لطول غيبته ٠ فتقدم الجيش للحاق بهم ، وراح أبو عبيـد يتبعه ببطء على رأس المتطوعين الجدد داعيا فى طريقه جميع القبائل التى كانت مرتدة والتى مر بها للانضمام الى لوائه والسير لحرب الفرس ٠

وكان الفرس فى غضون ذلك قد استأنفوا نشاطهم العسكرى الذى كان المثنى قد توقعه — وكان «يزدجرد» قد اختار رستم القائد الذى ساعده فى الوصول الى العرش قائدا عاما لجيوشه فى منطقة الفرات٠ وراح القائد الجديد يحرض نبلاء المنطقة وكبار المالكين فيها على وقف الجزية التى كانوا يدفعونها فى السابق الى العرب ، وعلى أن يثوروا على سـيطرتهم ، وأخذ الفرس يرسلون ارتالا عدة للقيام بعمليات الاستطلاع الهجومية ووراءهم شرعت القـوات فى التحـرك لاخـراج الغزاة العـرب من الاراضى التى احتلوها ٠

كان هذا الوضـع الذى وجده المثنى عندما وصل الى العراق عائدا

---

(١) اغراق في التهويل عن الخلاف بين البدو والحضر رغبة من المؤلف في تمجيد سياسة التقسيم بين العرب لتنفيذ سياسات الاستعمار .

(العرب)

من المدينة وأحس بعجزه عن الصمود أمام هذه الجحافل الفارسية فاضطر الى الجلاء عن الحيرة وعن جميع المنطقة الخصبة المزروعة فى الحوض الادنى من النهرين والانسحاب الى أطراف الصحراء غربى الفرات منتظرا وصول أبى عبيد على رأس النجدات ، ووصلت الامدادات أخيرا وتسلم أبوعبيد زمام القيادة العامة للحركات كلها • وشرع العرب فى التقدم وهزموا ارتال الفرس فى عدد من المواقع الثانوية ، لكن رستم لم يخف من هذه النكسات وحشد كل مالديه من قوات فى جيش واحد ، بعث به من المدائن الى الحيرة•

وحذا أبو عبيد حذو القائد الفارسي وبعد أن حقق الاتصال بين جيشه الجديد وبين قوات المثنى ، راح يتجه الى الحيرة أيضا • وتقابل الجيشان فى شهر أكتوبر (تشرين) الاول من عام ٦٣٤ وجها لوجه عبر نهر الفرات على مسافة قصيرة من الحيرة باتجاه الشمال ، وكان العرب فى سوريا قد اقتحموا قبيل هذا التاريخ مواقع الروم فى اليرموك وأخذوا يعدون العدة لمهاجمة فحل (١) •

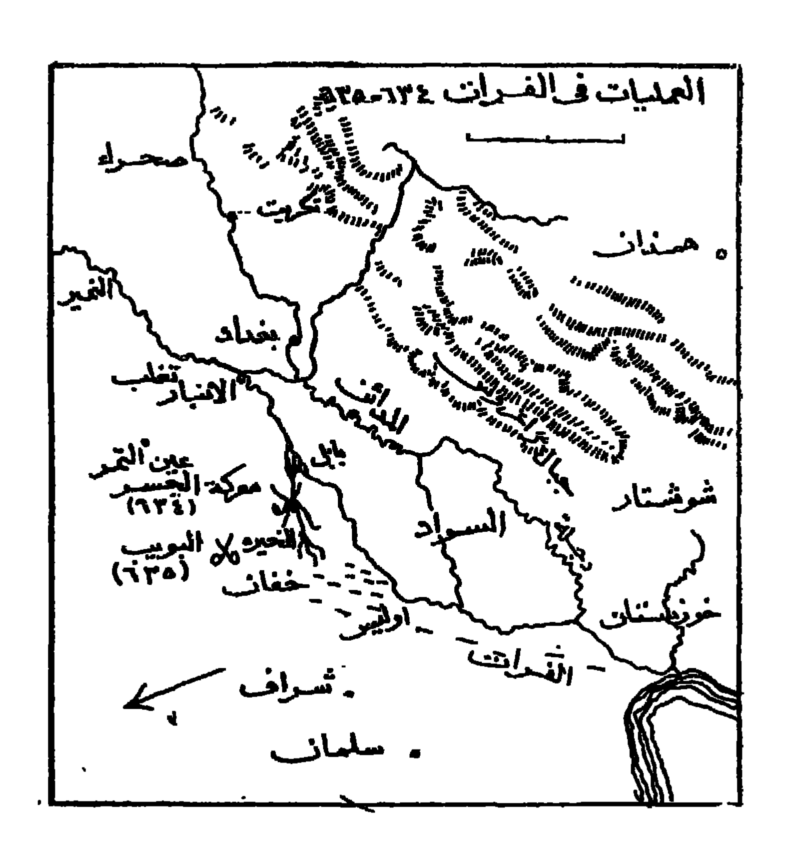
وتقول الروايات ان بهمن قائد الفرس بعث برسول الى أبى عبيد يخيره فى أن يعبر هو الفرات لمقابلة الفرس ، أو يعبر الفرس لمقابلة العرب، ولا ريب فى أن نهرا كبيرا كالفرات كان يؤلف عقبة كأداء فى طريق أى جيش من جيوش القرن السابع للميلاد واذا كان اتساع النهر يحول بين الجنود وبين اطلاق النبال عبره فان هذا الاتساع يحول حتما دون تمكين الجيش الذى يحاول العبور من تأمين نار التغطية اللازمة له أمام العدو • وهكذا مالم يتفق القائدان على العبور دون قتال أو أذى فان المعركة ماكانت لتنشب قط •

ويروى المؤرخ البريطانى جيبون عرضا مماثلا لعبور نهر ، وقع فى ظرف آخر وقدمه أحد قادة الفرس الى قائد رومانى ، ويروى أومان فى كتابه « فن الحرب فى القرون الوسطى » حادثا آخر أكثر غرابة • فلقد اشتبك بيلا الرابع ملك المجر فى عام ١٢٦٠ فى حرب مع أوتوكار الثانى ملك بوهيميا ، وتقابل الجيشان عبر نهر مارش وطلب اوتوكار بلطف من بيلا أن يقرر أى الجيشين يجب أن يعبر النهر دون أذى حتى تدور المعركة بينهما فى الشكل المناسب •

---

(١) يقول المؤرخون العرب أن المكان الذى احتشد فيه جيش العرب يسمى المروحة وهو تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة •

« المعرب »


العمليات في الفرات ٦٣٤-٦٣٥م
صحراء
تكريت
همذان
النمير
بغداد
تغلب
الانبار
المدائن
عين التمر
بابل
معركة الجسر
(٦٣٤)
الحيرة
البويب
(٦٣٥)
خفان
السواد
شوشتار
خوزستان
الفرات
شراف
سلمان

وقرر أبو عبيـد على الرغم من نصح مساعديه الاكثر خبرة منـه فى القتـال وفى مقدمتهم المثنى الذى انقضت سنوات عدة على قتالهمع الفرس أن يعبر الفرات وأن يخوض المعركة على ضفته الشرقية مبررا قراره هـذا بقوله ... « أنخشى الموت ولا يخشونه ؟ » واشار عليه السليط بن قيس بأن ينتظر على الضفة الغربية ليفيد العرب من أسلوبهم فى القتـال وقد خلفوا الصحراء وراء أظهرهم ولاريب فى أن المثنىنفسه وهو بدوى قد قدم اليه عين النصيحة .

وعندما وصل العرب الى الضفة الشرقيـة وجدوا أنفسهم فى أرض محصورة لا تصلح لحركاتهم التعبوية السريعة الحركة . وتقدم الفرس آنذاك وأمامهم الفيلة ، ويقول بعض الرواة أن عددا من الفيلة ، أخـذت تدوس جياد المسلمين باقدامها واستمرت المعركة بضع ساعات حاول فيها المسلمون مهاجمة الفيلة ، وهم على أرجلهم بسيوفهم ، كما حاوله البعض قطع الحبال التى تشد الهوادج الى ظهورها . وهجم أبوعبيد وهو على الرغم من عدمتجربته كقائد ، ومنتهوره ، لايقل عن أكثر المسلمينشجاعة وبسالة على كبير الفيلة بسيفه . وكان قد سال عن مقتل الفيل فقيل له خرطومه فضرب خرطومه بسيفه ولكن الفيل حمل القائد الشجاع بخرطومه وقذف به على الارض وبرك عليه فتوفى تحته . وعندما رأى المسلمون قائدهم وقد قتـل دبت الفوضى الى صفوفهم وان كان أخوه الحـكم بن مسعود قد حمل الراية وعاد فثبتها فى الارض الى أن سقط شهيدا بدوره .

وراح رجل من ثقيف وهى القبيلة التى ينتمى اليها القائد أبو عبيد فى هذه اللحظة الحرجة الى الجسر الذى عبر عليه العرب النهر فقطعه طالبا الى الناس أن يستشهدوا كمـا استشهد قائدهم أو يأخذوا بثأره بتحقيق النصر ، ولكن المحاربين كانوا يندفعون الآن نحو الجسر طالبين النجاة . وبدلا من أن يؤدى عمـله الى ايقـاظ الحميـة فى نفوسـهم وحملهم على الصمود والاستبسال أحدث أثرا معاكسا اذ عنـدما رأوا طريق رجعتهم وقد قطع ، دب الذعر فى نفوسهم ، وأخذوا يلقون بأنفسهم فى النهر يحاولون عبوره سباحة الى شاطىء الامان .

وامسك المثنى بن حارثة بالراية فى يده ، وأثار الحميـة عند الرجال فالتفوا حوله . وحاول عن طريق الاشتباك فى معركة بالايدى والسيوف أن يكسب بعض الوقت ليتمكن الآخرون من رجاله من اصلاح الجسر ، هاتفا بالناس بأنه سيصمد أمام الفرس حتى تتمكن بقية المسلمين الذين انهارت معنوياتهم من عبور الجسر ، وجدير بنا هنا أن نذكر بأن بدويا نصرانيا من

قبيلة طيىء يدعى أبازبيد كان بين الشجعان القلائل الذين صمدوا الى جانب المثنى فى تغطيته لحركة انسحاب المسلمين الذين سيطر عليهم الذعر ، ولا ريب فى أن حانزه على هذا كان العصبية العربية ، اذ أن بنى جلدته كانوا يحاربون الاجانب الفرس • ولا ريب فى أن الحماس الدينى لم يكن هو حافز المثنى أيضا ، وانما كانت العصبية العربية • اذ أن المثنى لم يكن قد اعتنق الاسلام لا من نحو عام (١) •

وتم اصلاح الجسر مؤقتا فى النهاية • وتمكنت فلول المسلمين من عبوره بعد أن حمى لهم المثنى مؤخرتهم ، واستشهد فى المعركة أو غرق فى النهر نحو من أربعة آلاف من العرب • وفر من الجيش نحو من الفين آخرين عادوا الى قبائلهم فى الجزيرة العربية ولم يبق مع المثنى الذى عاد الآن الى تولى القيادة الا نحو من ثلاثة آلاف رجل من جيش كان يعد نحوا من عشرة آلاف قبل المعركة ، وكان هو نفسه قد أصيب ابان حمايته مؤخرة المسلمين بقذيفة رمح من أحد الأعداء ، وهكذا كانت الكارثة كاملة ،ويرجع السبب فيها كما يبدو الى تهور أبى عبيد • ولو قاتل العرب على الضفة الثانية بدلا من عبور النهر لما وقعت هذه الكارثة لأن الاراضى الفسيحة المنبسطة تصلح لاساليبهم القتالية التعبوية ، وكان فى امكانهم فى حالة اصابتهم بنكسة أن ينسحبوا الى الصحراء وهى مكانهم الطبيعى الذى لا يستطيع الفرس بسلاحهم الثقيل أن يطاردوهم فيه • وتسمى هذه المعركة فى التاريخ العربى ، بمعركة قس الناطف أو معركة الجسر ، ويعتقد أنها وقعت فى أكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٣٤ • أى بعد ثلاثة أشهر من وفاة أبى بكر •

وانسحب المثنى عبر الصحراء فى طريق مواز لضفة الفرات الغربية الى اوليس مستنفرا فى الوقت نفسه جميع القبائل البدوية الغربية وداعيا اياها الى الجهاد • وتمكن الخليفة عمر من اقناع جرير بن عبد الله شيخ

---

(١) تقول كتب التاريخ العربى ان أبا زبيد الطائى وهو شاعر عربى نصرانى • كان قد أتى الحيرة في بعض أمره ، قد قاتل مع المسلمين في هذه المعركة قتالا بطوليا حمية منه لعصبيته العربية • وبهذا يظهر أن المؤلف كان صادقا في روايته ولكنه لم يكن صادقا في استنتاجه ، فليس ثمة من تناقض بين العصبية العربية والحماس الاسلامي، وانما هما صفتان متلاحمتان يضاف الى هذا ان قصر المدة التى قضاها المثنى في الاسلام لا يمكن أن تكون مطعنا في حماسته للدين اذ أن المعتنق لاية فكرة حديثا قد يكون اشد ايمانا بها من أناس قضوا مدة طويلة وهم يعتنقونها • (المعرب)

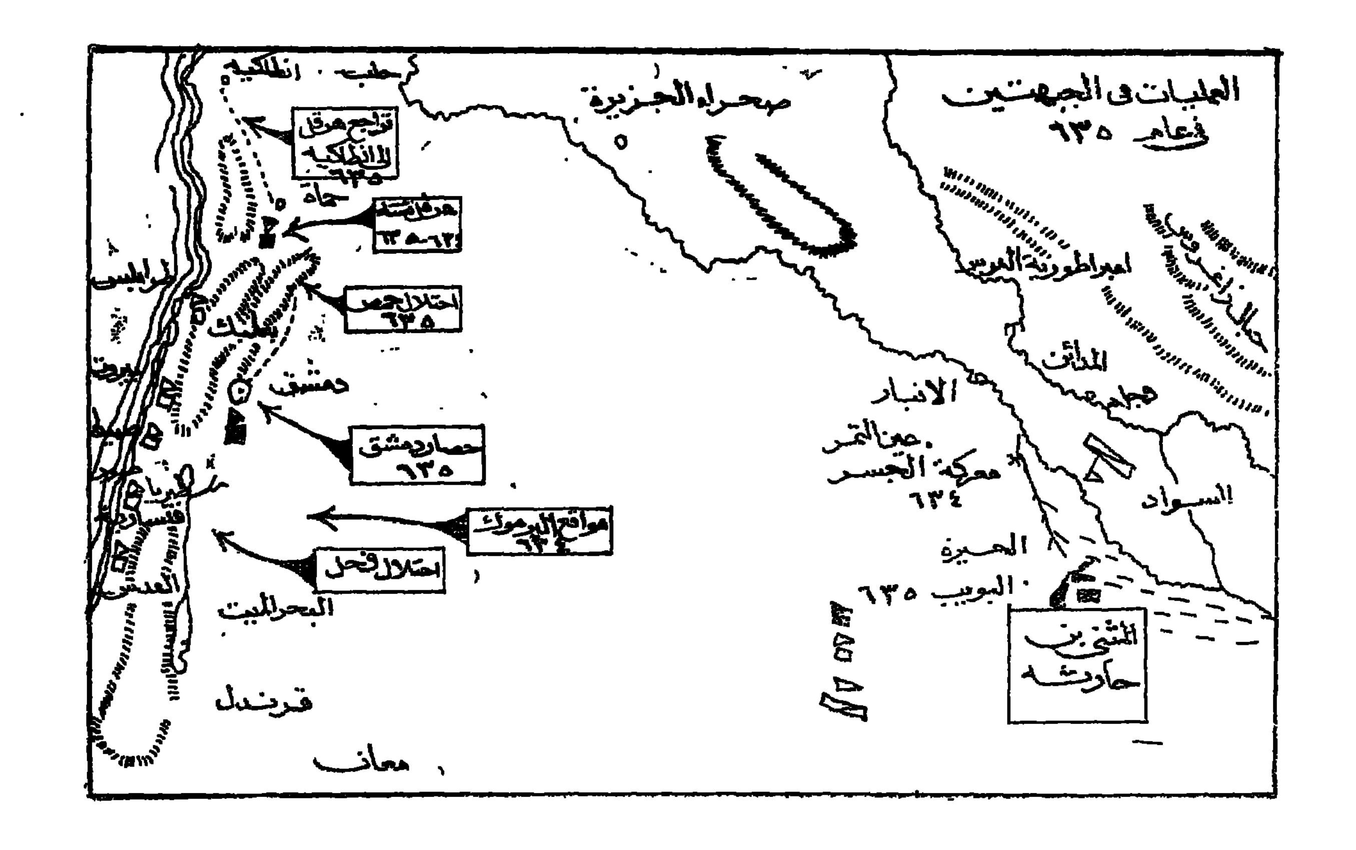
بنى بجيلة • وكان قد وفد الى المدينة على رأس وفد من قبيلته من اليمن ، بالذهاب الى العراق لحرب الفرس ولكن من المهم أن نقول ان عمر اضطر قبل ذهابه الى أن يعده بحصة اضافية من الغنائم وكان رفع الحظر عن اشتراك قبائل الردة فى الحروب قد بدأ يؤتى ثماره الآن• وأخذت الوحدات من مختلف القبائل تصل الى المدينة ، وكان معظمها يؤثر الذهاب الى سوريا ولكن الخليفة ظل يصر على ذهابها فى أقصى سرعة ممكنة الى العراق • اذ أن كل شىء يسير سيرا حسنا فى سوريا والعرب يتقدمون من دمشق •

وجاءت نجدة جديدة كان لوصولها موقع حسن من بنى نمير وتغلب فى شمال بادية الشام • وكانت هذه القبائل من النصارى يقودها شيخها الأنس بن هلال • الذى يروى أنه قال ••• ان عليه وعلى قومه ، وأن لم يكونوا من المسلمين أن يقاتلوا الى جانب أبناء عمومتهم • وهكذا عاد المثنى فأحس بالقوة بعد هذه النجدات التى وصلته وراح بعد انقضاء عام تقريبا على كارثة الجسر يتحرك ثانية باتجاه الحيرة ، وحشد الفرس قواتهم لمقابلته• وبالطبع لم يقع المثنى فى خطأ أبى عبيد •فلم يعبر الجسر هذه المرة واضطر الفرس الى عبور الفرات • والتقى الجيشان وجها لوجه فى النصف الأخير من شهر نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٣٥ ، عند البويب الواقعة بين مدينتى النجف والكوفة الحاليتين •

وكان معظم القبائل التى وفدت كنجدات متلاحقة من أواسط الجزيرة العربية قد حملت معها أطفالها ونساءها وقطعان مواشيها وقد خلفت القبائل أهلها ودوابها فى مكان يسمى خفان على الضفة اليمنى من الفرات فى مكان يبعد خمسة وعشرين ميلا تقريبا الى الجنوب من الحيرة •

وعندما التقى الجمعان وجها لوجه فى البويب امتطى المثنى جواده ليطوف على صفوف المسلمين مناشدا اياهم الصمود والثبات فى المعركة القادمة وأبصر المثنى رجلا يستنفر من الصف ويستقتل رغم اعتراض رفاقه عليه• فسأل عن سبب ذلك ، فقيل له أن الرجل ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل ليكفر عن خطيئته بالهجوم وحيدا على جيش الفرس طالبا الشهادة فمشى المثنى وحده صامتا حتى وصل الى الرجل فقرع بالرمح كتفه وقال : «لا ابالك الزم موقفك فاذا اتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل» قال الرجل : « انى بذلك لجدير » ولزم الصف بهدوء ليحارب المعركة ببسالة• ومضى المثنى فى طريقه •

وقبل أن يبدأ العرب هجومهم استهل الفرس القتال بالتقدم فى


العمليات فى الجبهتين
فى عام ٦٣٥
صحراء الجزيرة
حلب
انطاكية
تراجع هرقل الى انطاكية ٦٣٥
حماة
هرقل فى حمص ٦٣٢-٦٣٥
احتلال حمص ٦٣٥
بعلبك
دمشق
حصار دمشق ٦٣٥
مواقع اليرموك ٦٣٤
احتلال فحل
البحر الميت
قرندل
معان
امبراطورية الفرس
المدائن
الانبار
عين التمر
معركة الجسر ٦٣٤
الحيرة
البويب ٦٣٥
السواد
المثنى بن حارثة

ثلاثة ارتال وضعوا فيلا على رأس كل منها وحول الفيل ثلة من المشـاة يتولون حمايته وكانت الفيلة والمشاة تعمل متعاونة تعاونا تعبويا رائعـا تماما كما يفعل المشاة والدبابات فى المعـارك الاوربية الاخيرة • وكان من المقرر أن تخترق الفيلة صفوف المسلمين تحت حمـاية المشاة من قذفات الرماح وضربات السيوف وقد رافق تقدم الفرس صخب وضجيج وهتاف وقرع طبل وزمر •

وحمى وطيس القتال ، ووقع عبء المعركة فى لحظاتهـا الحادة الاولى على بنى عجل الذين تحطمت صفوفهم وأخذوا فى التراجع بشىء من الفوضى • ورأى القريبون من المثنى قائدهم وهو يمر بيده على لحيته • مما يشير الى عصبيته وسرعان ما أوفد رسولا الى بنى عجل ينقـل اليهم تحيات الامير ، ويطلب اليهم ألا يلحقوا العار بالمسلمين فى هذا اليوم ، ولبى بنو عجل نداء قائدهم فعـادت صفوفهم الى الانتظام وصمدوا أمام هجوم العـدو • وتطلع النـاس الى المثنى وهو على صهوة جواده • فرأوه هادئا قرير العين تبدو البسمة على شفتيه ، وقد توقفت يده على الامساك بلحيته •

ومضت المعركة سجالا يتخللها الصراخ والهرج والمرج ولكن الفرس لم يفلحوا فى التقـدم شبرا واحدا • وأخيرا قرر المثنى ، ويبـدو أنه كان قائدا ممتازا يعرف اللحظة الحاسمة للعمل ، أن يشن هجومه المضاد ووضع نفسه فى مقـدمة رجال تغلب والنمر من النصـارى مهيبـا بهم أن يثبتوا عروبتهم ، رغم أنهم ليسوا من المسلمين وقاد الهجوم بنفسه مستهدفا قلب جيش الفرس • ودار اشتباك رهيب ، ولفت الميدان ، سحب قاتمة وكثيفة من النقع ، وقتل فتى نصرانى من تغلب ، مهران قائد الفرس (١) وسرعان ما انهار قلب دفاع العدو فتقدم الجيش العربى كله الى الامام وفى مقدمتهم جرير على رأس بنى بجيلة وعرفجة على رأس الازد ومسعود أخو المثنى على رأس بنى بكر •

وبدأ العدو ينهار ، وأخذ رجاله يتجهون الى الجسر على الفرات القائم وراء الجبهة ، ولكن المثنى الذى نفذ الى القلب ، وصل الى الجسر أولا وحال بين العدو وبين الوصول اليه ، وعندما رأى الفرس ان طريق هربهم قد

---

(١) يقول البلاذرى ان جرير بن عبد الله والمنذر بن حسان بن ضرار الضبى توليا قتل مهران فقال هذا أنا قتلته وقال هذا : أنا قتلته وتنازعا نزاعا شديدا فاخذ المنذر منطقته واخذ جرير سائر سلبه ويقال ان الحصن بن معبد بن زرارة بن عدس التميمى كان ممن قتله . (المعرب)

سد عليهم استداروا يائسين ليشقوا طريقهم عبر صفوف العرب المتقدمة منهم • وحمي وطيس القتال بين الفريقين وارتفع عدد الضحايا وأصيب مسعود أخو المثنى اصابة قاتلة ، وعندما رأى ان الوهن لحق أبناء عشيرته من اصابته هتف بهم وهو يعاني سكرات الموت •• يابني بكر بن وائل•• ارفعوا رايتكم • وسينصركم الله •• لا تقنطوا لموتي • وقتل أيضا الانس ابن هلال ، زعيم قبيلة نمير المسيحي وهو يهجم مع المثنى وتحطم جيش الفرس وقد أصابه الهلع والفوضى وظل المسلمون يحتفظون بالجسر وراح الفرس يفرون مذعورين هنا وهنالك وبعضهم يقذف بنفسه في النهر ، وبعضهم يحاول الاختباء تحت الاعشاب النــامية على ضفافه ، والبعض الثالث يستدير ليلقى مصرعه على أيدى العرب الظافرين ، وهكذا كانت معركة البويب انتقاما لمعركة الجسر الدامية •

وعندما انتهت المعركة فرش بساط من الشــعر على الارض العارية جلس عليه المثنى ليستريح من عناء القتال • ويريح أعصابه مما لحقها من توتر • وتوافد قادة العرب عليه واحدا اثر آخر يهنئونه بالنصر•ثم جلسوا متحلقين حوله على التراب وأخذوا يستعيدون احداث المعركة وقال المثنى : لقد حارب العرب الفرس في أيام جاهليتهم وأيام اسلامهم وكان المائة من الفرس يغلبون في الجاهلية ألفا من العرب ، أما اليوم والحمد لله والشكر له يهزم المائة من العرب ألفا من الفرس •

وقد لعب نهر الفرات في هذه المعارك دورا بارزا ، ولم تكن هناك زراعة كثيفة على ضفة النهر الغربية اما على الضــفة الشرقية فالزراعة كثيفة والحدائق وارفة الظلال وأقنية الري منتشرة ولهذا كان العرب يودون دائما أن يحاربوا على أكناف الصحراء على الضفة الغربية ، وهذا يعنى أن على الفرس لكي يخوضوا المعركة أن يعبروا النهر دائمـا واذا ما نزلت الهزيمة بالفرس ، وجدوا النهر في مؤخرتهم يسد عليهم طريق النجاة ، ولم يكن أي من الفريقين يبدى أي ابتكار في خططه السـوقية ، وكانت المعارك تتكرر وكأنها واحدة في كل مرة •

وكانت هزيمة الفرس كاملة في البويب حتى ان العرب تمكنوا من جديد من السيطرة على معظم المنــطقة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة ودخلوا الى أطراف المدائن عاصمة الفرس وأعاد العرب احتــلال الانبار وعين التمر في الشــمال وبات في امكان المسلمين أن يغيروا على المنطقـة الممتدة حتى بغداد ، وكانت آنذاك بلدة صغيرة يقام فيها سوق أسبوعية وحتى على تكريت على نهر دجلة • وسبق لنا ان قلنا ان منطقة الدلتا

تنتهي عند خط تقريبي يمتد من الانبار الى بغداد اذ تنتشر الصحراء في الاراضي الواقعة الى الشمال من هذا الخط بين النهرين (١) •

ولم يكن للعرب نظام تموين ثابت ومنظم ، ولهذا فقد كانوا مرغمين على الانتشار في أوسع منطقة ممكنة للحصول على ما يحتاجون اليه من غذاء لانفسهم ومن علف لحيواناتهم ولهذا فقد خلفت الغارات التي وقعت في هذه الآونة مزايا عدة ، منها ايقاع الرعب في صفوف العدو • والوصول الى معلومات عن حركات الفرس واعداداتهم والحصول على المؤن اللازمة للمسلمين بالاضافة الى الغنائم الاخرى • ويبدو أن منطقة السواد المزروعة كانت مأهولة بغير العرب سواء أكانوا من السومريين والكلدانيين أم من الفرس • اذ على الرغم من أننا نرى القبائل العربية النصرانية المقيمة على الفرات تحارب الى حد ما الى جانب المسلمين فاننا لا نعثر على أي سجل يقول بأن سكان السواد بين النهرين قد حاربوا الى جانبهم وعندما كان العرب ينتصرون • كان هؤلاء العراقيون يدفعون الجزية ويستكينون الى حكمهم • أما عندما كان الفرس يعودون فيؤكدون سلطانهم فان هؤلاء يعودون بولائهم اليهم ، وان لم تظهر منهم أية بوادر تشير الى خياناتهم للفرس كما حدث في سوريا حيث كان النساطرة يؤثرون دائما معونة المسلمين على الولاء للكنيسة الارثوذكسية أو حكومة الروم •

ولم يعمر المثنى بن حارثة طويلا بعد نصره الرائع في البويب اذ لم يكن قد أبل قط من الجراح التي أصيب بها ، وهو يغطي تراجع العرب في معركة الجسر ، ويبدو لي أن هذا الرجل كان يتصف بجميع الصفات التي تلازم القائد العسكري العظيم ، ولا ريب في أن تمكنه بعد كارثة الجسر من جمع جيش جديد وحشده يدل دلالة واضحة على ما في هذا القائد العظيم من كفاية • فالمحاربون الذين تمكن من حشدهم لم يكونوا جنودا منظمين وانما كانوا بدوا لا ضابط لهم ولا زاجر ، وكانوا حتى ثلاث سنوات خلت أو سنتين يشتبكون في معارك مع المسلمين ابان حروب الردة ، ومن هنا يكون التفسير الصحيح لانضباطهم الآن تحت لواء المثنى هو ما يتمتع به هذا القائد من مزايا ، لا تعلقهم الشديد بالدين ، يضاف

---

(١) يتبجح المؤلف هنا فيذكر أنه في عمليات عام ١٩٤١ ، أي إبان ثورة رشيد عالي الوطنية عبر الجيش الاردني بقيادته نهر الفرات على بعد بضعة أميال الى الشمال من الانبار وتقدم الى ضواحي تكريت وبغداد • ولا يهمنا من هذا التبجح الا التأكيد بأن جيش الاردن الذي تولى جلوب قيادته كان منفذا ، يأمر الاسرة الهاشمية المالكة في الاردن ، لارادة بريطانيا وخططها الاستعمارية • (المعرب)

الى هذا اننا رأينا قبيلتين نصرانيتين هما نمير وتغلب تحاربان ببسالة منقطعة النظير تحت لوائه •

وجدير بالذكر أن جرير بن عبد الله شيخ بجيلة بمـــا عرف عن الشيوخ البدو من غيرة نموذجية شكا الى الخليفة من أنه لا يستطيع وهو شيخ قبيلته أن يعمــــل تحت امرة المثنى الذى لا يخرج عن كونه شيخا قهليا مثله • ومع ذلك فقد عمل جرير تحت امرة المثنى فى معركة البويب وقاتل ببسالة نادرة ، ويقول البلاذرى ان بنى بجيلة ادعوا بأن جريرا هو الذى تولى القيادة فى البويب ، بينما يصر بنوبكر على ان القيادة كانت للمثنى • ولا ريب فى ان غيرة مشايخ البدو من المثنى أتاحت المبرر دائما لاسناد القيادة العامة الى الحجازيين الذين كانوا يتمتعون دائمــــا بميزة صحبة النبى ومع ذلك فقد ارتضى كثيرون من شـــيوخ البدو ، وبينهم عرفجة شيخ قبيلة الازد المشهورة العمل تحت لوائه •

ولعل أبرز ما فى الرجل بالاضافة الى شخصيته العسكرية البارزة وبراعته فى الحروب ــ اذ أن الحياة البدوية تخلق دائما شخصيات دافقة بالحيوية والبسالة ــ هو اخلاصه البعيد عن الاثرة والانانية للقضية التى يحارب من أجلها ولم نسمع قط بأن المثنى فعل ما فعله خالد العظيم ، من الزواج بالسبايا العذارى فى ميادين القتال ، ولم تذكر الروايات له شريكة فى الحياة الا زوجته ولم نسمعقط ، والعرب فى ذروة انتصاراتهم والغنائم تسيل بين أيديهم من كنوز الفرس ليتقاسمها عرب البادية الجفاة الجهلة ان هذا القائد قد جمع ثروة لشخصه كما فعـــل بعض القادة الآخرين ، وأرى لزاما علينا أن نستخلص من كل هذا ان هـــذا الشيخ البدوى البسيط لم يجمع فى شخصه جميع مواهب القـــادة العسكريين البارزة فحسب ، وانما جمع الخلق والعقل اللذين يجعـــــلان منه رجلا جديرا بالشهرة والتكريم عند كل أمة من الامم وفى كل عصر من العصور ولعل السبب فى أن اسمه لم ينل من الشهرة والدوى ما ناله غيره من القادة الأول ، هو أن معظم المؤرخين الذين دونوا هذه الأحداث ظهروا بعـــد انقضاء أكثر من قرنين على وقوعها ، وكان معظمهم من غير العرب ، وكانوا من سكان المدن الذين لا يميلون كبير ميل الى البدو ، أو لا يفهمونهم ، يضاف الى هذا ان معظم التاريخ قد دون فى العهد العباسى ولم يكن من صالح المؤرخين ان ينسبوا البطولات الخارقة الا لبنى العباس أو لأبناء قريش على العموم أكثر من نسبتها الى أى بدوى •

تواريخ بارزة

معركة الجسر فى العراق	اكتوبر (تشرين الاول)	٦٣٤
الاستيلاء على فحل فى سوريا	يناير (كانون الثانى)	٦٣٥
بدء حصار دمشق	مارس (اذار)	٦٣٥
احتلال دمشق	سبتمبر (ايلول)	٦٣٥
معركة البويب فى العراق	نوفمبر (تشرين الثانى)	٦٣٥

شخصيات بارزة

عمر بن الخطاب	الخليفة الجديد
عمرو بن العاص	قائد العرب فى جنوب فلسطين
أبو عبيدة بن الجراح	القائد العام العربى فى سوريا
أبو عبيد الثقفى	القائد الذى عينه عمر بن الخطاب فى العراق واستشهد فى معركة الجسر
رستم	قائد الفرس العام الجديد •
المثنى بن حارثة	المنتصر فى معركة البـــويب وزعيم بنى بكر •

اليرموك

« اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا • سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق • واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » •

قرآن كريم ــ (سورة الانفال)

***

« أهل الصحراء أسلم عقلا وبدنا من اهل القرى الذين ينعمون بحياة أكثر رخاء ، وبشرتهم أكثر نقاء واجسادهم أكثر صفاء ، وقوامهم أكثر انسجاما ، وجمالا ، وأخلاقهم أكثر اعتدالا ، وعقولهم اشد مضاء وتفهما ، واستعدادا لنيل المعارف الجديدة من أهل الريف • ولنقارن بين الغزال والنعامة والظباء التى تعيش فى الصحارى ومثيلاتها التى تعيش فى المناطق المأهولة فالأولى أكثر نقاء وبريقا فى فرائها ، وانسجاما فى اعضائها ، ومضاء فى حواسها » •

مترجمة من ابن خلدون الى الانجليزية

***

« تعظيم الله فى أفواههم وبأيديهم سيف ذو حدين لاجراء الانتقام على الامم والتاديب على الشعوب لايثاق الملوك بالقيود وشرفائهم بكبول من حديد » •

سفر المزامير ــ المزمور ــ ١٤٩ ، ٦ ــ ٨



تركنا العرب فى الفصل السابق وقد باتوا يحتلون جميع أنحاء سوريا وفلسطين تقريبا • ولم تبق فى حوزة هرقل الا رقعة من الارض فى منطقة انطاكية فى الشمال الغربى من سوريا • وكانت القدس وقيسارية لا تزالان صامدتين • بينما شجعت سيادة الروم على البحر ، مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس الساحلية على الصمود • وشرع الامبراطور فى العمل وأخذ بعد عامين من الهزائم المتلاحقة التى بلغت ذروتها فى سقوط دمشق ، يعد جيشا جديدا يأمل بواسطته فى استعادة سوريا فى صيف عام ٦٣٦ •

ويبدو أن الامبراطور قد جمع معظم جنود هذا الجيش الجديد من أهل ارمينيا التى نطلق عليها اسم القسم الشرقى من آسيا الصغرى ، وهى المنطقة الواقعة الى الشرق من أعالى الفرات • ولم يتشرد الارمن فى مشارق الارض ومغاربها الا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، أى بعد اجتياح الاتراك لآسيا الصغرى (١) وظل اسم أرمينيا محصورا فى ولاية صغيرة تقع عند السفوح الجنوبية للقفقاس • وفى القرون الستة الطويلة من الحروب بين الفرس والروم التى بلغت ذروتها فى الصراع الطويل بين هرقل وكسرى ابرويز ، لعب الارمن دور الدولة الصغيرة العازلة بين جارتين قويتين • وكثيرا ما اجتاحت احدى الامبراطوريتين بلاد الارمن • ومع ذلك فقد احتفظوا بكيانهم القومى كما احتفظوا لأسباب عملية باستقلالهم السياسى • وكانت خصالهم الحربية توحى بالتوقير والاجلال ولا سيما عندما يمارسونها فى وديان بلادهم الجبلية • وظلت عواطف الارمن حتى القرن الرابع للميلاد مع الفرس دون الروم • ولكن تحولهم الى المسيحية بعد هذا التاريخ أدى الى ابتعادهم عن الفرس عبدة النار • ولكن الروم لم يجنوا فوائد سياسية ضخمة من هذا التبدل ، وذلك لان الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية ظلت تنظر الى أتباع الكنيسة الارمنية كنظرتها الى النساطرة العرب ، على انهم من الهراطقة •

---

(١) اعتقد انها هفوة تاريخية من المؤلف . اذ ان هجرة الارمن من بلادهم لم تأت عند الفتح العثمانى للاناضول كما يقول المؤلف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بل نتيجة اضطهاد الاتراك لهم ومذابحهم في القرن التاسع عشر عندما أخذوا يساعدون الروس على الاتراك في حروب الدولتين الكبيرتين • (المعرب)

وقد يعنى اضطرار هرقل الى الاعتماد كل الاعتماد على الفصائل الأرمنية ، ان الروم أصيبوا بما يشبه الارهاق والتعب من حروبهم الطويلة ، يضاف الى هذا أن الارمن كانوا بقيادة زعيمهم بانيس (يسميه العرب شنس) . أما القائد العام الرومانى فكان ثيودوروس (يسميه العرب تودز) ، ويبدو أن سلطته على الوحدات الارمنية لم تكن فعلية يعترف بها ، كما ان الارمن بدوا وكأنهم جيش منفصل ضمن الجيش الرومانى الكبير .

وانضم الى جيش الروم أيضا أمراء الغساسنة الذين كانوا يحكمون نيابة عن الروم الاقسام الجنوبية من سوريا وشرق الاردن ، وكانت معهم قوة من أبناء القبائل العربية المسيحية . ويذكر القارىء ولا شك ، ان الروم كانوا قد الغوا فى عام ٥٨١ ميلادية ، ملك الغساسنة فى الشام . يضاف الى هذا ان اضطهاد الكنيسة الارثوذكسية الرومانية لنصارى العرب من النساطرة قد جعل هؤلاء يقفون منها موقف العداء ، ومن هذا يتبين أن ثلثى جيش الامبراطور الجديد ، كانوا اما من الارمن أو من العرب . والفريقان لا يحسان بمشاعر الولاء والاخلاص للامبراطورية . أما الثلث الباقى من الجيش فقد ضم المجندين من فلاحى « ما نسميه » بآسيا الصغرى الغربية ، وهم أقوام عرفوا بفضائلهم العسكرية . ولا ريب فى أن مزايا هذه الأقوام المختلفة لا تخلو من الطرافة حتى يومنا هذا .

ولقد حدث فى التاريخ المرة تلو المرة ، ان وطد شعب فاتح سلطانه على منطقة أخضعها بالقوة . وحملت تلك المنطقة منذ ذلك التاريخ اسم فاتحيها ، وفى عصرنا هذا عندما تسيطر العنصرية سيطرة كبيرة على تفكيرنا نصبح تحت تأثير الانطباع القائل بأن العنصر الفاتح المحتل أصبح منذ ذلك التاريخ يؤلف سكان تلك المنطقة التى فتحها . ولكن الفاتحين كثيرا ما لا يعدون فى الحقيقة أن يكونوا مجرد أقلية ما لبثت أن اختلطت بسرعة مع السكان الأصليين وذابت فيهم . فالفلاحون المصابرون من أهل آسيا الصغرى والذين حاربوا دفاعا عن بيزنطة تحت اسم الاغريق أو الأرمن قد أصبحوا يسمون الآن أتراكا . وهم لا يزالون يظهرون المزايا الصلبة نفسها التى كانت لاسلافهم وجدودهم . ومازالت قبائل سوريا وشرق الاردن وجلها من الاصل العربى تملك المزايا الحربية التى كانت لاسلافها ولقد أظهرت شعوب الاقسام الغربية من سوريا وفلسطين دائما اشراقا فكريا ساطعا . ومازالت هذه الشعوب تظهر على صفحات التاريخ الفينة تلو الفينة منذ تلك الايام حتى يومنا هذا . ويبرز

الساعية المتآمرون وخطباء الجماهير والتجار • اما كعسكريين فلم تسجل هذه الشعوب أية انتصارات ضخمة فى التاريخ • ولاريب فى أن تسميتهم اليوم بالعرب على النحو نفسه الذى يسمى فيه خلفاء جند خالد بن الوليد وأبى عبيدة ، تخلق الكثير من الاضطراب فى سياسات يومنا هذا (١) •

***

كان الجيش الذى جنده هرقل فى الاشهر الاولى من عـام ٦٣٦ • أضخم جيش حارب فى سوريا حتى ذلك اليوم (٢) • ولم يكد هذا الجيش ينزل الى الميدان اما فى شهر مارس (اذار) أو ابريل (نيسان) حتى كان العرب يجلون عن معظم المناطق التى فتحوها فى غضون الاثنى عشر شهرا الاخيرة • فلقد جلا خالد عن حمص وانسـحب أبو عبيده من دمشق ورابطت قـوات المسلمين من جديد وراء نهر اليرموك • ولحق بهم الروم وأعادوا احتلال فجوة درعا • وهى بوابة سوريا التى كانوا قد طردوا منها فى سبتمبر (أيلول) عام ٦٣٤ • أى قبل ثمانية عشر شهرا (٣) • وكان

---

(١) هذه محاولة سخيفة مفضوحة من المؤلف للطعن في عروبة أهل الساحل السورى والفلسطينى • وبعث التفرقة بين عرب الساحل وعرب الداخل • ويبدو ان مركبا من مركبات الكراهية قد تولد لدى المؤلف لدى عرب فلسطين • الذين صورهم في كتبه السابقة انهم كانوا السبب في الاضطراب السياسى الذى عم الاردن بعد ضم الضفة الغربية الى شرق الاردن • وهى عين الصورة التى يحاول ابرازها الآن • فهو يؤكد في كتبه السابقة ان الهدوء كان يعم شرق الاردن الى أن ضمت الضفة الغربية اليه • فاشتد الاضطراب السياسي فى البلاد • وهو يعنى بالاضطراب طبعا ثورات شعب الاردن المتعاقبة للخلاص من الاستعمار البريطانى ممثلا فى حكم عملائه من حكام الاردن ، وفي سيطرة جلوب الاداة المنفذة لذلك الاستعمار • اما عرب الساحل فلا يختلفون عن عرب الداخل في شيء لا في أصولهم ولا في تقاليدهم ومزاياهم واذا كان ثمة من اختلاف نسبى فهو من النوع الذى يقوم في كل بلد من بلدان العالم • وفى كل شعب من الشعوب بين اهل السهول والصحارى وأهل الجبال والسواحل ، او ذاك الذى يقوم بين أهل المدن وأهل البوادى او الارياف • (المعرب)

(٢) ينقل المؤلف هنا عن الاستاذ بيكر في كتابه : تاريخ القرون الوسطى لجامعة كمبردج ان هذا الجيش الرومانى كان الوحيد من الجيوش التى فاق فيها عدد الروم عدد العرب ، ولا حاجة بنا الى القول ان هذا الزعم كاذب • اذ أن عدد الروم كان دائما متفوقا على عدد العرب في جميع المعارك التى خاضها الفريقان وهذا ما أجمع عليه كافة المؤرخين العرب •

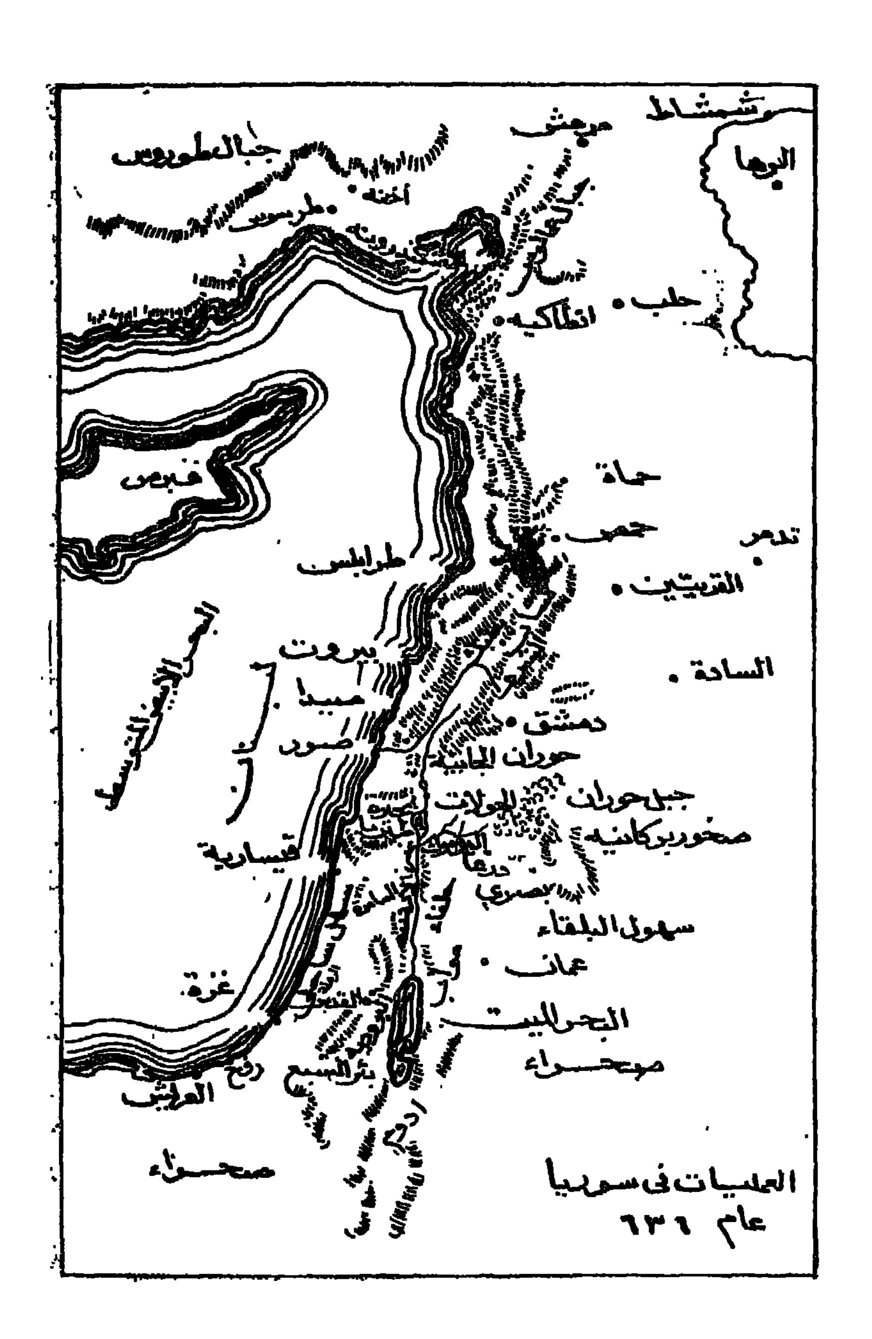
(٣) يختلف المؤرخون العرب في أمر هذه الموقعة فبعضهم يقول انها وقعت في عرج الروم على مقربة من حمص• وبعضهم يقول انها وقعت فياليرموك للمرة الثانية ولكنحتى هؤلاء لايذهبون المذهب الذى رآه المؤلف هنا اذ يؤكدون ان العرب لم ينسحبوا كما زعم المؤلف من المدن التى سبق لهم ان فتحوها وفي مقدمتها دمشق • ولقد روى البلاذرى مثلا عن سعيد بن عبد العزيز قوله : لما جمع هرقل للمسلمين الجموع • وبلغ المسلمين=

جبلة بن الايهم أمير الغساسنة يقود مقدمة الزحف الرومى ، ومعه الوحدات العربية ، وشكل الجنود العرب ، بسرعة حركتهم ونشاطهم ، وخيولهم المطهمة غطاء رائعا من الفرسان للجيش الرومانى ، تماما كما فعل الجيش العربى الاردنى مع الجيش البريطانى فى عام ١٩٤١ ، متعاونا معه فى عمليات سوريا والعراق العسكرية اذ شكل له حرس المقدمة والجانبين(١) .

وهذه الحقائق ثابتة كل الثبوت ومع ذلك فأنا لا أستطيع تجنب الانطباع بان المؤرخين لم يؤكدوا الدوافع الماثلة وراء هذه الحركات العسكرية كما أن بعضهم ينسب الى العرب ، عزمهم على الاحتفاظ بحصون اليرموك . لكن الحقيقة هى ان العرب نشدوا الآن كما فى أية معركة سابقة أخرى ، أن يقاتلوا فى الصحراء أو فى السهول المنبسطة . وان يجعلوا الصحراء المكشوفة دائما وراء أظهرهم ليجدوا فيها النجاة اذا اقتضاهم الامر ، وكان العرب والحالة هذه يؤثرون أن يجروا قدم الجيش الرومانى الى القتال فى الصحراء الى الجنوب من اليرموك بدلا من أن يخوضوا معه معركة ثابتة عند فتحة درعا . ولكن لم يكد العرب يمرون من الفتحة مخلفينها وراءهم باتجاه الجنوب ، حتى كان الروم يعيدون احتلال هذه الحصون الدفاعية القديمة ويغلقون أبواب سوريا فى ظهر العرب المتراجعين . وتركزت سياسة هرقل الآن على الاحتفاظ بالخط الدفاعى — فطالما ان خط ماجينو اليرموك صامد فى وجه العرب فان سوريا ستظل فى نجوة من غزوهم ولن يكون فى وسع العرب بما عرف عنهم من خوف من حرب الجبال والمناطق المغلقة ، أن يغامروا بغزو سوريا عبر طبريا ، وصحيح ان خالدا كان فى ربيع عام ٦٣٤ أى قبل عامين قد هدد حمص وحماة ودمشق من ناحية الشرق أى من الصحراء ، ولكن قوته فى ذلك الوقت كانت صغيرة ، ومع ذلك فقد كادت تفنى ظمأ فى لهيب

= اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ... ردوا على أهل حمص ما كانوا اخذوه من الخراج وقالوا : شغلنا من نصرتكم والدفع عنكم على امركم . فقال اهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل حمص الا ان نغلب ونجهد . واغلقوا الابواب وحرسوها وكذلك فعل اهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود. واعتقد أن رواية البلاذرى هى الصحيحة .

(١) اعتراف جديد من المؤلف بأن الجيش الاردنى ادى للاستعمار البريطانى الدور الذى أداه الغساسنة للاستعمار الرومانى ، وان عبد الله بن الحسين ، ادى لهذا الاستعمار نفس الدور الذى اداه جبلة بن الايهم . (المعرب)


جبال طوروس
أضنة
طرسوس
مرعش
الرها
حلب
انطاكية
قبرص
حماة
حمص
تدمر
القريتين
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
البحر الأبيض المتوسط
دمشق
حوران
جبل حوران
صخور بركانية
بصرى
قيسارية
سهول البلقاء
عمان
غزة
البحر الميت
صحراء
بئر السبع
رفح
العريش
صحراء
العمليات في سوريا
عام ٦٣٦

الصحراء • ولم يكن فى الامكان القيام بغزو جدى عن ذلك الطريق حتى ولو كان العرب هم القائمون به • ولا ريب فى أن هرقل قد تنفس الصعداء عندما سمع بأن جيشه قد عاد الى احتلال فتحة درعا ، وان العرب قد أخرجوا منها الى الصحراء جنوبا • وقد خيل اليه ان سوريا قد غدت فى نجوة من الخطر •

ولا يوضح المؤرخون العرب لنا ، من تولى قيـــادة العرب فى هذه الازمة ، وفي وسعنا أن نخمن بأن أباعبيده كان لا يزال القائد العام الأعلى ولكنه في المواضع العســـكرية البحتة ، كان يطلق يد خالد بن الوليد اطلاقا كاملا ، ليعالج الوضع بما يراه •

واستمرت فترة الركود الثانية فى فتحة درعا زهاء أربعة أشـــهر رفض الروم ابانها بأن ينصاعوا لاغراء العرب بالخروج من حصونهم التى كان العرب عاجزين أو غير راغبين فى اقتحامها • لكن المعارك لا تكسب عن طريق الدفاع السلبى ليس الا ، وكان العرب أكثر قدرة على الحركة وأظهروا ميلا أشد الى المبادرة من أعدائهم •

وتؤلف مضـــائق اليرموك ووادى الرقاد فى الجـــانب الغربى من الفتحة عقبات كأداء فى طريق أية حركات عسكرية • اذ أن جوانبها تكون فى كثير من المواضع عمودية تقريبا • أما الى الشرق فعلى الرغم من ان الصخور البركانية تغطى سطح السهل الا أن المرور فيها ليس متعذرا على الفرسان والهجانه بله المشاة • وقد يكون من المتعذر خوض معركة فى القرن السابع للميلاد وسط الصخور البركانية ولكن هذه الصخور لاتحول بين جماعات من المحاربين العرب وبين التسلل حول الجناح الشرقى للروم للوصول الى سهل حوران • وفى وسعنا أن نخمن بأن هذه هى الاساليب التعبوية التى تبناها العرب قبل انقضاء عهد طويل • فقد شقوا طريقهم حول الجناح الشرقى لمواقع الروم ، وبات فى وسعهم أن يقطعوا طريق تمـــوين العدو أو يهددوه تهديدا خطيرا ، ويبـــدو أن الطريق الرئيسى لمواصلات الروم كان يتجه الى الجولان ومنها عبر المنطقة التى يقوم عليها اليوم جسر بنات يعقوب ثم يتجه شـــمالا الى بعلبك ، بدلا من الطريق الرئيسى الممتد بين دمشق ودرعا •

ولكن الخيانة فى صفوف الروم ، كانت أكبر أثرا على جيشهم من عمليات العرب كما يبدو • والمعتقد ان قائد الروم تيورد وروس (تودز) كان ميالا فى البداية الى تبنى أساليب الدفاع المتصفة بالنشاط والحركة • اذ أن المؤرخين العرب يتحدثون عن عدد من العمليات الثانوية التى ذكروا

ان الروم قد غلبوا فيها كلها • وكان أجدر بتودز وأحكم لو انه خاض مع العرب معركة حاسمة عندما التقى الجيشان ، اذ أن عدد جنده كان يتفوق على جند العرب تفوقا هائلا ، لكن فترة الراحة التى انقضت مكنت العرب من أن يستغيثوا بالخليفة فى المدينة ليبعث اليهم بالنجدات الجديدة • ولا ريب أيضا فى ان اطالة المكوث فى حصون اليرموك الدفاعية قد أثرت على معنويات جند الروم ولا سيما أن الأرمن منهم كانوا متعودين على أجواء أكثر برودة وعلى مناخ جبلى ، كما انهم كانوا من المرتزقة الذين لايدافعون مباشرة عن بيوتهم ومساكنهم • وبينما كان سكان السواحل السورية موالين للامبراطورية الرومانية ، كان سكان حوران معادين لهـــا أو غير آبهين بهـــا على الاقل وهو عامل لا بد وأن يكون قد أثر على معنويات الجنود •

وظهر احتكاك خطير بين الاغريق والارمن حتى أن شطرا من الجيش قد انتخب «شنس» القائد الارمنى قائدا عاما • خلفا لتودز ويبدو أيضا ان شيئا من الاتصال قد جرى بين خالد بن الوليد وبين شنس هذا ، كمـــا يبدو أن هذا الاتصال قد جرى عن طريق الجنود العرب فى جيش الروم • الذين لم يقوموا الا بدور صغير فى القتال بعد أن تحول الى معركة ثابتة• وقد أدت هذه المنافسات المســـتمرة بين الوحدات المختلفة فى الجيش الرومانى ، وما نجم عنها من تدهور فى الانضباط ، بالاضافة الى الاسابيع الطويلة من الجمود داخل الحصون ، الى استكمال الانحطاط المعنوى فى الجيش الرومانى • وكان العرب قد تلقـــوا تعزيزات قوية من الجزيرة العربية ، وأخذوا يتحولون يوما بعد آخر الى الهجوم • وأصبحوا يحيطون تقريبا بمواقع الروم أو انهم قطعوا مواصلاتهم من ثلاث جهات على الاقل •

وهبت ريح قائظة عابثة من الصحراء من الناحية الجنوبية الغربية فى العشرين من شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٦ • وأخذت سحب الرمال والتراب تلطم وجوه الجنود الروم • ولا اعتقد ان هناك ما هو أسوأ من عاصفة رملية قائظة حقا فى الصحراء اذ انها تقتلع عادة الخيام ، وتطيح بعدد الطبخ ، ويمتلىء الطعام والماء بالتراب • بينمـــا تلسع ذرات الرمل الوجوه وتطمس الاعين ولا تزيد الرؤية فى مثل هذه الحالات على بضع ياردات ، ومن المتعذر على المرء أن يواجه مثل هذه الريح • وكل مايستطيع فعله هو الاقعاء على الارض ، والانتظار حتى تنتهى العاصفة من نفسها • وقد تستمر الريح يومين أو ثلاثة أيام ، ومن المحتمل أن يكون بدء هبوبها هذه المرة قد وقع مساء التاسع عشر من أغسطس مما مكن القادة العرب من وضع الخطة للقيام بهجوم عام شامل فى الصباح التالى •

وعلى الرغم من ان البدو لا يستسيغون هذه الزوابع الرملية الا أنها كانت شيئا عاديا طالما ألفوه • يضاف الى هذا أن اتجاه الريح كان فى أقفيتهم وفي وجوه أعدائهم ، وعلى الرغم من أن مدى الرؤية أمامهم كان مغلقا ، الا ان الريح وهى تهب وراء ظهورهم كانت تمكنهم من أن يظلوا مفتوحى الاعين لاتعرقل سبيلهم كثيرا • ولا ريب فى أن مثل هذه الظروف تجعل من المعركة ، فردية أكثر منها جماعية • فالجيش المتعود على الحرب فى صفوف منتظمة تلبية لأوامر قادته يصبح فى وضع يائس فى مثل هذه الاوضاع • أما العرب فهم فرديون فى طبيعتهم ، وكل جندى منهم صورة مجسدة للجرأة والنشاط والحيوية وهو على استعداد وتلهف للمقـــاتلة وحيدا • والجنود العرب عاجزون عن خوض معركة نظامية ضاربة فى صـــفوف متسلسلة • ولكنهم يكونون فى أحسن حالاتهم فى أى هجوم عنيف يشنه كل واحد منهم على انفراد • ولكن المعركة سارت كما يبدو وفق خطة رسمها العرب اذ ان فصيلا من جنودهم احتل الجسر القائم على وادى الرقاد وراء جيش الروم • وهـــو الجسر الذى يمر عليه طريق مواصلات الروم الرئيسى • وسرعان ما وثبت جماعات من العرب الصائحين وكأنهم العقبان الكواسر يسيرون وكأنهم الاشباح عبر الرمال المندفعة ، متدفقين على مواقع الروم • ولو كانت العاصفة الرملية فى ذلك اليـوم كثيفة كما أعرفها لما تمكن جيش الروم من أن يخوض معركة مهما كان شكلها فى ذلك اليوم • ولـــما كان العرب قد قطعوا خط رجعة الروم باحتلالهم الجسر ، فقد وقعت مذبحة هائلة قتل فيها تودز (تيودوروس) نفسه • ولم يحل صباح اليوم التالى حتى كان جيش الروم الذى قضى هرقل أكثر من عام يصرف الجهد ، ويبذل كل ما فى وسعه لاعداده قد زال من الوجود • فلم يكن هناك انسحاب أو عمليات تغطية خلفية أو نواة لناجين من القتال •• لم يكن هناك شيء على الاطلاق ، ولم يبق من الروم انسان •

ويقال ان عددا من نســـاء العرب قد اشتركن فى معركة اليرموك هذه ، ينشدن ويهتفن بالرجال مشجعات محمسات • وكان أبو سفيان عدو النبى الكبير فى يوم ما قد أتى الى ســـوريا زائرا حيث كان ولداه يزيد ومعاوية يحتلان مراكز قيادية مهمة فى جيش المسلمين وقد رافقته فى هذه الزيارة زوجته العجوز ، هند بنت عقبة التى كانت قبل اثنى عشر عاما تشجع محاربى قريش فى غزوة أحد ، منشدة بتمجيد العزى وهبل ومتممة مغامرتها الحربية بالتمثيل بجثة حمزة عم النبى واقتطاع كبده ، التى مضغتها • ويبدو أن نيران الحماسة والميل الى المنـــاجزة

والحرب ، لم تكن قد خبت بعد فى صدرها الذى أضعفته السنون اذ آنها تقدمت يوم اليرموك صفوف المسلمين وأخذت تهيب بالمسلمين بأن يقطعوا المشركين بسيوفهم ولا يذكر المؤرخون ان زوجها أبا سفيان قد اشترك فى القتال فلقد شهد المعركة ولكنه كان فى الثالثة والسبعين من عمره • وكان قد خسر عينا واحدة فى حصـــار الطائف • وقد انقضت أيامه الصالحة للقتال وان قدر له أن يعيش خمس عشرة سنة أخرى ليمـــوت وهو فى الثامنة والثمانين • ولعل من سخرية الاقدار أن هذين الزوجين العجوزين اللذين كانا فى يوم من الايام من أشد أعداء الاسلام قد أنجبـــا للشعب العربى أسرة مالكة من الاباطرة •

***

وعندما سمع هرقل الهرم وكان فى انطاكية بأن جيشه قد أبيد عن آخره أدرك تمام الادراك بأن القرار أصبح حاسما وراح يودع البـــلاد المقدسة التى حارب طويلا لاسترجاعها من الفرس ليعود فيخسرها للعرب بقوله : « سلام عليك ياسوريا سلاما لالقاء بعده » • وراح يمتطى جواده ليعبر جبال طوروس متجها الى الغرب •

وكان الامبراطور جوستنيان قد قضى نحبه فى القسطنطينية قبل نحو من سبعين عاما بعـــد أن حقق هدفه فى اعادة توحيد الامبراطورية الرومانية • وكان قائداه اللامعان بليزاريوس ونارسيس قد استعادا له افريقية وأسبانية وايطاليا ولكن جوستنيان كان يحمل الرأى نفسه الذى حمله فيما بعد لويس الرابع عشر عندما قال : بعدى يكون الطوفان • فلقد استنزفت موارد الامبراطورية كلها وخوت خزائنها • ولم يكن فى وسع خلفـاء الامبراطور العظيم جوسـتنيان من أمثـال جوسـتين وطيبريوس وموريس أن يحافظوا على هذا الصرح الضخم العالى • وفى عام ٦٠٣ • خلع موريس عن العرش ليحل محله «فوقا» صاحب السلوك المشين المعيب • وفى عام ٦١٠ أبحر هرقل الشاب من افريقيـــا الى القسطنطينية ليتوج امبراطورا فيها فى اليـــوم الثانى من وصوله بين هتافات الجمـــاهير الحماسية • ولكن كسرى ابرويز كان قد وصل الى أبواب المدينة • وقدر على هرقل أن يقضى ثمانية عشر عاما فى جهود عسكرية لا تكاد تصدق قبل أن ينتصر نهائيا على الجيش الفارسى ولا ريب فى أنه كان يأمل فى انه بعد هذه السنوات الطويلة الشاقة وبعد هذا القلق العظيم سيقضى سنوآته الاخيرة فى أمن وكرامة ، ولكن فرصة راحته كانت قصيرة ، اذ لم تمض أربع سنوات على عقـــد الصلح مع فارس حتى كان العرب يصلون الى

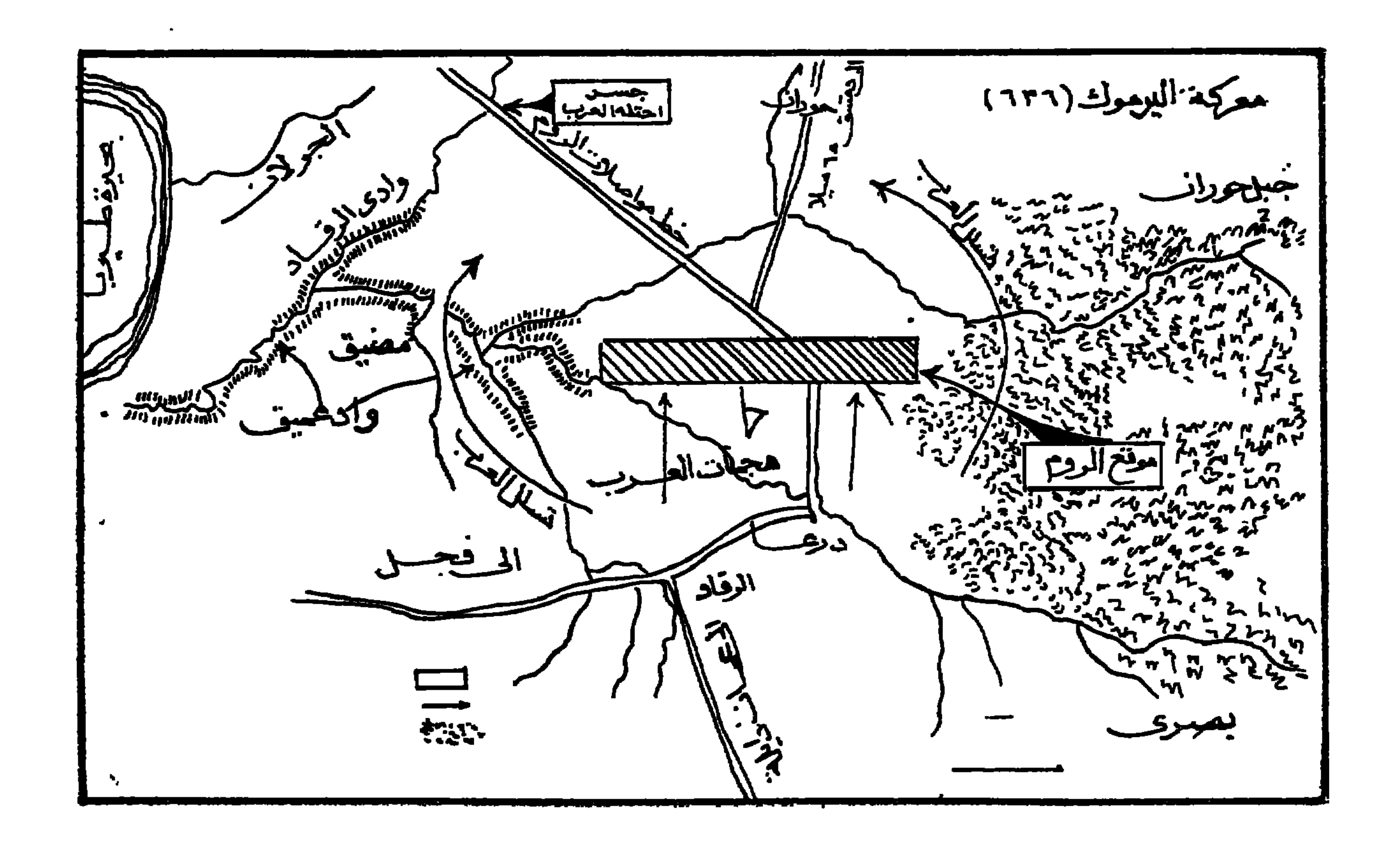
سوريا • وبعد ثلاث سنوات أخرى من الجهد المتواصل ، فقد الامبراطور الشيخ الآمال البراقة التى حارب ثمانية عشر عاما لاستخلاصها من كسرى وقدر له أن يعيش خمس سنوات أخرى ، ولكنها سنوات المزيد من الاذلال والفشل •

ولم يتردد المؤرخون فى أن يوجهوا اللوم فى ذلك الى ماأسموه بجبن هرقل ، فى فشله فى اخراج العرب من سوريا • لكننى أرى أن ليس لهذا النقد مايبرره اطلاقا ، ولقد كان من سوء طالعه ، ان ألقيت عليه مهمة الحفاظ على امبراطورية كانت مواردها غير كافية لأداء هذه المهمة • ولقد كان رجلا واعيا مدركا وكان تقيا متدينا قضى حياته فى جهود ومتاعب متواصلة تكللت أحيانا بالنصر ولكنها انتهت أخيرا بالفشـــــل واليأس • ولا يروى التاريخ سيرا لأناس كانوا مثل هـــذا الرجل فى حسن نياته وكانوا مثله فى الكد والنصب وانتهوا مثله الى النهاية المفجعة التى انتهى اليهـــا •

***

ولقد انتهت بمعركة اليرموك العمليات الحربية النشيطة التى تمثلت فى احتلال العرب لسوريا • فلقد عاد أبو عبيدة الى الزحف شـــــمالا فاستعاد دمشق وحمص وبعلبك • وغيرها من المدن التى كان العرب قد جلوا عنها أثناء هجوم الروم ، وقد استقبلت جيوش العرب فى أماكن عدة استقبالا حسنا مصـــــحوبا بالرقص والاهازيج ويقول أحد المؤرخين العرب : ان أهل حمص أعربوا عن ايثارهم لعدالة العرب على ظلم الكنيسة الارثوذكسية والامبراطورية الرومانية ، ومن حقنا أن ننظر الى مثل هذه البيانات بتحفظ ، لان مصادرها اسلامية أولا ، ولان السوريين الضعفاء كانوا يرغبون حتما فى ارضاء سادتهم الجدد ، الذين لم يعد هنـــاك من ينافسهم ثانيا •

ومع ذلك فهناك على أى حال أسباب واضحة ، تدعو أهل مشرق سوريا وشرق الاردن الى الرضا مؤقتا على الأقل عن هذا التبدل • فالشعب البريطانى وهو يعيش فى جزيرته يعتبر البحر حده الطبيعى ، واذا ما جاء أفراد هذا الشعب من الغرب ونزلوا فى الارض المسماة الآن بلبنـــان • فانهم يتوقعون أن يجدوا أنفسهم فى الشرق واذا ما توغلوا بعد ذلك فى الداخل نحو دمشق وبغداد وطهران فانهم لا يتوقعون أن يجدوا فروقا كبيرة كتلك التى توخوها بين فرنسا وايطاليا مثلا ، وبين لبنان • ففرنسا وايطاليا بالنسبة لهم هما الغرب بينما لبنان ودمشق وبغداد هى الشرق•



معركة اليرموك (٦٣٦)
بحيرة طبريا
الجولان
وادي الرقاد
جسر احتله العرب
مضيق
وادي العلان
الى فجل
جبل حوران
موقع الروم
هجمات العرب
تسلل العرب
درعا
الرقاد
بصرى
الى دمشق ٦٥ ميلا

ولكن هذا التصنيف القاطع مازال مضللا حتى يومنا هذا ٠ ولقد كان أكثر خطأ وتضليلا في القرن السابع ، فلقد كان حوض البحر المتوسط كله يؤلف العالم الرومانى الاغريقى ، وكان هذا البحر بالنسبة الى الرومان الطريق الرئيسى الذى يربط بين ممتلكاتهم لا الحد الذى يفصل بينها ٠ وكان السورى أو المصرى فى تلك الايام لا يجد نفسه غريبا فى اليونان أو ايطاليا أو بلاد الغال ولكنه يجد نفسه غريبا فى العراق أو الحجاز ٠ وكانت حدود رومة كلها أرضية لا بحرية فهى الراين والدانوب وجبال الاطلس والصحراء ٠ وكانت الحدود الثقافية لرومة فى سوريا وفلسطين هى جبال لبنان الشرقية وبحيرة طبريا ونهر الاردن والبحر الميت ٠ وكانت قبائل الصحراء قد تسللت منذ أقدم عصور التـــاريخ الى المدن والقرى الواقعة الى الشرق من هذا الخط ٠ وكان معظم سكان هذه المناطق الشرقية من الســـاميين أو انصـــاف العرب ويؤثرون السريانية فى حديثهم على اليونانية ويميلون بصورة عامة الى الثقافة الشرقية ٠ وقد فشل الرومان والبيزنطيون فى ادماج هذه المناطق ثقافيـــا فى بلادهم وظلوا يؤثرون حكمها عن طريق حكام عملاء من أهلهـــا كالأنباط وأبنـــــاء هيرودس والغساسنة ، اما الى الغرب من الاردن وجبال لبنـــان الشرقية ، فان شعوب هذه المناطق ينظرون الى الغرب وعلى الرغم من عدم تحررهم تحررا كاملا من النفـــوذ الشرقى ، الا انهم كانوا أقرب الى الأوربيين منهم الى العرب ٠ ومن هنا يظهر أن الحد الثقافى الطبيعى لبيزنطة كان نهر الاردن٠

ولو تحولت سوريا كلها وفلسطين وشرق الاردن الى المسيحية لعقدت رباطا أوثق مع بيزنطية ولكن النتيجة كانت معاكسة فى الحقيقة فلقد اضطهدت كنيسة بيزنطية الارثوذكسية الكنيستين السورية والمصرية ٠ وعاملتهما على انهما من الهراطقة ٠ وجاء الفاتحون العرب فمنحوهما التسامح والاستقلال ، ولم يقم الفاتحون المسلمون بأية محاولة لتحويل المسيحيين الى الاسلام ، وان فرضوا عليهم نظاما مختلفا من الجباية قد يحمل طابع التحيز ووضعهم فى مرتبة أدنى ٠ وهكذا نرى بعض القبائل المسيحيـة ترفض دفع الضريبة كقبائل نصرانية ولكنها ترغب فى دفعها بل بنسبة أعلى مما يدفعه المسلمون شريطة أن تكون عشرا أو صدقة لا جزية أو خراجا ٠ وهكذا كان دفع الضريبة بالنسبة الى غير المسلمين يحمل فى البداية معنى التبعية ٠ لكن المساس بالكرامة كان طفيفا ولكنه حل محـــل الاضطهاد البيزنطى كما يذكر القراء ٠ وقد قدر لمركز النصـــارى أن يتدهور فى السنوات اللاحقة بعد أن كان فى سنوات المسلمين الاول مركزا كريمـا

لاتشوبه أية شائبة(١) ، ومن هنا لايكون غريبا أن يظهر أهل الحضر فى الاردن وفى داخل سوريا الفرح لما أسموه بانقاذ العرب لهم من حكامهم البيزنطيين السابقين ٠

وقد اعتنقت معظم القبائل البدوية النصرانية الاسلام دون ضجيج ولقد كانت حروب الفتح الاسلامى بالنسبة الى أبناء هـذه القبائل من محاربى الصحراء شيئا تهدأ اليه نفوسهم ، وكان فى مكنتهم اذا مااعتنقوا الاسلام أن ينضموا الى قبائل الجزيرة العربية على قدم المساواة فى خوض حياة يشملون فيها بأمجاد الحروب وغنائمها ٠

وكان الوضع مختلفا الى الغرب من سلسلة لبنـــان الشرقية ونهر الاردن ، فلقد ظل أهل هذه البلاد ينظرون الى اليونان وروما أجيالا طويلة وكان بعضهم من أصل أوربى فعلى ٠ولذا فهم ينظرون الى العرب نظرة تحمل معنى الزراية والكره ولم نسمع عن أهل هذه المناطق انهم استقبلوا الفاتحين العرب بالرقص والاهازيج والموسيقى ٠ وهناك تعقيد آخر يكمن فى الخلاف بين أهل المدن وأهل الارياف ٠ ويحتل هذا التمييز مكانة مهمة للغاية فى البلاد العربية الشمالية اليوم بحيث يصعب على الاوربيين فهمه٠ وقد نشأت هذه الخلافات والعقبات بسبب الفروق فى العمل تماما كتلك التى قامت بين أهل الوبر والمدر فى جميع أطراف الجزيرة العربية ، لكنها تولدت فى سوريا وفلسطين على أى حال من جراء الفتوحات العسكرية ٠ فلقد ظلت هذه البـــلاد عرضة للغزو قرونا عدة من الآشـــورين والبابليين والمصريين والفرس واليونان والرومان ، وكانت كل دولة أجنبية فاتحـة توطد أقدام سلطانها فى المدن التى تقوم على حمايتها حاميات من القوات الاجنبية ٠ وسرعان مايأخذ أفراد هذه الحاميات فى التزاوج والاختلاط مع أهل المدن التى يحتلونها لكنهم لم يكونوا يتزاوجون أو يختلطون الا عـلى نطاق ضيق للغاية ، مع البداة أو الفلاحين ٠ ومن هنا كان أهل المدن أقرب الى العنصر الرومانى الاغريقى من أبناء القبائل أو القرى سواء من الناحية الثقافية أو الناحية العنصرية ٠

---

(١) يوحى قول المؤلف هنا ان العرب المسـلمين اساءوا أيام دولتهم للنصارى العرب وهو قول يحمـل طابع التشـويه التاريخى اذ ان مركز النصـارى العرب ظل محترما طيـلة عهد السـيطرة العـربية على الدولة الاسـلامية ، واذا كان التـدهور قد لحق بهذا المركز فبعد قرون طويلة عندما سـيطر الشـعوبيون من أبناء الشـعوب الاسلامية على الدولة العربية وتدهور نتيجة هذه السيطرة مركز العرب عامة وبينهم النصارى ٠ (المعرب)

وقاومت بلدة قنسرين(١) فى شمال سوريا جيوش العرب التى يقودها فى هذه المنطقة خالد بن الوليد • وقد أنزل بالمدافعين هزيمة شديدة واحتل المدينة عنوة ، وراح أبو عبيدة يزحف بعد ذلك على انطاكية التى كانوا يسمونها بملكة الشرق والتى كانت تعتبرمع رومة والاسكندرية وبيزنطية أعظم مدن العالم القديم • وكان الأباطرة العظام أمثال أوغسطس وطايبريوس وتراجان وانطونيوس بايوس وهدريان قد زانوها بما بنوه فيها من معابد ومسارح وحمامات وأقنية لمياه الشرب • ولكن الخراب لحق بنصف المدينة تقريبا أثناء الحروب التى وقعت بين كسرى والروم•ونشبت معركة فى المنطقة التى تغطيها الغابات خارج الاسوار فى غابات مهروبة (الاسم الغربى لها هو دافنى) التى اشتهرت فى الماضى بجمالها ، وبحفلات العهر والفسوق التى كانت تدور فى ربوعها واضطرت حامية المدينة الى اللجوء الى داخل الاسوار ، ثم سرعان مااستسلمت وراح خالد يندفع شمالا الى أن وصل سفوح جبال مرعش وأورفة وشمشاط ، وتراجع العرب على عادتهم عند الجبال عن زحفهم وتوقفوا عندها بعد أن أقاموا حدهم الشمالى عليها الذى ظل قائما منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا •

وهكذا لم يحل خريف عام ٦٣٦ حتى كان العرب قد اجتاحوا سوريا بأكملها حتى جبال الاناضول • أما الى الجنوب فكانت قيساريه والقدس لا تزالان صامدتين فى وجههم وأقام العرب فى غضون ذلك مركزا حربيا لهم فى الجابية فى الجولان ، وهى مركز متوسط يستطيع الجيش أن يعمل منه بسرعة فى جميع الاتجاهات لاخماد أية فتنة تثور . ويبدو أن فكرة اقامة مثل هذه المراكز المتوسطة التى تحشد فيها القوات العربية والتى لا يتاح فيها المجال للجنود للاتصال بالاهالى المدنيين مدينة فى وجودها لعمر بن الخطاب . وسنسمع فيما بعد الكثير عن هذه المعسكرات والقواعد العسكرية .

ولقد كانت فلسطين منذ بداية الحملة على سوريا قبل ثلاث سنوات المنطقة الخاصة بعمرو بن العاص • وكان فى فترات الازمات ، كمعركة اليرموك مثلا ، يعود فينضم بقواته الىالجيشالعربى الرئيسى. ولكن حالما يزول الخطر يعود الى تلك المنطقة ولقد سبق لى أن أوضحت أن أساليب العرب التعبوية التى جعلت منهم جيشا لايقاوم فى المناطق المنبسطة كانت صعبة على التطبيق فى المناطق الجبلية أو

---

(١) قنسرين مدينة قديمة قرب حلب ويطلق على احد أبواب حلب اسم باب قنسرين • (المعرب)

المناطق الضيقة المحصورة ، ولهذا السبب وحده ظل عمرو بن العاص يحصر عمليـــاته طيلة وجود الجيوش البيزنطية فى المنطقة فى السهل الساحلى الممتد من بئر السبع الى قيسارية • أما الآن فقد انتهى أمر الجيش البيزنطى ، ولم تعد هناك قوات فى الميدان ولهذا السبب ارتقى العرب جبال القدس (اليهودية) وفرضــوا حصـــارهم على مدينة القدس نفسها (ايليـــاء) ولم يبق أى أمل فى الانقاذ عند المحاصرين ولا سيما بعد أن انسحب هرقل الى ما وراء جبال طوروس • وشرع صفرونيوس بطريق القدس فى أواخر خريف عام ٦٣٧ ، ويقول بعض المؤرخين فى خريف العام الذى ســـبقه يفــاوض المسلمين • وسرعان مااتفق الفريقان على شروط استسلام المدينة • لـــكن صفرونيوس أصر على تسليم المدينة شخصيا الى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين • وبعث أبو عبيدة برسالة بهذا المعنى الى المدينة ، وقرر عمر على الفور أن يزور الجبهة السورية شخصيا •

وخرج عمر كعادته فى ملابسه البسيطة المرقعة ، مع قافلة حملته الى درعا (اذرعات) التى تقع الآن على الحـدود الســورية الاردنية (ذكرت اذرعات فى سفر الملوك فى التوراة كمسرح المعــركة التى دارت بين داود وأوغ ملك باسان) • واهتز الخليفة المتواضـــع المتطهر فزعــا عندما رأى أهل البلدة يخرجون للقائه بالأهازيج والسيوف والراقصـــين بينما تعزف النساء على الرقوق والدفوف ، وقال عمر : « امنعوهم » ولكن أبا عبيدة رد قائلا : « يا أمير المؤمنين هذه سنتهم وانك ان منعتهم منها يرون أن فى نفسك نقضا لعهدهم » • فقال : «دعوهم» وان كان فى قوله هذا معبرا عما يحس به من الغيظ والسخط لكن سخطه على قـــادة المسلمين كان أشد وأقوى فلقد خرج للقائه فى جنوب البلدة أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان وخالد بن الوليد وهم على ظهور خيولهم تحيط بهـم الفرسان وعليهم الديباج والحرير • ويقال أن الخليفـــة نزل عن بعيره وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال غاضبا : « سرعان مالفتم عن رأيكم ••• أاياى تستقبلون فى هذا الزى ••• وانما شبعتم منذ سنتين ما أسرع ما ندت بكم البطنة • والله لو فعلتموها على رأس المـــائتين لاستبدلت بكم غيركم » • وتقول الروايات ان القادة الذين احمرت وجوههم خجـــلا ردوا قائلين : « يا أمير المؤمنين انها بلامقة ــ أى فى الظاهر ــ وان علينا الســـلاح » • وهنا رضى الخليفة بعد امتعاض وتذمر • وقد أظهر المستقبل القريب صدق مخاوفه •

وجاء وفد يمثل بطريق القدس للقاء عمر فى الجابية وسرعان ما تم

عقد الصلح وتسليم المدينة ، وشخص الخليفة بعد ذلك ماوا بالطريق التاريخي القـــديم عبر وادي الاردن عند بيســـان الى جبال نابلس (السامرة) التى تغطيها حقول الحنطة وكروم العنب وغابات الزيتون ، ومنها الى القدس حيث استقبله البطريرك المدافع الحلو اللســان عن الكنيسة ، ولكن اذا كان البطريرك قد أغرق فى المجاملة ، وحلو الحديث وهو يرحب بالخليفة الا أنه ظل بعيدا فى حشاشة فؤاده عن أن يكون صادق الود ، اذ عندما أخذ الخليفة البدوى ، البسيط اللباس ، العارى القدمين ، يطوف بكنيسة القيامة همس البطريرك باليونانية فى أذن أحد مساعديه قائلا : « لا ريب فى أن هذا هو مقت الخراب الذى تحدث عنه دانيال النبى وهو واقف فى المكان المقدس » ...

وحدث أن حان وقت صلاة الظهر ــ والخليفة لا يزال يطـــوف بأنحاء كنيسة القيامة وأراد أحد رجاله أن ينشر الحصير للصلاة على أرض الكنيسة ولكن الخليفة منعه قائلا : ان لن يؤدى صلاته هناك ، ثم أضاف قائلا : لو صليت هنا لأخذ المسلمون الكنيســـة من بعدى ليحولوها الى مسجد . وخرج عمر من الكنيسة حيث صـــلى خارج أسوارها . وما زال هناك مسجد صغير يقوم أمام الـكنيسة فى المكان الذى صلى فيه عمر . وتحتل القدس مكانة مقدسة عنـــد المسلمين ، وكان النبى قد جعل منهـــا أولى القبلتين كما أنه أسرى به من مـــكان الصخرة الى الســماء فى ليلة المعراج . ويبدو أن عمر بن الخطاب قد سلك سلوكا فيه الكثير من التواضع والعطف مع أهل المدينة المقدسة(١) .

---

(١) حاول المؤلف تشويه الصورة الرائعة التى تشير الى عدل العرب وتسامحهم فأجرى بعض التحريف في الرواية واستعمل كلمة «ادعاء» الروايات ، مع ان مافعله عمر كان مثلا انسانيا رائعا من أمثلة التسامح الدينى ، اما الرواية الصحيحة فهى على النحو التالى كما وردت في كتب التاريخ الاسلامى : حان وقت الصلاة وعمر في الكنيسة فقال للبترك (البطريرك) اريد الصلاة فقال البترك صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفردا . فلما قضي صلاته قال للبترك : لو صليت داخل الكنيسة اخذها المسلمون من بعدى وقالوا هنا صلى عمر بن الخطاب . وكتب لهم ان لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرنى موضعا أبنى فيه مسجدا فقال : على الصخرة التى كلم الله يعقوب عليها فوجد عليها ردما كثيرا فشرع في ازالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وامر ببناء المسجد ولا ريب في أن هذا الموقف الباهر الذى عامل به المسلمون المنتصرون مغلوبيهم من أهل القدس يمكن ان يقارن بما أصاب أهل القدس حينما فتحها الصليبيون في القرون الوسطى من بلاء وما لحق بالمساجد الاسلامية وفي مقدمتها المسجد الاقصي من هوان اذ ربط فيه

وأعد الخليفة اثناء هذه الزيارة ترتيباته لادارة المناطق التى تم احتلالها كما قسمها أيضا الى عدة مناطق عسكرية ، وفى ربيع عام ٦٣٨ عاد الحاكم العربى البسيط فاستقل جواده متجها الى الصحراء لتصل به الى المدينة .

***

سبق لى أن ذكرت أن جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة كان يقود مقدمة الروم فى معركة اليرموك الاخيرة والحاسمة ، وكان هذا العربى معتزا بمكانته وامارته فشق عليه أن يذعن لهؤلاء الغزاة البدو المهلهلى الثياب ، ولكنه بعد هزيمة الروم وتدمير جيشهم فى اليرموك راح يعقد الصلح مع المسلمين ، ويعتنق الاسلام وراح يقصد المدينة لزيارة الخليفة ، وبينما كان يطوف بالبيت فى حشد من الناس داس اعرابى من مزينة على طرف ثوبه ، فلطم جبلة وجهه وأطار عينه ، وشكا الاعرابى الى عمر بن الخطاب فاستدعى جبلة الى مجلسه وأمر عمر الاعرابى بالاقتصاص منه ، طبقا للشرع الاسلامى الذى يقضى بالقصاص . واستشاط جبلة غيظا ومضى مرتدا بخيله ورجله الى بلاده حيث لحق بهرقل بعد ذلك وراء جبال طوروس ومعه آلاف من أهله ورجاله . وكان لبنى غسان منزلة مبجلة عند العرب منذ عدة قرون ولذا فقد وجد هناك من انتقد تصرف عمر بن الخطاب وصرامته . وتغلبت نصيحة المستشارين فأوفد عمر الرسل الى جبلة لدعوته للعودة الى المدينة . وهناك رواية أخرى تقول ان جبلة بعد أن مضى الى بلاد الروم شعر بالحنين الى وطنه وعشيرته فأوفد الرسل الى عمر ينشد عفوه وسواء صحت الرواية الاولى أو الثانية فان الاتفاق لم يتم ، وحرمت الامبراطورية الاسلامية من اشتراك أسرة ظلت لمدة ثلاثة قرون ونصف القرن تعتبر من أمجد الأسر العربية وأعرقها (١) .

وأنقل هنا بعض الأبيات الشعرية التى نسبت الى جبلة بن الأيهم

= الصليبيون خيولهم ، وكذلك بما أصاب أهل فلسطين بعد الغزو البريطانى لها فى الحرب العالمية الاولى اذ سلمها الاستعمار الانجليزى الى اليهود بعد أن عملوا على اجلاء أهلها العرب عنها . « المعرب »

(١) لم تحرم الامة العربية من شيء بفرار جبلة وقومه وارتدادهم اذ أن ردتهم هذه كانت خيانة قومية قبل ان تكون ردة دينية . ولعل الامة العربية بخلاصها من هؤلاء قد طهرت صفوفها من الخيانة استعدادا للمعارك المنتظرة ، وهو كسب للقضية العربية لا خسارة كما يحاول المؤلف أن يقول ...

(المعرب)

وقد قالها وهو فى ديار الغـــربة فى بلاد الروم يعلن فيها حنينه الى بلاده ...

تنصرت الاشراف من عار لطمة	وماكان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى فيها لجـاج ونخوة	وضعت بها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمى لم تلدنى وليتنى	رجعت الى القول الذى قاله عمر
وياليتنى أرعى المخاض بسمنـــة	وكنت أثيرا فى ربيعة أو مضر
وياليتنى بالشـــام أو فى معيشه	أجالس قومى ذاهب السمع والبصر (١)

ولقد وقعت معركة اليرموك الكبرى والحاسمة فى يوليو (تموز) عام ٦٣٦ ، ومن واجب القارىء ألا يخلط بينها وبين استـــتيلاء العـــرب على مواقع اليرموك الدفاعية قبل نحو من عام أى فى سبتمبر عام ٦٣٤ بعد معركة أجنادين ، ولاريب فى أن هذا الخلط بين العمليتين الحربيتين على نـــــهر اليرموك هو الذى حال بين الكثيرين من المؤرخين الاوروبيين وبين فهم الفتوحات العربية • وفى وسعنا ، وهذا هو الافضل ، أن نطلق على العملية الاولى فى عام ٦٣٤ اسم معركة اليرموك الاولى وعلى الثانية فى عام ٦٣٦ اسم معركة اليرموك الثانية .

واستسلمت القدس فى شتاء ٦٣٧ ــ ٦٣٨ • ولم تصـــمد الا قيسارية فى مقاومتها بمينـــائها ومدينتها متلقية المؤن من الاسطول البيزنطى مما جعلها قادرة على المقـــاومة حتى عام ٦٤٠ • وفى هذه السنة بالذات تم احتـلال سوريا وفلسطين بكاملهما وأصبح احتلالا ثابتا لا يتعرض لأية هزة .

(١) اشارة الى حسان بن ثابت الشاعر الانصارى المعروف وكان جبلة قد سأل بعض قادميه عنه فقيل له انه ذاهب السمع والبصر • (المعرب)

تواريخ بارزة

معركة اليرموك	٢٠ من أغسطس ٦٣٦
البطريق صفرونيوس يعرض استسلام القدس للخليفة .	سبتمبر (أيلول) ٦٣٧
عمر بن الخطاب يزور القدس	يناير ٦٣٨ (كانون الثانى)

شخصيات مشهورة

ثيودوروس (تودز)	القائد الاعلى للروم قتل فى معركة اليرموك
شنس	قائد الارمن فى جيش تودز
صفرونيوس	البطريق اليونانى فى القدس
جبلة بن الايهم	آلخر ملوك الغساسنة .



القادسية والمدائن

« يا أيها الذين آمنوا ، اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار .. ومن يولهم يومئذ دبره ، الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

القرآن الكريم ـ سورة الأنفال

* * *

« ان اجتماع العصبية القبلية الى الحافز الديني جعل الحماس طاغيا »

مترجمة الى الانجليزية عن ابن خلدون .

* * *

« وتطلبون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف فتطرد الخمسة منكم مئة والمئة منكم تطرد ربوة ويسقط أعداؤكم امامكم بالسيف » .

سفر الأحبار ـ الفصل ٢٦ ـ ٧

وتركنا المسلمين عند نهاية الفصل الثامن اى فى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٣٥ وقد عادوا الى السيطرة المطلقة على الحوض الأسفل للفرات اثر انتصار المثنى الرائع فى معركة البويب . وقد استعادوا الحيرة واخذوا يغيرون على المنطقة التى بين دجلة والفرات حتى ارباض المدائن عاصمة الفرس ، ولكن المثنى كان يحتضر الآن متأثرا من جراحه ، وكانت الجيوش العربية فى حاجة الى قائد يسوس أمورها .

ولم يشعر رستم القائد العام عند يزدجرد باليأس ولم يدب القنوط الى فؤاده . ومن المحتمل أن تكون القوة التى اشتبك العرب معها فى البويب طليعة قذف بها الى الامام على حين كان يجرى جمع الجيش الرئيسى وتنظيمه ، وبدأت النجدات تترى على المدائن ، والتف النبلاء حول راية ملكهم وعادت الحماسة فدبت فى صدورهم ، وسرعان ما عادت قوات الفرس الى التقدم واضطر العرب الى الخروج ثانية من سهول السواد الخصبة وعبور الفرات عائدين الى الصحراء متخلين عن الحيرة والانبار وفتوحهم الاخرى .

وبعث المثنى وهو على فراش الموت بكتابه الى عمر يناشده فيه الغوث والمدد . ولم يتوان الخليفة عن تلبية النداء ومواجهة الحالة الطارئة ، فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل يستحثهم على ارسال النجدات الى المدينة ، وسرعان ما كان جيش جديد فى طريق التشكيل فى العاصمة ، وأعلن الخليفة وسط الجموع الحاشدة اعتزامه قيادة الجيش بنفسه . ولكنه سرعان ما سمح لكبار مستشاريه بأن يقنعوه بالعدول (١) بعد أن أوصوا بقيادة الجيش لسعد بن أبى وقاص،

---

(١) هناك تحريف من المؤلف للرواية العربية : روى الطبرى انه لما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صرار فعسكر به ولا يدرى الناس مايريد : ايسير أم يقيم ؟ وكانوا اذا ارادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو عبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في امارة عمر رديفا ، ونادى عمر الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس عليه فاخبرهم الخبر وانتظر ما يقولونه فقالت العامة سر وسر بنا معك ، فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم في رفق فقال .. استعدوا وأعدوا فانى سائر الا أن يجيء راى امثل من هذا ثم بعث الى اهل الراى فاجتمع اليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعا على ان يبعث رجلا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرميه بالجنود . فان كان مايرجو من الفتح ، =

وكان عمر هو الذى اختار وحده أبا عبيد السيىء الطالع لقيادة الجيش السابق ، أما الآن فقد سمح لمستشاريه بأن يتولوا هم الاختيار . وكان سعد من أقارب النبى ومن أوائل صحابته والمؤمنين به . وقد ذاع صيته فى شبابه بأنه خير من يرمى القوس ٥ كما اشتهر بأنه أول من سفك دما فى سبيل الدعوة الاسلامية ، وكان قصير القامة بدينها ، ذا رأس ضخم ، وشعر جعد . وقد عرف بأنه بطل من أبطال الحروب والقراع . وكان قد بلغ الأربعين من عمره عندما اختير قائدا عاما لجبهة الفرس ، ولم يكن فى وسع أى من شيوخ القبائل ورؤسائها أن يحتج على قيادته نظرا لقرابته من رسول الله ولأنه من محاربى بدر الأوائل ، ومع ذلك فقد حذره عمر — كما قيل — من الغرور ، اذ أن قريشا كانت قد تحولت بسرعة الى منزلة الطبقة الارستقراطية المتكبرة فى الامبراطورية الجديدة ٥ وراح يقول لسعد : ان الله ينظر الى الناس بأعمالهم لا بأحسابهم وأنهم جميعا عيال الله ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

وخرج سعد من المدينة فى الايام الاخيرة من خريف عام ٦٣٦ على رأس نحو من أربعة آلاف رجل ثلاثة آلاف منهم من أهل اليمن ، وقد اصطحب كثيرون من أبناء القبائل نساءهم وأطفالهم ومواشيهم . وظل عمر يوالى ارسال كل من يفد اليه من المتطوعين وراءهم وهى عملية كانت تتطلب منه الكثير من النقاش والاقناع ، اذ أن الغالبية كانت لاتزال تصر على الذهاب الى سورية لا الى العراق .

وضرب سعد خيامه فى شتاء عام٦٣٦ — ٦٣٧ عند بئر فى نجد يسمى الثعلبية لتتوافد اليه جموع القبائل المحلية ، وتنضم الى جيشه وكان رفع الحظر عن القبائل المرتدة والسماح لها بالقتال مع المسلمين قد

= والا عاد رجلا ، وندب جندا آخر ، فنادى عمر الصلاة جامعة ، وبعث الى على، وكان قد خلفه على المدينة ، والى طلحة ، وكان على مقدمته ، ولما تكامل جمعهم ، قال : ان الله قد جمع على الاسلام اهله ، فالف بين القلوب ، وجعلهم فيه اخوانا ، والمسلمون فيما بينهم ، لا يخلو منه شيء ، أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين ان يكون امرهم شورى بينهم ، وبين ذوى الرأى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ، ما اجتمعوا عليه ، ورضوا به لزم الناس ، وكانوا فيه تبعا لهم . ايها الناس ، انى انما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم من الخروج ، فقد رأيت أن أقيم ، وابعث رجلا . وقد احضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت (يريد عليا وطلحة) . ثم اجال معهم الرأى فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأى أخيرا على تولية القائد العظيم ، سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشي . (المعرب)

ادى الى زيادة ضخمة فى عدد المتطوعين . وسرعان ما انضم اليه نحو من أربعة آلاف رجل من بنى تميـم . حتى طليحة مدعى النبوة فتح الآن صفحة جديدة فى تاريخـه ، وسارع الى الانضمـام الى جيوش المسلمين على رأس ثلاثة آلاف رجل من قبيلته بنى أسد .

ولحق بالجيش زعيم آخر من زعمـاء الردة هو الأشعث بن قيس شيخ كندة وصهر أبى بكر على رأس جيش لجب من محاربى حضرموت، وقدم الى المدينة عمر بن معديكرب على رأس جماعته من زبيد فى اليمن واستقبله الخليفة استقبالا حسنا ومنحه مع غيره من شيوخ القبائل من ذوى الأهمية ، مبلغ الفى درهم . ولم يكن من السهل ارضاء عمرو هذا فقد ذاع صيته ، بأنه أكول نهم ، فضرب على جنب بطنه الأيمن وقال بصوت عال ، « الف هنا » ثم عاد فضرب جنبه الأيسر وقال : « الف لهنا » ثم أشار الى أوسط بطنه يقول : « وماذا يبقى لهنا » فضحك الخليفة وأعطاه خمسمائة أخرى .

وما زالت عادة الهبات النقدية والكساوى لرؤسـاء القبـائل متبعة فى المملكة العربية السعودية حتى يومنا هذا وقد اضطررت ابان عملى مع البدو الى مراعاتها ، ولما كنت أعرف أننى مهما دفعت ، فان الشيخ الذى أقدم اليه الهدية سيطلب المزيد ، كنت أقدم اليه أولا ثلثى المبلغ الذى حددته له . وكان البدو يطلقون على الدفعة الاضافية الاخيرة اسم اللحيقة ، «تصغير اللحقة» :

وسار سعد من الثعلبية فلقيه معن بن حارثة ، شقيق المثنى عند العذيب ، وكان اخوه قد توفى . (۱) وكان يحمل راية المثنى وآخر رسالة من القائد المتوفى الى القائد الجديد ، ينصحه فيها بأن يحارب العدو فى الصحراء ، لأنه سـينتصر فيها ، اما اذا قدر له أن يهـزم فسيجد الصحراء الودودة المعروفة لديه وراء ظهره ، وسيعجز الفرس عن اللحاق به فيها فينظم جيشه ويعاود الكرة ثانية . هذه هى خلاصة الخطط السوقية العربية فى العراق وسورية وهى الخطط التى أهملها أبو عبيد اهمالا مفجعا فى معركة الجسر .

---

(۱) يقول البلاذرى : وسار سعد الى العراق فأقام بالثعلبية ثلاثة أشـهر حتى تلاحق به الناس . ثم قدم العذيب في سنة خمس عشرة . وكان المثنى بن حارثة مريضا فأشار عليه بأن يحارب العدو بين القادسية والعذيب . ثم اشتد وجعه فحمل الى قومه فمات فيهم ، وتزوج سعد امرأته.

وكان سعد مصمما على ألا يزج بجيشه قبل الأوان فى معركة قد تكون حاسمة ، وظلت القوات والقبائل العاملة تحت امرته موزعة أكثر من ثلاثة أشهر على منطقة فسيحة فى الصحراء ، تبلغ مساحتها نحوا من مائتى ميل مربع •ولما كان الكثيرون/ منهم معهم عائلاتهم وقطعان مواشيهم كان من الصعب حشدهم فى منطقة أضيق • يضاف الى هذا ان تعذر الحصول على العلف لمثل هذا العدد الكبير من الحيوانات جعل من الأفضل ضمان ثلاثة أشهر من المرعى الصحراوى الهادىء • لتقوية الجياد والابل • وجعلها قادرة على خوض المعركة المنتظرة •

ولما كان الطقس شتاء كان الماء متوافرا فى الصحراء للجميع • وكان نحو من ثمانين ميلا تفصل بين الاطراف الشمالية للمنطقة التى عسكر فيها جيش سعد وبين الفرات ، وهى أرض صحراوية خالية من الماء تؤلف مواقع (شراف وسلمان وشدهل) قوسا أمامية لها •وهكذا كان من الصعب على الفرس أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة فوق جيادهم لمواجهة العرب فى أراضى تدريبهم •

وهكذا توافر الوقت الكافى لسعد لتنظيم جيشه دون أن يخشى التدخل من العدو • وعلى سبيل المماثلة ، تمكنت بريطانيا والولايات المتحدة من تدريب جيوشهما فى انجلترا لعملية الغزو ، معتمدين على حماية القناة الانجليزية (المانش) • وهكذا نجد مرة ثانية المقارنة ماثلة أمامنا بين الصحراء والقوات البحرية •

والمؤرخون الذين ندين لهم بكل ما يبقى من قصة الفتوح العربية انما هم من أبناء المدن البعيدين عن حياة البدو والصحارى والمعارك • ولهذا لم يحاول أى منهم ان يصف لنا طريقة تدريب العرب أو أساليب التعبئة التى اتبعتها هذه الجيوش الفاتحة • ولكنهم ذكروا لنا ولاول مرة ان سعد ابن أبى وقاص ••• كان مشغولا فى هذه الفترة من الراحة فى تنظيم القوات العربية • ويقال انه قسمها الى جماعات فى عشرات ، على كل عشرة منها عراف أو عريف • وكانت قد انقضت على العرب ـ وقتذاك ـ ست سنوات، وهم فى حالة حرب مستمرة مع الجنود المدربين من جيوش الروم والفرس• ومن المعقول كل العقل ، أن نفترض أنهم اكتسبوا بعض الآراء •• عن الفن الحربى •• التى تعتبر مقدمة بالنسبة الى ماكان يعرفه الجفاة من أهل البادية •

ويبدو أن جميع الجيوش فى العالم فى تلك الآونة كانت تقسم الى

مقدمات ومجنبات وساقة ، والى طلائع ورجل وركبان ، وقد اقتبس العرب هذا التنظيم وطبقوه فى جيوشهم • وكانت القوات التى يعهـد اليهـا والى قياداتها القيام بهذه الواجبات تحتفظ عادة بالمراكز التى تنتدب لها طيلة الحملة كلهـا • ويبدو أن سعدا قد عين نائبا له ؛ ثم عين أمراء الثعلبية على المقدمة والأجنحة والمؤخرة ؛ وغيرها من الوحدات بالاضافة الى أمراء الرايات وأمراء الأعشار ثم القواد من رءوس القبائل • وليس ثمة من ذكر خاص لتعيينات بين أمراء الوحدات وأمراء الأعشار الا اذا اعتبرنا أصحاب الرايات فى الواقع من أمراء السرايا أو الافواج •

ويبدو أن حجم السرية فى الجيش العربى كان مطاطا مرنا للغاية ، اذ أن هذه الوحدات ظلت تحتفظ بطابعها القبلى • فالوحدة تؤلف من القبيلة الواحدة ، ولما كنا قد ألفنا فى القرنين الماضيين سماع ماتنزله وحـدات نظامية من الجيوش الحديثة من هزائم بالقوات القبلية البدائية ، فاننـا نميل الى اعتبار التنظيم القبلى مفتقرا الى الكفاية من وجهة النظر العسكرية ولكننى أرى أن الافتقار الى الاسلحة الحديثة عند هذه القبائل ، هوالسبب فى الهزائم المذكورة ، لا التنظيم القبلى • أما عندما كان الرمح والسيف والقوس هى الأسلحة الرئيسية الموجودة فقد كان فى وسع القبائل أن تتسلح بها تماما كالجيوش النظامية يضاف الى هذا أن القبيلة تمتاز بدافع الغريزة « بروح الجماعة » التى تحاول الجيوش الحديثة كل ما وسعها الجهد خلقها فى جنودها • وطالما كان النظام القبلى قائما فان أبناء القبائل كانوا يحاربون حتما مع أبنـاء عمومتهم بشكل أفضل مما تحارب به الجماعات المختلطة ، المؤلفة من رجال يمتون الى قبائل أخرى تعتبر بعضها البعض غريبة عنها •

ويقوم الدليل على وجود هذه المزايا عند جميع القبائل ، لا العربيه وحدها ، من الحقيقة الواقعة ، وهى أن جيوشا صغيرة من القوط والفاندال وغيرهـما •• من البرابرة •• كانت كافية للاطاحـة بالامبراطورية الرومانية • (١) وكان الافتقار الى الانضباط عند القبائل العربية سببا

---

(١) يقال ان عدد القوط الشرقيين الذين احتلوا ايطاليا في القرن الخامس للميلاد لم يزد على العشرين الفا من المحاربين في حين كان سكان ايطاليا يعدون بين خمسة وستة ملايين ، وكان عدد القوط الغربيين الذين اجتاحوا اسبانيا ، وكانت ولاية رومانيـة ، لم يزد على هذا الرقم ، واستولى جنيسريك ملك الفاندال على افريقية الشمالية بجيش لايزيد على الخمسة عشر الفا وكلها ارقام تتشابه مع ارقام الجيوش العربية • وراجع كتاب محمد وشارلمان لهنرى بيرين • (المؤلف)

دائما من أسباب ضعفها الحربى • ولكن الدين الاسلامى الحديث كان ••• فى الفترة التى نكتب تاريخها الآن ••• قد ســـــد هذا النقص وأمن الانضباط فى جيوش المسلمين ؛ حيث جعل طاعة أولى الأمر واجبـــا دينيا •

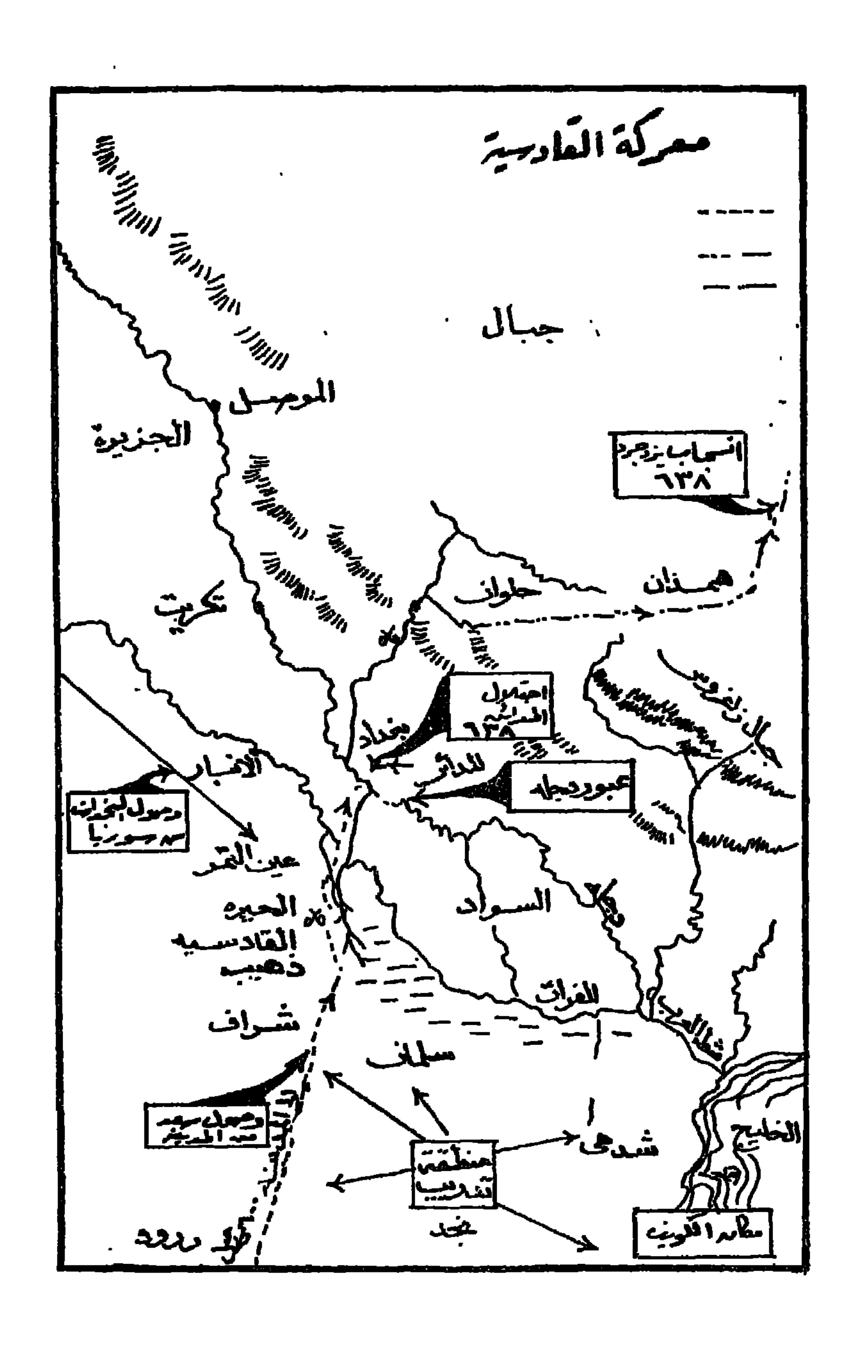
ومن المحتمل أن يكون سعد تحرك الى الشمال من أشرف باتجاه العذيب القريب من الفرات • والتى تبعد بضعة أميال عن خان الرهبـــة فى ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٦ م أو يناير (كانون الثانى) عام ٦٣٧ م وأصدر أمره الى جميع القبائل وبينها بالطبع تلك التى كانت تقاتل تحت امرة المثنى ، على أن تحتشد فى المنطقة نفسها •

وكان جيش المثنى فى معركة البويب يعد نحوا من اثنى عشر ألفـــا نصفهم من قبيلته بنى بكر • ويعتقد أن سعد بن أبى وقاص حشــــد العدد نفسه تقريبا عندما تحرك من الثعلبية الى شراف ؛ واذا ماجمعنا اليه الوحدات التى ظلت تصل باستمرار تبين لنــــا أن الجيش العربى الذى احتشد فى العذيب كان يعد نحوا من ثلاثين ألف مقاتل ، واذا ماقدرنا هذا الجيش بجيش المثنى المؤلف من البـــدو فقط ، تبين لنا أنه ــ أى جيش سعد ــ كان يضم نحوا من ١٤٠٠ من صحابة الرسول وبينهم تسعة وتسعون من محاربى بدر •

وكان العرب قد حققوا نصرهم الضخم فى معركة اليرموك فى سورية فى شهر أغسطس عام ٦٤٦ • ولم تكد أنباء النصر تصل الى الخليفة حتى أصدر أمره الى أبى عبيدة بأن يعيد الى العراق القوة التى كان خالد قد سار بها قبل نحو من عامين من جبهة الفرس الى سورية • ولكن خالدا لم يرافق قوته فى طريق العودة ؛ وانما قادها وهى تضم نحوا من ستة آلاف جندى ••• قيس بن المكشوح أحد قادة الردة السابقين فى اليمن ؛ ومعه القعقاع المتهور الذى تسلق مع خالد أسوار مدينة دمشق يوم فتحها ؛ لكن هذه القوة لم تكن قد وصلت بعد من سورية عندما وصل سعد على رأس جيشه الى العذيب •

***

ولم يكن الفرس فى غضون ذلك مخلدين الى الراحة والكسل ؛ وكانوا ــ تلبية لأمر يزدجرد وحثه وحيويته ــ قد حشدوا جيشا ضخما بقيادة رستم القائد المتمرس الذى خبر الحرب فى عدة حملات وقد حمل الفرس لهذه المعركة راية الاسرة الساسانية المالكة للتدليل على أهميتها ؛



معركة القادسية
جبال
الموصل
الجزيرة
انسحاب يزدجرد
٦٣٨
همذان
حلوان
تكريت
احتلال المدائن
٦٣٨
بغداد
عبور دجلة
الأنبار
عين التمر
الحيرة
القادسية
السواد
الفرات
شراف
سلمان
منطقة تدريب
نجد
الخليج

وألف نحو من ثلاثة وثلاثين فيلا « الفيلق المدرع الذى تفرر أن يقود الهجوم » وقدر المؤرخون العرب جيش الفرس هذا بما يتردد بين الستين الفا والمائة والعشرين ألفا وربما لا يقبل المرء هذه الارقام وان كان من المحتمل أن يكون جيش رستم أكثر عددا من جيش سعد (١) ٠

ومن المحتمل أن يكون رستم قد تحرك فى ديسمبر (كانون الاول) عام ٦٣٦ من المدائن باتجاه الجنوب ليرابط فى ضـواحى بابل ٠ وكانت خطط القائد العجوز تختلف اختلافا بينا وجذريا عن خطط الملك الشاب ٠ فلقد كان رستم حريصا على تجنب الدخول فى معركة فاصـــلة وكانت امبراطورية الفرس فى تلك الايام تمتد بعيدا الى السند فى دولة الباكستان الحديثة ، وتضم كل مانسميه بأفغانستان ٠ ولم يكن العرب قد خدشوا من هذه الامبراطورية الواسعة الا طرفا صغيرا منها ، وكانوا قد جلوا الآن — كل الجلاء — عما خدشوه منها وعادوا الى صحرائهم ٠ وكان يرى أنه اذا ظل الجيش الذى أعده والمسمى باسمه قائما وغير مغلوب فان العرب لن يستطيعوا عبور الفرات الا فى غزوات صغيرة بقصـــد الاغارة ، الا اذا أصبحوا على أهبة لخوض معركة أكبر فى المنطقة المزروعة ٠وهى معركة لابد أن تكون نتيجتها فى مصلحة الفرس ٠

يضاف الى هذا أن القائد العجوز الماكر ، اعتقد أن الحماس العربى سيفتر يوما ما وان الخلافات الداخلية قد تفتت وحدتهم ٠ وهكذا تركزت خطة رستم على البقـــاء على الضفة الشرقية للفرات ، وترقب مايقع من أحداث ٠

أما يزدجرد الشاب ، فكان يرى رأيا معاكسا تماما لرأى قائده وراح يحث قائده بشيء من الغرور ونفاد الصبر ، على أن يجرف بجيشه هـذه « النفايات » الصحراوية ، من حدود ممتلكاته ،وان يطاردها الى عقر دارها وسط الصحراء ، ليقتص منها على جرأتها فى ايذاء رعايا ملك الملوك ٠ لكن رستم أصر اصرارا عجيبا على رأيه ، ويقال : انه حاول المطل ، فقضى زهاء أربعة شهور فى زحفه من المدائن حتى الحيرة ، أى فى مسافة لا تعدو السبعين ميلا ٠

وكان الخليفة فى غضون ذلك ، قد أمر سعدا بأن يبعث بالرسـل

---

(١) محاولة جديدة من المؤلف للتشكيك فى التاريخ العربى ومن ثم للتشكيك فى اهمية النصر الرائع الذى حققه العرب فى معركة القادسية العظيمة .

(المعرب)

الى يزدجرد ليطلبوا منه اسلامه • وهكذا سافر الى المدائن وفد يضم نحوا من عشرين فارسا عربيا من الذين اشتهروا بالشجاعة والفروسيةوفصاحة القول ، بينهم عمرو بن معد يكرب الزبيدى، والأشعث بن قيس؛ وكلاهما من زعماء الردة السابقين • وعندما مر رجال الوفد بالقاعة الكبرى فى طريقهم الى كسرى ، لم تستطع الجموع أن تكبت ضحكاتها الساخرة منهم لرؤيتها ملابسهم الخشنة وأسلحتهم البسيطة ، ومظهرهم المفتقر الىالهندام لكن السلوك الاستقلالى الجرىء الانوف الذى سلكه هؤلاء العرب الاحرار من أبناء الصحراء أثر تأثيرا عميقـــا على أفراد بطانة يزدجرد المترفين الناعمين •

واختار الوفد عند مثوله أمام كسرى ••• النعمان بن مقرن ••• ليكون الناطق باسمه ، وهو من صحابة الرسول من الانصـار • وراح النعمان يحدث كسرى بتاريخ ارسال النبى صلى الله عليه وسلم الى العرب لانقاذهم من جاهليتهم ثم دعاه الى الاسلام هو وقومه ، فان أبى فالجزية مع التبعية لحماية المسلمين • أما اذا رفض كلا الأمرين فخسارة العرش أمر حتمى (١) •

ويبدو أن كسرى ثار غضبا من هذه الاقوال ، وله الحق فى ذلك ، ورد بأن العرب قوم فقراء ، جفاة ، أنصاف جائعين من الصحراء • وقد ردوا عليه بأنهم كانوا حقا فقراء والفقر لا يعيب صاحبه ، ولكن الله وعدهم بالثراء والوفرة • ولكن الملك الشاب ، استشاط غضبا من هذا الرد ، وصرخ بهم قائلا انه لو لم يكن من العار قتل السفراء ، لقتلهم على بكرة أبيهم وطلب بعد ذلك وقرا من تراب ليحمله رئيس الوفد ، مشيرا بذلك الى زرايته بهم ومضى الوفد الاسلامى يحمل كيس التراب ، ليقدموه الى سعد بن أبى وقاص متفائلين به ومستبشرين وقائلين لقائدهم : «أبشرفقد أعطانا كسرى تراب بلاده» (٢) •

---

(١) و (٢) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف الذى اقتضاه التلخيص عن رواية المؤرخين المسلمين . وهاندا انقل للقارىء الكريم الرواية كاملة :

اختار سعد تنفيذا لامر عمر دعاة بعث بهم الى ملك الفرس عليهم نجار ، ولهم آراء ، ولهم منظر ، وعليهم مهابة . وجاءوا الى المدائن واستأذنوا بالدخول على الملك فاذن لهم ، ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه أرضه . فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه : سلهم ما جاء بهم ، وما دعاهم الى غزونا والولوع ببلادنا ، أمن اجل انا حميناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ، فرد النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد ، فذكر تاريخ ارسال الرسول ، وما كان من شأن العرب منه ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك : لم امرنا ان نبدأ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا =

ولقد وقع حادث طريف مماثل لهذا فى يوليو سنة ١٧٩٩ ، عندما

= وهو دين سن الحسنى ، وقبح القبيح كله ، فان ابيتم ، فأمر من الشر هو اهون من آخر شر منه الجزاء ، فان ابيتم فالمناجزة ، فان أجبتم الى ديننا ، خلفنا فيكم كتاب الله ، واقمنا لكم عليه على أن تحكموا بأحكامه . ونرجع عنكم . وشأنكم وبلادكم ، وان اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ، ومنعناكم ، والا قتلناكم ، فقال يزدجــــرد : انى لاأعلم في الارض أمة كانت اشقى ولا اقل عددا ولا اسوأ ذات بين منكم . قد كنا نوكل بكم قـرى الضواحى فيكفوننا اياكم . لاتغزوكم فارس فتطمعون أن تقوموا لهم . فان كان عـــدد لحق فلا يغرنكم منا ، وان كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم ، فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الاسيدى فقال :

أيها الملك ، ان هؤلاء رءوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف وانما يكرم الاشراف الاشراف ، وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليــه ، وقد احسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك ، فجاوبنى لاكون الذى ابلغك ويشهدوا على ذلك : أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فانما هى ظهر الارض ، ولا نلبس الا ما غزلنا من اوبار الابل وأشـعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض . وان كان احدنا ليدفن ابنتــه حية كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك . فبعث الله الينا رجلا معروفا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير من أرضنا ، وحسبه خير من أحسابنا ، وبيته اعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التى كان فيها ، أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا الى أمر فلم يجبه احد ، أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده ، فقال ، وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا الا كان ، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما امرنا فهو أمر الله . فقال لنا ان ربكم يقول انى أنا الله وحدى لا شريك له . كنت اذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك الا وجهى ، وانا خلقت كل شيء ، والى يصير كل شيء ، وان رحمتى أدركتكم ، فبعثت اليكم هذا الرجل لادلكم على السبيل التى بها انجيكم بعد الموت من عذابى ، ولاحلكم دارى ، دار السلام ، فنشهد عليه انه جاء بالحق من عند الله وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فمن قبل ادخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وان شئت فالسيف أو تسلم فتنجى نفسك ، فقال كسرى :

استقبلنى بمثل هذا ، فقال : ما استقبلت الا من كلمنى ، ولو كلمنى غيرك لم استقبلك به ، فقال : لولا أن الرسل لا تقتل ، لقتلتكم ، لا شيء لكم عندى ، ثم قال ايتونى بوقر من تراب ، فاحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ، ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل اليه رستم ، حتى يدفنكم ، ويدفنه في خندق =

استقبل والى بغداد التركى مبعوثا من سعود بن سعود الوهابى • وكان الوالى قد أمر ضباطه وجنوده ورجال حرسه بأن يرتدوا بزاتهم العسكرية للتأثير على الوفد الوهابى ، الذى أثبت بدوره أنه من البداة الجفاة الغلاظ ولم يتأثر السفير البدوى بأبهة بلاط الوالى ، وجلس على الارض أمام الوالى موجها اليه خطابا مشحونا بالتحدى والزراية والتعالى (راجع لونكريج - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) •

وكان العرب قد شرعوا فى غضون ذلك فى الاغارة على المنـــاطق الزراعية على ضفاف الفرات ، وكانت غايتهم من هذه الغارات الحصول على المطعم لانفسهم وحيواناتهم • وقد تمكن الخليفة من أن يبعث اليهم ببعض المواشى ، ليؤمن لهم ولو جزئيا شيئا من اللحم اللازم لهم • لكن هـــذه المواشى وصلت نحيلة ، لاخير فيها ، لانها ارتحلت مسافة بعيدة فى قلب الصحراء ، ولكنه كان عاجزا عن تموينهم بالقمح لخبزهم أو العلف لحيواناتهم • وكان الفرس الذين يقعون ضحايا هذه الغارات ، يتوجهون صـارخين بالشكوى الى الملك طالبين الحماية لممتلكاتهم ، وهكذا ظلت معنويات العرب الذين يواصلون هجماتهم فى ارتفاع فى حين هبطت معنويات الفرس الذين يشهدون بأم عينهم الخراب والدمار يلحقان ببلادهم ، وأصــدر يزدجرد الشــاب أخيرا أوامره الى قائده المتانى بأن يخوض المعــركة فورا مع المسلمين • ولما عجز رستم عن التسويف أو المماطلة ، تقدم بجيشه ورابط به على ضفاف الفرات فى مواجهة العرب • ويبدو أنه كان لايزال يأمل فى تأخير المعركة الحاسمة أو تجنبها فأوفد الى سعد بن أبى وقاص رسولا يطلب اليه توجيه بعض أصحابه اليه •

وقرر سعد ــ بعد التشاور مع كبار رجاله ــ ان ايفاد الوفد يعتبر دليلا على شيء من الاحترام الذى لا يرغب فيه ، ولذا فقد أرسل اليه شخصا واحدا ، كان بدويا عجوزا • وعندما وصل البدوى وجد «رستم» يجلس على سرير كالعرش ، وقد أحاط به قادته ورجال حرسه ؛ وأمامه تمتد بسط فاخرة من السجاد العجمى النادر • وظل الرسول العربى يتقدم على متن فرسه الصغيرة المهزولة فوق البسط والسجاد ؛ حتى ترجل

= القادسية وينكل بكم وبه من بعد ، ثم أوردكم بلادكم ، حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم . ثم قال : من أشرفكم ، فقال عاصم بن عمرو : انا . فحملوه وقر التراب على عنقه ، فحمله ... حتى أتى راحلته فحمله عليه ، ثم ساروا به ، فأتوا بالتراب سعدا وبشروه بالظفر متفائلين •

(المعرب)

عنها أمام رستم ثم خطا على قدميه قاصدا سريره ليجلس معه عليه ؛ فمنعته الأساورة من حرس رستم وأمسكوا بيديه ليحولوا بينه وبين السرير وهتف البدوى قائلا : « أنا لم آتكم الى هنا لينزع سلاحى منى ؟ ولكنكم دعوتمونى اليوم فلم أرغب فى المجىء أما اذا كنتم ترغبون فى أخذ سلاحى ، فسأعود الى قومى » وأمر رستم رجال حرسه بالتراجع عن الرجل ؟ وخطا البدوى العجوز الذى كان يبدو فى حالة من الانشراح الكامل ، يتكىء على رمحه ؛ وفى كل تكأة خرق يحدثه برأس رمحه فى السجاد الثمين ، وعندما وصل أمام القائد أعمل رمحه ثانية فى سجادة أخرى نادرة، فخرقها ؟ ثم أوقعها على الارض وقال فى معرض الرد على أسئلة رستم : انه يدعوه الى عبادة الله وحده ، والايمان بنبيه والا فالجزية عن يد صاغرة ؛ والا فالسيف هو الحكم « بيننا وبينكم » • وطلب رستم مهلة لدرس هذه الاقتراحات ونقلها الى كسرى ، ولكن البدوى العجوز رد عليه بأن رسول الله حدد دائما مثل هذه المهلة بالمهادنة لثلاثة أيام فقط • وأوفد سعد فى اليومين التاليين رسلا منفردين كانوا على ما كان عليه البدوى من كبرياء وتحد وغايتهم كما يبدو اضعاف الروح المعنوية عند الفرس • وكان المغيرة بن شعبة وهو من صحابة النبى من أهل الطائف ، آخر هؤلاء الرسل • فراح يجلس الى جانب رستم على سريره ، مما أثار الرعب فى نفوس أفراد البطانة والقادة •

وأدرك رستم فى النهاية أنه فى وسعه أن يكسب وقتا آخر وعاد الجدل القديم الى الظهور • لاقرار من سيعبر النهر ، العرب أم الفرس • وكان الفرس يودون لو أن العرب هم العابرون ليحاربوا فى المنطقة المزروعة ، فى حين كان العرب يرغبون فى أن يجروا الفرس الى الضفة الغربيه ليقاتلوا فى الصحراء وكان من الحتمى ان يباد أى جيش يعبر النهر عن آخره ، اذا شاء له حظه أن يخسر المعركة ، وهى تجربة تكررت مرتين ، أولاهما فى معركة الجسر والاخرى فى معركة البويب •

وكان سعد قد رتب جيشه فى سهل القادسية الذى يقوم على الغالب بين بلدتى النجف وأبى صخير الحديثتين • وكانت ميمنته ترتكز الى المستنقع الذى يمتد الى الفرات • أما الصحراء فتقوم فى مؤخرته والنهر أمامه • ووجد رستم نفسه أخيرا مرغما على اطاعة أمر كسرى ؟ وخوض المعركة مع العرب • وبدأ الجيش الفارسى فى عبور النهر ؟ (يسميه العرب العتيق) •

وكان الفرات يتفرع فى تلك الايام ، كما يتفرع اليوم الى عدة

نهيرات متفرقة ، وكان العرب يطلقون على النهر الذى يفصل بين الجيشين اسم الفرات العتيق ، ولعله كان قناة فرعية ، لان المجرى الرئيسى للنهر كان قد شق له طريقا جديدة الى الشرق ويبدو أن مجرى النهر لم يكن عميقا هنا ، اذ يقول المؤرخون العرب ، ان رستم لم يعبر بجنوده الجسر ، وانما بنى سدا عبروا عليه ؛ وعبأ رستم جيشه بعد عبوره فى مواجهة العرب ٠

وكان سعد بن أبى وقاص قد عثر على مقربة من ميدان المعركة على قلعة صغيرة أو بناء ٠٠ جعل منه مسكنا له ٠ وعندما اصطف المسلمون للقتال ، لم يكن سعد معهم ، اذ كان مريضا يشكو من بثور أو من عرق النسا ، فكان مقيما بأعلى البنـــاء ويشرف على الناس من أريكة يستلقى عليها موجها القتال ٠ ويبدو أنه كان فى وسعه ـ من هذا المكان المرتفع ـ أن يشهد كل ما يحيط بالميدان ، وأن يوجه حركات جيشه ؛ ولكن غيابه عن المعركة والاشتراك فيها شخصيا أثار موجة من الاستياء عند جنوده ، ولقد سبق لنا أن رأينا أن العرب فى الحرب ؛ كانوا يتوقعون من قائدهم قيادة الهجوم بنفسه ؛ وتحدى خصمه قائد جيش الأعداء للمبارزة وحمل راية الجيش بيديه ٠ ومن المعروف ان سعدا كان من شـــجعان العرب وفرسانهم وقد خاض معارك عدة سابقة ، ولذا فلا يمكن أن يعزى تغيبه عن القتال الى الجبن ٠ لكن بعض الناس أخذوا يتغامزون ويقال : انه كان قد بنى فى أشهر الانتظار الطويلة ، بأرملة المثنى بن حارثة ٠ ويقال: ان هذه السيدة ، أخذت تهتف فى أثناء المعركة بقولها : « وامثنياه ولا مثنى للخيل » ، فلطمها سعد على وجهها ، فقالت : « يا سعد أغيرة وجبنا ؟ » ٠

ولم نسمع أيا من المؤرخين العرب ، يقول : «ان سعدا أقام عامدا متعمدا على أعلى البناء ، وراء جبهة القتـــــال ، لتكون فرصة أفضل فى الاشراف على المعركة والسيطرة عليها ٠ ويبدو أن هؤلاء المؤرخين كانوا يعتقدون ، شأنهم فى ذلك شأن جند المسلمين ابان المعركة ، ان واجب القائد محصور فى قيادة الهجوم بنفسه والاندفاع فى صفوف العدو ٠ ولو صح ما قاله المؤرخون من أن سعدا كان مريضا حقا فما الذى دعا زوجته سلمى ، وهى أرملة المثنى ، الى تعييره بالجبن بالنسبة الى زوجها الاول ؟ ولقد روى لنا المؤرخون أيضا ، ان سعدا كان يرمى بالرقاع من مكانه المرتفع وفيها أوامره ونواهيه الى مساعديه من قادة الجيش ٠ ومن هذا أرى أن هناك ما يدفعنى الى النظر اليه ، نظرتى الى قائد عسكرى جدى ، يقاتل ليفوز ، ولا تثنيه عن هدفه هذا أفكار خيالية رومانطيقية تزين له

المبارزة الفنية لابراز شجاعته • ولا يفكر المدافعون عنه بايجـاد المبرر الصحيح لسلوكه الذى بدا شاذا لقومه آن ذاك ولقد قال الشاعر العربى•

وقاتلت حتى أنـزل الله نصره وسعد بباب القادسـية معصم
فرحنا وقد آمت نسـاء كثيرة ونسوة سـعد ليس منهن آيم

وعندما انتشر الفرس فى السهل أمام العرب أمر سعد بتلاوة سورة الانفال من القرآن الكريم على جميع الفصائل البدوية ، وهى السورة التى رددت انتصار المسلمين فى بدر ؛ والعبر المستخلصة من هذا النصر ، اذ جاء فيها :

« يأيها النبى حرض المؤمنين على القتـال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » •

ووقف المسلمون خاشعين وهم يستمعون الى هذه الآيات المثيرة تتلى عليهم ؛ فانتعشت نفوسهم وأشرقت وجوههم بنور الايمان • وعندما استثارت هذه الآيات حماستهم وشجاعتهم ، أدركوا أن بلاءهم الحسن سيوصلهم الى الشهادة فى سبيل الله ؛ مما يفتح أمامهم أبواب الفردوس على الفور بكل مافيها من متع ومباهج • ولكن المسلمين جميعا ؛ ولاسيما البدو منهم ، لم يكونوا يحاربون لدوافع دينية محضة فحسب ؛ اذ أن بعضهم أخذ يهتف هتافات الجاهلية ؛ ويتفاخر بأسماء أسلافه وبطولاتهم ، منشدا ما قيل فيهم من قصيد الحماسة والحرب •

ويبدو أن القتال بدأ بتقدم الفرس الى الامام ، فخرج اليهم بعض أبطال المسلمين يطلبون البراز • وما لبث وطيس القتال أن اشتد وحمى ، وخرجت الفيلة من صفوف الفرس ، تهز خراطيمها الهائلة أمامها ، وقد امتلأت الهوادج على ظهورها بالمحاربين وبالرايات يحملونها ويلوحون بها• وكاد بنو بجيلة أن يؤكلوا عندما فرت عنهم خيولهم نفارا هلعا من الفيلة، فأعانهم سعد ببنى أسد ، وعلى رأسهم طليحة الأسدى ، أحد أدعياء النبوة فى عهد الردة فصمدوا وصـمدت معهم بجيلة وان منيت أسد بخسائر فادحة • وركز عاصم شيخ بنى تميم ، هجومه — مع نفر اختارهم من رجاله — على الفيلة • وأخذ رماة الفيل يرمون ركبان الفيلة بسهامهم فى حين حاول الفرسان الوصول الى بطونها لقطع حبال الهوادج عنها ،واسقاطها على الأرض ، وعندما تعرت الفيلة من ركبانها عادت الى مواقعها • وتمكن العرب من اعادة تنظيم صفوفهم وصد كل ما قام به العدو من هجمات فى ذلك اليوم • ولم يزل القتال مستمرا الى أن جن الدجى ، ومضى جزء من

الليل • ولم يحقق المسلمون في هذا اليـــوم أكثر من مجرد الاحتفاظ بمواقعهم ، ولذا فقد منوا بخيبة أمل مرة من نتائج ذلك اليوم • ولعل من سوء الحظ ، أن سعد بن أبي وقاص كان غائبا عن الميدان في ذلك اليوم لان القيادة الشخصية الباسلة ، توحي ولا شك بالعزم والثبـــات للجنود •

وقضى الفريقان المتحاربان صبيحة اليوم الثاني من المعركة في نقل القتلى والجرحى من الميدان ، وعادا فالتحما عنـــد الظهيرة • وكان وضع العرب في هذا اليوم أحسن من وضعهم في سابقه ، وذلك لعدم ظهـــور الفيلة في خطوط الفرس ولعل غيابها يعود الى ما لحق بقادتها وبمعداتها من ويل في اليوم الاول •

ولعل القارىء يذكر أن عمر بن الخطاب ، كان قد بعث بأمره الى سورية بعد معركة اليرموك ، بأن يتوجه الى جبهة الفرس ، الجيش الذى كان خالد قد قاده منها الى الشام لحرب الروم قبل عامين • وقد ظهرت طلائع هذا الجيش عند القادسية بعد ظهر اليوم الثاني من المعركة • ويبدو أن الرسل كانت قد قابلتهم في الطريق واستعجلت وصولهم الى ميدان المعركة الكبرى • وكان القعقاع بن عمرو ، الفارس المغوار على رأس هذه الطلائع • ويقال انه بالرغم مما لحق به من أعياء في سيره السريع عبر الصحراء ••• تمكن من أن يكر ثلاثين كرة على العدو في اليوم الذى وصل فيه • وراح أحد الفرسان من بني تميم ، ممن طلبوا الشهادة في ذلك اليوم ، يهاجم جيش الفرس بمفرده ، مستهدفا قتل قائده رستم • وبالرغم من تمكنه من التوغل مسافة بعيدة في صفوف العدو • فانه ســـقط أخيرا مضرجا بدمائه من الجراح الكثيرة التي أصيب بها قبل الوصول الى رستم • وكان بعض العرب قد جاءوا بالابل في ذلك اليـــوم وجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب ، أثار الرعب في نفوس فرسان العدو ولم يزل القتال بين الفريقين شديدا الى أن انقضى من الليل شطر كبير • ولكنهما ما لبثا أن توقفا عنه في النهاية • وكانت نتيجة اليوم الثاني في مصلحة العرب أكثر منها في مصلحة الفرس ؟ وان كان هؤلاء قد ظلوا يقاتلون باصرار وعناد • وهكذا لم تكن المعركة حاسمة في يومهـــا الثاني وقضى العرب ما تبقى من ليلتهم في أهازيج ورقص وغناء ينشدون أشعار الحماسة ؟ ويستعيدون ذكر أمجاد أسلافهم وبطولاتهم •

ومن الطريف أن نذكر هنا هذه الخصيصة العربية التي تختلف كل الاختلاف عن سلوك الجنود البريطانيين في الظروف المماثلة • فالجنود

العرب لا يخلدون – قبل المعركة ، أو فى فترات الاستراحة – الى الراحة ، وانما يستثيرون حماستهم بالشعر والغناء ، وتكون حماستهم هائلة الى الحد الذى لا يستطيعون الاكل فيه ، كمـــا أنهم يعتمدون عند الازمات الطارئة على أعصابهم وعواطفهم ، أما الجنـــود البريطانيون ، فيحتسون الشاى فى مثل هذه الاوقات ثم يستلقون على أسرتهم يسبون ويشتمون • ناشدين النوم والراحة • ولكن الفريقين على اختلاف أساليبهما ، يكونان مستعدين كل الاستعداد لخوض القتال فى الصباح التالى •

وانقضى الصباح الثالث فى اخلاء الميـــدان من القتلى والجرحى واشتغلت السيدات العربيات وراء خط القتال فى دفن الموتى بسرعة ، وفى تخفيف الآلام عن المصابين والمجروحين • وعندما أوشكت المعركة أن تبتدىء ، ظهرت فى الميدان القوة الرئيسية القادمة من سورية وانضمت الى المعركة • وبالرغم مما لحق بالعرب من انشراح وسرور لوصول هذه النجدة العظيمة ، فانهم سرعان ما اشتد قلقهم من عودة فيلة الفرس الى الظهور ، وصدر أمر سعد الى القعقاع الباسل لتدبير أمره معها ولجأ هذا الى أسلوب جديد فى حرب الفيلة ، يتلخص فى اســـــتخدام جنود رجال مسلحين بالرماح والحراب • وذلك لان الجياد كانت تأبى الاقتراب منها • وظل القعقاع وزميل آخر له من أهل النجدة من بنى تميم يرقبان أكبر الفيلة متطلعين الى فرصة ينتهزانها ؛ فى حين أن أتباعه أخذوا يشتبكون مع حماة الفيل ؛ وهما يزعجانه بالقتال الذى يثيرانه حوله • وبضربة سريعة مفاجئة وضع القعقاع رمحه فى عين الفيل ففقأها وان زعم بعضهم أن الفيل أمسك به فى خرطومه ساعتها وقذف به أرضا • وتمكن العرب برماحهم من أن يفقئوا عينى فيل آخر بالطريقة نفسها فنفض الفيل المصاب رأسه وطرح سائسه ؛ وأخذ يدور الحلبة هلعا جزوعا ، مما أثار الفزع فى نفوس بقية الفيلة فولت أدبارها ، مهرولة صارخة • تدوس كل من فى طريقها من أصدقاء وأعداء • واستمرت بعد ذلك المعركة بين الجنود قوية صارمة عنيفة ، اذ صمد الفريقان ولم ينفصلا حتى جن الليل • وتوقف القتال •

أجل توقف القتال عندما خيم الظلام على أرض المعركة ، ولكن بعض العرب قرروا استئنافه وشغل العدو طيلة الليـــل بعد وقفه بلحظات • وأدى هذا الهجوم اللامتوقع الى اشتباك عام ساد الجبهة كلها فى الظلام •

حيث تعذر على سعد أورستم السيطرة على القتال وتوجيهه(١) وقد اعتمد العرب آن ذاك كما يعتمدون الآن على قدرتهم على الحرب فى الظلام • وهم كثيرا ما يودون تشبيه أنفسهم بالذئاب التى تنام فى النهار وتعتس فى الليل • ولا ريب فى أن الناس الذين يعيشون نصف حياتهم تحت النجوم ونصفها الآخر فى الخيام الممزقة ، لايمكن الا آن يكونوا قد ألفوا الليل كما يألفون النهار • وعندما ينتقل النـــــاس الى الحياة تحت السقوف ويغلقون على أنفسهم أبواب دورهم ، فان الليل يغدو غريبا عليهم ، عدوا لهم ، يثير رعبهم وفزعهم • ويبدو ان جيش الفرس كان يتألف من رجال ألف معظمهم الحياة داخل الدور والبيوت •

ونحن لا نشك فى أن جيش كسرى كان أحسن تدريبـــا من جند العرب • فالمعركة الليلية بالنسبة الى الجنود النظاميين الذين ألفوا القتال فى صفوف منتظمة متقاربة ، وعلى ضوء ما يتلقونه من أوامر مستمرة من قادتهم ، شيء دقيق متعب ؛ اذ أن الأفراد من الجنود ، يفقدون الاتصال بزملائهم ، وتصبح الوحدات معزولة عن قياداتها • ويصبح كل انسان مسئولا عن نفسه فى مثل هذه الظروف • وتعدو جماعة من المتحمسين «اللامنضبطين» ؛ يصرخون ويضربون بسيوفهم ، ويندفعون برماحهم أقدر على القتال من رجال مترددين ينتظرون الاوامر من قادتهم • ومن هنا لابد أن نقول ان الهجوم الليلى فى القادسية ساعد العرب بالقدر الذى ساعدتهم فيه العاصفة الرملية الهوجاء فى معركة اليرموك ، وأنا أعرف للبدوى صفة خاصة به لا توجد فى غيره وهى استعداده للمبـــــادرة حتى فى أضيق

---

(١) تختلف رواية المؤلف هنا من الرواية العربية بعض الاختلاف ، وأعتقد ان الاختلاف مقصود ، لاظهار العرضية في انتصار العرب ، فلقد روى المؤرخون العرب ان الفريقين لم ينفصلا عندما جاء الليل ، حيث خشعت اصوات الناس ، فلم يكن يسمع الا صـليل السيوف وهدير الفرسان ، ورأى العرب والعجم أمرا لم يروا مثله ، وما زال القتـال مشتدا ، حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا عيونهم ، فسار القعقاع في النـاس يقول لهم : « ان الدبرة بعد ساعة لمن صبرها ، فاصبروا ساعة . فما قام قائم الظهيرة ، حتى انهزم جناحا الفرس ، وانفرج القلب ، وكانت همة أصحاب النجدة ، موجهة الى سرادق رستم .

يتبين الفرق بين روايتى التاريخ العربى والمؤلف . وتظهر الاولى ان القعقـاع وهو من قادة العرب ، أدرك أن الفرصة أصبحت موالية لكسب المعركة اذا اسـتمر القتـال لبعض الوقت ، فطلب من رجـاله أن يواصلوا القتال . في حين تظهـر رواية المؤلف ، ان النصر جاء بطريق المصادفة العارضة للعرب ، وهو تضليل مقصود .

(المعرب)

الزوايا ، غير آبه بأية جهة فى الحياة ، ومن الملاحظ أن الهجوم الليلى فى القادسية كان من عمل البدو وابتكارهم وأن لا شأن به لسعد بن أبى وقاص ، وأن العرب لم يلجئوا الى الهجمات الليلية فى المعارك الاخرى وان كانوا قد لجئوا الى الاغارات الليلية • وتتضح هذه الحقائق اذا قلنا أن قادة المعارك العربية الكبرى ••• من قريش ، وهم من أهل المدن ؛ ولم يألف هؤلاء حركات الليل (١) •

هكذا جرت الاحداث « ليلة الهدير » وهو الاسم الذى أطلق على المرحلة النهائية من المعركة • وعندما أطل الفجر بنوره ، كانت رحى المعركة لا تزال دائرة على أشدها ، اذ تحولت الى معركة سحق ، ينتصر فيها الفريق الذى يتمكن من الثبات مدة أطول ، مستجمعا كل ما لديه من عزيمة وشجاعة ، اذ أن الجهد أصاب الفريقين المتحاربين • ولقد تمكن العرب من التفوق فى الهجوم فى صبيحة اليوم الرابع ويقال ان القعقاع لا سعدا ، هو الذى أوحى للعرب بالحافز فى ذلك اليوم ، وضرب لهم المثل فى الاستبسال ، وذلك لانه من البدو وهم وحدهم فى صلابتهم وقوة احتمالهم ، القادرون على تطبيق ما علمتهم اياه حياة الصحارى ، من تعود

(١) تشويه فاضح للتاريخ العربى يقصد منه اظهار امرين : اولهما ان نصر العرب في القادسية كان وليد المصادفة العارضة ، لا الخطة العسكرية البارعة ، وان لا فضل للبطل الكبير سعد بن ابى وقاص فيه ، والآخر الاصرار على التمييز بين أهل المدن وأهل الوبر ، أو بين قريش والبدو . لكن الرد على المؤلف واضح ويتلخص في النقاط التالية :

(أ) ان اقتراح المضي في القتال صدر من القعقاع . كما تجمع كتب التاريخ العربى ، ولم يكن القعقاع مجرد جندى عادى بل كان قائد الجيش الذى جاء من سورية ، ولا ريب في أنه تولى قيادة الميدان الفعلية منذ وصوله في اليوم الثالث للمعركة حتى لو سلمنا جدلا بأن الهجوم الليلى وقع دون اذن من سعد القائد العام .. لوجوده في البناء وراء خط القتال فان هذا لا يعنى بحال مجرد المصادفة العارضة كما يحاول المؤلف أن يقول . وانما يعنى تصرفا من قائد الميدان اوحت به ظروف المعركة . وقد راينا في تاريخ المعارك الحديثة امثلة عدة لهذا التصرف ، بل هو شرط من شروط الفن العسكرى .

(ب) ليس ثمة كبير فرق بين قريش وقبائل الصحراء . ولا تعدو قريش أهل واحة من الواحات في الصحراء وهم على اتصال كبير ودائم بالبدو الذين يحيطون بهم ، ومن هنا لا يكون كبير فرق بينهم وبين البدو ، ويتحطم منطق المؤلف المصطنع في انكار مزية الهجوم الليلى في القادسية .

(المعرب)

على الجوع وشظف العيش • وحمـــل العرب حملة صادقة أخرى ، وبدأ الفرس في الانهيار اذ تخاذل القلب وأخذت صفوفه فى التراجع وهبت ريح عاتية فى غضون ذلك وأخذت الرمال فى الانتشـــار مبشرة بحلول ظروف تشابه تلك التى وقعت فى اليرموك •

واخترق العرب قلب جيش الفرس واتجهت همة فرسانهم الى رستم قائد الفرس العام ، الذى عثروا عليه فوق سريره ، فأمسكوا به وقتلوه (١) وسرعان ما انهار جيش الفرس• وتمكنت تشكيلتان عسكريتان فارسيتان من الوصول الى السد الذى سبق للجيش أن عبر عليه قبل المعركة الى الضفة الغربية • وانسحبتا عن طريقه دون أن يلحق بهما كبير أذى ، أما غالبية جند الفرس ، فقد تفرقوا شذر مذر فى كل حدب وصوب فغرق بعضهم فى النهر وقتل البعض الآخر وهم يحاولون الفرار عبر ســـهل القادسية ، لكن ثلاثين كتيبة فارسية صمدت بعد أن رفضت الهزيمة ؛ الى أن أبيدت عن آخرها ، ولم يكد نقع المعركة ينجلى حتى انتشرت نساء البدو وأطفالهن فى الميدان يحملون الهراوات والسلال بيد وقرب المـــاء باليد الاخرى يروون بها ظمأ الجرحى من المسلمين المشرفين على الموت ، ويبعثون بالأحياء من الفرس الى الجحيم • ويقول الطبرى : ان العرب خسروا فى هذه المعركة نحوا من ألفين وخمسمائة شهيد فى الايام الثلاثة الاولى من القتال ، ونحوا من ستة آلاف فى ليلة الهدير • واذا صح ما قيل من أن جيش سعد كان يعد فى الاصل نحوا من ثلاثين ألفا ، أضيف اليهم ستة آلاف جاءوا مع القعقاع من الشام فان مصرع هذا العدد ، دون ذكر عدد

---

(١) تختلف رواية المؤلف هنا أيضا عن روايات التـــاريخ العربى ، اذ تجــاهل المؤلف محاولة رستم الفرار من الميدان في حين اختلق رواية صمود الكتائب الثـلاثين من جيش الفرس . لقد روى العرب أن جناحى الفرس أصيبا بالهزيمة ، وانفـــرج القلب . وكانت همة أصحاب النجدة موجهة الى سرادق رستم . فلما رأى ذلك أراد الهرب فتبعه هلال بن علقة حتى قبض عليه وقتله ، وصعد على سريره ، ثم نادى : قتلت رستم ورب الكعبة فاطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام. وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية واسمها « درفش كابيـان » ثم تتبعـــوا بقية المنهزمين حتى أجلوهم الى ما وراء القنطرة ، وقد وصف فارسي يدعى أبا رجاء ، معركة القادسية نقلا عن جده فقال : حضرت وقعة القادسية وانا مجوسي فلما رمتنا العـــرب بالنبل ، جعلنا نقول : دوك ، دوك ، نعنى مغازل ، فما زالت بنا تلك المغازل حتى ازالت أمرنا لقد كان الرجل منا يرمى عن قوسه . فما يزيد سهمها على أن يتعلق بثوب أحدهم ، ولقد كانت النبلة من نبالهم تهتك الدروع الحصينة والجوشن المضاعف مما علينا .

(المعرب)

الجرحى يشير الى نسبة تبلغ خمسا وعشرين فى المائة وهى جد عالية حتى فى معايير المعارك الحديثة الضارية(١)

وغنم العرب فى المعركة كميات ضـــــخمة من النقود والمجوهرات والاسلحة بالاضافة الى الراية الكبرى للملوك الساسانيين • وكانت معركة القادسية مميتة بالنسبة للحكم الفارسى فى العراق ، تماما كما كانت معركة اليرموك مميتة للحكم البيزنطى فى سورية • وتمكن الجفاة من أبناء القبائل العربية ، الصلاب العود من تحطيم الجيش الفارسى ، ـ الذى كان لعشر سنوات خلت يقرع أبواب القسطنطينية ـ تحطيما لن تقوم له قائمة بعده ، وأدى مصرع رستم ، الى زيادة اليأس والاضطراب • ولم يكن فى مكنة الملك الشاب يزدجرد الذى كان قد بلغ الآن الحادية والعشرين من عمره أن يدبر أمر مثل هذه الأزمة الخطيرة وحيدا ؛ لافتقاره الى التجربة اللازمة •

يضـــــاف الى هذا أن البـــــلاد كانت قد ألفت التطلع الى رستم ـ الديكتاتور العجوز ؛ والسياسى المختفى وراء العرش ـ والنظر اليه على أنه دعامة العرش • أما وقد أضحى الآن فى عداد الموتى ؛ فلم يبق هناك رجل يحوز من الكفاية ما يمكنه من السيطرة على العاصفة العاتية •

وسارعت القبائل الشمالية العربية النصرانية الى اعلان خضوعهـا للمسلمين • وتحول بعضها الى الاسلام ، الذى رفع من شأن أخواتها من القبائل العربية ، وحقق لها كل هذه الامجـــــاد والثروات التى لا يكاد يصدقها عقل(٢) وقد أعلن النصارى من أهـــل الحضر خضوعهم ودفعهم للجزية المقررة • وبدت هنا مشكلة فى طريق الظهور ، فلقد صنف النبى اليهود والنصارى على أنهم من أهل الكتاب ، وان من حقهم أن يظلوا على دينهم اذا شاءوا ذلك بشرط أن يدفعوا الجزية • أما المشركون من عبدة الأوثان ، فلا خيار لهم : فاما الاسلام واما الموت • وكان الفرس من أتباع زرادشت ؛ أى من عبدة النار ، ولم يكن من حقهم أن ينالوا من التسامح ماناله اليهود أو النصارى ولكن لم يكن فى مكنة المسلمين قتلهم جميعا • وهكذا فرضت الظروف على المسلمين أن يعاملوهم كأهل الكتاب ، وقبلت الجزية منهم •

---

(١) لم يشأ المؤلف ان يذكر عدد قتلى الفرس في المعركة ، وان كان المؤرخـون العرب قد قدروهم بثلاثين الفا .

(٢) لم تتحول قبيلة تغلب النصرانية الى الاسلام الا بعد امد طويل .

(المعرب)

وكان سعد بن أبي وقاص على اتصال دائم بالمدينة ، أى بالخليفة فيها، ولهذا كان عمر ، على علم بأن معركة أساسية ضارية ستنشب عماقريب • وتقول الروايات : ان عمر كان يخرج فى كل صباح الى ظاهر المدينة ، مترقبا وصول رسول من العراق • وفى ذات يوم رأى ، أخيرا ؛ رجلا وحيدا على هجينه الذى أنهكه طول المسير ، يقترب من المدينة قادما من بطن الصحراء • وراح الخليفة يسأله عن الانباء • فرد هذا البدوى دون أن يعرف الخليفة الحافى القدمين بعباءته المرقعة ، بأن الفرس قد انهزموا • واضطر عمر الى الجرى وراء هجين الرجل ليتابع ســـؤاله عن تفاصيل المعركة ، حتى دخلا الى المدينة • وسرعان ما علت الدهشة وجه الرجل ، عندما رأى الناس يسلمون على صاحبه بامارة المؤمنين ويهنئونه •

وتروى قصص لاعد لها ولا حصر ، شبيهة بهذه عن عمر بن الخطاب وبعضها صحيح والبعض الآخر غير صحيح(١) ولكنها كلها تؤكد بصورة لا يتطرق اليها الشك ما كان عليه هذا الرجل العظيم والقائد الكبير من تواضع وبساطة •

وبالرغم من أن جيش الفرس قد منى بهزيمة ساحقة ، فان الاعياء كان قد أخذ من العرب كل مأخذ ، بحيث تعذر عليهم أن يطاردوا فلول المنهزمين • وأقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس • ولا ريب أيضا فى أن من الاسباب التى أدت الى بقائه ، حاجتــه الى أن يظل الى جانب هذا العدد الضخم من الجرحى الذين لم يكن فى وســعه أن يتخلى عنهم ، أو أن يحملهم مع جيشه • ولا ريب فى أن فترة الشهرين كانت كافيــة ليسترد فيها المعافون صحتهم من اثر الجراح، وليعودوا الى صفوف الجيش• وللصلاة على أرواح أولئك الذين اختار لهم الله الشهادة •

من الصعب علينا أن نحدد بالضبط تاريخ معركة القادسية• فالتباين القــائم بين المؤرخين ، يصــل الى حدود عامين • واذا افترضنا أن معركة اليرموك قد دارت فى يوليو عام ٦٣٦ ، فان معركة القادسية لابد أن تكون قد وقعت بعد هذا التاريخ ، ذلك لأن النجدات التى كان فى الامكان ايفادها من سورية بعــد نصر اليرموك قد وصلت فى الوقت المناسب لتشترك فى

---

(١) لا أدرى سبب هــذا التشكيك فى بعض القصص • واذا كان المؤلف يعترف ــ كما يظهر ــ بتواضع عمر وبساطته فلا حاجة به والحالة هذه الى تشكيكه بصحة أى من هذه القصص التى تجمع عليها كتب التاريخ العربى •

(المعرب)

معركة القادسية • ويبعد اليرموك نحوا من ستمائة ميل عن المدينــة ، كما يبعد هذه المسافة نفسها تقريبا عن القادسية ، ومن هــذا يتضح أن ابلاغ أبى عبيدة نبأ النصرفى اليرموك الى الخليفة فى المدينة وتلقيه أوامره بارسال النجدات الى العراق ، لا بد أن يكونا قد استغرقا شهرا واحدا على الاقل ، ان لم نقل شهرين، بالنظر الى افتقار التنظيم الحكومى ـ حتى ذلك التاريخ ـ الى التدريب والنظام • ونصل بذلك الى شهر سبتمبر عام ٦٣٦ • على أية حال كان من المتعذر على النجدات أن تقطع بادية الشام قبل شهر أكتوبر (تشرين الاول) من عام ٦٣٦ • فلقد انقضى على هذه القوات وهى فى سورية نحو من عامين ، ولا ريب فى أن الجنود كانت تصحبهم نساؤهم وأطفالهم • يضاف الى هذا أن الصحراء السورية خالية من المـاء بصورة خاصة •

وهــكذا اذا افترضنا أن النجدات قد غادرت ســورية فى شتاء عام ٦٣٦ ـ ٦٣٧ ، فانها لا بد أن تكون قد وصلت الى القادسية فى وقت ما بين فبراير (شــباط) وأبريل (نيسان) عام ٦٣٧ ، وهذا يتوقف على موعد سفرها من أرض الشام ، وهل كان فى أكتوبر (تشرين الاول) أو نوفمبر (تشرين الثانى) أو ديسمبر (كانون الاول) (١) •

***

وبعد انقضاء فترة الشهرين ، عاد سعد فى أبريل (نيسان) أو مايو (ايار) أو يونيو (حزيران) من عام ٦٣٧ ، فاسترجع الحيرة ـ هذا اذا صح تسلسلنا التاريخى ـ وضاعف الجزية على أهلها بحجة أنهم نقضوا عهدهم للمسلمين قبل القادسية ، وتقدموا بولاءهم للفرس ؛ وزحف سعد بعد ذلك شمالا وأقام معسكره على خرائب بابل القديمة ، حيث شرع العرب منها فى الاغارة على المنطقة التى بين النهرين حتى وصلوا الى أسوار المدائن ، عاصمة امبراطورية الفرس (٢) •

والمدائن جمع مدينة ، اسم أطلقــه العرب على عاصمة الفرس وكانت

---

(١) يروى الطبرى من ابن اسحق أن اليرموك وقعت في تاريخ ، اذا قورن بالتاريخ الرومى ، ثبت انه في سبتمبر (ايلول) عام ٦٣٦ وان القادسية وقعت في فبراير (شباط) عام ٦٣٧ •

(٢) لم يذكر المؤرخون العرب شيئا عن استرجاع الحيرة • ويبدو انها كانت لاتزال في أيديهم وكل ما ذكروه ان سعدا ارتحل من القادسية الى «برس» حيث هزم الهرمزان، ومنها الى بابل حيث هزم الفرس في أسرع وقت . « المعرب »

تتألف فى الواقع من مدينتين ، سلوقية ويسميها العرب المدائن الدنيا على شاطىء دجلة الغربى(١) وكتسيفون ويسميها العرب المدائن القصوى على الضفة الشرقية • وكان سلوقيوس نيكيتو ، أحد الحكام اليونانيين الذين ورثوا أجزاء من امبراطورية الاسكندر المقدونى ، قد بنى سلوقية فى عام ٣١٢ قبل الميلاد • وكانت بابل حتى ذلك التاريخ هى العاصمة • وكانت سلوقية فى الأصل مأهولة باليونانيين • وكانت لعدة قرون تعتبر من أعظم المدن السياسية والتجارية فى العالم المعروف آن ذاك وبنيت المدائن القصوى بعد مائتى عام من سابقتها ، على الضفة المقابلة لها على نهر دجلة وغدت عاصمة الساسانيين فى القرن الثانى بعد الميلاد • وكان بلاط الاكاسرة وقصورهم ودوائر الحكومة فى المدائن القصوى ، فى الوقت الذى بدأ فيه العرب فتوحهم ، ولهذا فقد حزم العرب أمرهم على فتح سلوقية فى البداية ، أى المدينة التى على الضفة الغربية، وتقدم منها سعد بن أبى وقاص قادما من بابل ففرض حصاره على المدينة التى تحيط بها الأسوار •

وكان العرب كعادتهم عاجزين عن مهاجمة حصونها الهائلة مهاجمة فعالة • وان استطاعوا بمعونة من انضم اليهم من الفرس الحصول على عشرين منجنيقا استخدموها كمدافع لضرب الحصون • ولا ريب فى أن هذه الآلات كانت تقذف حجارة أضعف بكثير من أن تحطم الاسوار وتدكها . ولهذا فقد فرض المسلمون على البلدة حصارا طويلا ، لم يكن معروفا هل سيثمر أو لا يثمر ، اذ أن الجانب الذى يقوم من المدينة على ضفة نهر دجلة كان مفتوحا لوصول النجدات والمؤن من المدائن القصوى ، على الضفة الأخرى من النهر ، وكان العرب فى غضون ذلك قد أغاروا على جميع المنطقة الغربية التى على جانب دجلة وأخضعوها ، لعدم وجود جيش يقف فى الميدان مواجها لهم •

وعرض يزدجرد فى النهاية الصلح على العرب • وقد اقترح أن يجلو عن المدائن الدنيا التى على ضفة دجلة الغربية ، وان ينسحب من كل مكان على هذه الضفة ، تاركا المنطقة كلها للعرب • على شرط أن يقروا بالنهر حدا فاصلا بينهم وبينه ، وأن يتركوه حرا وشأنه فى الضفة الشرقية • ورفض سعد هذا العرض فورا وان كان قد رأى فيه مايشجعه نظرا لادراكه

---

(١) كان الاسم القديم الفارسي للمدائن الدنيا (بهرسير) وقد استعمل المؤرخون العرب هذا الاسم كثيرا في كتبهم التاريخية .

(المعرب)

ضعف العدو • ولاحظ المسلمون بعد بضعة أيام أن الاسوار خالية من مقاتلة العدو ، اذ كان الفرس قد انسحبوا من المدائن الدنيا الى الضفة الشرقية بهدوء ناقلين معهم جميع القوارب والعبارات (المعديات) ودخل العرب المدينة دون مقاومة ، ووجد البدو الجفاة العتاة أنفسهم فجأة — وقد علت أساريرهم الدهشة — مسيطرين على المدينة التى ظلت حاضرة للتجار والثروة والحضارة والرفاهية أكثر من ألف عام •

واعترض نهر دجلة سبيل العرب ، وأوقف تقدمهم عدة أسابيع • ولكن معنوية الفرس كانت قد هبطت الى الحضيض ، بحيث باتوا عاجزين عن اقامة خط جدى للدفاع وراء النهر • وكان يزدجرد قد بعث بعياله الى حلوان • وهى مدينة محصنة فى آخر سواد العراق عند سفوح جبال زاغروس الايرانية ، وسرعان ما لحق بأهله فيها مخلفا فى المدائن للدفاع عنها قائده مهران الذى هزمه العرب يوم البويب • وجاء رجل من فارس الى سعد بن أبى وقاص يبلغه وجود مخاضة فى نهر دجلة يستطيع هو ورجاله العبور منها • ومن الصعب علينا أن نتثبت من التسلسل الزمنى لهذه الاحداث • واذا صح افتراضنا السابق فى أن معركة القادسية قد وقعت فى فبراير (شباط) أو مارس (آذار) أو ابريل (نيسان) من عام ٦٣٧ بات من الطبيعى أن نفترض أن الحصار قد فرض على المدائن الدنيا أى سلوقية ، فى أواخر صيف عام ٦٣٧ وأن الفرس جلوا عنها فى شتاء عام ٦٣٧ — ٦٣٨ •

ويقول البلاذرى : ان العرب قضوا تسعة أشهر عند المدائن الدنيا أى على الضفة الغربية من نهر دجلة ، وهو رقم يتفق مع التواريخ التى قررناها ، ولكنه لا يلبث أن يقول : ان بعض الرواة يؤكدون أن العرب قضوا هناك ثمانية عشر شهرا وأنهم أكلوا الرطب مرتين• ويقول البلاذرى أيضا : ان الشك ساور المسلمين عندما دلهم بعض الفرس على المخاضة التى يمكن عبورها • اذ أن فيضان النهر كان فى بدايته(١) ويفيض نهر

---

(١) يبدو لى أن المؤلف قد أساء فهم ما قاله البلاذرى ولذا اخطأ في ترجمته . أما قول البلاذرى فهذا نصه : عن ابان بن صالح قال : لما انهزمت الفرس من القادسية قدمت فلولهم المدائن ، فانتهى المسلمون الى دجلة وهى تطفح بماء لم ير مثله قط . واذا الفرس قد رفعوا السفن والمعابر الى الضفة الشرقية وحرقوا الجسر . فاغتم سعد والمسلمون اذ لم يجدوا للعبور سبيلا ، فانتدب رجل من المسلمين فسبح فرسه وعبر . فسبح المسلمون ، ثم امروا أصحاب السفن فعبروا الاثقال فقالت الفرس : والله لاتقاتلون الا جنا ، فانهزموا .

(المعرب)

دجلة عادة فى الربيع عندما تأخذ الثلوج فى الذوبان فى جبال أرمنية ٠

ونتيجة لهذا نستطيع القول بأن عبور دجلة قد وقع فى مارس (آذار) أو أبريل (نيسان) عام ٦٣٨ أما اذا صحت الرواية بأن العرب قضوا ثمانية عشر شهرا على الضفة الغربية فان العبور يكون قد تم فى أبريل (نيسان) عام ٦٣٩ ٠

وأكد سلمان الفارسى — الذى سبق لنا أن سمعنا باسمه عندما اقترح على النبى حفر الخندق حول المدينة للمسلمين — وجود المخاضة ، وقامت بالمحاولة جماعة من الفرسان ، وقد تمكنت من الوصول الى ضفة النهر الشرقية بالرغم من النبال التى تساقطت اليها من ثلة من المدافعين الفرس ، ولم تفقدجنديا واحدا منها ٠ ولم يكد المسلمون يرون رفاقهم يصلون بأمن وسلام الى الضفة الاخرى حتى سارع فرسانهم يجوزون المخاضة متدافعين الى الجانب الشرقى من النهر ولم يتضح لنا من الروايات : هل الفرسان قد خاضوا الماء أو عبروه سباحة (١) ٠ وقد يدهش الكثيرون — ولا سيما من الذين يجهلون البدو — ان قلت لهم ان البدو الذين ألفوا العيش فى صحراء لا ماء فيها ، من أقدر الناس على السباحة ٠ ولكننى أشهد بأننى رأيت رجالا من بدو الجزيرة العربية يسبحون فى نهر الفرات ٠

ويبدو أن حامية المدائن قد ذهلت من هذه العملية الجريئة المباغتة وفر من رجالها من استطاع الفرار قاصدا الشرق الى الجبال ٠ أما من بقى فقد استسلم دون مقاومة ، وارتضى دفع الجزية طلبا للحماية ٠ وسرعان ما رأى العرب أن خيرات سلوقية (المدائن الدنيا) لم تكن الا الطعم التافه لخيرات بلاط كسرى فى المدائن ٠ وما زال الطوق الهائل لقصر كسرى يرتفع عاليا حتى اليوم مشرفا على ما يحيط به من سهول ٠ ومعطيا لناظره صورة تقريبية على الاقل عما كان عليه ذلك القصر من مجد وعظمة ٠

وأصبح العرب ذوى ثراء هائل ، اذ قسمت الغنائم جريا على المألوف السابق فى الغارات ، على رجال الجيش فورا ٠ بعد أن اقتطع منها الخمس ليرسل الى الخليفة فى المدينة ، ووجد الخليفة التقى الورع ذو العباءة المرقعة عمر بن الخطاب نفسه فجاة وفى حيازته ثياب كسرى وحليه وسيفه، ومعها بساط هائل لقاعة الطعام فيه فصوص من الماس والياقوت واللآلىء

---

(١) يقول موير (Muir) نقلا عن شيزنى Chesney : ان جيش تيمور لنك عبر نهر دجلة سباحة في عام ١٣٩٢ ميلادية .

(المؤلف)

وفيها خيوط من الذهب والفضة(١) • وحل سعد بن أبى وقاص فى قصر كسرى وأحال قاعة الطعام الفسيحة الى مسجد يصلى فيه المسلمون ، ونعم البدو بما خلفه نبلاء فارس من رياش وفراش وثير •

ولم يكن يزدجرد قد أخلد فى غضون ذلك الى الراحة ، اذ شرع فى مقره الجديد فى حلوان يجند الرجال من جميع أطراف بلاده ، القاصية منها والدانية ، وقد حزم أمره على حشد جيش جديد • وظل العمل فى بناء هذا الجيش مستمرا • وأخذت معنويات الفرس فى الارتفاع وشرعوا يندفعون غربا الى أن تمكنت قوة كبيرة منهم بقيادة مهران من احتلال جلولاء (٢) التى تقع عند النقطة التى يخرج منها نهر ديالى من الجبال عند جبل حمرين، مندفعا الى سهول العراق الفسيحة(٣) وبعث سعد الى الخليفة فى المدينة يبلغه تجمع الفرس • ويبدو أن الخليفة الكثير الحذر كان قد أمر سعدا بعدم التقدم مسافة أخرى ؛ فاضطر هذا الى الرجوع اليه لاستطلاع رأيه فيما يفعله الآن ؛ وعندما جاء الأمر من عمر ؛ بالتقدم لمواجهة الفرس ، راح سعد يبعث بابن عمه هاشم على رأس اثنى عشر ألف رجل لمهاجمة هذه الحامية الفارسية الامامية • ونشبت حرب هائلة اضطر معها سعد الى ارسال نجدات أخرى من المدائن ؛ وأخيرا انهزم الفرس بعد معركة يوم رهيب فى جلولاء ؛ وطارد العرب فلولهم المنهزمة حتى سفوح الجبال عند خانقين • ولما بلغت أنباء الهزيمة يزدجرد وهو فى حلوان انسحب منها الى الرى فى شمالى فارس ؛ واحتلها العرب دون مقاومة • وبعث سعد فى

---

(١) يوحى المؤلف بصورة لا مباشرة هنا ، بأن عمر بن الخطاب استولى لنفسه على الفيء من هذه الغنائم العظيمة ، من ملابس كسرى وحليه ، مع انه ـ كما تؤكد جميع كتب التاريخ العربى ـ قسمه بكامله على مستحقيه ثم قال لهم وهو يشير الى بساط بعث به سعد طوله ستون ذراعا فيه طوق كالصور وفصوص كالانهار . وفي حافاته كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان من الذهب والفضة: « أشيروا على في هذا القطف » ، فأجمع ملؤهم على أن قالوا : قد جعلوا ذلك لك ، الا على ابن ابى طالب فقد قال : يا امير المؤمنين الامر كما قالوا ، ولم يبق الا التروية . انك ان تقبله على هذا اليوم ، لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له ، فقطعه عمر بينهم .

(المعرب)

(٢) يؤكد البلاذرى أن خرزاد اخا رستم كان قائدا للفرس في جلولاء لا مهران كما يقول المؤلف .

(٣) يقول المؤلف انه خدم في عام ١٩٢٠ عدة شهور مع فوج من الجيش الهندى في ذلك الموقع .

(المعرب)

غضون ذلك برتل آخر ســار مع النهر شــمالا ؛ فاحتل تكريت حيث انضمت اليه القبائل العربية فى الجزيرة ؛ ومضى مع رجالها فى زحفه الى الموصل • وهكذا لم ينته عام ٦٣٨ للميلاد حتى كان العرب قد أخضعوا ـ بصورة تامة ونهائية ـ المنطقة الخصبة الغنية التى تقع فى أدنى دجلة والفرات ؛ وأصبحت هذه المنطقة كلها امارة خاضعة للامبراطورية العربية الجديدة •

تواريخ بارزة

معركة القادسية	فبراير (شباط) أو مارس (آذار) ٦٣٧ أو أبريل (نيسان)
احتلال المدائن	أبريل (نيسان) ٦٣٧
احتلال جلولاء	ديسمبر (كانون الاول) ٦٣٨

شخصيات مشهورة

رستم	قائد الفرس العام قتل فى معركة القادسية
سعد بن أبى وقاص	قائد العرب العام فى العراق
عمرو بن معد يكرب	من المرتدين السابقين ومن الأبطال المسلمين
المغيرة بن شعبة	من صحابة النبى كان مع الوفد الى رستم
القعقاع بن عمرو	رئيس بنى تميم، ومن قادة المسلمين البارزين
النعمان بن مقرن	رئيس الوفد العربى الى يزدجرد



تثبيت الأقدام

(١)

« رأى أول خط لنفسه لأنه هناك فى نصيب المشترع مطمئن • أتى راسا للشعب وأجرى عدل الرب وأحكامه »

سفر تثنية الاشتراع ـ الفصل ٣٣ ـ ٢١

***

« انا انزلنا اليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما • واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما » •

القرآن الكريم ـ سورة النساء

***

« الحكم بلا عدالة قرصنة ولصوصية »

القديس اغسطين

كان زحف الجيوش العربية في سورية والعراق في أعقاب الجيوش البيزنطية والفارسية المتقهقرة • وكان خط الانسحاب والتقدم في الغرب من دمشق الى حمص فأنطاكية فسفوح جبال طوروس • أما في الشرق فكان من الحيرة الى المدائن وظلت منطقة فسيحة بين هذين الخطين من خطوط الزحف في نجوة من كل أذى •

ويبدو أن القبائل العربية المسيحية في هذه المنطقة كانت لاتزال تناشد البيزنطيين الحماية بالرغم من أن هؤلاء كانوا قد عبروا جبال طوروس • ويبدو على أية حال أن الروم قد وعدوا هذه القبائل بمساعدتها عن طريق انزال قواتهم من البحر على الساحل • وهكذا نرى أن القبائل حشدت قواتها باتجاه حمص في مطلع عام ٦٣٨ ونزل الروم في الوقت نفسه من البحر • وأعادوا احتلال أنطاكية ووجد أبو عبيدة نفسه بين نارين فجأة ؛ نار قبائل بادية الشام التي أخذت تهدد حمص من الشرق ، ونار الروم في أنطاكية ومدن الساحل وهم يتأهبون ـ كما يبدو ـ لغزو البلاد من الغرب •

ولا ريب في أن العرب فزعوا فزعا شديدا من هذا الهجوم المضاد المفاجيء وبعث أبو عبيدة برسالة الى الخليفة تنطق بالحيرة وتثير البلبلة مما دعا الخليفة الى اصدار أمره الى سعد بن أبي وقاص بأن يرسل رتلا يصعد مع الفرات فورا لمهاجمة مؤخرة القبائل النصرانية التي تهدد حمص وعاد أبو عبيدة فبعث بعياض بن غنم لاستعادة انطاكية(١) وقد استبد القلق بعمر بن الخطاب ، حتى أنه قرر المضي بنفسه الى سورية لقيادة العمليات الحربية الجديدة وأرسل سعد من العراق ، القعقاع بن عمرو على رأس اربعة آلاف مقاتل على جناح السرعة صعدا مع الفرات • وأرادت (هيت) الصمود فأغلقت على نفسها الابواب ولكن الرتل تجاهلها مارا بها مندفعا الى الشمال ادراكا من قائده للحاجة الى السرعة • وراح القعقاع يسابق الزمن فاحتل قرقيسيا التي تقع عند ملتقى الخابور

---

(١) يقول البلاذري ... نقض أهل انطاكية العهد فوجه اليهم أبو عبيدة عياض ابن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الاول ويقال بل نقضوا بعد رجوعه الى فلسطين فتوجه اليها عمرو بن العاص من ايلياء ففتحها .

(المعرب)

والفرات • ولما كان هذا الرتل يسير بحذاء النهر • لم تكن هناك مشكلة افتقار الى الماء ولذا فقد ركب الفرسان البغال وأراحوا الجمال والجياد لتكون جاهزة مستعدة ليوم القتال •

وكان عياض بن غنم قد استعاد انطاكية فى غضون ذلك • ولم نعد نسمع شيئا عن البيزنطيين الذين يبدو أنهم قد عادوا فركبوا البحر عائدين الى بلادهم ، وقبل أن يصل الخليفة الى قطاع الجابية كان أبو عبيدة قد خرج بقواته الى حمص وشتت شمل القبائل الثائرة • وانتهت الأزمة بسلام (١) وعاد رتل القعقاع الى الجنوب فى العراق بعد أن احتل قرقيسيا •

وصدر الأمر الى عياض بن غنم بأن يسير على رأس جيش الى الجزيرة لاحتلالها وتثبيت اقدام المسلمين فيها ويبدو أنه قصد أول ماقصد الى الرقة ففتحها بعد حصار قصير • وأخذ يرسل منها البعوث والسرايا لجمع المؤن والاتيان بالاسرى • ويقول المؤرخون العرب : ان احتلال الرقة تم فى وقت الحصاد ، ولعل ذلك كان فى أواسط صيف عام ٦٣٨ ، وان فتحها تم بعد حصار دام خمسة أيام أو ستة ، وبعد أن استسلم أهلها وفقا للشروط المألوفة وكانت شروط الصلح فى جميع هذه الحالات المماثلة قد أصبحت واحدة فى سورية وتتألف من البنود التالية :

---

(١) هناك خلاف واضح بين رواية المؤلف وروايات المؤرخين العرب • فهو يقول : ان عمر بن الخطاب وصل الى الجابية ـ وهى كما سلف وقلنا ـ مكان في الجولان شمال اليرموك في حين ان المؤرخين العرب يؤكدون ان عمر وصل مع جيش من المهاجرين والانصار وبينهم أبو عبيدة بن الجراح فاخبره بانتشار الطاعون في الشام • فدعا عمر المهاجرين الاولين لاستشارتهم فاختلفوا : فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ، ومنهم القائل أنه لبلاء وفناء ما نرى أن نقوم عليه • فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ثم استدعى مهاجرة الانصار فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين ثم نحاهم واستدعى مهاجرة الفتح من قريش • فاستشارهم ولم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا : ارجع بالناس فانه بلاء وفناء ، وقرر عمر العودة فقال أبو عبيدة أفرارا من قدر الله ؟ فرد عمر : فرارا من قدر الله الى قدر الله •• وجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا أمير المؤمنين سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارا منه • وانصرف عمر بالناس عائدا الى المدينة • وقد مات بهذا الطاعون المعروف في التاريخ الاسلامى بطاعون «عمواس» خلق كثير من بينهم أبو عبيدة وهو امير بالناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة ابن سهيل •

(المعرب)

أولا ـ على كل من لايعتنق الاسلام من أهل المدن المفتوحة أن يدفع الجزية بمعدل دينار واحد للسنة وجريب من الحنطة وكميات مختلفة من الزيت والخل والعسل • وبالطبع كان النظام الذى يتبعه العرب فى التموين من أكثر الأنظمة بدائية• وذلك لضمان الحصص الكافية من الغذاء لجنودهم• ولهذا كانت الجزية العينية التى يفرضونها تستهدف مساعدة القوات على ضمان المؤن اللازمة لها • أما بالنسبة الى الجزية النقدية فالدينار هو الاسم المستعمل الآن فى البلاد العربية لما يعادل قيمة الجنية الاسترلينى ، ولن يفيدنا مطلقا أن نحاول تقويم الدينار بالنسبة الى قيمته الفعلية فى القرن السابع الميلادى على ضوء تكاليف الحياة اليوم اذ أن احتياجات الناس اليومية في القرن السابع كانت مختلفة تماما عن احتياجاتهم اليوم وكل ما يمكن قوله هو أن الدينار ، كان العملة الذهبية المعروفة فى تلك الأيام •

ثانيا : كان العرب يسمحون ببقاء الكنائس على حالها لممارسة الطقوس الدينية النصرانية بشرط عدم السماح ببناء كنائس أو بيع جديدة وعدم استخدام الأجراس فى دعوة الناس الى الصلاة (١) أو سير المواكب التى يحمل فيها الصليب فى الشوارع العامة •

ثالثا : واذا ما راعى السكان هذه الشروط مراعاة صحيحة فان المسلمين يتولون حمايتهم وتصبح أرواحهم وممتلكاتهم آمنة لا تتعرض لأى خطر •

وسار عياض من الرقة الى الرها (الاسم الحديث لها أورفة) وتحدث الى حماتها وهم على أسوارهم ، ممتطيا جواده الكميت فصالحوه على الشروط الآنفة الذكر • وزحف بعد ذلك الى سميساط (شمشاط) وحران ، فصالحه أهلها على الشروط نفسها ، وسار بعد ذلك الى رأس العين وماردين ونصيبين وديار بكر (اسمها القديم آمد) وسنجار ، فاحتلها كلها • وخضعت له الجزيرة بكاملها ويبدو أن هذه العمليات قد تمت فى المدة التى قبل سنة ٦٤٠ أو ٦٤١ واختار الخليفة عياضا ليكون واليا له فى الجزيرة ، ولكنه عاد الى حمص فتوفى فيها سنة ٦٤٢ (٢) •

---

(١) هذا ليس بصحيح ، فعمرو بن العاص مثلا في مصر لم يحرم استخدام قرع الاجراس في الكنائس •

(المعرب)

(٢) يقول الواقدى ... ان أبا عبيدة مات في طاعون «عمواس» سنة لمانى عشرة واستخلف عياضا فورد عليه كتاب عمر بتوليته حمص وقنسرين والجزيرة .

ومن الطريف أن نلاحظ هنا ملاحظة عابرة فنقول : ان غنم هو الاسم العربى لصنم من أصنام الجاهلية • وان والد عياض كان يدعى عبد غنم وعندمااعتنق عياض الاسلام رغب عن الاحتفاظ باسم والده على النحو الذى كان فيه • والذى يشير الى أنه كان من عبدة الأوثان ولذا فقد أسقط كلمة (عبد) من اسمه واصبح يسمى نفسه بعياض بن غنم وكان والده يدعى غنما : ولكن زملاءه من العرب كانوا يعرفون ان غنما اســـــم من أسماء الأوثان لكن هذه الرغبة كانت تستهدف كما يبــــدو اخفــــاء الحقيقة عن اليهود والنصـــارى (١) • وأهمية هذا الحديث تنحصر فى اظهـــار السرعة الفائقة التى تم فيها التحول من الوثنية الى الاسلام ولم يكن قـد انقضى على هجرة الرسول من مكة الى المدينة مع المسلمين الذين لم يكن عددهم يتجاوز آن ذاك المائة ••• أكثر من ست عشرة سنة ، عندما تمكن المسلمون فى عام ٦٣٨ من الانتهــــاء من هزم أعظم امبراطوريتين فى العالم ، وهما امبراطورية الروم وامبراطورية الفرس • وهكذا كان معظم هؤلاء الفاتحين العتاة المتحمسين من الذين نشئوا على عبادة الأوثان • وكان كثيرون منهم قد ارتدوا عن الاسلام قبل أربع سنوات ، ولما كانت نسبة من يحسن القراءة والكتابة فيهم ضئيلة للغاية فان معظمهم ولاشك كان جاهلا بتفاصيل الديانة الاسلامية ودقائقها (٢) لكن هذا لا ينكر الحقيقة الواقعة وهى أن الدين كان الحافز الأصيل لحماستهم • فلقد عودتنا حركات البعث الدينية العاطفية أن تنتشر بسرعة ، وأن تخلق حماســة منقطعة النظير وألا تكون كثيرة العنــــاية بالتزمت العقائدى الفكرى • ولا ريب فى أن الايمان بوجود اله روحى عظيم ، يدين له الكون بأسره ، ويعنى بشئون عبيده ، قد حول نظرتهم الى الحياة وجهة أخرى ولا ريب أيضا فى أن الايمان بأن الاستشهاد فى ميادين الوغى ، سيضمن للشهداء دخول فراديس النعيم فورا ، قد شدد من عزائمهم وقوى من شجاعتهم على الحرب •

***

(١) تعليل سخيف لا استطيع قبوله . واذا كان المؤلف يعترف بأن العرب « وهم أصحاب عياض » الذين يعتد برأيهم ، كانوا يعرفون أن غنما اسم صنم ، فاننى لا أرى أن عياضا كان يهمه ألا يعرف النصارى أن اليهود أن أباه كان من عبدة الاوثان ، واعتقد ان اسقاطه لكلمة «عبد» كان بدافع التقوى الاصيلة لا التظاهر الزائف .

(المعرب)

(٢) لم يكن القرآن الكريم قد كتب بعد ، أو الحديث النبوى الشريف قد دون حتى يكون جهل العرب بالقراءة والكتابة سببا في عدم معرفتهم دقائق الاسلام كما يقول المؤلف . « المعرب » .

سبق لنا أن رأينا القائد العظيم خالد بن الوليد يعزل من قيادته بامر الخليفة ، ولكنه يواصل العمل تحت امرة أبى عبيدة ، ولقد كانت خدماته الحربية فى معركتى اليرموك وقنسرين مذهلة حتى انها دفعت عمر بن الخطاب الى اعلان ندمه على عزله اذ قال عندما بلغت مسامعه أعمال خالد ••• « أمر خالد نفسه • يرحم الله أبا بكر ، فقد كان أعلم بالناس منى » • وقد اختاره الخليفة بعد ذلك أميرا على قنسرين •

وعندما خرج عياض بن غنم لفتح الجزيرة خرج خالد بن الوليد معه ويقال : انه بعد احتلال ديار بكر استحم فى حوض من النبيذ (١) وعندما عاد من الحملة الى مقر امارته فى قنسرين زاره فيها الأشعث بن قيس الذى اشترك فى القادسية • ولقد سبق لى أن ذكرت أن عادة العرب جرت على أن يقدم الكبير الذى يزوره أحد شيوخ القبائل لضيفه هدية من المال واللباس • ولذا •• عندما اعتزم الاشعث الرحيل عن خالد قدم اليه هذا ألف قطعة ذهبية هدية منه • ووصل النبأ الى عمر فى المدينة وقد انطوى على شيء من الاتهام لخالد بسوء التصرف فى أموال المسلمين فكتب الى أبى عبيدة يأمره باعتقال القائد العظيم ومحاكمته وهكذا شهر بخالد علنا وأقيل من منصبه ثم صدر اليه الأمر بالتوجه الى المدينة حيث جدد عمر اتهامه له ، وقد رد خالد : بأن المال الذى أهداه الى الاشعث ؛ ماله ، ولا شأن لمال المسلمين فيه • وليس ثمة من شك فى أن خالدا كان قد أثرى من حصته من الغنائم التى فاز بها نتيجة انتصاراته العظيمة التى حققها ، ولا ريب فى أنه كان أحق بكثير من الصحابة فى الأموال التى جنوها من حصصهم فى الغنائم ، وهم فى المدينة لم يغادروها سعيا وراء الاشتراك فى القتال •

---

(١) روى الواقدى أن خالد بن الوليد كان على ميسرة عياض بن غنم عند سيره لفتح الجزيرة لكن معظم المؤرخين العرب يؤكدون ان صفوان بن المعطل السلمى كان على ميسرة عياض وان خالدا لم يسر تحت لواء أحد بعد أبى عبيدة ولزم حمص حتى توفي بها سنة احدى وعشرين وأوصي بما يملكه الى الخليفة عمر بن الخطاب . ولا ريب في أن هذه القصة التى يذكرها المؤلف مستقاة من أحد كتب التاريخ الشعوبية التى حشاها المؤرخون من أصل شعوبى بالزيف والاكاذيب للحط من شأن أبطال العرب من امثال خالد بن الوليد رغبة من هؤلاء الشعوبيين في الثأر لدولهم التى قضي عليها العرب . وقد بلغ من قحة هؤلاء أن زيفوا أحاديث على لسان النبى ظهر بطلانها . ومن المؤسف ان يلجأ المؤلف الى مثل هذه القصص الكاذبة لكن نياته في تشويه التاريخ الاسلامى لا تخرج من نيات الشعوبيين .

(العرب)

وفى المحتمل ألا يكون خالد رجلا متدينا ومن المحتمل أن يكون قد بات صاحب ثراء ، وبنى بعدد من الزوجات واقتنى عددا من الجوارى ، وقد تكون رواية حوض النبيذ صحيحة ، ولكن هذا لا يضيره فى شىء (١) فاليه يرجع الفضل الأكبر فى اخراج الروم من سورية خروجا لا عودة بعده • ولم يكن خالد قائدا عظيما فحسب ، أو عسكريا عبقريا فذا فقط • وانما كان أيضا رجلا شجاعا كل الشجاعة فى القتال • ويبدو أن شهرته أصبحت ضخمة الى حد خطر ، فعندما أراد عمر أن يبرر معاملته السيئة لخالد • قال : « انى لم أعزله عن ريبة ولكن الناس عظموه فخشيت أن يوكلوا اليه» • وقد استخدم الاسلوب نفسه فى الدفاع عن معاملته للمثنى ابن حارثة الشيبانى • ولقد سبق لنا أن قلنا : ان عمر بن الخطاب كان رجلا ورعا كل الورع عميق الشعور ، أفيجوز لنا على هذا الأساس أن نفترض أن عمر أحس بالغيرة فى عقله الباطن من شهرة خالد والمثنى وتعلق الناس بهما تعلقا يفوق تعلقهم به وكل مانعرفه أن خالدا عاد بعد هذا الحادث الى سورية حيث توفى وفاة عادية بعد يومين •

وجد العرب أنفسهم — فى الوقت الذى كانوا فيه يثبتون أقدامهم فى منطقة الجزيرة — فى حاجة الى حملة عسكرية فرعية أخرى لتثبيت الانتصارات الأخرى التى حققوها فبعد أن استقر الأمر لهم فى العراق ، وفى المدائن بالذات أخذوا يلاحقون كسرى يزدجرد فى تراجعه نحو الجبال الشمالية الشرقية من المدائن • ولم تكن قد دارت هناك معارك رئيسية فى الحوض الادنى لنهرى الفرات ودجلة • حيث ان الفرس لايزالون مسيطرين على الضفة الشرقية من شط العرب وهو ملتقى النهرين ليسيرا معا نحو البحر •

وكان خالد بن الوليد قد تمكن قبل أربع سنوات — أى بعد هزم مسيلمة الكذاب فى اليمامة — من الزحف شمالا نحو شط العرب حيث عقد صلحا مع أهل الابلة ، وهى ميناء العراق الجنوبى فى تلك الايام ؛ ولكنه زحف من الأبلة نحو الشمال بدلا من أن يتجه الى الشرق وسار معه المثنى ابن حارثة الى منطقة الحيرة بعد أن استخلف على الأبلة شيخا من شيوخ بكر ظل يواصل غاراته الفردية على الفرس عبر شط العرب •

---

(١) بنى المؤلف استنتاجه الصحيح على فرضيات خاطئة اعتمد فيها على روايات مغرضة كان قصد بعض المؤرخين الشعوبيين منها تشويه التاريخ الاسلامى •
(المعرب)

وعين الخليفة بعد معركة البويب فى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٣٥ ، صحابيا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى عتبة ابن غزوان ليتولى قيادة العمليات العسكرية فى شط العرب وعندما وصلت الى عمر أنباء الاستعدادات العسكرية التى يقوم بها القائد الفارسى رستم أمام القادسية أصدر أوامره الى عتبة بن غزوان بأن يهجم على الاهـــواز ليحول أنظار الفرس الى تلك المنطقة فيجتذب بعض الجنود اليها ويحول دون ارسال النجدات ، الى ميدان القادسية · وقد اشتركت فى هذه العمليات جماعات من بكر وتميم القبيلتين المقيمتين فى الصحراء الى الغرب من شط العرب ، وأقام عتبة قاعدته فى أكواخ بناها وخيام نصبها على بقعة من الارض التى ينتشر فيها الحصى الى الجنوب الغربى من شط العرب وتسمى البصرة ، وعاد فاحتل الابلة ، وهى الميناء الذى تبحر منه البواخر الى البحرين وعمان والهند · وبعد أن وطد أقدامه فى هذه القاعدة القوية الثابتة مضى يخضع أرض الدلتا الفسيحة المنبسطة ويندفع بغاراته عبر شط العرب الى خوزستان (الأهواز) ·

وطلب عتبة الاذن له بأداء فريضـــة الحج فى السنة التى سبقت القادسية والتى قضاها سعد بن أبى وقاص فى اعداد جيشه وتدريبه فى شرفات وزيارة المدينة · وعندما سار قاصدا المدينة خلف أحد البدو أميرا على البصرة فى غيابه · والطرافة فى هذه النقطة أن الخليفة لم يوافق عتبة على الترتيبات التى أجراها عندما رواها له فى المدينة بعد وصوله اليها مستغربا أن يعين بدويا أميرا على أهل الحضر (١) ، وسرعان ما عين الخليفة المغيرة بن شعبة من صحابة الرسول ، ومن الذين بايعوه عند الشجرة قائدا فى البصرة ، ولم يعش عتبة طويلا بعد ذلك فثبت الخليفة عامله الجديد « المغيرة » فى مركزه كقائد للعرب فى الاهواز ·

---

(١) لم أعثر على تأكيد لهذه القصة في التواريخ العربية الموثوق بها ولعـــل المؤلف قد عثر عليها في بعض الروايات الشعوبية فادرجها هنا ليحقق غرضه في ابراز الفرقة بين العرب . أما الرواية الصحيحة فهى على النحو التالي : كانت البصرة قد مصرت فيما بين يوم النخيلة ويوم القادسية ، وقد مصرها عتبة بن غزوان ثم استأذن للحج وخلف المغيرة بن شعبة فكتب اليه عمر بعهده فلم يلبث أن قرف بما قرف به فولى ابا موسي البصرة واشخص المغيرة الى المدينة ثم ان عمر رده ومن شهد عليه الى البصرة فلما حضر يوم القادسية كتب عمـــر الى ابى موسي يأمره بامداد سعد فأمده بالمغيرة في ثمانمائة ، ويقال : في اربعمائة ، فشهدها ثم شخص الى المدينة .

(المعرب)

ولقد سبق لنا أن سمعنا عن المغيرة عنـدما أوفده على رأس الوفد الى رستم في القادسية فاثار تصرفه بالجلوس الى جانب رستم على سريره سخط القائد الفارسى ، ولما كان جيش المغيرة خاليا ممن يعرفون القراءة والكتابة فقد اختار القائد الجديد شابا يدعى زيادا ليكون سكرتيرا له • وسنسمع عن زياد هذا كثيرا فيما بعد •

وتبدل الموقف تبدلا كليا بعد هزيمة جيش الفرس فى القادسية فى ربيع عام ٦٣٧ ، فقد انسحب يزدجرد كسرى الفرس الى حلوان متخلية عن سهول العراق للعرب وطامعا فى الصمود فى خط دفاعى فى الجبال يحول دون تقدمهم ؛ وكان الهرمزان وهو من نبلاء الفرس الذين اشتركوا فى معركة القادسية قد عاد الآن الى امارته فى الاهواز ليتولى الدفاع عنها ضد غارات العرب من البصرة وكان نصر العرب في القادسية قد مكن سعد بن أبى وقاص في الوقت نفسه من أن يشعر بالطمأنينة ، ومن أن يرسل الامداد الى جبهة البصرة •

ووقع حادث فى هذه الايام أدى الى تبدل فى القيادة وهو يلقى بعض الأضواء على أوضاع تلك الأيام وطرائق السلوك فيها • فقد وجهت تهمة الزنا الى المغيرة بن شعبة وكان موجهوها أربعة من مساعديه بينهم كاتم سره زياد • وقد نقلت التهمة الى الخليفة في المدينـــــة فاستدعى المتهم والشهود للمثول بين يديه • بالرغم من الحقيقة الواقعة وهي أن المغيرة كان واليا من الولاة وقائدا عاما للجيش (١) وينص القرآن الكريم على عقاب الزانى بالجلد مائة جلدة فى حين تنص التقاليد منذ أقدم العصور على رجم الزانى حتى الموت (٢) وهو عقاب ورد نصه فى الشريعة العبرانية القديمة •

---

(١) تختلف رواية المؤلف عن روايات المؤرخين العرب بعض الاختلاف فكل ماجاء في كتب العرب عن هذا الحادث ، أن عمر بن الخطاب استحضر المغيرة بن شـعبة وهو أمير البصرة ــ والمغيرة من الصحابة ومن ذوى الاثر الصالح في الفتوح الاسلامية ــ وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه اليه ذلك الكتاب الموجز الذى جمع في كلمة القليلة : أن عزل ، وعاتب ، واستحث ، وأمر ، اذ قال :

أما بعد فقد بلغنى نبأ عظيم فبعثت ابا موسي اميرا فسلم ما في يدك والعجل العجل » • فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عنـــد عمر فعاقب شهوده بالحد الذى فرضه الله لمثلهم •

(٢) خلط المؤلف بين عقوبتى الزنا • فنسب عقـوبة الحد الى القـرآن الكريم وعقوبة الرجم الى التقاليد مع أن العقوبتين واردتان في الشرع الشريف وأولاهما للزناة من غير المتزوجين والاخرى للزناة من المتزوجين •

(المعرب)

وكان الرسول قد أمر عندما وجهت تهمة الافك الى زوجه عائشة بجلد من يقذف أعراض الناس زورا وكذبا ، ويتيقن بطلان قذفه • وأفضى ثلاثة من الشهود بشهاداتهم أمام عمر بن الخطاب • ولم يبق الا رابعهم زياد ، وعندما استدعى زياد الى الخليفة هتف به قائلا : انه لبرى فى وجه هذا الرجل الأمل بنجاة أحد صحابة رسول الله من الرجم حتى الموت ، ونجاة سمعته من المساس • وقد وجد زياد بعد هذه الاشارة الواضحة أن من الخير له أن يعدل عن شهادته وأن يظهر عدم تحققه من التهمة وشكه فيها •

وهكذا أعلن الخليفة براءة عامله من التهمة مما عرض الشهود الثلاثة الأول الى عقوبة الجلد لأنهم طعنوا فى سمعة رجل برىء ، لكن المغيرة فقد مركزه على أية حال • اذ بعث الخليفة بأبى موسى الاشعرى الى البصرة ليكون عاملا له فيها وذلك فى نهاية عام ٦٣٨ تقريبا (١) •

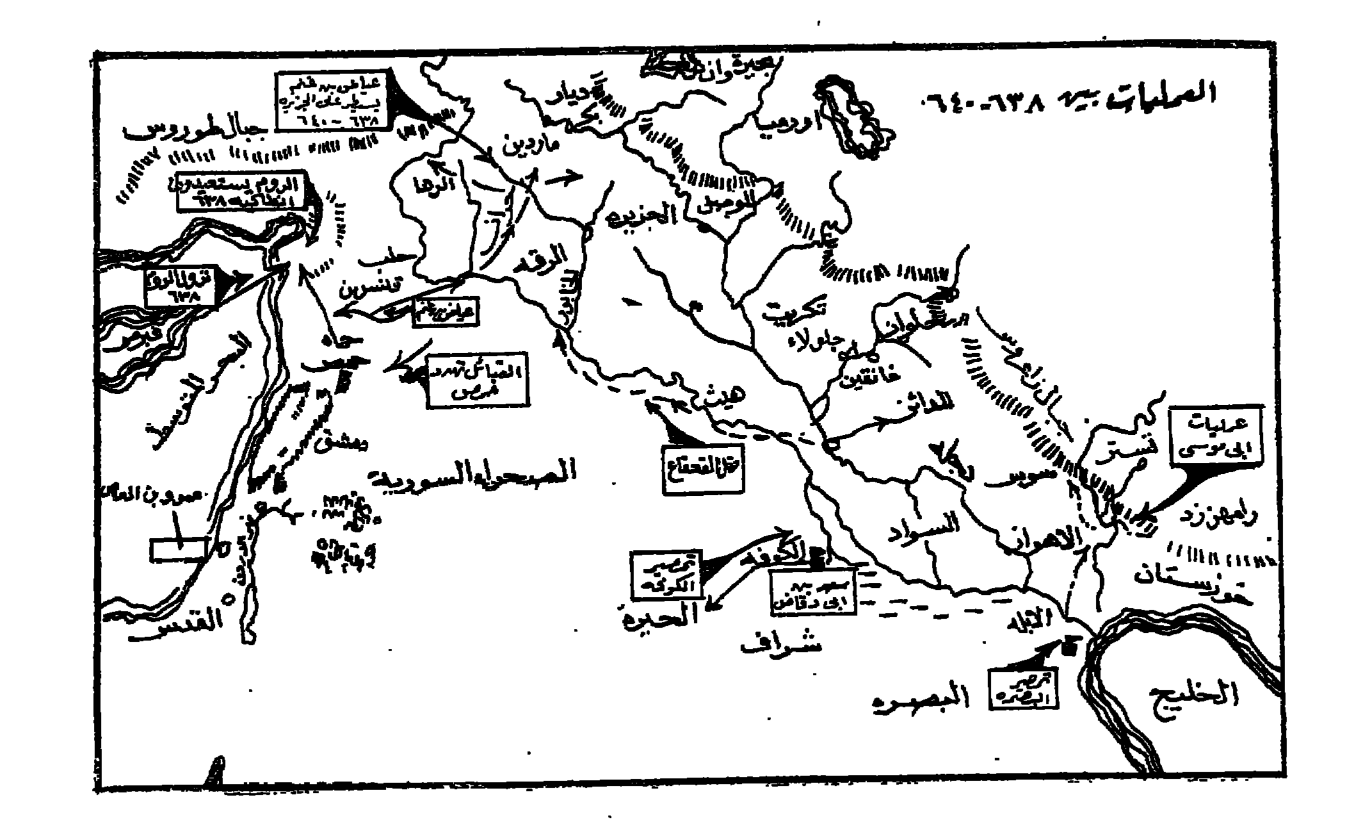
وزحف أبو موسى الأشعرى بجيشه على الفرس فحاصر مدينة السوس وفتحها ، وكان يزدجرد قد بعث الى المنطقة بأحد كبار الفرسان من رجاله للدفاع عنها فلما رأى هذا القائد الفارسى ظهور الاسلام ، وعز أهله أرسل الى أبى موسى يفاوضه على الانحياز برجاله من الفرسان الى

---

(١) يأبى المؤلف الا أن يبث سموم حقده وكراهيته في كل ما يكتبه فهو أولا يورد حادث اتهام المغيرة بن شعبة دون أن يكون لها مكان في كتابه الذى يتحدث عن الفتوح العربية ثم يحاول بصورة لا مباشرة ان يوحى لقرائه بأن التهمة صحيحة ، ولكن الخليفة أراد تبرئة المغيرة لانه من صحابة رسول الله وبذلك يحقق غايته في تشويه سمعة المغيرة من ناحية والطعن في عدل عمر بن الخطاب مع أنه من أعدل من عرفته الدنيا كلها •
حتى ان عدالته حملته على ايقاع الحد كما تجمع كتب التاريخ العربى ، على ولده ، عندما ثبتت عليه تهمة احتساء الخمر ، وامر بجلده برغم شفاعة بعض كبار المقربين اليه من صحابته ، فجلد أمام ناظريه ، ومات والحد يوقع عليه ، دون أن تأخذ عمر في الحق شفقة أو حنان الابوة ، ودون أن يسمح له حتى بشرب الماء في أثناء الحد وقبل أن يموت ، فلا يمكن لرجل كهذا أن يتحيز للمغيرة وأن يحابيه ، وأن يطلب ولو بصورة غير مباشرة من زياد تعديل شهادته •

ولا ريب في أن التهمة التى ألصقت بالمغيرة كاذبة ، اختلقها موظفوه الاربعة ، لحقدهم عليه لامر ما ، وهى حالة كثيرا ما تحدث في كل زمان وكل مكان . وعندما تبينت الحقيقة لعمر ، برأه من التهمة ، وأوقع العقاب بالمفترين . ولو كان عمر يريد محاباته ما استعمل تلك اللهجة الحادة في رسالته اليه . أما اقالته من منصبه ، فقد تكون ناجمة من اعتقاد الخليفة بأن مقتضيات الحكم ، تتطلب ابعاد المغيرة عن منصبه بعد هذه التهمة ، حتى ولو برئت ساحته منها •

(المعرب)



العمليات بين ٦٣٨-٦٤٠
جبال طوروس
الروم يستعيدون انطاكية ٦٣٨
قبرص
البحر المتوسط
حلب
قنسرين
حماه
حمص
دمشق
القدس
عمرو بن العاص
الصحراء السورية
الرها
الرقة
ماردين
الجزيرة
الموصل
تكريت
جلولاء
خانقين
حلوان
المدائن
هيت
الكوفة
الحيرة
شراف
السواد
سوس
الأهواز
تستر
رامهرمز
خوزستان
الأبلة
البصرة
الخليج
اورميا
بحيرة وان
جبال زاغروس
عمليات أبي موسى
تمصير الكوفة
تمصير البصرة
سعد بن أبي وقاص

جانب المسلمين ، ولعل مما يثير الغرابة أن رسالة قائد الفرس الى القائد العربى كانت على النحو التالى :

« انا قد أحببنا الدخول معكم فى دينكم على أن نقاتل عدوكم من العجم معكم • وعلى انه ان وقع بينكم اختلاف لم نقاتل بعضكم مع بعض ، وعلى أنه ان قاتلنا العرب منعتمونا منهم وأعنتمونا عليهم، وعلى أن ننزل بحيث شئنا من البلدان ونكون فيمن شئنا منكم ، وعلى أن نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا بذلك الامير الذى بعثكم» •

ووجه الغرابة فى هذه الرسالة وبالنسبة الى ماقدر له أن يقع فى المستقبل أن الأجانب توقعوا منذ ذلك التاريخ نشوب حروب أهلية بين العرب حتى فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الاخوة والحماسة الاسلاميتان فى ذروتهما • وقد تحالف الفرس مع بنى تميم • وروى المؤرخون أن جماعات أخرى من مقاتلة الفرس فى المنطقة قد انحازوا الى المسلمين • وبينهم جنود المشاة وبعض الهنود • وقد تحالفت كل جماعة من هذه الجماعات مع احدى القبائل العربية •

وبعد أن استسلمت السوس ورامهرمز واصل أبو موسى تقدمه الى تستر حيث اجتمع نفر كبير من جنود الفرس وعلى رأسهم الهرمزان ، واضطر أبو موسى الى الاستغاثة بالخليفة ليرسل اليه بعض النجدات. فأنجده بجرير بن عبد الله البجلى بطل معركتى البويب والقادسية ، على رأس قوة من جيش سعد بن أبى وقاص ، ودارت معركة بعد ذلك مع الهرمزان انهزم فيها ، واضطر الى الدخول الى تستر حيث أغلق على نفسه أبوابها • وقاد أحد الاعاجم مائتين وأربعين من العرب الى المدينة فى دجى الليل عن طريق منفذ سرى • وقتل المسلمون الحراس على الاسوار • ثم كبروا عليها وفتحوا الابواب لرفاقهم وأسر الهرمزان فبعث به أبو موسى الى المدينة •

وعندما استدعى النبيل الفارسى للمثول أمام عمر لم يكن له كبير أمل فى النجاة من الموت وتظاهر الرجل بالعطش وطلب شربة ماء ،وعندما قدم له الماء فى قدح ليشربه أخذ يتطلع قلقا حوله وكأنه يخشى أن يضرب أحدهم رأسه بالسيف وهو يشرب الماء ويمسك بالقدح بين يديه. ورأى الخليفة ذلك فأكد له أن أحدا لن يمسه بسوء قبل أن يشرب الماء وسرعان ما صب الهرمزان الماء على الارض • وطلب أعرابى رأى الحيلة التى لجأ اليها الفارسى الداهية من الخليفة أن يسمح له بقطع رأسه •

ولكن عمر رفض السماح له بذلك مؤكدا ضرورة الحفاظ على العهد .

وهكذا نجا الهرمزان من الموت ، وعاش بعد ذلك فى مكة كأحد المسلمين حيث لقى حتفه بصورة مفاجئة كما سنروى فيما بعد . ويقدم هؤلاء الفرس المثل الاول على غير المسلمين الذين تحولوا الى الاسلام ثم اندمجوا فى العنصر العربى(١) .

وأدت العمليات الحربية التى جرت فى الأهواز ، الى اعتقال عدد كبير من الأسرى ظلوا رهن الأسر حتى جاء أمر عمر باطلاق سراحهم وقد تضمن أمره الحض على الابقاء على الزراعة ، حفاظا على رخاء البلاد وازدهارها بعد الفتح الاسلامى لها . وقد منع عمر اخراج الزارعين من أراضيهم فى كل من منطقتى السواد والاهواز ، بشرط أن يدفعوا الخراج والجزية .

وسرعان ما وجهت الاتهامات الى الموظفين الذين اختارهم الاميرلتقدير الضرائب فى الاهواز ، باستغلال نفوذهم ، مما حمل الخليفة على اصدار أمره بمصادرة نصف ثروتهم وهى طريقة سهلة ولكنها قاسية ، وكانت الطريقة الوحيدة المتيسرة لرجل وجد نفسه فجأة مثقلا بأعباء ادارة امبراطورية واسعة عن طريق جماعة من الاعوان يجهلون القراءة والكتابة .

أما وقد أضحى كسرى يزدجرد وراء جبال زاغروس وأضحت الاهواز كلها فى أيدى أبى موسى الأشعرى الذى أخضعها من قاعدته فى البصرة فقد بات فى وسعنا أن نعود لمتابعة سير الأحداث فى أماكن أخرى .

***

تتعرض الجزيرة العربية منذ أقدم عصور التاريخ بين الفينة والفينة

---

(١) تختلف رواية المؤلف من روايات المؤرخين العرب فقد ذكر أنس بن مالك قال :

حاصرنا تستر فنزل الهرمزان فكنت الذى اتيت به الى عمر . فقال له عمر : تكلم ، فقال : « كلام حى أم كلام ميت ؟ فقال عمر تكلم لا بأس ، فقال الهرمزان : كنا معشر العجم ما خلى الله بيننا وبينكم نقصيكم ونقتلكم فلما كان الله معكم لم يكن لنا بكم يدان » . فقال عمر : ماتقول ياانس ؟ قلت : تركت خلفى شوكة شديدة وعدوا كلبا . فان قتلته يئس القوم من الحياة فكان اشد لشوكتهم وان استحييته طمع القوم فى الحياة فقال عمر : يا انس ، سبحان الله قاتل اخيك البراء ومجزأة بن ثور « قلت » فليس لك الى قتله سبيل ، قال : « ولم اعطاك أصبت منه » ؟ قلت : « لا ولكنك قلت له : لاباس « فقال » متى ؟ لتجيئن معك بمن شهد والا بدات بعقوبتك قال أنس : « فخرجت من عنده فاذا الزبير بن العوام قد حفظ الذى حفظت فشهد بى فخلى عمر سبيل الهرمزان فأسلم وفرض له عمر . (المعرب)

الى موسم من مواسم الجفاف عندما تقل الامطار فى أية سنة ، فلا ينبت الكلأ ولا تظهر الاشواك عند حلول الربيع • وتظل البيداء كلها مجدبة قاحلة لا حياة فيها ، وتموت أعداد وافرة من الماشية والابل فى مثل هذه المواسم • وتعانى الفئات الفقيرة من بدو وحضر شظف العيش ومتاعبه • كما تقاسى أبلغ الجهد فى بحثها عن الغذاء ولقد كان عام ٦٣٩ من هذا النوع فى الجزيرة العربية • واتخذ الخليفة من الاجراءات أكثرها حزما وصرامة لتخفيف الضائقة ومتاعب الحياة • وأمر عماله من أمراء الأمصار فى سورية وفلسطين والعراق بأن يبعثوا الى الجزيرة بقوافل كبيرة محملة بالغذاء والقمح وضرب عمر المثل للمسلمين فعاش طيلة هذه الفترة على الطوى لايمسك رمقه الا بما يناله أكثر المسلمين فاقة وعوزا •

وانتشر الطاعون الدملى فى عام ٦٣٩ فى سورية وفلسطين بالاضافة الى تلك المجاعة القاتلة ، ومات الكثيرون من العرب واضطر العدد الكبير من الاحياء الى النجاة بأرواحهم من المدن الموبوءة هائمين فى الصحراء وقد أصيب القائد العام أبو عبيدة بالطاعون قبل أن تكتمل الهجرة ، فانتقل الى جوار ربه ودفن جثمانه فى وادى الاردن حيث لا يزال ضريحه قائما حتى الآن • وقد أعيد بناؤه فى عام ١٩٤٠ وكان يزيد بن أبى سفيان القائد الذى قام بدور كبير فى الحملة السورية من ضحايا الطاعون أيضا •

وحزم الخليفة الذى لا يقعده جهد أمره على زيارة سورية من جديد لاعادة تنظيم الادارة فيها • بعد أن فقد المسلمون هذا العدد الكبير من قادتهم ، ويبدو أن الطاعون كان قتالا الى الحد الذى قيل فيه ان العرب فقدوا نحوا من خمسة وعشرين ألفا من رجالهم من جرائه • مما دعا الى انتشار القلق من أن يهتبل الروم الفرصة فيعودوا الى مهاجمة سورية واحتلالها •

واختار الخليفة معاوية بن أبى سفيان ليكون أميرا على سورية خلفا لأبى عبيدة ولأخيه يزيد بن سفيان ، ولقد سبق لنا أن مررنا على ذكر معاوية وهو يعمل كاتما للسر عند النبى فى المدينة ورأيناه يهرول حافى القدمين الى جانب الهجين الذى يستقله الضيف البدوى شيخ القبيلة المتعجرف القادم من جنوبى الجزيرة ، وأصبح معاوية بعد وفاة أخيه يزيد أكبر أبناء أبى سفيان ، وكان من أكثر الناس طموحا وتطلعا الى المجد • قد امتاز بالقدرة على التواضع واللين عندما تقتضيهما المواقف وعلى الصبر انتهازا للفرص ، فبرهن على أنه سياسى بعيد النظر من الدرجة الأولى ، وأثبت أنه حاكم لا يشق له غبار فى كفايته وطاقاته ، وقد قدر

لهذا الرجل أن يحول الحكم الاسلامى الدينى الممثل فى الخلفاء المخلصين الأتقياء المتواضعين الى حكم امبراطورى وراثى قوى الدعائم زاهر القسمات.

***

وفى وسعنا الآن بعد أن رأينا ما لحق بامبراطوريتى الروم والفرس من هوان واذلال وما حققه العرب من سيطرة على سورية والعراق وتثبيت لاقدامهم فيهما أن نعود فنلتفت الى الوراء لحظة واحدة نستعرض فيهما شئون هذه الامبراطورية الجديدة الداخلية بعد أن رأيناها تنمو هذا النمو المذهل فى غمضة عين وانتباهتها • فلقد أحس الخليفة عمر بن الخطاب بالحاجة الماسة لمواجهة هذا الوضع الجديد باتخاذ بعض القرارات الرئيسية الحاسمة •

ولم تكن الشعوب المقيمة فى فلسطين وسورية تمت الى أصل واحد، ففى المنطقة الساحلية على شطآن البحر المتوسط تقيم أقوام تمت الى جذور مختلفة وممتزجة • فلقد كان الفلسطينيون والكنعانيون والحيثيون والعبرانيون والفينيقيون هم أول من أقام فى هذه المنطقة ليعودوا فينصهروا قبل نحو من ألف عام من تاريخنا الحالى مع المهاجرين من الاغريق والأقوام اللاتينية • وغلب العنصر الاغريقى على معظم مدن الساحل الكبيرة ، أما فى المناطق الشرقية من سورية وفلسطين فكانت دولة الغساسنة(١) التابعة للروم نصف عربية أو أكثر من نصف عربية • وكانت اللغة السريانية هى الغالبة على معظم أرجاء هذه المنطقة التى يدين أهلها بالنصرانية • ولقد جاء اليها أيام الفتح الاسلامى ألوف من أبناء القبائل العربية استصحب الكثيرون منهم معهم نساءهم وأطفالهم ، وعلى الرغم من أن الطاعون كان قد قضى على الكثيرين من العرب فان أعدادا كبيرة منهم نجت منه وظلت تعيش فى سورية • وعندما انتهى أمر القتال فيها لم يعد أمام هؤلاء ما يعملونه، يضاف الى هذا أن انتهاء القتال كان يعنى بالنسبة اليهم انتهاء عهد الاسلاب والغنائم •

وبرزت مشكلة أمام الخليفة : ترى هل يسمح لهؤلاء العرب القادمين من الجزيرة العربية بالاختلاط بأهل سورية وفلسطين ؟ أو هل يفرض عليهم عزلة مقصودة ؟ وكان يرى أنه لو سمح لهم بالاختلاط فانهم لن يلبثوا فى غضون جيلين أو ثلاثة أجيال أن يذوبوا فى المجتمع المحلى المقيم

---

(١) الغساسنة عرب اصلاء •

في المنطقة • وليست هناك بالطبع أية احصاءات موثوقة عن السكان في سورية وفلسطين في القرن السابع ، ولكن الشيء الثابت أن هذين البلدين كانا مزدهرين كل الازدهار كامارتين رومانيتين طيلة القرون الستة الماضية وليس ثمة من شك في أن عدد سكان المنطقة كان يقل في عام ١٩٦٠ عن عشرة ملايين بقليل ، أما في أيام البيزنطيين فعلى الرغم من أن البلاد كانت في حالة ازدهار تفوق أحوال اليوم فان ارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفال وعجز الناس عن منع الأوبئة من الانتشار ، كان لا بد أن يؤثرا على عدد السكان وأن يبقيا على نسبة خفيضة فيه • وقد نغامر فنقول على سبيل الحدس والفرض أن عدد سكان سورية وفلسطين في عام ٦٤٨ لم يكن يزيد على ثلاثة ملايين وان كان هذا التقدير يقل عن الحقيقة بعض الشيء • ولم يزد عدد جنود الجيش العربي الذي اشترك في المعارك الضارية التي جرت في تلك الايام ، عندما كانت القيادة الاسلامية في حاجة الى كل جندي ليخوض المعركة في سورية على الخمسة والعشرين ألفا •• وكان بعضهم تصحبهم نساؤهم وأطفالهم •

وعلى هذا الاساس يمكننا أن نفترض أن عدد المسلمين مع أفراد عائلاتهم في سورية في تلك الايام لم يكن يربو على مائة ألف • وعلى هذا لم يكن عرب الجزيرة المقيمون في سورية يربون في تلك الايام على أكثر من واحد من ثلاثين من عدد السكان، ولذا كان مجرد السماح لهم بالاختلاط مع أهل البلاد يعني ذوبانهم في هذا المحيط الشامل الواسع واذا ما استثنينا أبناء القبائل البدوية المرابطة في بادية الشام فان أهل سورية لم يظهروا أية خصائص قتالية بارزة ، ومن هنا يكون الامتزاج سبيلا الى اضاعة العرب لمزاياهم وفضائلهم •

وأخيرا كان عمر بن الخطاب الورع المتطهر ينظر بشيء من الفزع والهلع الى ما يمتاز به السوريون من ميل الى الرقص والموسيقى والثياب الناعمة المترفة والخمور وعلى ضوء هذا قرر الخليفة عزل المسلمين العرب عن أهل البلاد وأن يجعل منهم طبقة عسكرية حاكمة مهمتها الحكم وخوض القتال • وتحقيقا لهذا الهدف أمر أن يظل معسكر الجابية الحربي المقر الدائم للعنصر الحاكم والمنطقة المعزولة لاقامتهم •

ولقد رأينا أن العرب في العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص احتلوا قصور الأكاسرة والدهاقين في المدائن بجزأيها ، وليس ثمة من شك في أن عمر كان يحس بأشد القلق والخوف من احتمال افساد المسلمين عن طريق الانغماس في الترف ، وكان الجنود يشكون من سوء أحوالهم الصحية في

العراق ومن انتشار البعوض وهجماته • وبالاضافة الى هـذه الاعتبارات كلها كان الخليفة يخاف خوفا نفسانيا قويا من السماح لجنـوده بأن يصبحوا مقطوعين على الضفة الاخرى من النهر ، اذ أن ذكريات معـركة الجسر المفجعة سببت له كابوسا دائما مرعبا •

ولهذه الاسباب جميعها كتب عمر الى سـعد بن أبي وقاص يأمره باختيار مكان مناسب يصـلح قاعدة عسكرية رئيسـية شريطة أن يكون على أكناف الصحراء وعلى الضفة الغربية من الفرات ، وقد نتج أمره هذا عن رغبته فى أن تكون الصحراء هى الفاصل الوحيد بينه وبين رجاله ، وفى مثل هذه الحالة يكون على ثقة من أن اتصاله بهم لن ينقطع •

واختار سعد بن أبي وقاص بعد أن تحرى مناطق عدة موقعا لهقريبا من الحيرة • وقد حشدت قوات العرب الرئيسية هنا فى هذا الموقع فى عام ٦٣٩ فسكنت فى بادىء الأمر فى الخيام وفى الاكواخ المبنية من القصب• وأمر سعد ببناء مسجد فى المكان ثم بنى منزلا له • وسرعان ما أخـذت الابنية فى الانتشار فتم بذلك بناء الكوفة التى غدت بصورة تدريجيـة مدينة قدر لها أن تؤدى دورا هاما وأحيانا دورا سيئا فى التاريخ العربى•

وقد سبق لنا أن ذكرنا ان القوات العربية كانت قد عسكرت عند رأس الخليج على مساحة من الارض التى ينتشر فيها الحصى تسمىالبصرة وأدى امتداد العمليات العسكرية الى الأهواز بعد القادسية الى ارسـال نجدات اضافية الى هذه المنطقة مما أسفر عن تحول البصرة الى ما غـدت عليه الكوفة أى الى قاعدة عسكرية سرعان ما تطورت الى مدينة حديثة •

وهكذا تبرز لنا صورة جديدة تظهر فيها الجيوش العربية القادمة من الجزيرة العربية وقد وطدت أقدامها فى الامارات المحتلة وان لم يجر تسريحها ولقد حيل بينها وبين الامتزاج مع السكان أو بينها وبين امتلاك الاراضى والاقبال على فلاحتها • فلقد صدرتاليهم الاوامر بالبقاء منفصلين منعزلين يمثلون عنصرا حاكما وجنودا يحتشدون فى القواعد العسـكرية الكبيرة كالجابية فى سورية والكوفة والبصرة فى العراق •

ولكن لم يكن فى الامكان الحيلولة دون وقوع الاندماج فى ناحيـة واحدة على الأقل • فلقد آذن الاسلام لمعتنقيه بالزواج بأربع من النساء • أما قبل الاسلام فلم تكن ثمة حدود أو قيود على تعـدد الزوجات وكان فى مكنة الرجل الزواج بأى عدد من النساء وان كانت النسبة الطبيعية بـين عددالذكور والاناث لم تكنلتسمح بصورة آلية رتيبة للرجل بالزواج بعدد

كبير منهن ، وكان الاسلام قد سمح للمسلم باقتناء الجوارى من أسيرات الحرب أو الاماء ، لكن النطاق المحدود للحروب فى عهد النبى والفقر العام الذى كان يعيش فيه العرب، كانا قد منعا اساءة استعمال هذا الحق. أما الآن ، وبعد هذه الفتوح السريعة المذهلة لمناطق سورية والعراق الغنية والخصبة والمتحضرة ، فقد بات فى وسع المحاربين العرب أن يحصلوا على عدد غير محدود من الاسيرات ، وأن تتوافر لهم الامكانيات المادية لعولهن وأدى هذا الوضع الى ولادة عدد ضخم جدا من الاطفال فى القواعد العسكرية لآبائهم العرب ، وكانوا يعتبرون عربا وان كانت معظم أمهاتهم من الجوارى أو الأسيرات أو الاماء • ولم يمض أكثر من جيل واحد حتى كانت الطبيعة العنصرية للعرب الذين احتلوا سورية والعراق تختلف بعض الاختلاف عن طبيعة أبناء الجزيرة العربية •

وأدى تركيز الفاتحين العرب فى المناطق العسكرية المحظورة الى ضرورة دفع الرواتب اليهم نظرا لمنعهم من العمل فى الزراعة أو التجارة ، وكان تنظيم دفع الرواتب الى جيش ضخم كهذا الجيش عملية منهكة لحاكم لا يعرف من القراءة أو الكتابة من رعاياه الا النفر القليل • وفى سنوات الفتح بين عامى ٦٣٣ و ٦٣٨ كانت أربعة أخماس الغنائم توزع فورا على الجنود • وهى عملية جعلت الرواتب أمرا لا ضرورة له ، اذ جعلت من كل محارب من محاربى المسلمين رجلا واسع الثراء • ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب ، عزف عن المضى فى الفتح ، رغبة منه فى أن يثبت العرب أقدامهم فى المناطق الواسعة التى فتحوها، لكن توقف العمليات الحربية عنى بالنسبة اليه وقف الغنائم ومن ثم الحاجة الى دفع رواتب الجنود •

وكان النبى قد رفض طيلة حياته جمع المال أو المواد الغذائية فى بيته، وتذكر الروايات الكثيرة أنه كان يأبى ابقاء شئ منها ليلة واحدة فى داره• فالله جلت قدرته يوفر الرزق لعبيده من يوم الى يوم • ولم يخرج الاسلام فى هذا عن تقاليد النصرانية فلقد روت القديسة تريز أن رهبان الكرملين كانوا يرفضون عند انشاء رهبنتهم اختزان الطعام لأكثر من يوم واحد • وكان النبى يرى أن اختزان المال أو الاغذية دليل على الافتقار الى الايمان بالله • وعلى ضوء هذه السنة كانت ثروات الامبراطوريات التى تتدفق على المدينة فى سنوا ت الفتح بين عامى ٦٣٣ و ٦٣٨ كفىء يشمل خمس الغنائم، توزع فور وصولها على المستحقين ، ويظل بيت مال المسلمين خاويا • وكثيرا ما رد عمر بن الخطاب على ناصحيه بالابقاء على جزء من المال كوفر احتياطى فى بيت المال ، بأن اقتراحهم هذا نابع عن الشيطان ، ويضيف الى ذلك

قوله : انه يؤمن بالله ورسوله وهذا هو الوفر الاحتياطي الذى ينشـــده • فقضية الاسلام هي قضية الله ، ولا بد أن يؤمن الله لقضيته كل ما تحتاج اليه • وهكذا وجد عمر خزينته عند ما واجه ضرورة دفع الرواتب للجنود خاوية من كل مال •

ومن الصحيح بالطبع ان أى خفض فى كمية الغنـــائم قد يعوض من جراء الحقيقة الواقعة وهى أن المناطق المحتلة كانت مرغمة على دفع الجزية والخراج • وعلى الرغم من احتمال العثور على المال بهذه الطريقة فان صعوبة العمل قد تضاعفت اذ من الواجب ايجاد توازن بين الدخل وبين الانفاق • وبالطبع لم يكن العرب قادرين على أن يؤمنوا جهازا كافيا للخدمة المدنية • ولا ينكر أن الموظفين القدامى فى سورية والعراق ظلوا فى مراكزهم بعـد الفتح العربى ، وظلت الحسابات فى سورية تعد من قبل الموظفين البيزنطيين باللغة الاغريقية ، كما ظلت الحسابات فى العراق تعد بالفارسية من قبل الموظفين السابقين عند الأكاسرة •

وبالطبع لم تتوافر الامكانات لعمر بن الخطاب لاصدار عملة عربية جديدة ، ولذا فقد ظل النقد البيزنطى متداولا فى سورية وفلسطين عـلى حين ظل النقد الفارسى المتداول فى العراق • ومهما كانت القواعد التى سنها المسلمون بالنسبة الى الضرائب والجزية والخراج والعشر وما شابه ذلك ، فان العمل الحقيقى فى التقدير والجباية من سكان المناطق المحتلة ، ظل بأيدى الموظفين السابقين عند الدول السابقة الزائلة •

وظهرت متاعب أخرى فى الشئون القضائية : فلم يكن لدى المسلمين قانون مدنى ، وانما كانوا يعتمدون على القرآن والسنة والحديث فى ايجاد الحلول المناسبة لجميع المشاكل التى يواجهونها • وكان من الطبيعى ألا يقبل النصارى واليهود والمجوس (أتباع زرادشت) مثل هذا النظام ، اذ انهم لايؤمنون بأن القرآن من التنزيل • ومع ذلك ، فلم يحاول المسلمون ارغام هؤلاء الناس على اعتناق الاسلام ، اذ أن الاسلام نص على أن لا اكراه فى الدين • ولهذا كان الحل الوحيد والمعقول ، هو السماح للنصـــارى واليهود باستخدام قوانينهم الخاصة بأحوالهم الشخصية . وأن يقـوم قضاتهم بتطبيقها ، وقد ظل هذا الاجراء متبعا فى البلاد الاسلامية حتى يومنا هذا ، اذ ورثه الاتراك العثمانيون عن العرب فى القرن الســـادس عشر • وكانت الكنائس المسيحية والجاليات اليهودية تؤلف فى ظل الحكم العثمانى مناطق شبه مستقلة ضمن اطار الدولة •

ولما كانت الدولة الاسلامية الاولى دولة دينية ثيوقراطية ، تعتمد في قوانينها على شرائع الله فان الدين لا العنصر أو القومية كان العامل الذى يفرق بين الناس ويميز الواحد منهم عن الآخر . ولو سئل أى رجل يعيش في الشرق الاوسط طيلة ألف وثلثمائة عام عن نفسه لرد بأنه «مسلم والحمد لله » أو «مسيحى» أو «يهودى» ولا يرد بأنه «عربى» أو «مصرى» . وكان هذا الرد نتيجة حتمية للحكم الدينى. لكن تمثلت النتيجة الفورية لفتوح القرن السابع ، وهذا أمر يثير الغرابة ، فى نشوء شكل من أشكال القومية العربية لفترة مؤقتة على الاقل، فلقد كان العنصر العربى هو الذى أطاح بدولتى الفرس والروم . وكان الجيل العربى الذى قام بهذه المهمة من الرجال الذين تحولوا الى الاسلام فى أوسط العمر ، بعد أن نشئوا فى ظل الجاهلية على عبادة الاوثان وتعشق أساطير البطولة العربية والحب والحرب . وليس غريبا والحالة هذه أن تكون ثمرة الفتوح العربية نشوء عنصر عربى سيد يشعر بالاعتزاز والغطرسة لما حققه من أمجاد . ولكن العناصر اللاعربية ، ظلت طيلة القرن الاول للاسلام ، تشق طريقها ببطء متسللة الى مراكز السلطة . وأدى هذا التسلل بالتدريج أيضا الى اختفاء غطرسة العنصر العربى ليحل محلها شعور بالتفوق الدينى الاسلامى ظل قائما لم يطرأ عليه أى تبديل حتى القرن العشرين . ولم يضعف أمر الحكم الدينى أو يختلف الا فى الاربعين سنة الاخيرة ، من جراء تحول الدولة فى البلاد الاسلامية من الدين الى العلمانية . ولقد بنيت الدول العلمانية الحديثة على الاسس المتبعة فى أوربا الغربية لا على أسس التقاليد الاسلامية .

وهكذا قدر للقرارات العاجلة التى اتخذها النبى وخليفتاه الأولان ، عندما واجهتهم مشكلة ادارة الامبراطورية الجديدة أن تقرر شكل الحياة وطرائقها فى الشرق الاوسط لمدة تزيد على ألف عام .

***

واذا كانت جباية الضرائب من البلاد المحتلة ، قد ظلت فى بادىء الامر فى أيدى الارwام والفرس ، فان صرف الرواتب الى الجنود العرب كان لابد وأن يحصر فى أيد عربية . واضطر عمر تحقيقا لهذه الغاية الى القيام بعمل ضخم على نطاق مذهل . يكاد يشبه القيام باحصاء عام للعرب فالمعروف أن القبائل كانت تحل فى الجيوش العربية محل الوحدات فى الجيوش الاخرى . وكانت كل قبيلة منها تحارب تحت علمها وبقيادة رئيسها . ومن هنا نشأت الحاجة الى دفع الضرائب على أسس قبلية .

وكانت ثمة اعتبارات ثلاثة تقرر المبلغ الذى يدفع لكل فرد من الافراد ، أولها الاسبقية فى التحول الى الاسلام وثانيها القرابة من رسول الله وثالثها البلاء فى سبيل الله • وهكذا كان نصيب عائشة أم المؤمنين اثنى عشر ألف درهم بينما كان نصيب كل من زوجات النبى الاخريات عشرة آلاف درهم • وكان الدرهم هو العملة الفضية المستعملة فى تلك الايام • وكان نصيب كل فرد من آل الرسول خمسة آلاف درهم وهو عين ما يتقاضاه الصحابيون من الذين اشتركوا فى معركة بدر • وكان نصيب من شهدوا بيعة الشجرة فى الحديبية أربعة آلاف درهم ، بينما يتقاضى الذين أسهموا فى حروب الرده ثلاثة آلاف درهم ويتقاضى المحارب الذى اشترك فى فتح دمشق أو فى معركة القادسية ألفى درهم فى العام • وأصبح الجندى العادى يتقاضى فيما بعد خمسمائة درهم فى العام أما الذين يبلون بلاء حسنا ويمتازون ببطولات بارزة فيتقاضون خمسمائة درهم اضافية أخرى كما يتقاضون أية رواتب أخرى بموجب المؤهلات الاخرى التى يمتازون بها • وكان الحد الادنى للرواتب مائتى درهم ، ويدفع للمجندين الذين انضموا مؤخرا الى الجيش العربى • وتتلقى أرامل شهداء بدر خمسمائة درهم • أما أرامل الشهداء المسلمين الآخرين فى المعارك الاخرى فيتقاضين رواتب متفاوتة • ولعل مما يثير الدهشة أن تستطيع هذه الادارة غير المتعلمة السير فى مثل هذا النظام المعقد بنجاح • ويبدو أن التوزيع كان يجرى على الطريقة القبلية أى أن الرواتب تدفع الى رؤساء القبائل الذين يسلمونها الى الموثوقين من الشيوخ فينقلها هؤلاء بدورهم الى الافراد.

وكانت الاسلحة التى يستخدمها العرب هى الاسنة بالنسبة الى الفرسان وذلك لان السنان كان السلاح الأثير عند العرب • وكانت النبال والاقواس مع المقاليع التى تقذف الحجارة ، تؤمن نيران التغطية للجنود • أما الحراب التى تقذف فكانت من الاسلحة المألوفة لدى حراس مكة • وهم جماعات استخدمتهم قريش فى أيام الجاهلية كجنود مرتزقة ، وقد شهدناهم يحاربون فى معركة أحد • ويستخدم المشاة والفرسان على حد سواء السيوف فى حربهم ، أما الاسلحة الدفاعية فتشتمل على الدروع والخوذ الفولاذية • ولا ريب فى أن الدروع كانت نادرة فى الايام الاولى ولكن العرب ما لبثوا أن غنموا من الروم والفرس كميات ضخمة جدا من السلاح والعتاد والدروع والجياد •

وكان العرب قد ألفوا منذ عهد بعيد ، ولا سيما البدو منهم مبادىء السوقية (الاستراتيجية) الاساسية التى تقوم على السرعة والمباغتة

وحشد القوى في المراكز الحساسة الحاسمة · وكانوا في أيام الجاهلية يفتقرون الى النظام والانضباط ولكن السنوات الست المتعاقبة من الصراع المستمر مع جيوش الفرس والروم ، علمتهم ولا ريب الكثير من الدروس ، التي لم تسجل لسوء الحظ لنفيد منها نحن · لكن في وسعنا الافتراض بصورة عامة بشيء من الثقة انهم كانوا لا يزالون حتى عام ٦٣٨ أقل من أعدائهم خبرة بدقائق التنظيم والتجهيز الحربي · ولقد كان في الامكان حل مشكلة الانضباط بصورة مؤقتة ابان الفترة التي استمر فيها الحماس الديني على أشده اذ أن الانضباط شيء صعب على العرب دائما · ففي تلك الفترة كانوا يحاربون في سبيل الله ، لا في سبيل شخص أو انسان · ولهذه الغاية كان قائد الجيش دائما هو الذي يؤم الجنـــود في صلواتهم ويخطبهم أيام جمعهم ، ومن هنا نســتطيع القـــول ، على أي حال بأن انتصاراتهم المذهلة لم تتحقق بفضل تفوق في علومهم العسكرية ، وانما يرجع الفضل الاول في هذه الانتصارات التي حققها الفاتحون العرب الى روحهم الحماسية ومعنوياتهم العالية · ولا سيما وقد تقوت هذه المعنويات عن طريق الايمان بأنهم انما يقاتلون في سبيل الله ، وان من يستشهدون منهم يمضون قدما وسراعا الى فراديس النعيم المقيم · أما السبب الثاني في هذه الانتصارات فهو انهم ألفوا شظف العيش وخشونته ألوف السنين على اكناف الصحراء وفي أوضاع حياتية تقرب من المجاعة مما جعل منهم شعبا صلبا لا يلين · أما السبب الثالث فهو قدرتهم على السرعة الهائلة في الحركة ولا سيما في الصحراء حيث يعجز أعداؤهم عن الحركة تماما· ولقد رأينا فيما سلف كيف انهم في جميع معاركهم باســـتثناء معركة الجسر ، قد استغلوا هذا العامل الى أقصى حدود الاستغلال وظلوا يجرون أعداءهم الى قتالهم على أكناف الصحراء ·

***

ولم يكن النبي قد تحول الى حاكم دنيوي بالاضـــافة الى سلطاته الروحية الا في السنتين الاخيرتين من حيـــاته · ولم تطل خلافة أبي بكر أكثر من عامين آخرين، أما عمر بن الخطاب فقد دامت خلافته عشر سنوات من عام ٦٣٣ حتى عام ٦٤٣ ، وتحققت في أيامه معظم الفتوحات الاسلامية الضخمة · وهكذا تمكن عمر من أن يخلف للاجيال القادمة أثرا لا يمحى في تاريخهم ·

وكان بين القرارات الهامة التي اتخذها فأصبحت قواعد متبعة عدم

السماح لغير المسلمين بالعيش فى الجزيرة العربية(١) ومما يجدر ذكره. ان النبى كان قد عقد معاهدة ودية مع نصارى نجران ولكن عمر بن الخطاب عاد فأخرجهم من بلدهم، فهاجر القسم الاعظم منهم الى ضفاف الفرات. وكان النبى قد استولى على خيبر وأخضع يهودها، ولكنه تركهم فى أرضهم شريطة أن يدفعوا الجزية ، فلما جاء عمر حملهم على أن يهاجروا منها الى الشمال. وتقول الروايات ان عمر استند فى اجراءاته الصارمة هذه الى حديث للنبى على فراش الموت يأمر فيه بأن يكون الدين الاسلامى هو الدين الوحيد المهيمن على الجزيرة العربية ولو صح ان النبى قد أصدر مثل هذا الامر حقا ، فان مما يثير الاستغراب ألا يحـــاول خليفته الاول أبو بكر انفاذه وتطبيقه ، ولقد سبق لنا ان رأينا أبا بكر حريصا كل الحرص على انفاذ كل ماعمله رسول الله ، وأوصى به فى حياته بكل دقة وتفصيل . ولا ريب فى أن عمر قد وضع فى عمله هذا أسس الحياة للاجيال القادمة. فعلى الرغم من بقاء أقليات مسيحية ويهودية ضخمة فى البـــلاد المحتلة كسوريا ومصر والعراق ما زالت باقية حتى يومنـا هذا ، الا أن هــذه الاقليات اختفت باستثناء يهود اليمن من جنوب الجزيرة العربية ووسطها.

وقد سبق لى ان اشرت الى جمع القرآن لاول مرة ، وان هذا العمل قد بدأ بعد معركة اليمامة نتيجة استشهاد عدد كبير من الصحابة من حفظة القرآن وقد اختار الخليفة لجنة من الصحابة برياسة زيد بن ثابت كاتب النبى الخاص . ولم يكمل عمل اللجنة ويتم جمع القرآن الا فى عهد عمر ابن الخطاب وقد سلمت نسخة منه الى حفصة أم المؤمنين وابنة عمر، لتكون وديعة لديها (٢) .

---

(١) لاأدرى من أين جاء المؤلف بهذه الرواية . اذ لو صحت ، لما ظل اليهـود يقيمون في اليمن ثلاثة عشر قرنا ، الا اذا كان المؤلف لايعتبر اليمن جزءا من الجـزيرة العربية وهو تقدير خاطىء يضاف الى هذا انه لو صح وجود مثل هذا الامر وتلك الرواية لما سمح للمسيحيين بالعيش في كثير من بلاد الجزيرة العربية كجدة والظهران والكويت وقطر وغيرها في أيامنا هذه ، اذ لا تجرؤ حـكومة عـربية على مخالفـة اوامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بهذا الشكل الواضح . وكل ما في الامر ان الحظر لا يشمل الا الاماكن المقدسة في مكة المكرمة . ولكن قصد المؤلف واضح وهو الطعن في عمر من ناحية ، واظهار الاسلام بمظهر التعصب من الناحية الاخرى . (المعرب)

(٢) تختلف رواية المؤلف من روايات المؤرخين العرب فقد أخـرج البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال : ارسل الى أبو بكر عند مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : ان عمر اتانى فقال : ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وانى لاخشى ان يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الا ان يجمعوه وانى لارى،

وكان أبو بكر قد تسمى بالخلافة بعد مبايعته اثر وفاة النبي. وكان عمر عند توليه الامر قد احتج تواضعا بأنه ليس بخليفة رسول الله وانما هو خليفة خليفته . ويبدو أن استخدام هذا اللقب كان شاقا على الاستعمال وفجأة خاطبه أحد المسلمين بعبارة أمير المؤمنين . وقد ظل اللقب مستعملا بالنسبة الى الخلفاء طيلة ثلاثة عشر قرنا .

ان يجمع القرآن قال أبو بكر فقلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدرى ، فرأيت الذى رأى عمر . قال زيد ، وعمر عنده جالس لا يتكلم ـ فقال أبو بكر : انك شاب عاقل ، ولانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن فقلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله النبى عليه الصلاة والسلام ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر ابى بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمه بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى اخرها .

فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله . ثم عند عمر حتى توفاه الله . ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها .

وأخرج أبو يعلى عن على قال : أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر . ان أبا بكر أول من جمع القرآن بين اللوحين . (المعرب)

تواريخ مشهورة

حشود القبائل النصرانية واسترجاع الروم لانطاكية	ربيع عام	٦٣٨
احتلال المدائن فى العراق	ابريل (نيسان)	٦٣٨
فتح الاهواز		٦٣٨ ـ ٦٤٠
الطاعون الدملى فى سوريا المجاعة فى الحجاز		٦٣٩ ـ ٦٤٠
تمصير الكوفه		٦٣٩

شخصيات بارزة

المغيره بن شعبة	أمير البصرة
أبو موسى الاشعرى	فاتح الاهواز وأمير البصرة
أبو عبيدة	القائد العام فى سوريا ـ توفى بالطاعون
معاوية بن أبى سفيان	خلف أبا عبيدة فى امارة سوريا
زياد	كاتم سر أمير البصرة ٠

بابل العظيمة

.. آمن عمر الكريم بربه وبسيفه الذى هز به عروش الأكاسرة والقياصرة ولكنه عندما قارن بين قوة المسلمين الضئيلة وبين عظمة المشروع الذى أقدم عليه ندم على تسرعه . وكان كل من يقرأ القرآن يعرف بما كان عليه فرعون من عظمة وكبرياء .. وكانت مدن مصر آهلة بالسكان ، ووافرة العدد ، وكانت أبنيتها قوية وثابتة الاركان وكان لا بد وأن تدافع قوات الرومان دفاعا عنيدا عن أهراء رومة (١) .

ـ جيبون ـ انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ـ

***

« سقطت ، سقطت بابل العظيمة . الويل ، الويل أيتها المدينة العظيمة ، بابل المدينة القوية ، فان دينونتك قد نزلت فى ساعة واحدة . الويل الويل أيتها المدينة العظيمة ، التى استغنى فيها جميع الذين لهم سفن فى البحر من نفائسها ! فانها قد تلفت فى ساعة » .

رؤيا القديس يوحنا ـ الفصل الثامن عشر

---

(١) أهراء رومة ، اسم أطلقه الرومان على سهول حوران في سوريا وعلى كنوز مصر .



احتل الفرس مصر عام ٦١٧ فى أثناء الحرب الطويلة التى استعر أوارها بين كسرى أبرويز وبيزنطة • ولم يجل عنهـــا الفرس الا فى عام ٦٢٧ ، نتيجة قيام هرقل بغزو فارس نفسها • وتقدمه باتجاه المدائن من الموصل ولا ريب فى ان سلطان بيزنطة كان قد اختفى ابان هذه الفتره تمام الاختفاء • وكان الفرس فى غضونها قد ارتكبوا آثاما كثيرة ورهيبة • وان لم يعرضوا لاضطهادهم اتبـــاع الديانة القبطية ، وعقد الصلح بين الروم والفرس فى عام ٦٢٨ وما لبث أن وصل الى مصر فى ذلك العام أو فى العام الذى تلاه جيش بيزنطى ، قادم عن طريق البحر من القسطنطينية ليتولى حماية البلاد •

وكان هرقل فى هذه الآونة فى ذروة مجده وانتصـــاراته • فلقد أنقذ الامبراطورية من الدمار واسترجع من المجوس عبدة النار ، الصليب المقدس ، وظل الامبراطور الظافر يتطلع فى ساعة نصره هذه الى هدف عظيم واحد وهو توحيد الكنائس المسيحية التى كانت قد انقسمت منذ أمد بعيد الى أرثوذكسية ويعقـوبية (قبطية) ونسطورية • وكانت هزيمة المجوس الفرس واستعادة الصليب المقدس قد أيقظتا فى صدور المسيحيين جميعا شعلة الحماس ، وقد باتت الفرصة مواتية الآن لاعادة الالتحام الى بناء المسيحية المتجزىء ، وعهد الامبراطور تحقيقا لهذه الغاية الى لجنة من ثلاثة مطارنة بوضع بيان لاهوتى جديد عرف فى التاريخ باسم «مذهب الطبيعة الواحدة» • ويبدو أن هذا البيـــان كان محـــاولة للتوفيق بين المذهبين الارثوذكسى واليعقوبى •

وأراد هرقل اقناع نصارى مصر بقبـــول العقيدة الجديدة فاختار سيروس مطران فاسيس فى القفقاس ويسميه العرب المقوقس لتنفيذ هذه الغاية وانتدبه فى الوقت نفسه بطريقا للاسكندرية وحاكما له فى مصر • ولكن تعيين المقـــوقس لهذا المنصب أثار ردا معاكسا فبدلا من أن يوحى بالثقة ، دفع بنيامين بطريق الاقباط الى الفرار من قصر البطريكية واللجوء الى الصحراء للاختفاء فيهــا اذ كان الصراع بين الكنيستين الارثوذكسية واليعقوبية من القوة والجذور التاريخية بحيث اســـتحال على مرسوم امبراطورى أن يحله فى غمضة عين • ولقد رفض اليعاقبة المذهب الجديد الذى وضعه الامبراطور دون أن يدرسوه أو يتفهموه على الغالب • وكان

فى امكانهم مع مرور الزمن أن يكسبوا نتيجة الصراع، لو استجابوا لدعوة الامبراطور ، اذ ان الكثيرين من الناس رأوا فى المذهب الجديد تسليما الى حد كبير بمذهب اليعاقبة القائم على وحدة الطبيعة بين الاب والابن • لكن الاقباط لم يكونوا على استعداد للاصغاء والتفاهم ، وكان المقوقس فى الوقت نفسه على أهبة لاستخدام القوة • وبدلا من أن يتريث ويرقب آثار المذهب الجديد وخلاص الناس من صدمة المفـــاجأة شرع يضطهد جميع الذين يخالفونه اضطهادا شديدا، واتخذ فى عام ٦٣٢ ، وهو العام الذى انتقل فيه النبى الى الرفيـــق الاعلى فى المدينة اجراءات عنيفة صارمة مع جميع الهراطقة والمخالفين فى مصر • فقد ألقى القبض على ميناس شقيق بنيامين بطريق الاقباط ، وراح يشعل النار بالمشاعل فى أنحاء متفرقة من جسمه أمام الناس بعد أن اقتلع أسنانه ، وأمر بوضعه بعد ذلك فى كيس ملىء بالرمل وأن يقذف بالكيس فى البحر وكان قد عرض عليه النجـــاة من الموت ثلاث مرات اذا أقر بالمذهب الارثوذكسى ، فلمـــا رفض فى المرات الثلاث الاستجابة الى العرض أمر بقذفه فى البحر •

وأوفد المقوقس جماعات من الجند الى أديرة الاقبـــاط وكنائسهم ليطلبوا من القسس والرهبان تواقيعهم على الولاء للمذهب الارثوذكسى وليجلدوا بالسياط ثم يحبسوا كل من يرفض التوقيع منهم • وقد أذعن الكثيرون للبطش ولكن عددا كبيرا من الرهبـــان رفض الاذعان وفر من الاديرة بينما واصل البعض الثالث عبـــادته على الطريقة اليعقوبية سرا تهربا من الاضطهاد • وجدير بنا أن نقول ان عمليات الاضطهاد هذه أدت ككل عمليات مشابهة لها الى تعزيز الكنيسة القبطية وتقويتها ، كما أدت الى قطع آخر خيط من خيوط الولاء السياسى والحب عند مسيحيى مصر لدولة الروم فى بيزنطة •

***

تذكر الروايات أن عمر بن الخطاب ، بحث مع عمرو بن العاص ، عند مجيئه الى القدس لتسلم المدينة ، امكان القيام بغزو مصر • وكان عمرو بن العاص قد مضى الى قيسارية وهى المدينة الوحيدة فى فلسطين التى ما فتئت صامدة أمام العرب لحصارها • ويرجع السبب فى صمود قيسارية هذه المدة الطويلة ومقاومتها الى وجود القوات البيزنطية فى مصر اذ أن الاسكندرية كانت القاعدة البحرية الوحيدة التى كان فى وسع الروم أن يستخدموها لتموين المحاصرين فى قيسارية بطريق البحر • وقد تم انزال الروم فى انطاكية أيضا واعادة احتلالها لدعم ثورة القبائل النصرانية

في الجزيرة بقوات برية وبحرية جاءت من الاسكندرية • وكان عمرو بن العاص يرى وهو محق في رأيه أن سواحل سورية وفلسطين ، لن تكون في مأمن أبدا مادام الاسطول البيزنطي معتمدا على قواعده في مصر •

وقد سبق لنا ان رأينا الخليفة دائم الميل الى الحذر والتروى ، وكان أشد ما يخشاه هو أن يمضي أحد جيوشه في القتال بعيدا بحيث يتعرض لخطر الانقطاع • وكان قد حال بين سعد بن أبي وقاص وبين اجتياز جبال زاغروس ، وأصر على أن تكون قاعدته العسكرية الرئيسية في الكوفة على أكناف الصحراء ، وقد ازداد حدة عندما قام عامله في البحرين بدون اذن منه بالابحار عبر الخليج والنزول بقواته في امارة فارس في جنوب ايران • وقد انعزلت القوات عن المراكب التي حملتها وكادت تمنى بكارثة لولا أن جاءتها النجدات عن طريق رتل برى أرسل الى البصرة على جناح السرعة • وكانت نتيجة هذه الغزوة ان عمر بن الخطاب تردد طويلا في قبول القيام بحملة جديدة على مصر (١) •

كانت المشكلة التي واجهها عمر اليوم من المشاكل التي طالما واجهتها عبر التاريخ جميع الدول المتوسعة الجديدة • فعندما تحتل دولة تنشد

---

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف من روايات المؤرخين العرب ، اذ تقول هذه ان العلاء بن الحضرمي كان أميرا على البحرين لعمر ، وكان العلاء يبارى سعد بن أبي وقاص ، فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل ، فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الاكاسرة وأخذ حدود ما يلي السوداء ، سر العلاء أن يصنع شيئا في الاعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد ، فندب أهل البحرين الى فارس فتسرعوا الى ذلك وفرقهم أجنادا فحملهم في البحر بغير اذن عمر . وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازيا . عبر هؤلاء الجنود البحر فخرجوا في اصطخر ، وبازائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما راى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ، ثم ساروا يريدون البصرة لانه قد حيل بينهم وبين الرجوع الى البحرين فوجدوا شهرك الفارسي . قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا في موقعهم وامتنعوا .

وبلغ خبر ذلك عمر ، فاشتد غضبه على العلاء وارسل اليه يعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه وهو تأمير سعد عليه وقال له : الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد . وكتب عمر الى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جندا لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من أهل النجدة فخرجوا في اثنى عشر ألفا وعليهم أبو هبرة بن أبي رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد في طريقه حتى وافوا شهرك وهو آخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه وخلصوا اخوانهم وهذه هي الغزوة التي شرفت بها نابتة البصرة ثم انكفئوا بما أصابوه وذهب أهل البحرين عائدين الى بلادهم من طريق البصرة . — المعرب —

التوسع في بلاد جديدة يهب قادتها العسكريون فينادون بأن سلامة البلاد المحتلة تظل مهددة من البلاد الاخرى التي تقوم وراءها ويتردد الساسة في القيام بالتزامات جديدة • وتقوم آن ذاك البلاد المجاورة بنوع غير مجد من الأعمال الهجومية وتغدو حركة الزحف الى الامام من الدولة الاستعمارية أمرا حتميا • ولو عدنا سبعمائة سنة الى الوراء لرأينا زحف الجمهورية الرومانية على سورية ومصر ثم بالطريقة المترددة نفسها •

وما زلنا في جهل بالترتيب النهـائي الذى تم بين الخليفة وبين عمرو بن العاص • ويقول بعض المؤرخين : انهما بعد اجتماعهما في القدس عادا الى الاجتماع ثانية في الجـــابية فأعلن الخليفة موافقته لقائده على خطته •

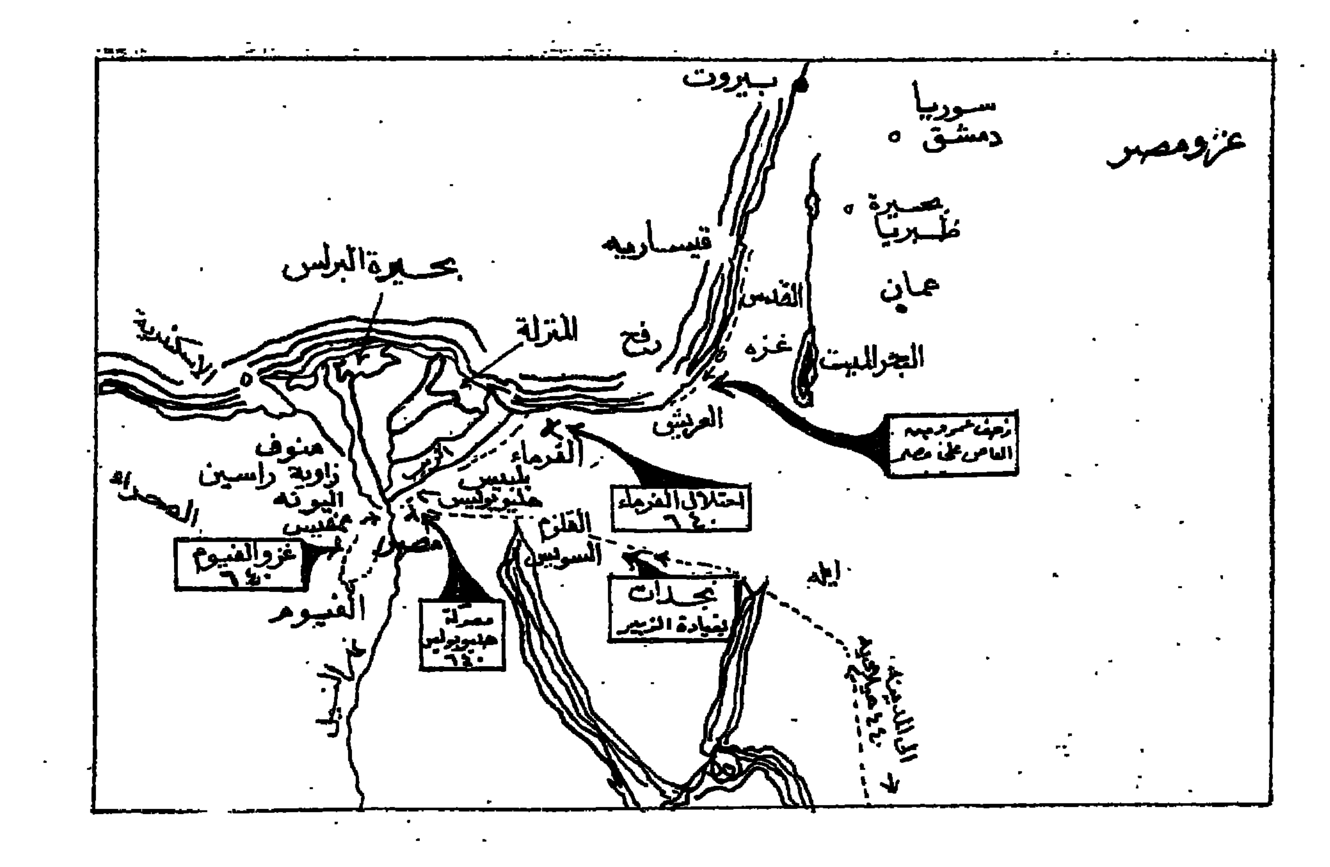
وتقول بعض الروايات الاخرى : ان الخليفة عاد الى المدينة حيث استشار كبار الصحابة أمثال على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، وان الزبير أيد فكرة الهجوم على مصر تأييدا شديدا ، مما أدى الى ارسال كتاب الى عمرو بن العـــاص يأمره فيه الخليفة بالشخوص الى مصر والقيـــام بالعملية • ويقول البلاذرى من الناحية الاخرى ، آن عمرا مضى الى مصر من تلقاء نفسه ودون اذن من الخليفة فغضب عمر لذلك ، ولكنه يضيف الى ذلك ما جرت عليه عادة المؤرخين العرب عندما تواجههم مشكلة من هذا النوع لا يستطيعون البت فيها «قيل والله اعلم» (١) •

ومهما كانت تفاصيل هذه الاتصالات فان الحقائق الاساسية تبدو واضحة كل الوضوح • وأول هذه الحقائق أن عمرو بن العاص كان في لهفة زائدة للحصول على أمر عمر بغزو مصر • على حين كان الخليفة عمر ابن الخطاب كثير التردد في القيام بهذا المشروع وكان عازفا عن توفير عدد كاف من الرجال للقيام بالحملة مخافة أن يحاول الروم استرجاع سورية

---

(١) كتب البلاذرى يقول : وكان عمرو بن العاص قد حاصر قيسارية بعد انصراف الناس من حرب اليرموك ، ثم استخلف عليها ابنه حين ولى يزيد بن أبى سفيان ومضى الى مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة فغضب عمر لذلك وكتب اليه يوبخه ويعنفه على افتئاته عليه برأيه وأمره بالرجوع الى موضعه ان وافاه كتابه دون مصر • فورد الكتاب عليه وهو بالعريش •

وقيل أيضا : ان عمر كتب الى عمرو بن العاص يأمره بالشـخوص الى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية وكان الذى أتاه شريك بن عبدة فأعطاه الف دينـار فأبى شريك قبولها فسأله أن يستر ذلك ولا يخبر به عمر • — المعرب —



غزو مصر
سوريا
دمشق
بيروت
بحيرة طبريا
عمان
قيسارية
القدس
غزه
البحر الميت
رفح
العريش
بحيرة البرلس
المنزلة
الإسكندرية
منوف
زاوية راسين
البوتة
منفيس
الصعيد
الفرما
بلبيس
هليوبوليس
القلزم
السويس
مصر
الفيوم
النيل
ايله
زحف عمرو بن العاص على مصر
احتلال الفرما ٦٤٠
غزو الفيوم ٦٤٠
معركة هليوبوليس ٦٤٠
نجدات بقيادة الزبير

كما كان يخشى فشل المشروع ، اذا مضى عمرو بن العاص على رأس قوة غير كافية ٠

ومشى عمرو مع الساحل على رأس قوة قوامها ٣٥٠٠ رجل ، فمر فى السهل الساحلى عند غزة ٠ ثم وصل الى رفح حيث تلقى رسالة عاجله بعث بها اليه الخليفة من المدينة ٠ وتقول الروايات : ان عمرا شك فى مضمون الرسالة فلم يشأ أن يفتحها حتى اليوم التالى أى بعد أن وصل الى العريش وعندما فضها وجد ان الخليفة يأمره بالعدول عن العملية اذا تسلم رسالته قبل الوصول الى مصر ٠ أما اذا تسلمها بعد وصوله فعليه أن يمضى قدما فى طريقه ٠ وراح عمرو يسأل صحبه بكل براءة وبساطة أفلا يزال فى فلسطين ٠ أو أنه دخل أرض مصر ؟ وعندما رد عليه الرفاق بأنه أصبح فى مصر أمرهم بمواصلة الزحف ٠ وفى وسعنا أن نفترض انه اذا صحت هذه الرواية فان عمرا ولا شك قد علم بمحتوياتها من قبل أو أن الرسول الذى حملها ، قد نقل اليه محتوياتها شفويا ٠

وتشاء المصادفة الطبيعية السعيدة أن تيسر لنا سبيل الحصول على الموعد الدقيق الذى عبر فيه عمرو الحدود المصرية٠ فلقد روى لنا المؤرخون أن القوة العربية احتفلت بعيد الاضحى فى العاشر من ذى الحجة سنة ثمانى عشرة هجرية وهو تاريخ يطابق الثانى عشر من ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٩ فى بلدة العريش ٠

وتابع عمرو من العريش سيره على رأس قوته الصغيرة على الطريق القديمة التى تمر عليها القوافل منذ أقدم عصور التاريخ من فلسطين الى مصر والتى تسير بحذائها الآن السكة الحديدية بين البلدين ٠ وهى تنحرف من العريش مسافة قصيرة نحو الداخل ولكنها لا تلبث أن تسير فى خط مواز لساحل البحر حتى مدينة «بيلوسيوم» التى يسميها العرب الفرماء وحيث تمتد قناة الفرماوية من النيل لتصل الى البحر المتوسط ٠ وليس ثمة من شك فى أن ابراهيم الخليل قد سار على هذه الطريق نفسها عندما ارتحل الى مصر كما سار عليها أيضا التجار العرب الذين حملوا معهم يوسف الفتى الى مصر ، وقد سجلت هذه الطريق مرور جيوش عدد ضخم من الفراعنة وهى تسير فى طريقها الى الشمال للقيام بحملاتها الحربية كما سار عليها ملوك بابل وآشور وقمبيز ملك الفرس ، والاسكندر المقدونى وبومبى الرومانى لفتح مصر ٠ وكانت جيوش كسرى أبرويز قد طرقتها قبل سنوات قليلة فى زحفها على وادى النيل ٠ ولكن جميع هذه الجيوش التى مرت على الطريق منذ القدم والتى قادها كبار الملوك

والفاتحين كانت ضخمة عظيمة اذا ما قورنت بهذه القوة الصغيرة التى يقودها عمرو بن العاص • والتى تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة من البدو الحفاة العراة على جيادهم العجفاء وجمالهم الهزيلة • ولا ريب فى أنهم كانوا يستحقون اللقب الذى أطلق عليهم وهو جرذان الصحراء (١) •

وكانت الفرماء مدينة محصنة منيعة • وتسيطر على الطريق الرئيسى الممتد الى مصر • وقرر عمرو ضرورة الاستيلاء على المدينة رغبة منه ولاريب فى الابقاء على مواصلاته مفتوحة مع الجزيرة العربية التى يأمل فى وصول النجدات منها • وكان الفرس قد استولوا عليها قبل بضع سنوات دون مشقة وعناء ، ولكن العرب نظرا لافتقارهم المعهود للفن فى حرب الحصار ، وللمعدات الثقيلة اللازمة لها عجزوا عن احتلالها • وقد ظلوا يحاصرون المدينة أكثر من شهر واحد الى أن تمكنوا ذات يوم اثر اندفاع فاشل قامت به حامية المدينة من دخول المدينة من أحد الابواب مع الجنود المتراجعين من حماتها • وقد أشعلت النيران فى البواخر الراسية فى الميناء كما هدمت الكنائس وجردت المواقع الدفاعية من جميع وسائل الدفاع •

ويبدو أن عمرو بن العاص ، وقد وجد نفسه مفتقرا الى الجنود ليتولوا حماية المدينة بعد خروجه منها زاحفا الى داخل مصر خشى أن يعود الروم الى احتلالها • فأراد أن يحرمهم الانتفاع منها كقلعة حصينة • واستأنف العرب زحفهم منها فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٤٠ • وأتبع العرب خطتهم السوقية المعهودة فساروا على أكناف الصحراء باتجاه الجنوب الغربى ومشوا على الحد الفاصل بين الاراضى الصحراوية والاراضى المروية • ولم تكن قناة السويس بالطبع موجودة فى تلك الأيام ولذا كانت الصحراء تمتد عبر منطقة القناة الحالية حتى تصل أرض الدلتا التى ترويها مياه النيل • ومر العرب على مقربة من المكان الذى تقوم عليه الآن بلدة التل الكبير فوصلوا الى بلبيس حيث اشتبكوا فى معركة ناجحة مع

---

(١) اذا كان القصد من هذا الاسم الذى يستخدمه المؤلف الاستهانة بالقوات العربية فهو قول سخيف اذ لايمكن ان يطلق على أولئك الذين دوخوا العالم بانتصاراتهم المذهلة والذين تمكنوا في سنوات قصيرة من القضاء على أعظم امبراطوريتين في العالم في تلك الايام . اما اذا كانت نية المؤلف حسنة وهو استخدام هذا التشبيه للتعبير عن جلدهم على المكاره واحتمالهم لمشقات الصحراء كما يستدل على ذلك من الاسم الذى أطلقه الانجليز على جيش مونتجومرى « جرذان الصحراء » في الحرب الكونية الثانية . فان هذا التشبيه يصبح مستساغا معنى ، وان لم يستسغ لفظا .

قوة من الروم يقودها ارطبون ، الذى كان فيمــــا سلف حاكما عسكرياً لمدينة القدس • ولكن الزحف تعطل شهرا آخر قضاه العرب فى احتلال بلبيس •وكان المقوقس بطريق مصر الروماني وحاكمها قد وصل الى ميدان القتال مستصحبا معه تيودور القائد العام للقوات البيزنطية فى مصر حيث تحصنا فى قلعة بابل أو حصن بابليون أو ما يسميها العرب باب اليونة •

وقد يكون من المدهش أن نعثر على اســــم بابل فى مصر • ويزعم بعض المؤرخين أن نبوخد نصر ملك الكلدانيين الذى غزا مصر فى عام ٥٦٧ قبل الميلاد ، هو الذى أطلق على القلعة هذا الاسم • ويقول ديودوروس صيقلوس(١) : ان بعض الاسرى من البـــــابليين الذين حملهم الى مصر سيزوستريس(٢) صاحب الانتصارات الاسطورية هم الذين أطلقوا اسم موطنهم الاصلى ، على المكان الذى عاشوا فيه حياة النفى والاغتراب •

أما جوزيفوس (٣) فقد ذكر أن «قمبيز» ملك الفرس الذى احتل مصر فى عام ٥٢٥ قبل الميــــلاد ، هو الذى بنى هذه القلعـــــة • والمعتقد ان الامبراطور الروماني تراجان هو الذى بنى الحصن الذى كان قائما فى عام ٦٤٠ ميلادية أى عند الفتح العربى وذلك فى عام مائة بعد الميلاد • ولعل الحقيقة هى ان كل فاتح من الفاتحين الذين غزوا مصر ، قد أقام فى هذا الموقع السوقى الهام قلعة وحصنا • وضع فيهما حامية ترابط لحماية البلاد •

وأدى وجود اسم بابل فى مصر الى وقوع المؤرخين العرب فى خطأ غريب : فكلمة باب فى العربية تعنى « البوابة » ومن هناكانت بابليون تعنى،

---

(١) ديودورس صيقلوس Giodorus Siculus مؤرخ اغريقى ولد في صقلية وعاش في أيام قيصر واغسطس اى في القرن الاول قبل الميلاد وقد وضع نصب عينيه أن يكتب تاريخا لامم العالم كلها منذ أقدم عصور التاريخ حتى العهد الذى عاش فيـه . ويتألف كتابه من أربعين مجلدا في ثلاثة أقسام يتناول الاول منها الايام التى سبقت حروب طروادة وينتهى الثانى بموت الاسكندر المقدونى والثالث بحروب قيصر في بلاد الغال ولا يعتبر كتابه حجة تاريخية لإنه مليء بالاخطاء .

(٢) الاسم الاغريقى لثلاثة من الفراعنة يحملون اسم سنوسرت ، وينتمون الى أسرة أمنمحات ، من أسر طيبة المالكة . وقد عاشوا في القـــرنين الخامس والعشرين والرابع والعشرين قبل الميلاد . ويرجع الفضل الى الثالث منهم في حفر قناة بين البحر الاحمر ونهر النيل كان لها فائدة كبيرة في نقل الحاصلات الزراعية والتجارية .

(٣) جوزيفوس فلافيوس (من ٣٧ الى ١٠٠ بعد الميلاد) مؤرخ عبرانى مشهور وقائد عسكرى عمل نائبا للامبراطور نيرون في فلسطين لم منحه الرعوية الرومانية وحمل اسم فلافيوس . أهم كتبه تاريخ الحروب في فلسطين . — العرب —

عندهم « باب اليون » أو باب اليونة وعندما يقرأ المرء أن العرب هاجموا باب اليونة يقع تحت الانطباع بأنهم هاجموا باب مدينة أو قلعة تدعى اليونة ومن هنا أطلق العرب على بابل المصرية اسم اليونة •

وتستمد بابل أهميتها من أوضاع مصر الجغرافية : فالامطار في البلاد نادرة ولا تكاد تذكر ومن هنا فان المنطقة كلها تغدو صحراوية ، لكن النيل العظيم الذى يحمل كميات ضخمة من الماء والغرين من أواسط افريقية شق له قناة عبر هذه الصحراء ليصل منها الى البحر المتوسط . وتكون القناة التى شقها النهر فى القسم الاكبر من مسيره أى فى الوجه القبلى أخدودا ضيقا وسط الصحراء ، ولكنه عندما يصل الى هذه النقطة ينقسم الى عدة فروع تسيل فوق المنطقة المنبسطة لتصل الى البحر • ويكون مثلث الدلتا الناشىء عن هذه الحقيقة متساوى الاضلاع طول ضلعه تقريبا ١٢٠ ميلا . وتفيض مياه النيل فى كل عام فتغمر الارض التى يضمها هذا المثلث عدة شهور • وعندما تنحسر مياه الفيضان تظل المنطقة كلها صعبة العبور حتى على المشاة نظرا لوجود عدة فروع من النيل تقطعها طولا وعرضا بالاضافة الى مالا عد له من اقنية الرى وترعه .

لكن اطراف الصحراء تصل فى الوقت نفسه الى حدود المنطقة الزراعية اللزجة . ولاينتقل المرء هنا بصورة متدرجة من الاراضى الزراعية الى الاراضى الصحراوية كما هو المالوف عادة عبر أراضى المراعى المملوءة بالاعشاب والشجيرات الشوكية : فهناك خط واضح يفصل بين الصحراء والمنطقة المزروعة بحيث يستطيع المرء ان ينتقل بوثبة واحدة من الصحراء الرملية الجافة الى الارض الغرينية الناعمة المنبتة •

وبابل على نهر النيل عند رأس المثلث وتستطيع الجيوش أن تمضى منها على الارض الصحراوية الصلبة الى الاسكندرية أو الى الفرماء بأقصى سرعة ممكنة ودون أن تجد فى طريقها مايعوقها من اقنية الرى ومياه الفيضان .

وقد اطلق اسم «بابل» على القلعة التى تؤوى الحامية المكلفة بالدفاع عن هذه المنطقة السوقية الهامة • وكانت مدينة ممفيس القديمة تقوم منذ القدم الى الشمال من هذه القلعة على ضفة النيل الغربية . وكانت هذه المدينة لاتزال قائمة فى عام ٦٤٠ ، وان ضاقت مساحتها وتهدمت معظم أبنيتها . أما الى الضفة الشرقية وعلى مقربة من حصن بابليون

فتقوم مدينة مصر الحديثة وتضم القاهرة المعاصرة الآن جميع هـــذه المواقع القديمة .

وكان من المحال أن يتمكن عمرو بن العاص بقوته الصغيرة ، وبافتقاره الى معدات حروب الحصار من محاصرة حصن بابليون والاستيلاء عليه ، ويبدو أنه ظل يشتبك فى خارج القلعة مع الروم عدة أســابيع دون أن يحقق أى نجاح ، ولكن يبدو أنه استطاع أخيرا أن يحتل مركزا أماميا الى الشمال من الحصن يسمى أم دنيان وكان يؤلف ميناء مدينة مصر على النيل .

وأصبح عمرو الآن فى وضع شـــاق عســـير ، وكان قد بعث الى الخليفة فى المدينة يطلب اليه سرعة انجاده ولكنه لم يتلق ردا ، وكانت روح رجاله المعنوية التواقين الى المغامرة والغنائم فى خطر من الهبوط والانهيار اذا ظل جامدا لايقوم بأى عمل ، ولكنه لايجد أمامه هدفا صالحا فى متناول يديه يستطيع أن يهاجمه وأن يحقق النجاح فى مهاجمته .

ومنطقة الفيوم الخصبة على بعد خمسين ميلا الى الجنـــوب من بابل وعلى بعد قريب من ضفة النيل الغربية ؛ وكان عمرو عند استيلائه على ام دنيـــان قد وضع يده على بعض السفن والزوارق ، وبادر فحمل رجاله على ظهرها ومضى صاعدا مع النيل فمر بخرائب ممفيس القديمة متجها الى الجنوب ، وكانت هذه المغـــامرة من الناحية السوقية خطرة بعض الخطورة ، اذ لو وصلت النجدات من الحجاز فانها ستكون على ضفة النيل الشرقية على حين تكون قوة عمرو على الضفة الغربية وبينهما حامية الروم فى حصن بابليون ، ولو بادر القائد الرومانى تيودور الى الهجوم فانه يستطيع أن ينتصر على كل من القـــوتين العـــربيتين على انفراد ، لكن العرب كانوا من الناحية الأخرى ، فى وضع قوى طبعا اذ أن فى وسعهم أن ينسحبوا الى الصحراء وأن يتجنبوا خـــوض معـــركة حاسمة مع الروم . ومع ذلك فلقد أخطأ عمرو فى أن يجعل النيل بينه وبين الجزيرة العربية اذ أنه لم يكن على آية حال واثقا من أن يستطيع ثانية العثور على زوارق يستطيع بها عبور النهر من جديد .

على أية حال سار عمرو جنوبا ، ولكنه وجد الفيوم قوية الحصون منيعة الدفاع وتمكن من سوق عدد من قطعان الماشية أمامه ، ولعل نقص المواد الغذائية فى جيشه ، كان من أهم أسباب هذه الغارة التى قام بها . واحتل العرب على أية حال بلدة صغيرة فى منطقة الفيوم عنوة وذبحوا

كل من فيها من السكان (١) وخرج يوحنا قائد جيش الروم فى الفيوم فى غضون ذلك على رأس خمسين من رجاله للقيام بعملية استطلاع شخصية لقوات العرب . وتلقى عمرو نبأ وجوده فاستدار اليه على عجل وأفلح فى تطويقه مع رجاله وقضى عليهم جميعـــا . وسرعان ما وصلت اليه الانباء بأن نجدات الخليفة قد وصلت . فاستدار شمالا وبسرعة عظيمة ليلتقى بها وكان ذلك فى مطلع يونيو (حزيران) عام ٦٤٠ .

وكان عمر بن الخطاب قد بعث بقوة قوامها اثنا عشر الف رجل لنجدة غزاة مصر ، وقد وصلت هذه القوة الى موقع هليوبوليس (مصر الجديدة) فى السادس من يونيو عام ٦٤٠ بقيادة الزبير بن العوام أحد كبار صحابة الرسول وزعماء قريش . وكان الزبير أحد أفــراد الحلقة الداخلية من المستشارين الذين عملوا بعد وفاة النبى مع أبى بكر وعمر . أما أفراد بقية رجال هذه الحلقة فهم على بن ابى طالب صهر النبى وابن عمه وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وقد قدر لهم أن يؤدوا أدوار بارزة وبعضها مشئوم فى التاريخ العربى ..

ونشأ الآن وضع هو ماتوقعه عمرو بن العاص ، عندما عبر نهــر النيل ، فلقد تمكن تيودور من حشد جيش ضخم فى حصن بابليون والى الشمال من هذا الحصن ، وقف الزبير بن العوام على رأس اثنى عشر ألفا من العرب . وعلى الضفة الاخرى من النهر ، وقف عمرو بن العاص . وكانت الفرصة ذهبية أمام تيودور لتحطيم جيش الزبير قبل أن ينضم اليه عمرو . ولكن هذا القائد الرومانى ظل دون حراك قابعا فى قلعته الى أن تمكن عمرو من عبور النهر والانضمام الى الزبير فى هليوبوليس .

وعندما حل العرب بهذه المدينة القديمة المشهورة بمدينة الشمس كانت عظمتها التليدة قد اختفت فى زوايا النسيان . وكانت تقوم على أرض مرتفعة بعض الارتفاع ويفصلها عن قلعة بابل سهل مفتوح عرضه ستة أميال أو سبعة يقوم على ضفة النيل الشرقية . وعندما وقف العرب فى هليوبوليس يواجهون جيش الروم فى حصــن بابليون كانوا يضعون الصحراء المفتوحة وراء أظهرهم فيحسون بالاطمئنان . لأن الصحراء كانت دائما صديقتهم الوفية .

وبلغ تعداد جيش المسلمين الآن نحوا من خمسة عشر الفا بينهم

---

(١) لم اجد اى تأكيد لهذه الرواية التى جاء بها المؤلف في اى من كتب التاريخ العربى المشهورة . (المعرب)

عدد من صحابة الرسول ، وفدوا من المدينة فى جيش الزبير للاسهام فى مثل هذه الحرب المجيدة المقدسة ومعهم عبد الله الولد الاكبر للخليفة عمر ، وكانت القوة الاساسية التى جاءت مع عمرو لغزو مصر منذ البداية من فلسطين مؤلفة من البدو على الغالب . ومعظم رجالها من القبائل المقيمة فيما يسمى الآن بسيناء وجنوبى الاردن .

ومن العسير علينا أن نعرف على وجه الدقة عدد جيش الروم ولكن الغالب على الاعتقاد أنه كان أوفر عددا من جيش العرب . لكن روح الروم المعنوية كانت فى الحضيض على اية حال ، اذ حطمتها الانباء التى وصلتهم عن بسالة العرب الذين هزموا جيوش امبراطوريتى بيزنطة وفارس .

وفي منتصف يوليو عام ٦٤٠ قرر تيودور الذى فاتته فرصة مهاجمة جيش العرب كل على حدة أن يهاجمهما الآن بعد أن توحدا والتأم شملهما وسرعان ماخرجمن قلعته وجازالسهل ليهاجم هليوبوليس وكان عمرو بن العاص فى غضون ذلك قد رتب صفوفه وأعدها للقتال بعد أن بعث بفصيلتين تحت جنح الدجى تمكنت أولاهما من احتلال موقع بصورة خفية يقوم محل قلعة القاهرة الراهنة ، وتمكنت الأخرى من احتلال موقع مماثل عند الازبكية الحالية ، وفى الصباح الباكر خرججيش الروم من البساتين والحدائق التى الى الشمال الشرقى من الحصن ، وأخذ يزحف عبر الصحراء المكشوفة ، وخرج العرب فى الوقت نفسه من هليوبوليس للقاء عدوهم على حين كانت فصيلتا عمرو ، قد رابطتا خفية فى مراكزهما الجناحية دون أن يحس الروم بهما .

والتقى الجيشان وسرعان ماوقع تلاحم عنيف بالايدى ، وفجأة ظهر الكمين الشرقى العربى وهاجم أفراده مؤخرة الروم ، ووجد هؤلاء انفسهم وقد هاجمهم المقدمة والمؤخرة فدبت الفوضى فى صفوفهم ، وأخذوا يتجهون نحوالعرب ليشكلوا جبهةجديدة ضد القوتين المهاجمتين وسرعان ما ظهر الكمين الغربى وتدفق رجاله فى هجوم عنيف على الجناح البيزنطى الأيسر ، وهنا دب الذعر فى صفوف جيش الروم كله ، وانتشرت الفوضى وراح البعض ينشد الامان فى قلب القلعة فرارا من القتل الذى كان نصيب الكثيرين منهم على أيدى المسلمين المنتشين بنشوة النصر ، وتمكن تيودور نفسه من الافلات والنجاة بجلده .

وانسحبت فلول جيش الروم الى داخل الحصن واغلقت أبوابه عليها وان كانت مدينة مصر قد استسلمت للعرب دون قيد أو شرط ،

ولما كان الميدان قد خلا الآن من أى جيش معاد فقد تمكن المسلمون من أن يحرثوا الارض وأن يجمعوا المؤن ويكدسوا الغنائم . وقد تخلت القوات الرومانية التى كانت قد دافعت بنجاح عن الفيوم قبل مدة قصيرة امام قوات عمرو بن العاص عن المنطقة كلها ، وأستقلت المراكب النيلية فمرت بحصن بابليون ولجأت الى بلدة نيكيوه (زواية راسين) التى على بعد خمسة واربعين ميلا الى الشمال من القلعة . وبعث عمرو على الفور بقوة احتلت الفيوم عنوة وقتلت أهلها وهكذا خضعت المنطقة بكاملها للعرب دون مقاومة .

والى الشمال احتل العرب مدينتى منوف وتنيس اللتين على بعد خمسة وثلاثين ميلا الى الشمال من بابل . وواصل عمرو السير فى سياسة الغلظة والشدة مع أهل مصر اما استجابة لطبيعته الشخصية الشرسة والمتغطرسة أو تطبيقا لسياسة اختطها لنفسه ، وهى أن يزيد من العنف لينشر الذعر فى قلوب الناس ويحول دون أية مقاومة جديدة(١) وهكذا بعد أن تم للعرب اخضاع مقاطعة مصر التى فى رأس الدلتا بالاضافة الى مقاطعة الفيوم غدوا الآن فى مركز قوى أمن لهم ماهم فى حاجة اليه من المؤن عن طريق هاتين المقاطعتين الغنيتين . لكن شهر أغسطس (آب) قد حل الآن وأخذ النيل فى الارتفاع معرضا جزءا كبيرا من الدلتا لخطر الفيضان مما يؤدى الى انتشار المياه والحيلولة دون أية عمليات عسكرية وقرر عمرو أن يحتل قلعة بابل قبل المضى فى فتوحه الى مناطق جديدة .

***

تتألف هذه القلعة العظيمة من أسوار رباعية الاضلاع غير منتظمة ، سمكها نحو من ثمانى اقدام وارتفاعها نحو من ستين قدما مبنية من طبقات متتالية من الآجر والحجارة . وهناك برجان عاليان يرتفعان فوق الاسوار . ويبلغ طول البرج نحوا من ألف قدم وعرضه خمسمائة عند أحد طرفيه ليضيق الى ثلثمائة قدم عند الطرف الآخر . وتصطفق مياه النيل مع احد جوانب هذا السور . ويقوم الى جانب الباب الجنوبى ميناء صغير للقوارب النهرية عند أسفل السور ويحيط بالقلعة كلها خندق تغمره مياه النيل . وأمام القلعة الرئيسية جزيرة الروضة فى وسط النهر وفى هذه الجزيرة تحصينات دفاعية وحامية قوية من الروم . وكان

---

(١) لم يسلك عمرو مسلك الشدة مع الاقباط أو المصريين بل انه كان على النقيض اذ هم الذين اعانوه ، وساعدوه على الفتح كرها منهم للرومان . ــ المعرب ــ

فى وسع هاتين القلعتين أن تحتفظا بخطوط المواصلات النهرية بينهما .

وكان احتلال مثل هذه القلعة أمرا شاقا على المسلمين الذين عانوا مشقة كبيرة حتى فى احتلال بلدة لا حصون فيها كالفرماء . ووجد المقوقس حاكم مصر ، الذى يعرفه الغربيون باسم البطريق سيروس ، نفسه محاصرا فى القلعة . وكانت الحامية تضم نحوا من خمسة آلاف أو ستة آلاف جندى على حين تضم القلعة كميات كبيرة من المؤن ومخازن السلاح . ويبدو أن الحصار قد بدأ فى مطلع شهر سبتمبر (ايلول) عام ٦٤٠ .

ولاريب فى أن المقوقس نفسه كان مسئولا عن ضعف مصر وعجزها عن مواجهة الغزو العربى : فلقد سبق لنا أن بينا أن غالبية أهل مصر كانوا ينتمون الى الكنيسة القبطية وكانوا لنحو من عشر سنوات ضحايا الاضطهاد الدينى الذى لايعرف الرحمة ، وهكذا عندما حلت الساعة الحرجة وجد الاغريق البيزنطيون وعدد قليل نسبيا من المصريين الذين يدينون بالارثوذكسية أنفسهم المدافعين الوحيدين الاوفياء عن البلاد ، أما الاقباط فكانوا يؤلفون مجتمعا تابعا لامفاصل بارزة فيه . ومن الصحيح ان يقال أن صمودهم أمام اضطهاد المقوقس كان يحتم عليهم ان يتمسكوا بدينهم تمسكا جديا ، ويعنى هذا التمسك عدم ترحيبهم بالمسلمين ، ولكنهم لم يكونوا يدافعون دفاعا جديا مستبسلا عن بلادهم . فلقد رأوا انهم كانوا حتى ذلك التاريخ ضحايا اضطهاد البيزنطيين . واذا قدر للعرب ان يكسبوا فانهم سيصبحون أتباعا للمسلمين ، ومن هنا تقوم الحقيقة الواقعة وهى أنهم سيظلون عبيدا تابعين مهما كانت نتيجة المعركة . ومن المحتمل أن يكونوا قد عرفوا على أية حال أن العرب فى سورية أباحوا للمسيحيين حرية العبادة وان كانوا يرغمونهم على دفع الجزية ، ومن هنا كانوا يرون فى المسلمين وضعا أفضل من وضعهم فى ظل المقوقس .

وكان فى مكنة حصن بابليون أن يصمد شهورا عدة ، ولكن المقوقس كما يبدو كان يدرك مايحس به أهل البلاد من كراهية لحكمه ونظامه (١) ومن المحتمل أنه كان يدرك أيضا أن لا أمل له فى نجدة من بيزنطة . وهكذا فاننا نرى المقوقس ينتقل فى مستهل أكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٤٠ أى بعد انقضاء شهر على الحصار ، عن طريق النهر الى جزيرة الروضة ، حيث أوفد منها بعثة للتفاوض مع عمرو بن العاص . وقد جرت

---

(١) هكذا تأكيد لما قلناه من قبل .

المفاوضات فى الجزيرة بطريقة سرية ويبدو أن الغاية من اخفائهـا كانت الابقاء على الروح المعنوية عند حامية القلعة ٠

ووصل رسل المقوقس الى عمرو بن العاص ونقلوا رسـالتهم ٠ وبعد ان اعترف الرسل بأن العرب قد حققوا بعض الانتصارات اخـذوا يؤكدون لعمرو ان ليس فى وسعه ان يصمد طويلا أمام سلطان الروم ، واقترحوا عليه الانسـحاب من أراضى مصر مقـابل مبلغ من المـال يدفع اليه فورا ، فرد عمرو بأن عرض عليهم اختيار أحد السبل الثلاث التى استنها العرب بالنسبة الى البلاد التى يحتلونها وهى : اما قبـول الاسلام والمساواة فى الوضع مع الفاتحين ، أو دفع الجزية وقبول مركز التبعية ، أو المضى فى القتال حتى الوصول الى نتيجة حاسمة .

وعلى الرغم من أن المقوقس لم يكن على اسـتعداد لقبول أى من هذه الشروط الثـلاثة فانه وجد من الافضـل له المضى فى المفاوضـات ومتابعتها ، فعرض على عمرو أن يبعث اليه بوفد من لدنه الى الروضة . ولعل من الجدير بنا أن نذكر هنا ان الوفد الاسلامى الذى وصـل الى الروضة وكان بزعامة عبد يدعى عبادة بن الصامت أخذ يوجه حديثه الى المقوقس قائلا له : ان المسلمين لايحاربون الا فى سبيل الله وفى سـبيل تحقيق مشيئته وانهم لايأبهون بالمال قيد شعرة مؤكدا له ان الحيـاة الدنيا زائلة وان البقاء لله .

ويبدو أن المقوقس لم يتأثر مطلقا بحماسة المسلمين وجـدهم فى حديثهم ولا باستهانتهم بالدنيا الفانية واستعدادهم للاستشهاد للوصول مبكرين الى فراديس النعيم ، فراح يهمس فى أذن أحد أصحابه قائلا : كل ماأخشاه هو أن يكون الله قد بعث بهؤلاء الناس لدمار العالم ! ورد المقوقس على قول عبادة فاعترف بأن فشل الروم ناتج عن كثرة تعلقهم بشئون الحياة الدنيا ، ولكنهم يجمعون الآن جموعهم ويحشـدون جيوشهم لمحاربة الغزاة العرب ولعل من الخير للعرب قبل أن تعد هذه الجيوش الجرارة أن يقبلوا مبلغا كبيرا من المال كجزاء نقدى وأن ينسحبوا من البلاد .

ورد العرب بأنهم لا يأبهون بالعدد مهما كان كبيرا وان كل ما يأملونه هو الشهادة فى سبيل الله لا العودة سالمين غانمين الى نسائهم وأطفالهم . واضافوا أن قلة عددهم بالنسبة الى عدوهم لاترهبهم اذ أن الله تعالى أكد لهم أن النصر سيكون فى جانبهم بقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » ٠ ورفض أعضاء الوفد أن يستمعوا الى أى عرض آخر

سوى العروض الثلاثة التى سبق لعمرو بن العاص أن قدمها الى الروم: وهى اما الاسلام أو الجزية أو الحرب .

وبدا المقوقس ميالا بعض الميل لقبول دفع الجزية ولكن عددا من ضباطه أبى عليه ذلك • ويبدو أن هؤلاء كانوا من أهل مصر ، أما المقوقس نفسه فكان كما رأينا سابقا من الروم وكان يشغل منصب المطـران فى القفقاس • وطلب الروم أخيرا مهلة للتفكير فى الموضوع ولكن عمرا رفض أن يمهلهم أكثر من ثلاثة أيام ، ولم تكد هذه المدة تنقضى حتى كان الروم يتزلون أحد المعابر على النهر فيجتازونه عليه ويهاجمون العرب بغتة ، ولكن هذا الهجوم منى بالفشل فى النهـاية بعـد اشـتباك عنيف دام ، واضطرت الحامية من جديد الى اللجوء الى حصنها وقد ادت هـــذه النكسـة الى اضعاف مركز المنادين بالمقاومة والى تقوية مركز المقوقس المطالب بالصلح والخضوع للعرب .

واستؤنفت المفاوضات من جديد وأسفرت عن عقد صلح بالطريقة المعهودة تعهد فيها الروم بدفع الجزية مقابل تمتع المسيحيين بحـرية العبادة وضمان حماية المسلمين لهم ، وأضيف الى معاهدة الصلح بنـد يشترط موافقة الامبراطور عليها وينص على ارسالها اليه فورا لاقرارها بشرط أن يظل الوضع العسكرى على حاله فى هـذه الفترة من الترقب والانتظار .

وتسلح المقوقس بهذا الاتفاق فأبحر فى النيل الى الاسكندرية حيث بعث برسالة عاجلة الى هرقل فى القسطنطينية شارحا الاسـباب التى دعته الى الاذعان للغزاة ومتوسلا اليه أن يقر اتفاق الصلح ، وكان هرقل قد بات الآن رجلا عجوزا محطما أوهنته العلل وأضنته الهزائم ، ومع ذلك فلم يستطع استساغة هذه الانهزامية التى أبداها المقوقس ، وراح يبعث برسالة عاجلة الى الاسكندرية يطلب فيها من المقوقس الاتجاه فورا الى القسطنطينية .

وقد استقبل الامبراطور ممثله فى مصر بحملة جـارحة من اللوم والتعنيف ــ لها ولا شك ــ كل مايبررها ، فلقد كان المقوقس هو الذى ألب ببطشه وشدته ووحشيته واضطهاده الدينى غالبية المصريين ، وهاهو ذا عندما جاء العرب كان أول من دب اليـأس الى فؤاده ، فاسـتخذى واستسلم وطالب بالاذعان وراح يدافع عن نفسه أمام الامبراطور ، فأكد ان العرب قوم لايغلبون أبدا وانهم لايأبهون بالمال أو الراحة وانهم يطمعون فى الاستشهاد فى ميدان القتال لأن الشهادة تسرع بهم الى الفردوس

ولكن بلاغته فى الدفاع عن نفسه لم تجده فتيلا واتهم بخيانة الامبراطورية لمصلحة العدو ، وبعد أن تعرض الى الكثير من اللوم والاذلال طرده الامبراطور من وظيفته وابعده الى حياة المنفى .

واستؤنفت المعارك بعد أن ذاع نبأ رفض الامبراطور ابرام المعاهدة واعد كل من المهاجمين والمدافعين عن بابل (اليونة) أنفسهم لمعركة فاصلة. واخذ نفر من المصريين من الاقباط الذين عانوا من اضطهاد الروم يساعدون العرب فى هذه المرحلة ، لكن الحامية ظلت تواصل الاندفاعات من الحصن بين آونة واخرى منزلة بالمهاجمين بعض الخسائر .

وأخذت أيام الشتاء تجر ذيولها ثقيلة متباطئة ، وبدأت مياه الفيضان فى الانحسار وأخذ الماء فى الخندق يهبط تدريجيا . ولم يحقق العرب نجاحا مع أسوار الحصن وان كانوا أنزلوا بعض الخسائر بالمدافعين عن طريق النبال التى يطلقونها . ووصلت الانباء ذات يوم فى آخريات الشتاء الى عمرو بن العاص بأن الروم يحشدون قواتهم فى الدلتا فخلف على القلعة قوة صغيرة تمضى فى حصارها واتجه سرآ الى الشمال ليداهم العدو ويشتت شمله . ولكن العرب وجدوا أنفسهم فجأة محصورين بين قنوات الرى وترعه وعانوا مشقات كبيرة واضطروا الى العودة .

ووصلت الانباء فى شهر مارس (آذار) عام ٦٤١ عن موت الامبراطور هرقل فى القسطنطينية ودب اليأس فى قلوب أفراد الحامية على حين عم الفرح معسكر العرب ، ويبدو أن هذه الحقيقة تبدد النظرية القائلة بأن هرقل غدا ضعيفا وفى منتهى الجبن فى أخريات أيامه ، وكتب المؤرخ العربى جلال الدين السيوطى عن هذا الحادث يقول : « كسر الله شوكة الروم بموت هرقل » .

وتشجع المسلمون بموت هرقل فأعدوا العدة للهجوم على بابل وتمكنوا من اجتياز الخندق فى بعض النقاط فأقاموا السلالم على الاسوار وراح الزبير بن العوام صحابى رسول الله يصعد السلم مجردا سيفه ومعلنا عزمه على الاستشهاد وهو يقود الهجوم ، وتبع الزبير فى جنح الدجى نفر من أهل النجدة ، وصب العرب وابلا من النبال على الحواجز لارغام الروم على ابقاء رءوسهم خفيضة حتى لا يروا المهاجمين ، وسرعان ما ارتفع هتاف المسلمين « الله أكبر الله أكبر » ، فوق الاسوار لكن الفئة التى ركزت أقدامها فوق الاسوار لم تكن كبيرة . وكان فى مكنة الروم أن يقوموا بهجوم مضاد ، وأن يقذفوا بهذه الحفنة الصغيرة فى الخنادق ولكن الحصار كان قد طال اذ انقضت عليه حتى الآن سبعة أشهر أى منذ

سبتمبر (ايلول) عام ٦٤٠ حتى ابريل (نيســـان) عام ٦٤١ . وكانت الحامية قد ملت القتال والحصـــــار ، وعندما أخذ الفجر يطل أطلالته ببطء ، كان قائد الحامية قد عرض التفاوض على المسلمين وقبل عمرو العرض فورا . ووضع نص اتفاق لتسليم الحصن وتقرر أن تنسحب الحامية بعد ثلاثة أيام وأن يمضى أفرادها فى المراكب فى النيل تاركين القلعة سليمة بكل مافيها من مستودعات ووسائل دفاعية . وهكذا انسحبت الحامية فى التاسع من ابريل (نيسان) عام ٦٤١ واحتل المنتصرون العرب قلعة بابل .

تواريخ بارزة

عمرو بن العاص يجتاز حدود مصر عند العريش	١٢ من ديسمبر (كانون الأول)	٦٣٩
احتلال الفرماء	نهاية يناير (كانون الثـانى)	٦٤٠
وصول النجدات من الجزيرة العربية	٦ من يونيو (حزيران)	٦٤٠
معركة هليوبوليس	يوليو (تموز)	٦٤٠
بدء حصار بابل (اليونة)	سبتمبر (ايلول)	٦٤٠
موت هرقل	١١ من فبراير (شباط)	٦٤١
احتلال بابل	١٩ من ابريل (نيسان)	٦٤١

شخصيات مشهورة

عمر بن الخطاب	خليفة المسلمين
عمرو بن العاص	القائد العام فى مصر
الزبير بن العوام	قائد النجدات العربية وقائد القوة التى اكتسحت اسوار حصن بابليون
المقوقس	حاكم مصر وبطريق الارثوذكس
تيودور	القائد العام لجيش الروم فى مصر

إستسلام مصر

« قد علمت أن الرب أعطاكم الارض ، وقد حل رعبكم علينا ، وجميع سكان الارض قد انحلوا أمامكم .. سمعنا فذابت قلوبنا ولم يبق فى أحد روح امامكم » .

سفر يشوع ـ الفصل الثانى ـ ٩

* * *

« كوش ومصر قوتها ، ولا نهاية لها وفوط ولوبيم فى نصرتك . فهى أيضا ذهبت الى الجلاء مسببة ، واطفالها ايضا حطموا رأس كل شارع وعلى كرامها القوا القرع . وجميع عظمائها أوثقوا بالقيود . وأنت أيضا تسكرين وتختبئين وأنت أيضا تطلبين ملجأ من العدو . جميع حصونك أشجار تين ببواكيرها ان انهزت تسقط فى فم الآكل . ها ان شعبك فى داخلك نساء وأبواب أرضك تفتح فتحا لأعدائك ، والنار تأكل مزاليجك » .

نبوءة نحوم ـ الفصل الثالث

* * *

« جاءوا الى القتال يتوقعون الهزيمة ، لذا فلقد تحققت لهم . فلقد كانوا نصف مهزومين قبل ان توجه اليهم ضربة واحدة » .

أومان ـ الحرب فى العصور الوسطى



أدى استسلام حصن بابل (اليونة) فى ابريل (نيسان) عام ٦٤١
الى استقرار الوضع نهائيا وبصورة رتيبة فى مقاطعة مصر القائمة فى رأس
الدلتا وفى مقاطعة الفيوم الواقعة على بعد خمسين ميلا الى الجنوب باتجاه
أعالى النيل . وكان وضع حصن بابليون ممتازا من وجهة النظر العربية
اذ أنه واقع على الضفة الشرقية لنهر النيل حيث تمتد الصحراء منها بلا
انقطاع حتى الجزيرة العربية ، يضاف الى هذا أن هذه القلعة كانت تسيطر
على الدلتا كلها ولم يكن العرب ميالين الى العمل داخل منطقة القنوات
والاراضى الزراعية المروية ولعلهم كانوا عاجزين عن العمل فيها . لكن
مقاومة الروم أصبحت متركزة الآن فى الاسكندرية ، ولا يمكن الوصول
الى تلك المدينة الا بالزحف شمالا فى الجانب الغربى من الدلتا على أكناف
الصحراء ، وكان الفرس قد اتبعوا الطريق ذاتها قبل خمسة وعشرين
عاما عندما استولوا على مصر ، فلقد زحفوا من الفرماء الى مصر على
رأس الدلتا ومنها ساروا بحذاء الفرع الغربى من نهر النيل الى
الاسكندرية .

ويقال بأن عمرا أقام الولائم يومين متعاقبين لاقباط مصر قبل أن
يمضى لفتح الاسكندرية . وكان قرى الاقباط وبعض العرب فى اليوم
الأول للوليمة لحم الابل مسلوقا فى الماء المالح . وقد أكل العرب حتى
شبعوا أما الاقباط الذين لم يألفوا هذا الطعام فلم يستسيغوه . وأعدت
للجميع فى اليوم التالى أطايب الطعام مطهية على الطريقة المصرية المتقنة .
والقى عمرو فى ذلك اليوم خطابا أوضح فيه المعنى المقصود من هذا
الاجراء الذى قام به فقال انه قد لا يكون من الحكمة فى شىء أن يمتهن
المصريون فقر العرب وافتقارهم الى ترف العيش ورخائه ، وأضاف أن
فى وسع المسلمين أن يتعودوا على أطايب هذه الدنيا ومفاتنها ، ولكن
خشونة عيشهم مكنتهم من احتمال ما لا حد له و لاحصر من المتاعب
والشقاء التى لا يستطيع الناعمون من المصريين هضمها . ولا ريب فى أن
هذا الاحتمال على المكاره هو الذى مكنهم من التغلب على جيوش الروم
والفرس .

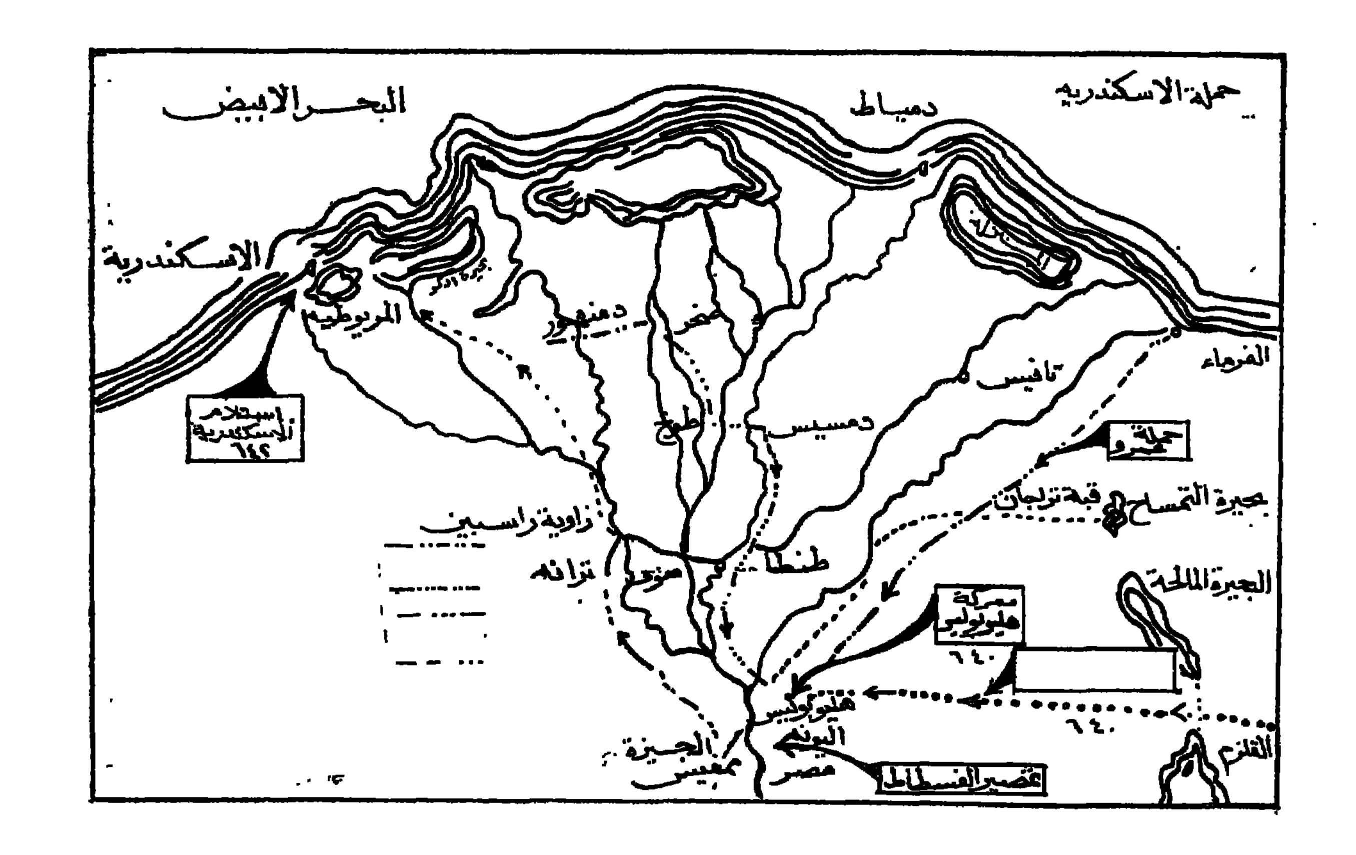
ويقال بأن عددا غير محدود من الاقباط قد تحول فى هذه الآونة
الى الاسلام وقد اغرتهم الفرصة المتاحة لهم بأن يصبحوا أندادا من

الناحيتين الاجتماعية والمالية لفاتحى بلادهم المبجلين . ويقال أيضـا بأن جيش عمرو بن العاص كان يضم عددا من أروام سورية الذين تحولوا الى الاسلام وعددا من الأعاجم من الأبناء فى اليمن من بقايا ذلك الجيش الذى كان كسرى قد بعث به الى اليمن لاخراج الاحباش منها واحتلالها فى عام ٥٧٤ ، وهكذا نرى أن عملية افساد العنصر العربى النقى القادم من الجزيرة العربية قد بدات فى هذا الوقت المبكر .

وعندما أراد الجنود تقويض خيمة قائدهم عمرو بن العـاص . استعدادا لبدء السير باتجاه الاسكندرية ، عثروا على يمامة عششت فى طرف الخيمة بعد أن وضعت بيضها ، وقد أمر عمرو بالابقاء على الخيمة فى مكانها وعدم تقويضها مخافة ازعاج الطائر الوديع قائلا ، ان اليمـامة قد التجأت الى حماه وان عليه أن يجيرها . ومما يجدر ذكره أن الخيمة كانت ولا تزال فى عرف النظام الاجتماعى العربى ملجأ الامان فى تقـاليد الصحراء ، وفى وسع كل من يشعر بالخطر سواء أكان رجلا أم امرأة ، أن يلجأ الى خيمة انسان يحتم عليه العرب أن يحمى المستجير به حتى ولو كلفه ذلك حياته . ولقد تحدثت فى مكان آخر عن البدوى الذى اجار ذئبا جريحا ، وقتل أحد أبناء عشيرته دفاعا عنه . وقد يبدو من الغريب لنا كل الغرابة أن يقدم جندى عرف بالصرامة والقسوة كابن العـاص على التخلى عن خيمته ضنا على يمامة من الازعاج .

وعبر العرب نهر النيل من بابل (اليـونة) الى الجيزة ، وقـد استخفهم المرح والطرب ليمضوا قدما فى طريق صحراوية جافة بحثـا عن أماكن جديدة يفتحونها . ولا ريب فى أن البقاء أمدا طويلا بلا حراك وعلى أرض رطبة حول القلعة المحاصرة ولا سيما فى أيام الفيضان كان مر المذاق بالنسبة اليهم .

وقع اشتباك فى طرانة الواقعة على بعد أربعين ميلا الى الشـمال من بابل اضطر فيه الروم الى الانسحاب بعد قتال ضار ، وبعد عشرة أميال الى الشمال ، وجد العرب انفسهم يواجهون مدينة نيكيو (زاوية راسين) وقلعتها القائمتين على الضفة الشرقية من النهر واضطر العرب ازاء ذلك الى عبور النهر لمهاجمة المدينة . ولو كان هناك قائد متميز بالنشاط والجراة فى المدينة لخرج منها واعترض سبيل العـرب وهم يعبرون النهر أو لباغتهم بعـد أن عبر نصفهم ، ليلحق بهم الهزيمة . ولكن الذعر كما يبدو كان مسـيطرا على رجال الحاميـة الذين شرعوا يجلون عن المدينة فى اضطراب وفوضى ليستقلوا القوارب أملا بالنجاة



البحر الابيض
دمياط
حملة الاسكندرية
الاسكندرية
استلام الاسكندرية ٦٤٢
المريوطية
دمنهور
طوخ
دمسيس
تافيس
الفرماء
حملة عمرو
بحيرة التمساح
قبة ترلجان
زاوية راسيين
ترانه
طنطا
البحيرة المالحة
معركة هليوبوليس ٦٤٠
٦٤٠
هليوبوليس
اليونه
الجيزة
منفيس
مصر
القلزم
تمصير الفسطاط

عن طريق النهر بالسير نحو مصبه . وسارع العرب الى الهجوم فافنوا عددا ضخما من جنود الروم وهم اما على الساحل أو بعد نزولهم الى الماء . وعلى الرغم من احاطة المدينة بالتحصينات ، فانها لم تدافع عن نفسها ، فاقتحمها العرب وأعملوا السيف فى رقاب أهلها . وقد وقع هذا الحادث فى الثالث عشر من مايو (ايار) عام ٦٤١ ٠ وأخذوا يغيرون بعد ذلك على القرى المجاورة يقتلون فيها وينهبون ما يشاءون ٠ ومن المعقول ان تكون هذه الاجراءات جزءا من سياسة مرسومة ٠ فالعرب كما سبق لنا ان بينا أكثر من مرة كانوا من الناحية التعبوية (التكتيكية) فى وضع سيىء فى المناطق المروية الضيقة وكانوا تبعا لذلك تواقين الى تجنب أيه عمليات عسكرية فى منطقة الدلتا التى كان اتساعها هنا يبلغ خمسين ميلا . ثم يأخذ هذا الاتساع فى الارتفاع كلما اتجهوا شمالا الى أن يبلغ المائتين ٠ وكان فى وسعهم أن يحتلوا عـــدة أماكن على حدود المنطقة المزروعة ٠ وكانوا يلجأون فى هذه الاماكن الى أساليب العنف الصارمة رغبة منهم فى القاء الرعب فى نفوس السكان الجبناء فى بقية انحاء الدلتا ليضـــمنوا خضوعهم لهم دون عمليات حربية أو قتال ٠ ولهذا السبب وحده كان الزمن أقصر من أن يضاع ، فلقد احتل العرب نيكيو (زاوية راسين) فى شهر مايو عام ٦٤١ وكان موعد الفيضـــان شـــهر اغسطس من ذلك العام ، عندما تصبح العمليات العسكرية متعذرة بل مستحيلة ، وقـــدر العـــرب انهـــم سيكونون فى مثـــل ذلك الشهر محاصرين للاســـكندرية وستتعرض مواصلاتهم للخطر مع حصن بابليون اذا ثارت الدلتا عليهم . وجدير بنا أن نلاحظ الاتجاه الذى اتجهته أعمال العنف هذه فقد استهدفت الاقباط أو سكان مصر . ولقد كان الروم أو أتباع الكنيسة الارثوذكسية هم العدو فى احتلال الفرما أو بابل أو فى معـــركة هليوبوليس (١) . أما نيكيو وأرباضها فكانت مأهولة بالاقباط الذين كانوا من قبل ضـــحايا الاضطهاد البيزنطى .

وعاد عمـــرو بن العاص بعـــد قضاء بضـــعة أيام فى نيكيو (زاوية رآســـين) الى عبـــور نهـــر النيل واستئناف الزحف باتجـــاه الاسكندرية

---

(١) لم أجد في كتب التاريخ العربى ما يؤيد هذه الروايات المزعومة التى جاء بها المؤلف وكل مافي وسع المرء ان يتأكد منه ان العرب كانوا عندما يصلون الى بلدة من البلاد يعرضون على أهلها اما الاسلام أو الجزية أو الحرب . فان رفضت الا الحرب كان من حقها أن تذوق ويلاتها وان تحتمل نتيجة قرارها . أما معاملة المسلمين للاقباط فكانت رائعة كما تجمع كتب التاريخ كلها . (المعرب)

واشتبكت طلائع العرب المتقدمة مع قوة بيزنطية ضخمة فلقيت منهـا هولا كبيرا واضطرت الى اللجـوء الى أرض مرتفعة حيث أطبق عليهـا الروم الحصار من كل ناحية ولكن عمرا ما لبث أن وصل بقواته الكبيرة فطرد الأعداء ورفع الحصار المضروب على طلائعه ، وقد أطلق العـرب على التل الذى صمدت فيه الطلائع العربية اسم « كوم شريك » نسبة الى قائد الطليعة شريك بن الحارث وظهر أن القوة الرومانية التى اشتبكت معهـا ، هى كل ما تبقى لدى الروم من جيش عامل فى الميدان بقيـادة تيودور القائد الذى هزمه ابن العاص قبل عام فى معركة هليوبوليس .

ووقع اشتباك آخر على بعد عدة أميال الى الشمال من دمنهـور دارت ابانه رحى معركة عنيفة ضارية انتهت بانسحاب الروم من جديد. ويبـدو أن نجـدات جـديدة كانت قـد وصـلت الى جيش الروم من القسطنطينية اذ بات هذا الجيش فى مظهر جديد طيب . ويبدو أيضـا أن عمرا تلقى نجدات أخرى من الجزيرة العربية وان لم نجد أثرا يدل عليها فى كتب التاريخ العربى .

واتخذ تيودور مراكز دفاعية جديدة له فى الكريون حيث نشبت معركة ضارية ، ومن الملاحظ أن المؤرخ البلاذرى يذكر بصدد المعركة أن الروم والقبط تجمعوا عند الكريون لمقاومة الزحف العربى . ومن هـذا يبدو أن القبط بدأوا يدركون أنه على الرغم من مرارة اضطهاد الروم لهم فان ماأنزله العرب بهم من تقتيل(١) ، يدل على أنهم لن يكونوا أحسن حالا اذا ماتغير حكامهم وقد دامت معركة الكريون كغيرها من الانتصارات العربية العظيمة عدة أيام مما يدل على أن العرب بدأوا يلجئون فى حروبهم الى معـارك السحق الطويلة بدلا من حروب الصاعقة السريعة وان هذا الاسلوب الجديد أكثر صلاحا لهم من سابقه وحرى بنا أن نقول ان الافادة الناجحة من الهجمات الكبيرة تعتمد على التدريب والانضباط وهما صفتان مازال العرب فيهما أقل مستوى من أعدائهم لكن العرب يتفوقون على أى حال تفوقا هائلا على أعدائهم فى روحهم المعنوية واقبالهم على المبادرة وفى وسعنا أن نستنتج من هذا أن العرب باتوا يشتبكون مع العدو فى كل مكان فى عمليات استطلاعية يسبرون فيها أغواره حتى اذا وجدوا نقطة الضعف فيه سارعوا الى استغلالها . واذا ما تحقق لهم النجاح الأولى فى أية عملية

---

(١) لم يذكر التاريخ ان العرب اعملوا التقتيل فى المصريين بل ان الذين اقدموا على ذلك هم الرومان وقد فعلوا ذلك بصورة بشعة عند انسحابهم من حصن بابليـون ليلة عيد الفصح . — المعرب —

من هذا النوع فانهم يستغلون هذا النجاح بكل جرأة واندفاع وبما عرف عن رجالهم من اقدام على المبادرة مدفوعين بحميتهم ودون انتظار أوامر من قادتهم • واذا ما شئنا مقارنة البدو بأى من الجيوش الحديثة أمكننا القول بأن الاستراليين يشبهونهم الى حد كبير ويبدو أن هـــذا التشابه نجم عن اشتراكهم فى أوضاع حياتية متماثلة ، وهى الكفاح ضد الطبيعة لضمان البقاء فى أراض فسيحة قاحلة غير مستثمرة • أما قوات الصاعقة فتكون عادة ثمرة الحضارات المدينية فى حين يكون استغلال الانتصارات المحلية من المقاتلين الفرادى الأسلوب الصـــــالح لشعوب الرواد الأحرار الذين لايربطهم نظام أو انضباط •

وقد دامت معركة الكريون عشرة أيام وانتهت كما يبدو فى يوليو (تموز) عام ٦٤١ بانسحاب ثيودور انسحابا منظما الى خطوطه الدفاعية فى مدينة الاسكندرية(١) •

❋ ❋ ❋

وتابع عمرو مطاردة الجيش المتراجع فشن هجوما سريعا مرتجـــلا مفتقرا الى التنظيم على أسوار المدينة كانت عاقبته نكسة شديدة • واضطر العرب الى الانسحاب بعيدا عن الأسوار للنجاة من خطر القـــذائف التى ترسلها المجانيق المقامة على الاسوار وأقاموا معسكرهم الى الناحية الشرقية من المدينة •

وكانت الاسكندرية فى هذا العهد الذى نؤرخه الآن من أعظم مدن العالم وقد أنشئت مدينة الاسكندرية قبل نحو من ألف عام ، وبناهـــا الاسكندر المقدونى وكانت تضم نحوا من مليون انسان ، وكانت مصر فى ذلك الحين بلدا غنيا كل الغنى ، وكانت الاسكندرية عاصمتها منذ أمد طويل وكانت دلتا النيل تلعب دور اهراء الحبوب لروما الامبراطورية ، ثم ما لبثت أن أدت الدور نفسه فى اقتصاد بيزنطة • وكانت الاسكندرية

---

(١) تختلف رواية المؤلف عن الروايات العربية المتعلقة بهذه المعركة ، فقد ذكر البلاذرى أن من بالاسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا لعمرو بن العاص وقالـوا نغزوه بالفسطاط (بابل) قبل أن يبلغنا ويروم الاسكندرية فلقيهم بالكريون فهـزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وكان فيهم من أهل سخا وبلهيت والخيس وسلطيس وغيرهم قوم رفدوهم واعانوهم ، ثم سار عمرو حتى انتهى الى الاسكندرية فوجد اهلها معدين لقتاله • ومن هذه الرواية يظهر أن الجيش الذى قابل العرب في الكريون هـو غـير جيش الاسكندرية وان مصير هذا الجيش كان الفناء تقريبا لا الانسحاب المنظم كمـــا يقول المؤلف •
(المعرب)

هى ميناؤها التجارى وتعتبر منارتها احدى معجزات العالم السبع • ولم يكن ثمة مايفوق كنائس المدينة وقصورها وتماثيلها أو يضاهيهـا حتى كنائس القسطنطينية وقصورها وتماثيلها وكانت المدينة الواسعة محاطة بأسوار ضخمة تعلوها الأبراج والحصون التى لاتنفع معها القذائف التى يملكها العرب • ولم تكن هذه هى العوامل الوحيدة فى مناعة المدينة بل بالاضافة الى أن البحر يحمى جانبا من المدينة فان جزءا كبيرا من الجانب البرى منهـا تحميه بحيرة المريوطية وعدد من الاقنية بحيث بات المكان الوحيد الذى يمكن منه الهجوم على المدينة فسحة ضيقة نسبيا تقع فى الطرف الشرقى ويبدو أن عمرو بن العاص أدرك بعد فشله فى الاندفاع الأول المتعجل على الأسوار الذى قام به بعـد معركة الكريون أنه عاجز عن اقتحام هذه القلعة الضخمة عنوة لاسيما وان الروم يسيطرون سيطرة كاملة على البحر الذى لا يوجد للعرب فيه مركب واحد • وكان فى مكنة مدينة كهذه أن تصمد سنوات طويلة • ولقد سبق لنا أن رأينا القسطنطينية تصمد بنجاح أمام هجوم الجيش الفارسى الذى كان أكثر استعدادا وأوفر تموينا بمعدات حروب الحصار من الجيش العربى ، وآن هذا الصمود استمر سنوات طويلة • وطالما أن السيطرة على البحر هى فى يد الروم فان موقف الاسكندرية كان أفضل من الناحية الطبيعية من وضع القسطنطينية •

ولم يبق الآن على موعد ارتفاع مياه النيل الا بضعة أسابيع • وقرر عمرو أن يخلف على الاسكندرية قوة صغيرة للملاحظة ترابط الى الجنوب الشرقى من المدينة وتكون كافية لمنع الروم من الخروج من الأسوار لاعادة فرض سيطرتهم على الدلتا • وأراد أن يستغل انخفاض النيل وان يزحف عبر الدلتا عائدا الى الفسطاط • وهكذا خرج عمرو من دمنهور باتجـاه الشرق الى دسوق ومنها الى طوخ فدمياط وكانت الاسوار تحيط بهذه المدن الثلاث فاغلق أهلها على أنفسهم الابواب عندما اقترب العرب منهم • ووجد العرب أنفسهم كالعادة عاجزين عن معالجة المدن المحصنة فاضطروا الى المرور بها دون فتحها • وغنم العرب كل مافى الارياف والقرى المجاورة من محاصيل ، وقد غدت الآن ناضجة للحصاد وأحرقوا مالم يتمكنوا من نقله معهم • واخيرا وصل عمرو الى الفسطاط بعد هذه المحاولة غير الناجحة لالقاء الرعب فى قلوب أهل الدلتا وذلك قبل أن يبدأ فيضان النيل فى ذلك العام •

وتقيم هذه العملية الفاشلة دليلا جديدا على الحقيقة التى سبق لى أن أكدتها وهى أن نجاح العرب كان كاملا فى السهول المكشوفة دائما • ولعل من الطريف أن يفكر المرء عما كان فى وسع الروم أن يفعلوه فى

مصر • فالحروب لا تكسب عادة الا بالهجوم ، وكان من الحتمى عليهم فى المدى الطويل أن يشتبكوا فى معركة مع العرب ليهزموهم اذا أرادوا النصر •

أما اذا رفض العرب أن يحاربوا الا فى الصحراء فان من الحتمى على الروم أن يحاربوهم فيها أيضا • أما فى المرحلة التى وصلنا اليها الآن فيبدو لى أن الروم قد آثروا البقاء فى موقف الدفاع ولم يكن فى وسع العرب أن يحاربوا فى الدلتا كما كان الروم عاجزين عن الحرب فى الصحراء ومن هنا تنبثق الضرورة فى أن يظل الروم داخل الدلتا وحدها للدفاع عنها ، وأن يحتفظوا بمواقعهم فى المنطقة المروية المزروعة ، وكان عليهم أن يشرعوا فورا فى تحصين المدن والقرى ابتداء بتلك القريبة من حدود الصحراء • وكان عليهم أن يسلحوا ويدربوا سكان مدن الدلتا الواقعة على أطراف الصحراء وان يحثوهم على الدفاع عن أنفسهم بمساعدة جماعات صغيرة من الجنود النظاميين ترابط هنا وهنالك ، وكان عليهم أن يحشدوا أرتالا متحركة من قواتهم البيزنطية الى الوراء فى المناطق الوسطى حتى اذا ما شن العرب أية غارات كان فى مكنتها أن تنتقل الى المنطقة المهددة لصد الهجوم • وكان فى مكنتهم أن يقولوا لسكان المناطق الأمامية أن عليهم أن يصمدوا بعض الوقت اثنتى عشرة ساعة على أكثر تقدير عندما يتعرضون للهجوم حتى تصل اليهم النجدات •

ويحب العرب التنقل فى الصحراء والقتال فيها ، ولكنها خالية من أى طعام • وعليهم أن يعتمدوا على المناطق المزروعة فى الحصول على طعامهم وهكذا كلما كان الدفاع عن المناطق المزروعة أكثر جدية وفعالية كلما كانت الصعوبة التى يواجهها العرب فى الحصول على مؤنهم أقوى وأشد وكان فى وسع البيزنطيين عن طريق مثل هذا الدفاع النابض بالحياة أن يكسبوا وقتا يعدون فيه جيوشا جديدة لخوض القتال استعدادا للمعركة الحاسمة •

ولقد سبق لنا أن رأينا العرب يتعبون أشد التعب من القتال فى جبال فلسطين وسوريا ولكن دلتا النيل كانت أكثر مشقة عليهم من الاراضى الجبلية • ولكن من الأسهل علينا بالنسبة الى المعلومات المتوافرة لدينا الآن أن نظهر من الحكمة والتعقل ما لم يتيسر للعرب آنذاك • وقد تكون الفكرة واضحة اذا مافكر فيها المرء ، ولكن الى أن يتحقق ذلك فان أكثر العقول فطنة وذكاء تؤثر استعمال الاساليب المألوفة قرنا بعد قرن •

ولا ريب فى أن فكرة البيزنطيين عن الحرب كانت مبنية على أساس

المعارك المتلاحمة بين الجيوش وليس في وسعنا أن نلومهم الآن لانهم لم يفكروا بأساليب أخرى • وفكرة المقاومة الشعبية المنظمة كطريقة مشروعة من طرق الدفاع ، فكرة مألوفة لنا اليوم أكثر مما كان يالفها البيزنطيون في أيامهم • ولا ريب في أن الصـــعوبة الرئيسية التي كانت تقوم أمام محاولة من هذا النوع هي ما يحس به الأهلون من مقت للبيزنطيين لما اقترفوه من اضطهاد ديني في عهد المقوقس • ولو كان المصريون على ولاء للامبراطورية الرومانية لاختلف الوضع تمام الاختلاف •

❋ ❋ ❋

ولنترك عمرو بن العاص يرابط ثانية في حصن بابليون في أغسطس عام ٦٤١ ، ولنلتفت بأنظارنا الى ماكان يدور في القسطنطينية في تلك الآونة •

سبق لنا أن ذكرنا كيف غادر هرقل سوريا بعد كارثة اليرموك في عام ٦٣٦ ، ويبدو أن الامبراطور لم يعد فورا الى عاصمته بل أقام بعض الوقت في كيليكية ، حيث كان يعاني كما يبدو بعض الانحطاط العقلي وفي وسعنا أن نطلق على الحالة التي أصابته اسم الانهيار العصبي ، ويبدو أنه ابل أخيرا من مرضه واستأنف تصريفه لشئون دولته • لكن المصائب مالبثت أن توالت على جيوش الامبراطورية • اذ استسلمت القدس وتبعتها انطاكية فقيسارية ولحق بها وصول العرب الى مصر •

ويظهر أن المصائب لاحقته حتى في صميم أسرته • وهو في سن شيخوخته بعد أن كان لسنوات خلت بطل عصره • فعندما توفيت زوجته الأولى يودوكيا قبل بضع سنوات راح يتحدى قوانين الكنيسة ومعارضة بطريق القسطنطينية ويتزوج من ابنة أخته ، مارتينا ، وعندما بلغ سن الشيخوخة ، أخذ ضميره يعذبه على هذا الزواج الخاطىء الذي اقترفه • وكان ولده قسطنطين ، الابن الأكبر للامبراطورة يودوكيا قد تسمى بلقب أوغسطس وبلغ الآن التاسعة والعشرين من عمره • وأصبح في سن تمكنه من تولي مسئولية الشئون العامة • لو لم يصب بمرض عضال ، يعتقد أنه السل • واغتنمت مارتينا فرصة مرض قسطنطين فأخذت تلحف على زوجها باشراك ولدها منه هيراقليوناس في ولاية العهد •

واستدعى مجلس الشيوخ الى الانعقاد في الرابع من يوليو (تموز) عام ٦٣٨ ، ليصدق في القصر الامبراطوري على الشراكة المتساوية في العرش بين قسطنطين ابن يودوكيا وولدها هيراقليوناس الذي لايتجاوز الثـلاثة عشر ربيعا •

وتوفى الامبراطور الشيخ هرقل كما ذكرنا سابقا في الحادى عشر من فبراير (شباط) عام ٦٤١ ، وهو فى السادسة والستين من عمره ، فى الوقت الذى كان فيه عمرو بن العاص مازال فارضا حصاره على حصن بابليون فى مصر ، وحاولت مارتينا فى بادىء الامر أن تغتصب السلطة لنفسها • ولكنها اضطرت تحت وطاة المعارضة الشعبية الى الانسحاب من مسرح الأحداث العلنى ، والى الاقتناع بتأييد ادعاءات ولدها هيراقليوناس عن طريق الدسائس والمؤامرات ، ولم يقدر لقسطنطين على أى حال أن يظل الى أمد طويل عقبة فى طريق تحقيق مطامحها • فقد مات بعد حكم لم يطل أكثر من مائة وثلاثة أيام فى الخامس والعشرين من مايو (آيار) عام ٦٤١ متأثرا من نوبة سعال أدت الى نزيف داخلى والى تقيؤه الدم • وكان قبل موته قد استدعى المقوقس من منفاه وثيودور من الاسكندرية ليشاورهما فى وضع مصر •

ولم تكد تعلن وفاة قسطنطين حتى تمكنت مارتينا من اعلان ولدها هيراقليوناس البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، امبراطورا أوحد للامبراطورية • ولكن قسطنطين كان قد خلف ولدين أكبرهما يدعى كونستانس ، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره • وكانت مارتينا الامبراطورة الخاطئة ، مكروهة من شعب بيزنطة ، الذى ثار عليها • وزحف فالنتاين قائد جيوش الروم فى الأناضول على العاصمة وتوج بالقوة كونستانس شريكا فى الحكم الامبراطورى لهيراقليوناس •

واعيد المقوقس فى غضون ذلك الى مصر • ويبدو أن مارتينا ، وقد انهمكت فى الدسائس لتنصيب ولدها امبراطورا ، كانت راغبة فى انهاء الحرب مع العرب وتسليمهم مصر • ومن المعقول أن يكون المقوقس نفسه قد أقنع مارتينا وهيراقليوناس الشاب بضرورة تسليم مصر اذ أن الحماسة التى أبدوها فى تنفيذ هذه الخطة ، تشير بوضوح الى أنه كان أكثر من مجرد منفذ للتعليمات الرسمية •

ولقد سبق لنا أن رأينا ، أنمثل هذا التسليم لم يكن أمرا حتميا • فلقد كان فى وسع الاسكندرية أن تصمد سنوات طويلة ، وكان هرقل قبل موته قد أشرف على اعداد نجدات جديدة كان قد أعلن عزمه على قيادتها بنفسه لاستعادة مصر من العرب • ولكن الخلافات فى بلاط القسطنطينية انتقلت الى الاسكندرية ، اذ انقسمت النجدات التى أرسلت اليها بين مؤيد لمارتينا ومؤيد لاولاد قسطنطين • وسرعان مابدأت الاصطدامات فى شوارع

الاســـكندرية بين مؤيدى الفريقين المتنـــافسين على الســـلطان فى القسطنطينية ٠

ونزل المقوقس فى الاسكندرية فى الرابع عشر من سبتمبر (أيلول) عام ٦٤١ بعد أن أعيد تعيينه حاكما لمصر وبطريقا لها ٠ وقد استقبل عند وصوله استقبالا شعبيا حماسيا ٠ ولما كان فى السنوات العشر السابقة من حكمه لمصر قد كرس نفسه لاضطهاد الاقباط فان فى وسع المرء أن يفترض من هذا الاستقبال الحماسى أن غالبية أهل الاسكندرية كانت تمت الى الكنيسة الارثوذكســـية التى يتولى هو رياســـتها وبوصفه بطريق الاسكندرية ٠ ومثل هذا الوضع متوقع ولا شك اذ أن الاسكندرية كانت بوصفها عاصمة مصر ، مكتظة ولا ريب بالاغريق الذين كانوا يملأون قيسارية والقدس فى فلسطين ٠ وتوقع الناس نظرا لوجود المسلمين خارج الأسوار وانتشار المصادمات الحزبية فى شوارع المدينة أن يؤدى مثول هذا الحاكم القوى فى وسطهم الى تحسن فى أوضاع الأمن والى ثقة الجمهور بالحكم ٠ ولو صح مثل هذا الافتراض ، فانه يقـــوم ولا ريب على تفكير خاطىء اذ انهم لم يكونوا يدرون أن المقوقس لم يعد اليهم ليدافع عنهم ، بل ليسلمهم الى العرب ٠

وكانت الاسكندرية والحق يقال مدينـــــة دوليـــة تفتقر الى روح الانسجام بين أهلها ولقد كانت كغيرها من العواصم ، مستقرا للاغراب منذ أكثر من ألف عام ٠ فاليهود فيها يؤلفون جالية كبيرة العـــدد وافرة الثراء ٠ وفى شوارعها يختلط الاغريق بالايطاليين واليهود والاقبـــــاط والزنوج الافريقيين ٠ ولم تكن بذور الخلاف التى تفصل بين الكنيستين الارثوذكسية والقبطية هى المصدر الوحيد للفرقة والفتنة ٠ وكان الحزبان الازرق والاخضر الموجودان فى القسطنطينية متســـاويين فى القـــوة فى الاسكندرية وبالنظر الى غياب تيودور القائد العام فى القسطنطينية فقد اقتسم القائدان العسكريان المتنافسان دومنيتيان ومينوس ، ولاء الجنود الزرق والخضر ، وأخذ الفريقـــان يشـــتبكان فى الشوارع وينهمكان فى أعمال النهب والسلب ٠

ولم يمض على وصول المقوقس أكثر من شهر الى الاسكندرية حتى كان يغادرها فى النصف الثانى من شهر اكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٤١ قاصدا حصن بابليون لمقـــابلة عمرو بن العـــــاص وهو يعتزم تسليم الاسكندرية اليه ، ومعها بقية ارجاء مصر ٠ ويبدو أنه كتم نياته عن كل من فى الاسكندرية ، اذ ظل الناس فيها يعتقدون أنه انما جاء لانقاذهم وكان قد

تلقى تخويل الامبراطور له بتسليم الاسكندرية ·· ولكن ترى من الامبراطور ؟ أهو هيراقليوناس البالغ من العمر خمسة عشر عاما أو كونستانس البالغ الثانية عشرة من عمره ، أو مارتينا الامبراطورة الخاطئة المغرمة بالدسائس ؟

وكان عمرو بن العاص قد عاد الى حصن بابليون بعد زحفه غير الموفق نسبيا الى شمال الدلتا · وبدا أن مادان له من مصر لم يعد نصفها ولو قدر لهرقل العجوز أن يعيش مدة أخرى وان ينفذ مشروعه بالنزول شخصيا فى الاسكندرية على رأس جيشه الذى أعده ، لطال أمد المقاومة الى أجل غير مسمى على الغالب · ولكن المقوقس جاء موفدا لغاية أخرى · وقد رحب عمرو بالمقوقس ترحيبا حارا · وكان قد انقضى نحو عام تقريبا منذ فاوضه على عقد معاهدة الصلح الاولى التى كان هرقل قد رفضها ساخطا ومزقها · ويقال ان المقوقس بادر قائد المسلمين هذه المرة بقوله : « يبدو أن الله قد منحكم هذه البلاد » ·

وتم فى الثامن من نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٤١ ، التوقيع على معاهدة بين عمرو بن العاص والمقوقس · وقد نصت المعاهدة على أن يدفع أهل مصر الجزية أسوة بأهل سوريا وفلسطين والعراق · ويبدو أنه فرض على كل رجل أن يدفع دينارين بالاضافة الى الضرائب العينية من قمح وزيت وملابس لجنود المسلمين · وتقرر أن تعقد هدنة لمدة أحد عشر شهرا تنتهى بنهاية سبتمبر (أيلول) عام ٦٤٢ ، على الا يهاجم العرب الاسكندرية فى غضونها ، وأن يجلو الروم ابانها بطريق البحر حاملين معهم ما يملكونه واشترطت المعاهدة ألا يعود الروم الى مصر ، وألا يحاولوا العودة اليها وألا يضع المسلمون أيديهم على أية كنائس جديدة وألا يتدخلوا فى حرية العبادة بالنسبة الى المسيحيين · وقررت المعاهدة أن يظل اليهود فى الاسكندرية · وان يصبح أهل مصر ، بدفعهم الجزية للمسلمين ، تحت حماية جيوشهم(١) ·

---

(١) تختلف روايات المؤرخين العرب تمام الاختلاف عن رواية المؤلف ، فهى لاتتحدث عن سفر المقوقس الى القسطنطينية ، ولا عن رجوع عمرو بن العاص الى اليونة (بابل) ولننقل هنا ماقاله البلاذرى : « سار عمرو حتى انتهى الى الاسكندرية ، فوجد أهلها معدين لقتاله ، الا أن القبط يحبون الموادعة ، فأرسل اليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة الى مدة . فأبى عمرو ذلك فأمر المقوقس النساء ان يقمن على سور المدينة مقبلات وجوههن الى داخله . وأقام الرجال في السلاح مقبلين بوجوههم الى المسلمين ليرهبهم بذلك . فأرسل اليه عمرو : انا قد رأينا ما صنعت . وما بالكثرة غلبنا من =

ويضيف الطبرى الى المعاهدة بندا طريفا آخر ، فقد ذكر انه نص على ألا يسمح للنوبيين ، والمقصود بهم السودانيين على الغالب ، بغزو البلاد وهناك من ذكر أيضا بأن المعاهدة تضمنت بندا آخر يشترط عدم زيادة الجزية أو الخراج فى المستقبل •

وأوفد عمرو بن العاص بعد انتهاء المفاوضات رسولا الى الخليفة فى المدينة ينقل اليه النبأ •وتقول الروايات ان الرسول طلب من عمرو كتابا يحمله الى الخليفة فرد هذا قائلا : وما شأنى بالكتاب ؟ أو لست عربيا يستطيع أن ينقل شفاها كل مارآه بعينيه ؟ كانت هـــذه هى الاساليب البعيدة عن الرسميات ، التى استعملها الخلفاء الاول وقادتهم العسكريون فى اقامة امبراطوريتهم العظيمة • ووصل الرسول الى المدينة بعد ظهر ذات يوم ، فأناخ ببعيره أمـــام المسجد الذى يطل باب الخليفة على باحته وخرجت فتاة صدفة من البيت فرأت وعثاء السفر على الرسول وبعيره فسألته عن أمره ، ورد الرجل بانه رسول من عمرو بن العاص • وعادت الفتاة مهرولة الى الدار ، ولم تمض ثوان حتى كانت تخرج ثانية لتستدعى الرسول الى مقابلة الخليفة ، واستعلم عمر بن الخطاب من الرسول عن كل شىء •• « فرد هذا •• أنباء طيبة يا أمير المؤمنين •• لقد فتح الله لنا الاسكندرية » •

وأسرع الخليفة البسيط المتواضع الى فنـــاء المسجد • وطلب الى المؤذن أن يؤذن بالناس داعيا اياهم الى الصلاة • وبعد أن روى الأنباء السارة للمسلمين ، أقيمت الصلاة ، وعاد عمر الى بيته المتواضع ، حيث دعا الرسول الذى يعلوه غبار السفر الى تناول الطعام معه وهو مؤلف من الخبز والزيت والتمر • وبمثل هذه الطريقة البسيطة نقلت مثل هذه الأنباء العظيمة ، واستقبلت فى العاصمة •

= غلبنا . لقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان . فقال المقوقس لاصحابه : قد صدق هؤلاء القوم . اخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية . فنحن اولى بالاذعان . فاغلظوا له القول ، وابوا الا المحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا وحاصروهم ثلاثة اشهر ، ثم ان عمرا فتحها بالسيف وغنم ما فيهـا ، واستبقى اهلهـا ولم يسب وجعلهم ذمة كأهل اليونة ، فكتب الى عمر بالفتح مع معاوية بن جـــدع الكندى ، وبعث اليه معه بالخمس ، ويقال ان المقوقس صالح عمرا على ثلاثة عشر الف دينار على ان يخرج من الاسكندرية من اراد الخروج ، ويقيم بها من أحب المقام وعلى ان يفرض على كل حالم من القبط دينارين . فكتب لهم بذلك كتابا .

(المعرب)

وكان المقوقس قد عاد في غضون ذلك الى الاسكندرية • وعلى الرغم من أن ثيودور كان قد عاد الى المدينة ، الا أنه لم يرافق البطريق فى رحلته الى بابل ، وكان ثيودور قد خسر كل معركة خاضها مع العرب ، الا أن مما يستحق الذكر بأنه في هذه المرة ، وبعد موت هرقـل ، كان يلحف بوجوب استمرار المقاومة فى مصر • ومن هنا تتبلج الحقيقة فى أنه لم يكن موثوقا لدى المقوقس الذى أخفى عنه ولا ريب أنه ذاهب الى بابل للتوقيع على صلح مع العرب • وعندما عاد البطريق أفلح كما يبدو فى اقناع تيودور باستحالة المقاومة أمدا آخر ، مؤكدا له ولا ريب ، بأن تعليماته التى حملها من الامبراطور تأمره بالتوقيع على الاستسلام •

وعندما نمى خبر الاستسلام الى أهل الاسكندرية استبدت بهـم موجة عارمة من السخط وهاجت الجماهير وماجت وهرعت تذرع الشوارع الى القصر ، معتزمة الاقتصاص من البطريق ، الذى استقبلته قبل شهرين استقبال الفاتحين معتبرة اياه منقذها من العرب • وظلت حياة المقوقس معرضة للخطر بعض الوقت • ولكنه مالبث وبصورة متدرجة ، أن أفلح فى اقناع معارضيه بحتمية الاستسلام• وقال لهم ان العرب قوم لايقاومون وان الله قد شاء أن يمنحهم أرض مصر ، مكررا ما قاله فى هذا الصدد نفسه لعمرو بن العاص • وسالت الدموع على وجنتيه • وهو يؤكد لهم أنه فعل لهم كل مافى وسعه • وان غايةالمحاولات التى بذلها انقاذهم وانقاذ أولادهم وكنائسهم من الموت والدمار • وتمكن بهذا الاسلوب الخادع من تهـدئة الجماهير التعسة الحظ التى خانها وخدعها بمكر ودهاء(١) •

وليس فى امكاننا حتى الآن • التـــأكد من الدوافع التى حملت المقوقس على هذا السلوك • فهناك من يقول بأنه كان رجلا ضعيفا عجوزا مسكينا •ولكن من الصعب علينا أن نصدق هذا القول ، على ضوء مارأيناه منه من تصميم وقسوة فى اضطهاد الاقباط فيما مضى • وهناك من تصور بأن المقوقس كان يعتقد نفسه صديقا شخصيا لعمرو بن العاص وكان يأمل فى أن يظل فى منصبه كبطريق لمصر فى ظل الحكم الاسلامى ، ولكن اذا كانت مثل هذه المطامع قد ساورته فعلا ، فانه ولا ريب لم يحقق منها شيئا فقد مات فى الواحد والعشرين من مارس (آزار) عام ٦٤٢ أى قبل أن يحتل العرب المدينة •

---

(١) يبدو المؤلف هنا على حقيقته بعيدا عن الموضوعية وكارها للعرب والمسلمين .. ينفث « سموم حقده بمثل هذه اللغة السافرة التى استعملها • (المعرب)

وأقر هيراقليوناس فى القسطنطينية معاهدة الصلح هذه فى غضون ذلك وكان اقراره من آخر الاعمال التى قام بها ، اذ خلع عن العرش فى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٤١ نتيجة انقلاب عسكرى قام به أنصار كونستانس ، وقام الانقلابيون بقطع لسان مارتينا وجدع أنف هيراقليوناس ثم أبعد وهما عن العاصمة الى المنفى بين لعنات رعاياهما السابقين (١) ٠

وكان عمرو بن العاص فى فترة ترقب استسلام الاسكندرية ٠ قد دأب على انشاء مدينة عسكرية لقواته خارج اسوار بابل ، فقد رأى أن الاسكندرية بوصفها ميناء على البحر الذى يسيطر عليه اسطول الروم ، لم تكن صالحة كعاصمة عربية ٠ وحرى بنا أن نذكر مدى اصرار عمر بن الخطاب دائما على أن تظل أظهر الجيوش العربية فى البلاد المحتلة مرتكزة الى الصحراء ولم يكن عمر ليقبل أبدا أن تفصل دلتا النيل بين الحامية العربية فى مصر وبين الجزيرة العربية ٠ أما بالنسبة الى بابل (اليونة) فلم تكن هناك جبال أو مياه تفصل بينها من ناحية وبين الصحارى العربية

---

(١) تختلف رواية المؤلف من جديد عن الروايات العربية . اذ تقول ان عمرو بن العاص استخلف على الاسكندرونة بعد فتحها عبد الله بن حذافة في رابطة من المسلمين ثم انصرف الى الفسطاط . وكتب الروم الى قسطنطين بن هرقل ، وكان الملك يومئذ ، يخبرونه بقلة عدد المسلمين عندهم . وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية ، فبعث رجلا من اصحابه يقال له منويل في ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة . فدخل الاسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب فنجا ، وذلك في سنة خمس وعشرين وبلغ عمرا الخبر فسار اليهم في خمسة عشر الفا ، فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيثون فيها يلى الاسكندرية من قرى مصر فسادا فلقيهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون متترسون . ثم صدقوهم الحملة ، فالتحمت بينهم الحرب ، فاقتتلوا قتالا شديدا . ثم ان اولئك الاروام ولوا منهزمين . فلم يكن لهم ناحيــة ولا مرجــة دون الاسكندرية . فتحصنوا بها ونصبوا العرادات ، فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال : ونصب المجانيق فأخرب جدرها ، والح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية . وهرب بعض رومها الى الروم ، وقتل عدو الله منويل وهدم عمرو والمسلمون جدار الاسكندرية وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك .

ويقول البلاذرى : ووضع عمرو على أرض الاسكندرية الخراج ، وعلى أهلهــا الجزية ، وروى أن المقوقس اعتزل أهل الاسكندرية حين نقضوا ، فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الاول . وروى أيضا أنه كان قد مات قبل هذه الغزوة .

هذه روايات التاريخ العربى . ويبدو أن المؤلف آثر أن يتجاهل قصة النقض وفتح الاسكندرية عنوة للمرة الثانية لانها تهدم له كل نظريته المضللة التى أقامها والتى حاول أن يظهر فيها أن الاسكندرية قد سقطت في ايدى العرب نتيجة ماأسماه بخيانة المقوقس لا نتيجة انتصار عسكرى حققه العرب بشجاعتهم . وهذا هو عين التضليل .

(المعرب)

المضيافة للعرب • واطلق اسم الفسطاط على المدينة العسكرية العربية الجديدة ، وتقوم مدينة القاهرة الحالية وضواحيها الآن على آثار مدينة ممفيس القديمة • ومدينة مصر التى بنيت فى القرن السابع ، والفسطاط وقلعة بابل وميدان معركة هليوبوليس •

ويقوم الدليل على أن انهزامية المقوقس لم يكن لها ما يبررها ، هذا اذا شئنا ألا نسميها خيانته المرسومة (١) من الحقيقة الواقعة ، وهى أن بعض مدن الدلتا رفضت أن تفتح أبوابها للمسلمين صلحا ، حتى بعد ابرام هيراقليوناس وعمر بن الخطاب لمعاهدة الصلح• ولقد كانت مقاومتها صلبة رغم وضعها اليائس الذى نتج عن تخلى البيزنطيين عنها ، حتى أن اخضاع شمال الدلتا استغرق من العرب عدة أشهر بين نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٤١ ويوليو (تموز) عام ٦٤٢ • فلقد كانت المنطقة بما ينتشر فيها من أقنية الرى التى لاتعد ولا تحصى شاقة على عرب الصحراء • وعلى الرغم من كل هذا فمن الحرى بنا أن نذكر ، أن الأقباط حاربوا بكثير من العناد والصلابة حتى فى ظروفهم تلك التى لم تكن تحمل لهم أى أمل بالنجاح •

وفى وسعنا أن نستخلص من هذه العوامل كلها ، دروسا عدة ، ذات علاقة ماسة بأحداث عصرنا • أول هذه العوامل أن المصريين كمحاربين لم يهزموا الا بسبب افتقار قادتهم الى الكفاية (٢) واذا ماقارناهم بالعرب

---

(١) يصر المؤلف من جديد على نظريته التى تتعارض مع كل أحداث التاريخ العربى ومع روايات المؤرخين . لغاية في نفس يعقوب ، ستظهر واضحة في الفقرة التالية وهى رغبته في الفصل بين العرب والمصريين من ناحية والحط من شأن شجاعة العرب من ناحية أخرى . (المعرب)

(٢) يحاول المؤلف هنا أن يضلل قراءه ، وأن يصور لهم أن الحرب كانت في مصر بين العرب من ناحية والمصريين من ناحية اخرى . مع أن الحقيقة التاريخية التى لاتقبل النقض ولا الجدل هى أن الحرب كانت بين العرب والروم ، لا بين العرب والمصريين أى الاقباط ، ولعل من نافلة القول أن يؤكد هنا أن الروم كانوا مستعمرين لمصر . لا من أهلها ، وان الاقباط كانوا يكرهونهم أشد الكره . لما اتبعوه من سياسات الاضطهاد الدينى التى اعترف بها المؤلف . ولهذا كان المصريين أى الاقباط وقفوا موقفا سلبيا من الروم عند غزو العرب للبلاد ، وهو مايؤكده جميع مؤرخى العرب .

أما القول بأن القادة المصريين كانوا يفتقرون دوما الى الكفاية ، فتضليل وتشويه لكل حقائق التاريخ . اذ ان الجيوش المصرية في جميع العهود العربية منها وقبل العربية . قامت بفتوحات عسكرية عظيمة دللت على كفاية قياداتها ، وحسن بلائها . لكن المؤلف يريد أن ينفث سموم حقده الاسود على المصريين ، ومن هنا نراه لا يتورع حتى عن اختلاق الاكاذيب ، وقلب الحقائق التاريخية . (المعرب)

وجدنا أنهم كانوا بطيىء الحركة مفتقرين الى المبادرة . أما اذا كان المصريون مرابطين فى قواعد عسكرية منيعة ، فانهم يظهرون شجاعة فائقة واصرارا كبيرا على الدفاع . وهم يرفضون التسليم حتى وان يأتوا فى وضع يائس . وهناك مفارقة عجيبة بين العرب والمصريين فى هذه النواحى فالجنود العرب يقظون ، سريعو الحركة ، على استعداد للحسم فى المواقف وتولى زمام المبادرة ، وهم يكرهون الجمود والبقاء فى مركز ثابت ، وهذه الفروق واضحة اليوم كما كانت واضحة فى القرن السابع . مما يؤكد الاختلاف العنصرى بين الفريقين نظرا لاختلاف خصائصهما ومن هنا يكون الميل العصرى الى اطلاق صفة العروبة المشتركة عليهما مجرد تضليل(١) .

وتميل حقيقة اعداد السكان الى تأكيد هذه النتائج التى توصلت اليها . فهناك اليوم فى حوض النيل الصغير عدد من السكان أكثر بكثير من عددهم فى الجزيرة العربية الفسيحة الأرجاء . لاريب فى أن عدد سكان مصر فى القرن السابع كان يربو على عدد سكان الجزيرة كلها . ومع ذلك فلقد كان هؤلاء السكان القلة يشتبكون فى حروب فى وقت واحد فى مصر وفارس والعراق وسوريا وفلسطين . وسرعان ماقدر لهم أن ينتشروا فى شمال افريقيا أيضا ، وفى الاندلس وفرنسا ، وهكذا فان عدد سكان الجزيرة العربية أيام الفتوحات الاسلامية ماكان ليترك هذا الأثر الكبير فى سكان بلد كمصر . يضاف الى هذا أن العرب الذين هاجروا فى تلك

---

(١) ليس هناك من هو أكثر تضليلا من المؤلف نفسه . لقد وضع نصب عينيه لغايات استعمارية تدل عليها طبيعة العمل الذى قام به ثلاثين عاما في الوطن العربى ، وحقده الاستعمارى الدفين على مصر ورائد العروبة جمال عبد الناصر ، أن يفصل بين العرب وبين المصريين « فقلب الحقائق التاريخية وشوهها ليصل منها الى استنتاجات خاطئة يحاول أن يدعمها بأدلة أكثر منها خطأ . فهو يجسم ما يسميه بالفروق بين خصائص العرب وخصائص المصريين ويهول فيها » ناسيا أن مثل هذه الفروق ، موجودة بين أهل لندن مثلا واهل مانشستر . او بين اهل كنت وأهل ويلز في بلاده ، أو بين أهل بافاريا واهل روسيا في المانيا ، ولو جانب المؤلف سبيل الهوى والغرض لحظة واحدة ، لادرك أن العوامل الجغرافية وعوامل البيئة ، والطبيعة تلعب دورها في خلق مثل هذه الفروق بين أبناء الشعب الواحد . فاهل اليمن مثلا يختلفون بعض الاختلاف عن اهل الحجاز ، وهؤلاء يختلفون عن اهل نجد . مع أنهم جميعا من أصل عربى واحد ، لايستطيع المؤلف ، حتى ولو أوتى من القدرة على التضليل وقلب الحقائق طاقات فذة أن ينكره .. لكن هذا القول الذى جاء به المؤلف نغمة استعمارية ممجوجة كثيرا مارأيناها في كتب غيره من المؤلفين الغربيين وفي صحافة الغرب ووسائل أعلامه .

(المعرب)

الايام كانوا جميعا من البدو ، الذين لايستسيغون هذه التربة الغرينية العميقة الموجودة فى مصر ، ولا يستطيبون قنواتها المائية التى لاتعد ولا تحصى أو حرارتها المحرقة المشبعة بالرطوبة • وقد اتجهت هذه القبائل فى حالات معينة الى الجنوب نحو الصحراء باتجاه السودان ، أو عبرت النيل لتهاجر غربا عبر الصحراء الى ليبيا ، وقد يكون من المتعذر اليوم على بدوى الجزيرة العربية أن يفهم لهجة أهل الدلتا • ولكنه يرى فى لهجة أهل ليبيا وشمال السودان كثيرا من التعابير الشائعة عند أهل قبيلته فى الجزيرة العربية(١) •

وليس من شك فى أن المنبع الرئيسى لاختلاط الدم العربى فى مصر بعد الفتح انما نشأ عن حامية الفسطاط • وكان فى اســتطاعة الجنود العرب جريا على مألوف تلك الايام أن يتزوجوا أكثر من واحدة من المصريات وأن يقتنوا مالا عد له من الجوارى • وليس ثمة من شــك فى أن الذرية الناجمة عن هذه الاوضاع تدعى الاصل العربى لانتمائها الى آباء عرب وتعود هذه الذرية فتبنى بزوجات من المصريات ، ولا تمضى عدة أجيــال حتى يكون نسل الصحابة قد أصبح مصريا صميما •

ويؤكد المؤرخون بالاضافة الى كل هذا أن عددا من الاقباط قرر عند ابرام صلح الاسكندرية التحول الى الاسلام ، رغبة منهم فى الخــلاص من الجزية والضرائب الثقيلة أولا والوصول الى مركز المساواة مع الفــاتحين المنتصرين فى الميدان الاجتماعى ، وقد مال المؤرخون الى اعتبار هؤلاء من العرب ، وهو خلط فكرى بين العنصر والدين •

وفتحت الاسكندرية فى سبتمبر عام ٦٤٢ آبوابها للعرب طبقــا للاتفاق • وانتهت الى الأبد سيطرة البيزنطيين على مصر •

***

وكان من النتائج البارزة لفتح مصر على يد عمرو بن العاص وصول رسالة من الخليفة الى القائد الظافر ، يقول فيها أن آلانباء التى وصلت الى

---

(١) استنتاجات خاطئة تقوم على فرضيات سخيفة ، والا متى كانت الاختلافات في اللهجات دليلا على خلاف في العنصر . لقد كانت لكل قبيــلة من القبائل العربيــة ومازالت لهجتها الخاصة بها ، كما أن سكان كل مدينة يختلفون في لهجتهم من سكان مدينة مجاورة في وطن واحد . ولعل المؤلف لاينسي وان تناسي ، ان هذا الاختلاف في اللهجات موجود في بلاده انجلترا ، بين مقاطعة وأخرى ، بل وبين مدينة ومدينة .
(المعربة)

المدينة تفيد أنه ، أى القائد أصبح ثريا يملك المتاع والرقيق والآنية والحيوان مما لم يكن له عندما ولى مصر • ورد عليه عمرو قائلا : ان أرضنا أرض مزروع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج اليه لنفقتنا ، فكتب اليه الخليفة الصلب يقول : انى قد خبرت من عمال السوء ماكفى وكتابك الى كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق ، وقد سؤت بك ظنا • وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فاطلعه طلعة ، وأخرج اليه مايطالبك واعفه من الغلظة عليك ، فانه برح الخفاء • وهكذا نرى الخليفة يصادر قسما كبيرا من ثروة القائد الظافر وهو فى أوج انتصاراته وليس ثمة فى التاريخ احداث كثيرة تماثل هذا الحادث البارز •

وعندما جاء محاسب الخليفة محمد بن مسلمة • ليقاسم عمرا ثروته قال عمرو كما تذكر الروايات •• ان زمانا عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة — يعنى عمر بن الخطاب — لزمان سوء • لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج • فقال محاسب الخليفة : « مه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكرهه • ألفيت معتقلا عنزا بفناء بيتك يسرك غزرهـا ويسوؤك بكاؤها » فقال عمرو •• « أنشدك الله ألا تخبر عمر بقولى ، فان المجالس بالامانة» • فرد محمد بن مسلمة قائلا : «لاأذكر شيئا مما جرى بيننـا وعمر حى» •• ولا ريب فى أن هذا الحوار الممتع القصير الذى دار قبل نحو من ألف وثلثمائة عام • يعتبر نموذجا للنكتة العربية الساخرة • ولا ريب فى أن ماينطوى عليه من وضوح يقنعنا كل القناعة بصدقه •

ويميل كل عصر من العصور الى أن ينسب الى العهود التاريخيـة الاخرى العقلية الخاصة به • فلقد نسب أسلافنا من ذوى التفكير الدينى، الفتوحات العربية الى الحماس الدينى الاسلامى • أما فى عصرنا المـادى الحاضر ، فقد أصبح من المألوف أن تنسب مثل هذه التفجرات للطاقة ، إلى الدوافع الاقتصادية ، وإلى ضغط المجاعة فى الجزيرة العربية • ولكن هذا الحادث وحده يعتبر كافيا لنفى مثل هذا الافتراض • فلو قبلنـا بالنظرية القائلة بتعلقات خالد بن الوليد وعمرو بن العـاص الدنيوية ، فما الذى يدفع مثل هذين القائدين الظافرين ، وهما على رأس جيشهمـا إلى تسليم ما يملكانه من ثراء دون أى تأفف أو تذمر ، الى رسول فرد أعزل أوفده الخليفة العارى القدمين الرابض بعباءته المرقعة فى المدينة ؟ ليس ثمة من خلاف فى أن هناك ردا واحدا على هذا السؤال • انها المعنويات العظيمة التى ســادت المجتمع كله آنذاك ، هى التى مكنت عمر بن الخطاب من سلوك مثل هذا السلوك الصارم مع قادته العسكريين وولاته • وعندما

نقارن هذا الوضع بما كان عليه بلاط القسطنطينية من تنابذ وأنانية وتقسم الى أحزاب ودسائس تحاك وراء الكواليس تتبين لنا الحقيقة الناصعة ، فى أسباب انتصارات العرب العظيمة .

تواريخ بارزة

احتلال نيكيو (زاوية راسين)	١٣ من مايو (ايار) ٦٤١
موت الامبراطور قسطنطين أكبر أبناء هرقل فى بيزنطة	٢٥ من مايو (ايار) ٦٤١
انسحاب الروم الى الاسكندرية	يوليو (تموز) ٦٤١
عودة المقوقس بطريق الاسكندرية	١٤ من سبتمبر (أيلول) ٦٤١
اجتماع المقوقس بعمرو بن العاص فى بابل وتوقيع اتفاق التسليم	٨ من نوفمبر (تشرين الثانى) ٦٤١
نفى مارتينا وهيراقليوناس	نوفمبر (تشرين الثانى) ٦٤١
موت المقوقس	٢١ من مارس (آذار) ٦٤٢
العرب يحتلون الاسكندرية .	سبتمبر (أيلول) ٦٤٢

شخصيات مشهورة

عمرو بن العاص	القائد العام فى مصر
ثيودور	القائد العام للروم

خلفاء هرقل

الامبراطور قسطنطين	ابن هرقل
الامبراطورة مارتينا وولدها هيراقليوناس	
الامبراطور كونستانس	نجل قسطنطين

فتح الفتوح

« يطرد الرب جميع هؤلاء الامم من أمام وجوهكم فترثون امما أكثر وأعظم منكم ..

لا يقف انسان في وجوهكم ، فإن الرب الهكم يلقى ذعركم ، ورهبتكم على كل الارض التى تطأونها كما وعدكم » .

= سفرتثنيه الاشتراع = الفصل الحادى عشر = ٢٣

***

« كانت الدعوة الى ميدان القتال بالنسبة الى العرب الأول أشبه ما تكون بالدعوة الى وليمة عرس ، وكان هؤلاء الرجال مع شراستهم في القتال شديدى الدماثة بعد النصر فلقد حفظوا عهودهم تمام الحفظ ، ولم نسمع عن مجازر لا تمييز فيها قد ارتكبوها ، ولم يكن ممايشين جيوش رومة وفارس أن ينتصر عليها مثل هؤلاء الناس » .

فريمان = تاريخ العرب

***

« يتميز العرب بالعنف اذ صاغت طبيعة الحياة الخشنة التى عاشوها خصالهم ، الى أن أصبح العنف طبيعة ثانية لهم . وهم ، والحق يقال ، ينعمون بالحياة القاسية اذ انها تمكنهم من تحطيم نير السلطةعن رقابهم والخلاص من السيطرة السياسية عليهم ، ومثل هذه الطبيعة تتعارض مع انتشار الحضارة . وأخيرا يعتبر كل عربى نفسه أهلا للحكم ولذا يندر أن تجد منهم من يذعن طواعية لسيطرة الآخرين » .

مترجمة عن الانجليزية . مقتبسه من ابن خلدون


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتح الفتوح

تابعنا في الفصل التاسع من هذا الكتاب هزيمة يزدجرد ثانية في جلولاء عام ٦٣٨ ميلادية ، ورأينا أبا موسى الاشعرى يوالى انتصاراته في الاهواز حيث احتل رامهرمز والسوس وتستر ، لكن الخليفة كان قد أصدر أمره الى سعد بن أبى وقاص بعدم تجاوز جبال زاغروس ، مما أدى الى توقف القتال بين العرب والفرس ، مدة ثلاث سنوات بعد معركة جلولاء ٠

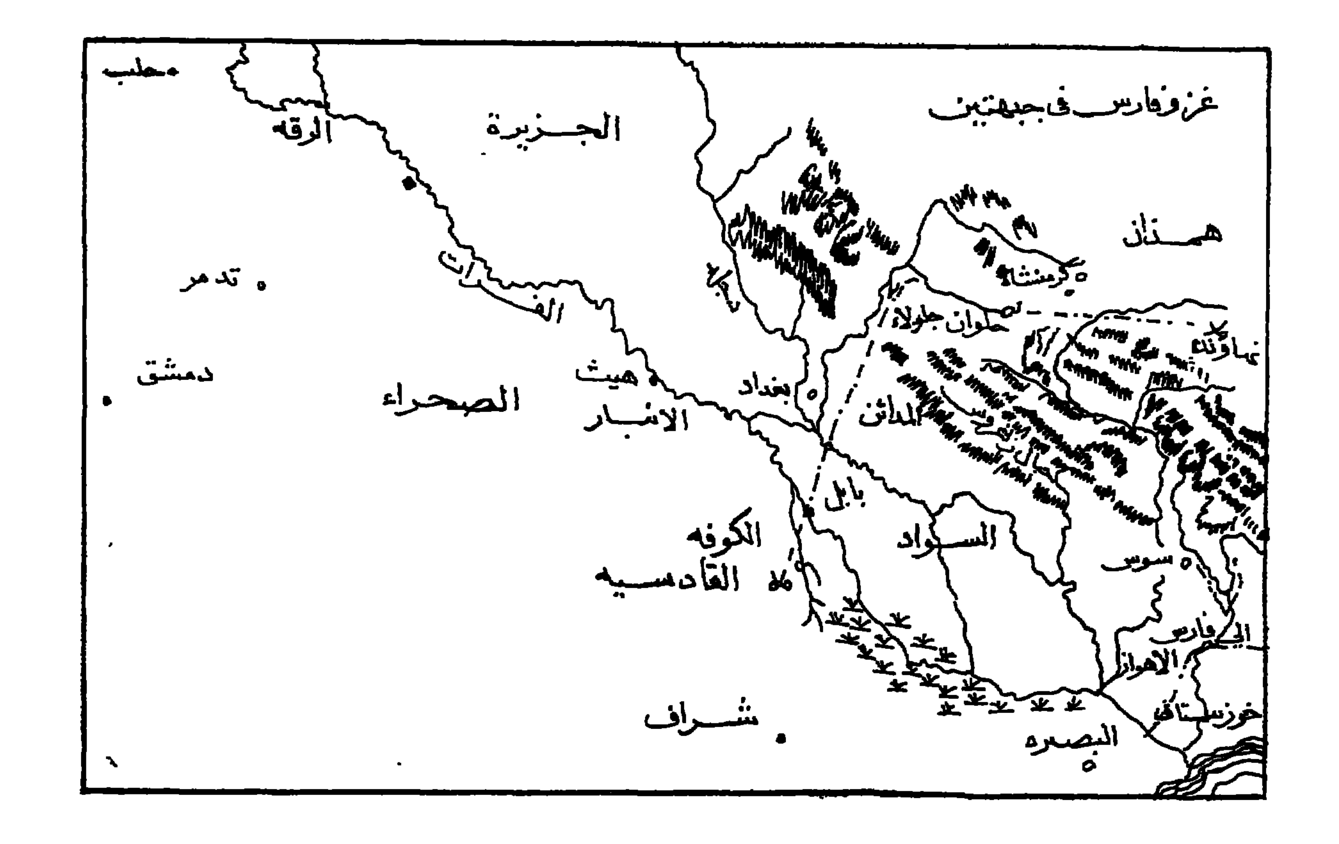
ولكن ملك الفرس الفتى لم يكن قد قرر بعد الاعتراف بالهزيمة ٠ ولذا راح يوفد رسله الى حكام الامارات التى لم يكن العرب قد احتلوها بعد يأمرهم بأن يجندوا أكبر عدد من الرجال ٠ وأن يرسلوهم للانضواء تحت راية الملك ٠ وهكذا تم فى عامى ٦٤٠ و ٦٤١ بناء جيش جديد فى فارس ووصلت أنباء هذه الحشود الى سعد بن أبى وقاص ، وهو فى قيادته فى الكوفة ، فراح يبعث بها الى الخليفة فى المدينة مناشدا اياه الاسراع فى ارسال النجدات ٠

وكان عمر ، بما عرف عنه من حيوية ، عند حسن ظن قائده ٠ وراح يستصرخ القبائل ارسال الرجال من أبنائها ، معلنا عزمه على قيادة الجيش الجديد بنفسه الى فارس وعاد فسمح لصحابته بأن يحولوا بينه وبين السفر بنفسه(١) ٠ وأرسل القوات الى العراق منتدبا لقيادتها النعمان بن مقرن ، أحد الانصار من أهل المدينة ، وكان يتولى آنذاك رتلا فى الاهواز ٠ ومخولا اياه الاشتباك بجيشه الجديد مع جيش يزدجرد ٠ وصدرت الأوامر فى الوقت نفسه الى الجيش العامل فى الاهواز بأن يرسل فصيلا لتعزيز جيش النعمان بن مقرن وبأن يواصل التقدم هو فى الاهواز ، ليحول اتجاه النجدات الفارسية اليه ٠

وتحرك النعمان بن مقرن باتجاه حلوان ، حيث وردت اليه الانباء بأن الفرس قد اجتمعوا فى نهاوند الواقعة وسط السهل القائم على الطرف الآخر من جبال زاغروس ، وقيل ان جيش المسلمين كان يعد ثلاثين الفا ٠ وان جيش الفرس ، كان يعد أكثر من ذلك بكثير لكننى أشك فى صحة

---

(١) غمزة مضللة من جديد ، من جانب المؤلف ، ليظهر عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه بمظهر العزوف من السير بنفسه الى الحرب ٠ (المعرب)


غزو فارس في جبهتين
حلب
الرقه
الجزيرة
الفرات
تدمر
دمشق
الصحراء
هيت
الانبار
بغداد
المدائن
بابل
الكوفه
القادسيه
السواد
حلوان
جلولاء
كرمنشاه
همذان
نهاوند
سوس
الاهواز
خوزستان
البصره
شراف

هذه الارقام من الجانبين ، واعتقد ان الجيشين كانا أقل من ذلك بكثير(١) .

ولا ريب فى ان الصورة التى وصلت الينا عن معركة نهاوند لا تقل غموضا عن الصور السابقة ، التى وصلتنا عن المعـــارك الاخرى ، ولكن يبدو لنا ان الفرس كانوا يحتلون موقعا خصبا يرفضـــون الخروج منه للقتال . وكانوا قد نشروا على الارض القـــائمة أمام خطوطهم الدفاعية مسامير من الحديد تثقب حوافر الجياد . بحيث يتعذر على الفرسان أن يقتربوا من هذه الخطوط . وذهل العرب من هذا الاسلوب الجديد ، الذى يعتبر أول تطبيق لنظرية زرع الالغام . وعقدوا مجلسا حربيا يتداولون فيه الرأى . وشهده عدد من قادة العرب ومحاربيهم البارزين . وكان عبد الله بن عمر يتولى قيادة المهاجرين والانصار من أهل المدينة ، وكان مع الجيش أيضا جرير بن عبد الله شيخ بنى بجيلة ، وابو موسى الأشعرى عامل البصرة على رأس قوة من أهلها ، وطليحة الاسدى أحد أنبياء الردة الكاذبين . وكان طليحة قد أبلى بلاء حسنا فى معركة القادسية . فتقدم الآن الى المجتمعين برأى ، أشار فيه بأن يتظاهر جزء من جيش المسلمين بالهجوم على مواقع الفرس ، ثم يدعى الهزيمة والذعر ، فاذا ماولى هذا القسم هاربا . فان الفرس قد تستهويهم الحماسة ، فيخرجون من مواقعهم لمطاردته وآنذاك يهاجم بالجزء الاكبر من جيش المسلمين ويشتبك معهم فى القتال فى الارض العراء (٢) .

وأقر النعمان خطة طليحة . وعهد الى القعقـــاع البطل ، بمهاجمة مواقع العدو على رأس رجاله من بنى تميم . وأدار العرب ظهورهم بعـــد معركة صورية متظاهرين بالهزيمة والفوضى واستخف النصر بالفرس ، الذين ثملوا بنشوة الظفر أخيرا ، فخرجوا من حصونهم ومعــــاقلهم . يتقدمهم الرجال ، يلتقطون المسامير من حقول الغـــامهم . ليطاردوا فلول

---

(١) يشكك المؤلف في صحة ارقام المؤرخين المسلمين دون أن يورد سببا أو مبررا لتشكيكه مع ان المؤرخين يؤكدون ان جيش الفرس كان يبلغ ستين الفا أو مائة ألف .

(٢) يبدو ان العرب كانوا قد ألفوا مناورة استفزاز العدو الى القتال ، منـذ ايام الجاهلية . واتبعوها في المعارك التى خاضها النبى . وقد جاء ذكرها في القـرآن الكريم اذ قال تعالى في سورة الانفال .. « يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير » .

ويقـول المؤلف ان وليـام الفاتح ، قد استخدم الاسـلوب نفســـه في معـركة هيستنجز ليخرج قوات الانجلز والسكسون من حصـونها لتخوض معه المعركة التى ادت الى فتح بريطانيا . (المعرب)

العرب المنهزمة وفجأة رأى الفرس أنفسهم يواجهون الجيش العربي الذى كان مختفيا عن النواظر • وفاتت فرصة التراجع ورتب الفرس صفوفهم للمعركة على أفضل شكل ممكن •

وعندما أمر النعمان رجاله بالهجوم ، هتف العرب بصوت واحد •• « اللهم انصر الاسلام وثبت كلمة المسلمين » واندفعوا كرجل واحد على أعدائهم • وكان النعمان يقف فى طليعتهم، حاملا راية القيادة بيده ويتقدم صفوف المهاجرين ، فأصابه سهم نفذ من خاصرته ، وسقط عن ظهر جواده • واختطف حذيفة بن اليمان الراية من يده ، وكان الخليفة قد أمر بأن يتولى القيادة فى حالة استشهاد النعمان ، فتولاها فعلا ، واشتد وطيس القتال ، وكثر عدد الضحايا وأخذت الجياد تتعثر بجثث القتلى وتخوض فى بحر من الدماء وعندما حل المغيب كانت صفوف الفرس قد انهارت وركنوا الى الهزيمة • حتى ان بعضهم اضطر الى الهرب عن طريق الحقول الملأى بالمسامير التى زرعوها هم بأنفسهم وتحطم الجيش الفارسى بكامله أثناء عملية المطاردة ، وقتل القائد الفارسى ابان هربه •

وفرض العرب حصارهم على مدينة نهاوند القريبة ، فاستسلمت للعرب الظافرين صلحا • وجمع العرب كثيرا من الغنائم بينها صندوقان مليئان بالذهب والحجارة الكريمة فبعثوا بهما الى الخليفة فى المدينة • وروى الرسول الذى حمل الانباء والمجوهرات الى الخليفة انه جاء الى المدينة فوجد الخليفة وقد راث عنه الخبر ، وهو يتطوف المدينة • ويسأل، فلما رآنى قال : ويلك ما وراءك ! فحدثته بحديث الواقعة • فقال مافعل النعمان ؟ قلت : قتل ، قال انا لله وانا اليه راجعون • ثم بكى ، فقلت : قتل والله ، فى آخرين لا أعلمهم ، قال : ولكن الله يعلمهم •

وعندما حدثه الرسول عن الصندوقين أمر الخليفة بوضعهما فى بيت مال المسلمين ولكن وجود هذه الثروة الطائلة أثقل على ضمير الخليفة • فلما أصبح الصباح استدعى الرسول وقال له : اذهب بهما فبعهما • ثم اقسم ثمنهما بين المسلمين وهكذا بعد أن تخلص فى رأيه ، من هذه الثروة التى تعود الى الحكومة بمثل هذه الطريقة الناجحة عاد الرجل الشيخ الطيب ، الى أعماله اليومية مرتاح البال مطمئن الضمير دون أن يخشى حسابا من أحد •

ولعل هذا الحادث ، اذا صحت روايته يعتبر مهما وطريفا • اذ يظهر تمام الظهور بساطة الاجراءات الادارية فى الامبراطورية الجديدة ، حتى بعد تسع سنوات من انتصاراتها الدائمة الامتداد • فلقد كانت موارد

الدولة المالية لا تزال تسلم شخصيا الى الخليفة فى بيته المتواضع المبنى من الطين والقائم بجوار المسجد • ويبدو انه كان يشعر ببعض الاضطراب فى فكره وضميره من جراء التمييز بين مايملكه ، وما تملكه الدولة • وكان يحس بالالم من رؤيته هذه الكنوز الضخمة فى حوزته • ولعل من الطريف أن يلاحظ المرء هنا ، انه امر الرسول بحمل هذه الجواهر بعيدا دون أن يفكر فى أخذ ايصال منه ، أو بتسجيلها فى حساب • وليس غريبا أن بعض القواد العسكريين العرب وبعض أمراء المقاطعات قد غدوا أثرياء • ولعل من الجدير بنا أن نلاحظ أيضا ان الرسول عاد يحمـــل هذا الكنز فيقطع الجزيرة العربية كلها عرضا • وهى ملأى بالقبائل التى اشتهرت من قبل ومن بعد بميلهـــا الى السلب ، دون أن يذكر المؤرخون ان الرسول كان مصحوبا بحرس أو متخذا أية احتياطات أخرى(١) •

---

(١) هذا هو التشويه بعينه ، بل هذا هو التضليل • فالمؤلف يريد أن يطعن في القادة المسلمين الاول وفي امراء الامصار ، وأن يشوه سمعتهم متهما اياهم بالثراء على حساب بيت مال المسلمين ، كما يمضي في تشويهه وتضليله فيطعن القبائل العربية كلهـا بتهمة الميل الى السلب •

والرد على المؤلف بسيط ، فالمعروف أن الخلفاء كانوا يولون قيـادة الجيوش وامارة الامصار الى الصحابة الاول • وهم معروفون بتقاهم وتمسكهم بالاسلام الذى يحول بينهم وبين ابتزاز مال المسلمين ، يضاف الى هذا أن الخليفة كان دقيقا وشديدا في محاسبته لعماله حتى ضرب المثل بشدته وكان يأخـذ منهم اموالهم الخاصـة التى كسبوها بجهودهم وجهادهم لمجرد الاشتباه • والامثلة على ذلك أكثر من أن تعد وتحصى اما اذا كان بعضهم قد اغتنى فعلا فان ثروته لم تجمع من ابتزاز أموال المسلمين وانما من حصتهم في غنائم الحروب ، ومن اتجارهم بالاموال التى جمعوها •

اما بالنسبة الى القبائل العربية ، فقد يكون رأى المؤلف فيها صادقا بالنسبة الى أيام الجاهلية أو الى الايام الاخيرة • بعد أن ضعف احساس أفرادها بالاسلام أما في تلك الايام ، اى في صدر الاسلام ، فلم يكن هناك نهب أو سلب مطلقا • لعوامل عدة منها قوة الاسلام في نفوس العرب ، وهى القوة التى ثبت وجودها بالفتوحات العظيمة التى حققوها ، ومنها قوة الحكم الاسلامى الذى يمنع السلب والنهب •

ولعل خير ماتكمل به هذا التعليق أن نذكر ان الرسول الذى حمل المجوهرات كان يدعى السائب بن الاقرع ، وهو من الانصار ومن صحابة رسول الله فهو مؤتمن عند النعمان بن مقرن الذى حمله الصندوقين ومؤتمن عند الخليفة الذى أعاده بالصندوقين ليتولى بيعهما وتوزيع ثمنهما على المسلمين • وهذا الائتمان نفسه هو بمثابة ايصال أو حساب ، ولا ريب في أن معرفة العرب بأنه رسول الخليفة حماية له أقوى من حماية الحرس والجند وقد عاد بالصندوقين كما يؤكد المؤرخون العرب الى الكوفة فباعهمـا الى شاب من قريش يقال له عمرو بن حريث اشتراهما بأعطية الذرية ، والمقاتلة • ثم انطلق بأحدهما الى الحيرة فباعه بما اشترى به الصندوقين وفضـل الآخر لديه فكان ذلك أول لهوة مال اتخذه •

(المعرب)

وعاد الرسول بالمجوهرات الى الكوفة ، فباعها الى شاب من قريش وعاد الشاب فبـــاع أحد الصندوقين فى الحيرة بالثمن الذى دفعه هو للصندوقين محتفظا بالآخر ليبيع محتوياته جوهرة جوهرة • وقد مكنته الصفقة من أن يضع حجر الزاوية لثروة طائلة جمعها ، ويبدو من هذا ان ضمائر المسلمين جميعا ، لم تكن كضمير الخليفة بالنســبة الى موضوع الثروات الدنيوية (١) •

واحتل العرب مدينة همذان بعد معركة نهاوند ، وهى المدينة التى اشتهرت باسم «اكباتانا» فى التاريخ القــديم ، ولم يستطع الفرس بعد نهاوند أن يجمعوا جيشا يدفعون به الى الميدان لخوض معركة أساسية • وتبدو أهمية هذا النصر النهــائى ، من الحقيقة الواقعة وهى ان العرب أطلقوا على معركة نهاوند اسم «فتح الفتوح» • ولقد كان من سوء طالع يزدجرد ، انه ارتقى وهو لا يزال غلاما عرش امبراطورية كانت تسير فى طريق الهزيمة والانحلال • وقد لجأ الملك الى مدينة الرى بعــد موقعة نهاوند • وهى مدينة لا تبعد كثيرا عن طهران الحالية من ناحية الجنوب • وكان داريوس الثالث قبل نحو من ألف عام قد سار على نفس هذا الدرب عندما كان فارا أمام جيوش الاسكندر الذى لا يقهر •

وكان عمر بن الخطاب قد بكى لموت النعمان بن مقرن ، واختـــار اخاه نعيما لتولى قيادة جيش نهاوند جريا على ما ألفه العرب من أن يقوم قريب القتيل بأخذ الثأر لقريبه •

ولعل من الاضواء الكشافة البارزة التى يمكن تسليطها على روحية العرب فى هذه الايام الاولى من الفتح ، هى الطريقة العرضية المرتجلة التى كان الخليفة يتبعها فى موضوع الاقدمية بين قادة الجيش • فلقد سبق لنا ان رأينا كيف أقال عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ، الذى كان قد بلغ من الشهره ما لم يبلغه أى قائد آخر فى عصره ، ومع ذلك فقد ظل خالد يعمل تحت أمرة أبى عبيدة بل وتحت أمرة عياض بن غنم وهو قائد كان مغمورا حتى ذلك الحين • وأذا صحت الروايات التاريخية فان النعمان بن مقرن كان حتى وقت قصير يعمـــل فى الاهواز تحت امرة أبى موسى

---

(١) كيف يسمح مؤلف مثل هذا يدعى الموضوعية لنفسه ان يجعل من حادث فرد واحد وسيلة لاصدار حكم عام على ضمائر العــرب كلهم • ان مثل هذا القول لا يبعــد المؤلف عن الموضوعية التى يدعيها لنفسه فحسب ، بل يحكم عليه حكما قاطعا بالهوى والغرض والتحامل على العرب ومحاولة تشويه تاريخهم القــديم بعد أن شــوه تاريخهم الحديث • (المعرب)

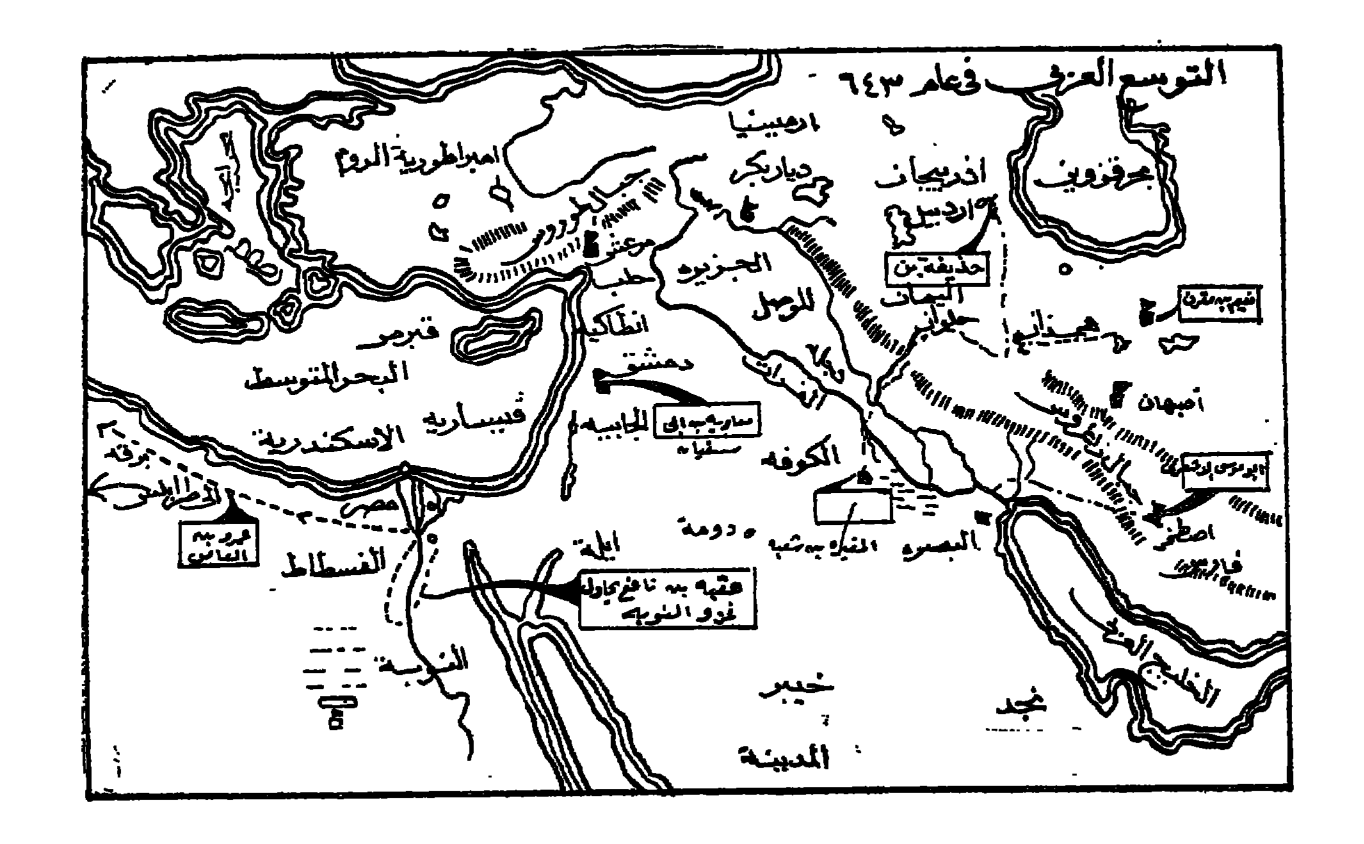
الاشعرى • وذلك قبل توليته القيادة العامة للجيش الذى خاض معركة نهاوند • وعلى الرغم من هذه الحقيقة فان الخليفة أمر قـوة من الاهواز بالتوجه الى نهاوند لنصرة النعمان وكان على رأسها أبو موسى الذى غدا الآن مرءوسا للنعمان • بعد أن كان قبل فترة قصيرة رئيسا له •

ولعل أهمية هذه الحوادث تتركز فى الحقيقة الواقعة وهى ان الغيرة الشخصية تعتبر من أهم مظاهر الضعف فى الشخصية العربية • وحتى فى يومنا هذا فان المنافسات وعوامل الغيرة والحسد بين القادة المختلفين فى الجيوش العربية النظامية تولد مصدرا دائما للقلق عند حكوماتها • وقد قدر لهذه العوامل أن تتفجر ثانية قبل انقضاء سـنوات طويلة على وفاة عمر بن الخطاب ، وهو تطور يساعدنا على تأكيد ما تميزت به أيام الفتح الاولى من حماسة مثالية ، واخلاص لا مثيل له • ولقد كانت هذه الروح العامة قوية فى تلك الايام الى الحد الذى مكن الخليفة لا من حرمان القادة الظافرين من الثروات التى جمعوها فحسب ، بل ومن اهمـال أقدمياتهم وخدماتهم السابقة عند حملهم على اطاعة بعضهم البعض •

***

كان عمر بن الخطاب قد أمر سعد بن أبى وقاص بعد معركة المدائن بعدم القيام بأية محاولة لاجتياز جبال زاغروس • وقد بين فى رسالته له ان سهول العراق الخصبة كافية للعرب ، وان الجبال تؤلف حدا صالحا بينهم وبين الفرس ، كما تؤلف اليوم بالفعل • ولكن يزدجرد ، كما ظهر لنا ، لم يكن راضيا عن قبول مثل هذا الحل الوسط • فعندما أخذ يجند الجيوش راح سعد ينقل الى الخليفة نيات كسرى فى استعادة العراق • وهكذا رأينا العرب يضطرون الى ايفـاد جيش جديد قابل جيش كسرى وهزمه فى نهاوند • وهكذا وجد العرب أنفسهم أيضا سواء أشاء الخليفة أم لم يشأ ، وراء جبال زاغروس • وكان من المحال أن يقفوا عنـد هذا الوضع ، أو ان عمر لم يرغب بدوره فى وقوفهم الآن • بعد أن أدرك ان آخر جيش فارسى قد تحطم ولذا عاد يرسل تعاليمه الجديدة الى قادته فى فارس ، آمرا اياهم بمطاردة العدو بلا هوادة ولا اشفاق الى أى مكان يفر اليه •

وقد تراجع يزدجرد الشاب الى الرى ، يتبعه نعيم بن مقرن • بينما عاد أبو موسى الاشعرى الى الاهواز والى متابعة غزوه لامارة فارس • وكان اسفنديار شقيق القائد رستم الذى قتل فى القادسية منصرفا الآن عند سواحل بحر الخزر (قزوين) الجنوبية الى جمع قوات جديدة تحارب دفاعا


التوسع العربي في عام ٦٤٣
ارمينيا
اذربيجان
بحر قزوين
امبراطورية الروم
جبال طوروس
مرعش
حلب
انطاكية
قبرص
البحر المتوسط
قيسارية
الاسكندرية
دمشق
الجابية
الجزيرة
الموصل
ديار بكر
اردبيل
حذيفة بن اليمان
حلوان
همذان
أصبهان
الكوفة
البصرة
دومة
ايلة
الفسطاط
مصر
برقة
عمرو بن العاص
النوبة
خيبر
المدينة
نجد
اصطخر
فارس
الخليج العربي

عن الملك • وسارع نعيم بن مقرن الى ملاقاته حيث نشبت معركة جديدة الى الجنوب من الرى فى عام ٦٤٣ هزم فيها اسفنديار وأخذ أسيرا بعد أن تفرق جيشه بددا • وأحس القائد الفارسى اسفنديار باليأس من نجاح الفرس ، فتحول الى جانب العرب • وأخذ منـــذ ذلك الحين يعينهم فى عملياتهم • واتجه يزدجرد بعد ذلك نحو الجنوب ولجأ الى مقاطعة اصبهان (أصفهان) وصدرت الاوامر فى غضون ذلك الى حذيفة بن اليمان ، الذى تولى القيادة فى نهاوند بعد مقتل النعمان بالتوجه لغزو اذربيجان •

مازال اسم الرومان ، الذى كان البيزنطيون لا يزالون يستعملونه حتى تلك الايام مرتبطا فى أذهاننا بما فى الحكم الجمهورى من فضــائل بينما نتصور ملوك فارس القديمة طغاة شرقيين يدفعون الى المعارك للقتال نيابة عنهم عشرات الألوف من العبيد الارقاء الذين لا حول لهم ولا طول • لكن سير الفتوحات العربية لا يؤيد صحة هذا الاغراق فى تبسيط الامور فما كادت جيوش الروم تهزم حتى كان سكان ســوريا وفلسطين ومصر يحنون رءوسهم خضوعا للنير العربى • ويبدو أن الحكم فى الامبراطورية الرومانية كان متمركزا فى القسطنطينية • فاذا ما توقف الامبراطور عن المقاومة أضحت الامارات مشلولة عاجزة • ولم نشهد جماعات تنبض بالحياة تقاوم مقاومة محلية احتمــال فقدها استقلالهــا • أما فى فارس ، فكان الوضع مختلفا تمام الاختلاف ، اذ على الرغم من ان الشاهنشاه هو الرئيس الاعلى من الناحية الرسمية ، الا ان نظام الحكم كان الى حد ما اقطاعيا • وكان النبلاء المحليون يملكون من السلطـــات فى اماراتهم • مامكنهم فى حالات كثيرة من اطالة المقاومة ، حتى بعد أن غدا الشناه لاجئا طريدا •

وهناك بالتأكيد عوامل أخرى أسهمت أيضا فى استمرار الصراع فى فارس مدة طويلة بعد الاعتراف بالحكم العربى اعترافا كاملا فى مقاطعات شرق البحر المتوسط • وأول هذه العوامل كما اعتقد وجود الجبال فى فارس وهى عقبات توقف فى كل مكان أو تعرقل على الاقل سير الزحف العربى • وثانى هذه العوامل أن تسلل العرب القديم العهد من الجزيرة العربية الى سوريا وفلسطين والعراق ، قد أمن للفــاتحين العرب أعداء ليسوا صلابا فى عدائهم • ان لم نقل بحلفاء من رجال الطابور الخامس ، أما الفرس المقيمون الى الشرق من جبال زاغروس ، فلم تكن لهم أية صلات عنصرية على الاطلاق لا مع العرب ولا حتى مع مجمـــوعة الشعوب التى نسميها أحيانا بالمتوسطية ، ومن هنا كان اخضـــاع الفرس أكثر مشقة وعناء على العرب من اخضاع غيرهم • كما كانوا من أوائل الشعوب التى ثارت على سيطرة العنصر العربى •

ولكن على الرغم من أن القدر شاء أن تستمر المقاومة الفارسية المحليه، بضع سنوات أخرى الا أن الشاه لم يستطع ثانية تجهيز جيش قوى لخوض القتال ، واتخذت عمليات العرب فى فارس بعد معركة نهاوند شكل عمليات ضغط بطيئة ومستمرة فى عدة مناطق متفرقة واسعة ولكن دون أية معارك حاسمة أو حملات دراماتية من النوع الذى يستأثر باهتمام المؤرخ أو يلهب حماس الشاعر أو الانسان الوطنى • وكان العرب يتقدمون فى كل سنة عدة أميال الى الامام وتسقط فى أيديهم عدة مدن بعد حصارها أو بعد ثورتها • كما كان عدد من الزعماء المحليين يتحول الى جانب العرب فى كل عام • ويكفى أن نقول هنا ان العرب استولوا على اصبهان فى عام ٦٤٣ بعد أن وافق أهلها على دفع الجزية والخراج •

وكانت خطوط مواصلات العرب قبل معركة القادسية تمر كلها على الرغم من طولها الذى يبلغ ستمائة ميل عبر الصحارى العربية نفسها أما الآن فقد بات طولها يبلغ ألفا أو ألفا ومائتين من الاميال عبر أراض معادية ، وانهار عظيمة وسلاسل جبلية شاهقة ، وعبر ممرات تغطيها الثلوج معظم أيام السنة • واذا ما نظرنا الى اتفاقات الصلح التى عقدت فى هذه الآونة ، وجدنا انها تضمنت بنودا تنص على أن يقدم الفرس الى القوات العربية التى تمر بهم المأوى والغذاء • وكان كل من يهاجم عربيا يتعرض لعقوبة الموت • وكان الفرس الذين عقدوا اتفاقات مع العرب ، قد حصلوا على مواثيق تؤمن لهم حقوقهم أما اذا ثبتت عليهم تهمة الاعتداء على المسلمين فانهم يعرضون أنفسهم لعقوبة اخماد ثورتهم بالقوة • والى الغاء الاتفاق الذى سبق لهم ان عقدوه مع العرب ، والى التعرض لاوضاع الاستعباد بلا قيد أو شرط وقد ضمن العرب بهذه الاجراءات سلامة مواصلاتهم دون الحاجة الى وحدات عسكرية ينشرونها هنا وهناك لحماية هذه المواصلات •

وكان يزدجرد قد انسحب قبل سقوط اصبهان الى مدينة اصطخر التى يسميها الغربيون بيرسوبوليس ، والتى كان أبو موسى الاشعرى الزاحف من الاهواز يحاول عبثا احتلالها . وكان حظ حذيفة بن اليمان أسعد طالعا كما يبدو على سواحل بحر الخزر الغربية فعندما غزا اذربيجان الفارسية واجه مقاومة من القوات المحلية التى قادها الزعيم الاقطاعى فى المقاطعة ويسمى المرزبان • ولكنه ما لبث ان تغلب عليها فى المعركة واحتل عاصمتها اردبيل • وهنا مال المرزبان الى التصالح مع العرب ووافق على دفع الجزية والخراج ، وهناك رواية أخرى تنسب هذا الفتح

الى المغيرة بن شعبة الذى كان قد غدا أميرا للكوفة كما سنرى بعد قليل ٠ وهاتان الروايتان على أى حال متفقتان وغير متناقضتين اذ أن جيش حذيفة كان تابعا للكوفة ٠ ولهذا فان تبعيته كانت ولا شك لامير الكوفة ٠ لكن احتلال المنطقة الاول كان غير كامل كما يبدو ٠ اذ سرعان ما ثارت اذربيجان فى عام ٦٤٥ ، وتطلبت ثورتها اعادة احتلالها ثانية ٠

***

وبينما كانت الجيوش العربية تنتشر على هذا النحو كالمروحة فى جميع أنحاء فارس لم تكن الأمور سائرة سيرا طبيعيا فى قاعدة العرب الأساسية فى الكوفة ٠ ولقد رأينا فيما مضى كيف أن عمر بن الخطاب اتخذ قرارا سياسيا كبير الاهمية ، عندما وجد أن العرب باتوا بصورة غير متوقعة حكام سوريا والعراق ٠ فلقد قضى بأن يظل الفلاحون فى كل بلاد محتلة شاغلين لأراضيهم على أن يستمروا فى فلاحتها وان يدفعوا الضريبة عنها ، وكان من رأيه ألا يستوطن العرب الارض ويفلحوها بل أن يظلوا عنصرا عسكريا مسيطرا مرتكزا على قواعده العسكرية وقادرا فى كل لحظة على محاربة المشركين والكفار ٠ وأدت هذه السياسة الى انشاء القواعد العسكرية فى الكوفة والبصرة فى العراق والجابية الى الجنوب الغربى من دمشق ، والفسطاط فى موقع مدينة القاهرة الحالية ٠

ولكن لحياة القواعد العسكرية مساوئها ، وهذا مااكتشفته الدول الاستعمارية الاخرى فالجنود فيها يظلون فى معزل عن أهل البلاد ٠ ويؤدى عالم المعسكرات الضيق الىالمنافسات والى التحزبات الضيقةالمحصورة٠ وقد ساعد على هبوط الروح المعنوية فى المعسكرات العربية ، ماعرف عن البدو من طبيعة انطلاقية تأبى الانضباط وتتعشق الصخب ، وما أدى اليه ازدياد ثرائهم مناسترخاء وخمول٠ وقد تحطم ماعرف عن عربالصحراء من قسوة على العيش واحتمال للمكاره ، من جراء اغراقهم الآن فى حياة الجنس مع الجوارى من الأسيرات اللائى لاعد لهن ولا حصر ومن جراء حياة البطالة التى دابوا الآن على عيشها فى عصر لم يكن التدريب العسكرىفيه معروفا أو معتبرا من الضرورات ٠

وكانت الكوفة أكثر القواعد العسكرية العربية اضطرابا وشغبا ٠ وهى القاعدة التى أنشأها سعد بن أبى وقاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب فعندما احتل سعد المدائن بعث الى الخليفة يشكو له من البعوض فيها ، ومن تأذى الناس به فكتب اليه عمر يقول : «ان العرب بمنزلة الابل لايصلحها الا مايصلح الابل ، فارتد لهم موضعا عدنا ، ولا تجعل بينى

وبينهم بحرا • وتم اختيار موقع الكوفة لاقامة دار الهجرة فيها على ضوء هذه التعليمات • وكان الجانب الشرقى من البلدة الجديدة ، وهو أفضل الجانبين من نصيب أهل اليمن ، بينما كان الجانب الغربى من نصيب قبائل الشمال • وقد روى المؤرخون العرب أن أهل اليمن كانوا يعدون اثنى عشر الفا وان ابناء الشمال كانوا يعدون ثمانية آلاف •

وبينما كانت الجيوش العربية التى تستخدم الكوفة قاعدة لهـــا منتشرة فى أرجاء فارس فى صحار وجبال تتولى فتحها ، كانت الدسائس تحاك بين الجنود فى القاعدة نفسها • وتقول الروايات أن بعض المخبرين من أهل الكوفة مضوا الى المدينة يسعون بسعد بن أبى وقاص ويشكون منه وهو قائدهم العام وحاكمهم • وكان سعد قد ابتنى له دارا يسميها العرب قصرا • وقد جعلها فى وسط القاعدة التى اختطها • ولكن القاعدة تحولت الآن الى مدينة• وأصبح ضجيج الناس فى طرقاتها يضايق الامير كما يضايقه كثرة الوافدين من الزائرين وأصحاب الحاجات ، والمتطفلين الذين لاهـم لهم الا ولوج البيت والخروج منه • وكان سعد يتأفف من عجزه عن بحث المسائل العامة مع ضباطه ورجاله ، بسبب هذه الضجة والفوضى • ولذا فقد أقام على بيته سياجا من القصب يحيط بالفناء ويفصل بين واجهة البيت وبين الجماهير فى الشارع • ولكن الوشاة سرعان ماسعوا به الى الخليفة فى المدينة ، زاعمين أن الامير قد أقام السياج ليعزل نفسه عن الرعية ، دليلا على تعجرفه وتعلقه بالدنيا • وزعم البعض الآخر للخليفة ان سعدا لايحسن اقامة الصلاة بالناس على الطريقة الاسلاميـــة الصحيحة فأوفد الخليفة رجلا يدعى محمد بن مسلمة ليحقق فى شكاوى الناس وهو عين الرجل الذى كان عمر قد أوفده لمصادرة أموال عمرو بن العاص فى مصر ، فقام محمد باحراق السياج المحيط بالفناء وسلم الى سعد رسالة من الخليفة يقول له فيها بأنه قد سمع بأنه بنى لنفسه قصرا أسماه قصر سعد وأقام عليه بابا يحول بينه وبين الرعية ، لكن هذا القصر ليس الا قصر الجنون وطلب اليه أن يخرج منه وان يغلقه وألا يجعل بينه وبين الناس بابا • وألا يحول بينهم وبين حقوقهم ، أو يمنعهم عن الوصول اليـــه الا اذا خرج هو اليهم •

واذا مااستثنينا موضوع السياج والباب • فان محمد بن مسلمة لم يجد أى أساس للوشايات التى نقلت الى الخليفة عن سعدبن أبى وقاص وان كانت تهمة البقاء فى القصر ابان معركة القادسية وعدم الاشتراك فيها قد عادت الى الظهور • وعلى الرغم من عدم ثبوت أية جدية على سعد ، فان الخليفة أمر بعزله عن امارته فى عام ٦٤٢ وولى مكانه رجلا يدعى عمار

ابن ياسر . ويقول أحد المؤرخين العرب أن عمر سئل ذات يوم عن أسباب نجاحه في حكم العرب فرد بأن نجاحه يعزى الى تغييره لعماله وقادة جيوشه ويبدو لي أن عمر كان يخشى من أن تزداد قوة أي قائد عسكري ناجح . ولذا كان يقبل على عزل قادته العسكريين الاكفاء بعدأن يحققوا انتصاراتهم الضخمة(١) .

ولكن اذا كان عزل سعد كبير الاهمية فان تعيين عمار بن ياسر يمكن ان يعتبر شيئا مضحكا . ولعل القارىء يذكر أنه عندما شرع النبي في نشر دعوته في مكة حاولت قريش مقاومته باللجوء الى اساليب العنف . وكانت المشـــاعر القبلية من القوة بحيث تحول بينهم وبين

---

(١) استنتاج خاطىء كل الخطأ ولعل القول بأن عمر بن الخطاب لم يعزل سعدا عن امارته الا بعد انقضاء اكثر من أربع سنوات على انتصاره في القادسية وهي معركته الكبرى دليل على خطل الاستنتاج الذى توصل اليه المؤلف . يضاف الى هـذا حقيقة اخرى وهي أن عمر كان من أقوى العرب شخصية . ولم يكن من الخلفاء الضـعفاء الشخصية الذين قد يخشون ظهور قائد ناجح يعمل تحت امرتهم . ولعل قوة شخصيته كانت تبرز بوضوح في ان اوامره بعزل قائد أو أمير او محاسبته أو مصـادرة امواله لم تكن تنفذ في مظاهرات عسكرية تقوم بها جيوش أو وحدات بل بمجرد رسالة من الخليفة يحملها رسول أعزل .

ولقد سبق لنا أن علقنا على عزل خالد أما عزل سعد فجاء نتيجة الوشـايات الكثيرة التى نقلت الى الخليفة عنه ، وعلى الرغم من ثبوت كذبها للخليفة كما سأروى بعد قليل ، فانه رأى من الحكمة عزل سعد ، بعد أن لحقت الشبهات بامارته نظرا لانها أضعفت من مركزه أمام الرعية .

روى جابر بن سمره أن أهل الكوفة سعوا بسعد بن أبى وقاص الى عمر وقالوا انه لايحسن الصلاة فقال سعد .. أما أنا فكنت اصلى بهم صلاة رسول الله (صلعم) ولا أخرم عنها ، أؤكد في الاولين وأحذف الاخريين ، فقال عمر : ذاك الظن بك ياأبا اسحق فأرسل عمر رجالا يسألون عنه بالكوفة ، فجعلوا لايأتون مسجدا من مساجدها . الا قالوا خيرا واثنوا معروفا ، حتى أتوا مسجدا من مساجد بنى عبس فقال رجل منهم يقال له ابو سعده . « أما اذا سألتمونا عنه فانه كان لايقسم بالسـوية ولايعـدل في القضية» . قال : فقال سعد : « اللهم ان كان كاذباً فاطل عمره وادم فقره وأعم بصره ، ومرضه للفتن » ، قال عبد الملك فأنا رأيته يتعرض للاماء في السكك فاذا قيل له : كيف انت ياأبا سعده . قال كبير مفتون اصابتنى دعوة سعد .

وروى الشعبى ان عمرو بن معد يكرب الزبيدى وفد على عمر بن الخطاب فسأله عن سعد وعن رضاء الناس عنه ، فقال تركته يجمع لهم جمع الذرة ويشفق عليهم شفقة الام البرة ، اعرابى في نمرته نبطى في جبايته ، يقسم بالسوية ويعدل في القضية وينفذ بالسرية ، فقال عمر : كأنكما تقارضتما الثناء . وقد كتب سعد كتب يثنى على عمر وقال : يا أمير المؤمنين ولكنى انبيت مما اعلم . (المعرب)

اضطهاد اخوانهم من ابناء بيوتات قريش ، حتى ولو تحولو الى الاسلام، ولكنهم كانوا ينفثون ســـموم حقدهم وغضبهم على الارقاء وعلى الذين لا عصبية قبلية لهم . وكان عمار بن ياسر من العبيد الارقاء . وكان من أوائل الذين آمنوا بدعوة النبى ومن الذين عانوا من اضطهاد قريش اشد العناء . وقد انقذه منهم ابوبكر الثرى بماله ، فابتاعه ثم اعتقه ، ليعيش بعد ذلك فى حياة من التقوى والورع والتزمت حتى كان قد طعن سنه وشاخ . ولقد أهله تقــواه ومكانته كأحد المسلمين الاوائل عنــد الخليفة على الاقل ، لمنصب امارة الكوفة .. ولكن أهــل الكوفة الذين تخلصوا من سعد بن أبى وقاص المعروف ببأسه وعزمه ، لم يجـــدوا صعوبة فى الخلاص من ياسر هذا العجوز الضعيف الذى لم يكن قد خبر الحكم أو المسئولية باية صورة من الصور . وسرعان ما كانت وفود أهل الكوفة تشكوه الى الخليفة متهمة اياه بالضعف والجهل بالسياسة فعزله وقال : من عذيرى من أهل الكوفة ، أن استعملت عليهم القوى فجروه وان وليت عليهم الضعيف حقروه ؟

ويذكر القارىء ولا شك أن المغيرة بن شعبة كان اميرا فى البصرة . وكان الخليفة قد عزله عنها لتهمة وجهت اليه وان لم تثبت عليه . وكان المغيرة متميزا بالصلابة والشدة بدين الجسم مترهله ، أعور العين قاس لا يرحم . وقال له الخليفة ... ان وليتك الكوفة اتعود الى شىء مما قرفت به . فقال « لا » فولاه عمر الكوفة ونجح فى البقاء بمنصبه عامين حتى توفى عمر ، وعاد أهل المدينة الى اظهار طبيعتهم المشاغبة .

وقد عانى امراء المقاطعات وحكام الامصار الكثير فى خلافة عمر . اذ كان الخليفة على استعداد لفتح اذنيه والاستماع الى الوشـــاة والمخبرين الذين كانوا يهرعون دائما الى المدينة للنيل من مركز كل ذى سلطان ونفوذ فى مقاطعاتهم وقد بذرت هذه الاساليب بذور الخلاف التى لم يقدر لها ان تنمو الا بعد وفاة عمر وكادت تعصف بالامبراطورية العربية الناشئة .

ظلت سوريا وفلسطين هادئتين فى عامى ٦٤٢ و ٦٤٣ وكانت بعض الاشتباكات الفردية تقع بين آونة واخرى على حدود أرمينيا وفى جبال طوروس . وقد قدر لها أن تستمر بضع سنوات . ولكن توسع العرب باتجاه الشمال الغربى كان قد بلغ فى الواقع اقصى منتهاه . وكان سكان سوريا وفلسطين قد اخلدوا الى السكينة فى ظل الحكم العربى تحت امرة حاكمهم الجديد معاوية بن ابى سفيان .

لكن الفتوحات العربية استمرت في افريقيا على أى حال . فبعد أن استقر الأمر للمسلمين في الاسكندرية تطلع عمرو بن العاص الكثير الحيوية والحركة الى صحراء برقة وكان الشمال الافريقي كله من الاطلسي حتى حدود مصر جزءا من الامبراطـورية الرومانيـة وهى فى أوج سلطانها . ولكن عندما اخذ نجم الامبراطورية الغربية فى الافول فى القرن الرابع للميلاد عبرت قبيلة الفاندال وهى من برابرة الشمال ، البحر عند مضيق جبل طارق من اوربا الى افريقيا واستولت على قرطاجنة. وقد اقام الفاندال لهم مملكة مستقلة امتدت من أرض الجزائر الحالية الى برقة وتبعت لها جزر ميورقة ومنورقة وكورسـيكا وسردينيا . ولكن الامبراطور البيزنطى جوستنتيان عاد فى عام ٥٣٢ للميلاد فبعث بجيش احتل قرطاجنة . وتمكن البيزنطيون بقيادة بيلزاريوس المشهور وأحد القادة القلائل الذين عرفتهم رومة فى عهـد انحلالها · من هزم الفاندال واستعادة الشمال الافريقى للممتلكات البيزنطية . وكان أهل هذه البلاد مزيجا من اقوام مختلفة . فبينهم القرطاجيون القدامى ، والرومان والبيزنطيون والفاندال الذين سيطروا على السهول الساحلية وأقاموا فيها · أما جبال الداخل فكانت مأهولة بقبائل البربر ، أصحاب البلاد الاصليين الذين رفضوا ان يذوبوا فى الاقوام المتعاقبة التى احتلت سواحل بلادهم . (١) ومن هذه المنطقة بالذات خرج هرقل فى حملته التى ادت الى الاطاحة بحـكم فوكا وتسنمه عـرش الامبراطورية البيزنطية .

وقد توغلت جيوش كسرى ابرويز فى عام ٦١٩ بعد احتلال مصر باتجاه الغرب فوصلت الى طرابلس الغرب دون ان تلقى كما يبدو اية مقاومة فعالة . ولقد كانت مصر احدى دعامات الامبراطورية البيزنطية الاساسية تزودها بغذائها وبالكثير من عائدات دخلها . وكانت تقيم الاود لسكان يعدون ستة ملايين أو سبعة ، وفيها عدد من أكثر المدن تحصينا ومناعة . وكانت كثرة اقنية الرى وفروع النيل فيها تجعل العمليات العسكرية شاقة وصعبة . كما كان فى مكنة الاسكندرية نفسها لو تولى الدفاع عنها قوم مصرون على الدفاع ان تتحدى أى جيش من جيوش ذلك العهد عدة سنوات . وهكذا فان احتلال ليبيا بالنسبة الى أى جيش فاتح استطاع ان يحتل مصر ، اشبه بنزهة أو لعبة اطفال . وقد

(١) يبدو أن المؤلف جهل او تجاهل الحقيقة التى اثبتها كثير من المؤرخين . وهى أن قبائل البربر في شمال افريقيا قبائل عربية الاصل أو سامية على الاقل . وانها هبطت أرض المغرب العربى قادمة من الشرق . (المعرب)

اقام عمرو بن العاص الدليل على صحة هذه النظرية ففى ربيع عام ٦٤٣ احتل برقة دون أية مقاومة • بعد أن وافق أهلها على دفع الجزية والخراج ولعل من الغريب كل الغرابة ان الاتفاق الذى عقده العرب مع أهلها تضمن بندا ينص على أن ترسل الضرائب طوعا ودون اكراه الى مصر والا يصل الى برقة اى جاب عربى من جباة الضرائب لجمعها .

ولكننا لانلبث أن نرى عمرو بن العاص ، بعد توقيع الاتفاق يبعث الى الخليفة كتابا يعلنه فيه انه قرر جبى العشر ونصف العشر من أرض المسلمين والجزية المألوفة من أهل الذمة ، ومن غير المسلمين • ويشرح لنا ياقوت الحموى هذه الرواية اذ يوضح بصراحة أن معظم اهل برقة اعتنقوا الاسلام بعد فتحها . ولا ريب فى ان هذه النقطة فى منتهى الأهمية ، فالترحاب الظاهر الذى لقيه العرب فى الصحراء الغربية وفى برقة دليل واضح على أن معظم سكان هذه المنطقة كانوا من العرب • وليست هذه الفكرة بعيدة عن التصديق مطلقا . فالصحراء الغربية شبيهة بالصحارى العربية وهى تتباين تباينا كليا مع جو مصر الرطب وتربتها الغرينية الخصبة النابعة من دلتا النيل • ولم نسمع قط عن وصول العرب الى هذه المنطقة من قبل كغزاة وفاتحين ولكن لا يستبعد اطلاقا أن يكونوا قد وصلوا اليها على شكل قبائل هاجرت من الجزيرة العربية وتسللت الى الصحارى الليبية قبل هذا التاريخ . والنتيجة الطبيعية لهذا الافتراض هو أن يكون الفاتحون المسلمون قد تبينوا بعض الدلائل على قرابتهم من الليبيين وان هؤلاء نتيجة هذه القرابة وصلوا الى تفاهم سريع مع أبناء عمومتهم الأبعدين • ويتعزز هذا الاحتمال بما أورده كتاب الرومان والاغريق ومؤرخوهم الاقدمون من أمثال ديوروس صقليوس وبطليموس وسترابو وبلينى الذين يذكرون وجود أقوام عربية فى صحارى مصر . ولكن اذا صح أن هؤلاء الاقوام قد نبتوا من أصل عربى فانهم ولا شك كانوا قد فقدوا لغتهم الاصلية وشخصيتهم قبل الفتح الاسلامى .

وكان الوضع فى طرابلس مختلفا على اية حال ، فلقد كانت المدينة محصنة وفيها حامية بيزنطية ، اغلقت على نفسها ابواب المدينة فى وجه العرب . والمدينة مفتوحة من ناحية البحر الذى يسيطر عليه اسطول البيزنطيين . وكان فى مكنتها ان تقاوم عدة سنين لو تعزز دفاعها بوصول نجدات قوية اليها . ولكن الدسائس والمنافسات بين رجال البلاد كانت تمزق القسطنطينية كما رأينا من قبل • وكان من الطبيعى ألا تهتم العاصمة وهى على هذا الحال بأمر الامارات النائية . على أى حال ،

تمكن عمرو بن العاص بعد حصار استطال عدة اسابيع عجز ابانها عن اقتحام الاسوار من ان يجد ثغرة بين التحصينات والبحر نفذ منها الى المدينة فى شهر يونيو (حزيران) عام ٦٤٣ وتمكن عدد من أهل النجدة من اقتحام هذه الفجوة والدخول الى المدينة على طول الساحل هاتفين صارخين « الله أكبر الله أكبر » واحتلوها عنوة .

واقتحم العرب بلدة أخرى تدعى صبرة • ثم عاد عمرو فاستدار الى برقة • ويقول بعض المؤرخين أن عمرا كان يود أن يواصل زحفه الى قرطاجنة • ولكن الخليفة أمره بالعودة وهو احتمال قريب الى المنطق • اذ اننا رأينا عمر بن الخطاب حريصا دائما على عدم السماح لجيوشه بالمضى بعيدا أو السماح لها بان تنقطع عن المدينة بفعل الجبال أو الانهار التى تقوم بينهما . وعندما عاد عمرو الى برقة استسلمت له قبيلة من البربر من أهل لواته وقد كتب فى شرطه عليها . « ان عليكم ان تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية » • ومن الصعب علينا أن نتأكد الان من السبب الذى دعا عمرا الى ادخال مثل هذا الشرط الهام فى اتفاقه مع القبيلة البربرية . وكل مايستطيع المرء افتراضه ان هذه القبيلة عجزت عن دفع الجزية بسبب فقرها المدقع . وأن عمرا رد على اعتراضها بأن عليها ان تبيع نساءها واطفالها لتدفع الجزية .

وقد سبق لنا فى حياة الرسول أن لاحظنا حوادث عدة وقع فيها العرب من نساء ورجال اثناء حروبهم القبلية فى الاسر، وأن آسريهم كانوا يعتبرونهم رقيقا لهم . لكن هذا الاجراء العرقى منع منعا باتا ابان خلافة عمر بن الخطاب وذلك لان العرب تحولوا فى السنوات العشر من حكمة الى شعب فاتح مستعمر ، بل الى طبقة ارستقراطية حاكمة تسيطر على امبراطورية تابعة لها . وقد نما هذا الاحساس الجديد بالكبرياء والعنصرية جنبا الى جنب مع مفهوم آخر يختلف عنه كل الاختلاف هو مفهوم الاخوة الاسلامية • ولقد كان العرب منذ أقدم عصور التاريخ يتعاملون بتجارة الرقيق، ويمتلكون الرقيق ولكنهم منذ أيام عمر بن الخطاب توقفوا عن استرقاق اى عربى . ولاريب فى ان الحقيقة القائلة بان العرب اعترفوا اعترافا شخصيا بامكان استرقاق البربر تشير اشارة واضحة الى انهم لم يعتبروا البربر من العرب .

وعاد عمرو بن العاص من طرابلس الى الاسكندرية مثقلا باحمال الغنائم وبالعبيد وكان قد اوفد فى غضون ذلك حملة مع نهر النيل سارت باتجاه السودان بقيادة ابن عمه عقبة بن نافع لكن هذه المغامرة لم تلق كبير نجاح . فلقد اشتهر السودانيون الذين لقبهم العرب

بالنوبيين برمى النبـــال وقد تلقوا العرب الزاحفين بزخات من النبال فأصابوهم بجراح ثقيلة كان معظمها فى عيون الفـــاتحين • ولقد فقئت عيون عربية كثيرة حتى انهم أطلقوا على النوبيين اسم رمـاة الحـدق • ومن الطريف ان نذكر هنا ما امتاز به النوبيون من خصال حربية قبل الف وثلثمائة سنة . وهى خصال ظلوا محافظين عليها حتى يومنا هذا. واضطر الرتل العربى الى التراجع على احسن سبيل ممكن الى مصر .

وكان عمر بن الخطاب قد أمر عمرو بن العاص باقامة مقر قيادته فى الفسطاط وهى القاعدة العسكرية الجديدة المجاورة لحصن بابليون وفى ربيع عام ٦٤٤ القى عمرو بن العاص فاتح مصر خطابا فى المسلمين اشـــتهر أمره فى التاريخ الاسلامى • وقد استهلّ خطابه بحمد الله والثناء عليه ثم حث سامعيه على التمسك بشعائر الدين وتوزيع الصدقات والبعد عن الجشع وعن البهرج والنميمة . وقال ان البطالة والطيش هما مصدر كل رذيلة وخطيئة . وعاد فبدل لهجته ، وانتقل الى تقريظ الربيع فقال ان مياه الفيضان قد هبطت ، وان أعشاب الربيع قـد نمت وأصبح الحليب متوفرا للحملان والجديان وأمرهم بأن يخرجوا حاملين بركات الله . وان ينعموا بارض مصر وخيراتها ولبنها وقطعان اغنامها وأبقارها • ووصاهم برعاية جـيرانهم من القبط ، تلبية لأوامر رسول الله الذى اوصاهم خيرا بالقبط . (١)

وحرى بنا ان ننقل هنا بعض فقرات وردت فى التقرير الذى بعث به عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب عن مصر . اذ قال . . «مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها رحلة شهر وعرضها عشرة أيام. يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات . يجرى بالزيادة والنقصـــان كجرى الشمس والقمر له أوان ، تظهـــر به عيـــون الارض وينابيعها حتى اذا عج عجاجه ، وتعاظمت امواجه لم يكن وصول أهل القرى الى بعض الا فى خفاف القوارب وصغار المراكب ، فاذا تكامل فى زيادته يخرج القوم ليحرثوا بطون اوديته وروابيه يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتى اذا شرق وأشرف سقاه من فوقه الندى

---

(١) روى ابن لكعب بن مالك أن النبى (صلعم) قال : اذا افتتحتم مصر ، فاستوصوا بالقبط خيرا ، فان لهم ذمة ورحما . وقال الليث « كانت أم اسماعيل منهم » .

وروى الشعبى ان على بن الحسين أو الحسين نفسه ، كلم معاوية فى جزية اهل قرية أم ابراهيم ابن رسول الله (صلعم) بمصر ، فوضعها عنهم . وكان النبى (صلعم) يوصى بالقبط خيرا . (المعرب)

وغداه من تحته الثرى . فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء اذا هى عنبرة سوداء واذا هى زبرجدة خضراء » . ويبدو أن عمرو بن العاص كان شاعرا بالاضافة الى ما تميز به من خصال اخرى .

ومهما كان ظن المصريين فى الفاتحين العرب فانهم على الاقل ، جنوا فائدة واحدة من فتحهم لبلادهم وهى خلاصهم من الاضطهاد الدينى . فلقد استدعى عمرو بن العاص بنيامين بطريق القبط من مخبئه فى الصحراء الذى ظل مختفيا فيه منذ مجىء المقوقس الى مصر قبل اثنى عشر عاما ، وعهد اليه رسميا بزعامة الكنيسة القبطية وقد اختير بطريق آخر للروم الارثوذكس ولكن دون موافقة امبراطور القسطنطينية . وغدا هذا البطريق عاجزا بعد فتح العرب عن اضطهاد اخوانه النصارى

وعلى الرغم من اننا نستطيع القول بان عمرو بن العاص أدى خدمات جلى لقضية المسلمين الا ان من المفجع ان نراه لا يلقى من الخليفة الا التأنيب والزجر . وقد شكا الخليفة هذه المرة شكوى مرة من أنه لا يتلقى من مصر من الخراج ما كانت تدفعه الى امبراطور بيزنطة وبعث الى عامله فى مصر فى عام ٦٤٤ يعرب عن دهشته من أن خراج مصر فى السنة الماضية لم يبلغ نصف ما كانت تقدمه من قبل الى البرنطيين . واضاف انه لن يقبل أقل مما كانت تدفعه مصر . وأكد أنه كان يأمل من عامله أن يؤدى واجبه حق الأداء - وانه تبين الآن أن حكمه حال دون ذلك وانهى رسـالته قائلا ان لديه من الوسـائل بمعونة الله ما يستطيع ارغام عامله على اطاعة أمره .

غريب ان تصدر هذه التهديدات القاسية عن الخليفة الورع الذى عرفنا تماما انه كان ابعد الناس عن الاهتمام بشئون الدنيا ومالها . وكان على استعداد دائما لتوزيع الفىء ومايصل الى بيت مال المسلمين على الرعية . يضاف الى هذا اننا راينا عددا من كبار المسلمين فى المدينة ليس بينهم الخليفة على أى حال قد اثروا ثراء كبـيرا من الغنـائم التى نقلت الى المدينة من البلاد التى فتحتها جيوش العرب . ترى هل كان المهتمون بالمال منهم هم الذين دفعوا الخليفة الى كتابة مثل هذه الرسالة ؟ وترى هل وجـد الخليفـة أن نظام الرواتب الذى أوجـده والذى حدد بموجبه دفع المرتبات الى كل عربى ، يكلف بيت مال المسلمين أكثر مما كان قد ضمن عند وضعه ؟ ولكن حتى لو كانت الدولة فى ضائقة مالية ، فاننى لا ارى ضرورة فى أن يكتب الخليفة الى قائد جيشه العام فى مصر بمثل هذه اللهجة القاسية المليئة بالتهديد . ولاريب فى ان هذه الحقيقة تصبح واجبة عندما ندرك ان خطة فتح مصر كلها

كانت من وضع عمرو بن العاص ،وبناء على اصراره ، رغم معارضة الخليفة لها والذى يأتى الآن فيلوم قائده على التراخى والتهاون ، أو ترى هل كان عمر بن الخطاب يحس بالغيرة الشخصية من كبار قادته العسكريين الناجحين ؟ لا ريب فى ان معاملاته لخالد بن الوليد ، والمثنى ابن حارثة ، وسعد بن أبى وقاص وأخيرا لعمرو بن العاص ، يمكن أن تعتبر دليلا على صحة هذا الاستنتاج . (١)

وقد رد عمرو على رسالة الخليفة وتهديده ذاكرا بانه خدم رسول الله ثم خدم خليفته ابا بكر . وكان عند حسن ظنهما به اذ ادى الامانة

---

(١) غريب أمر المؤلف وغريبة هذه الاستنتاجات السخيفة التى يصل اليها والتى تبعد كثيرا من الطريقة العلمية في الاستقراء والاستنتاج لكن هذا الاستغراب يزول اذا عرفنا الغاية الرئيسية من الكتاب ، وهى تشويه التاريخ العربى .

انه هنا يحار في الاسباب التى حملت الخليفة على ان يبعث بمثل هذه الرسالة الى عامله في مصر . ثم يحاول القول بأن ليس من حق الخليفة ان يحاسب عمرا لانه هو الذى فتح مصر ومادام انه هو الذى فتحها . وهو صاحب الخطة في فتحها فليس من حق الخليفة أن يحاسبه حتى ولو اخطأ . انه منطق غريب تناقضه حقيقة تاريخية تتصل بأمة المؤلف اذ الم يخيب الشعب البريطانى أمل تشرشل الذى كسب له الحرب الاخيرة فاسقط حزبه في الانتخابات ؟ فلو صحت حجة المؤلف لما كان من حق الشعب البريطانى أن يسقط حزب تشرشل .

وهو بعد ذلك يحار في تعليل معاملة عمر لامرائه وقواده . ويحاول ان يصل من حيرته هذه ، الى الطعن في شخصية عمر واتهامه بالغرض الشخصي ، والغيرة ، وهما صفتان لاتجتمعان في شخصية عظيمة كشخصية عمر بن الخطاب الفذة تميزت بالقوة وتضاءلت امامها الشخصيات الاخرى . ان الحقيقة التى فاتت المؤلف أو التى حاول تجاهلها ان عمر كان من الحاكمين الذين يشترون رضا الجماهير الشعبية بمصلحة الامراء فالامير في نظره فرد من الرعية . يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس . ومن هنا كانت شدته على عماله ورأفته على عامة الناس من رعيته . اذ يشعر بمسئوليته العظمى عن هذه الرعية وكان يقول دائما لو ان جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب .

ولعل أصدق صورة له تكذب استنتاجات المؤلف مانقلته كتب العرب عنه من انه خطب مرة فقال .. « أيها الناس انى والله ماارسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى ارسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الى ، فو الذى نفس عمر بيده لاقصه منه . فوثب عمرو بن العاص ، فقال : ياأمير المؤمنين أرأيتك ان كان رجل من امراء المسلمين على رعية . فأدب بعض رعيته . انك لتقصه منه قال أى والذى نفس عمر بيده ، لاقصته منه ، وكيف لا اقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه . الا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولاتجمروهم فتفتنوهم ولاتمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولاتنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

(المعرب)

خير الاداء . واضاف ان فى وسع الخليفة اذا شاء . ان يقيله من الامارة التى اضفاها عليه . اذ ان الله قد نجاه من جشع الدنيـــا وشرها وضاعتها ، ثم أنهى رســالته معاتبــا الخليفة على شدة لهجته اليه مؤكدا أنها لا تقال حتى ليهودى من أهل خيبر وطلب الغفران من الله للخليفة وله .

من المحال ان نتمكن على ضوء مالدنيا من معلومات قليلة من تكوين فكرة نهائية حاسمة بصدد موضوع هذا الخلاف فلقد رأينا من قبل أن الخليفة اتهم عمرو بن العاص نفسه بالاثراء . ولكن مما يخيب الامل ان نقرأ مثل هذه الكلمات القاسية التى تحمل معنى المطالبة باستخلاص المال ، صادرة عن الخليفة الطيب ، الذى يود المرء ان يحتفظ لنفسه عنه بصورة له تمثل البساطة والتواضع مجسمين فى خدمة الله . (١)

***

تواريخ مشهورة

عزل سعد بن ابى وقاص فاتح العراق	٦٤٢
معركة نهاوند	٦٤٢
احتلال اصبهان	٦٤٣
احتلال الرى	٦٤٣
احتلال طرابلس الغرب يونيو (حزيران)	٦٤٣

شخصيات مشهورة

النعمان بن مقرن	قائد العرب استشهد فى نهاوند
ابو موسى الاشعرى	امير البصرة وقائد العرب فى فارس
المغيرة بن شعبه	عزله الخليفة عن امارة البصرة ثم عينه اميرا للكوفة
عمرو بن العاص	فاتح مصر
عقبة بن نافع	قريب لعمرو بن العاص . وقائد الحملة على بلاد النوبة والسودان

---

(١) تتضح هنا نية المؤلف في كل ماكتبه . وهى المساس بشخصية عمر بن الخطاب وتشويه الصورة الصحيحة منه . فليس في تلك الرسالة في الحقيقة مايمكن أن يعاب به عمر بن الخطاب الا اذا أولت ، كما أولها المؤلف على نحو مغرض . (المعرب)

أبـولـؤلـؤة

اتمت الفوضى وضع تحفتها الفنية
وفتح أكثر انواع القتل دنسا
معبد الاله المقدس الذى طهره زيت الرب
متكهنا بلغة مرعبة
عن حرائق شديدة .. واحداث متبلبلة

من رواية ((مكبث)) لشكسبير

***

انحصر عصر العرب الذهبى فى الاثنى عشر عاما التى انقضت بين ٦٣٢ و ٦٤٤ والتى شملت عهد الخليفتين ابى بكر وعمر . وكانت هذه الفترة عهد وئام داخلى تام ، وفتح خارجى مستمر . واذا ما تسامحنا مع مبدأ الفتح العدوانى فليس ثمة ما ننكره فى سلوك الفاتحين العرب .

من كتاب فريمان ((تاريخ العرب))

قاد عمر بن الخطاب فى أكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٤٤ جريا على مألوف عادته منذ ولى الخلافة الناس الى موسم الحج فى ذلك العام • وكانت الامبراطورية الجديدة التى أنشأها تنعم ، اذا ما استثنينا بعض الاشتباكات الفردية المتفرقة فى الانحاء النائية من امارات فارس البعيدة بالطمأنينة والاستقرار • وقد انقضت حتى ذلك التاريخ عشر سنوات على تولى عمر شئون المسلمين • وقد بلغ الآن الستين من عمره تقريبا • وفى غضون هذه الفترة التاريخية انهارت الامبراطوريتان العالميتان العظيمتان فى وقت واحد وغدا الخليفة الحاكم المطلق فى امبراطورية شاسعة واسعة قامت على أنقاض الامبراطوريتين اللتين ورثت الحكم عنهما ، ولا أعرف عن حاكم أو سلطان فى تاريخ العالم كله فتح فى مثل هذه المدة مثل هذه المساحات الواسعة التى فتحت فى عهد عمر ثم خلفها سليمة متماسكة لتعيش عدة أجيال أخرى .

ولقد سبق لنا أن رأينا الخليفة يعين المغيرة بن شعبة قبل نحو من عامين أميرا على الكوفة على الرغم من التهمة السابقة التى وجهت اليه عندما كان أميرا على البصرة وكان للمغيرة مولى من مواليه عرفه العرب باسم أبى لؤلؤة . وهو فارسى المولد . وقع فى أسر الروم صبيا . فحملوه الى بلادهم حيث نشأ نصرانيا • ثم عاد فوقع فى أسر العرب وابتاعه المغيرة ابن شعبة . ويبدو أن العرب كانوا قد ألفوا السماح لمواليهم بالعمل واكتساب الرزق شريطة أن يدفعوا جزءا من مكسبهم الى أصحابهم ، ويبدو أيضا أن المغيرة كان قد خلف مولاه هذا فى المدينة وسمح له بالعمل فيها • وكان نجارا حاذقا لا يضاهيه فى مهارته فى المدينة نجار آخر • فبات فى وسعه أن يكسب أجورا طيبة عالية • ويقال أن أبا لؤلؤة بكى واستعبر عندما رأى أسرى الفرس فى معركة نهاوند يساقون الى المدينة ويقول بعضهم انه نشأ فى مدينة نهاوند التى قضى فيها طفولته •

وتقول الروايات ان هذا الرجل لقى الخليفة ذات يوم فى الشارع وهو لقاء يشرح لنا الحياة البسيطة المتواضعة التى كان يحياها عمر بن الخطاب • فهتف به طالبا أن ينصفه من مولاه المغيرة بن شعبه • وزعم له انه يرغمه على دفع درهمين له فى كل يوم وهو خراج كثير يتركه خالى الوفاض مما يمسك رمقه به • وكان الخليفة قد علم بأمر حرفته ومهارته

فيها • فرد عليه بأن هذا الخراج لا يعتبر كبيرا بالنسبة الى نجار حاذق يتقن مهنا أخرى بالاضافة الى مهنته ويكسب أجورا طيبة • وقد رد أبو لؤلؤة ردا قاسيا مشاكسا على الخليفة ثم مضى فى طريقه •

واجتمع الناس للصلاة صباح اليوم التالى بعد شروق الشمس فى المسجد الكبير فى المدينة لاداء صلاة الصبح • وبينما كانت صفوف المصلين تنتظم لاداء الصلاة انسل أبو لؤلؤة بين جموعهم ، حتى وقف فى الصف الامامى • وجاء عمر الى مكانه أمام المصلين ليؤمهم وقد أدار ظهره الى صفوفهم • وما كاد عمر يقول « اقيموا صفوفكم » ، ويرفع يديه قائلا : « الله أكبر » حتى كان أبو لؤلؤة • يهاجمه من خلفه ويطعنه بخنجر كان فى يده ست طعنات فى ستة أماكن مختلفة من جسده • وعندما سقط الخليفة الشيخ على الارض مضرجا بدمائه اندفع القاتل بين الصفوف يضرب بخنجره كالمجنون ذات اليمين وذات الشمال الى أن طعن نفسه بيده (١).

---

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف عن الروايات العربية ، وقد أوقعه اختلافه فى بعض الاخطاء منها ان الناس اجتمعوا لصلاة الصبح بعد الشروق ، بينما لاتقام صلاة الصبح الا قبل الشروق وبعد بزوغ الفجر . ومن الاخطاء أيضا انه طعن عمر رضي الله عنه بعد أن رفع يديه قائلا « الله أكبر » والصحيح انه طعنه قبيل التكبير وبعد الدعوة الى استقامة الصف . والخطيئة الثالثة انه طعن نفسه بيده بينما الحقيقة انه بعد أن طعن اثنى عشر رجلا توفي منهم ستة القى عليه رجل من أهل العراق ثوبا ليمنع حركته ويشلها فلما اغتم فيه قتل نفسه . والخطيئة الرابعة أن ابا لؤلؤة كان مجوسيا على حد قول ابن عباس ولم يكن نصرانيا .

وارى هنا ان نسرد القصة الحقيقية . لوفاة عمر بن الخطاب ..

روى سعيد بن المسيب لما نفر عمر من منى اثناء الحج . اناخ بالابطح ثم استلقى ورفع يديه الى السماء وقال اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى وانتشرت رعيتى فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط . فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل بعد عودته الى المدينة .

وروى ان كعب الاحبار جاء لعمر فقال : اجدك في التوراة تقتل شهيدا . قال عمر . وانى لى بالشهادة وانا بجزيرة العرب . وروى البخارى ان عمر قال : « اللهم ارزقنى شهادة في سبيلك واجعل موتى في بلد رسولك » .

وروى الحاكم ان عمر خطب فقال .. رأيت كأن ديكا نقرنى نقرة أو نقرتين ، وانى لا اراه الا حضور أجلى .

وقال الزهرى . وكان عمر رضي الله عنه لا يأذن لسبى قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب اليه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده جملة صنائع ويستأذنه في دخول المدينة ، ويقول ان عنده اعمالا كثيرة فيها منافع للناس . انه حداد نقاش نجار فأذن له بأن يرسله الى المدينة . وضرب عليه المغيرة مائة درهم في الشهر . فجاء الى عمر يشتكى شدة الخراج فقال ما خراجك بكثير ، فانصرف ساخطا يتذمر . فلبث عمر ليالى ثم دعاه فقال .. ألم اخبر انك تقول .. لو اشاء لصنعت رحى تطحن =

وحمل الرجل الشيخ الى أهله وكان بيته يطل على فناء المسجد .
ووضع على فراشه ولم يكن قد فقد وعيه • فطلب عبد الرحمن بن عوف وهو من الصحابة الاول وسأله عما اذا كان يوافق لو اختاره خليفة على المسلمين بعده • ولكن عبد الرحمن اعتذر عن قبول الخلافة • (١) وعاد عمر فاستدعى على بن أبى طالب ابن عم النبى ، وعثمان بن عفان وهو من أوائل الصحابة ، والزبير بن العوام الذى اقتحم برجاله حصن بابليون وسعد بن أبى وقاص فاتح العراق • واختارهم لجنة تتولى انتخاب من يخلفه (٢) وسنشرح عما قريب مادار من مداولات بينهم •

وعاد الشيخ المحتضر فاستجمع قواه ثانية ، وسأل عمن قتله • وعندما قيل له انه أبو لؤلؤة حمد الله وأثنى عليه • ان لم يقتله رجل سجد لله سجدة • مما يجعله فى عداد الشهداء الذين يكافأون بدخول الجنة فورا • (٣) وشرب بعض الحليب ولكن الســـائل عاد فخرج من

= بالريح ؟ فالتفت الى عمر عابسا وقال .. لاصنعن لك رحى يتحدث الناس بها . فلما ولى قال عمر لاصحابه أوعدني العبد آنفا ثم انصرف عمر الى منزله فلما كان الغد جاءه كعب الاحبار فقال يا أمير المؤمنين اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام . قال وما يدريك. قال أجده في كتاب الله التوراة . قال عمر . والله ، انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة . قال اللهم لا . ولكن أجد صفتك وحليتك . وانه قد فنى أجلك . وعمر لا يحس وجعا ولا ألما . فلما كان من الغد . جاءه كعب فقال .. يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان . ثم جاءه من الغد فقــال .. قد ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك الى صبيحتها .

ولو صحت هذه الحكاية . وانه قد انقضي على مقابلة أبى لؤلؤة لعمر ثلاثة أيام قبل اقتراف الجريمة لثبت أن لكعب يدا في مقتل عمر . وان مصرع الخليفــة كان نتيجة مؤامرة شعوبية وان كعبا كان على علم بما تم الاتفاق عليه بين المؤتمرين . ولم ينقل نبأها الى الخليفة الا لينال مركزا عظيما عند المسلمين . وليصدق الناس توراته اذ ليس في التوراة أى ذكر لما قاله كعب الاحبار هذا .

(١) ليست الرواية الصحيحة كما يقول المؤلف ان عمر بن الخطاب اســتخلف عبد الرحمن بن عوف فاعتذر هذا عن القبول . وانما هى ان عمر عندما أصيب قال : أفي الناس عبد الرحمن بر عوف ؟ قالوا : نعم هو ذا . قال تقدم فصل بالناس ، وكان الموضوع امامة للصلاة في ذلك اليوم لا استخلافا كما فهم المؤلف .

(٢) نسي المؤلف اسما سادســـا هو طليحة بن عبد الله . وهؤلاء الســـتة مع الباقون من العشرة المبشرين بالجنـــة ، اذ توفي الاربعـــة البـــاقون . وهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وشرحبيل .

(٣) أخطأ المؤلف هنا خطأ كبيرا . فلم يكن عمــــر رضي الله عنه بحـــاجة الى الاستشهاد لدخــول الجنة . اذ انه من العشرة الاوائل الذين بشرهم النبى بدخـــول الجنـــة . (المعرب)

جرحه الناغر دون أن يتبدل وراح يقول .. أوصى الخليفة من بعدى ، بتقوى الله ، وأوصيه بالمهاجرين والانصار ، وأوصيه بأهل الامصار خيرا

وبعد أن غرق فى تأملاته بضع دقائق . طلب الى ولده عبد الله أن يذهب الى عائشة زوجة النبى ، فيستأذنها فى أن يدفن مع صاحبيه محمد وأبى بكر ، فى غرفتها وفى صباح الثالث من نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٤٤ انتقلت روحه الى جوار ربه بعد أن أدى الشهادتين .

من المحال على المرء أن ينكر على عمر بن الخطاب حقه فى العظمة ، فلقد عرف فى شبابه بالميل الى التهور وحدة المزاج . وكان هو الذى حث النبى بعد معركة بدر على قتل أسرى قريش . ولكن تحمل المسئولية وكبر السن احدثا الكثير من التبدل فى شخصيته . فأصبح ميالا الى الصبر والتسامح . ولم يكن يرضى بأى تهاون فى خدمة الله ولكنه كان كثير التسامح واللين فيما يخصه هو شخصيا . ويحس ببالغ العطف والاشفاق على الفقراء . وعلى الرغم من أن مؤرخى السير يحبون أشد الحب التضخيم فى التحدث عن تواضعه وفقره وبره واحسانه الا أنه لا يستطيع انسان أن يشك لحظة واحدة فى انه كان السيد المطلق الفرد الذى لا ينافسه انسان فى الامبراطورية العظيمة التى نمت نموا مدهشا فى عهد خلافته القصير . ولقد سبق لنا أن رأينا سنة ٦٣٩ عام قحط ومجاعة فى الحجاز . وعلى الرغم من الثروات الطائلة التى جمعها الكثيرون من المسلمين ، الا أن الغذاء كان مفقودا فى البلاد . وظل كذلك حتى وصلت قوافل الغذاء من سورية والعراق . ويروى لنا المؤرخون كيف كان الخليفة فى تلك الاسابيع الشاقة العسيرة يطوف فى شوارع المدينة أثناء الليل لا يرافقه الا خادمه وكان الرجلان «الخليفة وخادمه» يحملان كيسا من الدقيق وقربة ملأى بالسمن ليمسكا بما يقدمانه رمق الجياع من المحتاجين والفقراء . وكثيرا ما يفرغ الكيس أثناء الطواف فيهرع التابع ليأتى بكيس آخر . وتحدثنا الروايات ان الخليفة جلس ذات ليلة الى جانب امرأة عجوز جائعة وأخذ يعينها فى اشعال النار وطهى الطعام لها ولأسرتها .

وقد قدر للعرب والمسلمين فى القرون التالية ان يعانوا الامرين من بعض الخلفاء الكسالى والتافهين والمبذرين او الخلفاء الماجنين أو الغلاظ القلوب . وكان من طبيعة الرواة المسلمين فى عهود مثل هؤلاء الخلفاء ان يكثروا من الحديث عن الخليفتين الاولين وان يرووا مع التزويق احيانا قصص ما امتازوا به فى حياتهما الخاصة من تواضع وبساطة واحسان رغم انتصاراتهما الرائعة فى ميادين الفتوحات وقد تكون

بعض المبالغات قد ادخلت على قصص طواف عمر الليلى لتفقد احوال الرعية وغوث الفقراء والمحتاجين . ولكن الحقيقة الناصعة التى لايتطرق اليها شك هى انه كان صورة للبساطة والديموقراطية ، وذلك لان هاتين الصفتين كانتا ولا تزالان ذائعتى الانتشار فى الجزيرة العربية حتى يومنا هذا . وكان أسرى الحرب من الفرس والروم يصلون الى المدينة ، وهم يتوقعون أن يروا فيها قصورا يسودها البذخ والترف الامبراطوريين على النحو الذى ألفوه فى المدائن والقسطنطينية . ولكنهم سرعان مايفاجئون فيرون بدلا من ذلك حفنة من العرب الجالسين على الارض فى الباحة الترابية التى تؤلف ميدان المدينة المبنية من الطين . وكان بين هذه الحلقة ، رجل طويل ، نحيل القامة (١) أصلع الرأس ، حافى القدم يرتدى عباءة مرقوعة من الصوف الخشن ، هو الامبراطور الذى لا يدانيه فى عظمته وقوته ، أى امبراطور آخر ، فى عالم ذلك العصر .

وهناك قصة طريفة أخرى تروى عن عمر ابان احدى زياراته لسورية فقد حدث أن مر بأيلة فى جنوب شرق الأردن (العقبة الحالية) وهو فى طريقه الى الشمال فحل ضيفا عند مطران البلدة المسيحى لقضاء الليل عنده • وعندما أراد الخليفة النوم ، نزع عنه قميصه فسلمه الى مضيفه مشيرا الى شق فى كتفه وطالبا اليه اصلاحه ، ان أمكن قبل طلوع الصباح• وعاد المطران عند الفجر الى ضيفه ، وقدم اليه قميصه القديم بعد أن أصلح ، وغسل وكوى كيا متقنا ، وكان صاحب البيت قد أخفى تحت القميص القديم قميصا جديدا آخر حمله معه الى الخليفة • ووضع المطران الرزمة التى يحملها ، وكان على وشك أن يغادر الغرفة التى يقيم فيها الخليفة عندما رأى هذا القميص الجديد فسأل عنه ، ورد المضيف الطيب قائلا : « ظننا انك قد تحتاج الى قميص آخر فى مثل هذه الرحلة الطويلة » ورد الخليفة ••• بأن ثوبه القديم خير له ، وأعاد الثوب الجديد الى صاحبه •

ويروى الطبرى ان عمر بن الخطاب قال فى احدى خطبه انه لا يبعث بالامراء والعمال ، الى الامصار ليضربوا الناس أو يغتصبوا حاجاتهم ، وانما ليرشدوهم الى أمر دينهم وسنة رسولهم • ويروى

---

(١) يقول ابن عساكر ، ان عمر بن الخطاب كان رجلا جسيما لا نحيلا كما يقول المؤلف وقد ايد معظم المؤرخين العرب وبينهم الطبرى والطبرى رواية ابن عساكر .

(المعرب)

الطبرى انه قال في خطاب آخر : انه يود لو استطاع أن يزور الامصار كلها ، قاضيا في كل مصر شهرين على الاقل ليتأكد من ان كل انسان في البلاد التي يحكمها العرب كان قادرا على أن يشكو ما يحس به من تظلم الى الخليفة شخصيا • وهناك قصة تروى عن صاحب حق ، جاء يرفع دعواه الى المدينة ، فسأل أحد الناس فيها ، اذا كان يستطيع الحصول على اذن بمقابلة الخليفة ليرفع اليه ظلامته ••• فرد الرجل بأن ليس ثمة من حجاب بين الخليفة والرعية ، وان في وسعه أن يرفع اليه ظلامته في أي يوم عندما يلقاه في الشارع أو في المسجد •

وكثيرا ما كان استعداده الكلى لسماع كل شكوى وكل ظلامة ، ولوضع الحق في نصابه فورا حتى على حساب عماله ومساعديه ، سببا الى الاخلال بالانضباط في صفوف جنوده والاضعاف من مكانة عماله وامرائه في الامصار النائية والدائمة الاضطراب • ولكن النتائج السيئة لهذا الاسلوب في الحكم لم تظهر الا بعد وفاته •

ولا ريب في أن قضاء الحاكم لمثل هذه الارجاء الفسيحة ، يومه في الاستماع الى ما يهمس به الناس في أسواق المدينة ، وليله في حمل أكياس الدقيق لتوزيعها على الارامل والمحتاجين ، ليس الا دليلا على أوضاع الحكم البدائية التي ظلت قائمة في الامبراطورية • وقد يحسد الحاكم في القرن العشرين تلك الايام السعيدة التي كان فيها الرجل قادرا على حكم امبراطورية فسيحة الارجاء ، دون أن يخط بقلمه كلمة واحدة ولكن حتى لو كان الحديث شبيها لعمر بن الخطاب في بساطته وديموقراطيته، فانه سيعجز عن قضاء أيامه كلها في الحديث الى الناس في الشوارع والطرقات • لكن الخلفاء الاوائل كانوا أحرارا في متابعة المحاسبين وفي نجوة من تقديم التقارير الشهرية ، أو الرد على الاسئلة الدورية في البرلمانات • ولم يكونوا ليجدوا عند مجيئهم الى مكاتبهم في صبيحة كل يوم مجموعة من الملفات الواردة تتطلب اتخاذ الاجراءات اللازمة • ولقد سبق لنا أن رأينا كيف ان عمرو بن العاص ، اكتفى بعد فتح حصن بابليون في مصر بارسال رسالة شفوية الى المدينة ليعلم الخليفة بالنصر الذي حققه •

وعلى الرغم مما في قصص الخلفاء الحفاة من خيال ابداعي (رومانطيقي) الا ان نظام الحكم الذي اتبعوه ، لم يكن خاليا من النتائج السيئة الخطيرة فلقد ظلت ادارة الامصار التي فتحها العرب من الفرس في أيدي موظفيها السابقين نظرا لافتقار جهاز الحكم الى الموظفين

الأكفاء من العرب المدربين وكانت الحسابات العامة لا تزال تدون باليونانية أو الفارسية ، وهما لغتان لم تكن هناك الا قلة من العرب تعرفهما • ومن المحتمل أن يكون النقص فى خراج مصر ، الذى أثار غضب الخليفة على عامله عمرو بن العاص ناجما عن افتقار الموظفين البيزنطيين السابقين الذين كانوا يجبون الخراج والجزية الى الامانة ، ولكننا نعرف فى الوقت نفسه ان عددا من الفاتحين العرب كانوا قد جنوا ثروات طائلة ولم تكن ثمة طريقة للحيلولة دون ذلك بسبب الافتقار الى الجهاز الكافى من الموظفين • ولكن عمر كما رأينا ، كان يعالج هذه المشكلة بطريقة سريعة ولا تخلو من القسوة اذ لا يكاد يسمع من الناس ان أحد عماله أو امرائه قد أثرى حتى يوفد ممثلا له يصادر منه نصف ما يملكه •

ويصل بنا هذا القول الى أهم مزية من مزايا عمر بن الخطاب • فالمؤرخون المسلمون يتحدثون كثيرا ، ولهم كل الحق فى ذلك ، عن ورعه وتواضعه وتفانيه فى اداء واجبه ، ولكننا لا نسمع من أى منهم عن مزاياه القيادية • ولكننا نراه يرسل أكثر من مرة ، رسائل الى قادته الظافرين المنتصرين ، وهم على رءوس جيوشهم فى امصار نائية يأمرهم فيها بتسليم قياداتهم الى غيرهم ، والتخلى عن نصف ما يملكونه الى بيت مال المسلمين . ولم نسمع قط أن أيا منهم قد تردد لحظة واحدة فى اطاعة الأمر وانفاذه ، ولا يمكن أن تعزى هذه الطاعة العمياء الى الدين وحده ، اذ اننا سنرى بعد قليل خليفة عمر ، يواجه بالعصيان المكشوف الذى أدى فى النهاية الى الاطاحة به •

***

كان ابو لؤلؤه ، قاتل عمر ، من الفرس ، وكان الهرمزان ابرز من فى المدينة من الفرس ، فى تلك الايام ، وهو النبيل الذى تمكن من انقاذ حياته بالحيلة التى لجأ اليها وهى صب الماء الذى كان يوشك على شربه على الارض • ولم يكد عمر ينتقل الى جوار ربه ، حتى كان ولده يسارع الى الهرمزان فيقتله ثأرا لمصرع أبيه • وكان هذا الولد بوصفه عربيا قد فكر أول ما فكر بالثأر لأبيه • ويروى الطبرى أن أحد الناس ذكر أمام ابن الخليفة انه كان قد رأى الخنجر الذى طعن أبو لؤلؤة به عمر بن الخطاب فى حيازة الهرمزان • ولكننى أرى من غير المعقول أن يكون الهرمزان قد تآمر على قتل عمر لأن الخليفة كان قد أنقذ حياته وخصص

له جعلا شهريا (١) يضاف الى هذا ان الهرمزان كان نبيلا فارسيا وحيدا يعيش فى عاصمة العرب . ولكن عمر قتل قتلا وحشيا على يد أحد الفرس ، ومن الواجب التكفير عن هذه الجريمة فى عرف العرب ، بدم فارسى آخر هو الهرمزان .

***

لعل من أصعب المشاكل فى الحكم الانسانى العثور على طريقة سليمة لاختيار من يخلف حاكما عند موته · ولقد كانت هذه المشكلة من النوع الذى لم يتمكن العالم القديم قط من حله ، وهى ما زالت حتى يومنا هذا من أقوى الحجج ضد نظام حكم الفرد ، وكانت هذه المشكلة أيضا من القضايا التى لم يترك النبى أية تعليمات محددة واضحة بصددها · وكان النبى قد عين ابان مرضه الاخير أبا بكر ليؤم الناس · ولكن اختيار الخليفة الاول كاد يؤدى كما رأينا من قبل الى نزاع داخلى خطير فى الدولة الحديثة ·

وكان أبو بكر قد اختار عمر فعلا لخلافته وكان هذا من القوة بحيث استطاع أن يفرض كلمته دون معارضة ، ومن المحتمل أن يكون عبد الرحمن بن عوف الذى رفض عرض عمر أن يخلفه هو أصلح الناس للخلافة اذ دلل رفضه على تجرده من أية مطامح شخصية أو أطماع أو تعشق للسلطان · على أى حال اجتمعت اللجنة التى اختارها عمر بعد وفاته ، لاختيار الخليفة الجديد ولما كان جميع أعضاء هذه اللجنة قد قدر لهم أن يلعبوا أدوارا بارزة فى السنوات التالية ، فاننى أرى من الجدير بنا أن ندرس أوضاعهم ، واحدا واحدا بصورة أكثر دقة ·

كان على بن أبى طالب ابن عم النبى وقد نشأ فى بيته وفى رعاية

---

(١) منطق سخيف لا يسنده اى دليل اذ متى كان الاحسان لانسان سببا في براءة هذا الانسان من الاجرام بحق المحسن اليه . وقديما قيل ... اتق شر من احسنت اليه . وانا لا اشك وان كانت الدلائل غير كافية باستثناء دليل تحذير كعب الاحبار في ان قتل عمر كانت أول مؤامرة دبرها الشعوبيون ضد العرب وهى كثيرة في تاريخهم الطويل المشترك . ولعل السبب في افتقار الادلة هو مصرع ابى لؤلؤة الفورى. اذ لو عاش لامكن استخلاص الحقيقة منه ومعرفة شركائه ولكن هذه الحقيقة ضاعت مع مقتل أبى لؤلؤة الفورى ونجاة شركائه من خطر الاكتشاف وافتقار العرب في تلك الايام الى أنظمة التحقيق الجنائى . ولعل السبب في القول بوجود التآمر الشعوبى ، هو ضعف السبب الذى عزاه المؤرخون لنقمة أبى لؤلؤة على عمر وقتله له .

(المعرب)

زوجته خديجة وكأنه ولدهما وزوجاه من ابنتهما فاطمة الزهراء وقد لعب دورا بارزا في حروب النبي اذ كان فارسا مغوارا ولا سيما في المبارزة الفردية ٠ وقد أقام في المدينة بعد وفاة النبي ولم يخرج منها اذ ظل يعمل مستشارا لابي بكر وعمر ٠ وكان في هذه الآونة قد أصبح في أوسط العمر ، ميسور الحال ، مهيب الصورة والمنظر ٠

أما عثمان بن عفان فهو ثاني أعضاء اللجنة وينتمي الى بني أمية التي كانت تضم في الماضي أكثر الناس في قريش ثراء والتي كان يتولى زعامتها أبو سفيان . وكان عثمان قد بنى بابنتي رسول الله على التعاقب ، وقد أوفده النبي يوم صلح الحديبية الى مكة لمفاوضة قريش وهناك رواية تزعم أنه كان بين من ركنوا الى الفرار يوم أحد (١) ٠

وكان الزبير بن العوام العضو الثالث في اللجنة ، وهو أيضا من أقارب الرسول ٠ وكان هذا الصحابي هو الذي قاد جيش النجدة الذي بعد اثني عشر ألف محارب ، والذي بعث به عمر بن الخطاب الى مصر لمساعدة عمرو بن العاص ثم تولى أخيرا الهجوم مرتقيا السلم ليقتحم حصن بابليون .

أما سعد بن أبي وقاص فكان العضو الرابع في اللجنة وهو فاتح العراق الذي طالما سمعنا باسمه. أما الخامس فكان عبد الرحمن بن عوف وقد رأيناه يرفض الخلافة لنفسه ولكنه يشترك في اختيار الخليفة (٢) ٠

وكان المجلس قد اجتمع ٠ وعمر يصارع سكرات الموت في غرفة مجاورة حيث بدءوا مشاوراتهم وسرعان ما علت أصواتهم أثناء النقاش المحتد بينهم حتى ان الخليفة طلب اليهم أن يؤجلوا المناقشات حتى تصعد روحه الى خالقها ٠ ولم يكد جثمانه يسجى في مرقده الاخير الى جوار صاحبيه ، حتى عادت اللجنة الى الاجتماع ٠ وقد أقيم حارس على مكان الاجتماع تلبية لأمر الخليفة المتوفى ، وقيل للمجتمعين ان الخليفة حدد لهم موعدا أقصاه ثلاثة أيام ، يجب أن ينهوا قبله مشاوراتهم وعليهم أن يختاروا قبل هذا الموعد خليفة للمسلمين ٠ ونص أمر الخليفة في حالة افتقار القرار الى الاجماع أن يؤخذ بالأغلبية على أن يؤخذ رأس

---

(١) ليس ثمة ما يؤيد هذه الرواية في كتب التاريخ المشهورة .

(٢) أغفل المؤلف ذكر العضو السادس وهو طلحة بن عبيد الله لانه كان غائبا عن المدينة ولم يشترك في الانتخاب وكان أمر عمر يقضي بأن يشترك في الانتخاب لو جاء قبل انتهائه . (المعرب)

المخالفين بالسيف ويبدو من هذا ان عمر لم يكن على استعداد لان يتيح لمرشح منهم الفرصة لاغراق البلاد فى حرب أهلية . ويظهر هذا النص ان احتمال نشوب الحرب الاهلية كان قد بدأ فى الظهور وهى حقيقة قد تفسر لنا الطريقة التى كان عمر يقيل فيها قواده الظافرين ، فلقد كان يخشى احتمال الثورة العسكرية (١) .

---

(١) أرى أن أسجل هنا القصة الكاملة لاوامر عمر باختيار الخليفة كما أوردها مؤرخو العرب . لقد ذكروا انه لما طعن عمر واحس بالموت طلب اليه أن يعهد الى خليفة من بعده ، فتردد وقال ان استخلف فقد استخلف من هو خير منى (يريد أبا بكر) وأن اترك فقد ترك من هو خير مني (يريد رسول الله) وقال . لو كان ابو عبيدةحيا لاستخلفته فان سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول : « انه امين هذه الامة » ، ولو كان سالم مولى ابى حذيفة حيا استخلفته فان سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله . فقال له رجل أدلك على عبد الله بن عمر فقال : قاتلك الله ، والله ما اردت له بهذا ، ويحك كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته . لا ارب لنا في اموركم ، ما حمدتها فارغب فيها لاحد من اهل بيتى . ان كان خيرا فقد أصبنا منه ، وان كان شرا فشرعنا الى الله . حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن امر امة محمد (صلعم) . اما لقد أجهدت نفسي وحــــرمت أهلى فان نجوت كفافا لا وزر ولا اجر انى لسعيد .

ثم كرر عليه القول بعد هنيهة ، فقال : كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن انظر فاولى رجلا أمركم هو أحراكم ان يحملكم على الحق واشار الى عبد الرحمن ثم رأيت الا اتحمل امركم حيا وميتا ، عليك هؤلاء الرهط الذين قال رســـول الله (صلعم) انهم من أهل الجنة على وعثمان ابنا عبد مناف ، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير ابن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا فاذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته ، واعينوه ان ائتمن أحدا منكم فليؤد أمانته ثم دعا هؤلاء الرهط ، وقال لهم ، انى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هــذا الامر الا فيكم وقد قبض رسول الله وهو منكم راض.انى لا أخاف الناس عليكم أناستقمتم ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، ثم عين لهم الاجل الذى يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام بعد موته وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتمونى في حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجــــلا منهم وقال لصهيب : صل بالناس ثلاثة أيام واضاف للمقداد وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعدا وعبد الرحمن وطلحــة ان قدم واحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الامر وقم على رءوسهم فان اجتمـــع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحدا فاشدخ رأسه بالسيف وان اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما فان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله ابن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمــع عليه الناس .

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل في حجرة عائشة . ولم يكن قد حضر طلحة . (المعرب)

وسرعان ما ظهر ان الترشيح الجدى انحصر بين رجلين هما عثمان ابن عفان وعلى بن أبى طالب • فلقد كان كلاهما من اصهار رسول الله • وكانا من المسلمين الاوائل • وعلى الرغم من ان سعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام كانا من كبار المحاربين الا انهما لم يعتبرا من المنافسين الخطرين للمرشحين الاولين •

ودار نقاش حاد بين على وعثمان • واحتد وطيس التنافس بينهما اذ كان كل منهما يصر على حقه فى الخلافة وانقضى يومان دون أن يصل أصحاب الشورى الى قرار حاسم وعندما طلع صبح اليوم الثالث جاء قائد الحرس (يعنى المقداد بن الاسود) فقرع الباب على من فى الغرفة من أهل الشورى وأنذرهم بأن قرارهم يجب أن يصدر فى ذلك اليوم • وألقى العبء الاكبر من المسئولية على عاتق عبد الرحمن بن عوف الذى اعتبره المسلمون أحق مرشح بالخلافة لو ارتضاها • وراح يعلن صبيحة اليوم الثالث رسميا استعداده لسحب ترشيحه شريطة أن يرتبط الاربعة الآخرون بمن يختاره خليفة للمسلمين(١) وقد وافق الجميع على طلبه وان جاءت موافقة على بعد لأى وتردد •

وليس ثمــة من شــك فى أن عبد الرحمن بن عوف كان قد قضى اليومين الاخيرين يسبر أغوار الرأى العام فى المدينة ، وراح الآن يجتمع الى كل من الاربعة على انفراد • وجدير بنا أن نذكر ان المنافسات العائلية كانت قد ظهرت بين أحفاد قصى بن كلاب الرجل الذى أقام لقــــريش سلطانها فى مكة منذ أمد طويل قبل الدعوة الاسلامية • وقد أدب هذه المنافسات الى اقتسام مظاهر الزعامة وحقوقها بين بطون قريش فاحتفظ

---

(١) يبدو أن طلحة السادس من رجال الشورى قد وصل الى المدينة قبل انتهــاء المشاورات خلافا لراى المؤلف الذى يصر على بقائهم خمسة ، فقد روى السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء ان الستة اجتمعوا فقال لهم عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم فقال الزبير جعلت أمرى الى على ، وقال سعد جعلت أمرى الى عبد الرحمن وقال طلحة جعلت أمرى الى عثمان ، فخلا الثلاثة وقال عبد الرحمن انا لا أريدها فأيكما يبرأ من هذا الامر ونجعله اليه ؟ والله عليه والاسلام لينظرن أفضلهم فى نفسه ، وليحرص على صلاح الامة فسكت الشــيخان على وعثمان وقال عبد الرحمن اجعلوه الى والله على لا آلوكم عن افضلكم قالا نعم . فخلا بعلى وقال : لك من القدم فى الاسلام والقرابة من النبى عليه الصلاة والسلام ما قد علمت الله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عليك لتسمعن ولتطيعن قال نعم ثم خلا بعثمان فقال له كذلك فلما أخذ ميثاقهما بايع عثمان ، وبايعه على بعد احجام •

(المعرب)

بنو عبد الدار بشرف حمل الراية فى الحـــروب والاحتفاظ بمفاتيح الكعبة • وكان نصيب بنى أمية الحق الوراثى فى قيادة قريش الى الحرب بينما عهد الى بنى هاشم برفادة الحجيج وسقايتهم وبدا وكأن المنافسات القبلية بين بطون قريش قد انتهت بهذه التسوية ولم يكن من قبيل الصدفة ان محمدا لقى الحماية من بنى هاشم عندما بدأ يبشر بدعوته ، بينما تمثلت المعارضة الرئيسية له فى شخص ابى سفيان زعيم بنى أمية وهكذا ظلت الحزازات القبلية تطل برأسها بين آونة وأخرى •

ولم يكن من قبيـــل الصدفة العارضة الآن ايضا أن يكون أحـــد المرشحين المتنافسين على الخلافة من بنى أمية وأن يكون ثانيهما من بنى هاشم . فلقد عادت الخلافات القبلية بين البطنين من بطون قريش والتى تعود الى أيام الجاهلية ، تنذر بالظهور وكان الجميع الآن ولا ريب من المسلمين الصادقين ولكن برغم هذا الاسلام ، فان المنافسات القبلية كانت لا تزال تثير الولاءات القديمة .

وأخيرا أهل فجـــر اليوم الرابع وارتج مسجد النبى بأهله ممن توافد اليه من أبناء المدينة انتظارا لمعرفة ما تم اليه قرار أهل الشورى ولكن هؤلاء لم يكونوا قد وصلوا الى قرار بعد • وصعد عبد الرحمن المنبر وهو متردد ، ودعا المجتمعين الى ابداء رأيهم وسرعان ما ارتفعت الهتافات من المجتمعين بعضها يؤيد عليا والبعض الآخر يؤيد عثمان بن عفان وتصايح أنصار الرجلين ، وتبودلت العبارات العنيفة وساد الهرج والمرج• وأصبح الجو مكهربا بحيث توقع العقلاء الا تنقضى لحظات حتى تســتل السيوف والخناجر من اغمادها وتسيل دماء المسلمين فى مسجد النبى• حقا انها للحظة دقيقة تتطلب الحسم • وكان التـــأجيل فى البت أكثر خطورة من اتخـــاذ أى قرار • وهمس سعد بن أبى وقاص فى أذن عبد الرحمن بن عوف يقـــول : « يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس » •

واستجمع عبد الرحمن رجولته كلها • وطلب الى المجتمعين الصمت وهتف قائلا : أيها الناس انى قد نظرت وشاورت فلا تجعلنى أيها الرهط على أنفسكم سبيلا • ودعا عليا للمثول أمام الناس وقال له « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله ، وسنة الخليفتين من بعده » فقال على أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى • ثم دعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى فرد هذا بالايجاب •• فبايعه عبد الرحمن

بالخلافة ، بعد ان توجه الى الله بدعاء قصير ، وسرعان ما لحق به الناس فبايعوا عثمان بالخلافة دون ضجة • وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة فاستقبل بخلافتها عام أربعة وعشرين • وفى هذه الاعوام تغيرت خريطة العالم رأسا على عقب اذ انهزمت الامبراطوريتان العظيمتان ، وظهرت قوة عالمية جديدة احتلت محلهما •ولم يسبق أن ظهرت امبراطورية جديدة فى تاريخ البشرية بمثل هـذه الصورة المفاجئة المباغتة • ولكن فى هذه السـنة الرابعة والعشرين من مولد الدولة الجديدة كانت بذور الخلاف فى هـــذه الامبراطورية قد بـدأت في الظهـور وكانت قريش هى التى بنت تلك الامبراطورية ، وهى التى قدر لها أن تهدمها •

***

مرت السنة الاولى من خلافة عثمان بهدوء وعلى الرغم من المنافسات العنيفة التى أثارها انتخابه مؤقتا فى المدينة الا أن الامصار استقبلت النبأ بهدوء ودون أى اعتراض •

كان عثمان قد بلغ السبعين من عمره عندما بويع بالخلافة وتقول الروايات : انه كان الرجل الرابع فى الاسلام بعد أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة ، وكان أحد الذين هاجروا الى الحبشة ؛ ابان فترة الاضطهاد الأولى ثم عاد الى مكة ليهاجر ثانية الى المدينة • كان متوسط الطول جسيم البنية كثير الاناقة وان امتلأ وجهه بآثار الجدرى ، وكان شعره المتموج ينسدل الى مادون أذنيه بينما تملأ وجهه لحية كثة طويلة ويروى عن النبى انه قال : انا نشبه عثمان بأبينا ابراهيم • وعلى الرغم من أنه كان من بنى أمية الى أن أمه كانت من بنى هاشم ، ومن هنا جاز ان يقال انه كان واسطة العقد بين بطنى قريش المتنافسين واللذين أدى تنافسهما الى تمزيق العالم الاسلامى •

ويقال انه عندما اعتنق الاسلام ، أخذه عمه فأوثقه رباطا وقال : ترغب عن ملة آبائك الى دين محدث ؟ والله لا أدعك أبدا حتى تدع ماأنت عليه ولكن عثمان احتمل اضطهاد عمه بصبر عجيب ورد عليه قائلا : والله لا أدعه أبدا ، ولا أفارقه ، فلما رأى عمه صلابته فى دينه تركه •

وعندما جهز النبى جيش العسرة فى الصـيف الى تبوك ، وكان المسلمون فى أمس الحاجة الى وسائل النقل ، فى ذلك القيظ ، جهـــز عثمان من ماله الخاص ٩٦٠ بعيرا وخمسين جوادا ، وهو تبرع لا شك

في سخائه بالنسبة الى تلك الايام المعسرة • ويقال ان النبي وعده بالجنة بعد تجهيزه لجيش العسرة . وتقول الروايات أيضا ان النبي وعده ذات مرة بأن يلقاه في الجنة ، وهو وعد تذكره الخليفة الشيخ بعبارات مؤلمة قبيل مصرعه • ولقد كان عثمان السمح الكريم ، الرجل الذي أوفده النبي الى قريش ليفاوضها يوم الحديبية عندما كان الوضع في منتهى الحرج والشدة • ولعل أروع اطراء من الرسول له يتمثل في قوله عنه ان الملائكة تستحيي منه ، وهي شهادة توحي بأن عثمان كان في منتهى الطهر والبراءة ، والبعد عن الزيف والاصطناع وبلوغ حدود السذاجة بالنسبة الى مطامع الانسان الدنيوية •

وتوحي القصص والروايات التي وصلت الينا بأن الخليفة الجديد كان انسانا سمحا جميل الوجه والصورة مهيب الطلعة • كثير التقى والورع والتواضع لين الجانب محبوبا الى من يعرفه • وكان في بداية عهده أقرب الى قلوب الناس من عمر المتزمت الصلب • وذلك لما عرف عنه من لين وتسامح ، واخلاق رضية وحسن معاملة لأصدقائه ورعاياه •

لكن سوء طالعه شاء أن يكون من بني امية البطن من قريش الذي اشتهر بالثروة والنفوذ في الجاهلية • فبالاضافة الى ما تميز به هذا البطن من حق وراثي في قيادة جيش قريش في الحروب ، ضم أكبر تجار مكة الذين ألفوا المال والترف بالنسبة الى ماعرف في الجزيرة العربية في القرن السابع • ويقيم تبرعه السخي لجيش العسرة في حملة تبوك الدليل على أن عثمان كان من الاثرياء في الجاهلية ومن المحتمل أن يكون ثراء بني أمية ، قد جعل منهم أناسا يتعلقون بالمادة والدنيا • ولقد كانوا تحت قيادة أبي سفيان ألد أعداء الرسول حتى فتح الله مكة لنبيه• وسرعان ما رأينا بني أمية ينقلبون الى الجانب الآخر • وقال ولدا أبي سفيان مركزين كبيرين • فقد اختير يزيد قائدا لجيش من جيوش المسلمين بينما اختير معاوية الولد الثاني كاتما لأسرار الرسول• وحارب أبو سفيان جنديا متطوعا في جيوش المسلمين وهاجر الى المدينة الكثيرون من بني أمية ، ليكونوا على مقربة من عاصمة الجاه والنفوذ في الامبراطورية الجديدة المتوسعة بسرعة هائلة ، اختار عمر يزيد بن أبي سفيان أميرا لسورية بعد وفاة أبي عبيدة • وعندما توفي يزيد خلفه في امارته أخوه معاوية ولكن على الرغم من هذه المناصب المهمة التي وصل اليها بنو أمية الا أن بني هاشم ظلوا يحتلون المكانة الأولى لظهور النبي منهم • ويطمع

الامويون الآن ، بعد وصول أحد رجالهم الى منصب الخلافة فى استعادة المكانة التى كانوا يحتلونها قبل ظهور رسول الله .

***

تواريخ مشهورة

مصرع عمر بن الخطاب	٣ نوفمبر (تشرين الثانى) ٦٤٤

شخصيات بارزة

عمر بن الخطاب	الخليفة الثانى
أبو لؤلؤة	المجوسى قاتل عمر
عثمان بن عفان	الخليفة الثالث

هيئة الشورى

على بن أبى طالب	ابن عم النبى
عثمان بن عفان	الخليفة المنتخب
الزبير بن العوام	بطل حصن بابليون فى مصر
سعد بن أبى وقاص	فاتح العراق
عبد الرحمن بن عوف	عرضت عليه الخلافة فاعتذر عن قبولها



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عثمان

« هو اول من اقطع القطائع ، وأول من حمى الحمى وأول من خفض صوته بالتكبير وأول من خلق المسجد ، وأول من أمر بالاذان الأول فى الجمعة ، وأول من رزق المؤذنين وأول من ارتج عليه فى الخطبة • وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فوض الى الناس اخراج زكاتهم ، وأول من ولى الخلافة فى حياة أمه ، وأول من اتخذ صاحب شرطة ، وأول من اتخذ المقصورة فى المسجد خوفا من أن يصيبه ما أصاب عمر • وأول ما وقع فى عهده الاختلاف بين الأمة فخطأ بعضهم بعضا فى زمانه فى اشياء نقموها عليه ، وأول من هاجر الى الله بأهله ، وأول من جمع الناس على حرف واحد فى القراءة ، وأول منكر ظهر بالمدينة فى عهده ، حين فاضت الدنيا ، وانتهى سمن الناس • » •

جلال الدين السيوطى فى تاريخ الخلفاء



كان السلام مخيما على كل جزء من أجزاء الامبراطورية العربية الجديدة عندما اغتيل عمر بن الخطاب فى عام ٦٤٤ · ولم يكن القتال دائرا الا فى فارس على شكل حركة بطيئة من حركات التوسع على عدد من الجبهات المختلفة والبعيدة بعضها عن بعض اذ على الرغم من تحطيم آخر جيش من جيوش يزدجرد فىمعركة نهاوند فان المقاومة المحلية ظلت مستمرة فى عدد من المناطق الجبلية المختلفة ، ويقول السيوطى ان العرب احتلوا مدينة الرى فى السنة الاولى من خلافة عثمان بن عفان ، ويبدو ان العرب كانوا قد احتلوها بعد معركة نهاوند ثم أضاعوها وعادوا الى احتلالها ثانية ·

ويبدو أن الممرات الجبلية عبر طوروس التى أضحت تفصل الآن بين الممتلكات البيزنطية وبين امارة سوريا العربية لم تكن فى هذه المرحلة مسرحا لعمليات حربية رئيسية ويبدو ان هرقل وهو يجلو عن سوريا ، كان قد أصدر أوامره باخلاء عدد من مدن المنطقة وتدميرها رغبة منه فى اقامة حزام من الارض الحرام بين الامبراطوريتين · لكن قتالا شديدا دار على أى حال فى الشمال البعيد فى ارمينيا ، حيث نشبت الثورات عند وصول الانباء اليها معلنة وفاة عمر بن الخطاب · وصدرت الاوامر الى معاوية والى الشام بارسال رتل قوامه ستة آلاف جندى وقيل بل ثمانية آلاف رجل الى ارمينيا بقيادة حبيب بن مسلمة ، وصدرت الأوامر أيضا الى أمير الكوفة بأن يرسل قوة أخرى قوامها ستة آلاف من الموصل باتجاه الشمال · وقد التقى الرتلان ، ولكن الاحتكاك وقع بين قائديهما واختلفا على القيادة العامة وعلى اقتسام الغنائم ، وأدى هذا الاختلاف الى افتراق الرتلين ثانية بحيث اتجه القادم من سوريا نحو الشمال أيضا باتجاه حدود جورجيا · وقد تصالحت عدة مدن وقرى مع الغزاة بعد أن وافق أهلها على أداء الجزية والخراج وفق الشروط المألوفة وتصالحت مدينة تفليس على نفس الشروط المألوفة ، ووجد العرب أنفسهم وجها لوجه أمام حاجز طبيعى تكسوه الثلوج هو جبال القفقاس ·

وكان الرتل القادم من العراق ، قد شق طريقه فى غضون ذلك الى الشمال نحو الطرف الشرقى من القفقاس ، الى الجنوب من مدينة باكو

الحالية ، ولكنهم وجدوا أنفسهم فى مكان ما فى هذه المنطقة وجها لوجه أمام قبائل الخزر • وتمكن الخزر من ابادة القوة الاسلامية التى تبلغ نحوا من أربعة آلاف مقاتل • اذ أحاط بهم العدو بقوات هائلة وظلوا يقاتلون حتى استشهد آخرهم ، وهم يهتفون حتى النفس الاخير ، الله أكبر ، لا اله الا الله » (١) •

وعلى الرغم من مثل هذه النكسات والاحداث المؤسفة فقد تمكن العرب من فرض حد كبير من السيطرة فى أعوام ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ على جميع المنطقة الممتدة حتى القفقاس وظلوا يعينون العمال والولاة لارمينيا واذربيجان • لكن وضع الحدود ظل مضطربا ولا سيما بالنسبة الى مناطق الخزر • وكان هؤلاء يؤلفون شعبا من أصل تركى، تمكن فى القرن السابع من السيطرة على جميع المنطقة الممتدة من القرم الى بحر قزوين • وكان خانات الخزر قد أعانوا هرقل بجيش قوامه أربعون ألفا من الرجال فى حملاته على كسرى أبرويز • وعندما وصل العرب الى أرمينيا بعد معركة نهاوند فى عام ٦٤٢ ، تعاون الخزر مع الروم فى الدفاع عن أرمينيا • وقد قدر للحروب بين العرب والخزر أن تستمر زهاء قرن من الزمن ظل القتال فيها سجالا الى أن أذعن الخاقان فى عام ٧٣٧ وأشهر اسلامه وخضعت منذ ذلك التاريخ جميع شعوب القفقاس للامبراطورية العربية الى أن انهارت نهائيا •

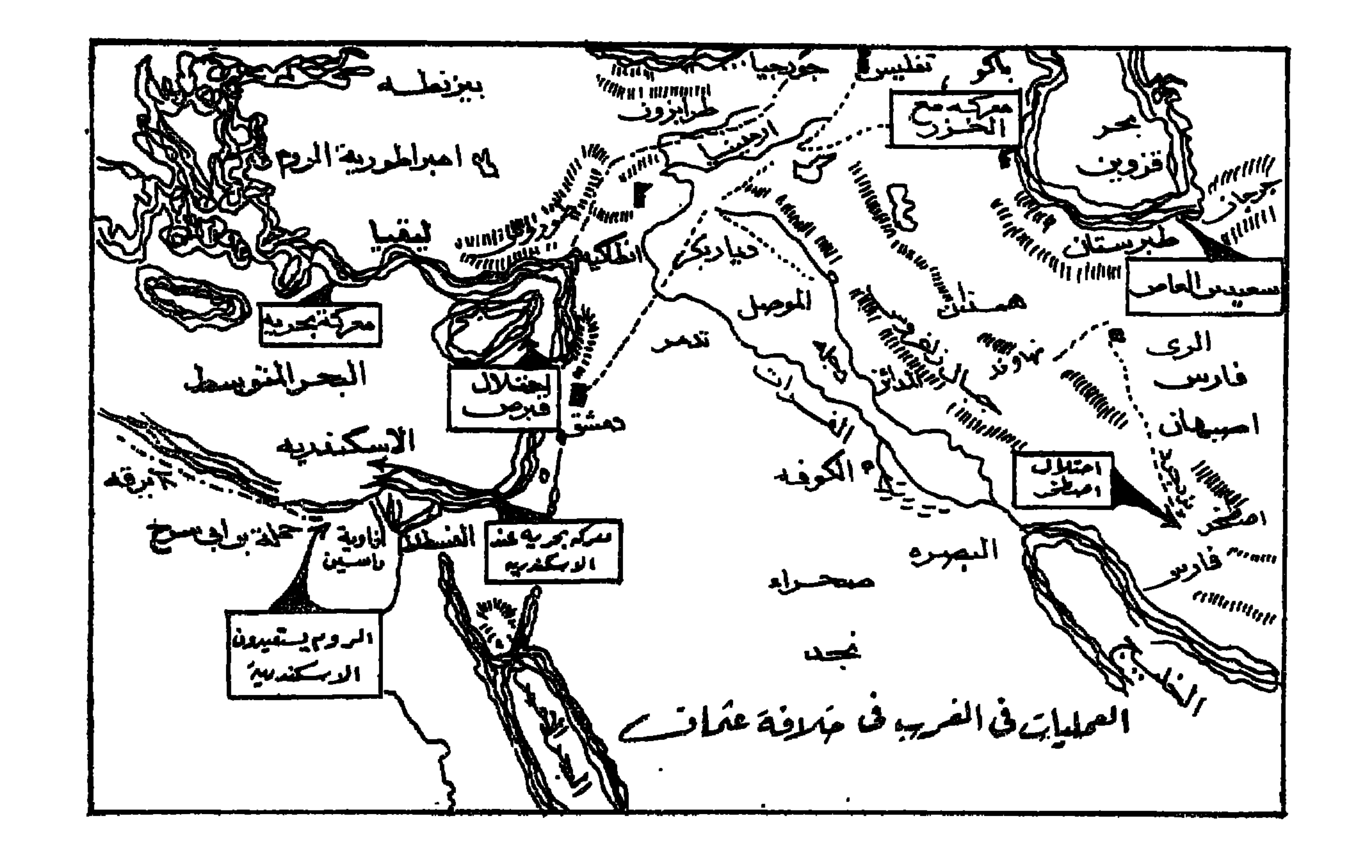
***

وبينما كانت العمليات العسكرية مستمرة فى أرمينيا وفارس وقعت أزمة عنيفة فى مصر فجأة • ويذكر القارىء ولا شك ان عمر بن الخطاب كان قد وجه اللوم الى عامله فى مصر ، عمرو بن العاص ، على تقاعسه عن جباية الخراج والجزية مطالبا اياه بزيادة ما يجبيه • وكان من آخر ما قام به الخليفة من أعمال قبيل مصرعه ايفاده رجلا يدعى عبد الله بن أبى سرح ، ليتولى عملية جمع الخراج ؛ مؤكدا بذلك شكوكه فى نزاهة عمرو بن العاص •

---

(١) تختلف رواية المؤلف هنا عن معظم الروايات الاسلامية • لقد قيل ان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى أوغل في بلاد الخزر حتى وصل بلنجر وهي أكبر مدنهم خلف باب الابواب ولكن الترك تجمعوا على العرب هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فاصيب عبد الرحمن وانهزم المسلمون فتفرقوا فرقتين فرقة عادت لتقابلت سلمان بن ربيعة الذى كان قد ارسل مددا لاخيه فنجت ، وفرقة اخرى اخذت طريق جيلان وجرجان •

(المعرب)


بيزنطة
امبراطورية الروم
ليقيا
معركة بحرية
البحر المتوسط
احتلال قبرص
الاسكندريه
برقه
حملة ابن ابي سرح
زاوية ياسين
الروم يستعيدون الاسكندرية
الفسطاط
معركة بحرية عند الاسكندريه
دمشق
تدمر
انطاكية
طرابزون
ارمينيا
جورجيا
تفليس
باكو
معركة مع الخزر
بحر قزوين
جرجان
طبرستان
سعيد بن العاص
ديار بكر
الموصل
دجلة
الفرات
الكوفه
البصره
صحراء
نجد
همذان
نهاوند
الري
فارس
اصبهان
احتلال اصطخر
اصطخر
الخليج
العمليات في الغرب في خلافة عثمان

وكان لعبد الله بن سعد بن أبى سرح هذا تاريخ مطعون فيه • فلقد كان اخا لعثمان بن عفان فى الرضاعة . وكان من أوائل المسلمين. وهاجر مع النبى الى المدينـــة فرارا من اضطهاد قريش • ويبدو أنه كان أكثر تعليما من ســـــائر قريش فاختاره النبى كاتبا له لتدوين آيات القرآن الكريم • ولكنه ما لبث لأسباب نجهلها أن فر من المدينة الى مكة ، حيث ارتد عن الاسلام واخذ يطعن فى النبى ، مثيرا الشكوك فى صدق نبوته • ولا ريب فى ان هذه الخيانة فى شخص كان موضع ثقة الرسول ، أثارت عليه سخطا عنيفا عند المسلمين • وعندما فتح النبى مكه كان ابن أبى سرح احد القلائل الذين لم يشملهم عفو النبى ، فظل مختبئا امدا من الزمن الى أن عفا عنه الرســول تحت تأثير شفاعة أخيه بالرضاعة عثمان ، وان كان النبى قد ذكر بانه اجل اصـــدار العفو عنه ، املا فى ان يقتله احد المسلمين • هذا هو الرجل الذى اوفده عمر بن الخطاب لجباية الخراج من المصريين • وليس ثمة شـــك فى كفاية الرجل ، وفى براعته فى جمع الخراج ، وان كان مطعونا فى اســلامه من الزاوية الدينية • ولعل من الغريب كل الغرابة ان يعين عمر بن الخطاب مثل هذا الرجل ، لا سيما وأنه كان قد أقال عددا من كبار القادة العسكريين من مناصبهم لما قيل عن تهاونهم فى شـــئون الدين . والمعتقد ان هذا الرجل كان ذا كفـــاية بالغة فى اعمال الادارة ، وهـــو امر كان نادر الوجود بين المســلمين الأوائل •

ولم تمض على تعيين ابن أبى سرح فى هذا المنصب فترة قصيرة حتى كان مصرع عمر بن الخطاب ، مما أدى الى تبدل الاوضاع كل التبدل بالنسبة الى هذا الرجل • فالخليفة الجديد أخوه فى الرضاعة • وكان أول ما قام به من أعمال عزله عمرو بن العاص من منصبه ، وتعيينه ابن أبى سرح ، أميرا لمصر ، وقائدا عاما للجيش فيها • وقد رافقت تعيينه أوامر جديدة ، بأن يحصل على المزيد من المال من أعمال الجباية من المصريين ، وقد شرع ينفذ هذه الاوامر بعـــزيمة مطلقة . وسرعان ما ارتفعت صيحات الاحتجاج من الذين تناولتهم هذه الضرائب • وبعثت جماعة من كبراء الاسكندرية برسالة سرية الى الامبراطور كونستانس فى بيزنطة ، يناشدونه فيهـــا اعادة احتــلال مصر وانقـــاذهم من ظلم العرب •

وكان البيزنطيين يسيطرون على البحر ، ولذا كان احتمال غزوهم لمصر شيئا ممكنا • وأخذوا يحشدون أسطولا ضخما فى منتهى السرية

لتنفيذ هذه الغاية ولم تكن هناك مراكب عربيــــة تمخر عباب البحر المتوسط ، ولم يصل الى مصر أى اشعار عما يدبر لها بليل من غــزو مرتب ، وشاهد أهل الاسكندرية فجاة فجر أحد الايام من خريف عام ٦٤٥ أسطولا يتألف من نحو ثلثمائة سفينة يقترب من الميناء • وسرعان ما هبطت جنود الروم أرض المدينة وأعملوا السيف فى حامية المسلمين التى يزيد تعدادها على الف رجل وحصن البيزنطيون أســوار المدينة ، وعادت الاسكندرية من جديد الى حكم الروم • ولم ينتظر الروم هجوم العرب المضاد المحتــوم بل سارعوا بالخروج من المدينة واجتاحوا جزءا كبيرا من أدانى الدلتا • وبعد أن حقق مانويل قائد الروم هدفه الأول على هذا النحو الظافر المنتصر ، بدا وكأنه لم يضع أى مخطط للمرحلة الثانية من استعادة البلاد • ويشير اليه مؤرخو العرب باسم مانويل الخصى ، فهل كان ياترى من بطانة القصر وليس جنديا محترفا ؟ لكننا فى عهد جوستنيان ، رأينا خصيا آخر هو نارسيس يقيم الدليل على انه قائد عسكرى عظيم • ومهما كانت طبيعة هذا القائد فقد رأينا جيش الروم ينتشر فى أراضى الدلتا ناهبا سالبا ومصادرا المؤن بدلا من أن يعد العدة للمعركة المنتظرة • ومن المحتمل أن يكون هدف الروم جمع المؤن فى الاسكندرية تمهيدا لحصارها • مع ان تموينها كان عملا فى منتهى السهولة من ناحية البحر •

ولم تكد هذه الأزمة تنشب فى مصر ، حتى كان عثمان يبــــادر على الفور الى اعادة تعيين عمرو بن العاص ، قائدا عاما للجيش فيها ، فيوفده على جناح السرعة اليها • ولو قدر للروم أن يزحفوا مباشرة الى حصن بابليون والفسطاط عند رأس الدلتا لاحتلوا عاصمة مصر الجديدة، قبل أن يقدر لعمرو بن العاص الوصول اليها • وكان فى امكانهم أيضا أن يقيموا قلعة منيعة فى الاسكندرية وأن يؤمنوا تموينها من البحــر ويجعلوها عاصية على الفتح الى أن تحين الفرصة من جديد لاستعادة مصر كلها •

ولقد سبق لنا أن رأينا العرب فى جميع حملاتهم السابقة ، تواقين دائما الى القتال فى الاراضى المكشوفة • ورأيناهم يبرعون كل البراعة فى اجتــذاب أعدائهم واخراجهم من حصــونهم ، أو من المنــاطق الضيقة المحصورة ، ليقاتلوهم ويهزموهم فى الصحراء أو على أطرافها • ولا ريب فى أن عمرو بن العاص كان من أبرع القادة العرب فى استغلال هذا الاسلوب التعبوى • فلو ظل الجيش البيزنطى الذى لم يقهر بعد وراء

الاسكندرية ، لما استطاع العرب اعادة احتلالها أبدا أو حتى يضمنوا سيادة البحر لانفسهم • وعلى ضوء هذا التفكير أطال عمرو بن العاص مكثه فى حصن بابليون طمعا فى جر الروم الى حربه فى الجنوب • ولكن عندما وصل نيكيو (زاوية راسين) على بعـــد مائة ميل الى الجنوب من الاسكندرية ، قابلهم فيها عمرو بن العاص على رأس جيشه الذى يعـــد خمسة عشر ألف عربى • ونشبت معركة دموية حامية ظل فيها النصر معلقا فى كفة القدر مدة طويلة • وأخيرا انهار جيش الروم وشرع فى التراجع • وسرعان ما تحول الانسحاب الى هزيمة ، ووصلت فلولهم الى الاسكندرية فى حالة فظيعة من الفوضى والاضطراب بعد أن فرت مسافة مائة ميل طاردتهم فيها قوات العرب • لكنهم أفلحوا على أى حال فى دخول المدينة واغلاق أبوابها عليهم واضطر عمرو الى المرابطة فى الجانب الشرقى وهو الجانب الوحيد الخالى من البحيرات والقنوات متطلعا بشعور من العجز الى أسوار المدينة وأبراجها •

وما زالت الطريقة التى استعاد فيها العرب الاسكندرية هـذه المرة موضع الشك اذ أنها محوطة بالغموض والالتباس • ولعل أصدق الروايات التى نقلت الينا فى هذا الصدد تلك التى تقول • ان أحد القادة من الروم ، وكان مسئولا عن أحد الأبواب اتصل سرا بعمرو بن العاص عارضا عليه أن يفتح أبواب المدينة للعرب • ومن المحتمل أن يكون أحد الاقباط هو الذى قام بهذا العمل ثأرا لما أصابه أو أصاب بعض أقاربه من اضطهاد الروم الدينى أثناء الحكم البيزنطى • وسرعان ما تدفق العرب على المدينة التى أعملوا فيها القتل والسبى والسلب • وعندما تم تدمير نصف المدينة أصدر عمرو أمره بوقف أعمال الشدة والعنف • وتمكن شطر من جيش الروم من النجاة عن طريق البحر ولكن الكثيرين من جنودهم لقوا حتوفهم وبينهم قائدهم منويل نفسه • وقد وقع احتلال الاسكندرية للمرة الثانية فى صيف عام ٦٤٦ بعد ان استغرقت الحملة زهاء تسعة أشهر(١) •

---

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف من روايات المؤرخين المسلمين اذ يقـول البلاذرى ان الروم كتبوا الى قسطنطين بن هرقل ، يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الذلة واداء الجزية فبعث رجلا من اصحابه يقال له منويل في ثلاثمـائة مركب مشحونة بالمقاتلة فدخل الاسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب فنجا وذلك في سنة خمس وعشرين وبلغ الخبر عمرو بن العاص فسار اليهم في =

ولما كان العرب قد احتلوا الاسكندرية مرتين أولاهما نتيجة المفاوضات مع المقوقس والثانية عنوة ، فان البلبلة التى أحدثتها هذه الحقيقة أربكت المؤرخين ارباكا لا يقل عن ارباك معركتى اليرموك لهم • وكانت لتقرير موضوع الفتح وهل كان صلحا أو عنوة ، أهمية كبيرة من الناحية القضائية بالنسبة للأجيال اللاحقة ، ففى الحالات التى كانت بعض المدن فيها تخضع طواعية كان هناك اتفاقات للصلح تنص على شروط التسليم وعلى مبلغ الجزية التى تفرض ، ولا ريب فى أن العرب احترموا هذه الشروط غاية الاحترام ، ووفوا بها تمام الوفاء أما اذا دخلوا بلدة عنوة فليس لاهلها حقوق • وانما هم رقيق للفاتحين • وبعد أن مرت قرون طوال ثبتت فيها أقدام الامبراطورية ، لم يكن فى الامكان التثبت من حقوق أية مدينة أو مقاطعة الا اذا عرف ما اذا كانت قد استسلمت طواعية أو عنفا عند فتحها • وكان فى الامكان الرد على هذا السؤال دائما بسهولة ، ففى أيام الفتح لم تكن عند العرب سجلات • ولم يكن التاريخ يهمهم فى قليل أو كثير • وكانت أماكن كثيرة قد استسلمت صلحا ثم عادت فثارت وأعاد العرب احتلالها عنوة • وشغلت الخلافات الناتجة عن هذه الاضاع فقهاء المسلمين قرونا وأجيالا •

ويبدو أن الاقباط ظلوا الى حد بعيد ان لم يكن كلية على الحياد ابان هذا الفتح الثانى للاسكندرية • ويقول المؤرخ بتلر ان بنيامين بطريق القبط طلب مقابلة عمرو بن العاص • وبين له أن النصارى الارثوذكس وحدهم هم الذين نصروا مانويل • وأمر عمرو على أى حال بهدم أسوار الاسكندرية من ناحية الشرق ليحول بين المدينة وبين اغلاق أبوابها دون العرب من جديد •

ووقع حادث طريف فى هذه الآونة ، أراه جديرا بالتسجيل • فلقد تقدم أهل عدد من القرى القبطية الى عمرو بن العاص بعد استرجاعه للاسكندرية بشكوى يؤكدون فيها عدم اشتراكهم فى الثورة ، وانهم

= خمسة عشر ألفا فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيثون فيما يلى الاسكندرية من قرى مصر فلقيهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون مترسون ثم صدقوهم الحملة فالتحمت بينهم الحرب فاقتتلوا قتالا شديدا. ثم ان أولئك الكفرة ولوا منهزمين فلم يكن لهم ناهية ولا عرجة دون الاسكندرية فتحصنوا بها ونصبوا العرادات فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ونصب المجانيق فأخرب جدرها وألح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية ، وهرب بعض رومها الى الروم وقتل عدو الله منويل ، وهدم عمرو جدار الاسكندرية . (المعرب)

على النقيض من ذلك تعرضوا لنهب جيش الروم الذى صادر كل ما عندهم من غذاء دون أن يسدد لهم أثمانه وأضافوا ان المعاهدة الاصلية التى عقدوها مع عمرو عند فتح مصر أول مرة قد فرضت عليهم الجزية ، مقابل تولى العرب حمايتهم ولكن العرب لم يحموهم ابان غزوة مانويل واحتملوا من جراء ذلك خسائر فادحة • وأقر عمرو على الفور بعدالة شكواهم وأمر بدفع التعويض للخسائر التى منوا بها • ومن العدل أن نعترف هنا بأن العرب كانوا فى هذه الآونة جد حريصين على الوفاء بالتزاماتهم المقابلة التى نصت عليها معاهدات الصلح مع الشعوب المحتلة • وكانوا يصرون على أن تدفع هذه الشعوب الجزية كاملة مع الخراج ولكنهم كانوا يقرون فى الوقت نفسه بالالتزام المفروض عليهم لحماية هذه الشعوب التى أضحت تحت وصايتهم •

ولعل من الغريب أن نلاحظ هنا ان الخليفة عثمان الذى كان قد أقال عمرو بن العاص فور توليه الخلافة والذى أعاده الى مصر بعد عودة الروم الى غزوها ، عاد فأقاله من جديد بعد أن حقق النصر ومرت الأزمة الخطرة • ومن الحق أن نقول ان الخليفة اقترح على عمرو أولا البقاء قائدا عاما ليس الا على أن يصبح عبد الله بن أبى سرح مسئولا عن الادارة المالية والضرائب • وقد يبدو هذا التقسيم للعمل مشروعا بالنسبة الى الأوربيين المعاصرين ، ولكن حرى بنا أن نذكر أن عمرا كان فى البداية حاكما عاما مطلقا فى مصر وكان هو الذى حدد الضرائب وجباها• وان اللوم وجه اليه على اعتبار ان ما جباه من الناس لم يكن كافيا ، وان عبد الله بن أبى سرح أوفد الى مصر وهدفه المزيد من الجباية ولما كان عمرو قد نال من المكانة ما ناله بفضل احتلاله مصر مرتين ، فمن الواضح ان الاقباط لو وجدوا أنفسهم مرغمين على زيادة مايدفعونه من الضرائب على الحد الذى كان عمرو نفسه قد فرضه عليهم ، لما ترددوا لحظة واحدة فى الاسراع بالشكوى اليه • وكان لابد والحالة هذه أن ينشأ الاحتكاك بين ابن أبى سرح وبين القائد العام • ومن هنا كان رد عمرو على اقتراح الخليفة بقوله : « أنا كماسك قرنى البقرة ، والامير يحلبها » وعندما تسلم عثمان هذا الرد من عمرو أمر بعزله من جميع مناصبه وعين ابن أبى سرح للمرة الثانية واليا لمصر وقائدا عاما للجيش فيها • وحرى بنا أن نذكر هنا ان الامير الجديد كان أخا لعثمان فى الرضاع ويبدو أن المؤرخ بتلر قد ضاع فى خضم الروايات التى وصلت الينا عن شخصية الامير الجديد • فلقد وصفه المؤرخ العربى النووى بأنه من أنبل رجال قريش وأكثرهم ذكاء • أما الطبرى فقد وصفه من الناحية الاخرى بأنه

كان أسوأ عمال عثمان • لكننى لا أرى كبتلر تناقضا فى الوصفين • فلقد كان ابن أبى سرح ولا ريب رجلا فى منتهى الكفاية وكان فى الوقت نفسه من قريش ومن بنى أمية ، وشقيق الخليفة الحاكم فى الرضاع ومثل هذا النسب كفيل بأن يجعله كما قال النووى من أنبل رجال قريش • ولكن ابتزازه للضرائب الثقيلة من المصريين السيئى الحظ بامارته يبرر وصف الطبرى له بأنه أسوأ من اختارهم عثمان لامارة الامصار فى عهده •

ويذكر القارىء أخيرا أن الخليفة السابق عمر بن الخطاب كان قد اتهم عمرو بن العاص فى نزاهته ، وأوفد مندوبا له لمصادرة نصف ما يملكه • ولست أرى فى هذا الاجراء من ايفاد ادارى أكثر علما وخبرة فى الحساب الا اجراء فى منتهى التعقل والحكمة بعد أن ثارت الشكوك فى نزاهة القائد العسكرى • ونرى بتلر مع ذلك ينقل عن المؤرخ الأجنبى سيفيروس قوله أن ابن أبى سرح كان « يتعشق المال ، ويجمع الثروات لنفسه » وأنا لا أريد أن أبرىء القائد أو الادارى من الشك فى انهما جمعا المال لنفسيهما ، لكننى أقول ان احتلال مصر تم بفضل مبادرة عمرو بن العاص ، يضاف الى هذا أنه احتل البلاد مرتين وكان معظم الفضل فى كلتا المرتين لبراعته الشخصية فى القيادة • ولم يكن العرب قد برعوا حتى ذلك التاريخ فى الاساليب الماكرة التى تلجأ اليها الحكومات الحديثة للخلاص من موظف لا ترغب فيه عن طريق نقله الىدائرة أخرى فى مركز أكبر وجعل أضخم ، وأرى أن عزل عمرو بن العاص قد كلف العرب ثمنا باهظا للغاية •

وأراد أمير مصر الجديد أن يحرز نصرا معادلا لما حققه سلفه المعزول من الناحية العسكرية فراح يعد فى عام ٦٤٧ حملة لغزو الشمال الافريقى وبعث له أخوه فى الرضاع الخليفة عثمان من المدينة بجيش قوامه عشرون ألف جندى بينهم عدد كبير من الاحياء من صحابة الرسول ، وعدد من المتطوعين من كبار أبناء قريش بينهم عبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومعبد بن العباس وعبد الله بن الزبير ، وقد انضم الى هذا الجيش جيش كبير آخر يعد عشرين ألفا من القوات العاملة فى مصر وسار الجيشان بقيادة ابن أبى سرح يجتاح الصحراء الغربية • ولقد شكا الاغريق والرومان دائما من صعوبة المواصلات فى صحارى افريقيا الشمالية ، وانتقلت العدوى فيما بعد الى البريطانيين والالمان والايطاليين ابان الحرب العالمية الثانية ولكن هذه المواصلات لم

تكن تؤلف مشكلة للعرب مع وجود الجمل حليفهم الطبيعى فى الصحراء اذ كانوا فى زحفهم فى الصحراء يمتطون الجمل ويقودون الجياد من أعنتها الطويلة • وكان فى مكنة الجمل أن يحمل بالاضافة الى هجانه ومتاعه ، العلف والماء لاطعام الجياد وسقايتها .

ويذكر القارىء ولا شك أن عمرو بن العاص دفع جيوشه بعد استسلام الاسكندرية الى شمال افريقيا حيث استسلمت له طرابلس . ولكن يبدو أن المدينة عادت فارتدت بعد رحيله ودانت بالولاء من جديد للبيزنطيين اذ قيل ان ابن أبى سرح عاد ففرض الحصار عليها ابان هذه الحملة من جديد •

وكانت قرطاجنة القديمة عاصمة الشمال الافريقى وفيها أقام جريجوريوس الحاكم البيزنطى عاصمته وبلاطه • وكانت صلاحياته تمتد فتشمل ولو بصورة نظرية المنطقة الممتدة بين طرابلس وطنجة . وقد حشد هذا الحاكم جيشا تقدم به لنجدة طرابلس . ويقول المؤرخون العرب وهم ميالون دائما الى المبالغة فى ذكر عدد العدو أن جيش جريجوريوس كان يعد مائة وعشرين ألفا ، وأنا أعتقد أن تحريك مثل هذا الجيش وتموينه بالماء والغذاء فى شمال افريقيا وبوسائل النقل المتوافرة فى القرن السابع عملية مستحيلة • ولا ريب فى أننا نكون أقرب الى الصدق والصواب لو قدرنا جيوش تلك الايام بعدد يتراوح بين العشرين ألفا والثلاثين ليس الا •

ولما كان العرب لم يبرعوا بعد فى حروب الحصار ، فانهم سروا ولا شك من احتمال اشتباكهم مع العدو فى معركة صحراوية مكشوفة ، اذ أن هذا الشكل من الحروب هو الذى أكسبهم حتى الآن أعظم انتصاراتهم • وكان فى قدرة البيزنطيين بوصفهم المسيطرين على البحر أن يحافظوا على أنفسهم فى قرطاجنة وطرابلس والمدن الساحلية الاخرى • ولكن العرب كانوا ينتشرون فى المناطق السهلية الواقعة الى الجنوب من قرطاجنة . ولا ريب فى أن البربر الذين كانوا يؤلفون الجزء الاكبر من أهل الارياف الذين تأثروا من غارات العرب كانوا يصرون على خوض معركة فورية معهم • وقد سبق لنا أن رأينا فى فصل سابق العرب على حوض الفرات يستعملون الغارات السريعة بانتظام لارغام عدو يرغب فى أن يخوض حربا دفاعية على الخروج من حصونه وقتالهم .

ونشبت المعركة فى سفتلة التى يسمونها اليوم سبتلة ، وقد

استغرقت بضعة أيام وتروى لنـــا القصص الرومانطيقية كيف حاول جريجوريوس ايقاد شعلة الحماس فى أفئدة الشبان من رجاله فوعد بيد ابنته الجميلة الى الجندى الذى يقتل ابن أبى سرح قائد العرب • وقد يكون من الخطل أن ننظر الى ابن أبى سرح على أنه مالى ذو كفاية ليس الا ، اذ يقال انه كان من أشجع الفرسان أيضا • ولكن يبدو أنه كان من المؤمنين بسياسة العقل والمنطق أكثر من ايمانه بالخيال ولم يكن يرى أن من واجب القائد العام أن يتولى قيادة الهجوم بنفسه • ويقال بأنه أوى الى خيمته عندما سمع بأن جريجوريوس قد وعد بمثل هذه الجائزة الضخمة ثمنا لرأسه •

ويذكر القارىء ولا شك أن الزبير كان من أولئك المسلمين وكان الرجل الذى قاد هجوم السلالم عند اقتحام حصن بابليون ، كما كان عضوا فى هيئة الشورى التى اختارها عمر بن الخطاب لانتخاب خليفته• ويقال بان عبد الله ولده كان شاهدا فى هـذه المعركة وأنه احتج على غياب ابن أبى سرح عن القتال وأنه حثه على أن يقلب حيلة جريجوريوس رأسا على عقب بأن يعد بيد ابنة الأخير لأى جندى مسلم يقتل القـائد الرومانى •

ولجأ العرب أخيرا الى خطة سوقية • ولعل مما يستلفت النظر أن المؤرخين العرب كثيرا ما يذكرون أمثال هذه المناورات التى يبدو انها كانت ناجحة دائما. فلقد كان العرب وما زالوا شعبا شديد الذكاء للغاية وحاضر البديهة دائما • يضاف الى هذا أن جيشهم لم يكن عريقا تقيده التقاليد وتحد من حريته ، وانما كانوا يحاربون على ضوء الطبيعة أما قادة جيوش الروم والفرس ، فكانت لهم آراء جامدة عن الطريقة التى تسير فيها الحروب ، وكانوا ولا شك عاجزين عن تكييف أساليبهم ليواجهوا عدوا جديدا وعلى أرض مختلفة •

وكان قد انقضى على المعركة عدة أيام ، وكان الجيشان المتحاربان يقضيان الاصبحة والامســيات فى شــكل اشتباكات ومبارزات فـردية ومناورات • وعندما تحل الظهيرة وتشتد حرارة الشمس كان الفريقان ينسحبان الى خطوطهما • واتبع الفريقان ذات يوم عند الظهيرة اجراءهما المالوف وانسحب الجيشــان الى معسكريهما للراحة ولسقاية الجنـود والخيل • وكان الروم كالعــادة قد رفعــوا الاسرجة عن خيولهم ونزع الفرسان عنهم دروعهم عندما فاجأهم العرب بهجوم مفاجىء وغير متوقع وكانت المبــاغتة هائلة وأحاقت بالاعــداء هــزيمة شنيعــة قتل ابانهــا

جريجوريوس نفسه • وقيل ان قاتله كان عبد الله بن الزبير • ويبدو أن ابن أبى سرح اقترف خطأ فى ايفاده ابن الزبير الى المدينة يحمل اليها • انباء النصر متيحا له المجال لينسب النصر الى نصيحته وليدعى قتل قائد الروم • وتختلف الروايات لسوء الحظ فى المصير النهائى الذى حل بابنة جريجوريوس الجميلة .

وعاد ابن ابى سرح ظافرا منتصرا الى مصر مثقلا بالغنائم ومرسلا الى العبودية عدة الوف من الاسرى . لكن الفتح لم تثبت دعائمه بعد كما لم تجر آية محاولة كما يبدو لاقامة ادارة حكومية فى مقاطعة طرابلس • لكن الحملة لم تؤد على اى حال الى الرفع من سمعة عثمان بن عفان الخليفة الجديد وانما أدت الى العكس من ذلك تماما . ويذكر القارىء ولا شك أن محمدا نفسه قد قضى بأن يكون خمس الغنائم التى تكسب • فى الحرب من نصيب الخزانة العامة أو بيت مال المسلمين ، وأن تقسم الأخماس الاربعة الباقية على الجنود . وقد سمح الخليفة الآن لابن ابى سرح بأن يحتفظ لنفسه بخمس الفىء اى بخمس حصة بيت المال ، وأن يبعث ما تبقى منه الى المدينة ، ولم يكتف عثمان بهذا بل انه راح تلبية لنصحاء السوء يسلم ما وصل من الفىء الى المدينة الى ابن عم آخر له يدعى مروان ليتصرف فيه بكامله ، وقد قدر لسوء التصرف هذا أن يلعب دورا مهما فى المشاكل اللاحقة •

* * *

ويذكر القارىء ولا شك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد عين معاوية بن ابى سفيان اميرا على سوريا وكان معاوية هذا رجلا ذا كفايات نادرة . وقد واجهته مشكلة الدفاع عن سوريا ضد الروم ، فادرك أن ليس ثمة كبير خطر يخشاه من ناحية البر ، لكن معظم المدن الغنية والمناطق الكثيرة الخصوبة تقع على سواحل البحر المتوسط • يضاف الى هذا أن العنصر العربى لم يتسلل قط بنفوذه الى المناطق الساحلية كما كانت الحالة بالنسبة الى المناطق الواقعة على أكناف الصحراء • وكان البحر المتوسط لعدة قرون الطريق الرئيسية للامبراطورية الرومانية ثم للامبراطورية البيزنطية بعدها . وكانت جميع المقاطعات الرومانية تقوم على شواطئه باستثناء فرنسا الشمالية وبريطانيا • وكان سلطان الرومان يعتمد لمدة ستة قرون على القيادة البحرية فى البحر المتوسط . ولم تكن هناك آية مراكب عربية قد ظهرت فى وسط البحر • وما دام فى وسع الاسطول البيزنطى

أن يمخر عباب هذا البحر دون أى اعتراض فان سواحل سورية وفلسطين ومصر لن تكون فى نجوة من الغارات أو من الغزو ·

وكان معاوية أول من فهم هذه الحقائق وادركها فكتب الى عمر ابن الخطاب يطلب منه الاذن له ببناء اسطول عربى ، وارتعد الخليفة العجوز، الذى رأيناه يعرب عن اعتقاده بأن كل مايصلح للجمل يصلح للعرب ، من هذا الاقتراح الحديث الجرىء ، وبعث الى فاتح مصر عمرو بن العاص يسأله أن يصف له العمليات البحرية وراح عمرو بما عرف عنه من براعة يصف فى رده المحاربين فى البحر على ظهر السفينة بأنهم أشبه ما يكونون بمجموعة من الهوام تتعلق بقطعة خشب تلعب بها الرياح ذات اليمين وذات الشمال . وفزع الخليفة الحذر من فكرة رؤية المحاربين العرب فى مثل هذا الوضع الشاذ والمزرى وكتب فورا الى معاوية يمنعه منعا باتا من دفع أى عربى الى الحرب فى البحر . (1)

فلما كان زمن عثمان بن عفان بعث اليه أخوه فى الرضاع عبد الله ابن أبى سرح يحثه على بناء أسطول للعرب ، وعاد معاوية وهو أموى أيضا فكرر الطلب وسرعان ما اذن عثمان له ببناء الاسطول . ويبدو أن معاوية وابن أبى سرح وهما رجلان معروفان بثاقب بصيرتهما وعملية تفكيرهما قد تعاونا فى هذه المهمة . وقد صدر اقتراح القيام للمرة الاولى بعمليات برمائية مشتركة عن معاوية فقد كتب الى عثمان يقول له ان قبرص قريبة جدا من ساحل سوريا حتى ان أهل هذا الساحل يسمعون نباح الكلاب فيها . وحرى بنا أن نذكر أن عثمان رفض فى المرة الأولى الاستجابة لطلب معاوية قائلا له انه كان قد شهد ما رد عليه عمر رحمه الله حين استأذنه فى غزو البحر . وتبين من هذا الرد أن عمر درج فى الأيام الأخيرة من خلافته على الاحتفاظ بنسخ من مكاتباته مما يشير الى تقدم عظيم عن الايام التى كانت الأوامر المتعلقة بالاحداث العظمى تصدر شفوية · وأخيرا أصدر عثمان اذنه مترددا محجما بعد أن قرأ المكاتبات المتبادلة السابقة . وقد جاء هذا الاذن

---

(1) يقول مؤرخو العرب ان عمر كتب الى عمرو بن العاص يقول له : صف لى البحر وراكبه فان نفسي تنازعنى اليه فكتب اليه عمرو : انى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ان ركن خرق القلوب وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق « فلما قراه عمر كتب الى معاوية : لا والذى بعث محمدا بالحق ، لا احمل فيه مسلما ابدا .
(المعرب)

مشروطا بألا يحمل معاوية فى ركوب البحر الا من ينتدب نفسه متطوعا لذلك وأن يحمل معاوية معه امرأته . والمفروض أن يكون الهدف من هذاالشرط تثبيط همة معاوية عن القيام بمثل هذه المغامرة الخطرة وانضم ابن أبى سرح فى عام ٦٤٩ الىالاسطول السورىالضخم بأسطول أعده فى مصر . وكان بحارته من المصريين بينما كان محاربوه من العرب. والمقصود من هذا أن مهمة البحارة اقتصرت على التجديف وعلى قيادة المراكب ولم يكن لها شأن فى القتال . ولم يكد العرب ينزلون الى البر فى الجزيرة ، حتى كان حاكمها الرومانى يعـــرض التسليم قبل أن ينشب أى قتال . وعقدت معاهدة غريبة بين الفريقين نصت على أن يدفع أهل الجزيرة الى العرب جزية سنوية قدرها (٧٢٠٠) دينـــار وهو عين ماكانوا يدفعونه الى الروم . وتضمن الاتفاق بندا ترك لأهـل قبرص الحق فى مواصلة الدفع الى الحكومة البيزنطية فى الوقت نفسه . وهكذا أصبح اهل قبرص بعد توقيع الاتفاق يدفعون الجزية فى آن واحد الى المدينة والقسطنطينية . وأقرت بنود أخرى بحياد الجزيرة فى حالة نشوب القتال بين العرب والروم ولكنها تركت لأهل قبـرص الخيار فى اطلاع العرب على حركات الروم البحرية . ولا ريب فى أن المفاجأة الكاملة التى حققها مانويل فى هجومه على الاسـكندرية بينت للقـــادة العرب ضرورة اسـتخدام المخابرات لمعـرفة حركات أسـطول العـــدو .

وأرى لزاما على أن أواصل هنا الحديث عن العمليـات البحرية حتى ولو خرجت فى الحديث عنها عن نطاق التسلسل الزمنى المتزمت ، ففى عام ٦٥٢ أى بعد ثلاث سنوات من احتـــلال جزيرة قبرص دفع الروم بأسطول ضخم الى البحر ظهر أمام الاســكندرية مستهدفا كما يبدو احتلال المدينة من جديد ، لكن العرب كانوا قد حصـــلوا على معلومات مسبقة فى هذه المرة ، وراح ابن أبى سرح يجمع كل ما أمكنه من مراكب فى مصر أو على السواحل الغربية منها فى شـمال افريقيا . وخفتت الرياح فى المساء وقضى الاسطولان الليل وهما راسيان بعيـدا عن الساحل . ودارت معركة حامية الوطيس فى اليوم التالى . واختلط الحابل بالنابل بين الاسطولين ، وتماسكت المراكب وتشابكت الأيدى فى قتال يائس استخدمت فيه السيوف والخناجر . وأخيرا أوقف الروم المعركة ، وولوا الادبار عائدين باتجاه الشمال بعد أن أدركوا عجـزهم عن النزول الى الساحل ، لكن الأسطول العربى لم يحاول مطـاردتهم على أى حال وان كانت الايام التى كان فيها الاسطول البيزنطى يستطيع

أن يمخر عباب البحر وأن ينزل جنــــوده حيث شاء دون أن يعترض طريقه أحد قد انقضت الى غير رجعـــة » وقد يكون ابن أبى سرح من الجشعين الطامعين فى المال وفى جمع الثروات وفى ابتزاز أكثر ما يمكن من المصريين السيئى الطالع الا أنه مما لا شك فيـــه ولا جدال أنه فى معركته مع جريجوريوس فى شمال افريقيا وفى بنائه للاسطول وفىمعركته البحرية أمام الاسكندرية قد أقـــام الدليل على أنه قائد قدير ورجل ذو كفاية عظيمة .

ويذكر القارىء ولا شك انه عند ما احتل معـــاوية قبرص وقع معاهدة مع أهلها سمحت لهم بالبقاء على الحياد فى حالة تجدد الحروب بين العرب والروم . ويبدو أن الاتهام قد وجه اليهم الآن بأنهم ساعدوا الاسطول الرومانى فى معركته الاخيرة . ولهذا عاد معاوية فى عام ٦٥٣ الى غزو قبرص للمرة الثانية بقوة ضخمة . وعوملت البلاد هذه المرة على أنها معادية وقتل عدد كبير من أهلها بينما نقل عدد ضخم آخر منهم الى حياة الرق والأسر . على أى حال أمر معاوية بعـــد هـــذا العمل التأديبى باعادة العمل بالاتفاق الأصلى مع بقاء حامية عربية فى الجزيرة قوامها اثنى عشر ألف رجل .

ووقعت معركةبحرية حاسمة أخرى أسماها العرب ذات الصوارى وقد دارت على مقربة من ساحل ليقيا وشـــهدها الامبراطور الرومانى نفسه . وقد تحطم الاسطول الرومانى بعـــدمعركة ضارية واضطرت فلوله الى الانسحاب . وقد أضاع الرومان فى هذه العمليـــات الحربية التى يرجع الفضــــل فيها الى معاوية ســـيادتهم على البحر وكانت خسارتهم للسيطرة الحربية أكبر ضربة منى بها خلفاء هرقل الضعفاء ولو كان الامبراطور العجوز لا يزال على قيد الحيـــــاة لمـــا قبل هذه الخسارة على هذا النحو من الضعف والجبن ، فلقد كانت ســـيطرته على البحر الاسود هى التى مكنته مدة اربع سنوات من الحفـــاظ على جيشه فى ارمينيا بينما كان جيش الفرس يرابط فعلا خارج أســـوار القسطنطينية . وكانت استعادة سوريا ومصر وفلسطين قيد الاحتمال طالمـــا أن ســـيطرتهم قائمة على البحر المتوسط . أما وقد حققالعرب هذا التفوق البحرى أيضا فان خســـــارة الروم لاماراتهم الســـابقة أصبحت نهائية ولا ردة لها وهو ما توقعه معاوية وأدركه تمام الادراك .

* * *

تم فتح بـــلاد فارس باكملها فى عهد عمر بن الخطاب . ولكن كما

نشبت الثورة العامة فى الجزيرة العربية ممثلة فى ردة القبائل بعد وفاة النبى فان مقتل عمر بن الخطاب كان بمثابة اطلاق الاشارة للثورة العامة فى جميع ربوع فارس .

وعلى الرغم من أن يزدجرد كان لايزال على قيد الحياة الا أن حكومته وسلطته كانتا قد زالتا مما قد أدى الى عدم الترابط بين الثورات لعدم وجود سلطة مركزية تنظم أمرها ، ولكن على الرغم من هذا الافتقار الى الترابط والتعاون ، فان الثورات ظلت لسنوات عدة مصدر خطر يهدد السيادة العربية كلها واستمرت الحروب المتشابكة والمختلط حابلها بنابلها تدور محتدمة فى أنحاء فارس كلها عدة سنوات بين ارتقاء عثمان الخلافة فى عام ٦٤٤ وبين عام ٦٤٩ ولم يحقق العرب فيها كما يبدو كبير نجاح .

وكان أمير الكوفة مسئولا عن سير العمليات الحربية فى شمال فارس من منطقة جرجان حتى أذربيجان بينما كان أمير البصرة مسئولا عن جنوب فارس وجنوبها الشرقى حتى حدود السند . وكان هناك نحو من عشرة آلاف مقاتل من جيش الكوفة يحاربون فى شمال فارس منهم ستة آلاف فى أذربيجان وأربعة آلاف فى الرى . وكان بالكوفة آنذاك أربعون ألف مقاتل يصيب الرجل منهم غزوة فى كل أربع سنوات مما أدى الى اشتراكهم فى حروب الجبهة بالتناوب بمعدل عشرة آلاف فى كل عام . ولا ريب فى أن ما عاناه أمراء الكوفة فى بدء خلافة عثمان من شرور الدسائس والمؤامرات كان سببا فى تأجيل استقرار الامور فى فارس الى أمد طويل .

ويذكر القارىء ولا شك أن عمر بن الخطاب كان قد عين المغيرة بن شعبة ــ أمير البصرة السابق الذى أقاله عمر لتهمة وجهت اليه ــ أميرا للكوفة ولكن عثمان عاد فى عام ٦٤٥ أى بعد سنة من توليه الخلافة فأقال المغيرة وأعاد للكوفة أميرها السابق سعد بن أبى وقاص فاتح العراق ، وأحد رجال الشورى الذين اختاروا عثمان خليفة للمسلمين. لكن النزاع ما لبث أن قام بعد انقضاء عام بين سعد وبين القائم على أمر الخراج فى الكوفة وهو عبد الله بن مسعود أحد كبار الصحابة الاوائل . ويبدو أن سعدا كان قد اقترض مالا لأجل من بيت المال . فلما حل الأجل لم يتيسر لسعد السداد واشتد الخصام بين الرجلين الى ان تحول الى فضيحة ، فاستدعى الخليفة سعدا من امارته وولى الكوفة بدلا منه فى عام ٦٤٦ اخا غير شقيق له يسمى الوليد بن عقبة . وكان عقبة قد وقع فى اسر المسلمين فى بدر وأمر النبى بقتله . وعندما صرخ الرجل

المحكوم عليه بالموت فزعا ... « ومن للصغار بعد موتى ؟ » « رد النبى ببرود قائلا : نار جهنم » وهكذا كان أمير الكوفة الجديد أحد هؤلاء الصغار الذين بشرهم النبى بنار الجحيم وكان من سوء حظ الوليد أنه عرف بشرب الخمر (١) وكان النقد الموجه الى عثمان على تعييناته آخذا فى التزايد .

فلقد عين أخاه فى الرضاع عبد الله بن أبى سرح أميرا على مصر مع أن النبى كان قد أعلن أن جزاءه الموت لردته عن الاسلام ، وكان قد عين أخاه غير الشقيق الوليد أميرا على الكوفة مع ان النبى كان قد تنبأ له بالجحيم . وكان معاوية وهو ابن عم لعثمان أميرا على سوريا وأن كان عمر هو الذى اختاره لهذا المنصب ، وكان جديرا به لما أثبته من كفاية بالغة . ومع ذلك فقد انتشرت الشائعات تشوبها المرارة بأن ليس فى

---

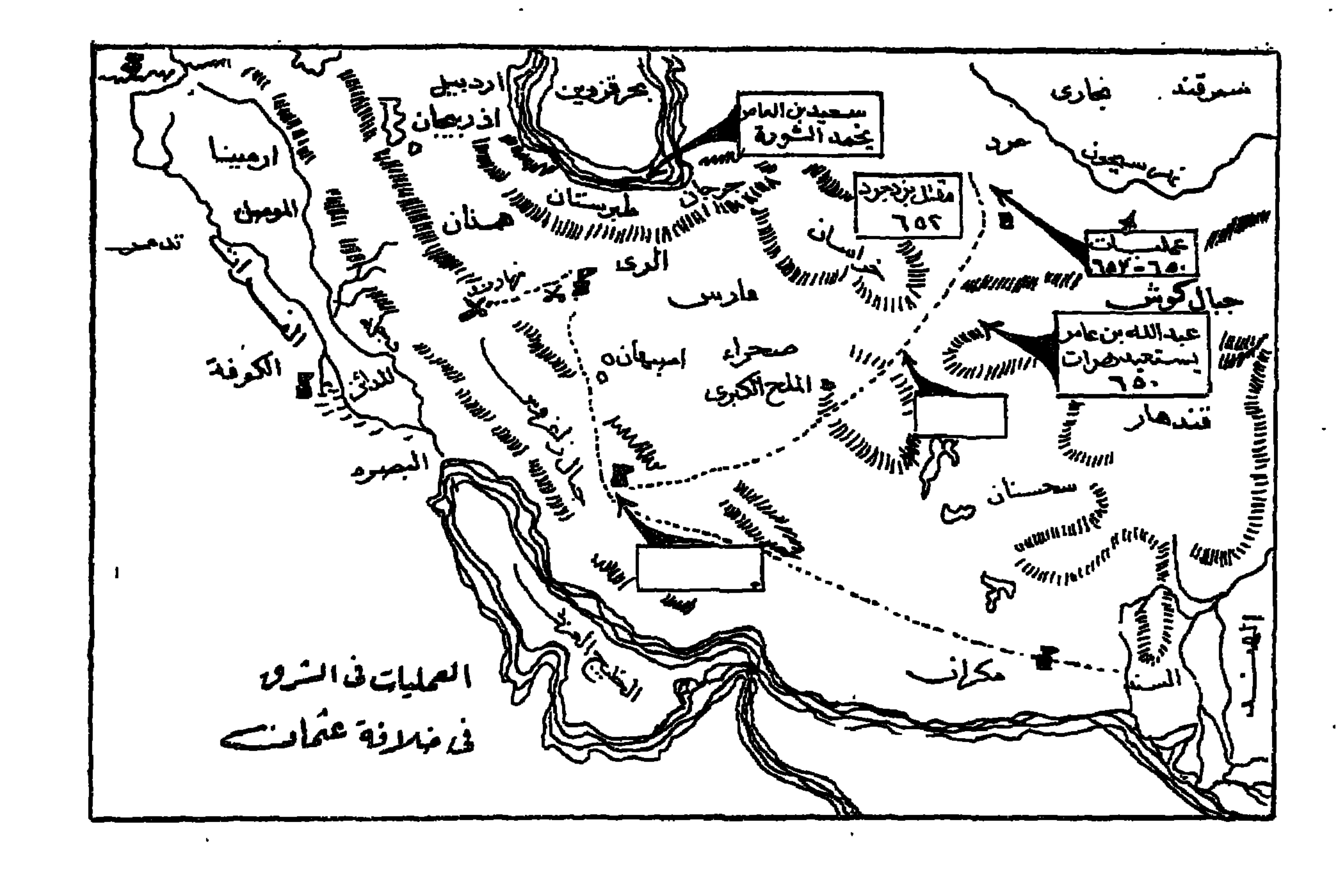
(١) يختلط على كل من يقرا تواريخ العرب في موضوع الوليد هذا فمنهم كثيرون لا يثبتون رواية المؤلف من تنبؤ الرسول له بنار جهنم ، وقد تكون هذه الرواية مختلقة وضعها أعداء عثمان ، كما ان المؤرخين يختلفون في تحديد شخصيته وسلوكه فمنهم من يصفه بالطيبة ومنهم من يؤكد فيه صفة الفسق وارى ان أثبت هنا الرواية التى توصل اليها العلامة المحقق المرحوم الخضرى اذ قال : ولى عثمان ، الوليد على الكوفة وكان على عرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب (لو كان الوليد على هذا النحو من السوء كما يقول المؤلف ولو صح ان النبى كان قد بشره بنار جهنم لما ولاه عمر امارة في عهده اذ لا تربطه بعمر قرابة أو صلة) . ولما قدم الوليد كان محببا الى الناس ورفيقا بهم وحدث في زمنه أن شبابا من أهل الكوفة نقبوا على رجل داره وقتلوه وكان له جار قد اشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاءوا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الازدى ومورع بن أبى مورع الاسدى وشبل بن أبى الازدى فحوكموا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوه واضطغن آباؤهم لذلك على الوليد وصاروا يتحينون الفرص للايقاع به وكان سمار يسمرون عند أبى زبيد الطائى وهو نصرانى أسلم وكان معروفا بشرب الخمر فأتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر فأذاعوا ذلك بين الناس حتى شاع على ألسنتهم فتوجهوا الى ابن مسعود فأخبروه بذلك ، فقال ابن مسعود من استتر هنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فعاتبه في ذلك وقال : أيرضى من مثلك بأن يجيب قوما موتورين بما أجبت أى شيء استتر به ، انما يقال هذا للغريب فتلاحيا وافترقا على غضب ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب الى المدينة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبوهما للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد من الاعمال فأخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألهما كيف رأيتما ؟ قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر فقال عثمان ما يقيء الخمر الا شاربها فأرسل عثمان الى الوليد فأقدمه المدينة وأفتى على بوجوب حده فحدوه حد شارب الخمر وعزله عثمان . (المعرب)

وســـــع غير الامويين وغير اقرباء الخليفة ان يطمعوا فى الوصول الى منصب عال .

ويذكر القارىء ولا شك ان ابا موسى الأشعرى كان قد قضى امداً طويلا فى امارة البصرة وكان قد نشـــط كل النشاط فى حملاته ضد المقاومة الفارســـية فى مقاطعة فارس . ولكن ضـــعف عثمان وتحيزه لاقاربه كانا قد ظهرا بوضوح للعيان بصورة متزايده وبدأ النظام ينهار فى كل مكان . وهدد الجند فى البصرة بالعصيان واوفدوا رسلا منهم الى المدينة يطلبون من الخليفة عزل قائدهم العـــام . ووافق عثمـــان مستسلما لطلبهم واستدعى ابا موسى من البصرة وعين بدله بعد فترة من التردد والاحجام حاول فيها الجند ان يختاروا قائدا منهم شـــابا يدعى عبد الله بن عامر . ولم يكن الامير الجديد من بنى أمية أو قريبا لعثمان فحسب ، بل وكان أيضا فى الخامسة والعشرين من عمـــره . واضطر الخليفة بعد قليل الى عزل الوليد بن عقبـــــة عن امارة الكوفة لثبوت تهمة احتساء الخمر عليه ، وعين بدلا منه شابا يدعى سعيد بن العاص كان من الامويين ايضا وكان أبوه من قتلى قريش فى بدر اثنـــاء حربهم للمسلمين .

وعلى الرغم مما اثارته تعيينات عثمان من سخط فان العـــرب سرعان ما بدأوا اخيرا فى التغلب عن طريق هذه التعيينات على الثورات فى فارس . فقد جند الأميران الامويان الشابان عبـــد الله بن عامر فى البصرة وسعيد بن العاص فى الكوفة جيشين ضخمين زحفا بهما شرقا . وتمكن عبد الله بن عامر بعد اخضاع مقاطعة فارس من التقـــدم عبر كرمان الى خراسان واسترجع العرب فى عام ٦٥٠ كلا من مدينتى هراة ومرو . ثم عبر نهر المرغاب (Oxus) وهزم العصـــــاة المحليين فى معركة عظيمة واحتل مدينة بلخ واجتاز بعد ذلك جبـــال الهندكوش واحتل مدينة كابل بينما تقدمت قوات أخرى عبر مكران حتى وصلت الى ضفاف نهر السند (الانديز) الواقعة فى الباكستان الحالية .

وكان سعيد بن العاص فى غضون ذلك تواقا الى منافسة ابن أبى عامر فسار على رأس جيشه من رجال الكوفة وأخضع الفتن فى طبرستان وجـــرجان الواقعتين على الطرف الجنـــوبى من بحر الخزر ، ولم يعد الوضع فى الامبراطورية الجديدة الى الاستقرار الا فى عام ٦٥٢ أى بعد انقضاء ثمانى سنوات على تولية عثمان الخلافة ، دفعت الحدود ابانها الى الامام فى الشرق والشمال بعيدا عن تلك التى كانت قائمة فى عهـــد عمر بن الخطاب .



العمليات في الشرق
في خلافة عثمان
سمرقند
بخارى
نهر سيحون
بحر قزوين
سعيد بن العاص يخمد الثورة
اردبيل
اذربيجان
ارمينيا
الموصل
تدمر
جرجان
طبرستان
همذان
مقتل يزدجرد ٦٥٢
خراسان
عمليات ٦٥٠-٦٥٢
جبال كوش
الري
نهاوند
فارس
عبد الله بن عامر يستعيد هرات ٦٥٠
صحراء
الملح الكبرى
اصفهان
الكوفة
قندهار
البصرة
جبال زاغروس
سجستان
الخليج العربي
مكران
السند
الهند

وكنا قد ذكرنا من قبل أن كسرى يزدجرد ، انسحب بعد معركة نهاوند الى مدينة الرى وعندما هددت قوات نعيم بن مقرن المدينة فى عام ٦٤٣ انسحب منها يزدجرد الى اصفهان ومنها الى اصطخر المدينة القديمة التى كانت تسمى برسوبوليس والقـــائمة فى جبال فارس . وعندما هاجم أبو موسى هـــذه المدينة فر منهـــا يزدجرد عبر كرمان وخراسان الى نهر المرغاب حيث بعث برســـالة الى امبراطور الصين يستنجده فيها على حرب العرب واستعادة مملكته . ويقال بأن مرزبان خراسان استقبله استقبالا حسنا وأعرب له عن ولائه واخلاصه ، وجـاء نيزك طرخان خاقان الترك لزيارته وقدم اليه الهدايا والاموال ولكن المصائب لم تخفف من غطرسة الملك اللاجىء الفار وكبـريائه ، فبعد أن اقام الخاقان نحوا من شهر يخلع على الملك ويكرمه خطب منه ابنته ، فاحفظ ذلك يزدجرد وقال اكتبوا اليه انما انت عبد من عبيدى فمـــا جراك على أن تخطب الى ؟ واقترف الملك خطأ ثانيا خاليا من كل كياسة مع المرزبان الذى أحسن استقباله واكرم ماواه فأمر بمحاسبته وكتب المرزبان الى نيزك خاقان التـــرك يقول : هذا الذى قدم مغلولا طريدا فمننت عليه ليرد عليه ملكه ، فكتب اليك بما كتب . واقبل نيزك الغاضب فى عام ٦٥٢ على راس جيشه من الترك لمحاربة يزدجرد فهـــزم قواته وبدد شملهم ونهب معسكره وفر الملك الى مدينة مرو التى اغلقت فى وجهه أبوابها ولم تسمح له بدخولها . وفقد الملك اليائس عقله ونزل عن دابته ومشى حتى دخل بيت طحان على نهر المرغاب خارج المدينة . وتقول بعض الروايات ان الطحان قتل يزدجرد طمعا فى تاجه وخاتمه اللذين كانا لايزال يحملهما معه . وتقول روايات أخرى ان المرزبان الســـاخط عليه ، أرسل بعض رجاله فاغتالوه وتجمع الروايات كلها على أنه عرى من ملابسه بعد قتله وقذف بجثته فى ماء النهر . والمعتقـــد أن الترك حملوا ولده فيروز معهم وزوجوه بفتاة منهم وعاش حيـــاته معهم . وهكذا كانت هذه النهاية المفجعة لآخر ملوك الساسانيين الذين حكموا فارس أكثر من أربعمائة عام . وهكذا كان بطن النهر مأوى حفيد كورش الفاتح الذى قرعت جيوشه ابواب القسطنطينية ، حيث مات هذه الميتة المزرية واختفت الديانة الزرادشتية التى ظلت دين الدولة الرســـمى قرونا طويلة من الوجود باستثناء بعض المجوس الذين يعيشون حتى اليوم فى مدينة بومبـــاى فى الهنـــد . والذين ما زالوا يؤرخون تقويمهم اعتبارا من موت يزدجرد آخر الأباطرة الساسانيين الذين تجســـدت فيهم امجاد أورمزد .

وانتهت بموت يزدجرد فى عام ٦٥٢ آخر مقاومة رسمية فى فارس

وقدر لهذه البلاد أن تقضى ثمانية قرون قبـل ان تتمـــكن من تتويج امبراطور خاص بها ففى عام ١٤٩٩ تمكن الشاه اسماعيل من تأكيـد استقلال بلاده وتأسيس أسرة اسفندياری « الملكية » .

* * *

ويجدر بنا ان نتذكر التوسع المفاجىء للسلطان العربى وشـموله سوريا والعراق وفارس ومصر قد وضع الخليفة عمر بن الخطاب وجها لوجه أمام ضرورة اتخاذ قرار سياسى هام وخطير فى قضية أساسية هى هل يسمح للعرب المنتصرين فى امتلاك الارض فى البلاد المحتلة والتزاوج والاندماج مع الشعوب المحتلة فى العراق وسوريا ومصر او هل يبقى على العرب معزولين ومنفصلين كشعب سيد تخضع له الشعوب المهزومة والتابعة ؟ وقد اختار السبيل الثانية فسمح للشعوب المحتلة بأن تظل مالكةلأراضيها الزراعيةشريطة أن تعمل وأنتؤدىالخراج والجزية. وقرر أن يكرس الشعب العربى النبيل نفسه لمهمة القتال ضد الكفرة تدعمه الاموال الضخمة التى يجبيها من الشعوب الخاضعة . ولقد سبق لنا ان رأينا عمر بن الخطاب يلحف بطاب المزيد من جبـــاية مصر قائلا لعامله ان عليه أن يحاب الناقة التى تدر الخير للمســـلمين وذلك فى تحديد سياسته تجاه الشعوب المحتلة المهزومة .

وكان من المستحيل عنصريا الحفاظ على نقاء الدم العربى . فلقد سمح الاسلام لأتباعه باقتناء الاسيرات من نساء الكفرة كجوار واماء ، وهكذا وزع الفاتحون الألوف بعد الألوف من سبايا البـــلاد المحتلة . وقد ارتقت الكثيرات منهن الى مرتبة الزوجات لا ســيما اذا ولدت الواحدة منهن غلاما ذكرا لسيدها . فآنذاك تصبح فى مرتبة الزوجـة الحرة . وهكذا لم يمض زهاء جيل على العرب فى سوريا وفارس ومصر حتى كان الدم العربى قد اختلط بالدم الغريب ، وأصـــبح عرب تلك البلاد نصف أعراب . لكنهم ظلوا من الناحية الاجتماعية يؤلفون طبقة ارستقراطية عسكرية مميزة . تعيش فى مناطقها العســكرية الخاصة معزولة عن الشعوب التابعة ، وتحيـــا كما رتب لهـا عمر بن الخطاب ، على الرواتب من بيت المـال .

وظل هذا العنصر العربى ، يظهر فى حملاته العســـكرية ، نفس الطاقة على احتمال المشاق والصبر على القتال والجرأة النادرة ، التى مكنت العرب فى نحو من ربع قرن من أن يصبحوا ســـادة امبراطورية عظيمة . لكن هذه القواعد العسكرية أخذت تضطرم فى ايام البطالة

بالدسائس والتحزبات والاضطراب . ونشات هذه الخلافات عن ثلاثة عوامل مختلفة . أول هذه العوامل ان عامة العرب المسلمين وأبناء القبائل الأخرى ، أخذت تنقم على قريش غطرستها وكبرياءها . وأخذ هذا الشعور فى التزايد ابان خلافة عثمان ، وذلك بسبب تعيينه لاقاربه فى جميع المناصب الهامة ، وصحيح أن معظم القادة الكبار كانوا فى أيام ابى بكر وعمر من قريش ، الا أن بعض القادة البارزين كانوا أيضا من ابناء القبائل الاخرى .

ويمكن تلخيص العامل الثانى فى انقسام قريش نفسها الى حزبين رئيسيين حزب بنى أمية وحزب بنى هاشم ، مع تفرق بطون قريش الاخرى على هذين الحزبين وقد وسعت سياسة عثمان فى التشيع لاقاربه وتعيينهم فى المناصب الكبرى من شقة هذا الخلاف . وكان الدين نصيرا قويا فى هذا الخلاف لبنى هاشم ، اذ انهم آل بيت النبى ، بينما كان بنو أمية آشد خصومه وأعدائه . يضاف الى هذا ان أخلاق الامويين انفسهم ، اثرت كثيرا فى هذا الموضوع . فلقد رأينا الوليد أخا الخليفة غير الشقيق يحاول أن يؤم المصلين بعد ان عينه أخوه اميرا على الكوفة ، وهو ثمل .

أما العامل الثالث ، فهو أن ولاء العرب فى الجاهلية ، كان يتجه بصورة رئيسية الى القبيلة . وقد انساهم الحماس الدينى فترة من الزمن ولاءاتهم القديمة ولكنها ما لبثت أن عادت الى الظهور ابان حياة البطالة والكسل فى القواعد العسكرية . ولم يقتصر الخلاف على القبائل وعلاقاتها ببعضها البعض فحسب ، بل تجزأ العرب انفسهم الى مجموعتين ، شمالية وجنوبية فعدنان تقابل قحطان ، وتحت كل اسم من هذين الاسمين ، تنطوى مجموعة كبيرة من القبائل .

وعلينا ان نقر هنا بأن سياسة الخليفة السابق عمر بن الخطاب ، بدرت بذور هذا الافتقار المتزايد الى الانضباط . فلقد ضرب المثل بعزله امراء الانصار او قادة الجيوش لمجرد شكاوى تصل اليه من عامة الناس عليهم . ومن الصعب علينا أن نتجنب الانطباع الذى تولد لدينا بأن عمر كان كثير الشكوك فى مساعديه ، وكان يغار منهم ولذا كان يرحب بأية شكاوى تصل اليه ، ليتخذ منها مبررا لعزلهم . (١) ولكن شخصية عمر كانت من الضخامة ، وكانت تقواه ونزاهته من الوضوح

---

(١) سبق لى أن رددت في هامش سابق على ادعاء مماثل للمؤلف ، وأكدت أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان من قوة الشخصية ، على درجة عظيمة تبعد عنه أى =

بحيث استطاع أن يسلك هذا السبيل دون أن يتأثر النظام والانضباط فى عهده تأثرا جديا • ومع ذلك فان اجراء عزل القـــادة نتيجة شكاوى الجنود ، سابقه خطرة كل الخطورة ، ورثها عثمان السيىء الحظ . ولم يكن عثمان صاحب شخصية قوية ، كما لم تكن دوافعه دائما خالية من الغرض كل الخلو • (١) فبالاضافة الى تشيعه لاقاربه ، كان يعيش حياة رجل ثرى ، ويقال بأنه كان يميل الى قبول الهدايا من عماله فى الأمصار (٢) •

وقد قدر لهذه العوامل أن تمزق الحكم الدينى الحمـــاسى الذى اقامه النبى وأن تعرض وجود الامبراطورية العربية نفسها الى الخطر •

* * *

تواريخ بارزة

بدء خلافة عثمان	الثالث من نوفمبـــر (تشرين الثانى)	٦٤٤
نزول الروم فى الاسكندرية	خريف عام	٦٤٥
استعاد عمرو بن العاص الاسكندرية	صيف عام	٦٤٦
غزو طرابلس فى افريقيا بقيـــادة عبد الله بن أبى سرح		٦٤٧
احتلال قبرص		٦٤٩
احتلال اصطخر		٦٥٠
معركة الاسكندرية البحرية		٦٥٢
موت يزدجرد الثالث		٦٥٢
استقرار الوضع فى فارس		٦٥٢
معاوية يغزو قبرص للمرة الثانية		٦٥٣

= تفكير في تلق من أى عامل أو أمير أو قائد ، مهما علت منزلته . ومن هنا يكون استنتاج المؤلف بكامله خاطئا ولا صحة له مطلقا .

(١) اعتقد أن هذه الرواية التى جاء بها المؤلف ، والتى جعل منها ذريعة لاتهام عثمان رضي الله عنه بالغرض ومخالفة قواعد النزاهة ، روايات مفرضة ، حتى ولو وردت في بعض كتب العرب ، ولا ريب في أن رواتها ، من الذين تحيزوا ضد عثمان . وان كان هذا لا ينفى عنه انه استعمل اقاربه في امارة الأمصار •

(٢) هذا يتنافى مع ما عرف عن عثمان من ثراء قبل الاسلام ، وقد روى التاريخ انه تنازل عن الكثير من ماله للمسلمين في ساعات العسرة •

(المعرب)

شخصيات مشهورة

عثمان بن عفان	الخليفة الثالث
ابو موسى الاشعرى	قائد العرب في فارس
عبد الله بن ابى سرح	أمير مصر الجديد
مانويل	قائد الروم عند اعادة احتلال الاسكندرية
مروان	ابن عم عثمان ، تلقى خمس الغنائم من افريقية
معاوية بن ابى سفيان	امير سورية
سعيد بن العاص عبد الله بن عامر	أميران شابان من الامويين اعادا الاستعرار فى فارس

النار تحت الرماد

« يالها من سقطة أيها المواطنون ...
شملتنا جميعـــا ... أنا وأنتم ...

بينما كانت الخيانة تترعرع فوق رءوســــنا
لقد انتقلت سلطة الحكم الى الوحوش الكاسرة

وفقد الناس عقولهم »

شكسبير ـ من مسرحية يوليوس قيصر

* * *

« قتل عثمان مظلومــــا ، ومن قتله كان ظالما ، ومن خذله كان معذورا » .

جلال الدين السيوطى ـ فى كتابه تاريخ الخلفاء

* * *

« عجز عثمان فى شيخوخته الطاعنة فى السن ، وخلقه الضعيف عن احتمال أعباء الامبراطورية الثقيلة وما فيهـــا من فتوحات ... وكان الخليفة قد فقــد الحارس الوحيد لســـلفيه وهو احترام المسلمين وثقتهم ... وراح الخليفة الوقور الذى تخلى عنــه أولئك الذين استغلوا بسلطته ، ينتظر يائسا . . . اقتراب موته » .

جيبون ـ انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها



بلغ عثمان في عام ٦٥٤ الثمانين من عمره ۰ وكان عند توليه الخلافة قبل عشر سنوات . أكثر دنوا الى أفئدة الناس من سلفه عمر ۰ ولم يكن هناك من يشك أبدا فى ورعه وتقاه الأصيلين ولا فى اخلاصه للاسلام، وحبه لنبيه . يضاف الى هذا ، انه اثبت فى أكثر من مناسبة وبمختلف السبل والوسائل حماسه لدينه . وكان القرآن الكريم قد دون لأول مرة فى خلافة عمر ، ولكن بعض الخـــلاف ظهر فى طريقة جمعه فى النسخ المختلفة ، فأصدر عثمان أمره باعادة جمعه من جديد وعندما تم جمع القرآن ، بذل عثمان من الجهد والصبر والحيوية ما مكنه من جمع كافة النسخ الأخرى المتداولة واتلافها . وتم عن هذا السبيل الاحتفـــاظ بنسخة واحدة من القرآن حتى يومنا هذا .

وكانت النقمة الشعبية النامية غير موجهة الى عثمان نفســه بقدر ما هى موجهة ضد الامراء الذين اختارهم لادارة الامصار ، وعندما اتهم بالمحاباة لأقاربه ، رد على متهميه بأن الله تعالى أوصى بصلة ذى القربى ـ وان هذا هو ما فعله على وجه التحديد ، ومضى الى أبعد من هـــذا فوجه النقد الى أبى بكر وعمر ، لانهما أهملا أهلهما ابان خلافتيهما ، ولا ريب فى أن هذه النقطة مهمة للغاية ، اذ أن هذه المسألة لم تقرر ولم يبت فيها حتى يومنا هذا . فنحن فى بريطانيا مثلا نعتبر ولا شك أن الولاء للدولة يجب أن يوجه كل ما يعمله موظفوها حتى ولو حملهم ولاءهم هـــذا على الاضرار بمصالح أقربائهم ۰ وقد يمضى الضابط منا الى الخارج للعمل فى خدمة الدولة ، ويقضى عدة سنوات ، مهملا زوجته فى الوطن ، وتاركا تعليم اطفاله دون رقابة أو توجيه . أما فى الشرق ، فهناك من يدعى ان ولاء الانسان الاول يجب أن يكون لبنيه وأسرته . اولا يدين بالتزامات اكبر لزوجته وأطفاله ، حتى ولاطفال اخوته أو أخواته ، منه لالتزاماته الى منظمة معنوية وبعيدة عنه ؟ وقد تكون هذه النقطة قابلة للحـــوار والجدل ، ولكن مثل هذه الحجج ، لا يمكن تطبيقهـــا بشىء من الاقناع على النظام الدينى الاسلامى المبـــكر حيث لم تكن الدولة مجرد منظمة معنوية ، بل كانت نظريا على الاقل الاداة التى اختارها الله . وليس فى امكان أية سلطة أن تبرر تفضيل المصالح المادية للاقارب على خدمه الله وطاعته .

وقد أساء افتقار عمال عثمان الواضح الى التقوى ، وكونهم او كون آبائهم أشد أعداء الرسول فى الماضى الى الكثيرين من المسلمين المخلصين فى مكة والمدينة وكان عدد الباقين من صحابة الرسول لا يزال كبيرا ، بالاضافة الى محاربى بدر واحد او الذين بايعوا النبى تحت الشجرة فى الحديبية . وقد حز فى نفس هؤلاء جميعا أن يروا دولة الاسلام الدينية يحكمها اعداء الرسول اذ ينعمون فى هذه الخيرات الدنيوية ، التى هى من حق المؤمنين الصادقين وحدهم .

وكنا قد ذكرنا قبل قليل اسم عبد الله بن مسعود ، وذكرنا انه اشتبك فى شجار فى الكوفة مع أميرها سعد بن أبى وقاص ، مما أدى الى خلعه من منصب الامارة وكان عبد الله بن مسعود هذا الرجل الذى يتولى خدمة رسول الله فى المدينة ، وكان تبعا لذلك يفخر دائما بأن فى وسعه أن يتلو القرآن الكريم تماما كما سمع النبى يتلو آياته . وقد جاءت الصورة التى جمعت بأمر الخليفة عثمان ، مختلفة بعض الاختلاف فى ترتيب السور عن تلك التى يرويها ابن مسعود ، مما أثار حفيظته . ويقال ان عثمان رد على اعتراضاته ردا قاسيا ، مما أكسبه عدوا آخر كبير النفوذ . وفى الوقت نفسه قام هناك من اعترض على اتلاف عثمان للمصاحف السابقة قائلا ان كلام الله لا يجوز احراقه مطلقا .

وتبين لنا قصة ابى ذر الغفارى الشعور الذى أحس به المسلمون المخلصون تجاه عهد عثمان . فلقد كان هذا الرجل من أوائل المسلمين، وقضى حياته كلها ، ناسكا متقشفا زاهدا فى الدنيا . وراح الآن فى دمشق أولا وفى المدينة لاحقا يعظ الناس بالابتعاد عن هذه الانحرافات الخلقية التى شرعت فى الظهور فى البلاد . فلقد اخذ الناس فى سورية وفى العراق وفى المدينة أيضا وبينهم عدد من كبار المسلمين يعيشون الآن فى قصور من المرمر والرخام تحيط بهم الجوارى والعبيد ويلبسون أغلى الحلل ويأكلون افخر الأكل . وليس ثمة من ريب أن أبا ذر كان محقا كل الحق فى قوله بأن هذا الثراء وذلك الترف قد عملا عملهما فى تحطيم الفضائل العربية الصلبة والمتقشفة . ولكن حكام الامبراطورية اخذوا يدعون ان اقواله تحمل معنى تحريض الناس على الثورة ، ولذا أمر عثمان بابعاده الى واحة نائية فى قلب الجزيرة العربية . ولم يمض عليه عامان فى منفاه حتى كان قد توفاه الله فى أشد حالات البؤس والفاقة . وظل الناس يقدسون ذكراه ، على انه ولى من أولياء الله الصالحين ، وسرعان ما ثار أهله من بنى غفار ، يطلبون الثار له .

ولم يكن عثمان لينا ضعيفا فحسب ، بل وكان احيانا عنيدا ولا يحسن مصانعة الناس وعلى الرغم من انه كان على استعداد لعزل اى من أمراء الانصار أو قادة الجيوش ، اذا لم يرض الناس عنه ، الا انه لم يكن ليذعن لأى ضغط مهما اشتد لاقالة الامراء من أقاربه الامويين . ولا ريب فى انه كان محقا فى بعض الحالات فى رفض الطلبات التى توجه اليه ، وكانت الاجراءات التى اتخذها نافعة ومفيدة . وقد كرس شطرا كبيرا من عنايته ومن أموال الدولة لتوسيع الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة وتجميلهما لكن الناس ما عادوا فى أخريات أيامه ليرضوا عن اى عمل يقوم به مهما جل وعظم .

وكان الاضطراب فى غضون ذلك قد اشتد فى الكوفة حيث يذكر القارىء ولا شك أن الخليفة قد عين لها أميرا شابا من الامويين يدعى سعيد بن العاص ، واخذ الناس يتهمون اميرهم بالغطرسة والكبرياء ومحاباة القرشيين والتحيز لهم . ويقال ان سعيدا اشار ذات يوم أمام الناس الى أرض السواد فى العراق على أنها « بستان قريش » مما أثار عليه نقمة شديدة من المحاربين الذين ادعوا أنهم ملكوها بسيوفهم . وأدى الاضطراب الذى وقع الى شكوى بعث بها الامير الى الخليفة . الذى أمر بدوره بابعاد مالك الأشتر زعيم جماعة الفتنة مع تسعة من شركائه الى سوريا . وكانت الفتنة قد اشتدت فى نفس الوقت فى قاعدة الفسطاط فى مصر ، حيث أضحى الأمير عبد الله بن أبى سرح مكروها ممقوتا ، وسرعان ما أخذ الرسل والمحرضون على الفتنة يتنقلون جيئة وذهابا بصورة سرية بين المتآمرين فى العراق ومصر .

ولعل مما يبين ما لمعاوية من شخصية قوية ، أن كل شىء ظل على حاله من الهدوء والاستقرار فى سوريا فى الوقت الذى كانت فيه مصر والعراق ، وحتى مكة والمدينة تعج بالفتن والاضطرابات . وكان معاوية نفسه من الامويين ، فهو ابن أبى سفيان زعيمهم . وكان ما ينسب الى غيره من الامويين من مساس بشخصياتهم ، بسبب معارضتهم السابقة لرسول الله ، يصبح أيضا بالنسبة اليه والى أبيه . لكن العرب على الرغم من فوضويتهم بل ومن ديموقراطيتهم فى جميع الازمنة والاوقات ، كانوا ولايزالون يعجبون بقوة الشخصية فى الحكم . فعندما يعثرون على زعيم يعتبرونه جديرا بقيادتهم، يقدمون اليه منتهى الولاء ويعملون تحت امرته أصدق العمل . ولعل الصورة الكاملة للشغب المتزايد من العرب ضد حكم عثمان ، هى غير الصورة التى نعرفها فى عهدنا هذا ، وهى صورة

الشائعات الرخيصة ، والغوغائية العنيفة وتسلل مثيرى الفتنة ، وتشويه كل عمل تقوم به الحكومة سواء أكان عادلا أم ظالما ، حكيما أم طائشا ، الى مادة دعائية ضد السلطات القائمة (١) .

وعندما استبد الفزع بسعيد بن العاص أمير الكوفة من تزايد الكراهية لحكمه عند الناس ، راح يهرع فى مطلع عام ٦٥٥ الى المدينة للتشاور مع الخليفة · وعاد الى الكوفة فى غيابه ، مالك الاشتر الذى أفرج عنه ، وسمح له بالعودة من سوريا ، وأخذ يثير غضب الناس على الحكم فى الخطب النارية التى يلقيها (٢) ورفع العصاة راية الفتنة وتحلقوا حولها وأقسموا ألا يسمحوا للامير بالعودة · وعندما عاد سعيد خرج الثائرون ويعدون نحوا من الف لمقابلته قبل وصوله فالتقوا به عند القادسية وهددوه بالقتل ان أصر على محاولة دخوله الكوفة .

وقد فرح الامير لانه نجا بجلده . وعاد لفوره الى المدينة . وفزع

---

(١) يحاول جلوب هنا أن ينفث سموم حقده على الوطنية العربية التى أخرجته من الاردن حيث كان الدعامة الاساسية للحكم القائم فيه . فهو يصف دعوة القومية العربية بالرخص والغوغائية واثارة الفتن والتضليل وما أشبه ذلك من العبارات التى تنطق بالحقد الاسود الدفين من الناحية الشخصية ، وتكشف عن كراهية الاستعمار الذى يمثله جلوب للوطنية العربية لان هذه الوطنية قضت على نفوذه وما زالت تحاربه في الوطن العربى . (المعرب)

(٢) كتب أشراف اهل الكوفة الى عثمان يطلبون منه اخراج المشاغبين من الكوفة فأمر بنفيهم وعلى رأسهم الاشتر الى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية ، فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف واكرمهم ، ثم قال لهم ذات يوم « انكم قوم من العرب لكم أسنان ، ولكم ألسنة ، وقد أدركتم بالاسلام شرفا وغلبتم الامم وحويتم مراتبهم ومواريثهم . وقد بلغنى انكم نقمتم قريشا وأن قريشا لو لم تكن ، عدتم أذلة كما كنتم . ان أئمتكم لكم الى اليوم جنة فلا تسدوا جنتكم ، وان ائمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المئونة ، والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ، ثم لايحمدكم على الصبر . ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم» . فردوا عليه ردا دل على تمكن الفتنة في رءوسهم ، فرد عليهم معاوية ردا شديدا وعلم انهم لا يصلحون . وقال لهم لما ظنوا أنفسهم في الكوفة « مه ان هذه ليست بأرض الكوفة والله ان رأى أهل الشام ما تصفون وأنا امامهم ما ملكت ان أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم ، فلعمرى ان ضيعكم ليشبه بعضه بعضا » وكتب الى عثمان بانه لم يقدر على استصلاحهم وانه لايود بقاءهم في الشام فأمر عثمان أن يسيرهم الى حمص عند عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد ، فأدبهم عبد الرحمن تأديبا شديدا ، حتى أظهروا الرجوع والندم ، فأمر عثمان أن يعيدهم الى الكوفة ، فلما عادوا اشتد امرهم في الوقيعة بعثمان وعماله .

(المعرب)

عثمان ــ الذى كان قد بلغ الآن الواحدة والثمانين من عمره أو الثانية والثمانين ــ من الثورة . وقرر على الفور أن يستسلم لارادة الثائرين ، فأقال سعيد بن العاص ، وأعاد الى امارة الكوفة المحارب المخضرم أبا موسى الاشعرى الذى كان الخليفة نفسه قد أبعده محطا من شأنه عن امارة البصرة . وعهد اليه الآن باخماد الفتنة فى الكوفة . ووصل الى المدينة فى غضون ذلك وفد من جيش مصر ليقدم شكواه الى الخليفة ضد ابن أبى سرح ويقال ان عثمان كتب الى عامله فى رسالة يهدده فيها بالعزل . ويأمره باصلاح نفسه مع الجند . ولكن الامير لم يأبه بانذار الخليفة . وراح على النقيض منه يعتقل اعضاء الوفد الذى مضى يشكوه الى المدينة ، وأمر بقتل رئيسه .

وكان زعماء المسلمين فى المدينة قد أسرفوا فى تقديم النصح الى الخليفة . فبعضهم أوصاه بازالة ما يشكو منه الناس ، وبعضهم نصحه باخماد الفتنة النامية بالقوة . اما الآن فبدوا يائسين من هذا الخليفة الشيخ ، الضعيف الشخصية المتردد فى اجراءاته وتركوه يواجه مصيره. ولم يقم أعضاء الحلقة الداخلية الذين انتخبوه للخلافة من امثال على ابن عم النبى ، والزبير بطل أسوار حصن بابليون ، وطلحة ، وعائشة زوج الرسول بأى عمل لمقاومة الثورة هذا اذا لم يكونوا قد شجعوها وكان عمرو بن العاص الذى فتح مصر مرتين والذى أخرجه عثمان من امارة مصر ، محاباة منه لأخيه فى الرضاع ، مشغولا الآن فى نشر الكراهية للخليفة فى المدينة (١) .

---

(١) يعود المؤلف هنا الى محاولته لتشويه التاريخ الاسلامى ، فهو يثير شكوك القارىء في أن كبار الصحابة وفي مقدمتهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه . قد شجعوا على الثورة على عثمان . مع أن هذا القول تزييف باطل ، لم يقل به أى من المؤرخين الثقاة في التاريخ الاسلامى وكلهم يجمعون على تبرئة كبار الصحابة وفي مقدمتهم على ، من أية تهمة زائفة من هذا النوع . يضاف الى هذا أن المؤلف يحاول التشكيك أيضا في أن عمرو بن العاص كان أحد الذين أثاروا الفتنة بنشر الشائعات ضد عثمان . مع أن هذه التهمة باطلة وليس أدل على بطلانها من أن عثمان أشرك عمرا في المؤتمر الذى عقده لعماله في الامصار في موسم الحج . ولو صح زعم المؤلف لما اشركه عثمان في هذا المؤتمر متوخيا النصح منه .

ومما يلفت النظر ويحسر النقاب عن ميول المؤلف الى اليهود ، تجنبه ذكر أى شيء عن بطل الفتنة وراسها المدبر . عبد الله بن سبأ . اليهودى الذى تظاهر باعتناق الاسلام ليضل الناس . وقد أثبت جميع مؤرخى العرب ، ان هذا اليهودى ظهر اول ما ظهر في البصرة . وصار يقول للناس : عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول =

وشهد عثمان موسم الحج فى عام ٦٥٥. واغتنم عثمان هذه الفرصة لاستدعاء جميع عماله للتشاور معهم فى تدهور الوضع . وكان فى وسع كل انسان آنذاك ، كما حدث مرارا وتكرارا فى أيامنا هذه . أن يحس ما عم الناس من السخط والنقمة . وان لم تكن الثورة الفعلية قد نشبت بعد . وان كان المتآمرون لا يزالون يعملون فى الخفاء . ونصح ابن أبى سرح الخليفة أثناء المؤتمر ، بأن يستخدم المال المتوافر لديه فى بيت مال المسلمين لشراء الناقمين . مؤكدا أن المال يستطيع تحقيق كل شىء . وأعرب معاوية بن أبى سفيان عن رأيه فى ان الخطا يقع على عاتق ولاة الامصار وأضاف قائلا .. لقد وليتنى فوليت قوما لا يأتيك عنهم الا الخير ، فقال عثمان .. وما الرأى ، قال « حسن الادب » وكان معاوية محقا فى ادعائه الذى أزعج الولاة الآخرين . أما عبد الله بن عامر أمير البصرة الشاب ، فبرر تعيينه للامارة بأنه رفع راية الاسلام الظافرة فوق أقاصى هند وكوش والسند وقال .. «خذ من الناس الذى عليهم اذا أعطيتهم الذى لهم فانه خير من أن تدعهم» ، وراح ينصحه بأن يرسل الجيوش للجهاد فى سبيل الله ضد الكفرة ويشغلهم بالحرب ، وما تتطلبه من عنايتهم بأنفسهم وجيادهم ، عن الفتنة والدسائس . وعندما سأل عمرو بن العاص عن رأيه رد بصراحة قائلا .. لقد أخضعت الناس جميعا لبنى امية ثم قال .. أرى انك قد لنت للناس وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد فى موضع الشدة ، وتلين فى موضع اللين . ان الشدة تنبغى لمن لا يألو الناس شرا . واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعا. وعندما انتهى المؤتمر ، راح عثمان يحتج الى عمرو قائلا له انه لم يكن ينتظر منه أن يحدثه بما حدثه به . فرد عمرو بمكر قائلا .. « انى لأجلك أعظم الاجلال يا أمير المؤمنين » ثم راح يقول انه كان يعرف ان ما دار سيذاع بين الناس . وانه ود أن يعرف الناس حقيقة رأيه ، وحار

= برجعة محمد ، فيقبل منه الناس ذلك.ويقول لهم : عجبا لكم أيها المسلمون،يكون فيكم أهل بيت نبيكم . ثم يقصون عن أمركم..الى مايماثل هذا الكلام الذى يسهل قبوله . لان فيه تعظيما للنبى . وقد أبعده امير البصرة بعد أن السمت فتنته.لذهب الى الكوفة وواصل نشاطه فيها ، فأخرجه أميرها وسار الى مصر حيث أخذ ينفث سمومه ، ويبعث هو ومن التف حوله من دعاة السوء والمتامرين بالرسائل الى المدينة لنشر الاكاذيب والاضاليل . وقد لعب هذا الرجل وصحبه دورا كبيرا في التحريض على الثورة التى ادت الى مصرع عثمان ولكن المؤلف انسياقا مع عواطفه الميالة الى اليهود تحاشي أن يذكر شيئا عنه .

(المعرب)

الخليفة الشيخ فيما يفعل . وراح يعلن انه لن يلجأ الى العنف مع المسلمين مؤكدا للثائرين ان ليس ثمة ما يخشونه ثم قال .. « وحسبى الله ونعم الوكيل » .

وبينما كان ولاة الامصـار يجتمعـون فى مكة . كان المتآمرون فى الفسطاط والكوفة والبصرة قد استكملوا خططهم على أساس من التنسيق والتعاون . وتقـرر ان تخرج جماعات من الجند من القـواعد الثلاث متواعدة على اللقاء فى المدينة وعلى أن تطالب هناك باصرار بازالة كل ما يشكو منه الناس . وقرروا أن يطالبوا باقالة الخليفة وأن يلجأوا الى العنف لتحقيق ذلك فى حالة اصراره على رفض ما يطلبونه . ويقال ان معاوية علق على أحداث تلك الايام فقال ان العرب قد عادوا الى فوضى أيام الجاهلية .

وبدات جماعات الثائرين سيرها الى المدينة فى مطلع عام ٦٥٦ ولحق الفزع بابن أبى سرح . ففر من مصر ، الى فلسطين ينشد الملجأ الامين فى حمى معاوية بن أبى سفيان الذى كانت فلسطين جزءا من امارته . وعندما وصلت جموع الثائرين الى المدينة من الامصار رابطت كل جماعة منها فى جهة خاصة وعلى انفراد خارج المدينة . وعندما رأى أهل المدينة ما فى عيون القوم من ميل الى العنف . لبسوا دروعهم ورفضوا السماح للعصاة بدخولها . واحس الوافدون بفشل خطتهم . فبعثوا بثلاثة وفود يحملون شكاواهم الى ثلاثة من كبار الصحابة . كانوا هم الباقين من أهل الشورى الذين اختـاروا عثمان وهم على والزبير وطلحة . وانب الصحابة الثلاثة العصاة على سلوكهم الثورى . وقام على بزيارة عثمان فى نفس الوقت . وطلب اليه أن يقيل ابن أبى سرح من امارة مصر كما بعثت اليه أم المؤمنين عائشة برسالة مماثلة . ووافق الخليفة الشيخ على الطلب ورجا مستشاريه أن يختاروا له أميرا جديدا على مصر .

لعل من المؤسف أن نقول ان محمد بن أبى بكر . كان أحـد قادة الفتنة فى مصر . ولا ريب فى أن الفرق بين هذا الثورى الطموح والعنيف وبين والده الحليم الوادع الصلب فى ايمانه ، والصديق الصدوق للرسول، يوضح ما أصاب أخلاق الجيل الجديد الذى نشأ فى الترف والرخاء من انحلال . وطلب ممثلو جيش مصر أن يعين الخليفة هذا الشاب قائدا لهم وأميرا على مصر ، فاستجاب الخليفة لرغبتهم .

ووافقت الجماعات آنذاك على العودة ، ونزع أهل المدينـة عنهم

دروعهم وتبين أن الازمة قد انجلت مؤقتا على الاقل(1) . ولم يكد ينقضى اليوم الثالث على مسيرهم فى طريق العودة الى أمصارهم حتى ذكرت جماعة مصر ، أنها القت القبض على عبد زنجي يستقل هجينا ويذرع به الارض فى الطريق الى مصر . وزعمت الجماعة انها عثرت معه على رسالة صادرة عن الخليفة وموجهة الى ابن أبى سرح ، الذى لم

---

(1) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف من روايات المؤرخين المسلمين . فقد اجمعت هذه الروايات على أن جماعات الثائرين جاءت الى المدينة مرتين . وفي الاولى استقبل الخليفة وفودا منها صارحوه بانتقاداتهم لحكمه ، وحكم عماله . فرد عليهم ردودا مقنعة منها قوله لهم « والله انى وليت وانا أكثر العرب بعيرا وشاة ، فما لى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ، أكذلك هو » قالوا « اللهم نعم » وقال عثمان « وكان القرآن كتبا فتركتها الا واحدا الا وان القرآن واحد جاء من عند واحد ، وانما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أكذلك هو » قالوا « نعم » ثم دافع عن توليته للشبان من قومه ، وعن عطاياه لهم مؤكدا انها من ماله .

وعاد الثائرون الى امصارهم بعد أن اتفقوا على أن يخرجوا من جديد وكأنهم يطلبون العمرة لتنفيذ ما عزموا عليه . فخرج أهل مصر وعددهم بين الستمائة والالف ومثلهم اهل الكوفة والبصرة . وكانت اهواؤهم مختلفة . فأهل البصرة يريدون طلحة. وأهل الكوفة يريدون الزبير ، وأهل مصر يريدون عليا . لوجود ابن أبى بكر وهو ربيب على بينهم . واتفقوا جميعا على أن يقدموا روادا ليدخلوا المدينة . وينظروا هل وصل المدينة خبرهم . لانهم كانوا يخالون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب . فأرسلوا لذلك رجلين قابلا عليا وطلحة والزبير . وقالا انما نأتم هذا البيت . ونستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا ما جئنا الا لذلك . واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبى ذلك عليهما . فرجع الرائدان الى قومهما . واخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر اتوا عليا ، ومن أهل البصرة ، نفر أتوا طلحة ، ومن أهل الكوفة نفر أتوا الزبير فسلم المصريون على على بالخلافة وعرضوا له بالامر فرد عليهم ردا شديدا . وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم انهم راجعون حتى انتهوا الى عساكرهم ، وهى على ثلاث مراحل كى يفترق أهل المدينة ، ثم يكروا راجعين . فافترق أهل المدينة لخروجهم . فلما بلغ القوم عساكرهم . كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة الا والتكبير في نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم . واحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن . فلزم الناس بيوتهم . فأتاهم على فكلمهم . وقال ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون اخذنا مع البريد كتابا بقتلنا . وقال الكوفيون والبصريون جئنا ننصر اخواننا ، كأنما كانوا على ميعاد . فقال لهم على ، كيف علمتم يا أهل الكوفة والبصرة بما لقى أهل مصر ، وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا هذا والله أمر أبرم بالمدينة . قالوا فضعوه كيف شئتم ، لا حاجة لنا في هذا الرجل . ليعتزلنا ثم قالوا لعلى ان الله قد احل لنا دم هذا الرجل فقم معنا اليه . قال والله لا أقوم معكم ، الى أن قالوا فكم كتبت الينا . فقال على والله ما كتبت لكم كتابا فنظر بعضهم الى بعض ثم تركهم على وخرج من المدينة . (المعرب)

تكن أنبـــاء فراره الى فلسطين قد وصلت كما يبدو الى المدينة ، يأمره فيها بأن يلقى القبض على محمد بن أبى بكر ورفاقه . وأن يقتلهم عند وصولهم الى مصر وعاد العصـــاة لتوهم الى المدينة يطلبون ايضاحا من الخليفة . ويبدو أن الصدفة العارضة قد شاءت أن تعود جماعة الكوفة والبصرة الى المدينة فى نفس الوقت وان لم تزعما وضعهما اليد على أية رسائل مماثلة . وتجمع الروايات على أن على بن أبى طالب ، سـأل العائدين عن الطريقة التى عرفوا بها اكتشاف جماعة مصر وهى فىطريق عودتها الى الفسطاط لأمر الرسالة مع أن الجماعتين الاخريين كانتـا تسيران فى طريق مغاير لطريق أهل مصر ، عائدتين الى بلاديهما . مما ادى الى عودتهما الى المدينة فى نفس الوقت الذى عاد فيه أهل مصر . وهناك رأى آخر يقول : ان الرسالة كانت مزورة وان الجماعات الثلاث كانت قد اتفقت فيما بينها على العودة الى المدينة فى غضون ستة أيام. وكانت أنباء وصولها فى المرة السابقة قد نمت الى المدينة قبل دنوها منها مما جعلها تواجه أهل المدينة وقد تدرعوا بسلاحهم على أسـوارها استعدادا للدفاع. ومن المحتمل أن يكون الثائرون قد فكروا بأن تظاهرهم بالعودة سيحمل أهل المدينة على الاسترخاء وتخفيف الحذر فيباغتونها هذه المرة بصورة مفاجئة . (١)

ودخل على ، وقد مثل فى هذه المرحلة دور الوسيط ، على عثمان فحدثه بأمر الرسالة ، وقد نفى الخليفة بشدة واصرار ، علمه بأى شىء عنها . ووافق على أن يستقبل وفدا عن العصاة الذين دخلوا عليـه يهددون ويتوعدون ، ودون أن ينظروا اليه نظرة تجـلـة ، وزعموا أن العبد الذى اعتقلوه من عبيد الخليفة ، وان الرسالة التى كان يحملهـا ممهورة بختم الخليفة . وأقر عثمان السيىء الطالع بهاتين الحقيقتين. ولكنه أقسم للوفد ، قسما عظيما بأنه لم يكتبها ، ولم يأمر بكتابتها ، ولم يبعث بذلك العبد الى مصر مطلقا .

---

(١) لا ريب في أن الحادثة كلها تشير الى مؤامرة واضحة . رتبهـا الشـعوبيون من جماعة عبد الله بن سبأ . ومن تعاون معهم من الحاقدين على عثمان . وعلى عمـاله في الامصار ولا ريب في أن النظرية الاخيرة التى أشار اليها المؤلف ، هى الصـحيحة . وان لم يحاول هو اثبات صحتها اذ لايعقل أن يصل نبأ الرسالة المفتعلة الى جمـاعتى الكوفة والبصرة وبينهما وبين جماعة مصر مسيرة ستة أيام . ولم يكن هناك أى سبيل للاتصال السريع ولا ريب في أن عودة الجماعات الثلاث في وقت واحد الى المدينة يشـير الى وجود مؤامرة مدبرة ومن هنا يصبح المرء ميالا الى الاعتقاد بافتعال الرسالة لتكون ذريعة للعودة . (المعرب)



هؤلاء الاربعة لم يتقدم الصفوف ليتــولى حسم الموقف وتدبير الامر . وطلب الثائرون فى غضون ذلك من الخليفة أن يسـلمهم مروان الملتجىء الى دار الخليفة . ولكن عثمان رفض تسليمه اليهم . أما من تبقى من بنى أمية فقد خافوا على أرواحهم من العصاة وتفرقوا اما مختبئين أو فارين الى ملاذ معاوية فى دمشق .

وحل يوم الجمعة الذى تلا تلك الثورة ، وصعد عثمان المنبر فى مسـجد النبى ليخطب المسلمين . وناشـد المواطنين المخترمين ألا يجبنوا أمام وعيد الجنود العصاة وراح بعد ذلك يحذر العصـاة من شر مهاجمة خليفة رسول الله ، وهب بعض الصالحين من أهل المدينة الى نصرة الخليفة . فهاجمهم العصاة وأجبروهم على الخروج من المسجد ، والقيت بعض الحجارة ، وأصاب حجر منها الخليفة الشيخ نفسه فسقط على الارض مغشيا عليه ونقله الناس الى داره وهو فى غيبوبة .

وسرعان مافرض العصاة حصاراً منظما على بيت عثمان . فبات عاجزا عن أن يؤم الناس فى الصلاة . وهو عمل من أقدس واجبات الخليفة . وعجز خدمه بعد بضعة أيام عن تأمين الماء اللازم للشرب . ويقال ان الخليفة الشيخ أطل على الثائرين من سطح داره وقال .. أفيكم على ؟ فقالوا لا .. قال أفيكم سعد ؟ قالو لا .. فسكت ثم قال : الا أحد يبلغ عليا فيسقينا ماء ؟ فبلغ ذلك عليا فبعث اليه بثلاث قرب مملوءة ماء ، فوصلت اليه بعد أن جرح بسببها عدد من موالى بنى هاشم وبنى أمية .

كان الخليفة أبو بكر من بنى تيم ، وهو بطن من قريش . بعيد عن بطن بنى هاشم ، وراح محمد بن أبى بكر يناشد أبناء عشيرته ان ينصروه فى حصار الخليفة . وهكذا أخذ العرب يعودون الى عصبيات الجـاهلية العمياء . وارتفعت أصوات من قريش فى المدينة تحذر قادتها من نتائج الوضع وآثاره . وقال هؤلاء ان قريشا كانت تعيش حتى تلك اللحظة فى أمن ودعة وكرامة . وان العرب جميعا ينظرون اليها بعين التجلة والاحترام وهاهى الآن تقف مكتوفة الايدى بينما يتعرض زعيمها للهجوم من جماعات من جنود البدو العصاة . وتتعرض مكانة قريش كلها تبعا لذلك الى الدمار أمام العرب جميعا . ولمس هذا التعنيف عواطف على والزبير وطلحة وغيرهم من الصحابة . فبعثوا بأولادهم لحماية باب دار عثمان ولـكنهم مع ذلك رفضوا أن يخرجوا الى العراء لمقاومة العصاة الذين بدوا وكأنهم لايريدون اغضابهم . وعلى الرغم من حراسة أولادهم لدار عثمان ، آلا أنهم ظـلوا يشتركون مع الثائرين فى المطالبة بتسليم مروان .

وطارت رسالة سرية عاجلة في غضون ذلك الى دمشق لابلاغ معاوية بتطور الوضع وحثه على ارسال نجدة فورية • وسرعان مابعث هذا بقوة تسيرالليل والنهار منسوريا، كما بعث عبد الله بنعامر أميرالبصرة بقوة مماثلة • ووصلت انباء تحرك النجدات الى العصاة ، فأخذوا يضيقون حلقة الحصار على ضحيتهم • ومنع الماء من جديد عن الدار • وعانى الخليفة وأهل بيته أهوال الظمأ ثانية ، وكان الوقت شهر مايو من عام ٦٥٦ وقد أخذت حرارةالحجازبخناقالناس ، وحاولت أمالمؤمنين أمحبيبة ، ارملة رسول الله ، وقد تذكرت حب زوجها العميق لعثمان أن تسعفه بالماء فاقتادت بغلا يحمله الى باب داره وهكذا عرضت نفسها لاهانة العصاة • وقد أملت فى أن تمنعهم مكانتها كزوجة رسول الله من الوقوف فى طريقها • ولكن أملها طاش • وحال العصاة بعد أن أساءوا اليها بينها وبين الوصول بالحمل الثمين الى المحصورين • وأخذ عدد متزايد من أهل المدينة من الانصار ومن صحابة النبى يظهر امتعاضه وفزعه من هذا الانفجار الفوضوى البدوى على الرغم من انهم كانوا ينتقدون عثمان على ضعفه وعجزه • ولكن أيا منهم لم يحاول مد يد النصرة اليه • وظل على والزبير وطلحة معزولين فى بيوتهم، اما عن خوف أو عن غيرة من عثمان ولا يعرف الحقيقة الا الله •

ودب الفزع فى نفوس العصاة من اقتراب جيش النجدة القادم من سوريا، اذ حملت اليهم الانباء انه وصلالى وادىالقرى التى لاتبعد أكثر من مائة وعشرين ميلا الى الشمال الشرقى من المدينة • فقرروا أن الضرورة تحتم عليهم الاسراعفى النهاية وشددوا هجومهمعلى الدار • وانهالت النبل على المنزل فأصيب مروان بجراح • وخضب الحسن بن على بالدماء وهو على الباب • كما خضب محمد بن طلحة بالدماء ايضا •

وخشى محمد بن أبى بكر ، وهو من أعنف الثائرين واشدهم حماسة أن يغضب بنو هاشم لرؤيتهم دم الحسن وأن يتجمعوا لمحاربة العصاة ثأرا لدم قريبهم ، اذ كانت العصبية القبلية لاتزال قوية رغم الاسلام • وكان أتباع الخليفة قد ردوا فى غضون ذلك على سهام المهاجمين وأصيب أحدهمفىمقتله. فثار العصاة لرفيقهمالقتيل وحاولوا اقتحامبابالدار ، ولكن محمدا بن أبى بكر تمكن من اقناع رجلين أو ثلاثة بتسلق بناء مجاور ليتسوروا على الخليفة الدار عن طريق الدخول من نافذة مفتوحة الى فنائها وكان أنصار الخليفة قد سارعوا الى الباب الامامى يحمونه من اقتحام العصاة الذين كانوا يوالون مهاجمته • واشتد أوار المعركة وحمى وطيسها وحجب ضجيجها صوت المتسللين • وظل الخليفة الشيخ وحيدا فى غرفته

يتلو القرآن المفتوح على ركبتيه وفجأة راى امامه محمد بن أبي بكر. وقد نفذ الى الغرفة من مؤخرة المنزل • وكان محمد منتضيا سيفه بيمناه ، فهجم على الشيخ يسب ويشتم وقبض على لحيته وسلك الخليفة فى لحظاته الاخيرة سلوكا كله هدوء واباء يستفز اعجاب الجميع حتى يومنا هذا اذ وجه كلامه الهادىء الوقور الى الرجل قائلا : «والله يابن أخي لو رآك أبوك لساءه مكانك منى » ويبدو أن الشاب المتوحش قد خجل خجلا مؤقتا من موقف الخليفة الشيخ الرصين الوقور ومن اشارته الى أبيه أبى بكر الحيى الصديق • فاسترخت يده عن لحية الخليفة وتراجع الى الوراء • لكن شريكيه كانا أكثر منه جرأة وأقل احساسا ، فهجما على الخليفة بعد أن مرا بمحمد ، وسيفاهما مشرعان في يديهما • وخر عثمان صريعا على الارض وضم فى لحظاته الاخيرة ، صفحات القرآن الذى كان يقرؤه الى صدره • بينما تدفق دمه غزيرا فخضب هذه الصفحات ورأت زوجه نائلة قرينها صريعا فألقت بنفسها عليه لتدرأ عنه بجسدها طعنات أخرى • وقطع القاتلان بعض أصابعها وهما يواصلان ضربه بسيفيهما وصرخت المرأة فلم يسمع صراخها ، لما كان فى الدار من الجلبة والضوضاء وهجم بعض موالى الخليفة على الغرفة فقتلوا أحد الرجلين • وظل صراخ نائلة وعويلها غير مسموعين بسبب ماتحدثه المعركة عند الباب من ضجة وضوضاء فهرعت الى سقف البيت وصرخت مرة ومرة قائلة : «لقد قتلوه • قتلوا أمير المؤمنين » •

وكان العصاة قد اقتحموا فى تلك الآونة باب المنزل واندفعت الجماهير الشرسة صارخة الى الداخل واندفع بعضهم الى الغرفة التى كان فيها الخليفة الشيخ يلفظ انفاسه الاخيرة فأعملوا فيه سيوفهم • وطعنوه بخناجرهم وداسوا على جثته بأقدامهم وكانوا على وشك اقتطاع رأسه عندما اندفعت نساء البيت معولات باكيات يحمينه بأجسادهن • وانسحب الجنود العتاة الذين لاتعرف الشفقة طريقا الى قلوبهم أخيرا وقد خلفوا جثمان الخليفة يغوص فى بركة من الدماء • وقد صمت صمته الأبدى على أرض الغرفة • وكان مصرعه فى السابع عشر من يونيو (حزيران) عام ٦٥٦ (١) •

وعندما نمى الخبر الى على وطلحه والزبير هرعوا الى دار الخليفة

---

(١) يجمع المؤرخون العرب على ان مصرع عثمان كان في العشرين من مايو (ايار) عام ٦٥٦ •

(المعرب)

يعربون عن أساهم وسخطهم لما حدث • وينحون بالملامة على المدافعين عنه لفشلهم فى الحفاظ على حياته • وقد تبدو هذه الكلمات خاوية من كل معنى ، اذا عرفنا ان الحصار الذى فرضه العصاة على دار الخليفة دام أربعين يوما (١) . ظل ابانها القادة الثلاثة ساكتين لا يفعلون شيئا لانقاذه •

وظلت جثة الخليفة فى مكانها داخل الغرفة ثلاثة أيام ، فى حين فرض العصاة سيطرتهم على مدينة الرسول . ولم يجرؤ أحد على نقل الجثة لدفنها واندفعت جماعة صغيرة عشية اليوم الثالث من المنزل . وقد حمل أفرادها النعش الذى يضم الجثة على أكتافهم وقد ضمت هذه الجماعة الزبير بن العوام والحسن بن على وبعض أقارب عثمان ومواليه . ومع ذلك فلم تخلص الجماعة من مراقبة العصاة الذين قذفوا الموكب الصغير بالحجارة . ودفن أمير المؤمنين فى قطعة صغيرة من الارض على مقربة من المقبرة العامة خارج المدينة .

لاريب فى أن عثمان كان فاشلا كخليفة للمسلمين ، فلقد برهن على ضعف فى سياسة أمور العرب الذين تميزوا بروح العنف والتحزب • ولا سيما فى وقت جعلت منهم الانتصارات المتلاحقة قوما لايسأسون ولا يذعنون • وكانت مواهبه العقلية محدودة مما أعجزه عن تبين القضايا الهامة ، وجعله خاضعا لسيطرة الجشعين من أقاربه • وقد عاش هو نفسه على العكس من سابقيه حياة رخية ، وقبل الهدايا من عماله • وان كان الترف البدائى الذى عاش فيه لا يقارن مطلقا بترف أسلافه من قياصرة الروم وأكاسرة الفرس • لكن من سبقه فى تدبير شئون المسلمين وهم النبى وابو بكر وعمر كانوا يحتقرون متاع الدنيا وزخرفها ، يمشون حفاة لا تسترهم الا عباءات خشنة من الصوف . حتى بعد أن حصلوا على السلطان السياسى الضخم • وبدا عثمان اذا قورن بهم رجلا دنيوى الطابع لكنه كان تقيا تقوى أصيلة حتى أن النبى بشره بالجنة • وكان من التواضع والبراءة على درجة عظيمة حتى ان النبى قال عنه ان الملائكة لتخجل فى حضرته • ولو لم يقدر له أن ينتخب ليحكم هذه الامبراطورية العظيمة التى تجيش بالاضطراب لأنهى حياته رجلا جليلا وقورا متدينا وادعا • ولا ريب

---

(١) يقول المؤرخون العرب ان مدة الحصار كان ٢٢ يوما لا أربعين كما ذكر المؤلف •

هي أنه كشارل الاول ملك انجلترا يصلح لان يكون مواطنا كريما فاضلا لا ملكا أو حاكما(١) .

كانت الاوقات عصيبة على اى حال ، وكان ايقـاع الانتصـارات العربية قد بدأ فى الهبوط ، كما أن الحماسة الدينية الساعرة كانت قد شرعت فى الخفوت ، ولكن لو كان عثمان على شاكلة عمر لتمكن من مواجهة العاصفة والتغلب عليها .

---

(١) نحن نختلف مع المؤلف في تحليله لشخصية عثمان . والاسباب التى ادت الى مصرعه فهو من أكرم خلق الله خلقا ولعل اصدق دلالة على ذلك مارواه أبو هريرة عن النبى (صلعم) اذ قال « عثمان من أشبه أصحابى بى خلقا » ومن كان يشبه رسول الله في خلقه ، لا يمكن ان يتهم بالضعف والفشل وضيق المواهب والخضوع للاقارب . وقد زوجه النبى ابنتيه واحدة اثر أخرى . وقال له على رواية ابن عساكر .. « لو أن لى أربعين ابنة زوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة » .. ومن يرضى به النبى وهو أعظم الناس صهرا لا يمكن أن يوصف بما وصفه به المؤلف .

اما ما وقع في عهده من فتن فمرده الى اسباب عدة نجملها فيما يلى :

١ ـ تحاسد كبار قادة المسلمين مما افسح المجال لرواد الفتن ومحبى الاضطرابات من الشعوبيين اذ نقلت عن كبراء المدينة اقوال كثيرة في عثمان . لم يدعموها بالأدلة والبراهين . مما اثر على عقول العامة ونفوسها .

٢ ـ أما ما عرف به عثمان من خلق الحياء واللين مما يدفعه الى الاغضاء عن كثير مما يكره ويدعوه الى خوف الفتنة على المسلمين والى التسامح مع من يناله منهم من اذى في حق نفسه وهما صفتان حملتا الناس على اتهامه بالضعف .

٣ ـ سماح عثمان لاعلام قريش خلافا لما كان يفعله عمر : بالخروج من المدينة والطواف بالامصار . وهذا هو ما دعا أهل البصرة الى المطالبة بخلافة طلحة . وأهل الكوفة الى المطالبة بخلافة الزبير ، وأهل مصر الى المطالبة بخلافة على . ولا يمكن والحالة هذه أن ننفى عن اعلام قريش تطلعهم الى ولاية الامر . وان نفينا عنهم اشتراكهم مع المتامرين والذى يؤخذ عليهم هو تقاعسهم عن نصرة عثمان وقت الشدة .

٤ ـ سهولة التأثير في الجماعات اذا استهواهم ما يقال . وهم في مثل هذه الحال لا يتثبتون مما يقال لهم . فلقد كان العرب يحبون النبى اكثر مما يحبون انفسهم ويحبون العدل والمساواة فجاءهم ابن سبأ الشعوبى من الجهة التى يحبونها يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويقنعهم بأن على بن أبى طالب هو وصي النبى وانه صاحب الحق في الخلافة .

٥ ـ خداع الجماهير بالطعن في ولاة عثمان كابن أبى سرح لان النبى حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه وعفو الرسول ستر للذنب . وكالوليد بن عقبة مع انه كان واليا لعمر من قبل . وسعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من أحسن العمال وأحكمهم بالقسط . ولكن الجماهير ضللت بالاكاذيب التى نشرها الشعوبيون من أصحاب المقاصد السيئة .

(المعرب)

وادى مصرع عثمان الى تغير كل شيء فى حيـــاة العرب بله فى حياة المسلمين ، وكان المسلمون قد عاشوا ربع قرن بدأ بفتح النبى مكة ، وأقامة الحكم الدينى فى البلاد فى حلم مثالى رفيع . فقد اختـــارهم الله لفتح العالم ، واحتفظ لهم بكل مافى جنات النعيم من مسرات لا يمكن للعقل ان يتصورها . وكانت عناية الله قد اختارت رسول الله أولا وخليفتيه ابا بكر وعمر ثانيا ، ليكونوا أدوات تنفيذ ما أراده الله من نصر للعرب . وليس ثمة ما يمكن له ان يشوه ما يحس به العرب من سعادة ونصر . ولو قدر للعرب ان يحققوا انتصارات اخرى فى الحياة الدنيا لبات فى وسعهم ان ينعموا بالمزيد من اطايب الحياة كالمال والنســـاء والجياد والمجد ، وكلهـــا اطايب شاءت ارادة الله أن يغدقها على عباده الصالحين ، أما اذا قدرت الشهادة لأى منهم فان الشهداء يمضون فورا الى مافى فراديس الجنان من متع ومسرات ، حيث يعيشون فى ظـلال ونعيم مقيم ، على الارائك متكئون وامامهم انهار سلسبيل تقوم على خدمتهم الحور العين . لكن هذا الحلم بدأ الآن فى الانهيار . فلقد صورت دعايات أهل الفتنة خليفة المسلمين للناس على انه رجل عجوز شره شديد القسوة وقد تمكنت الايدى المجرمة من الوصـــول اليه فقتله أخوانه المسلمون الذين تركوا جثته دون دفن على ارض غرفته المجاورة لمسجد الرسول ، وقبره . وقد تقسمت قريش الآن ، وهى الطبقة النبيلة المقدسة ، (١) الى فئات وشيع تتوزعها عوامل الطمع والحسد .وكان محمد بن ابى بكر اول من وضع يديه على الخليفة الثالث لرســـول الله . وكان قومه بنوتيم من قريش ، هم الذين هاجموا بنى امية يهتفون هتافات الجاهلية لاهتاف « الله اكبر » وهكذا انحسر حلم الربع قرن لتخلفه أيام تعود فيها الجاهلية بكل تعصبها وعنفها ونهبها وسلبها .

وقد يشك المؤرخون الاوربيون المعاصرون فى أن الحماسة الدينية قد وجدت عند العرب فى أى يوم من الايام .وقد يردون الفتوحات الاسلاميه الى العوامل الاقتصادية التى نادى بها العالم الاقتصادى مالثوس ، والتى بين فيها ان ضغط تزايد السكان يكون دائما عاملا من عوامـل الهجرات العنيفة التى تتجسد فتوحات وغزوات . وانى لأرى أن هذه الشكوك صحيحة الى حد ما . فلو كان أهل الجزيرة العربية أثرياء يحبون حيـــاة الرخاء والرفاهية لما اندفعوا من بلادهم الى الخارج أبدا . ومن الصحيح أيضا أن بعضهم غنم الكثير بسبب هذه الفتوحات وجمع الثروات الطائلة.

---

(١) لا أدرى من اين جاء المؤلف بصفة القداسة لقريش ، فالاسلام لايعرف القداسة الا للنبى وللصالحين من المسلمين . (المعرب)

ولم يكن الناس على جهل بما اتبعه بعض أمراء الامصار والعمال من أساليب الابتزاز والاختلاس للاثراء ، ولكن كبار القادة هم الذين يتعرضون في كل الحركات الدينية والسياسية العظيمة لمثل هذه الاغراءات • ولعل من الصحيح أيضا أن أكثر القادة العسكريين نجاحا ـ كخالد بن الوليد مثلا ـ كانوا أكثر الناس قسوة وخلوا من الرحمة(١) • ولكن الكثيرين من كبار القادة ظلوا طيلة الخمسة والعشرين ربيعا الاولى صورة مجسدة للنزاهة • ولا يمكن لما تجسد فى بعض القادة من مطامع دنيوية أن نغمض عيوننا عن الحقيقة ، وعن رؤية ماكان يمتاز به معظم الناس من تقوى أصيلة ومثالية صادقة •

ويمكن لنا أن نجمل الصورة الصحيحة لما امتاز به المسلمون الاوائل فى الربع قرن الاول من حماسة دينية من مقـــارنة أوضاعهم بما صحب التفجرات اللاحقة فى شبه الجزيرة العربية من حماسة واندفاع فى القرون اللاحقة • فقد تمكن القرامطة بين عامي ٩٢٩ و ٩٦٩ مثلا ـ وهم شيعة شديدو التعصب ـ من احتلال الجزيرة العربية كلها بما فيها اليمن • واستولوا على مكة والمدينة وهددوا مركز الخلافة نفسه • ولكن هذا الاندفاع الحماسى عاد فخفت بعد انقضاء نحو من أربعين عاما • وظهرت جماعة الوهـــابيين فى نهاية القرن الثامن عشر • واحتل رجالها الجزيرة العربية كلها وهـــددوا سورية والعراق • ولكن الوهابيين مالبثوا أن هزموا بعد نحو من أربعين عاما • وخمد حماسهم الدينى ليعود الى الانتعاش من جديد فى عام ١٩١٢ وليسيطر على الجزيرة العربية حتى عام ١٩٣٠ ليعود طوفان الحماسة ، فيخفت من جديد • ويبدو من هذه الأمثلة أن أهل الجزيرة العربية كانوا معرضين من وقت الى آخر لان تجرفهم الانفجارات العنيفة من الحمـــاس الدينى ، وهى انفجارات لاتطول عن فترة أربعين عاما يعود بعدها الحماس الى الخفوت •

وكتب السير ماثيو ارنولد ، وهو من أعظم خبراء العصر فى الشئون العربية يقول : لعل من أبرز الاكتشافات الرائعة التى حققهـــا المؤرخون العصريون ، الاعتراف بالحقيقة الواقعة وهى أن انتشار الاسلام الهائل فى النصف الثانى من القرن السابع لم يكن وليد حركة دينية عظيمة . انما كانت هذه التوسعات التى قام بهـــا الجنس العربى ثمرة هجرات

---

(١) حملة اخرى من الحملات التى تعرض بها المؤلف لقادة المسلمين وفي مقدمتهم خالد بن الوليد رغبة منه في تشويه التاريخ الاسلامى .

(المعرب)

قام بها شعب امتاز بالحيوية والاندفاع . ساقته المجاعة ، ودفعه العوز . الى اجتياح الاراضى الاكثر ثراء فى بلاد جيرانهم الأسعد حظا .. وقد أعلن عدد آخر من المؤرخين المعاصرين والاساتذة ايمانهم باكتشاف هذه الحقائق نفسها ٠

لكننى اعتقد أن هذه الاكتشافات ليست الا جزءا من الحقيقة وانها نسبية المعرفة لاموضوعية ٠ ففى هذا العصر الذى نعيش فيه تتركز افكار الاوربيين كل التركيز فى الشئون الاقتصادية بحيث أننا ننسب الدوافع نفسها الى الشعوب الاخرى غير الاوربية وفى مختلف العصور والحقب ٠ وفى مثل هذه الايام السوقية (الاستراتيجية) أرى لزاما علينا أن نتبين الخطأ فى نسبة ما يقوم به الناس جميعا والأمم كلها الى سبب واحد فقط ٠ والدوافع الانسانية والمشاعر البشرية هى من النوع المعقد كل التعقيد بحيث لايمكن تفسيرها بالتحليل الرياضى ٠ ومن هنا تكون الدوافع التى حملت العرب على الاشتراك فى فتوحات السنوات الخمس والعشرين الاولى مختلطة ٠ فقد لعب كل من الطموح وشظف العيش والفقر والطمع دوره لكن البدو كانوا دائما فى حالة من الفقر والجوع ألوف السنين قبل محمد وبعده ٠ ترى اذن ما الذى أدى الى أن يصبحوا قوما لا يغلبون مدة ربع قرن فحسب ؟

لقد عشت سنوات طويلة مع أبناء البدو الذين لم يتغيروا كثيرا عما كانوا عليه أيام الفتوحات الاسلامية ولقد اكتشفت أن هنـــاك خليطا من الايثارية مختفيا وراء مايمتاز به البدو من مظاهر القسوة واعمال السلب ٠ وانى لأعتقد أن الرسول عزف على ذلك الوتر الخفى الحساس من المثالية العربية ، وعندما مسه لم يبق هناك مايقعدهم عن تلبية كل مايطلبه منهم ولم يكن فى وسع ضغط السكان أو الحاجة الاقتصادية وحدهما أن يخلقا ذلك التفجير البركانى ، وكان لابد من وجود نيران عاطفية ومثالية لخلق هذا العنف الضخم ٠ ولكن هذه القوة فى العاطفة التى خلقها الايمان ، كان لابد وان تكون قصيرة العمر ٠ ولم يكن قد انقضى الآن أكثر من خمس وثلاثين سنة على هجرة الرسول الى المدينـــة ، وأربع وعشرين سنة على وفاته، عندما أخذ الحماس العاطفى الاول يسير فى طريق الخفوت والبرود. وأدت وفاة عثمان الى انتشار خيبة الأمل والى خمود نيران الحماس الدينى وضعف ماخلفته الفتوحات الكبرى من شعور بالعظمة والمجد ٠

تواريخ مشهورة

مقتل الخليفة عثمان	١٧ يونيو ٦٥٦

* * *

شخصيات بارزة

مالك الأشتر	مثير الفتن والاضطراب فى الكوفة
محمد بن أبى بكر	أحد المشتركين فى قتل عثمان
على بن أبى طالب الزبير بن العوام طلحة بن عبد الله سعد بن أبى وقاص	كبار مستشارى الخليفة الذين لم يتدخلوا لنصرته

—*—


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكم لله

« لبس الطموح الدافع المتسلط ، لباس الرغبة في الثأر العادل . وكثيرا مايحل التشيع والتحزب محل العقل والمنطق في دوامات العواطف والدسائس، وعلينا ألا نشك في أن القادة والاتباع قد اقنعوا أنفسهم بأن الهدف الحقيقي الذى ينشدونه هو عقاب المسئولين عن الخيانة العظمى التى اجترمت في المدينة» .

السير وليام موير .. قصص الخلافة الاولى .



كانت المدينة تعيش فى حـــالة من الاضطراب والفوضى فى الايام الاولى التى تلت مصرع عثمان ، وكانت الكلمة العليا ابانها للعصـــاة ، وكانت جماعة جيش مصر أكثرها عنفا فقد اغتصب زعيمها مركز الخليفة وأخذ يؤم الناس فى الصلاة فى المسجد الكبير ، أما الأمويون فقد تفرقوا هاربين فاتجه بعضهم الى دمشق فى حين اتجه بعضهم الآخر الى مكة ، وتسلل الى مكة أيضا سعد بن أبى وقاص ونفر من المواطنين المحترمين(١) أما عمرو بن العاص فقد انسحب حتى قبل مصرع الخليفة الى مزرعة له قريبة من بئر السبع ، وجمع أحد الامويين قميص عثمان الملوث بالدماء وأصابع نائلة ، زوجه ، المقطوعة ، وحملها الى دمشق حيث قدمها الى معاوية .

وسرعان ماوقعت ردة الفعل ، حتى ان بعض العصاة فزعوا من هول مااجترمته أيديهم ، وأدرك البعض الآخر أن الامبراطورية بأسرها غـدت الآن بلا رأس وبلا حكومة تحكمها ، وانه مالم تقم سلطة مركزية على الفور. فان الامصار المحتلة ستتفسخ فى حالة من الفوضى والاضطراب • وراح العصـــــاة يدعون أهل المدينة الى اختيــــار الخليفة الجديد ، وكان العصاة من جماعة مصر يؤيدون عليا ابن عم النبى ، أما العصاة من أهـل الكوفة فكانوا يؤيدون الزبير ، قائد الفئة التى ارتقت سلالم حصن بابليون لاقتحامه ، وأيد العصاة من أهل البصرة طلحة ، الذى أصيبت يده اليمنى بالشلل عندما دفع بها الى الامام فى معركة أحد ليحمى بها رسول الله من ضربة سيف وجهت اليه •

وكان قبول الخلافة فى مثل هذه الظروف العصيبة وبعد خمسة أيام من مصرع الخليفة السابق وفى خضم سيطرة الجنود العصاة على العاصمة عملا يتطلب الكثير من الجرأة والشجاعة ، ويبدو أن عليا تردد بادىء ذى بدء ، وعرض البيعة على الزبير وطلحة ولكن الضغط اشتد عليه لقبولها من فريقى صحابة الرسول الذين باتوا الآن شيوخ المدينة والجنود العصـــاة

---

(١) تختلف رواية المؤلف عن الروايات الاسلامية بعض الاختلاف فقد ذكر ابن سعد ان عليا بويع بالخلافة بالغد من مقتل عثمان . واظن ان البيعة تمت فى الغد من موت الخليفة . كما ان الطبرى ذكر ان سعد بن أبى وقاص حضر البيعة ، ولم يهرب الى مكة كما قال المؤلف ، وانه قال عندما طلبت اليه بيعة على . « والله لا أبايع حتى يبايع الناس ، والله ما عليك منى بأس » فقال على « خلوا سبيله » .

الذين يسيطرون عليها ، وقد بايعته غالبية المواطنين وبينهم طلحة والزبير. وفارق العصاة المدينة أخيرا عائدين الى أوطانهم وأمصارهم وبينهم طلحة والزبير(١) ليفخروا بما عملوه فى قواعـــدهم العسكرية فى الفسطاط والكوفة والبصرة .

ويذكر القارىء ولاشك .. أن المنافسة القديمة بين بطني هاشم وأميه من بطون قريش كانت قد تولدت كما رأينا قبل ولادة النبى . وقد قدر لهذه المنافسة أن تقسم الامبراطورية العربية العظمى فى السنوات التالية الى فرق واقسام ، وان تجزىء العالم الاسلامى الى شيع وأحزاب ما زالت قائمة حتى يومنا هذا ، وليس ثمة من شك فى أن كافة المؤرخين المسلمين قد تورطوا فى هذه الانقسامات المفجعة والمستمرة ، ولذا فان ما خلفوه من تسجيل للاحداث وتفسير تاريخى لها ، قد اصطبغ بصفة تشيعهم لهذه الفئة أوتلك. وتؤلف رواياتهم المتناقضة فىمعظم الأحايين مشكلة معقدة لا تحل بالنسبة الى الطالب المحايد ، وقد بذلت كل ما وسعنى من جهـد وطاقة لاتخاذ سبيل وسط فى خضم هذه الصراعات العاصفة .

وعلى بن أبى طالب هو ابن عم النبى والذى نشأ فى حجره اذ تبناه وكفله بعد زواجه بخديجة ، ليخفف عن عمه عبء وفرة الولد ، وعندما شب

---

(١) لم يوضح المؤلف ما وقع عند بيعة على ايضاحا كافيا ، ويقول الكوفيون ان زعيمهم الاشتر كان أول من بايع عليا بالخلافة وكان من المهم عنده أن يبايعه طلحة والزبير لانهما زميلاه فى الشورى . واذا كان هناك من متطلع غيره الى الخلافة فهو أحدهمـا ولا شك ، وروى الزهرى انه دعاهما الى البيعة فتلكأ طلحة فقام مالك الاشتر واستل سيفه وقال : والله لتبايعنى أو لاضربن به ما بين عينيك فبايعه ، وبايعه الزبير . وروى أن علياقال لهما ان أحببتما أن تبايعانى .. فافعلا وان احببتما بايعتـــكما ، فقالا : بل نبايعك . ثم قالا فيما بعد انهما انما بايعاه خشية على نفسيهما وانهما كانا يعـرفان أنه لن يبايعهما ، وجىء بسعد بن أبى وقاص ليبايع . فقـال : لا أبايع حتى يبايع الناس . والله ما عليك منى بأس . فقال : خلوا سبيله . وجىء بعبد الله بن عمر ليبـايع . فقال لا أبايع حتى يبايع الناس . قال ائتنى بحميل (اى بكفيل) قال لا ارى حميلا . قال الاشتر : خل عنى أضرب عنقه قال على .. دعوه أنا حميله . انك ما علمت لسيء الخلق صغيرا أو كبيرا وتخلف من الانصـــار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدرى ، ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيدة وكعب بن عجرة ، وهم من المياليين الى عثمان. وهرب قوم من أهل المدينة الى الشام ولم يبايعوا عليا . ولم يبايعه قدامة بن مظعـون وعبد الله بن سـلام. والمغيرة بن شعبة وبايعه من عدا هؤلاء أهل المدينـة الا من فـر ولحق بالشام .

(المعرب)

واشتد عوده ، بنى بفاطمة ابنة النبى ، ووالدة الحسن والحسين سبطى الرسول ، والحبيبين الى فؤاده ، وقد اعتنق على الاسلام وهو فى العاشرة من عمره ، وهناك من يقول انه أول من أسلم ، فى حين أن البعض الآخر يقول : ان خديجة كانت أول من أسلم ، ويقول البعض الثالث ان أبا بكر أول المسلمين (١) .

على أى حال كان على من أول ثلاثة آمنوا بالله ورسوله ،ويروى عن على نفسه قوله ان الرسالة نزلت على النبى يوم الاثنين وانه أسلم يوم الثلاثاء ، وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها كان على بن أبى طالب بدافع قرابته الى رسول الله ، وبدافع أقدميته فى الاسلام ، أبرز المسلمين الاحياء فى عام ٦٥٦ .

وكان على بطلا من أبطال القتال فى أيام فتوته وشبابه ، وكان أول من نزل الى المبارزة فى معركتى بدر وأحد بين الصفوف وتغلب على خصمه فى كلتا المعركتين ، وكثيرا ماعهد اليه النبى بالراية ليحملها فى معارك المسلمين ، ولكنه فى سنوات الفتح الاسلامى ظل فى المدينة يعمل مشاورا ومستشارا لكل من أبى بكر وعمر ، اذ عرف عنه حدة الذكاء وسرعة البديهة . وروى عن عمر بن الخطاب قوله : « على أقضانا » .

وقد أصبح على فى النهـــاية من أثرياء أهل المدينة . اذ لم يكن شديد التقشف كأبى بكر وعمر . وقد اختار الله رفيقته فاطمة الزهراء الى جواره منذ عهد بعيد ، فبنى على بعدها بعـــدد من النساء ، واقتنى الكثيرات من الاماء ، وكان خطيبا لايشق له غبار فى بلاغة قوله ومن أعلم الناس بأعراف الاسلام وسننه . وعندما بويع بالخلافة فى عام ٦٥٦ ، كان قد بلغ أوسط العمر ، ويمتاز بالقصر والبدانة ، وله لحية كبيرة متدلية .

وواجه على بعد توليه الخلافة موقفا فى منتهى الخطورة ، وكان قد أم للمدينة ابان سنى الفتح عدد كبير يبلغ الألوف من العبيد والموالى الذين يمتون الى مختلف الجنسيات والشعوب . وقد جاءوا جزءا من الفىء أو موالى للكثيرين من المحاربين وكان الكثيرون منهم أو معظمهم قد اعتنق الاسلام مما مكنهم من تحسين أوضاعهم فى المدينة المقدسة . وقد سمح لعدد من العبيد والموالى المحررين من ذوى المواهب الخاصة أن يمارسوا

---

(١) كان على بن أبى طالب أول من أسلم من الفتيان .

مهنهم فى المدينـــــة بحرية ، شريطة أن يدفع العبد لسيده شطرا من مكاسبه • ولقد رأينا من قبل أن أبا لؤلؤة الذى قتل عمر بن الخطاب كان عبدا للمغيرة بن شعبة وكان من الحاذقين فى أعمال النجارة ، وكان عدد من كبار المسلمين قد ضم بعض العبيد الى بطانته ، وجهزه بالســـلاح ليتولى حراسته ؛ وظل هؤلاء الموالى والاتباع هادئين مستكينين طيلة المدة التى كانت فيها الامبراطورية العربية قوية تفرض النظام على رعاياها. ولكن عندما وقعت الفوضى أثناء حصار عثمان خرج عدد من هؤلاء الموالى الى شوارع المدينة مجهزين بالســـلاح يعيثون فيها فســادا ويقترفون الجرائم ، بعد أن عصوا طاعة سادتهم وتجبروا عليهم •

ولم يكن هنـــــاك من يتخيل امكان وقوع العصـــيان فى قلب الامبراطورية وعاصمتها ، طيلة المدة التى انقضت بين فتح الرسول لمكة ، ومصرع عثمان ، ولم يكن ثمة جنـــود يقيمون بصفة مستديمة فى مكة والمدينة • فالمحاربون العــــرب منتشرون فى قواعدهم العسكرية على الحدود والثغور أو فى الامصار المحتلة ، وهكذا تمكنت حفنة من العصاة لا يزيد تعدادها على الألفين من فرض الحصار على الخليفة فى منزله وقتله • أما وقد عاد العصــــاة الآن الى قواعدهم ومراكزهم ، فقـــد أصبحت الامبراطورية تحت رحمة العبيد والموالى •

ومثلت القبائل البدوية المحيطة بالعاصمة خطرا ثالثا يهددها • وعلى الرغم من أن هؤلاء البدو كانوا دعامة الجيوش العربية التى احتلت فارس واجتاحت امبراطورية الروم سعيا وراء نشر العقيدة الا أن غريزة النهب كانت متأصلة فى نفوسهم وطبائعهم • وأوحت الفتن التى وقعت فى المدينة لقبائل الحجاز ، بأن سلطة الحكومة قد وصلت الى حد الانهيار والانحلال • وان العودة الى أيام النهب والسلب فى الجاهلية قد أصبحت مرتقبة وشيكة ، وأخذت جماعات من راكبى الابل المسلحين تظهر هنا وهنالك ، تنتظر فرصتها لنهب المدينة ، أو سلب قطعان الماشية التى تملكها قبيلة منافسة • ولم تتوافر فى المدينة قوات لمواجهة هذه الفوضى• وكان ثمة كبير شك فى ولاء جيوش مصر والعراق • وعلى الرغم من أن جيش سوريا لم يشترك فى العصيان الا أنه يدين بالولاء لقـــــائده معاوية وهو من الامويين • وعلى الرغم من أن أهل المدينة قد تقاعسوا بدافع الخوف أو الغيرة الضيقة الحدود عن نصرة عثمان • الا أنهم فزعوا الآن من رؤية هذا الخطر الداهم الذى يهدد كل سلطة بالانحلال • ولاريب فى أن الوضع فى المدينة لم يكن ليقل فى خطورته الآن عن الوضع العام

ابان الردة ، بعد وفاة النبى ، وراح طلحة والزبير والكثيرون من الصحابة والانصار يحثون عليا على ضرورة فرض الانضباط بمعاقبة قتلة عثمان ٠

ورأى الخليفة الجديد نفسه يواجه قرارا ذا خطورة هـــائلة ، ولو تجمعت قريش كلها يؤيدها الانصار وصحابة رسول الله لتأييد الخليفة الجديد فى مسعاه للثأر من القتلة ، قتلة خليفة رسول الله ، لا عثمان ، لتحديهم لسلطان الخليفة المقدس ، لكان فى الامكان القضاء على هذه الروح المتفشية من التمرد والعصيان ٠ وكان لابد لمعاوية فى مثل هذه الحالة وهو القائد لجيش موال مخلص ، من أن يجر جرا لتأييد الخليفة الجديد ، وكان لابد لقيام الخليفة الهاشمى بالثأر لقتل الخليفة الاموى ، من أن يرأب الصدع الناشىء بين البطنين المتنافسين منبطون قريش٠ ولكن عليا على الرغم من بكائه عثمان وندبه مصرعه لم يقم بأية خطوة للثأر من قاتليه ، متظاهرا كما يبدو بعجزه عن ذلك لافتقاره الى القوات الكافية لذلك ولانتشار الفوضى فى كل مكان ٠

وواصل الزبير وطلحة وسعد بن أبى وقاص ، وهم قادة المسلمين والباقون من أعضاء الهيئة الاستشارية غير الرسمية حثهم للخليفة الجديد على الثأر من قاتلى عثمان ، وان كانوا هم أنفسهم قد تقاعسوا عن نصرة عثمان أو معارضة قتله ، وكان موسم الحج قد حان ابان حصار عثمان فى داره ، فأوفد الخليفة ، الشيخالمحصور ، عبدالله بنعباس ، ابن عم النبى ليتولى قيادة الحجيج ٠ وعندما عاد ابن عباس من مكة بعد انتهاء موسم الحج ، وكان عثمان قد قتل ضم صوته الى أصوات المستشارين الآخرين بالمطالبة بدم عثمان ٠ ولكن عليا ظل على عجزه أو عزوفه عن القيام بأى اجراء ضد القتلة ٠

وظهرت فى غضون ذلك مشكلة أخرى ، فلقد كان أمراء الأمصار حتى تلك اللحظة من الذين اختارهم عثمان ٠ وكانوا فى معظم الحالات من الأمويين ، ويبدو أن الكثيرين من المستشارين أوصوا عليا بالابقاء عليهم ولو لفترة مؤقتة ٠ ومن الصحيح أن يقال ان معظم مظاهر النقمة فى عهد عثمان، كان قد اتخذ شكل شكاوى موجهة ضد هؤلاء الحكام ٠ ولكن بنى أمية أصبحوا بمقتل عثمان الطرف المساء اليه ، بعد أن كانوا هم المسيئين ٠ وما كان على ليتهم بالمحسوبية لو أبقى على العمال الأمويين فى مراكزهم لفترة موقوتة على الأقل أو لو أنه عالج موضوعهم بصورة فردية وعلى ضوء أوضـــاع كل منهم ٠ والمعروف أن المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عباس وغيرهما من الصحابة والمستشارين كانوا قد أوصوا

عليا وألحوا عليه بالسير بتؤدة فى هذا الموضوع • محذرينه على الأقل من الاساءة لمعاوية ، الذى كانت امارته هى الوحيدة التى احتفظت بالهدوء والسلوك الطيب ، والذى كان على الأقل من العمال الذين عينهم عمر لا عثمان •

ولكن عليا رفض الاصغاء لكل نصح فى الموضوع • وأصر على أن يعزل فورا جميع عمـال عثمان • وبينهم معـــاوية ، بالرغم من الحقيقه الواقعة ، وهى أن عليا لم يكن يملك أى جيش فى المدينة ، وكانت سورية كلها تقف موقفا صامدا وراء معاوية • وسرعان ما أوفد الذين اختارهم هو لامارة الامصار الى مراكزهم الجديدة • وكان معظم الذين اختارهم على ، والحق يقال ، من أكثر الرجال كفاية وأشرفهم سمعة ومكانة •ولكن شعورا معكوسا من السخط كان قد انتشر الآن فى أنحاء الامبراطورية كلها • وقد تزايد أمر الدعوة الى عقاب قتلة عثمان فى كل مكان • كما انتشرت الشائعات تتهم عليا بالضلوع مع القتلة • وتمكن عامل على فى البصرة من تسلم منصبه ، لأن عبد الله بن عامر أميرها فى عهد عثمان انسحب بهدوء مذعنا لأمر الخليفة • وتمكن عامله فى مصر من تسلم منصبه بعد لأى ، لان هذا المنصب كان خاليا منذ فرار عبد الله بن أبى سرح • لكن العاملين اللذين اختارهما للشام والكوفة لم يستطيعا دخول المدينتين ، وكانا جد مسرورين بالعودة ناجيين بحياتهما الى المدينة • وعاد الخليفة يلجأ الى الدبلوماسية بعد فشل محاولته ، ولكن بعد فوات الأوان • فقد وجه رسالتين احداهما الى معاوية والاخرى الى أبى موسى الاشعرى أمير الكوفة يطلب اليهما فيهما اعلان البيعة • وقد رد أبو موسى وهو جندى ممتهن على رسالة الخليفة بعبارات تحمل الولاء ، على الرغم من لا قرشيته ، ولكنه حذر عليا من أن الفتنة مستشرية فى الكوفة ، أما معاوية فلم يرد فى تلك الآونة على رسالة الخليفة •

ولعل القارىء يذكر ولا شك •• أن قميص عثمان الذى لوثته الدماء وأصابع زوجه نائلة التى قطعها المتآمرون وهى تذب عنه قد هربت من المدينة • ونقلت الى معاوية فى دمشق ، وسرعان ما دقت بالمسـامير الى منبر الجامع الكبير فيها ، ليكون نداء عاطفيـــا مؤثرا يدعو الناس للثأر للدم البرىء • ولم يقم معاوية حتى تلك اللحظة بأية خطوة باستثناء هذه الطريقة البارعة من طرق الدعاية واتخاذ موقف التعبير عن حزنه الطاغى على أحداث تلك الايام وشرها • لكن سوريا كانت تختلف على اى حال اختلافا كليا عن العــراق ومصر • وعلى الرغم من أن عمر فى البداية قد سار على سياسة من التفريق العنصرى فى سوريا كما فى

غيرها من الامصار ، وأقام جيشه فيها في قاعدة عسكرية ضخمة أقامها في الجابية ، الا أن هذه السياسة ، سرعان ما عدل عنها بصورة متدرجة بفضل الخطة التي انتهجها معاوية فقد أقام عاصمته في دمشق لا في الجابية ، وعاش معه فيها كبار العرب وصحابة النبي حيث اختلطوا اختلاطا واضحا بجماهير الناس من أبناء الشعوب المحتلة . أما في العراق ومصر فقد غدت الجيوش العربية من جراء حياة البطالة التي تعيشها في قواعدها العسكرية مجموعة من الجنود المتعالين ، المتأهبين دائما للثورة ، في حين أن جماهيرالمدنيين تعيش حياتها معزولة كل الانعزال عن شئون الدولة . اما في سوريا فقد امتزجت الدولة والجيش مع الجماهير وبدلا من أن نرى فيها حشدا من الجنود المتغطرسين الكسالى نرى شعبا يقف مع الجيش وراء حاكمه معاوية .

وانصرمت الأسابيع ، وعلي لا يتخذ أية خطوة للثأر من قتلة عثمان في حين أن قميصه الملوث بالدماء مازال معلقا على منبر المسجد في دمشق ، وأحس معاوية أخيرا في شهر سبتمبر (ايلول) عام ٦٥٦ أي بعد ثلاثة أشهر من مصرع عثمان أنه بات قادرا على الرد على رسالة علي . وحملت الرسالة التي بعث بها الى الخليفة في المدينة عبارة الاستهلال التالية « من معاوية الى علي » دون أية مجاملات ترمز الى الاحترام والتوقير . ولم يكن في داخل الغلاف الا ورقة بيضاء لا كتابة فيها على الاطلاق ، واستبدت الدهشة بالخليفة ، وحار في أمر الرسالة وسأل من حوله عن مغزاها ورد الرسول بصورة لا تخلو من الصرامة ، ان ثمة ستين ألفا من المحاربين في دمشق يبكون على قميص الشهيد المخضل بالدماء ، وانهم مصممون على الثأر برأس علي لدم عثمان البريء ، بالرغم من قسمه بأنه بريء من هذا الدم (١) وهكذا ظهرت كلمة « الحرب الأهلية »

---

(١) توحي الطريقة التي سرد بها المؤلف قصة الرسالة بشيء من الشك في اشتراك علي في قتل عثمان ، مع أن هذا الشك لا محل له على الاطلاق . وان عليا بريء كل البراءة من تهمة التواطؤ . أما ما يدعيه المؤلف من تقاعس علي عن نصرة عثمان فمردود أصلا لان عليا أوفد ولديه الحسن والحسين للدفاع عن عثمان ، وهما أغلى عليه من نفسه . أما عدم اشتراكه هو شخصيا في الدفاع الفعلي ، فمرده الى أن عليا كان قد استاء من رفض عثمان تسليم مروان الى جيش مصر ، رغم نصيحته هو ، ونصيحة كبراء المسلمين الذين أفزعتهم رسالة مروان الى أمير مصر بقتل محمد بن أبي بكر وصحبه .

وأرى أن أسرد هنا قصة رسالة معاوية كما أوردها المؤرخون العرب اذ قالوا .. أراد معاوية في الشهر الثالث من مقتل عثمان أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عبس ودفع اليه طومارا مختوما عنوانه «من معاوية الى علي» وقال له اذا دخلت المدينة =

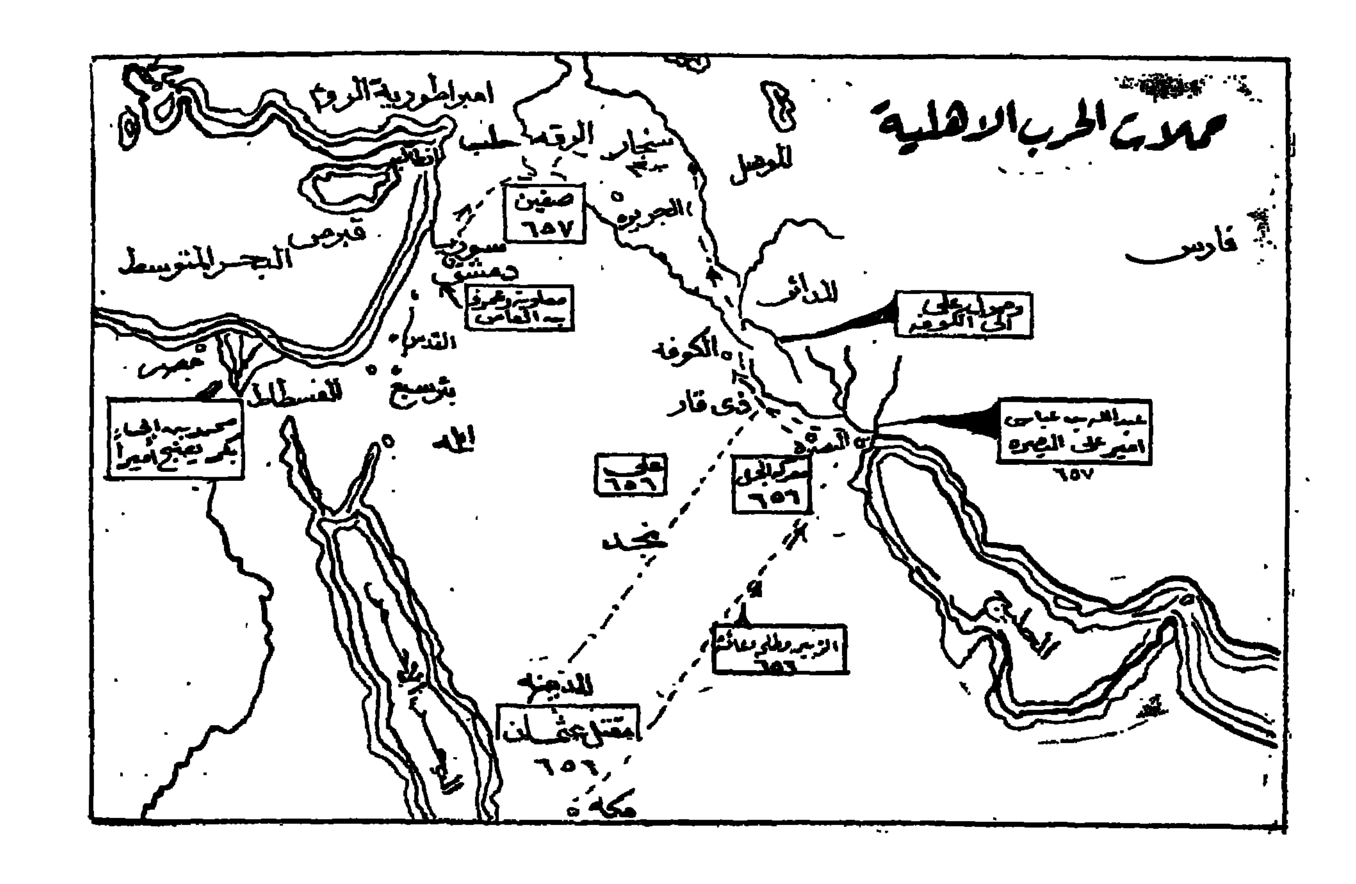
لأول مرة فى تاريخ الاسلام وقصصه · وأدرك على أنه لم يعد ثمة مجال لاتخاذ اجراء حازم ، وأصدر أمره بنشر رايات الحرب والاعداد لحملة على سوريا . وأوفد الى مصر والكوفة والبصرة رسله يدعونها الى اعداد الجند .

وكان الزبير وطلحة يلحفان على على بأن يعلن عزمه على الثأر لعثمان ولكنهما رأيا الخليفة يتجاهل نصحهما المرة تلو المرة ، وأخذت عاصفة الاتهام الموجه الى على تشتد يوما بعد يوم · وأدى تقاعسه عن العمل الى تقوية الشكوك بأنه كان متواطئا مع القتلة · أما الحقيقة فهى أن عليا كان لايزال فى موقف المتردد العاجز عن اتخاذ أى قرار فهو بالرغم من عدم تواطئه مع القتلة ، لم يقم بأية محاولة للدفاع عن ضحيتهم . وها هو ذا الآن ، وبالاسلوب نفسه يقف موقف المحجم ، المترقب من الأحداث ··· نجدته .

وغادر الزبير وطلحة ــ وهما اللذان يتلوان عليا مباشرة فى المنزلة وفى المكانة ــ المدينة الى مكة متذرعين بالرغبة فى أداء العمرة ، وكانت عائشة أم المؤمنين فيها · وكانت منذ حادث الافك ، تضمر فى نفسها الضغينة لعلى ، لحكمه بطلاق الرسول منها · ولم تنس قط اسـاءته هذه · وحرى بنا أن نذكر هنا أن عائشة بنت أبى بكر ، أى شقيقة محمد الذى كان أول من اقتحم على عثمان غرفته · وأن نقول انها حاولت منع أخيها من الاشتراك فى عمليات العنف · وكان عدد من الأمويين قد فروا من المدينة الى مكة فلما وصل اليها طلحة والزبير وجدا أن الفتنة قد رسخت أقدامها فيها ، وسرعان ما ارتفعت راية العصيان فى المدينة المقدسة ، وظهر طلحة والزبير على استعداد لمحاربة على رفيقهما السابق ·

ويذكر القارىء ولا ريب ·· أن جماعة الكوفة من العصاة كانت تؤيد اختيار الزبير للخلافة فى حين كانت جماعة البصرة تؤيد طلحة ولم يكن مع على الا جماعة مصر · ولهذا قرر طلحة والزبير أن يرفعا لواء الثورة فى البصرة أولا فخرجـا من مكة على رأس ثلاثة آلاف رجل وغايتهما

= فاقبض على اسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العبسي المدينة رفع الطومار وخرج الناس ينظرون وقد علموا ان معاوية معترض ثم دخل الى على فاسلمه الطومار، ففضه فلم يجد فيه شيئا ثم سأل الرسول ما وراءك قال انى تركت قوما لا يرضـون الا بالقود . قال ممن ؟ قال : من خيط نفسك . وتركت ستين الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق ، فقال على : منى يطلبون دم عثمان ! ألست موتورا ترة عثمان ؟ اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان ، نجا والله قتلة عثمان الا ان يشاء الله . (المعرب)


حملات الحرب الأهلية
امبراطورية الروم
البحر المتوسط
قبرص
انطاكية
حلب
الرقة
سنجار
الموصل
صفين
٦٥٧
الجزيرة
سوريا
دمشق
معاوية وعمرو بن العاص
القدس
بئر سبع
الفسطاط
مصر
محمد بن أبي بكر يصبح أميرا
أيلة
المدائن
وصول علي إلى الكوفة
الكوفة
ذي قار
البصرة
عبد الله بن عباس أمير على البصرة
٦٥٧
علي
٦٥٦
معركة الجمل
٦٥٦
نجد
الزبير وطلحة وعائشة
٦٥٦
المدينة
مقتل عثمان
٦٥٦
مكة
فارس

أن يقطعا الجزيرة العربية للوصول الى العراق وكان معهما مروان ابن عم عثمان وكاتم سره الذى رفض عثمان أن يسلمه الى العصاة .

ومضت عائشة فى هودجها مع الركب ، وخرج أهل مكة مع الجيش يودعونه فى اليوم الأول من سفره وعندما انتهى الوداع وأدار المكيون ظهورهم عائدين الى مكة انفجرت الدموع من مآقى الجمع الحاشد الذى ضم عددا من النسوة ، وأطلق أهل مكة على ذلك اليوم المفجع اسم « يوم الدموع » .

* * *

كانت الامبراطورية العربية العظيمة قد ظهرت الى حيز الوجود كالبرق الخاطف فى فترة خيالية لا تزيد على العشرين ربيعا ، وبدت الآن وكأنها على وشك الانهيار والزوال فى خضم لجة بدوية من الحرب القبلية والمنازعات الدامية المشتركة . وقد ظلت نقاط الضعف فى الامبراطورية الجديدة خفية عن العيان طيلة المدة التى كان فيها الناس يعملون بوحى حبهم العاطفى الصادق للنبى وخليفتيه المخلصين من بعده أبى بكر وعمر بن الخطاب . وقد خفتت الآن موجة الحماس الأولى للعقيدة الجديدة فقد انقضى زهاء خمسة وعشرين عاما على وفاة النبى . وقد نشأ الآن جيل جديد لم يعرف النبى شخصيا ولم يحس بما كان لشخصيته من جاذبية تكاد تشبه السحر .

وكانت الامبراطورية العربية القوية مهيبة كل المهابة بالنسبة الى المتطلع اليها.ولكن تم بناؤها فى سرعة عجيبة . وقد بدأت التصدعات المنذرة بالشر تظهر فى أسسها فليس هناك أولا أى دستور لهذه الامبراطورية ، كما ليس ثمة أى نظام ثابت لاختيار الخلفاء وقد ارتكزت قوانين الدولة على القرآن وعلى سنة الرسول من قول أو فعل ، ولم يسبق للرسول أن بحث فى أى موضوع يتعلق بالخلافة .

لكن الضعف الحقيقى كان أعمق جذورا من كل هذا ، اذ كان روحيا فى طبيعته . فعندما هاجر النبى وصحبه من مكة الى المدينة . كان هذا النفر القليل العدد مدقعا لا يملك شيئا . وكان عبئا فى معيشته على حسن وفادة الأنصار . ولكن هذا النفر مالبث أن حصل على ما يقيم الأود من غنائم الغزوات والحروب . وهكذا كانت الحرب فى سبيل نشر الدعوة تعنى لهم الثراء والغنائم . ولكن هذه الغنائم لم تكن شيئا يعتد به ابان حياة الرسول اذ أنها نابعة اما عن قريش أو عن القبائل البدوية

المجاورة وكلها قبائل فقيرة نسبيا • يضاف الى هذا أن محمدا وخليفتيه الأولين كانوا لا يكترثون بالمال أو الترف ، وحافظوا على حياة البساطة الطبيعية التى عاشوها من قبل حتى وفاتهم •

لكن انهيار امبراطوريتى الروم والفرس أدى الى اثراء كثيرين من المسلمين ثراء خياليا • وكانت الفكرة الغالبة ان فى وسع المسلمين أن ينعموا باطايب الدارين • دار الدنيا من مال ومتعة وزوجات ، ودار الآخرة من نعيم مقيم في فراديس الجنـــان • وليست هناك من حقيقة أصدق من تلك التى تقول ان الانسان لا يستطيع أن يعبد الهين فى وقت واحد • الهه الحقيقى واله المال ، وقد لا تعنى الثروة انها شر ، ولكنها أقرب الى قلب الانسان وأكثر تأثيرا عليه من عبادة ربه • والبحث عن العبادتين فى آن واحد لا يعنى الا شـــيئا حتميا ، وهو أن يكرس المرء عبادته بشكل رئيسى لطاغوت المال • (١)

ولقد حقق العرب انتصاراتهم العظيمة بسرعة هائلة وأدى الألف لحيـــاة الرخاء والمـــــال والنساء التى أصبحوا يعتبرونها الجزاء الحق للمؤمنين الى انشغال عقولهم بالنجاح الدنيوى بدلا من انشغالها بعبادة الله وتقواه • وكثيرا ما وجه النقد الى المسيحيين لأنهم يعتبرون كل ما فى الدنيا شرا من الشرور • أما بالنسبة الى المسلمين الأول ، فان الدنيـا كانت طيبة الى أقصى حدود المبالغة فى الطيب •

وما كادت المطامع الدنيوية تثبت أقدامها من جديد ، حتى عادت عادات العرب فى الجاهلية الى الظهور لانها خير أدوات لتحقيق هذه المطامع ، وقد عملت العصبيات القبلية والشهوة الى الثار الناجم عن المنازعات الدموية عملها فى التأثير على العقول التى أضعف حب المال والنساء مشاعرها الدنيوية تماما كما يعمل المرض الوبائى عمله بنجاح فى الاجسام التى سبق للاهمال أن أضعفها •



(١) يبدو ان المؤلف لا يستطيع ان يفهم السبيل الى الجمع بين الروح والمادة فهو يفترض أن الانسان اما ان يكون مادى التفكير في حياته أو روحى الايمان • ولقـــد جمع الاسلام بين هذين العاملين الاساسـيين في تكوين الانســـان • فامر الناس بأن يعملوا لدنياهم وكأنهم خالدون فيها ، وأن يعملوا لاخرتهم وكأنهم ميتون غدا ، وعلى الرغم من صـــعوبة هـــذا الجمع عنـــد الكثيرين لتغلب العنصر المـــادى عليهم ، أو لتعلقهم بالروحانيـــات تعلقا اعمى ، الا ان الحيـــاة العملية تثبت ان الاسلام كان على حق في جمعه بين الجوهرين • (المعرب)

ويبدو من الصعب تبرير خيانة طلحة والزبير الظاهرة لعلى بن أبى طالب بعد أن ظلا يتعاونان معه كرفاق وزملاء فى تقديم النصح والمشورة لعمر وعثمان طيلة أربعة وعشرين عاما ، وبعد أن كانا قبل أقل من ثلاثة اشهر قد بايعاه بالخلافة • أما بالنسبة الى ما اتهم به على من تواطؤ مع قتلة عثمان ، فانهما لا يفضلان عليا فى موقفه هذا ، اذ كانا فى المدينة أيضا عندما فرض الحصـــار على منزل الخليفة ، « ولم يقوما بأى عمل لمساعدته وانقاذه • ولقد علق أحد المشتركين فى هذه الفتن بقوله « ان ثلث الملامة فى مصرع عثمـــان يقع على عاتق على ، فى حين يقع الثلثـــان الباقيان على الزبير وطلحة وعائشة » •

ولما نمى الى مسامع «على» سير من سار الى البصرة من أمثال الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشة ، قرر أن يدركهم قبل أن يصلوا اليها ولكنه وجد صعوبة كبرى فى حشد قوة لهذه الغاية • فقبل ثلاثة أشهر ليس الا كان الصحابة وأهل المدينة قد ألحفوا عليه فى قبول الخلافة • أما الآن فليس ثمة من يؤيده الا القليلون • وان كان الزبير وطلحة المتقلبان قد تمكنا من جمع ثلاثة آلاف رجل من أهل مكة والقبائل المجاورة لها (١) ولا ريب فى أن السبب فى هذا التبدل يعود الى انتشار تيـــار الدعوة القائلة بأن عليا قد حرض سرا على مقتل عثمان • وأخيرا ، وبعد أربعة أشهر من مصرع عثمان خرج «على» فى أكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٥٦م

(١) أخطأ المؤلف بعض الخطأ في تعليله أسباب التفاف الناس حول الزبير وطلحة وانفضاضهم عن على ، وعلى الرغم من ان تقاعس على عن الاخذ بثأر عثمان من قاتليـه كان سببا أساسيا الا ان السبب الجوهرى هو وجود عائشة أم المؤمنين في الصف المعادى لعلى ، فلقد كان لها منزلة عظيمة رهيبة لانها اثيرة رسول الله وزوجه التى انتقل الى الرفيق الاعلى في حجرتها . وكانت عائشة رضي الله عنها من الخطيبات البليغات المؤثرات فقد خطبت الناس في المسجد الحرام تحرضهم على الخروج مع الزبير وطلحة وقالت .. « ان الغوغاء من أهل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا . ان عاب الغوغاء على هذا المقتول بالامس الارب . واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم . وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم منها استصلاحا لهم . فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خلجوا وبادروا بالعدوان ونبأ قولهم عن فعلهم ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لاصبع عثمان خير من طباق الارض أمثالهم. فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله لو ان الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه ، كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه اذ ماحبوه كايماص الثوب بالماء . »

(المعرب)

يطلب اللحاق بالزبير وطلحة ولم يكن معه أكثر من سبعمائة رجل ، وأحس بضعف قوته وعجزه عن السير ، فرابط على بئر فى صحراء نجد • (١) وبلغته الانباء وهو هناك بأن خصومه قد وصلوا الى البصرة وبعد أن استراح بضعة أيام أوفد محمد بن أبى بكر الى الكوفة لاقناع الجنود فى قاعدتها بالانضمام اليه فى زحفه على البصرة .

وكان الزبير وطلحة قد وصلا فى غضون ذلك الى خارج البصرة ويذكر القارىء أن عليا كان قد أوفد أميرا اليها تسلم زمام الأمور باسمه فيها من عامل عثمان • وراح هذا الامير يقابل الآن جماعة المنشقين وقوتهم عند مدخل المدينة • ودار نقاش حاد ، واتهم البعض الزبير وطلحة بالردة عن البيعة والثورة على من بايعاه • فردا بحجتين أولاهما انهما أجبرا على بيعة على ، وثانيتهما أنه لم يتبين لهما اصرار «على» على رفض الثأر لدم عثمان من قتلته الا بعد بيعته • وأضافا أن الدولة الاسلامية لا يمكن أن تبقى وتعيش اذا كان يسمح ببقاء الجنود العصاة الذين يقتلون خليفة رسول الله دون عقاب • وتطور النقاش الى قتال لم يتوقف الا عند حلول الظلام • ويبدو أن جماعة الناقمين تمكنت أثناء الليل من التوغل داخل المدينة ، واستؤنف القتال عند الفجر فلما حلت الليلة الثانية كانت شوارع المدينة قد امتلأت بالقتلى والجرحى من الفريقين المتحاربين رغم اشتراكهما فى الاسلام • وتم أخيرا الوصول الى هدنة واتفق الفريقان على أن يبعثا برسول محايد الى المدينة يسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير ويتثبت من الحقائق . فان عاد بأن الرجلين قد بايعا كرها غدت المدينة من حقهما • وان عاد ليقول العكس وانهما قد بايعا عليا ، طائعين مختارين ثم نكثا بيعتهما ، تحتم عليهما أن يغادرا المدينة ويخلياها لعامل «على» ووصل الرجل فى الموعد المناسب الى المدينة وكان الناس يؤدون صلاة الجمعة فى مسجد الرسول • ونادى « يا أهل المدينة انى رسول أهل البصرة اليكم أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة على أم أتيا طائعين ؟ وكانت النتيجة وقوع شغب فى المسجد وارتفع صراخ البعض بنعم والبعض الآخر بلا (٢) •

---

(١) يسمى هذا الموقع موقع الربذة في نجد

(٢) تختلف رواية المؤلف من روايات المؤرخين المسلمين ، فقد ذكروا أن أحدا من أهل المدينة لم يرد على سؤال رسول البصرة الا ما كان من اسامة بن زيد فانه قام فقال .. «اللهم انهما لم يبايعا الا وهما كارهان» . فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يقتلونه لولا أن قام فخلصه من أيديهم عدد من الصحابة ، ومنهم محمد بن مسلمة

وكانت الهدنة القلقة مستمرة فى غضون ذلك فى البصرة فلما عاد الرسول دون أن يحمل ردا واضحا استؤنف القتال، ومنيت جماعة «على» بالهزيمة. وأخرج عامل «على» من المدينة بعد أن أسيئت معاملته، واستتب الامر للثائرين • وأراد هؤلاء أن يثبتوا الدليل على اخلاصهم لعثمان فقتلوا جميع من اشترك من أهل البصرة فى عملية حصار عثمان وقتله •

***

وبينما كانت هذه الاحداث دائرة فى البصرة، كان «على» قد اجتاز الصحراء حتى وصل الى ذى قار ، الواقعة عند الفرات والتى شهدت انتصار بنى بكر على الفرس أيام الجاهلية • وكان رسل على المتوالون على الكوفة قد فشلوا فى حشد أى نفر من رجالها لنصرة «على» بسبب معارضة أميرها أبى موسى الاشعرى ، الذى أصر على انه سمع رسول الله نفسه يقول .. بأن على المسلمين اذا ما رأوا فتنة الا ينضموا اليها (١).

وقد ضم رسل على محمد بن أبى بكر الذى اشترك فعلا فى قتل عثمان وعبدالله بن عباس بن عم النبى ، ومالكا الاشتر المحرض الاول على

= وقال له احد منتقديه : أما وسعك ما وسعنا من السكوت . وعند ذلك رجع الرسول الى البصرة لينقل الى أهلها ما سمعه وما رآه . (المعرب)

(١) يبدو ان المؤلف اراد ان يقول على لسان ابى موسي الاشعرى ما لم يقله ، وأن ينسب الى النبى قولا لم يقله . اذ نقل المؤرخون المسلمون عن ابى موسي قوله «واذا كان ما كان فانها فتنة صماء ، النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فاغمدوا السيوف وانصلوا الاسنة ، واقطعوا الاوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلى هذه الفتنة » . فتكلمت رسل على ، واغلظت لابى موسي القول الى ان هب الحسن بن على ، وكان ممن ارسل في هذه الوفادة فقال . يا ايها الناس اجيبوا دعوة اميركم وسيروا الى اخوانكم . فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه ، والله لان يليه أولو النهى مثل في العاجلة وخير في العاقبة فاجيبوا دعوتنا واعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس واجابوا رضوانه . وقال لهم الحسن انى غاد فمن شاء منكم ان يخرج معى على الظهر ، ومن شاء فليخرج في الماء » ، فنفر من اهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر ، واخذ بعضهم الماء وقابلته الجنود البرية بذى قار فقال لهم : قد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من اهل البصرة . فان يرجعوا فذاك ما نريد وان يلحوا داويناهم بالرفق وباينناهم حتى يبدأوا بظلم ، ولن ندع امرا فيه صلاح الا آثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله .

(المعرب)

الفتنة في الكوفة ، وقائد العصاة الذين ذهبوا منها الى المدينة • ولا ريب في ان اختيار على لقتلة عثمان قادة لقواته ، قد عزز الاتهام الموجه اليه بالتواطؤ وهو الاتهام الرئيسى الذى تعرض له. وسرعان ماأصدر «على» أمره بعزل أبى موسى من منصبه ، وعين أميرا جديدا للكوفة يتولى القيادة فيها • وانسحب هذا الجندى العجوز دون اعتراض ، وربما دون أسف اذ علق بقوله : انه صرف ثلاثين حولا يقاتل أعداء الله والكفار . ولكنه لم يقتل مسلما واحدا فى حياته • ومهما كانت المطـــامع المتنافسة عند القادة فى صراعهم على السلطان فليس ثمة من شــك فى أن الحيرة قد استبدت بالكثيرين من أبطـــــال الحروب ذوى العواطف الدينية العميقة الجذور . فقد حز الألم العميق فى نفوس هؤلاء من رؤيتهم هذا الانهيار البين لوشائج الاخوة الدينية التى كانت لهم وحيهم الدائم فى حيـــاتهم والتى وثقوا من انها ستمكنهم من السيطرة على العـــالم بأسره واخضاع الجنس البشرى كله لطاعة الله • أما الآن فقد ظهرت ثلاث شيع فى الميدان تتنافس على الخلافة ، أولاها شيعة على ومعه حفنة من الاتباع فى ذى قار ، وثانيتها شيعة طلحة والزبير ومقامها فى البصرة • وثالثتها شيعة معاوية الذى كان يحاول كسب الوقت فى دمشق • أما أعداء الله من فرس وروم فقد نسيهم الناس •

وعندما سمع «على» ان رسله الاول الى الكوفة منوا بالفشل، أوفد ولده الاكبر الحسن الى المدينة بينما ظل هو مرابطا عند ذى قار ، ولقد كان الحسن والحسين سبطى رسول الله ، والقريبين الى فؤاده ، ولم يكن يمل قط من اللعب معهما ، وقد رآهما عدد كبير من الصحابة يجلسان فى حجره أو يتسلقان على كتفيه ، وهو يبتسم ، وأدى وصول الحسن الى الكوفة الى تحول التيار • فقد تأثر كثيرون من صـــحابة الرسول تأثرا عميقا من رؤيتهم سبطه وهو يناشدهم العون ، وسرعان ماتجمع نحو عشرة آلاف رجل خرجوا من الكوفة للانضمام الى على •

وعندما اقترب جيش الخليفـة من البصرة خرج الزبير وطلحة على رأس قواتهما للقائه ولم يكن كل من فى البصرة معهما • وانضم بنو بكر، وهى قبيلة المثنى الباسل الى جيش على • أما بنو تميم فقد قرروا البقاء على الحياد . وبات جيش «على» الآن ، وهو الاقوى وكانت سنة أهل الجاهلية أن تركب النســـاء هوادجهن ويصحبن رجالهن الى المعـــارك لتشجيع المحاربين وحضهم على القتال ، وها هى ذى أم المؤمنين عائشة تستقل الآن هودجها لمرافقة جيش طلحة والزبير .

لكن عليا كان راغبا عن القتال فتوقف على مسيرة من خصومه وأوفد اليهم القعقاع ذا العزيمة المتقدة الذى أبلى أحسن البلاء فى الفتوحات الاولى يحضهم على التفاوض ، وقال لهم ان الخليفة الجديد لاينكر ضرورة معاقبة قتلة عثمان • ولكنه ينشد الوقت لأداء هذه المهمة • وكان عدد كبير من هؤلاء الرجال من الجنود الذين عملوا تحت قيـــادته أيام الفتوحات ، وأضاف ان قتلهم بالجملة لن يؤدى الا الى المزيد من المنازعات ، فمن الواجب أولا اعادة الامن والنظام الى نصابيهما ، ومن ثم تصبح الفرصة متاحة لمحـــاكمة القتلة بطريقة شرعية ونظامية ، وكان عرض القعقاع معقولا ، كما كانت حجته مقنعة ، وأخذ الناس يراجعون عقولهم فلعل عليا برىء حقا من تهمة التواطؤ . واذا كان الخلاف لا يعدو مسئلة التفضيل فى الاسبقية الزمنية ، وهل يكون عقاب القتلة أولا أو اعادة الامن والنظام الى الامبراطورية ، فان فى الامكان التفاوض وبحث هذا الموضوع وقد وافق طلحة والزبير على مبدأ التفاوض •

وسر «على» غاية السرور من احتمال التفاوض بدلا من الحرب الاهلية، وسارع يقترب بمعسكره من معسكر خصومه ، ليسهل أمر الاتصال بين المعسكرين ، ولكن كان معه فى جيشه القادم من الكوفة جميع العصاة السابقين من جنود تلك المدينة الذين اشـــتركوا فى قتل عثمان ، وهم الذين يطالب طلحة والزبير بعقابهم ، ولهذا فقد أمر هؤلاء بالبقاء بعيدين فى الصحراء حتى ينتهى من أمر المفاوضات ، وظل معهم هنـــاك مالك الاشتر أشد الثائرين خصومة لبنى أمية .

وبدأت المفاوضات حثيثة آنذاك بين على من جهة وطلحة والزبير من الجهة الاخرى وخرج على من صـــفوف جيشه ممتطيا جواده ليلقاه بين الجيشين طلحة والزبير • وأعرب الرجلان عن تصميمهما على معاقبة قتلة عثمان • ورد على بأنه متفق تماما معهما فى الرأى وأنزل لعنة الله على قتلة عثمان • وأضاف ان الطريقة المثلى للثأر من القتلة لا يمكن أن تتبع فى هذه اللحظة وكل ما ينشده هو كسب الوقت •

وكان الزبير قريبا لرسول الله ، فهو ابن عمته ، وابن عمة على فى الوقت نفسه وكان الرجلان قد عرفا بعضهما تمام المعرفة منذ عهد بعيد واشتركت حياتهما فى الكثير من الامور وعندما التقيا الآن بين جيشيهما ، اخذ على يذكر الزبير بذكرياتهما المشتركة فى فتوتهما وشبابهما ، عندما كان الايمان يعمر قلبيهما ، ويتقدان حماسة وغيرة على الدين ، وحبا لرسول الله ، وراح يتلو على مسامعه ما قال لهما رسول الله ، مرة ، ومارد

به «على» أو الزبير تلك المرة . يا لها من أيام رائعة ! وتفجر الدمع فى عينى الزبير وراح يقسم بالله على الا يحارب عليا ابدا . ومما يجدر ذكره ان عليا كان معروفا ببلاغته فى القول وقوة حجته .

ولاحت تباشير الخير فى نتائج المفاوضات ، وخفت حدة التوتر ، وانصرف الجيشان الى الراحة والنوم فى تلك الليلة ، وقد تخليا عن شيء من الحذر والحيطة اللذين كانا موضوع مراسهما حتى تلك الليلة ، لكن آخر مايرغب فيه قتلة عثمان هو أن يعقد الصلح ويتم التفاهم بين الفريقين ، اذ ان هذا التفاهم لا يعنى الا ان عليا وعد خصميه بعقابهم • وعلى الرغم من تخلفهم بعيدا فى الصحراء الا ان لهم عيونا ورفاقا فى الجيش كانوا ينقلون اليهم سير المفاوضات وتطورها • واجتمع هؤلاء القتلة فى الليل ليتدبروا أمرهم ويقرروا الاجراء الذى يجب عليهم اتباعه، واتفقت كلمتهم على ان التفاهم بين على وبين طلحة والزبير سيؤدى الى القضاء عليهم • وحزموا أمرهم على ان سبيلهم الوحيد للبقاء والحياة ، هو فى أن ينشب القتال بأى شكل من الاشكال بين الفريقين • وانصرم الليل بطوله فى مثل هذا النقاش وراحوا قبيل الفجر يمتطون جيادهم ويتفرقون بهدوء تحت جنح الظلام • وكان قتلة عثمان من مختلف القبائل كما كانت هذه القبائل نفسها ممثلة فى جيش البصرة والكوفة ، وهكذا قرر هؤلاء المتعصبون أن ينسلوا بهدوء كل الى صفوف وحدته القبلية التى تحارب الى هذا الجانب أو ذاك(١) •

ولم تكد تطل خيوط الفجر الاولى ، حتى عم الضجيج الجيشين ، وارتفعت الصيحات من كل جانب مطالبة بالاستعداد للقتال« لان العدو قد داهمنا فى غلس الليل ناكثا بعهده » . وعندما هرع الزبير وطلحة الى رجالهما يسألان عما حدث ارتفعت الاصوات قائلة : « لقد أطرقنا أهل الكوفة ليلا . ولقد عزم «على» على ابادتنا فى بحر من الدماء ، ولم تكن مفاوضات الامس الا خدعة » . وعندما هب «على» من نومه يسأل عن السبب فى الضجة ، كان هناك رجل يقف الى جانبه ليقول له.. لقد دهمنا

---

(١) يصر جلوب هنا على اخفاء الدور الذى لعبه الشعوبيون وفي مقدمتهم اليهودى عبد الله بن سبأ واتباعه في هذه المعركة ، فهو ينسب الخدعة التى ادت الى القتال الى قتلة عثمان من رجال جيش على ، بينما يجمع مؤرخو المسلمين على أن السبأيين هم الذين لعبوا هذا الدور القذر ، تحقيقا لخطتهم في تمزيق وحدة العرب والمسلمين .

(المعرب)

أهل البصرة ، وقد عزم طلحة والزبير على ذبحنا. لقد تعرضنا للخديعة، وظلت هذه الصيحات تعلو فى الجيشين وتتناقلها الاصوات ، بينما سارع الجنود فى حمى الذعر الى ارتداء دروعهم وانتضاء سيوفهم • وضاعت صيحات «على» الى رجاله بأن يصمدوا وان فى الأمر خدعة فلا شيء قد حدث، فى غمرة حمى الذعر التى انتابت المعسكر كله . لقد فات الأوان، ولم يعد هناك سبيل لتدبير ، وتطايرت السهام من كل جانب، وسرعان ما احتدم القتال بين الطرفين ودارت رحاه بعنف أحال المعركة الى اضطراب وفوضى . فلقد خيل لطلحة والزبير ان عليا قد خدعهما، وتصور رجال على ان طلحة والزبير قد خدعاهم ولم يطلع النهار فى ذلك اليوم الا وكانت المعركة قد دارت على أشدها . وضاعت جهود «على» لوقف القتال عبثا. وأدى احساس كل من الجيشين بخديعة الجانب الآخر الى احتدام أوار المعركة • وكان الصراع الآن ، كما هو شأنه فى كل حرب أهلية ، أشد هولا ومرارة منه أيام الحروب مع الكفرة والمشركين • ولم تكن المعركة الآن صراعا بين عربى وعربى أو مسلم ومسلم ، وانما وجد أبناء القبيلة الواحدة انهم يتذابحون الآن ، اذ آن القبائل نفسها كانت قد تقسمت ابان الحروب مع الفرس ، فأقام بعض أفرادها فى البصرة بينما أقام البعض الآخر فى الكوفة •

وعندما بدأت المعركة انسحب منها الزبير تنفيذا للقسم الذى أقسمه فى اليوم الفائت بألا يحارب عليا ، وراح يتجول فى واد قريب من ميدان القتال فلقيه على ما يبدو عابر سبيل مسلح ، فقاتله وقتله • وهكذا مات هذا البطل العظيم من أبطال المسلمين الاوائل مثل هذه الميتة المغمورة التى لا جدوى منها(١) • وأصيب طلحة فى غضون ذلك بسهم فنقل جريحا الى البصرة حيث توفاه الله فيها بعد قليل ، وعندما افتقد جيش الثائرين قائديه بدأ يضعف ويتخلى عن مواقعه •

وكان القوم قد دفعوا بالهجين الذى يحمل أم المؤمنين عائشة فى هودجها الى قلب المعركة • حيث أخذت تحض الرجال على القتال للثار من قتلة عثمان • وعندما بدأ جيش الثوار فى التراجع أصبحت عائشة فى

---

(١) يقول المؤرخون العرب ان الزبير ترك ارض المعركة وأراد اللحاق بالمدينة ، فعلم بسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى اذا كان فى وادى السباع قاتله وقتله .

(المعرب)

هودجها وراء صفوفهم تواجه جيش علي المتقدم • فارتفعت الصيحة بأن أم المؤمنين في خطر ، والتف حول الهودج جماعة من شجعان أهل البصرة ندبوا أنفسهم للدفاع عنها ، ولو كلفهم هذا الدفاع أرواحهم • وسرعان ما استعر أوار القتال من جديد ، بعـــد أن كان قد بدأ في الخفوت ، وارتفعت راية الى جانب الجمل ، وهب البواســل الى الامام يذبون عنه ويمسكون بخطامه • وهكذا عاد الحب الشديد الذي طالما اســتعر في قلوب هؤلاء الناس لرســول الله ، والذي كان قد بدأ في الخفوت ، الى الاتقاد بقوة ضارمة ثانية عندما ســمع هؤلاء الناس ان زوجه الاثير في خطر • وانتظمت الصفوف من جديد حول جمل أم المؤمنين • وسقط أكثر من سبعين من شجعان العرب قتلى أمام الجمل وهم يذبون عنه ويمسكون بخطامه ، وأدرك علي ان الجمل هو حافز جيش البصرة على الصمود ، فأوفد رجلا ليعقره من خلفه • وسقط الجمل سقطة مريعة وهو يصرخ صرخة هائلة ، وانقلب الهودج ، وتحطمت صفوف المدافعين عنه ، وانهزم الجيش المغلوب الى البصرة • وتقول روايات العرب التي لا أشك في مبالغتها أن مئات السهام أصابت الهودج دون أن تصاب صاحبته بأذى(١) •

ويذكر المؤرخون العرب أرقاما مريعـــة عن قتلى هذه المعركة التي عرفت عندهم بمعركة « الجمل » • ولم يكن هؤلاء العرب قد عرفوا معنى الهزيمة مرة واحدة طيلة الخمسة والعشرين عاما الماضية • وكانوا قد تعودوا على النصر تماما كما تعودت جيوش الاسكندرية من قبلهم أو جيوش نابليون من بعدهم• وهاهم الآن لأول مرة منذ جاء محمد مبشرا برسالته •

---

(١) يقـــول مؤرخو العـــرب ان اهـل البصرة ظلوا يقـاتلون حول الجمـــل وراجزهم يقول :••

نحـــن بني ضـبة اصحاب الجمل
ننعى ابن عفـــان بأطـــراف الاسل
المـوت احلى عنـــدنا من العســـل
ردوا علينـــا شـــيخنا ثم بجـــل

ولما راى على كثرة القتلى حول الجمل ، وان الناس لا تسلمه أبدا وفيهم عين تطرف نادى :

اعقروا الجمل ، فجاءه انسان من خلفه وعقره ، فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفذ مما رمى فيه من النبل ، فجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر ، فقطعا مرضة الرحل واحتملا الهودج فنجياها من القتل ، وخرج بها محمد حتى ادخلها البصرة •
(المعرب)

يقاتل المسلم منهم أخاه ويقتله ، وهم لايخشون الموت • فقد ألفوه وتعودوا عليه ولقد سمعنا عن قصص كثـــيرة ، رويت عن أناس نذروا أنفسهم للاستشهاد قبيل المعركة وراحوا عامدين متعمدين يبـــحثون عن الموت ويطلبونه ، وجرت عادة الذين يصـــابون بجراح خطيرة منهم ، على أن يزحفوا الى اتون المعركة يطلبون سرعة الاستشهاد فيها لكن هذه الروح انمـــا نشأت ونمت فى الحروب مع المشركين والكفرة ، ذلك لان الوعد الفورى بدخول الجنة انما يطبق على من يستشهد فى قتال غير المسلمين • وقد نص القرآن من الناحية الاخرى على ان الجحيم مصير كل من يقتل مسلما عامدا متعمدا ، لكن العادة التى ألفها هؤلاء مدة ربع قرن ، لم يكن من السهل تبديلها ، ولهذا فان كثيرين ممن قتلوا فى هذه الحرب الاهلية ماتوا وعبارة « الفردوس » على شفاههم •

وقد دارت معركة « الجمل » في ديسمبر (كانون الاول) من عـــام ٦٥٦ وعندما تراجع العدو الى البصرة ، أمر «على» رجاله بوقف المطاردة، وبوقف أية عملية من عمليات القتل فورا • ومن المحتمل أن يكون عدد من اشترك فى المعركة خمسة عشر ألفا فى كل جانب وأن يكون عدد قتلاها ستة آلاف دفنوا فى أرض المعركة (١) . وعندما جىء الى «على» بسيف الزبير ، بكاه وصب اللعنات على رأس من قتله ، وأخذ يذكر النـــاس بالاعمال البطولية الخارقة التى قام بها الزبير فى حياته اعلاء لكلمة الله • وتقوم الآن بلدة الزبير فى المكان الذى قتل فيه وقد أطلق عليها هذا الاسم تخليدا لذكراه . وبذل «على» جهد طاقته عند دخوله البصرة لاحلال الوفاق بين جميع الفرقاء ، وتمكن مروان وغيره من الامويين من الفرار فمضى بعضهم الى المدينة التى وقفت حتى ذلك الحين موقف الحياد وبعضهم الى معاوية فى ســـوريا ، واذا ما استثنينا هؤلاء الامويين فان من تبقى من الجيش المهزوم فى البصرة عومل معاملة متسامحة ، وحض «على» الناس على نسيان مافات بما عرف عنه من لين وتسامح، وماتميزت به طبيعته من يسر ورفق ، فقد حزم أمره على توحيد الامبراطورية لا على الانتقـــام من أعدائه •

وبعد أن قضى على قرابة اسبوعين فى البصرة ، انتدب لامارتهـــا

---

(١) يقول السيوطى في كتابه تاريخ الخلفاء ان عدد القتلى بلغ في هذه المعركة ثلاثة عشر الفا •

(المعرب)

ابن عمه عبد الله بن عباس ، ثم زحف بجيشه على الكوفة ، وأكرم قبل رحيله وفادة أم المؤمنين عائشة وعاملها بكل اجلال واحترام ، ثم أعادها الى المدينة يصحبها أخوها محمد بن أبى بكر ، وتقوم على حراستها ثلة من الرجال والخدم • وقدر لها أن تعيش بعد هذه المعركة زهاء عشرين عاما أخرى ، اعتزلت ابانها السياسة وانصرفت الى التأملات الطويلة والتهجد الى جانب ضريح الرسول، ويبدو أنها كانت تكثر الحديث فتروىلزائريها أو للحجاج الذين يفدون لزيارة قبر رسـول الله ، القصص الكثيرة عن حياته •

ودخل على الكوفة فى شهر يناير (كانون الثانى) عام ٦٥٧ ، أى بعد ثمانية أشهر من مقتل عثمان ، واتخذ منها عاصمة لخلافته •

***

كان السبب الظاهرى للثورة على عثمان ، النقمة على مانسب اليه من محسوبية والى عماله من رشوة وفساد ، ولكن هذه الثورة لم تكن مجرد انتقـاض على الأمويين • اذ أن ابن القبيلة العـربى كان ولا يزال ديموقراطى النزعة والطبيعة • وينظر البدوى نظرة التجلة لاسرة الشيخ ولكنه يميل على الرغم من اعترافه بسلطان الشـيخ الى تحديه وعصيان أمره دائما فهو لا يولع باحترام الالقـاب والامتيازات • وينظر نظرة الامتهـان لكل من يعيش فى المدر والمدينة وقـد ثار هؤلاء البدو على ارستقراطية الامويين لان الامويين كانوا فى الحـكم ، ولكنهم لم يكونوا راغبين فى استبدال الهاشميين بالامويين وها هم يرون عليا الآن يعين ابن عمه عبد الله بن عباس لامارة البصرة ، ويشهدون بنى هاشم يحيطون به من كل جانب •

وبالاضافة الى هذا العنصر من ازدراء البدو لكل من يتكبر ويتغطرس ، وجدت هنالك أيضا قوة أكثر خطورة واثرا ، وهىقوة الاشتراكية الدينيه العميقة التى ينادى بها بعض المتعصبين من أمثال مالك الاشتر ، ولايتشيع هؤلاء المتعصبون لأحد ، لا لبنى أمية ولا لبنى هاشم ، وانما هم يحلمون بقيام دولة يحكمها الله ، ويكون فيها أولياؤه ، هم الحاكمون المطلقون • ولا ريب فى ان القارىء الانجليزى يذكر قيام فئة فى الجيش أطلقت على نفسها اسم دعاة المساواة (Levellers) أو اشياع الملكية الخامسة ، وذلك بعـد اعدام شارل الاول ، وكان توماس هاريسون قائد هذه الشيعة محاربا باسلا ، يريد من انجلترا أن يحكمها الله ، عن طريق وسطائه ،

الذين لا يتجاوز عددهم سبعين من الصالحين اسوة بمجلس «السانهدريم» عند قدامى العبرانيين ، وكان يرى ان هؤلاء الصالحين هم الذين يقيمون حكم لله والقديسين • وسرعان مانظر هؤلاء الناس الى أوليفر كرومويل(١) نظرتهم الى الطاغوت أو اله الخطيئة • ولا ريب في ان هؤلاء المتعصبين المسلمين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الخوارج • أخذوا ينظرون الى علي، نظرة الانجليز من دعاة المساواة الى اوليفر كرومويل •

وكانت الفتنة قد أخذت تختمر في غضون ذلك في مصر • وعندما خرج العصاة من الفسطاط الى المدينة في العام الفائت أى في مستهل عام ٦٥٦ لحصار عثمان ، خرج رجل يدعى محمد بن أبي حذيفة فاغتصب السلطة في مصر مستغلا فرصة هروب أميرها ابن أبي سرح ، الى فلسطين وعندما نودى بعلي خليفة على المسلمين فر ابن أبي حذيفة الى الشام ، واختار علي محمد بن أبي بكر ، بعد واقعة الجمل أميرا على مصر • وكان محمد من الذين اشتركوا في قتل عثمان ، فأدى تعيينه لهذا المنصب الى تصديق الناس لدعوى معاوية من ان عليا نفسه قد رتب خطة القتل ، ليتسلم زمام الحكم •

وكان عمرو بن العاص فاتح مصر ، يعيش في المدينة منذ اقالة عثمان من منصبه ، وكان من أشد ناقدى الخليفة الشيخ وشانئيه • ولكن عندما وصل العصاة الى المدينة وحاصروا دار عثمان ، انسل عمرو من المدينة ، الى مزرعة يملكها في منطقة بئر السبع وحزم أمره بما عرف عنه من دهاء وسعة حيلة ، على أن يظل بعيدا عن الخلاف والأذى الى أن يتضح الجانب الفائز في المعركة ، وعندما وصل اليه نبأ مبايعة علي خليفة للمسلمين استشار ولديه فيما يجب عليه أن يفعله ، فأوصى أحدهما بأن يظل في عزلته في مزرعته ، بينما نصحه الثاني بأن يمضي الى معاوية في دمشق • ويقال ان عمرا رد على ولديه بأن السبيل الاول هو مايفرضه الدين ، وان السبيل الثاني هو ما يتطلع اليه الطموح الدنيوى ، ويكفي أن نقول ، بأن عمرا مضى الى معاوية في الشام ليربط مصيره بمصيره

---

(١) دب الصراع بين الملك شارل الاول وبين البرلمان في عام ١٦٤٢ واختار البرلمان اوليفر كرومويل لقيادة جيشه الذى اطلقوا عليه اسم « ذوى الرءوس المستديرة » وقد تمكن كرومويل من هزيمة جيش الملك بعد معارك دامية واسره ، ثم حاكمه وأعدمه واصبح كرومويل حاكما مطلقا في انجلترا حتى عام ١٦٥٩ ، عندما مات ، لتعود الملكية بعد فترة وجيزة •

(المعرب)

عندما بلغته انباء معركة الجمل وزحف «علي» على الكوفة . ومن المحتمل ان يكون عمرو كارها لعلي ، لسبب نجهله ولا نعرفه •

ولكن النقطة المهمة في الموضوع ان عمرا كان رجلا ذا دهاء وحدة ملاحظة ، وانه كان يسعى الى اعلاء مركزه الشخصي • واني لأكاد أجزم بأنه ما كان لينضم الى صفوف أعداء علي ، بعد أن فاز هذا بمعركة ضخمة كمعركة الجمل ، لولا انه أدرك بثاقب بصره ان معاوية هو الفائز في النهاية • ويبدو لي ، انه كانت هناك نواح في شخصية علي ، حملت الدهاة من الناس على توقع فشله ، ولا أستطيع أن أفترض شيئا سوى ان نواحي الضعف في هذه الشخصية تمثلت في التردد ، والميل الى المهادنة ، والميل الى الاستكانة وان عليا كان يفتقر الى الحيوية القاسية التي يحتاج اليها كل الاحتياج لتذليل هذه العواصف الهائجة في المجتمع المضطرب الذي كان يتطلع الى قيادته •

وجريا مع رغبته في تجنب الحرب مع معاوية بعث اليه علي برسالة أخرى ، من الكوفة هذه المرة يطلب اليه فيها عدم الخروج على اجماع الامصار ، والاعتراف بخلافته ، ورد معاوية بأنه لن يبايع عليا الا بعد معاقبته لقتلة عثمان • وأدرك علي الآن ان المفاوضات لم تعد مجدية ، فخرج من الكوفة على رأس جيش قوامه خمسون ألفا من الرجال ومضى يسير صعدا مع نهر دجلة ، فاجتاز المدائن الى الموصل ثم اتجه غربا الى سنجار ومنها الى الرقة على نهر الفرات . وصعد مع النهر بعد أن عبره ماشيا على ضفته الغربية الى أن التقى بجيش معاوية في صفين الى الشمال الغربي من الرقة •

يجري الفرات في هذه المنطقة في واد تحيط به تلال رملية منخفضة والوادي ضيق في معظم الاماكن • وقد لا يتسع عرضه أحيانا عن بضع مئات من الياردات ولكنه يتسع أحيانا أخرى ، تاركا مساحة من الاراضي المنبسطة على هذا الجانب أو ذاك •

وهكذا التقى الجيشان في شهر ابريل (نيسان) أو شهر مايو (ايار) من عام ٦٥٧ في مثل هذه الارض المنبسطة على شاطىء النهر ، تحيط بها الصحاري الرملية من الجانبين وتقول الروايات التي لا تخلو من المبالغة المألوفة ان كلا من الجيشين كان يعد خمسين ألفا •

وبدأ علي ، كما فعل قبيل موقعة الجمل يعرض التفاوض على خصومه ، وكان معاوية في مزاجه أكثر ميلا للحذر والحيطة من علي بن أبي

طالب ، ولذا فقد كان عزوفا عن أن يجازف بكل شيء في معركة واحدة ثابتة • واكتفى بأن يطلب معاقبة قتلة عثمان وكان على قد قطع شوطا بعيدا فى طريق استحالة تحقيق هذا الهدف • فقد أوفد محمد بن أبى بكر ليكون أميرا على مصر • وكان الخارجى المتعصب مالك الاشـــتر أحد كبار القادة المسئولين فى جيشه • ولا تعنى أية محاولة لالقاء القبض على الاشتر الا قيـــام فتنـــة فى جيش الكوفة الذى يؤلف الشطر الاكبر من قوات على • وبدا ان ليس ثمة خلاص له من هذه الورطة • وحرى بنا أن نتذكر دائما بأن الثأر العائلى كان ولا يزال يعتبر بالنسبة الى العرب واجبا مقدسا • وحتى النبى نفسه بما عرف عنه من تسامح ولين وميل الى الصفح قد أقر شرعية الثأر(١) • وأنا لا أود أن أوحى هنا بأن معاوية لم يكن مدفوعا بطموحه الشخصى ، ولكننى أود أن أقول ان انصاره كانوا يصدقونه ويعتقدون انه على حق فى اصراره على الثأر • وانهم كانوا لا بد أن يتخلوا عنه متهمينه بالجبن لو انه أظهر ميلا الى التفاهم •

وعندما وصلت المفاوضات الى هذه المرحلة من الجمود تحدى «على» معاوية على أن يسويا القضية بمبارزة شخصية بينهما تكون نتيجتها الحكم الفاصل بينهما • ولقد كان على من أعظم فرســـان المسلمين فى حروب النبى ، وكان لايزال يفكر فى هذه الناحية على الرغم من ان منظر الرجلين كان لا بد وان يبدو غريبا عند المبارزة ، لانهما كانا قد ترهلا ووصلا الى أوسط العمر ، يضـــاف الى هذا ان التـــحدى كان يفتقر على الرغم من انسجامه مع فروسية عهد الجاهلية القديم ، الى الحكمة وسداد الرأى من الناحية السياسية • فقضية على تقوم على الحقيقة الواقعة وهى انه الخليفة الشرعى ، ومن هنا كان مما يجفو المنطق أن يحمل صراعه طابع الصراع الشخصى ، وأن يظل على انه صراع بين الدنيـــا والآخره • على أى حال رفض معاوية وهو السياسى الهادىء البارد الدم قبـــول تحدى خصمه معتذرا عن المبارزة •

وكانت المناوشات البسيطة والمبارزات الفردية مستمرة فى غضون ذلك ، ولعل من الغريب كل الغرابة ان عدد الصحابة الى جانب معاوية

---

(١) اعتقد ان المؤلف أساء فهم كلمة «القصاص» في الدين الاسلامي والواردة في قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة يا أولى الالباب » فالقصاص لا يعنى الثأر الشخصي وانما يعنى العقوبة العامة ، وشتان بينهما ، وليس ثمة من شك في أن الاسلام اعتبر الثأر نزعة من نزعات الجاهلية .»

(المعرب)

كان أكبر منه الى جانب على الذى تآلفت قواته على الغالب من البدو ، وهكذا تحدى عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، الذى كان يحارب الى جانب معاوية محمدا بن على الذى يحارب الى جانب أبيه • على أى حال كانت الخسائر طفيفة طيلة شـــهرى مايو (ايار) ويونيو (حزيران) عندما كان الجيشان متقابلين فى ساحة المعركة •

ولا ريب فى ان هذا نجم عن الحقيقة الواقعة وهى ان أبناء القبيلة الواحدة بل أبناء الاسرة الواحدة كانوا موزعين على الجيشين المتحاربين • فالجنود المتقاتلون لا ينتمون الى أقوام مختلفة معـــادية • ولا حتى الى السوريين والعراقيين ، بل الى فيالق مختلفة فى جيش واحد ، فمعظمهم ان لم يكونوا كلهم ، ينتمـــون الى الجزيرة العربية اذ على الرغم من ان كثيرين منهم قد تزوجوا بنساء من فارس أو ســـوريا أو الروم ، الا ان الوقت الذى انقضى منذ وقعت الفتوحات لم يكن كافيا لنشوء طبقة جديدة من المولدين •

وبدأت السنة الهجرية الجديدة فى أواسط يونيو وكان شـــــهر محرم ، من الاشهر التى يحرم القتال فيها منذ أيام الجاهلية • واهتبل الجيشان العازفان عن القتال هذه الفرصة ليتخذا منهـــا مبررا لتأجيل الالتحام • ولكن القتال عاد الى الاستعار بعد انتهاء محرم أى فى أواسط يوليو (تموز) عام ٦٥٧ ، ووقف الجيشان أخيرا متقابلين ليخوضا معركة حاسمة • وانقضى اليوم الاول فى قتال غير حاسم ، وأن فار فيه دم الجنود بحيث شرعوا يقاتلون فى اليوم الثانى بعـزيمة هائلة . ووقف «على» فى وسط جيشه يحيط به لفيف من الرجال الذين جاءوا معه فى المدينة • ووقف جيش الكوفة الى الميمنة وجيش البصرة الى ميسرته • وتقدم عمرو ابن العاص فاتح مصر ، صفوف جيش معاوية وأجبر رجال الكوفة على التراجع فى حالة من الاضطراب والفوضى ووقف «على» مشرعا سيفه فى يده منظما صفوف جيشه ، وهو يبدى من الشجاعة ضروبا تشبه تلك التى أبرزته قبل ثلاثين عاما فى معركتى بدر وأحد .

ولكن مالك الاشتر زعيم الخوارج كان بطل الميدان ، وظل يخوض المعمعة بقوة فى الطليعة ، لاندري سببها ، وهل كان الدافع اليها حماسته الدينية أو خوفه من انتصار معـــاوية الذى يعنى قتله بوصفه أحد قتلة عثمان. وهجم بأربعمائة من رجاله المتعصبين الذين يحفظون القرآن غيبا يشق صفوف الاعداء حتى كاد يمسك بمعاوية نفسه وعاد جيش سوريا فنظم صفوفه ، وأعاد الوضع الى نصابه ، واستمرت المذبحة المتبـــادلة

وسط الغبار ووهج ذلك اليوم الطويل المحرق من أيام يوليو (تموز) .

ويذكر القارىء ولا شك عمار بن ياسر الذى كان عمر بن الخطاب قد أوفده أميرا على الكوفة . وكان هذا الرجل المعتبر من المسلمين الاول قد طعن فى السن الآن ، وقبل ثلاثين عاما جاءت قريش مع أحلافها تريد غزو المدينة . وقام المسلمون الاول ، وبينهم عمار تلبية لامر النبى بحفر الخندق حولها . ورأى النبى عمارا وهو يحمل كيسا ثقيلا مليئا بالتراب على ظهره فخف لمساعدته ، وأخذ عنه حمله ، وفض عن رأسه وملابسه التراب وراح يقول له بذلك الحنان الابوى الدمث الذى كان من أهم أسباب حب اتباعه له « ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، انما تقتلك الفئة الباغية » ومن المحتمل أن يكون النبى قال قولته هذه مازحا ، موجها اللوم الى صحابته لاثقالهم العمل على عمار المتفانى فى خدمة الرسول . ولكن هذا القول ظل بمثابة نبوءة (١) وقد قتل عمار فى هذه المعركة الآن وفى يومها الثانى ، وهو يحارب من أجل «على» ويهتف بصوت عال « يا للفردوس ما أدناها منى » ولا ريب فى أن الفريقين كانا يجلان ذكرى الرسول كل الاجلال ، اذ ان مقتل عمار اثار حمية رجال «على» وانزل اليأس فى قلوب رجال معاوية ، وذلك لان قول النبى عنى أن قتلة عمار كانوا يحاربون دفاعا عن قضية غير عادلة . وسارع عمرو بن العاص يعلن فى الناس ان عليا هو الذى قتل عمارا لانه سمح له ، وهو الرجل العجوز بأن يقاتل دفاعا عنه .

وانتهى اليوم الثانى من القتال بصورة غير حاسمة أيضا ، واستمرت الحرب الى مابعد حلول الظلام . وقد أطلق العرب على هذه الليلة أيضا اسم ليلة الهرير تشبيها لها بالقادسية . وكان مالك الاشتر يقاتل بكل ما عرف عن المتعصبين المتزمتين من حماسة واندفاع . ويرغم جيش معاوية على التراجع عن أرضه شبرا شبرا . ولاحت فكرة عبقرية أخرى فى ذهن عمرو بن العاص من افكاره العبقرية الكثر فى صباح اليوم الثالث ،

---

(١) خلط المؤلف بين حادثى حفر الخندق وبناء مسجد الرسول . فلقد تحدث النبى (صلى الله عليه وسلم) هذا الحديث كما تروى سيرة ابن هشام عند بناء المسجد في المدينة لا عند حفر الخندق فيها « ثم قال .. فدخل عمار بن ياسر وقد اثقلوه باللبن فقال : يا رسول الله قتلونى، يحملون على ما لا يحملون . قالت ام سلمة زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) فرايت رسول الله ينفض وفرته بيده ، وكان رجلا جعدا وهو يقول « ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك انما تقتلك الفئة الباغية » . (المعرب)

فاقترح على معاوية أن يحمل الفرســـان القرآن الكريم على رماحهم • وأضاف ان تنفيذ هـــذا الاقتراح سيخلق البلبلة على الاقل فى صفوف جيش على ، اذ ان بعضهم سيؤيد فكرة وقف القتـــال ، بينما سيطالب البعض الآخر باستمراره • أما اذا نجحت الفكرة فستؤدى على الغالب الى انهاء المعركة التى أخذ النصر يتجه فيها بوضوح الى جانب على ، وأدرك معاوية على الفور قيمة هذه الخدعة ، فأصدر أمره الى قوة من رجاله بأن تتقدم الى الامام وقد حملت القرآن على رءوس الاسنة • وسرعان ماارتفعت المصاحف ، وسمع قائل يقول : « هذا كتاب الله عز وجل ، يحكم بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق » •

ولما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة ، واستمعوا الى نداء المنادين قالوا «نجيب الى كتاب الله» •• ودوى الصوت من الجيشين يقول : الحكم لله وحده • وكان أشد المنادين عزما وأعلاهم صوتا ، حفظة القرآن من الاتقياء • وهتف «على» برجاله ، أن فى الأمر خدعة ودهاء ومكيدة واحتج مالك بن الاشتر على نداء القراء ، وكان النصر قد أصبح فى متناول يده • وعلا الضجيج من كل مكان جريا على ما ألفه العرب • وصرخ الاشـــتر بالقراء متهما اياهم بالجبن ، فردوا عليه قائلين ان لابد من الاستماع الى كلمة الله • وأخذ المنادون بوقف القتال من جيش على ، يدفعونه ويهددونه، واتضح أخيرا ان جيش على بات عازفا عن القتال • وبعث على الى معاوية يسأله عما يريد ويقترح ، فرد هذا بقوله : «نرجع نحن وانتم الى ماأمر الله به فى كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضونه ، ونبعث منا رجلا، ثم نأخذ عليهما عهدا بأن يعملا بكتاب الله لايعدوانه ثم نتبع مايتفقان عليه» •

ووجد «على» نفسه مرغما على قبول الاقتراح، وذلك لان رجاله باتوا غير راغبين فى القتال • وراح الناس يصرخون بأنهم يريدون أبا موسى الاشعرى ممثلا لهم أى لجيش على ، ويذكر القراء ولاشك ان أبا موسى كان يحارب فى فارس منذ أمد طويل ، وانه كان أميرا للكوفة قبيـــل معركة الجمل ، فلما أراد منه على أن يحشد الجند فى الكوفة ، رفض الاذعان والاشتراك فى هذه الحروب الاهلية التى يقاتل فيها المسلم أخاه مما حمل عليا على عزله ، ويبدو ان هذا الرجل كان محبـــوبا من رجال الكوفة . واحتج «على» على اختياره بحجة انه خذله فى الماضى ولم يؤيده. فلا يصلح ممثلا له ، واقترح أن يختار عبد الله بن عباس ، ابن عم النبى، أو مالك الاشتر ، ولكن الجنـــود وقد ألفوا الآن عصيانه ، عصوه ثانية

وأصروا على اختيار أبي موسى الاشعرى • أما معاوية فقد اختار عمرو بن العاص ، الواسع الحيلة والدهاء ، وصاحب فكرة رفع القرآن الكريم على الرماح •

وهكذا انتهت معركة صفين ، دون أن يتحقق فيهـــا النصر لاى من الجيشين المتحاربين •

***

سبق لى ان ذكرت اننا مفتقرون الى المعلومات التاريخية الصحيحة عن الاساليب التعبوية التى اتبعها الفاتحون العرب الاول • ولكن المؤرخين العرب يلمحون بعض التلميحات الخفية أثناء حديثهم عن الحروب بين على ومعاوية هنا وهناك ، مما يلقى ضـــوءا ضعيفا عابرا يستطيع المؤلف استغلاله مع شيء من التقدير والعرفان للجميل • فقد روى هؤلاء المؤرخون على سبيل المثال ان عليا أوصى رجاله ولا سيما من المشاه قبيـــل معركة صفين ، بأن يقفوا صامدين كالطود الشامخ ، وذكر المؤرخون فى جوانب أخرى فى كتبهم ان المشاه كانوا ينظمون عادة فى ثمانية صفوف أو أحد عشر صفا • وكانت الرماح هى سلاح بعض هذه الصفوف ، بينما كانت الاقواس والسهام سلاح البعض الآخر • وعلى الرغم من ان وصف هؤلاء المؤرخين للمبارزات الفردية • والاشـــتباكات الصغيرة يوحى بأن هذه المبارزات والاشتباكات كانت لا تزال تحتل المكانة الاولى فى المعارك ، الا اننى لا أشك مطلقا فى ان نظاما تعبويا مفيدا يفرض الانضباط والتدريب، كان قد طبق الآن • ولم نعد نرى الآن قطعانا فظة من أبناء القبائل تندفع الى الامام سعيا وراء النصر أو الشـــهادة • بل عدنا نرى وجود جيوش منضبطة ثابتة ، ذاتية الاعتماد على نفسها أو سريعة الاتكال على ذاتها ، بعد أن ألفت النصر وتعودته •

تواريخ بارزة

مقتل الخليفة عثمان	١٧ يونيو (حزيران) ٦٥٦
انتخاب على للخلافة	٢٣ يونيو (حزيران) ٦٥٦
موقعة الجمل	ديسمبر (كانون الاول) ٦٥٦
معركة صفين	من مايو الى يوليو (ايار حتى تموز) ٦٥٦

شخصيات مشهورة

المطالبون بالخلافة :

على ابن أبى طالب	تولى الخلافة فى المدينة
الزبير بن العوام	قتل فى موقعة الجمل
طلحة بن عبيد الله	قتل فى موقعة الجمل
معاوية بن أبى سفيان	أمير سوريا
عائشة أم المؤمنين	زوجة النبى
أبو موسى الاشعرى	محارب مخضرم ، أمير الكوفة ، رفض الانضمام إلى الحرب الاهلية
مالك بن الاشتر	متزمت متعصب، وأحد العصاة الذين قتلوا عثمان وبات الآن من مؤيدى على
عمرو بن العاص	فاتح مصر ، اخرجه عثمان وبات الآن من أقوى أنصار معاوية
محمد بن أبى بكر	ابن الخليفة الأول ، وأحد القادة الذين تولوا قتل عثمان ، اختاره على أميرا على مصر





الهرطقة والخلافات

« تكون الشرور النابعة من اصطراع المطامح محصورة عادة في الازمنة والبلاد التي يقوم فيها هذا الاصطراع لكن الخلاف الديني الذي نشأ بين محبي علي وخصومه، ظل يتجدد في كل عصر .. لكن هذه المحنة كانت من الضخامة بحيث هددت بالافساد اكثر الفضائل صلابة. ولم يعد المرشح الطموح ، قانعا بالسلطان في الجزيرة العربية القاحلة ، اذ ان ممالك فارس وســـوريا ومصر الوافرة الثراء غدت الارث المشروع للخلفـــاء وأمراء المؤمنين » .

جيبون ـ انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها.

***

« لم يكن ثمة مؤمن صادق يشك في ان خليفة رسول الله هو الحاكم الشرعي للعالم بأسره ، لكن الخلاف في الرأي يتسع حول من هو الخليفة الشرعي » .

فريمان ـ تاريخ العرب

وصل عمرو بن العاص ، ممثلا معاوية الى معسكر الخليفة بعد وقف القتال يحمل فكرة الوصول الى اتفاق خطى ، وعندما شرع ممثل على فى اعداد مسودة الاتفاق ، بدأه بقوله : « هذا ما اتفق عليـــه أمير المؤمنين ق ••• » ولكن عمرا احتج جهارا بان عليا أمير على جيشه لا على جيش سوريا • وكانت أهم نقطة ضعف فى قضية على ، هى عدم وجود اجـراء رسمى لاختيار الخليفة • فلقد اختير أبو بكر وعمر وعثمان بموافقةغالبية أهل المدينة ، وتم اختيار على بنفس الاسلوب أيضا . ولكن ليس ثمة فى القرآن الكريم أية آية أو فى سنة الرسول أى حديث أو اشارة يوضحان شرعية هذا الاجراء ، ولهذا فعندما رفض عمرو بن العاص توقيع أيةوثيقة تنص على أن عليا هو •• أمير المؤمنين ، اضـــــطر ممثل على الى الاذعان والقبول • وهكذا نص على أن الاتفاق تم بين على ومعاوية عـلى أن ينزل الطرفان عند حكم الله عز وجل فى كتابه ان وجد • فان لم يوجد فسنة رسوله الله العادلة الجامعة غير المفرقة • وأضاف ان على جميـع المعنيين أن يرضوا بما يصدره المتقاضيان من حكم ، مع تعهد الحكمين بمراعاة العدل ، وقرر الاتفاق وقف القتال الى أن يصدر القاضيان حكمهما ، وقد رفض مالك الاشتر رفضا باتا التوقيع على هذه الوثيقة •

ولعل من المضحك أن يجد على نفسه، وقد كان قبل يوم أو بضع يوم قاب قوسين أو أدنى من النصر النهائى الكامل قد حرم من ثمرة نصره ، كما أجبر وهو الخليفة الشرعى المنتخب ، بارادة الله ، على أن يقبل وضع المساواة مع معاوية بن أبى سفيان • وكان من سوء طالعه أيضا ، أن تكون هذه المناورة كلها ثمرة دهاء عمرو بن العاص ممثل معاوية فى التحكيم ، وان يكون ممثله هو فيه ، أبا موسى الاشعرى الرجـــل الذى أعلن موقفه الحيادى جهارا • وكان أبو موسى على أى حال رجلا ذا روح تقيـــة ورعة وطبيعة عسكرية بسيطة ، لا معرفة له بشئون الجدل والنقاش، ولا براعة فى حلبة السياسة وكان هذا التصدع ثمرة اللاانضباط فى جيش على ، اذ توقف هذا الجيش عن القتـــال عندما ارتفعت المصاحف على رءوس الرماح ، واذ أصر على اختيار قائده العجوز السابق الورع ممثـــلا له فى هيئة التحكيم • ولكن هذا الافتقار الى الانضباط انما نشأ فى الاصل عن موقف على نفســـه ، اذ انه كان الى حد كبير مسئولا عما وقع من فوضى

بسماحه للعصاة بقتل عثمان ، وكان هذا القتل سببا فى اختفاء هالة القداسة التى كانت تحيط بمركز الخليفة حتى ذلك الحين • ومن المحتمل أن عليا لم يكن قادرا على انقاذ عثمان ، والعصاة مسيطرون على المدينة ، ولكنه لم يكن فى حاجة الى تعريض نفسه الى مزيد من النقد باستخدامه قتلة عثمان كتعيينه محمد بن أبى بكر أميرا لمصر ، ومالك الاشتر وصحبه قادة فى جيشه . واذا ما ضربنا صفحا عن شخصيتى المتنافسين نرى من الصعب علينا أن نتجنب الاقتناع بأن ثمرة ما وقع كانت مفجعة للاسلام والمسلمين ، ولو قدر لجيش على أن يواصل حربه حتى النصر النهائى فى صفين • لاختفى بنو أمية فى زوايا النسيان ، ولظل المسلمون كتلة واحدة غير مجزأة فقد أثبتت الايام ان الخلاف بينهم وبين بنى هاشم قد فرق الوحدة الاسلامية من قمتها الى قاعدتها ، وما زالت ثمرة هذا التصدع ماثلة أمامنا حتى يومنا هذا •

***

وعاد على بعد توقيع الاتفاق الى الكوفة ، كما عاد معاوية بدوره الى دمشق • وكانت الخسائر التى منى بها الفريقان فى اليومين الاولين من القتال العنيف فى صفين ثقيلة للغاية ، وارتفعت اشارات الحداد على كل بيت فى كل من الكوفة ودمشق ، واشتد استياء أهل الكوفة من الحقيقة الواقعة وهى ان عليا قد هزم من الناحية السياسية ان لم يكن من الناحية العسكرية. وكان فى مكنتهم أن يحتملوا خسارة مثل هذا العدد الضخم من الرجال لو أن النصر قد تحقق لهم ، حاملا معه السلام • أما الآن فما زال كل شىء فى أتون الانصهار وقد سمح الجنود لانفسهم فى خضم الحماس الذى أوجدته الظروف ، بأن يخدعوا بما حمله شعار « الحكم لله » من اثاره . أما الآن فقد تبين لهم ان التحكيم لا يعنى سوى تقرير موضوع الخلافة وهل تكون لعلى أو لمعاوية ؟ واذا تمت الخلافة لعلى فسيحكمهم بنو هاشم . أما اذا تمت لمعاوية فسيحكمهم بنو أمية • ولا يرى البدوى العادى أو الجندى كبير فرق بين هؤلاء أو أولئك • ولقد سمعوا من النبى وقرأوا فى كتابهم ان المسلمين أخوة • ومع ذلك فقد غدت الامبراطورية العربية التى فتحوها بسيوفهم مزرعة خاصة بقريش التى يحتكر قادتها مناصب الامارة فى الامصار فيظلمون ويستغلون ويبتلعون أمة محمد • وهم لم يقتلوا عثمان الا ليحطموا هذه الامبراطورية الدنيوية التى أقامتها قريش • وما يبحثون

عنه هو اقامة جمهورية دينية يتساوى فيها جميع المسلمين تنفيذا لكلمة الله (١) .

كان رجال الكوفة يتناقشون في مثل هذه المواضيع ، وهم في طريق عودتهم كاسفي البال الى قاعدتهم من صفين . وأدى هذا الوضع الى انفصال نحو من اثنى عشر الفا من جيش على ، وهم ثلث هذا الجيش تقريبا ، وخروجهم عنه اذ ظلوا يسيرون في خط مواز لسير بقية الجيش . فلما وصل الجيش الى الكوفة ، رابطوا هم على بعد بضعة أميال منها في مكان يدعى حروراء . وراحوا يعربون عن ندمهم لانهم قبلوا التحكيم الذي لايمكن أن يؤدي مهما كانت نتيجته ، الا الى ظهور طاغية جديد من طغاة قريش يحيط به جماعة من أقربائه الطامعين في الملك والجاه . وحزموا أمرهم على أن يعملوا لاقامة دولة دينية : الحكم فيها لله وحده . وأوفد على اليهم أحد كبار أنصاره وهو عبد الله بن عباس ، ابن عم النبي . لاقناعهم

---

(١) لو صح تحليل المؤلف للموقف على انه نقمة من العرب على سلطان قريش لتحتم أن يقف العرب في جيش معاوية عين هذا الموقف الذي وقفه العرب في جيش على كما يدعي المؤلف ويبدو لي أن المؤلف يريد أن يتجاهل تأثير العوامل الشعوبية التي كانت تطمح الى تحطيم الدولة الاسلامية ثأرا منها لقومياتها التي أذعنت للعرب . فهو يصور هذه الدوافع الشعوبية على أنها دوافع عربية ، وان القائمين بها هم البدو نقمة منهم على أهل الحضر عامة وقريش خاصة . لكن الحقيقة كل الحقيقة انها كانت دوافع شعوبية ينادي بها الشعوبيون واغلبهم من الفرس الذين وجدوا لهم في أرض الكوفة مرتعا خصبا .

وأود أن أضيف الى هذه الدوافع الشعوبية أثر العامل الشخصي في النزاع . فلقد كان على ومعاوية على تباين تام . فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره في اشياخ قريش فكيف يراه لمعاوية الذي ينظر اليه على انه من الطلقاء اولاد الطلقاء الذين حاربوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعادوه . ولم يدخلوا الاسلام الا كرها وهو يرى ان الناس قد بايعوه خليفة على المسلمين وان هذا حقه عاد اليه بعد أن سلبه اياه عثمان وان معه نصف الامة بينما كان معاوية يرى نفسه عظيما من عظماء قريش لانه ابن شيخها ابي سفيان ولان النبي وخلفاءه الثلاثة قد وثقوا به فولوه امارة الشام . وقد نقم على على تعاليه عليه ، وعزله اياه . ورأى ان حق على في الخلافة قابل للمناقشة لان الكثيرين من الصحابة رفضوا بيعته . ولان قتلة عثمان هم الذين ندبوه للخلافة ثم آواهم في جيشه ولم يقتص منهم .

ومن هنا يتبين وجود الدوافع الشخصية في النزاع بالاضافة الى أثر العوامل الشعوبية ، وليس للاسلام شأن به كما يحاول المؤلف أن يوحي الى قرائه بصورة خفية .

(المعرب)

بالعودة الى الجيش · وقد رضى بعضهم بالعـودة ولكن غالبيتهم رفضتها واختارت لها زعيما منها . وذهب على اخيرا بنفسـه الى حروراء حيث ناقش الناقمين ، وأقنع جلهم ولو مؤقتا بالعودة الى أهلهم فى الكوفة .

واجتمع الحكمان فى أزرح الواقعة فى شرق الاردن والتى تبعد ثلاثين ميلا الى الشمال الغربى من معان فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٥٨ أى بعد ستة أشهر من توقيع اتفاق صفين . وكان مع كل منهما أربعمائة رجل من جماعته . كما شهد التحكيم عدد من الصحابة وفضلاء القوم كمراقبين وكشهود بينهم عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وهما ولدا قتيلى معركة الجمل الزبير وطلحة .

استهلت أعمال التحكيم باجتماع خاص عقده الحكمان عمـرو بن العاص ممثلا معاوية وأبو موسى الاشعرى ممثلا عليا · ويمكن لنـا أن نستخلص من الروايات المقتضبة التى أوردها المؤرخون العـرب الحقائق التالية ··· راح أبو موسى الجندى التقى الساذج المؤمن بالحياد يلحف على ضرورة الوحدة بين المسلمين ويؤكد مسئولية الحكمين فى وضع نهاية للحرب الاهلية ، وهى عواطف أيده عمرو فيها كل التأكيد ، وراحا بعـد ذلك يبحثان فيما اذا لم يكن من الخير بالنظر الى العداء المستحكم بين على ومعاوية أن يتفق الحكمان على خلعهما معا،واختيار خليفة جديدللمسلمين· واقترحت أسماء عدة، ولكن بعض الاعتراضات اثيرت على كل اسم، وكانت كافية لاسـتبعاده · ويقـال ان أبا موسى اقترح بعد ذلك خلع كل من على ومعاوية · وترك أمر اختيار الخليفة شورى بين المسلمين دون أن يبين كما يقول المؤرخون العرب الطريقة التى يتم فيها هذا الاختيـار · وسرعان ما أيد عمرو هذا الاقتراح الحكيم الذى تقدم به زميله · ويبدو من الواضح أن عمرا الداهية كان يحاول خداع رفيقه السليم النية ، مؤجلا دائما ابداء رأيه ، ومقدما زميله وهو متأهب لاغتنام فرصـة أى خطأ قد يقع فيه ·

وبعد أن اتفق الحكمان على خلع كل من على ومعـاوية ، والسماح للشعب باختيار خليفته الجـديد ، خرجا من الخيمة التى كانا يعقدان الاجتماعات فيها الى المكان الذى كان الناس مجتمعين فيه يرتقبون النتيجة بأنفاس تكاد تتقطع لهفة على معرفتها وأعلن أبو موسى بصوت جهورى ان الحكمين قد اتفقا على قرار واحد ، وأيده عمرو فى قوله ثم تنحى جانبا · راجيا من أبى موسى بوصفه أكبرهما سنا وأرفعهما مقاما أن يتكلم أولا ، وخدع الرجل الطيب بما أبداه له عمرو من الاحترام والاجلال · اذ كان

ينظر الى الحياة نظرة بريئة من المكر • فانطلق بصوته الجهورى يعلن ان الطريقة المثلى لاعادة السلام الى صـــفوف الساعين تتمثل فى خلع على ومعاوية • وسيكون من حق المسلمين أن يختاروا بعـد ذلك من يجدونه صالحا للخلافة ، وأكد انه وافق على عزل من يمثله ، وهو على بن أبى طالب •

وتراجع أبو موسى ليحل محـــله عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه وقال : ان هذا قال ماقد سمعتم ، وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه • وأثبت صاحبى معاوية فهو ولى عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه •

وهكذا كسب عمرو بحيلة ماكره معيبة نقـــطة أخرى فى الصراع لمعاوية وأحاط أنصار على بأبى موسى يصـــيحون فى وجهه معربين عن سخطهم ونقمتهم ، فيرد عليهم الجندى الشيخ قائلا : «ماعساى أفعل • لقد وعد بأن يعلن ماأعلنه ثم نكث بوعده» وانهال اللوم على الشيخ من كل جانب ففر الى مكة حيث قضى أيامه الاخيرة بعد عمر طويل صرفه فى الجهاد فى سبيل الله ورسوله فى التهجد والعبادة وحياة النسيان •

ولم يؤد هذا التحكيم الشاذ الى أية نتيجة سوى توسيع شقة الخلاف والمزيد من توتر العلاقات ، فقـــد رفض على وأصـــحابه بالطبع نتيجة التحكيم ، التى لم تعد فى جوهرها أن تكون خدعة شفوية ضعيفة ، وان دفعت معاوية فى دمشق الى اشهار رغبته فى الخلافة ، وحمله الناس على بيعته خليفة للمسلمين ، وأخذ المصلون فى مسجد الكوفة يلعنون بعد ذلك اليوم معاوية وعمرو بن العاص ورفاقهما ، بينما أخذ الناس فى مسجد دمشق بعد ذلك اليوم يحملون على على وعلى سليلى رسول الله الحسن والحسين اللذين كانا قرة عين النبى محمد •

❋ ❋ ❋

ولم تكد تعلن نتـــيجة التحكيم حتى عاد الخوارج فى الكوفة الى عصيانهم وأعلن هؤلاء تقززهم من هذا الاصطراع فى ســـبيل السلطة الدنيوية بين أمراء أعمتهم شهوات الدنيا وراحوا يشهرون أنهم لا يقبلون الا حكم الله ، فغدا شعارهم منذ ذلك اليوم «لا حكم الا لله» • وحاول على بما عرف عنه من صبر أن يتفاهم معهم عن طريق الاقناع ولكن محاولاته باءت بالفشل وأخذوا بعد نحو من شهر من اعلان نتيجة التحكيم يتسللون من بيوتهم واحدا اثر آخر ، من قاعدتى الكوفة والبصرة ، ليلتقوا على

موعد ضربوه وليختاروا أميرا لهم • وكانت غايتهم أن يقيموا مجتمعا ينفذ فيه حكم الله ، وان اتفقوا لادارة الاعمال اليومية على اختيار مجلس من الرجال الصالحين • وفشلت محاولة لهم للسيطرة على المدائن • فراحوا يمشون صعدا مع نهر دجلة الى أن وصلوا الى موقع يدعى النهروان على مقربة من مكان بغداد الحديثة حيث التقى أربعة آلاف منهم •

وقرر علي الآن في شهر مارس (اذار) من عـــام ٦٥٨ حشد جيش جديد ينقل عن طريقه الحرب الى سوريا من جديد • ولكن الخوارج كانوا في هذه الآونة قد بدأوا يعتمدون على المناطق المجـــاورة • وأصبح من المتعذر أن يمضي علي في تنفيذ خطته بالزحف على سوريا تاركا مؤخرته في العراق عرضة لاجتياح الهراطقة وأعمال سلبهم ولهذا توجه بجيشه أولا لحربهم ، فهزمهم بسهولة عند النهروان. لان جيشه كان يفـوقهم عددا بنسبة عشرة الى واحد • وقتل من الخوارج في المعركة نحـــو من ألفين • دون أن يخسر جيش علي أية خسائر ، وكان الخوارج يهتفون «الجنة ، الجنة» وهم يندفعون بصدورهم لمقابلة رماح المسلمين •

وعاد الجيش الى الكوفة بعـــد أن زال خطر حشد الخوارج في الكوفة • وكانت الغاية من العودة في الظاهر اعداد الترتيبـــات الاخيرة لغزو سوريا • ولكن لحق الفتور حماسة النـــاس لقضية علي ابان فترة الانتظار الطويلة . وراح عدد كبير من الجنود يفرون من الجيش عائدين الى بيـــوتهم • ولم تعـــد خطب علي ونداءاته تؤثر عليهم وتحملهم على الاستجابة وعندما رأى في النهاية ان الناس لا يلبون نداءه قنع بقضاء الله وقدره • وتخلى عن فكرة الحملة كلها • وظل معاوية الحاكم المطلق الذى لاينازعه أحد سلطانه في سوريا ، بينما ظل علي يحكم العراق حيث يقض عليه الخوارج مضجعه ، وحيث فتر حب الجنود المزيفين له من أهل الكوفة والبصرة •

وكان علي قد أوفد في غضون ذلك محمد بن أبي بكر ليتولى امارة مصر • وكانت صورة الخليفتين المتحاربين في سبيل الحكم قد حطمت أمام الناس مثالية الاسلام المقدسة واضعفت من احترامهم لسلطة الخليفة • وكان العرب في مصر منقسمين في ولائهم فبعضهم يؤيد عليا • والبعض الآخر يميل الى معاوية ويطالب بالثأر من قتلة عثمان ولا ريب في ان عليا تنكب ســـبيل الحكمة ، عندما عين لامارة مصر في هذه الظروف أحد المتهمين بقتل عثمان • ومع ذلك لو أظهر محمد هذا شيئا من التعقل والفطنة لسارت الامور على خير ما يرام • ولكنه سارع الى البطش ، فأوفد

جنوده لعقاب كل من يشتبه في عطفهم على معاوية ، وهزم هؤلاء الجنود في معركة مع أشياع معاوية • وهكذا أثار الامير الجديد كراهية الشعب دون أن يوحى له باحترام السلطة •

وعندما أدرك على عجز محمد بن أبى بكر عن اعادة النظام الى البلاد دفعه يأسه الى ايفاد مالك بن الاشتر الشديد التعصب والقوى الشخصية والباسل الروح لتولى زمام الامارة في مصر • ولكنه ما كاد يعبر الحدود الى مصر حتى مات ميتة غامضة عند القلزم (السويس) ، وقيل ان رسولا من معاوية قد دس له السم في طعامه • وكان معاوية قد وصل في تلك الآونة الى فلسطين حيث حمل الناس على اعلانه خليفة للمسلمين في القدس •

وكان معاوية أكثر اهتماما بمصر منه بسيطرة على على العراق وفارس• وكان يرى انه اذا وقفت مصر قوية وراء على بن أبى طالب ، فانها تصبح قاعدة له يستخدمها في غزو فلسطين وسوريا • يضاف الى هذا ان موارد مصر هي من الضخامة بحيث ان ايا من الخليفتين المتنافسين يضع يده عليها يكسب ميزة هائلة على خصمه واتاح سوء ادارة محمد بن أبى بكر للبلاد الفرصة المواتية لمعاوية • فعهد الى عمر بن العاص باحتلال مصر للمرة الثالثة على رأس قوة قوامها ستة آلاف جندى • وكان عمرو قد احتل مصر مرتين من الروم وها هو ذا يعد لاستخلاصها مرة ثالثة ولكن من اخوانه المسلمين •

ووصلت أنباء الغزو المتوقع الى محمد بن أبى بكر • فبعث وهو فزع الى على على جناح السرعة يناشده ارسال المعونة السريعة • ودعا الخليفة الناس الى اجتماع عام في مسجد الكوفة • وقرأ عليهم رسالة أمير مصر ، ناشدهم جمع جيش في الارض الفسيحة خارج الكوفة في الصباح التالى ليسير الى مصر • ولكن عندما مضى على في اليوم التالى الى مكان الاجتماع لتسجيل المتطوعين • لم يجد متطوعا واحدا يتقدم اليه وانتظر وحيدا بضع ساعات ثم عاد الخليفة البائس الى منزله • ودعا كبراء الكوفة لزيارته وتحدث اليهم بمرارة عميقة والأسى يحز في نفسه ، برما بهذا التقاعس الواضح عن نصرة المسلمين له • وراح يعرب عن دهشته من أن تستمع الدهماء لمعاوية وتلبى نداءه عندما يدعوها الى القيام بحملتين أو ثلاث حملات في السنة • مع انه لا يعنى بها ولا يدفع لها دفعا طيبا وان يتقاعسوا عن تلبية ندائه مع أنه يحسن معاملتهم • ولا ريب في أن عليا كان محقا في دهشته . فتقاعس الناس عن تأييده

، أمر يثير الحيرة حقـــا ، فهو أحق بالخلافة من معـــاوية • وكان يبرزه فى الاسلام ويفوقه علما وتقى ووعيا وميلا الى التفاهم والعقل واجتنابا لسفك دماء المسلمين • ولكن كل هذه الفضائل كانت تفتقر كما يبدو الى ما يكملها من لمح العبقرية ، ومن مغناطيسية القيـادة وهى أمور يحتاجها القائد فى تلك الايام الحاشدة بالجيشان رغم ما فيهـــا من بطولات •

وكان عمرو بن العاص قد غزا مصر فى غضون ذلك بستة آلاف رجل • ولم يكن فى وسع محمد بن أبى بكر أن يحشد أكثر من ألفى رجل من مؤيدى على ، قادهم بنفسه لمواجهة الغزاة ولكنهم هزموا وتفرقوا بدون قتال تقريبا مخلفينه وحده فى الميدان ، وفر محمد ماشيا وحاول أن يجد له مأوى أمينا فى قرية خربة ، ولكنهم سرعان ما عثروا عليه وجروه منها جرا • وكان أنصار معاوية ساخطين أشد السخط على محمد ابن أبى بكر اذ كان الرجل الاول فعلا فى مهاجمة عثمان الشهيد • وبعد ان أفرغوا جام نقمتهم على ضحيتهم المسكينة بتعذيبه قطعوا رأسه وربطوا جثته بجلد حمار ثم القوا بها فى نار مشتعلة • ووطد عمرو بن العاص أقدامه ثانية فى مصر أميرا لها معترفا بسـيادة معاوية على انه أمير المؤمنين •

وهكذا أخذت قضية على تسير نحو التدهور فى كل مكان • فلقد نشبت ثورة حتى فى البصرة تأييدا لمعاوية • ولم تخمد الا بعد قتال محلى عنيف ، ورفعت جماعة من الخوارج راية الثورة فى فارس ، لا تأييدا لمعاوية وانما مطالبة بحكم الله • وكان الفرس آخر من اذعن قبل بضع سنوات لحكم العرب • وعلى الرغم من أن الفرس لم يكونوا من المسلمين الا أنهم أيدوا الخوارج فى ثورتهم ضد الفاتحين ، ولم تخمد هذه الثورة الا بعد مشقة هائلة ، ولكن هذا الاخماد كان جزئيا ، وسرعان ما انفجرت الثورة من جديد فى كرمان • ولقد سبق لى أن أوردت اســـم زياد ووصفته بانه من أكثر الاداريين كفاية • وكان زياد هو الشاهد الرابع فى قضية الزنا التى اتهم فيها المغيرة بن شعبة • ولكنه عاد عن أداء الشهادة • وقد ولد زياد عن سمية وهى امرأة من الطائف كانت زوجا شرعية لمولى من الروم • ولكن الشبهات كانت تلوك سمعتها فى مكة فى الجاهلية • ولذا فقد ولد زياد وهو لا يعرف له أبا ، فأطلق الناس عليه اسم زياد بن أبيه • وقد عينه على الآن أميرا لفـارس وكرمان • وسرعان ما أعاد النظـام اليهما ، وأقام مركزه فى

اصطخر ، مدينة برسيبوليس القديمة • حيث حكم منها الاقسام الجنوبية ، بشكل لا يقل كفاية عن حكم معاوية لسورية •

وثقلت موازين معاوية الآن بالنسبة الى موازين على • وتحول معاوية الى الهجوم ووقعت عدة غارات من سوريا فى النصف الثانى من عام ٦٥٨ وفى عام ٦٥٩ هددت سيطرة على على العراق نفسه • ووصلت بعض هذه الغارات الى عين التمر والانبار ، التى لا تبعد أكثر من (١٧٠) ميلا عن شمال الكوفة وغنم رجال معاوية الكثير من الغنائم وأخذوا عددا من الاسرى • ولم يستطع على اتخاذ أى اجراء مضاد لان رجال الكوفة كانوا راغبين عن القتال وقاد معاوية بنفسه غارة عبر بها الجزيرة من الرقة حتى الموصل دون أن يلقى أية مقاومة ، ووقع ما هو أسوأ من هذا فى عام ٦٦٠ فقد زحف جيش من سوريا على الحجاز ، واحتل مكة والمدينة واتجه الى اليمن أيضا • وارغم الناس ارغاما فى كل مكان تحت وطأة التهديد بالسيف على البيعة لمعاوية • وتخلى عامل على فى اليمن عن منصبه وفر الى الكوفة • ولكن لم يكد جيش الشام يعود الى دمشق ، حتى وصلت قوة من الكوفة تعد أربعة آلاف رجل وارغمت الاهلين على نقض بيعة معاوية والعودة لبيعة على ، ومع ذلك فقد أخذ ضعف على يتضح يوما بعد آخر •

لكن أسوأ النكبات كان لا يزال طى الغيب• فلقد سبق لى أن ذكرت ان عبد الله بن عباس ، ابن عم النبى وعلى ، هو أكثر الناس صلة بعلى ، واقربهم الى ثقته وقد اختاره أميرا على البصرة • وحدث أن وجه اليه على سؤالا عن بعض تصرفات شكا الناس منها أثناء ادارته للبصرة • فاستاء عبد الله وفارق مركزه وترك البصرة متجها الى مكة • وانتقلت العدوى الى أهل على نفسه ، اذ تخلى عنه أخوه عقيل بن أبى طالب والتحق بمعاوية •

وقد قدر لبنى أمية بعد سنوات طويلة أن يختفوا من الوجود تقريبا ، كما قدر لأتباع على وأحفاد العباس أن يحكموا لقرون عدة • ويوصف التاريخ عادة بانه دعاية الفريق المنتصر أو الفريق الذى يبقى على الاقل • وكان بنو أمية قد اختفوا من عالم الوجود عندما اتيح للامبراطورية العربية أن تصل الى تلك المرحلة من النضج التى تصبح فيها الامة مهتمة بشئون الماضى بحيث تخلف المؤرخين وتلدهم • وأدت هذه الحقيقة الى أن يصور التاريخ العربى عامة عليا على انه قديس من

القديسين أو أنه على الاقل رجل يفوق معاوية دينا وعلما وخلقا . واذا ماقبلنا هذه التواريخ على علاتها ، صعب علينا أن نفسر الاسباب التى دعت معظم الناس الى التخلى عن على وتأييد معاوية . ونجد أنفسنا مرغمين على قبول أحد تفسيرين أولهما ان شخصيتى الرجلين قد صورتا على غير حقيقتهما . وثانيهما أن طبيعة البدوى العربى المتميزة بالعنف والجيشان لا تتأثر الا بالقوة . ونحن لا ننكر أن عليا كان تقيا ومخلصا ، وكان ميالا الى قبول الحلول الوسط وتجنب سفك الدماء . ولكن هذه الصفات نفسها جعلته ميالا الى التردد والضعف وكانت شخصية معاوية الحازم وذا الكفاية وشخصية عمرو بن العاص القوية والمفتقرة الى الاستقامة أكثر تقبلا للناس فى ذلك العصر . ولا ريب فى أن الرجلين كانا يملكان القدرة الخفية على القيادة بينما لم يكن فى وسع على أن يعمل شيئا سوى المناقشة والرجاء .

وأدى تبادل الرسائل بين الخليفتين المتنافسين الى عقد نوع من أنواع الهدنة وذلك فى نهاية عام ٦٦٠ ، وتوقفت المناوشات الفعلية بينهما . وظل على مسيطرا على العراق وفارس بينما امتدت سيطرة معاوية الى سوريا ومصر . ولعل من الغريب ان الحد الذى فصلهما عن بعضهما كان عين الحد الذى فصل فى الماضى بين بيزنطة وفارس . وبات معاوية خليفة قيصر بينما لبس على لباس الأكاسرة .

❋ ❋ ❋

وعلى الرغم من أن هذا الحل الدنيوى قد يكون مرضيا للحاكمين المتنافسين الا أنه لا يستطيع بأى حال من الاحوال أن يرضى المسلمين الشديدى التعصب لاسلامهم فلقد فرق هذا الحل الامبراطورية . وأوقف مدى الفتوحات العربية لا سيما وقد تحولت سيوف المسلمين لضرب المسلمين . ولعل ما هو أسوأ من هذا أن معاوية رغبة منه فى أن يكون مطلق الحرية فى مواجهة خصمه على ومضمون المؤخرة عقد اتفاقا مع امبراطور الروم اقر فيه بدفع جزية سنوية الى الامبراطور . واذا كان بعض المسلمين الصادقين قد قنعوا بالانسحاب من مثل هذه الصورة المحزنة وآثروا عليها العيش بهدوء فى التهجد والعبادة والدرس، كما فعل أبو موسى الاشعرى مثلا ، فان الخوارج كانوا من معدن أكثر صلابة وقوة ، وقد حزموا أمرهم الآن على انهاء هذه الخصومات بالقوة .

وقد اجتمع ثلاثة من هؤلاء الخوارج فى مكة أواخر عام ٦٦٠

وكانوا يتبادلون الشكوى من هذا الوضع الذى وصل اليه الاسلام عندما اقترح أحدهم مخرجا ، وهو أن توضع نهاية للأئمة الثلاثة المسئولين عما نزل بالمسلمين من نكبات • وتعهد كل واحد من هؤلاء الثلاثة بقتل الرجل الذى أوكل اليه قتله • وهكذا وعد عبد الرحمن بن ملجم بقتل على ووعد البرك بن عبد الله التميمى بقتل معاوية وعمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص، وتقرر أن تتم عملية القتل الثلاثية الاطراف بعد صلاة الجمعة فى الرابع عشر من رمضان للسنة الأربعين من الهجرة الموافق للعشرين من يناير (كانون الثانى) عام ٦٦١ • وبعد أن تعاهد الرجال الثلاثة على تنفيذ القرار ، وغمس كل منهم سيفه فى السم خرج المتعصبون من مكة كل منهم فى طريق لتنفيذ القرار •. وفى اليوم المقرر شهد ابن بكر صلاة الظهر فى جامع الفسطاط ، وهى صلاة يؤمها الامير فى كل بلد اسلامى• وشد الخارجى على الرجل الذى يؤم المسلمين فى الصلاة فقتله لتوه • ولكن حدث فى ذلك اليوم لحسن طالع عمرو بن العاص انه تخلف عن الصلاة لمرضه ، وعهد الى شخص آخر بأن يؤم الناس فى الصلاة. وعندما ساقه الناس الى عمرو ، قال الخارجى له بكل جـراة . لقد كنت أنت المقصود بضربة سيفى• فرد عمرو•• «أردت قتلى، وأراد الله قتلك(١)» وأمر باعدامه على الفور • وفى دمشق أصاب سيف البرك معاوية بجراح ، ولكن الضربة لم تقتله (٢)

وعندما أذن المؤذن للصلاة فى اليوم الموعود فى الكوفة ، خرج على من منزله يقصد المسـجد • وعندما مر ببابه فاجأه ابن ملجم بسيفه على رأسه فشق جمجمته واعتقل القاتل وأعدم ثم احرقت جثته. وعاش على حتى عشية اليوم التالى ثم توفاه الله(٣) •

---

(١) يبدو أن المؤلف قد أخطأ في فهم الرواية العربية اذ ذكرت كتب التـاريخ العربى ان خارجة بن حذافة صاحب شرطة عمرو بن العاص هو الذى قتـل في ذلك اليـوم اذ كان يؤم المسـلمين نيابة عن عمرو ، ولذا فقـد قيل ••• اراد عمرا وإراد الله خارجة .

(٢) تقول الروايات الاسلامية ان البرك قعد لمعاوية في ذلك اليوم فلما خرج شد عليه السيف فوقع السيف في اليته وعولج من الضربة . وأمر عند ذلك بعمل المقصـورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد .

(٣) تقول الروايات الاسـلامية ان قتل على وقع ليلة الجمعة الخامس عشر من رمضان عند صلاة الصبح لا صلاة الظهر كما يقول المؤلف . وقد عاش رحمه الله بعـد الضربة يومى السبت والاحد وتوفي ليلة الاحد السـابع عشر من رمضان ، لا عشية اليوم التالى كما يقول المؤلف . « المعرب »

وقد أضافت الروايات لمسة عاطفية الى قصة هذه الجريمة الفظيعة. فقد قيل ان ابن ملجم عشق امرأة من الخوارج تدعى قطام ، قتل على أباها وأخاها يوم النهروان فلما خطبها ابن ملجم ، طلبت مهرها ثلاثة آلاف درهم وقتل على بن أبى طالب . وقد قال فيها الفرزدق شاعر بنى تميم ، التى ينتمى اليها كثيرون من الخوارج فى الكوفة مخلدا ذكر الجريمة .

فلم أر مهرا ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المصمم

فلا مهر أغلى من على وان غلا ولافتك الا دون فتك ابن‌ملجم(١)

كان على فى الستين من عمره عندما قتل(٢) ، ولا يعرف على وجه التحقيق المكان الذى دفن فيه(٣) ، ويقول البعض ان اتباعه دفنوه سرا مخافة أن ينبش الخوارج عليه . وكان قد بنى فى فتوتة بفاطمة الزهراء ابنة النبى . ولم يتزوج عليها حتى توفاها الله . وقد ولدت له الحسن والحسين الطفلين اللذين كان رسول الله يحب أن يلعب معهما ويضحك ، وقد توفيت فاطمة بعد وفاة النبى بمدة قصيرة فتزوج على بعدها عدة نساء ، ولدن له احد عشر ولدا وخمس عشرة ابنة . ويقول السيوطى انه خلف عند وفاته تسع عشرة سرية بالاضافة الى زوجاته ولا ريب فى

---

(١) يبدو ان المؤلف قد أخطأ فهم ما قصده الفرزدق . فالشاعر العربى الفرزدق كان حزينا على مقتل على لا فرحا كما يحاول المؤلف أن يوحى لقرائه ، والمعروف أن الفرزدق كان من المتهمين عند الخلفاء الامويين بالتشيع لعلى وآله . وقد قال في مدحهم عدة قصائد مشهورة .

(المعرب)

(٢) يقول السيوطى في كتابه تاريخ الخلفاء انه كان لعلى حين قتل ثلاث وستون سنة ، وقيل أربع وستون وقيل خمس وستون ، وقيل سبع وخمسون ، وقيل ثمان وخمسون .

(٣) قال أبو بكر بن عياش ، عمى قبر على لئلا ينبشه الخوارج ، وقال شريك : نقله ابنه الحسن الى المدينة ، وقال المبرد .. اول من حول من قبر الى قبر على رضي الله عنه . وقال ابن عساكر .. لما قتل على رضي الله عنه ، حملوه ليدفنوه مع النبى عليه الصلاة والسلام . فبينما هم في مسيرهم ليلا اذ ند الجمل الذى هو عليه فلم يعرف أحد أين ذهب ؟ ولذلك يقول أهل العراق : هو في السحاب وقال غيره : ان البعير وقع في بلاد طيء ، فأخذوه فدفنوه .

(المعرب)

أن عليا لطبيعته الدمثه اللطيفة لم يكن صالحا للعيش فى الأوقات العصيبة التى مر بها ٠

* * *

وهكذا حقق سيف ابن ملجم المسموم ما عجزت الجيوش العربية كلها عن تحقيقه اذ وحد الامبراطورية العربية تحت حكم خليفة واحد ٠ على أى حال ، ماكاد على يقتل حتى سارع أهل الكوفة الى مبايعة ابنه البكر ، الحسن ، سبط رسول الله من ابنته فاطمة الزهراء وكان فى السابعة والثلاثين من عمره عندما اغتيل أبوه ٠ وتقول الروايات العربية انه كان يشبه الرسول فى هيئته وتقاطيعه ، ولقد سبق لى أن تحدثت عن حب النبى الشديد لحفيديه ٠ وكان هذا الحب موضوع الحديث فى روايات كثيرة ٠ وروى بعض شهود العيان ان النبى كان يحمل الحسن على عاتقه وهو يقول « اللهم انى أحبه فأحبه » وروى ان النبى أقبل ذات مرة وقد حمل الحسن على رقبته ، فلقيه رجل فقال : نعم الركب ركبت يا غلام ٠ فقال النبى عليه الصلاة والسلام : ونعم الراكب هو ٠ وتقول رواية أخرى ان النبى كان يضع الحسن فى حبوته ويقول: « من أحبنى فليحبه ، وليبلغ الشاهد الغائب » ٠

وقد ورث الحسن عن النبى كل فضائله ، دون أن يرث عنه عزمه واحتماله المكاره وشجاعته الادبية ، فلقد كان حليما ذا سكينة ووقار وحشمة وأنفة ، جوادا ممدوحا يكره الفتن والسيف ٠ تزوج كثيرا ، والاسلام لا يبيح الزواج بأكثر من أربعة فى آن واحد ، ولكنه لا يضع حدا للمرات التى يستطيع فيها المرء أن يطلق فيها نساءه ، ويقال ان الحسن تزوج فى حياته أكثر من تسعين مرة ، ليشبع رغبته فى التعرف الى أكبر عدد من النساء(١) . ولعل من الغريب اذا صدقت الروايات أن جميع أزواجه أحببنه أشد الحب وظللن على الوفاء له والحديث عنه بالخير حتى بعد طلاقهن منه ٠ وأقول على سبيل المقارنة ان النبى لم يطلق امرأة من نسائه فى حياته مطلقـــا على الرغم من أن بعضهن كن مصـــدر تعب وازعاج له ٠

وكان الحسن متدينا ويقال بانه حج الى مكة خمسا وعشرين مرة ،

---

(١) أجمع المؤرخون على ان الحسين كان مزواجا مطلاقا الا انهم لم يذكروا هـــذا العدد الضخم الذى اشار اليه المؤلف ، ولا ندرى من أين جاء به .

(المعرب)

وانه كان يقطع المسافة بين مكة والمدينة والتي تبلغ نحوا من مائتين وخمسين ميلا على قدميه لينال المزيد من الثواب جارا وراءه خيوله • وكان محدثا ساحرا ، وما سمعت عنه كلمة فحش قط ، وعندما أفحش له رجل في القول ذات يوم اكتفى بقوله انه لن يرد عليه بنفس لهجته بل سيلقاه يوما بين يدى الله والله شديد العقاب (١) •

ولم يكن معاوية ، ذلك الرجل الذى يضيع مثل هذه الفرصة ، فراح يعد جيشا جديدا بكل ما لديه من طاقة على السرعة ، ليغزو به العراق • وعندما وصلت الانباء الى الكوفة تقدم رجالها الى الحسن يعربون طائعين مختارين عن عزمهم على نصرته • بخلاف ما كانوا يعملون مع أبيه ، ولعل تأثرهم باغتيال أبيه ، أو عطفهم الطبيعي على أمير شاب وبرىء كالحسن كان الحافز لهم على استفزاز عواطفهم بعض الوقت • وليس ثمة من ريب في أن الشعور بالمنافسة مع سوريا قد دفعهم أيضا الى هـــذا الموقف الجديد • ولعل القارىء يذكر انه عندما اجتمع جيشا العراق وسوريا مرة ابان العمليات الحربية في ارمنيا • تبين ان التعاون متعذر بينهما مما دفع الرتلين الى الافتراق ، لينصرف كل منهما الى عملياته الخاصة •

ولعل من التضليل أن نعبر عنهما بالنسبة الى هذه المرحلة في عام ٦٦١ بأهل سوريا وأهل العراق • فلم يكن الاختلاط حتى ذلك التاريخ قد جرى مع أهل البلاد وكان الجيشان حتى ذلك الحين ينتميان الى قبائل الجزيرة العربية ، على أى حال ، وقف جيش قوامه أربعون ألفا على قدم الاستعداد في الكوفة . وبعث المسئولون عنه بقوة تفطيه الى الشمال للحصــــول على المعلومات المتعلقة بتحــركات جيش معاوية ، وللحيلولة دون تقدم هذا الجيش •

ولــكن على الرغم من أن أنصار الحسن كانوا يســتعدون لخوض

---

(١) اعتقد ان المؤلف قصد هنا ما روى من ان مروان بن الحـكم وكان اميرا على الحجاز ايام معاوية • كان يسب عليا كل جمعة على المنبر • والحسن يسمع فلا يرد شيئا ، ثم ارسل اليه يقول له : بعلى وبعلى وبعلى وبك وبك ، وما وجدت مثلك الا مثل البغلة يقال لها من ابوك فتقول : امى الفرس ، فقال له الحسن ، ارجع اليه فقل له : انى والله لا امحو عنك شيئا مما قلت بان اسبك ولكن موعدى وموعدك الله ، فان كنت صادقا جزاك الله بصدقك ، وان كنت كاذبا فالله اشد نقمة •

(المعرب)

القتال — الا أن الحسن نفسه كان عازفا عن الدخول في معركة . وعندما عيره بعضهم بقولهم : يا عار المؤمنين قال .. العار ولا النار . وقال في مرة أخرى انه تخلى عن مطامع الدنيا « ابتغاء وجه الله » وحقن دماء أمة محمد عليه الصلاة والسلام . وسواء أكان عزوف الحسن عن القتال راجعا الى جبن وضعف ، أو الى رغبة في حقن الدماء الا أن روحه هذه فشلت في التأثير على جنوده الذين تأهبوا لنصرته والدفاع عنه والذين أظهروا الآن بعض الادلة على عصيانهم ارادته . ولا ريب في أن العرب الميالين الى العنف والقتال ، ما كانوا ليرتاحوا لمثل هذه الروح البعيدة عن مطامع الدنيا والمتصفة بالوداعة واللين .

وكان الحسن نفسه هو الذى وضع حدا لهذه الازمة بالكتابة الى معاوية عارضا عليه التنازل شريطة أن يسمح له بنقل مافي بيت مال الكوفة من أموال ، وان يدفع له مال الخراج من فارس بقية حياته كتقاعد له . وتقول روايات أخرى انه اشترط أيضا العفو عن كل من نصر أباه عليا ضد معاوية(١) . وقد قبل هذا جميع الشروط التى طلبها الحسن فارتحل هـــذا مع أخيه الاصغر الحسين ، من الكوفة الى المدينة . وعلى الاثر دخل معاوية الكوفة وتلقى مبايعة أهلها ، واختفى الحسن منذ ذلك اليوم في صفحات التاريخ العربى الجياش بالاضطراب . اذ عاش في المدينة متقاعدا مع زوجاته وسراياه . ولكنه لم ينعم بالراحة الداخلية كما نعم بالراحة السياسية ، اذ توفى بعد ثمانى سنوات نتيجة سـم دس اليه من احدى زوجاته ، بسبب غيرة تسوية على الغالب ، ويقول أعداء الامويين أن معاوية أو ولده يزيد ، أقنعا المرآة بقتل الحسن . لكننى أرى أن هذه التهمة بعيدة عن العقل لان الحسن نفسه رفض منافسة

(١) لا ادرى من اين جاء المؤلف ببعض هذه الشروط . ولماذا اهمل شروطا اخرى. اذ يقول السيوطى في كتابه «تاريخ الخلفاء» ان الحسن بعث الى معاوية يبذل له تسليم الامر اليه . على أن تكون الخلافة له من بعده . وعلى ان لا يطالب معاوية احدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام ابيه . وعلى أن يقضي عنه ديونه ، فاجابه معاوية الى ما طلب فاصطلحا على ذلك فظهرت المعجزة النبوية في قوله صلى الله عليـــه وسلم « يصلح الله به بين فئتين من المسلمين » ونزل له عن الخلافة . وقد اســتدل البلقينى بنزوله عن الخلافة التى هى أعظم المناصب على جواز النزول عن الوظائف . وكان نزوله عنها في سنة احدى وأربعين في شهر ربيع الاول وقيل الآخر . وقيل في جمادى الاولى .

(المعرب)

معاوية على السلطان ولم يظهر آية اشارة الى ندمه على قراره لكن هذا الاتهـــام كان كافيا على أى حال ، لحمل أشياعه على الباســه ثوب الشهادة(١) ٠

***

يذكر القارىء ولا شـــك أن معاوية الخليفة الجديد الذى بايعه المسلمون جميعا هو نجل أبى سفيان ، وزوجته المنتقمة هند ٠ وكان معاوية وأبوه قد حاربا الرسول أشد الحرب ولم ينضما اليه الا عند فتح مكة ٠ ولكن معاوية مالبث بعد أيام من اسلامه ان حارب الى جانب المسلمين فى حنين ٠ وكان النبى جد تواق بعد فتح مكة لمصالحة زعمائها وقادتها . وجريا على هذه الخطة التى اختطها ، فقد اختار معاوية كاتما لسره ، وأخذه معه الى المدينة ، مما يشير الى أن الرجل كان فوق المستوى من ناحية تعليمه . ويقول أحد الرواة انه سمع محمدا يقول.. « اللهم علم معاوية الكتاب والحســاب وقه العذاب ». ولا ريب فى أن الشطر الاول من الدعاء قد تحقق اذ أنه كان من أكثر الاداريين كفاية .

كان معاوية كما يصفه المؤرخون رجلا طويلا ، أبيض ، جميلا ، مهيبا ، ويروى أنعمر بن الخطاب كان ينظر اليـــه فيقول : « هـــذا كسرى العرب » ٠ ولا ريب فى أن عمر كان يقصد ان معاوية مهيب فى طلعته كالاكاسرة ولكن نبوءته تحققت فعلا ، اذ أصبح أول حاكم

---

(١) وقع المؤلف في خطأ كبير في استنتاجه بسبب خطأ كبير اقترفه في سرد الحقائق. فهو يقول ان تسميم الحسن من احدى زوجاته كان ناجما عن غيرة نسوية ، ثم راح ينفى ان المرأة قد فعلت ذلك بتحريض من معاوية أو ولده يزيد ، وذلك لان الحسن تنازل عن الخلافة راضيا ولم يكن له مطمع فيها .

ولو عاد المؤلف الى أحد الشروط التى اشترطها الحسن على معاوية لتنـــازله عن الخلافة . وهو ان تكون الخلافة له بعد معاوية ، لتبين له خطل استنتاجه باستبعاد التحريض ، وهو تحريض أيدته اكثر من رواية ، اذ يقول السيوطى ان زوجة الحســن جعدة بنت الاشعث هى التى سمت زوجها بعد أن دس اليها يزيد بن معاوية أن تسمه ليتزوجها ، ففعلت ، فلما مات الحسن بعثت الى يزيد تسأله الوفاء بما وعدها . فقـــال انا لم نرضك للحسن ، أفنرضاك لانفسنا ؟

ومن هذا يتبين أن يزيد كان يخشى منافسة الحسن بعد وفاة أبيه معاوية وان معاوية كان مرتبطا بوعد بالخلافة للحسن بعده . ومن هنا يتبين وجود الدافع الذى لم يستطع المؤلف قبوله .

(المعرب)

دنيوى للعرب ، لا تقوم دعواه على أساس التفوق الدينى • وتقول رواية أخرى ان أحدهم قال : تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية ؟

ومع ذلك لم يكن معاوية ذلك الحاكم الطاغية المستبد المتعجرف ، بل كان أقل استبدادا برأيه من عمر بن الخطاب ، التقى الورع الذى كانت كلمته دائما هى العليا • وكان معاوية حاكما دنيويا أكثر منه خليفة على المسلمين • ومع ذلك فلم يتوان عن اللجوء الى الدين دائما وباستمرار للحفاظ على حكمه • وكان دائما كما سيبدو فيما بعد دائب النشاط فى محاربة غير المسلمين • وليس ثمة من ينكر ان كبرياء العنصر العربى كانت قد أصبحت عاملا قويا فى الامبراطورية حتى منذ أيام عمر بن الخطاب • فلقد كان عمر هو الواضع لسياسة عزل الفاتحين العرب كطبقة عسكرية خاصة تعيش على ما ينتجه كدح الشعوب المحتلة • وكان عمر أيضا هو الذى قرر الا يباع عربى قط عبدا • ولا ريب فى أن هذه الكبرياء العربية ما كانت لتتفق كل الاتفاق مع الاسلام الذى اشترط المساواة بين المسلمين • ومع ذلك فلقد كان الشعور الدينى طاغيا فى أيام أبى بكر وعمر وعثمان طغيانا ظاهرا بحيث مضت المشاعر العنصرية دون أن يلحظها أحد • وكل ما يمكن قوله عن عهد معاوية ان المشاعر العربية القومية أصبحت أكثر نفوذا وأثرا من المشاعر الدينيه المجردة ، ولكن هذا التبدل لم يكن كبيرا بعد ، بل كان محدودا • اذ كان التأثيران القومى والدينى يعملان عملهما منذ أيام أبى بكر ، وظلا يعملان كذلك أيام معاوية •

ولكن عروبة معاوية لم تكن ذات اتصال بالعلاقات مع الشعوب غير العربية أو الديانات غير الاسلامية فحسب ، بل اتصلت بما طرأ على الاوضاع الداخلية من تبدل أيضا • ولقد كان الخلفاء الاول يطاعون طاعة عمياء لمجرد انهم خلفاء الرسول • ولكن قداسة المنصب تأثرت تأثرا كبيرا بمقتل عثمان والحرب الاهلية بين على ومعاوية • وكان من الواضح ان معاوية اضحى خليفة لانه كان أقوى رجال عهده شخصية وأكثرهم كفاية فى ميدان القيادة • فعلى الرغم من ميل العرب الفطرى الى الفوضى، الا انهم كانوا دائما على استعداد للعمل تحت قيادة أى انسان يرونه أهلا للقيادة • ولم يكونوا قط على استعداد لتوفير الابهة أو الرتبة أو الامتيازات الوراثية أو الالقاب • ولكنهم اذا ما رأوا أمامهم رجلا حق الرجولة استكانوا له لا بدافع الخوف بل بدافع الاعجاب المقرون بالحماسة ولا ريب فى أن ولاءهم لمعاوية كان من هذا الطراز •

واتبع معاوية بدوره سبيل الحاكم العربي الديموقراطي الذي يشبه شيخ القبيلة التقليدي في كل شيء بوصفه الاول بين عدد من الكبراء ليس الا • وكثيرا ما دهش أبناء الاجيال المتلاحقة الذين نشأوا على توقع الميل الى الأبهة والغطرسة المعروفة عن الطغاة الشرقيين من الطريقة التي كان الناس من أبناء الرعية يحدثون بها خليفتهم معاوية •• ويقول الرواة أنه ما لبث ان تبوأ منصب الخلافة حتى جاءه أحدهم يقول •• « والله لتستقيمن بنا يا معاوية أو لنقومنك » فتساءل معاوية « وبماذا ؟ » فقال الرجل « بالخشب » فرد معاوية وقد ابتسم « اذن نستقيم » ولا ريب في أن هذه الصراحة التي لا تخلو من المزاح رغم قسوتها هي الطابع الذي يطبع أواسط الجزيرة العربية حتى يومنا هذا • ولا ريب أيضا في ان كل من تعامل مع عرب الجزيرة تعاملا وثيقا يدرك أن الصورة التي رسمها المؤرخون العرب لبدو تلك الايام تنطبق تمام الانطباق على بدو اليوم على الرغم من انقضاء ألف ومائتي عام • ولعل مما يثير الاهتمام أيضا ان هذه الصراحة الجهرية تقف تماما على النقيض من تصرفات أهل المدر في سوريا ولبنان اليوم كما كانت في عهد الروم ، فالسوري المثقف يفوق أي انسان آخر دماثة ومجاملة ولا ريب في ان مجاملاته هذه تخجل الاوروبي لا سيما اذا كان يقدم اليه منحنيا معقدا ليجلس عليه مرددا أسئلته الكثر عن صحته وسعادته. ولعل من المذهل حقا أنه على الرغم من انقضاء أثني عشر قرنا ما زال السوريون يعرضون ما عرف عن الروم من مجاملة بينما يعرض البدو ما عرف عن الفاتحين العرب من ديموقراطية جافة •

وكان استقبال صحابة رسول الله من مهاجرين وأنصار من المعمرين لمعاوية عندما زار المدينة للمرة الاولى بعد بيعته في منتهى الفتور والبرود • ويروى انه قال لجماعة منهم جلسوا اليه في المدينة • « تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الانصار » فقال له احدهم « لم يكن لنا دواب » فرد معاوية وكان يعرف المدينة خير معرفة عندما كان كاتبا لرسول الله •• واين النواضح ؟ (يعني الابل السريعة المشي) فقال الرجل «عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر » وليس في وسع الانسان أن يتصور ردا أقسى ولا أكثر استفزازا من هذا الرد . ومضى الانصاري يواصل حديثه وعلى محياه سيماء الالم « ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لنا « انكم سترون بعدى أثرة (يعني مصيبة) » فقال معاوية «فما أمركم»

قال الانصارى : « أمرنا أن نصبر » فرد معاوية وعلى وجهه ـ كما أتصور ـ ابتسامة ... « اذن فاصبروا » .

وهكذا اقنع كبراء المدينة أنفسهم،وقد وجدوها عاجزة عن الوقوف في وجه قوة معاوية العسكرية وأمام ذكائه اللماح ، بأن حكم معاوية باق الى أن يموت . وقد أعرب عن هذه الفكرة شاعر المدينة (يعنى حسان بن ثابت) بقوله :

ألا ابلغ معاوية بن حــرب   أمير المؤمنـين نبا كــلامى

فانا صـــابرون ومنظروكم   الى يوم التغابن والخصـــام

وروى أخيرا عن رجل عاصر معاوية منشيوخ العرب قوله : صحبت معاوية ، فما رأيت رجلا أثقل حلما ، ولا أبطأ جهلا ، ولا أبعد أناة منه .

ولعل أصدق شهادة على ديموقراطية معاوية جاءت من مؤرخ يونانى معاصر لعهده هو تيوفينس Theophanes اذ وصفه بأنه الوزير الاول للعرب ، لا الملك أو الامبراطور . ولقد رأينا فى عصرنا هذا عددا من الديكتاتوريين . ومع ذلك فاننا لم نر الا القليلين منهم ان وجدوا قادرين على الاجتماع الى شعوبهم ، والجلوس اليهم ، والدخول معهم فىمناقشات صريحة على قدم المساواة،لا مع الناس فحسب بل مع الخصومالسياسيين أيضا ، والرد على عباراتهم الساخرة التى تبلغ أحيانا حد الاساءة ، بروح مرحة هادئة . ولعل هذا هو السببالذى جعل من معاويةالخليفة الوحيد الذى لم تقم فى عهده أية ثورة أو أى عصيان منذ تبوأ الخلافة .

ولقد سبق لى أن ذكرت أن معاوية عين عمرو بن العاص ، أميرا لمصر قبل وفاة على وكان عمرو كما قلت أيضا صاحب الفضل فى فتح مصر . باقتراحه فتحها وتوليه عملية الفتح أيضا . ولكن عمرا لم يقـدر له أن يعيش طويلا لينعم بثمار جهوده وكده . فلقد توفى عام ٦٦٣ . أى بعد سنتين من خلافة معاوية . ومن الصعب على المؤلف تقويم شخصية عمرو هـذا ، وان كان غزوه الناجح لمصر على رأس ثلاثة آلاف وخمسمائة من البدو ليس الا خير دليل على شجاعته وجرأته . ويبدو لى أن ادارته اللاحقة لهذه البلاد المحتلة ، كانت اكثر تفتحا من خطة رئيســه عمر بن الخطاب . فلقد خصص نسبة معينة منتظمة من خراجها السنوى لاصلاح أجهزة الرى فى البلاد وتطويرها . كما عمل جهده لحماية الاقبـاط من ابتزاز الضرائب،وأعاد أيضا حفر قناة تراجان التى كان رومالقسطنطينية

قد أهملوها حتى سدتها الرمال . ومكن بعمله هذا البواخر القادمة من البحر الاحمر من الابحار حتى الفسطاط والنيل لتسير فيه حتى البحر المتوسط · وكانت له شهرة وافية في عالم السياسة والدبلوماسية منذ أيام سفارته مندوبا عن قريش الى نجاشي الحبشة ، حتى مناوراته الاخيرة تأييدا لمعاوية على علي بن أبي طالب ، ومع ذلك فقد كان سلوكه في عملية التحكيم فى أذرح خادعا · كما يشك في انه كان فاسدا من الناحية المالية · ونحن نعرف أيضا انه كان شاعرا ، وذلك من الاسطر النثرية القليلة المتميزة بالروح الشاعرية والتى كتبها الى عمر بن الخطاب يصف له فيها أرض مصر والحياة فيها · وتثبت الروايات الكثيرة عن ذكائه سرعة بديهته ولطف نكتته · ولعل أصدق وصف لشخصيته ، ورد على لسان شخص كان على اتصال وثيق بجميع شخصيات تلك الايام المثيرة فقد أجمل تصويره لشخصية عمرو في العبارة المقتضبة التالية : لم أجد في حياتي رفيقا أرق من عمرو ·

ويذكر القارىء ولاشك أن العصاة كانوا يطالبون عثمان قبل قتله وأثناء الحصار الذى فرضوه عليه بتسليمهم مروان المكروه الذى وجد الملجأ له في دار الخليفة · وقد فر مروان هذا بعد قتل عثمان بعد أن أصيب بجراح برفقة الزبير وطلحة الى البصرة حيث حارب عليا في معركة الجمل · ولجأ مروان الى حمى معاوية بعد انتصار علي في تلك المعركة . وعندما انهى مقتل علي كل معارضة لمعاوية عين الخليفة المنتصر مروان المكروه هذا اميرا على المدينة كاجراء عقابي لمقتل عثمان · ولكن السلطان كان قد انتقل من المدينة الى الابد · وان ظلت بقية الصحابة وذراريهم تعيش فيها بعيدا عن التدخل فى هذا الصراع المجنون · وكان بعضهم يقضى أيامه فى التهجد والعبادة · وبعضهم فى ترف الثراء الذى حققته لهم الفتوحات العظيمة وما ينطوى عليه هذا الترف من رخاء وملذات ، ونسى الناس تدريجا أيام بدر وأحد والردة البطولية ·

واختار معاوية اول ما اختار لامارة الكوفة وقيادة جندها الجائشين بالفتنة المغيرة بن شعبة أمير البصرة المعزول · ولقد كان هذا الفارس المغوار بطلا من أبطال الحروب في فارس ، وفقد احدى عينيه في معركة اليرموك ، كما امتاز بالقامة الفارعة ، والرغبة في المغامرة والشعر الفاحم والعود الرياضي . وكان قد حكم الكوفة من قبل في أواخر عهد عمر ثم عزله عثمان ليفسح المجال لتعيين أحد الامويين خلفا له · وقد عرف عنه انه قليل الحياء ، لا يخجل من شيء متجلد العاطفة ، وافر الشجاعة كثير

الدهاء واسع الحيلة . وقد بات الآن مسئولا عن الكوفة وأواسط العراق وشمال فارس ولم تكن مهمته بالهينة أو المريحة ، ففى العراق يواصل الخوارج تآمرهم لتحقيق هدفهم فى الجمهورية الدينية ، واستأنف من الفتوحات فى شمال فارس اندفاعه متخذا من الكوفة قاعدة له .

ولكن زياد بن أبيه كان أبرز عمال معاوية ، وقد سبق لنا أن أشرنا اليه أكثر من مرة ، وكان زياد هذا أميرا لعلى على جنوب فارس عندما رسم سيف بن ملجم النهاية لحياة سيدة ، ومع ذلك فقد كانت سيطرته كاملة فى مركزه « اصطخر » الى الحد الذى مكنه من الاحتفاظ باستقلاله فى حكم الامارة أكثر من عام بعد تولى معاوية الخلافة . ويذكر القارىء أيضا ان المغيرة بن شعبة نجا من الموت رجما بتهمة الزنا فى البصرة بفضل زياد بن أبيه الذى تراجع فى اللحظة الاخيرة عن الشهادة ضده .

ولم ينس المغيرة جميل زياد فراح يعمل وسيطا ليحصل له على عفو معاوية ، ومضى المغيرة بموافقة معاوية الى مدينة اصطخر التى كانت فى يوم ما عاصمة كورش ودارا والتى يحكمها زياد الآن ، حيث استصحب زيادا معه الى دمشق بعد أن أعطاه الامان على حياته. ولم يكن الخليفة الجديد بالرجل الذى يكسب عداء مثل هذا الامير الذى أثبت كفاية منقطعة النظير فى ادارته . ولذا فقد استقبله استقبالا ينطوى على الاكرام واعاده أميرا على ولايته .

وسرعان ما وقع حادث ضخم كل الضخامة . ويذكر القارىء ان زيادا كان ابن سمية الجارية ذات السمعة المشبوهة فى الطائف ومكة ، ولم يكن يعرف له أبا . وفجأة أعلن معاوية اعلانا أثار فزع المتدينين وتقززهم . وهو ان زيادا هو ابن أبى سفيان والد معاوية من الجارية سمية . وانه أى زياد أخ له . وليس ثمة من شك فى ان العلاقة اللاشرعية قامت بين أبى سفيان وسمية قبل تحول الرجل العجوز الى الاسلام . ولقد كان من المألوف فى صدر الاسلام ألا يحاسب المسلم على مااقترفه من خطايا فى عهد الجاهلية . ولكن بالاضافة الى الناحية الدينية لم يرض عدد من الامويين المتكبرين أن يضموا الى أسرتهم شخصا مشبوه الاصل والولادة . ولا ريب فى ان اعتراف معاوية بعلاقة أبيه بامرأة مشبوهة الخلق ، كان عملا بارعا من أعمال السياسة وكسب الاعداء السياسيين . ولم يكن تقدير معاوية السياسى خاطئا أو فى غير

موضعه • فلقد أصبح زياد بن أبيه ، زياد بن أبي سفيان وأصبحت مصلحته مرتبطة ارتباطا وثيقا بحكم الامويين • ولقد عينه معاوية الآن أميرا على البصرة وتمتد سلطاته لتشمل كل الاقسام الجنوبية من فارس حتى نهر السند في الباكستان الحديثة • وظل المغيرة أميرا على الكوفة ، حتى مات ، فخلفه فيها زياد الذي أصبح يحكم الكوفة والبصرة • وأضحى صورة لمعاوية في حكمه للنصف الشرقي من الامبراطورية كله • ولقد أضفى على نفسه هالة الملك فأصبح يسير والحرس من أمامه وخلفه ، وأبواق الجند تعلن وصوله .

وكانت امارتا البصرة والكوفة لا تزالان تعجان بالخلافات الداخلية . وواصل الخوارج تآمرهم • على الرغم من أن المغيرة أعدم ثلاثمائة منهم في يوم واحد ، ولكن المصـــــدر الرئيسي للفتنة وما يحز من مرارات في نفوس اتباع معاوية وشيعة «علي» الشهيد ظل باقيا • وعلى الرغم من ان زيادا كان حتى عهد قريب عاملا لعلي ، الا انه كرس الآن جميع جهــــوده لنصرة الأمويين ويقال بأنه حدد فن الحكم باستعمال اللين بدون ضعف والشدة من غير عنف • ولكن لما كانت الروايات قد نقلت عنه انه أحرق أحد اتباع علي وهو على قيد الحياة ، فقد بات من الصعب علينـــا حقـــا ان نحدد ما عناه « بالشدة في غير عنف » •

وكان الاعتقال يتناول الاشخاص المتهمين بعدم الولاء فيسألهم عن رأيهم في علي وعثمان • وكان الموت جزاء الذين يجيبون بأن عليا رجل صالح ، وان عهــد عثمان اتســم بالظلم ، لانهم جهروا برأيهم • وكانت الحظوة لدى معاوية ، تتطلب أن يشتم الانسان عليا وأن يمدح عثمان الشهيد . وكانت الرحمة لا تعرف لها طريقا الى قلب زياد عند حبسه للخوارج أو اعدامهم • وكان يساوي في معاملته هذه بين الخوارج وبين شيعة علي ، على الرغم من حصول الكثيرين من الذين يتمكنون من الوصول الى معاوية لرفع ظلامتهم اليه ، على العفو من الخليفة .

وعلى الرغم من شدة الاساليب التي اتبعها زياد بن أبيه مع اهل الكوفة ، فان السلوك القائم على الفتن والزيف الذي اتبعه الكوفيون مع علي الوديع المتســـامح عنــدما كان حاكما لهم ، يوحي بانهم كانوا يستحقون هذه الشدة التي طالما شكوا منها في المغيرة وزياد • فلقد ساد الاضطراب جميع أرجاء العراق الجنوبية والقسم الاكبر من فارس في عهد علي ، وكانت الطرق غير مأمونة ، والحدود معرضة لغزو الكفرة

والمشركين . وما كاد زياد يتسلم الحـــكم ، ويوطد أقدامه فيه حتى همدت الفتن ، واستقر الامن واستتب النظام وعاد المسلمون يشقون طريقهم تحت راياتهم الظافرة لفتح الهند وبلاد ما وراء النهر .

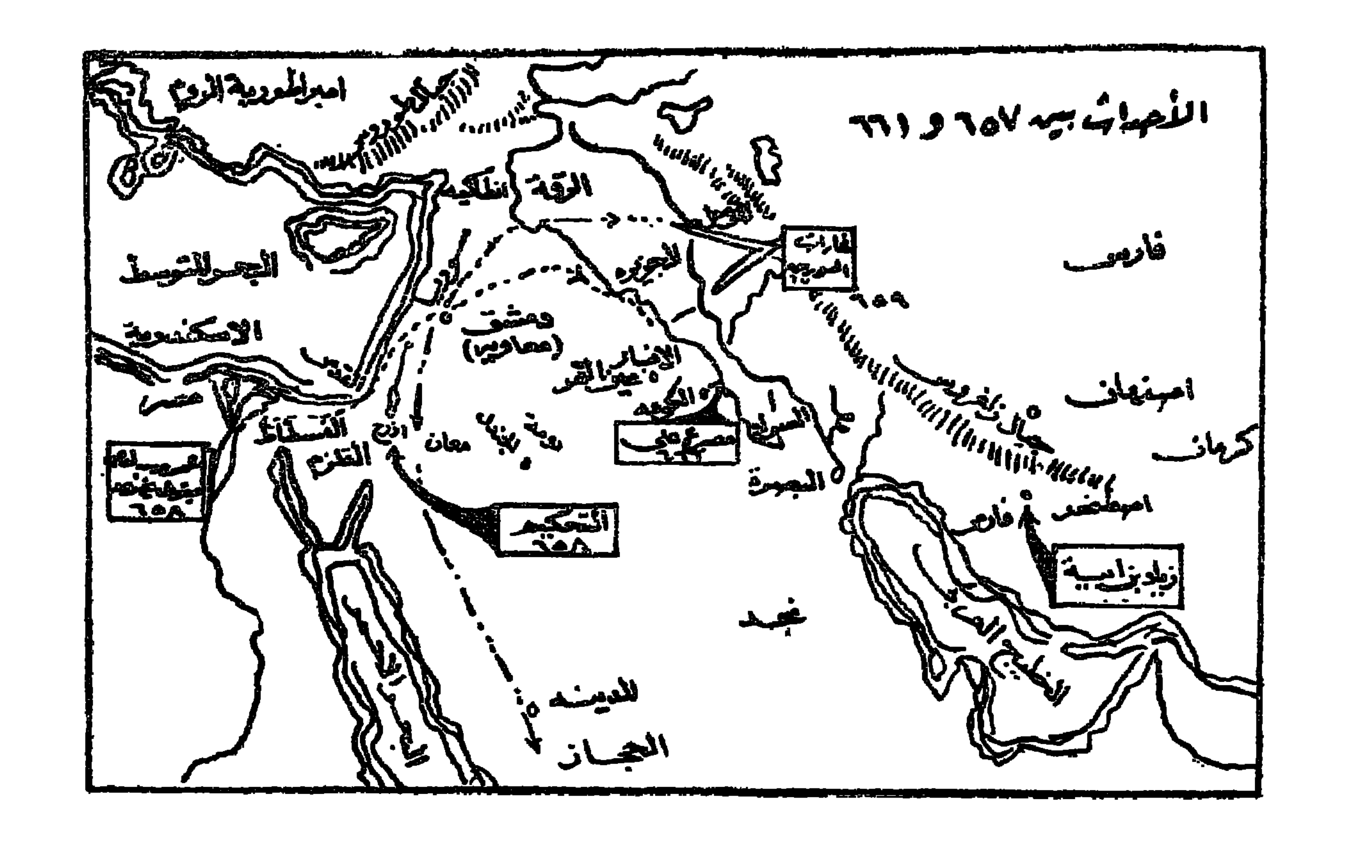
وتوحى سياسة العنف وعدم الملاينة التى اتبعها كل من معــاوية وزياد بمنتهى البراعة والكفاية بانهما حقا اخوان وان أبا سفيان لم يلد سياسيا عبقريا واحدا بل سياسيين عبقريين .

تواريخ بارزة

انتصار على على الخوارج عند النهروان	مارس (آذار) ٦٥٨
عمرو بن العاص يستولى على مصر	يوليو (تموز) ٦٥٨
مقتل على بن أبى طالب	٢٠ يناير (كانون الثانى) ٦٦١
تنازل الحسن عن الخلافة	يوليو (تموز) ٦٦١

شخصيات مشهورة

معاوية	خليفة المسلمين فى الشام
على بن أبى طالب	خليفة المسلمين فى الكوفة
عمرو بن العاص	أمير مصر
أبو موسى الاشعرى	فاتح فارس
عبدالرحمن بن ملجم	قاتل على
الحسن بن على	سبط الرسول
المغيرة بن شعبة	أمير الكوفة ثانية فى عهد معاوية
زياد بن أبيه	أمير البصرة والكوفة فيما بعد وزياد بن أبى سفيان


الأحداث بين ٦٥٧ و ٦٦١
امبراطورية الروم
البحر المتوسط
الإسكندرية
مصر
الرقة
انطاكية
دمشق
(معاوية)
الجزيرة
الأنبار
الكوفة
البصرة
التحكيم
٦٥٨
صرع علي
معان
القلزم
المدينة
الحجاز
نجد
فارس
اصفهان
كرمان
زياد بن أبيه
الخليج العربي
فارس
جبال زاغروس
٦٥٩

العودة إلى الفتح

« قد يكون من المعقول أن يعهد بالخلافة الى أكثر المسلمين صلاحا • وقد يكون من المعقـول أن تكون وراثية فى آل البيت ، اما أن تصبح وراثية فى أسرة أشد أعداء النبى فهذا أمر لم يكن محمد قد تصوره قط » •

فريمان ـ تاريخ العرب ـ

***

« كان الموقف يعرض صعوبات عدة ، عنـد ارتقاء معاوية سـدة الخلافة • فلقد أدى مصرع عثمان الى تحطيم تلك الآصرة الدينية التى ربطت الخلفـاء الأول الى الناس •• وبات لزاما على معاوية أن يجد قاعدة جديدة تقوم عليها الامبراطورية •• وكان الحل الذى وجده هو التحول من الدولة الدينية الاسـلامية الى الدولة العلمـانية العربية •• ولم يـكن معاوية دائب القيادة لقـومه ولكنه كان بارعا فى ادارتهم عن طريق الاقناع والكفاية الشخصية والمكانة »

الاستاذ برنارد لويس ـ العرب فى التاريخ

العودة الى الفتح

ما كادت الفتن تهدأ ، ويستتب الأمر لمعاوية فى الخلافة ، حتى استأنف العرب حروبهم لتوسيع حدود امبراطوريتهم • وكان معاوية ابان انصرافه الى الحرب الاهلية مع على ، قد عقد هدنة مع القسطنطينية ، وافق فيها على أن يدفع جزية سنوية لامبراطورها مقابل الحصول منه على عدد من الرهائن لضمان احترام الروم للهدنة . فلما استتب له الامر الآن اعاد الرهائن الى الروم واستأنف الحرب معهم •

يقوم سهل أضنه عند السفح الشرقى لجبال طوروس وقد قدر لهذا السهل أن يكون مسرح أحداث وحروب لا تنتهى عدة قرون ، تماما كوضع حدود الهند الشمالية الغربية ، ابان حكم الانجليز للهند • وتمتد الحدود من هذه المنطقة باتجاه الشمال الشرقى الى مرعش ومنها الى ملاطية فأرمينا وجورجيا والقفقاس • وكان المضيق الجبلى المعروف منذ أقدم العصور ببوابة كيليكيه ينتهى الى سهل طرسوس ولكن سهولة الدفاع عنه جعلت العرب يعزفون عن استخدامه لغزو بيزنطة • وقد نقل الينا الرواة ان معاوية ادراكا منه لهذا الواقع قد استخدم ملاطية كثغر أمامى متقدم للاغارة على أراضى الروم كما نقل الينا الرواة أيضا انه أعاد بناء مرعش وحصنها كل التحصين •

ويبدو أن معاوية أراد تفنيد ما يحيط بسمعته الدينية من شبهات يثيرها أشياع «على» وصحابة المدينة • ولذا فقد قضى العشرين سنة من حكمه أى بين عامى ٦٦١ و ٦٨٠ فى القيام بعمليات حربية لا يكل منها ولا يمل ضد الروم • ويبدو أيضا انه أراد التكفير عن الجزية التى دفعها اليهم فى سنوات انشغاله بالقتال مع اخوانه المسلمين • ولم يسترح العرب الى قر الاناضول القارس فى أيام الشتاء • ولذا كانوا يوقتون غزواتهم عادة فى الصيف ليعودوا فينسحبوا فى الخريف ، قبل حلول برد الشتاء القارس. وكان معاوية ايضا اول من فكر ببذل جهود حفظها لنا التاريخ لتنظيم وحدات عسكرية نظامية . ولا ريب فى أن القارىء يذكر أن العرب ظلوا منذ عهد النبى يحاربون على أساس قبلى ، اذ تؤلف كل قبيلة وحدة خاصة بها ، ويكون شيخ هذه القبيلة هو قائد هذه الوحدة . وكانت رواتب الجند تصرف من الغنائم التى تقع فى أيدى الجيوش عند الحملات العسكرية بعد ان يقتطع منها الخمس لارساله الى بيت المال فى المدينة،

وكان عمر بن الخطاب اول من فكر فى تنظيم دفع الرواتب للجنـد على أساس ثابت ، ولكن قوائم مستحقيها ظلت تعتمد على الاسس القبلية.

وأدى وجـود حدود ثابتة الى حـد ما بين الامبراطورية العربية والامبراطورية الروم الى ضرورة وضع أساليب جديدة ومنظمة • وكان تأمين الحاميات للثغور والحصون عملية خطرة ومتعبة. كما ان القائمين عليها كانوا يتطلبون رواتب أعلى من المعتاد. يضاف الى هذا أن الجنود لم يعودوا من العنصر العربى وحده • وبتنا نسـمع الآن عن وحدات من خراسان أو عن نقل الخراسانيين مع أسرهم الى المناطق الجبلية فى الشمال الغربى • ولعل هؤلاء الخراسانيين كانوا أكثر قدرة على احتمال الاشتاء الباردة وأجواء المناطق الجبلية من العرب •

لكن العمليات لم تقتصر على أى حال على الغارات الصيفية الرتيبة• فلقد عقـد الخليفة عزمه على مهاجمة القسطنطينية نفسـها ، عاصـمة امبراطورية الروم . ويذكر القارىء ، ولا شك أن معاوية منذ اصبح أميرا على سوريا فى عام ٦٣٩ أدرك القيمة الهائلة للقوة البحرية • وكان عمر ابن الخطاب بما عرف عنه من حرص وحذر قد رفض الموافقة على انشاء قوة بحـرية ، ولكن عثمان أراد أن يقتنـع بالاقتراح ، وكانت نتيجـة تنفيذه استيلاء معاوية على قبرص والانتصار على أسطول الروم فى معركتين بحريتين هزم فيهما الاسطول هزيمة ماحقة تبدد شمله على اثرهما. وانتقلت السيادة البحرية فى المتوسط الشرقى الى أيدى العرب • وأبحر أسطول عربى ضخم فى عام ٦٦٨ أو ٦٧٠ ، اذ أن التواريخ غامضة بالرغم من خطورة الاحداث ؛ يمخر عباب هذا البحر ويدخل مضايق الدردنيل دون معارضة • وهبط العرب الى البر على بعد سبعة أميال من مـدينة القسطنطينية ، وزحفوا فورا يهاجمون عاصمة الامبراطورية •

وكان العرب قد برعوا فى هذه الايام فى حروب الحصار وكانوا مجهزين بالمجانيق والمعـدات الأخرى اللازمة لتحطيم الاسوار والابواب وقذف المدن المحاصرة • وقد تعلموا طريقة تشكيل المظلات الواقية بجمع الدروع بعضها الى بعض فوق الرءوس لحماية الرجال من القذائف التى يطلقها المدافعون عن الاسوار ، كما تعلموا الابتكارات الاخرى الحـديثة لمهاجمة الحصون • وعلى الرغم من اتقانهم لكل هذه الاساليب الا ان هذا الطراز من الحرب لم يكن من النوع الذى يبزون فيه خصومهم ، ولقد سبق لنا أن رأينا أسوار بيزنطة تصـمد أمام شجاعة الهون والمغول • وتمتنع على جيوش كسرى المنظمة وعملياتها الحربية الفنية • فلقد كانت

أبراجها وقلاعها شاهقة الارتفاع ، متينة البنيان • كما أن البيزنطيين لم يعودوا يشغلون أنفسهم في عمليات عسكرية في مناطق نائية ونصف معادية وانما يدافعون عن آخر ما تبقى لهم، عن بلادهم ودينهم ونسائهم وأطفالهم • وظلت صفوف المهاجمين العرب تضرب رءوسها يوما بعد آخر في أسوار المدينة العالية تماما كما يضرب الموج الهائج الصخور الشاهقة على ساحل جبلي فيتحطم عليها • ولكن يبدو أن النار الاغريقية المشهورة كانت السلاح الرئيسي الذى أعان المدافعين وأنزل الفزع بالمهاجمين • ولا ريب في أن شبكات المخابرات وأنظمتها لم تكن قد تطورت تطورا كبيرا في تلك الايام بالنسبة الى تطورها الحالى والا لما استطاع الروم أن يحتفظوا بسر هذا السلاح الرهيب هذه القرون الطويلة وهو سلاح يتمثل في قاذفة للنار ، ظهرت لنا صور جديدة منها في عصرنا هذا في ميادين القتـــال •

وعجز العرب عن اقتحام أسوار المدينة العظيمة ، ولكنهم استطاعوا نهب المناطق المحيطة بها على الساحلين الآسيوى والأوربى وأحالتهـــا الى قاع صفصف . فلما حل الخريف تخلوا عن خطتهم لاقتحام الاســـوار وانسحبوا عنها الى جزيرة سيزيكوس الصغيرة في بحر مرمرة والتى تقع على بعد ثمانين ميلا من القسطنطينية . وظل العرب يحاصرون عاصمة الروم سبع سنوات متوالية ، ولكن جهودهم كلها ذهبت أدراج الرياح الى أن اضطرتهم خسائرهم الفادحة في الرجال والسفن والمعدات الى التخلى عن المحاولة . وقد يكون من الاعجاز حقا أن بيزنطة التى بدت تلفظ أنفاسها الاخيرة في القرن السابع قد استطاعت أن تعمر سبعة قرون أخرى ، وأن تبقى رغم قدمها وشيخوختها الى ما بعد زوال هذه الامبراطورية العربية الجديدة التى كانت تقرع بجيوشها أبواب عاصمتها •

ولقد أغدقت أوربا منذ عصر النهضة الحديثة اعجابها على الجمهورية الرومانية القديمة • وان كانت لم تنس أن تذكر بشيء من الاعجـــاب الامبراطورية الرومانية الشرقية في القســطنطينية فلقد غيرت المقاومة العنيدة التى أبدتها هذه الامبراطورية في آخر خط دفاعى لها في القرن السابع ، سير التاريخ الأوربى وقررت مصيره حتى أيامنا هذه • فلو سقطت القسطنطينية في أيدى العرب في عام ٦٧٠ لاجتاح هؤلاء اليونان وايطاليا وفرنسا ، ولما تمكنت قوة مساوية لقوتهم من الوقوف أمامهم ، ولم يقدر للقسطنطينية أن تسقط في أيدى المسلمين حتى عام ١٤٥٣، عندما استولى عليها الاتراك العثمانيون وكانت أوربا قد أفاقت في غضون ذلك من سباتها في العصور الوسطى المظلمة • وباتت قادرة على الصمود

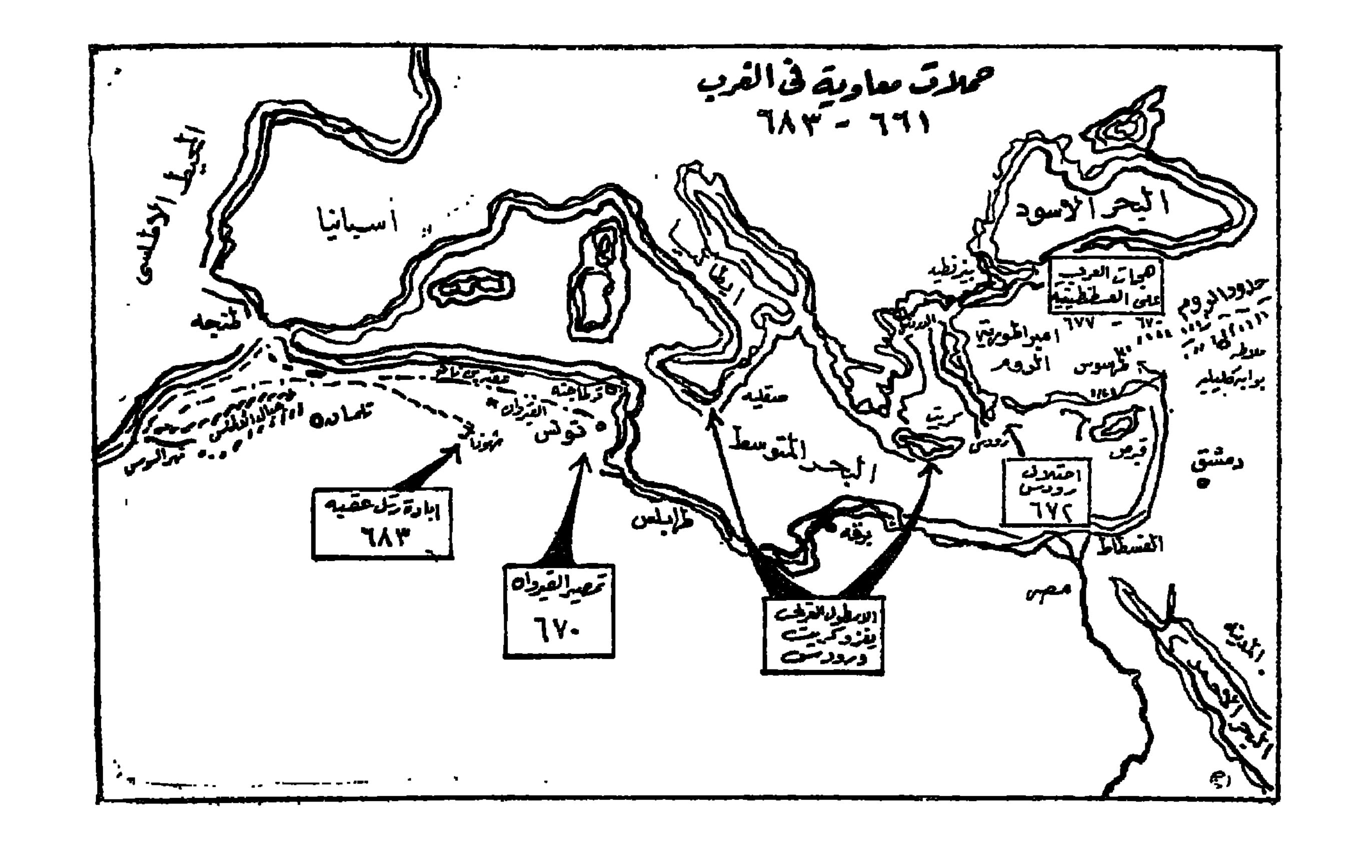
صمودا ناجحا أمامهم ، وان وصلت جحافلهم الى أبواب فيينا فى أكثر من مرة ، ويبدو أن المسيحية لم تقر بعد اقرارا كافيا بما للبيزنطيين عليها من دين ٠

وأدى فشل معاوية فى هجومه العظيم على القسطنطينية الى انعاش المكانة الذاوية لامبراطورية الروم ، والى التخفيف من حدة الرعب الذى كان ينشره اسم العرب فى كل مكان ٠ وقد قدر للحروب الاهلية أن يستعر أوارها مرة ثانية بعد وفاة معاوية التى حدثت بعد فترة قصيرة من هذه الوقائع ، وذلك بين البطون المتنافسة من قريش كما قدر لوطأة القوة العربية المقاتلة ، ان تتحول من جديد عن الفتوحات الخارجية الى الصراع بين الاخوة والاشقاء ٠

***

لقد جانبنا السياق التاريخى المتزمت فى حديثنا عن العمليات العربية الحربية ضد القسطنطينية فى عهد معاوية ٠ فلقد بدأت خلافة معاوية فى عام ٦٦١ واستمر حصار القسطنطينية من عام ٦٦٨ أو ٦٧٠ حتى عام ٦٧٧ تقريبا ، ثم توفى معاوية فى عام ٦٨٠ ، وأرى أن نعود الآن الى بداية عهده ، لندرس الحملات الفعالة الاخرى التى شنت ابان خلافته التى استطالت عشرين عاما ٠

واجه معاوية فى بداية حكمه المشكلة التى واجهت أكثر من مرة فى غضون الخمسين عاما المنصرمة واضعى الخطط السوقية البريطانية ٠ وتتمثل هذه المشكلة فى الصراع بين أنصار الجبهة الرئيسية وبين أنصار المعارك الجانبية ٠ أو الصراع بين خط العمل المباشر واللامباشر ٠ ففى أصول السوقية والتبعية يميل الجندى دائما الى المغامرة بكل شىء فى الهجوم على الموقع الرئيسى للعدو ، لان احتلال هذا الموقع يؤدى الى انهاء الحرب بضربة واحدة قاضية ٠ ولكن لما كانت الحقيقة تنص على أن خسارة هذا الموقع ستعنى الكارثة بالنسبة الى العدو فان من المفروض أن تكون مقاومته عنيفة الى حد اليأس ، يضاف الى هذا أن المهاجم اذا قامر بكل شىء فى هجومه على هذا الموقع ، ثم لم يقدر له النجاح فانه قد لا يجد بعد ذلك القوة اللازمة للهجوم ثانية ، اذ أنه يفقد الحافز على هجومه ويضيع الامل بالنصر الى الأبد ، مع دفعه ثمنا باهظا من الخسائر ٠ أما اذا اتبع السبيل الثانى ووضع قوة تغطية أمام الموقع الرئيسى للعدو ، ثم حول جهوده الى الأجنحة والى عدة مشاريع فرعية ٠ فانه يستطيع على المدى الطويل أن ينهك طاقة العدو على المقاومة ٠ على أى حال ، لن يؤدى صد


حملات معاوية في الغرب
٦٦١ - ٦٨٣
المحيط الأطلسى
أسبانيا
طنجة
تونس
القيروان
طرابلس
برقة
صقلية
ايطاليا
البحر المتوسط
البحر الأسود
بيزنطية
امبراطورية الروم
كريت
رودس
قبرص
دمشق
الفسطاط
مصر
المدينة
البحر الأحمر
حدود الروم
حملات العرب على القسطنطينية
٦٧٠ - ٦٧٧
احتلال رودس
٦٧٢
الأسطول العربى يغزو كريت ورودس
تعمير القيروان
٦٧٠
إبادة رجل عقبه
٦٨٣

أى من هذه العمليات الفرعية الى وقف الهجوم • وقد تؤدى هذه الهجمات التى يقصد منها سبر أغوار قوة العدو اذا نجحت الى استغلال ناجح لها . ويمكن الافادة من المـزية التى تتحقق عن طريق اظهـــار نقاط الضعف عند العدو لتحطيمه .

وهكذا لو أن الجهود والدروع التى صرفت فى هذه الهجمات الجزاف التى شنها العرب على أسوار القسطنطينية قد صرفت فى مكان آخر ، لكانت كافية لاحتلال ايطاليا وأسبانيا وفرنسا أيضا • وصحيح أن العرب قد تمكنوا من احتلال أسبانيا بعد نحو من أربعين عاما الا أن الحماسة الفطرية العربية كانت قد ضعفت فى ذلك الحين ، ولم يعد اسم العرب يرعب العالم ، أما فى عام ٦٦١ فان شهرتهم كانت لاتزال مرعبة ، ولم يكونوا قد هزموا بعد فى أية معركة ، ولو احتل العـرب فى ذلك الحين ايطاليا وأسبانيا وفرنسا فان القسطنطينية ماكانت لتستطيع الصـمود والبقاء •

***

ويذكر القارىء أيضا أن عمرو بن العاص كان قد أوفد عندما احتل مصر أول مرة ابن اخته عقبة بن نافع الى الجنوب للاغارة على بلاد النوبة والسودان حيث لم يحقق الا نجاحا ضئيلا. وعندما ذهب عمرو الى مصر أميرا لها فى عهد معاوية فى يوليو (تموز) عام ٦٥٨ أخذ معه اليها عقبة ثانية • وكان هذا فارسا مغوارا وبطلا مقداما • لا يترك وسيلة الا واتبعها بحثا عن مغامرة جديدة تكون أكثر خطورة من سابقتها • وتوفى عمرو فى مصر عام ٦٦٣ ، ولكن عقبة ظل يلحف على الساطات ان تبعث به فى حملة تمكنه كما يقول الاصطلاح العسكرى الحديث من القيام بخدمة عسكرية فعلية ، ويبدو أن معاوية قد وافق أخيرا على تعيين عقبة قائدا للجيش فى شمال افريقيــا ، وكان الروم لا يزالون يحتلون قرطاجنة بينما كانت حدود السيطرة العربية الفعلية تنتهى فى برقة ، وتقدم عقبة حتى وصل الى تونس التى تبعد نحوا من ألف وخمسمائة ميل عن قاعدة العـــرب الاساسية فى الفسطاط • وكانت جيوش العـــرب قد وصلت الى هذه المنطقة فى المرة الماضية ، ولكن افتقارهم الى قاعدة أقرب من الفسطاط فى مصر كان يضطرهم فى كل مرة الى التخلى عن فتوحاتهم (١) • وقد

---

(١) يذكرنا هذا المد والجزر قبل توطيد أقدام الحكم العربى فى شمال افريقيـا بصعوبة المواصلات التى عانيناها فيها ابان الحرب العالمية الثانية . فلقد اعتمد الجيش البريطانى كجيش عقبة على قاعدة مصر ، ثم تقدم الى برقة ليضعفه طول المواصلات مما شجع الالمان على شن هجومهم المضاد واخراج الالمان منها ، وتقدم رومل الى العلمين متخذا من طرابلس قاعدة له فطالت مواصلاته وهزم لعين السبب أيضا . المؤلف

أدرك عقبة وكان محقا فى ادراكه ، أن توطيد أقدام العرب فى افريقيا ، لن يتم الا اذا أقيمت قاعدة عسكرية صالحة فى المنطقة وفى وسع الارتال والسرايا أن تخرج من قاعدة كهذه لغرض الاستقرار فى المناطق المجاورة كما تكون هذه القاعدة مركزا لحكم اقليمى ثابت الدعائم ٠

واختار عقبة تحقيقا لهذه الغاية فى عام ٦٧٠ منطقة صحراوية تقع الى الجنوب من قرطاجنة ، ورسم فيها مسجدا ومنزلا للأمير الحاكم ، وأقام حولها قاعدة للجيش وهكذا بنيت القيروان القاعدة الجديدة التى قدر لها أن تغدو فيما بعد مدينة عظيمة ومشهورة ، وتقع القاعدة الجديدة على بعد بضعة أميال من الساحل ٠ ولهذا كانت بالنسبة الى العقل العربى أكثر صلاحا من قرطاجنة الواقعة على شواطىء البحر المتوسط والمعرضة دائما للغارات البحرية ٠ وهكذا أصبحت القيروان قاعدة جديدة كالفسطاط والكوفة والبصرة تعتمد عليها الجيوش العربية فى السيطرة على المناطق المجاورة ٠

وكان عقبة رجلا مستقيما فصيح القول محبوبا من رجاله نزيها شريفا،ولكنه كان يفتقر الى الكياسة والدبلوماسية، وكان البربر لا أفراد الحاميات البيزنطية المعزولة هنا وهناك هم المدافعون حقا عن افريقيا ، وكان هؤلاء الناس يظهرون استعدادهم لاعتناق الاسلام فى كل مرة يظهر فيها العرب أقوياء ٠ ولكن فى كل مرة كان العرب ينسحبون أو يمضون فى طريقهم ، يعدل البربر عن اسلامهم ويرتدون ٠ ونحن نذكر أن النبى كان يلين مع المشركين ولكنه يقسو على المرتدين ويعتبرهم جديرين بالموت ٠ وكان عقبة بعقله البسيط الساذج يرى هذا الرأى نفسه بالنسبة الى البربر ويبدى عزمه على عقاب المرتدين بالموت ٠

ولا تحدثنا السير والتواريخ عن الاسباب التى دعت معاوية الى عزل عقبة بعد انشائه القيروان ، والى اعادة الحاق برقة التى كانت قد غدت امارة قائمة بذاتها فى عهده بمصر ، ولا يسعنا الا أن نفترض بأن بعض التقارير غير المرضية ، وصلت الى معاوية عن طريق عقبة فى ادارة البلاد، وكان معاوية قد عين مسلمة بن مخلد أميرا لمصر ٠ وقد أرسل هذا مولى له يدعى أبو المهاجر ليتسلم الزمام من عقبة ٠ ومن المحتمل أن يكون عقبة الذى استثير قد رفض تسليم منصبه الى أبى المهاجر ، ومن المحتمل أيضا أن يكون معاوية نفسه هو الذى أصدر أوامره بعزل عقبة ٠ وكل ما نعرفه أن أبا المهاجر ، أودع عقبة السجن عند وصوله ، ولا ريب فى أن هذا التحول الفجائى من قائد عام الى سجين فى القيود يشبه الى حد ما عمليات

التطهير الشيوعية فى عصرنا الحاضر . (١)

وقد دار الصراع كما قلت سابقا بين ثلاثة عناصر فى شمال افريقيا .
أولها الروم وثانيها البربر وثالثها العرب ، وكان كل منها يؤلف مجموعة قائمة بذاتها . ويقال ان أساليب عقبة الاستبدادية فى الحكم أثارت البربر ودفعتهم الى التحالف مع الروم . فلما جاء أبو المهاجر ، اتبع سياسة التقرب اليهم والتحالف معهم ضد الروم ، وقد حقق فى سياسته هذه نجاحا كبيرا ولاسيما فى قضية كسيلة زعيم البربر الكبير . وتمكن أبو المهاجر بمساعدة البربر من احتلال القسم الأكبر من المنطقة المحيطة بقرطاجنة . دون أن يتمكن من احتلال المدينة نفسها التى استبسل الروم فى الدفاع عنها . وعندما تأكد القائد العربى من سلامة مواصلاته بفضل تحالفه مع البربر راح يتقدم بقواته حتى وصل الى تلمسان القريبة من الحدود الحالية بين الجزائر والمغرب .

وهكذا تتضح لنا تمام الوضوح الصورة العامة للعمليات الحربية فى شمال افريقيا فى هذه الآونة . فلقد كان الروم يحتلون عدة نقاط على الساحل ويتلقون العون لها من القسطنطينية عن طريق البحر . ولم يكن فى وسع هؤلاء أن يقاتلوا العرب فى معركة مكشوفة الا اذا ضمنوا معونة البربر لهم . وكان فى وسع العرب عادة اذا بعثوا بجيش الى المنطقة أن ينتصروا على الروم والبربر معا فى أية معركة . ولكن مشكلة العرب لم تكن فى كسب المعارك ، بل فى استتباب الأمن فى البلاد . ويبدو أن عقبة قد فشل فى حل هذه المشكلة . والمسافات طويلة للغاية فى افريقيا بحيث عندما تمضى الجيوش العربية قدما فى زحفها الى

---

(١) تشبيه في منتهى السخف ، وليس له اى داع ، الا الرغبة المكارثية السائدة عند كثيرين باتهام الناس بالشيوعية . ولو كانت هناك شيوعية قبل معاوية بن أبى‌سفيان لما تورع المؤلف عن اتهامه بالشيوعية . ولا ادرى من أين جاء المؤلف بقصة « سوء ادارة » عقبة فليس في تواريخ العرب ما يدل على ذلك ، بل هناك ما يدل على العكس ، فقد روى الواقدى ما نصه : « وكان ابن نافع رجلا صالحا مستجاب الدعوة ، فدعا ربه فأذهب ذلك كله . حتى ان السباع لتحمل اولادها هاربة بها » ولا يمكن للرجل الصالح أن يتهم بسوء الادارة ولعل التفسير الصحيح لعزل عقبة هو أن مسلمة بن مخلد ، أمير مصر الجديد أراد أن يعين مولاه أبا المهاجر في منصب كبير ، فلم يجد الا امارة افريقيا التابعة له فعزل عقبة عنها وولى أبا المهاجر ، ولعل خير ما يؤيد هذا الاستنتاج عودة عقبة الى الشام وعتابه لمعاوية من معاملة أبى المهاجر ، واعتذر معاوية ووعده باعادته الى منصبه ، وهو وعد لم يتحقق لان معاوية توفي بعده بقليل .

(العرب)

الامام ، تتاح الفرصة للبربر للثورة فى مؤخرتها وقطع مواصلاتها ، ويبدو أن عقبة اتبع طريق العنف والغارات الثأرية لمعالجة هذا الوضع بينما جاء خلفه أبو المهاجر فاتبع طريق التفاهم . والبربر شعب عنيد ومازالوا حتى يومنا هذا وعلى الرغم من انقضاء ألف وثلثمائة عام على أيام عقبة ، وأبى المهاجر ، يحتفظون بطابعهم الخاص ولغتهم.(١)

وكان عقبة قد عاد فى غضـون ذلك الى دمشق ، وتوفى معاوية عام ٦٨٠ ليخلفه ولده الطائش يزيد ، وقد أقتنع هذا باعادة عقبة الى امارة افريقيا وأعاده اليهـا فى عام ٦٨١ . والثأر عنـد العرب للاساءة أمر مستملح . وقد ذاق عقبة حلاوته بوضع الاصفاد فى يدى أبى المهاجر ، وجره منها وراءه حيثما ذهب . وسرعان ما اختفى كسيلة زعيم البربر الذى تعاون مع أبى المهاجر ، فى بطن الصحراء بينما اتجه عقبة على رأس جيشه انسياقا منه وراء طبيعة المحـاربة الى الغرب . فاجتاز منطقة الجزائر كلها ، ودخل منطقة المغرب (مراكش) التى كانت تعرف آنذاك باسمها الرومانى «موريتانيا» واحتلّ طنجة ، ولم تكفه فتوحاته هذه بل نزل مع السـاحل المغربى على الاطلسى حتى وصلَ الى السوس التى تلتقى مع المحيط عند ميناء أغادير الحديث .

ومهما اتصف عقبـة بالغطرسـة والبعد عن الكياسـة فى الشئون السياسة الا ان مزاياه كجندى محـارب تفرض الاحترام ، ويبدو أنه زحف مسـافة الالف والخمسمائة ميل من القيروان الى أغادير ، دون أن يجرؤ احد على مقاومته ، ولا ريب فى أن هذه العملية التى كانت تفتقر الى الموصلات المنظمة والى التموين والى القاعدة العسكرية هى أقرب الى الغارة البدوية الضخمة منها الى الفتح الاقليمى ، لكن التوغل مسـافة الف

---

(١) يحاول المؤلف هنا جريا على المألوف الاستعمارى اظهار الفرقة بين العـرب والبربر في المغرب العربى ، وهى فرقة غذاها الاستعمار الفرنسي طيلة وجوده فى اقطـار المغرب الثلاثة ، اذ حاول أن يجعل من البربر أقليـة مميزة . وعلى الرغم من انصياع بعض الزعماء الاقطاعيين المرتبطين بالاستعمار الفرنسي الى رغبته وتعاونهم معه . كما تعاون الزعمـاء الاقطاعيون وممثلوا الرجعيـة في المشرق العربى مع زميله الاسـتعمار البريطانى الا أن جماهير البربر في افريقيا كانت شديدة الضراوة في مقاومة الاستعمار كأخوانهم الآخرين يضاف الى هذا أن التاريخ اثبت أن البربر هم من العرب . وقـد جاءوا من قبائل عربية هاجرت الى الشمال الأفريقى قبل الاسلام بقرون طوال ، ولعـل عزلتهم عن العرب هذه القرون قبل الفتح الاسـلامى هى التى اوجـدت الفروق اللغوية التى يشير اليها المؤلف -

(المعرب)

وخمسمائة ميل فى أرض مجهولة معــــادية لم يكن بالعمل المفتقر الى الشجاعة ، والاحتمال • وتقول الروايات ان عقبة ركب حصانه عندما وصل الى ساحل الاطلسى ومضى يخوض الماء ويقول وسيفه مشرع فى يده «يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدا فى سبيلك » •

ويبدو ان النصر العظيم الذى حققه هذا القائد بمغامرته الجريئة ، قد جعلت منه انسانا مغرقا فى الثقة بنفسه ، فقد شرع الآن فى العودة الى الشرق ، وقد تولد لديه الانطباع بأنه قضى على كل مقاومة ، ولذا فقد جزأ جيشه الى عدة ارتال أخذت تذرع الارض نهبا وسلبا ، وغايتها فرض النظام على البلاد ، وهى مهمة كان من الواجب عليه أن يقوم بها قبل التوغل مثل هذه المسافة البعيدة • ويحتمل أن يكون افتقــــاره الى العطف على البربر قد جعل من المتعذر عليه الحصول على أية معلومات عن حركات البربر او أن يكون اعتداده المغالى بنفسه قد حمله على اهمـــال هذه الناحية •

ويكفى أن نقول ان البربر نصبوا للقوة الصغيرة التى كان يقودها بنفسه كمينا عند تهوذا القريبة من مدينة بسكرة الحالية ، وذلك بقيادة كسيلة زعيم البربر ، وظل عقبة ورجاله يحاربون حتى قتلوا عن بكرة أبيهم ، وبينهم أيضا أبو المهاجر المسكين ، الذى قتل وهو فى أصفاده ؛ وقد حدثت هذه النكسة المفجعة فى عام ٦٨٣(١) •

وما كادت أنباء الكارثة تذاع ، حتى نشبت ثورة عامة اشترك فيها البربر فى كل مكان واضطر العرب الى الجلاء عن جميع المنـــاطق التى

---

(١) يتجاهل المؤلف هنا قصة تشير الى اخلاص العرب لقضيتهم وايمانهم بهـــا برغم كل شيء فلقد ذكر المؤرخون العرب أن عقبة وصل الى تهوذا على رأس نفــر يسير فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه . فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه . وكان في الجيش كبير في البربر اسمه كسيلة ، كان قد أسلم في أيام أبا المهاجر . فلما جاء عقبة ، وأساء الى أبى المهاجر ، استخف بكسـيلة هذا وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر (برغم ما لحقه من سوء) أوثق الرجل فانى أخافه عليك منه ، فتهاون به عقبة . فلما رأى الروم قلة من مع عقبة ، راسلوا كسيلة في أن ينضم اليهم ، فقبل وجمع أهله وبنى عمه . وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر ، عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة على كسيلة ، فتنحى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ، ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوهم جميعا ، وكان في القيروان قيس بن زهير البلوى خليفة لعقبة . فأراد القتال فلم يطعه الجيش . فاضطر الى مبارحة القـيروان والمسير الى برقة والمقام بها . أما كسيلة فانه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الانفال والدرارى من المسلمين واستولى على افريقية .

(المعرب)

فتحها عقبة وبينها القيروان أيضا • وعادت برقة الحد الفاصل للسيطرة العربية فى افريقيا ، ولكن عقبة جعل من فتح العرب لافريقيا شـــيئا محتوما ، اذ أن التاريخ أقام الدليل المرة تلو المرة ، على ان مثـــل هذه النكسات لا تؤثر على قوة عسكرية مازالت فى دور النمـــو والحيوية • فالتصميم على استعادة الهيبة التى تفقد فى النكسات ، يجعل من اعادة الاحتلال أمرا حتميا •

***

سبق لى ان ذكرت ان الاسطول العربى فى عهد معاوية ، أغار أكثر من مرة على جزيرة صقلية ، وتقول رواية غريبة أن المغيرين حملوا معهم ذات مرة • «أصناما» من الذهب والفضة مرصعة باللآلىء • ولعل من المهم أن نشير الى ماطرأ على العقلية العربية من تغيير بأن نقول ان الخليفة بدلا من أن يحطم هذه الأوثان بعث بها الى الهند حيث ظن أن بيعها هناك قد يأتى له بثمن أفضل من أى مكان آخر •

واستولى أسطول عربى فى عـــام ٦٧٢ على جزيرة رودوس وأمر الخليفة باقامة جالية عربية فى الجزيرة ، التى استعملها العرب قاعدة أمامية للهجوم على القسطنطينية ، وكذلك قاعدة تهاجم منهـــا المراكب العربية تجارة الروم فى البحار ، وظلت الجزيرة فى أيدى العرب ثمانى سنوات ثم عادوا فتخلوا عنها بعد وفاة معاوية ، وشن العرب كذلك غارة على جزيرة كريت ، ولاريب فى انها كانت جزءا من العمليات الحربية ضد الروم •

وعلى الرغم من اتساع العمليات التى جرت فى عهد معـــاوية فى الغرب ، ومن عمق أهدافها الا ان معظم ماحققته من تقدم كان موقوتا اذ ضاعت معظم المكاسب عند وفاته • ولاريب فى ان هذه النكسات انمـــا نجمت عن اتساع الميادين وعن فشـــل الحملة على القسطنطينية • ولو استخدمت القوة التى استنزفت فى القسطنطينية فى مكان آخر بعناية وحرص ، لكان فى امكان العرب أن يثبتوا أقدامهم فى شمال افريقيا ، وكذلك كما سبق لى ان ذكرت فى ايطاليا واســـبانيا • ومع ذلك كان العرب البدائيون قد تمكنوا قبل عشرين عاما وفى خلافة عمر بن الخطاب من تحطيم امبراطوريتى الروم والفرس فى ان واحد • وهكذا فان التقدم على جميع الجبهات أصبح شيئا مألوفا لديهم ، ولم يعد العرب فى أيام معاوية قطعانا من البدو الأفظاظ بل أصبحوا يحكمون امبراطورية ذات

حضارة ، لكن الحماس الطاغي الذى شهدته سنوات الفتح الاولى لم يعد يقودهم اما الى النصر أو الى الجنة •

وهناك سبب آخر أدى الى عدم الافادة من عمليات معاوية الحربية فى الغرب • فلقد أسفرت الغارات الكثر التى شنت فى عهده فى البر والبحر الى اضعاف كل مقاومة • فمهما حدث من نكسات فى افريقيا ، فقد كان فى مكنة العرب أن يبعثوا بقوات جديدة وأن يستعيدوا كل مايفقدونه من أراض • ولو عاش معاوية أطول مما عاش لاحتفظ العرب برودس ولاحتلوا صقلية احتلالا نهائيا • ولكن قدر للعرب أن يعودوا الى التفرق بعد وفاته والى محاربة بعضهم بعضا فى حرب أهلية دامت اثنى عشر عاما ، توقف ابانها كل توسع نحو الغرب ، وهكذا ضاعت ثمرة عمليات معاوية الحربية قبل أن يستأنف الهجوم فى عام ٦٩٠ •

***

واذا كانت عمليات معاوية الواسعة فى الغرب قد انتهت الى نتائج غير ملموسة فان هذا لايصدق بالنسبة الى عملياته فى الشرق • فلقد كان له فى العراق قائدان عظيمان أولهما المغيرة بن شعبة ، القائد الخشن المتميز بالحيوية والشخصية القوية ، ولم يكتف كأمير للكوفة فى عهد معاوية بفرض الامن والاستقرار فى ذلك المجتمع الكثير الفوارق بل دفع جيوشه الى فتوحات جديدة فى شمال فارس • أما القائد الثانى فزياد بن أبيه الذى أصبح يدعى الآن زياد بن أبى سفيان ، وهو الامير الذى اختاره معاوية للبصرة والذى امتاز بالذكاء الذى يفوق ذكاء المغيرة ، وقد تولى زياد قيادة الجيوش العربية فى جنوب فارس ، وتعاون القائدان تعاونا وثيقا ورائعا ، ومات المغيرة عام ٦٧٠ ، وكان معاوية قد قضى نصف الوقت المقدر له خليفة على المسلمين ، وعندما اختار الخليفة زيادا لامارة الكوفة بالاضافة الى البصرة ، نقل هذا مقر قيادته اليها وأصبح مسئولا عن جميع العمليات فى فارس كلها •

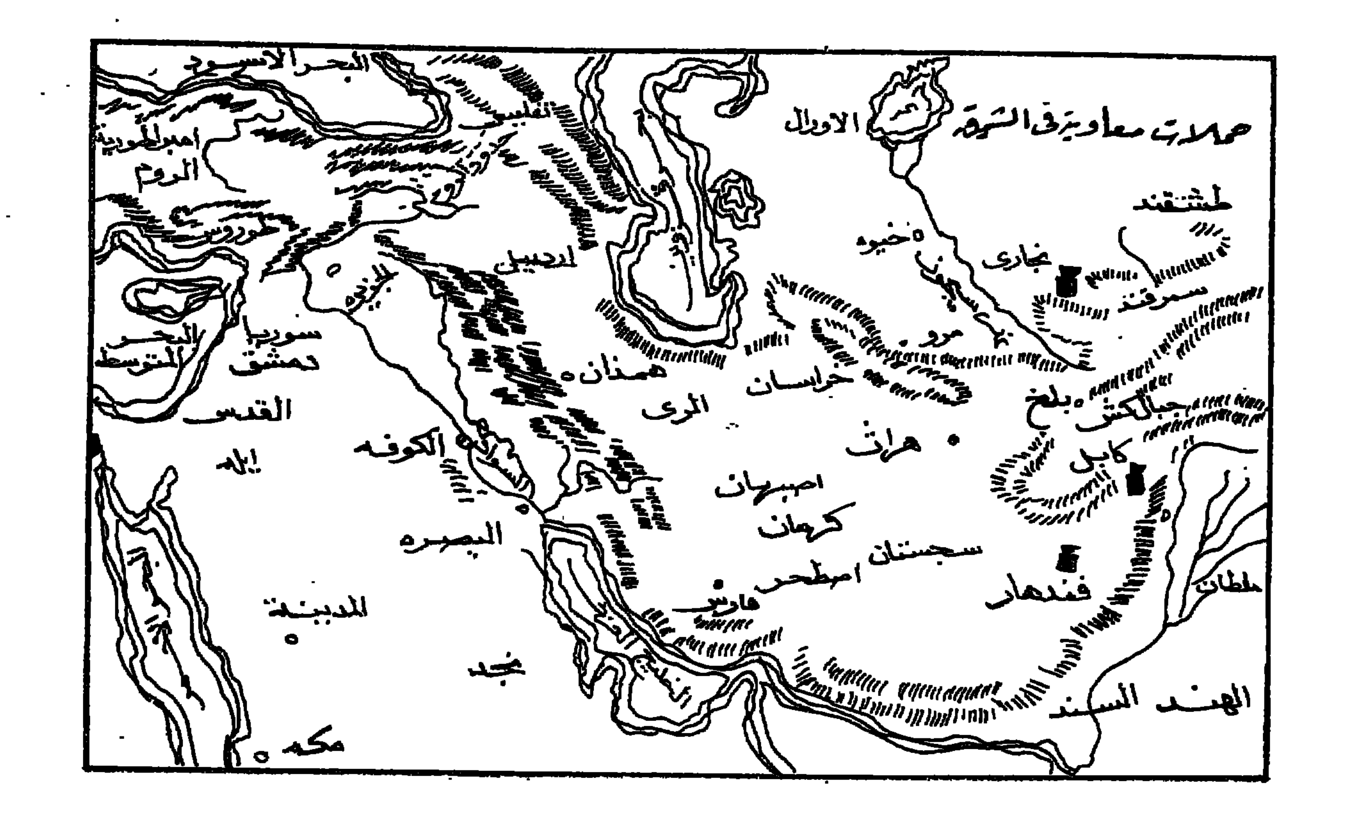
وكان العرب قد وصلوا الى كش (هندكوش) أيام خلافة عثمان ولكن حكمهم فى تلك المنطقة التى أسماها العرب سجستان لم يستقر مطلقا ولكنهم عادوا الى التقدم شرقا فى عهد معاوية فوصلوا الى كابل التى حاصروها ، وتمكن العرب عن طريق مجانيقهم من فتح ثغرة فى الاسوار ، اندفعوا منها يشنون هجوما على المدينة لاقتحامها ولكنهم فشلوا فى تحقيق غايتهم • وعندما طلع صباح اليوم التالى تشجع حماة المدينة بدحرهم للهجوم العربى فى اليوم السابق ، ففتحوا أحد الابواب

وخرجوا منه يشنون هجوما مضادا على العرب يتقدمهم أحد الفيلة الذى أصابه فارس عربى بجراح • وقد فشل الهجوم المضاد واضطر حماة المدينة الى الانسحاب ، ولكن الفيل الجريح سقط فى بوابة المدينة مما أدى الى تعذر اغلاقها والى اقتحام العرب للمدينة فوق جثة الفيل ، وقد ثارت كابل مرتين فى عهد معاوية ، ولكن الثورة كانت تخمد فى كل مرة ، ويعود العرب الى تثبيت أقدامهم فيها ، وقد أقامت جاليات عربية فى أنحاء متفرقة من خراسان وسجستان ، كما جند الخراسانيون كمتطوعين للدفاع عن المضايق الجبلية فى جبال طوروس ضد الروم •

ومات زياد بن أبيه عام ٦٧٣ واختار معاوية ولده البالغ الخامسة والعشرين من سنه ، عبيد الله بن زياد أميرا على خراسان • وعبر عبد الله نهر سيحون فى عام ٦٧٤ على رأس قوة قوامها أربعة وعشرون ألفا ، حاصر بها مدينة بخارى التى كانت تحكمها خاتون زوجة خاقان الترك الكبير ، واضطرت خاتون الى مصالحة عبيد الله مقابل دفع الجزية ، ونقل عبيد الله فى عام ٦٧٦ أميرا على البصرة ، وخلفه فى امارة خراسان سعيد ابن عثمان بن عفان • ونقضت بخارى العهد وثارت على العرب • ولكن سعيدا عاد فقطع نهر سيحون من جديد على رأس جيش أعاد احتلال المدينة لينتقل منها الى سمرقند ، ودارت معركة عنيفة خسر فيها سعيد احدى عينيه ، ولكنه تمكن من اخضاع المدينة وفرض الجزية عليها •

وتقلص حكم العرب وراء النهر ابان فترة الحروب الاهلية التى تلت وفاة معاوية تماما كما حدث فى الغرب • ولكن العرب عادوا الى التوسع من جديد بعد انتهاء هذه الحروب ، وهكذا انتشر الاسلام الى تركستان واوزبكستان اللتين تؤلفان الآن جمهوريتين من جمهوريات الاتحاد السوفياتى ، وقد أثمرت هذه الفتوحات وجود نحو من عشرين مليونا من المسلمين فى روسيا السوفياتية •

ووصل العرب فى الجنوب الى منطقة تقع حول البنة ولاهور (بانو ولاهور) وهى فى منتصف الطريق بين كابل وملتان (مولطان) واحتلوا فى الوقت نفسه قندهار ، وكانت سرية استطلاع عربية قد وصلت فى أيام خلافة عثمان بعد عبورها مكران الى حدود الهند ، ويبدو أن قائد السرية قد حمل صورة سيئة عن تلك البلاد اذ وصفها للخليفة عثمان الذى سأله عن أحوالها بقوله : «ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل • ان قل الجيش فيها ضاعوا ، وان كثر جاعوا » وأدى هذا الوصف الى تحريم عثمان على الجيوش العربية أى تقدم عبر صحراء مكران



حملات معاوية في الشرق
الاورال
طشقند
خيوه
بخارى
سمرقند
مرو
جبال الكش
بلخ
كابل
هراة
خراسان
الري
همذان
اردبيل
تفليس
البحر الاسود
الروم
طوروس
سوريا
دمشق
البحر المتوسط
القدس
ايلة
الكوفة
البصرة
اصبهان
كرمان
سجستان
اصطخر
فارس
قندهار
ملطان
الهند
السند
المدينة
نجد
مكة

التى يسميها العرب بلاد القيقان ، وعندما جاء معـــاوية ألغى ذلك الامر فوصلت جيوش العرب فى امارة زياد بن أبيه الى السند والى دلتا النهر فيها • لكن فتح السند لم يكن قد كمل عندما توفى معاوية ، وقد قدر للحروب الاهلية العربية أن تضع نهاية لأى توسع لعدة سنوات قادمة •

ويتبين من هذا ان السنوات العشرين التى قضاها معاوية خليفة المسلمين امتازت بالنشاط الحربى الواسع ، وكانت هذه الفترة أيضـــا مرحلة انتقالية ، ففى خلافتى أبى بكر وعمر لم يكن هنـــاك تخطيط عسكرى من مقر القيادة العليـــا فى المدينة • وصحيح ان الخليفة كان يوافق على كل زحف أو حركة الى الامام ، ولكنه لم يكن يرسم خطة هذه الحركة ، وكانت الجيوش وحدها أو القبائل فى كل منطقة من المناطق هى التى تضج مطالبة بالاندفاع والزحف • ولكن كثيرا ما كان الخليفة يرفض الموافقة على تقدم جديد يلحف بطلبه القادة المحليون ، يضاف الى هذا أن الخليفتين الأولين لم يكونا مرغمين مطلقا على تأمين المـــال أو السلاح اللازمين للحرب ، بل كانا يطلبان من الجيوش المحاربة أن تبعث لهما بالمال ، وكانت كل حملة من الحملات تؤمن من الغنائم مايكفى لاعداد الحملة المقبلة بالاضافة الى مبلغ محترم يرسل الى المدينة •

ولكن عندما جاء معاوية الى الحكم كان قد انقضى على وفاة النبى نحو ثلاثين عاما ، ولم يكن قد ظل على قيد الحيـــاة من الصحابة الا نفر قليل طعن فى السن • وكان حماس الايام الاولى العنيف والعـــاطفى قد أخذ يسير فى طريق الذبول ، وأدى مصرع عثمان وماتبعه من حرب أهلية بين على ومعاوية الى الكثير من خيبة الامل • يضاف الى هذا ان جمع المـــال والرقيق والجوارى أدى الى انحلال فى الاخلاق وضعف فى النشـــاط والحيوية • وقد ترهل فرسان العرب الفارعو الاعواد والصلبو الشكيمة ، واصبحت لمعظمهم كروش كبيرة ، وأضحى معـــاوية فى أخريات أيامه مترهلا بحيث وجد نفسه مضطرا الى الجلوس على المنبر عندما كان يخطب الناس •

ولقد كان وقع الفتوحات العظيمة هائلا الى الحد الذى دفع الفاتحين الى اجتياح كل ما أمامهم دون مقاومة ، ودون تنظيم أو رواتب أو خطط أو حتى أوامر •• ولاريب فى ان هذه الفتـــوحات تعتبر نذيرا للشعوب المتقدمة تقنيا فى عصرنا هذا والتى تعتمد فى الدفاع عن أنفسهـــا على التقدم العلمى بدلا من المعنوية الانسانية ، أما وقد أقيمت الامبراطورية العظيمة ، فقد أصبحت فى حاجة ماسة الى التنظيم • ولم يكن عدد العرب

الأقحاح القادمين من الجزيرة العربية كافيا لاجتياح العالم ، وأصبح من الضرورى تجنيد غير العرب ، كأبناء خراسان مثلا للقتال فى الغرب ، وتحتم استخدام نصارى الشام وأقباط مصر فى الأعمال الحكومية ، ونقل الهنود مع جواميسهم من السند الى دلتا الفرات ودجله • ونقل الفرس من مقاطعة فارس الى انطـــاكية ، ولم يكن فى وسع امبراطورية متعددة الأجناس يدين رعاياها بديانات مختلفة أن تؤلف شعبا واحدا منســـجما ومخلصا له معنوياته القوية كالشـــعب الذى اندفع من الجزيرة العربية قبل نحو من ربع قرن •

وهنا أخذ معاوية على عاتقه مهمة تنظيم هذه الامبراطورية • ونحن نسمع فى عهده لاول مرة عن وجود قوات للشرطة فى الكوفة والبصرة ، مما يشير عادة الى وجود ادارة متحضرة ، وأصبح القضاة ومديرو الخزانة وقادة الشرطة يعينون الآن فى الامصار تماما كما يعين الامراء ، ودشن معاوية فى عهده أول خدمة للبريد • كما حاول تنظيم الشئون المالية • وان لقى فى هذا الامر صعوبة فائقة من جراء الحقيقة الواقعة وهى ان موظفى الخزانة فى مصر كانوا يكتبون حساباتهم بالقبطية ، وفى سوريا بالاغريقية وفى المناطق الفارسية القديمة بالفارســــية ، وغدت مشكلة اللغة فعلا مشكلة ملحة • ولعل من أهم الأسباب التى أدت الى نجاح زياد ابن أبية فى عمله كأمير للعراق تحمله عناء تعلم الفارسية • فلقد أصبح لزاما على العرب اذا أرادوا الاحتفـــاظ بالسيطرة المطلقة على شـــئون امبراطوريتهم العظيمة أن يتعلموا • لكن البدو ظلوا ينظرون الى التعليم على أنه شىء مخنث للنساء لا للرجال ، فمثلهم العليا فى الرجولة تتجسد فى الضرب بالسيف والرمح ، وفى الجود ، واكرام الضـــيوف واغاثة المحتاجين ، وكانوا يرددون دائما وهم على حق ، أن مزاياهم هذه هى التى فتحت هذه البلاد الشاسعة التى تؤلف الامبراطورية •

ولكن بينما كان الخليفة يواجه جميع هذه المشاكل كان عامة العرب يرفضون الاعتراف بان الاحتفاظ بالحماسة العنيفة التى حققت الفتوحات العظيمة بات متعذرا • وهكذا نرى عقبة بن نافع يندفع مســـافة ألف وخمسمائة ميل مجتاحا الشمال الافريقى كله ليصل الى ساحل المحيط ، فيندفع فيه بفرسه • وكان هذا القائد يرى متجاهلا أصول الدبلوماسية أو قواعد التنظيم أو الادارة والشئون المالية ، ان مهمة العربى اعلاء كلمة الله ونشرها فى عالم مشرك ، بقوة السيف ، أو سلطة الرمح ، مستخدما فى مهمته هذه الجمال أو الخيل ، وظلت موجة المد الخارجى مندفعة عبر

نهر سيحون الى سهوب آسيا الوسطى وعبر الممرات الجبلية فى سلاسل هندوكوش الى الهند حاملة معها هتاف «الله أكبر» دون أن تدرك ان الزمن قد تغير ، وان الحفاظ على الفتوحات التى تحققت يتطلب التنظيم والادارة والجهازين القضائى والمالى ، وقد أدى الافتقار الى مثل هذا الاساس التنظيمى الى ضياع هذه الفتوحات المرة تلو المرة ، دون أن تتوطد اقدام العرب فيها الا بعد أن تم لهم بناء الجهاز الحكومى الفعال •

وكان عهد معاوية فترة انتقال من ناحية أخرى أيضا ، ولعل القارىء يذكر ان الهدف الذى وضعه عمر بن الخطاب نصب عينه ، اقامة عنصر عربى متفوق متخصص فى الحكم والحرب يعيش منعزلا فى القواعد العسكرية الكبيرة التى أقيمت له فى مختلف الامصار بعيدا عن الاختلاط بالشعوب المحلية • وكان دور الشعوب المحتلة فى هذه الامبراطورية العربية العمل وتأمين الدخل اللازم لنفقة الحكومة ونفقات الجيوش العربية • وقد حظر عمر على العرب امتلاك الارض رغبة منه فى الحفاظ على هذا النظام(١) •

وعندما جاء معاوية الى الحكم فى عام ٦٦٠ ، اخذ النظام الذى وضعه عمر يسير فى طريق الزوال شيئا فشيئا ، فلقد شرع العرب فى تملك الاراضى الواسعة فى منطقة البصرة أو فى مناطق فارس • ولقد سبق لى أن أشرت الى أن عمرو بن العاص كان يملك مزرعة فى منطقة بئر السبع • ومن المحتمل أن يكون عدد العرب الذين استوطنوا مصر أقل منهم فى

---

(١) رسم المؤلف هنا صورة مضللة كل التضليل للحكم العربى في عهد الخلفاء الراشدين اذ صور هذا الحكم تصويرا نازيا يمثل « النظام الجديد » الذى اختاره هتلر لاوربا فالعرب شعب سيد ومتفوق وواجب الشعوب المحتلة العمل لتامين الغذاء والمال للشعب السيد وحكومته . حقا انها صورة مضللة كل التضليل فعمر بن الخطاب سار في حكمه كما يعترف المؤلف نفسه على هدى القرآن الكريم ، وسنة رسول الله (صلعم) وكان متمسكا أشد التمسك بأحكامهما . والدين الاسلامي يقول صراحة ، ودون اية مواربة : « أن لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » ومن هنا يعدم ادعاء التفوق العنصرى ، وانما هناك تفوق في التقوى والصلاح والتدين : وكان في مكنة غير المسلمين من أبناء سورية أو العراق أو مصر أو فارس من غير العرب طبعا أن يخلصوا من الجزية اذا اعتنقوا الاسلام وبذلك لا يبقى هناك تمييز للعرب عليهم . يضاف الى ذلك أن الجزية لم تكن تفرض على غير العرب بل على غير المسلمين . ومن هنا يتبين انها فرضت على القبائل العربية التى تدين بالنصرانية في سورية والعراق كبنى تميم واللخميين والغساسنة ، وعلى هذا تكون الصورة التى رسمها المؤلف مضللة كل التضليل .

(المعرب)

أى مكان آخر ، نظرا لأن ما امتازت به منطقـــة الدلتا من رطوبة لا يتفق مع أحوالهم الصحية لكن عدد الاقباط الذين تحولوا الى الاسلام أخذ فى التزايد ، مع مضى السنين ، وكان هؤلاء يصبحون بعد اسلامهم مساوين للعرب فاخذوا يحاولون ، تحقيقا لمطامحهم الاجتماعية ، أن يغدوا عربا فى كل شيء ، الى أن أصبح اسم الاقباط لا يطلق الا على المسيحيين . ومن هنا يصح القول بأن فكرة العرب كعنصر حاكم فاتح أخذت تضعف فى جميع ارجاء الامبراطورية شيئا فشيئا ، ولا سيما فى الامبراطورية المختلفة الاجناس التى حكمها الخلفاء والسلاطين (١)

***

وعلى الرغم من الخدمات العظيمة التى حققها معاوية للعرب فانه فشل فشلا ذريعا فى اختيار خليفة صالح لهم يقبلونه جميعـــا . وكانت مسألة الخلافة من المشاكل المعقدة للغاية التى واجهت الاســـلام منـــذ البداية ، وكان المبدأ الوحيد الذى أقربه العرب الى حد ما فى البداية هـو أن يختار الخليفة باجماع أهل المدينة . لكن عاصمة الامبراطورية انتقلت الآن من المدينة الى دمشق ، وتحولت الاولى الى مجرد بلدة اقليمية ، وهكذا لم تعد السابقة الوحيدة المعروفة والمقبولة سهلة التطبيق .

واذا كان ثمة من نظام معروف عند العرب ، فهو أن يختار الحاكم من أكثر اعضاء الاسرة الحاكمة كفاية ، فلقد كانت هذه هى الطريقة المتبعة فى اختيار رأس القبيلة ، ولكنها كانت تؤدى ايضا وفى أحايين كثيرة الى خصومات وصدامات مسلحة ، يضاف الى هذا ان الصراع الدامى بين بنى هاشم وبنى أمية كان لا يزال فى أوجه ، بحيث أن أية محاولة لاختيار خليفة من قريش كلها كانت ستؤدى حتما الى حرب أهلية . وكان من الواضح أن اتباع الاسلوب العصرى فى انتخاب على مستوى الامة كلهـا مستحيل فى مجتمع تسوده الامية ويتفرق ابناؤه على مثل هذه المنطقة الواسعة . على أية حال ، اعتقد أن الانتخابات العامة لا تصلح للعرب حتى اليوم لأنهم انفراديو الشخصية لا يخضعون طواعية حتى لقرارات الأكثرية فالديمقراطية الغربية لا تصلح مطلقا كشكل من اشكال الحكم

(١) رسم المؤلف صورة مضللة هنا ، اذ أراد أن يظهر أن كل من اعتنق الاســلام كان بدافع الانتهاز والتقرب من الحاكمين والتساوى بهم وهو قول خطأ كل الخطأ اذ لو صح دافع الانتهاز ، لانقلب المسلمون على دينهم في البلاد التى خضعت لغير الاسلام ، أو لتحول جميع الاقباط الى مسلمين طيلة ثلاثة عشر قرنا من الحكم الاسلامى .

(المعرب)

لشعب يصر على التمتع بحريته الشخصية بل تصلح للشعب المستعد للتضحية بجزء من حريته لمصلحة المجموع والنظام .

يضاف الى كل هذه التعقيدات ، أن معاوية كان يخشى ولا شك من أن يؤدى اختيار هاشمى للخلافة بعده ، الى أن يستهل هذا الهاشمى حكمه بازالة كل مرشح محتمل من الأمويين من الوجود . ولهذا رأى معاوية أن الاختيار يجب أن يظل محصورا فى بنى أمية ، بشرط أن يظهر اختياره بأنه اختار أفضل مرشح من قريش ولكنه اختار بدلا من ذلك ولده يزيد المعروف بالطيش والتنكر للدين .

وكان لهذا الاختيار سيئات عدة من وجهة النظر العربية . وأول هذه السيئات ان هذاالاختيار ، وعدهم بحاكم عاجز ، اذ أن شخصية يزيد كانت معروفة لهم جميعا ، وثانية هذه السيئات أن اختيار يزيد يهدد العرب باقامة نظام الملكية الوراثية وهو نظام يتناقض مع الروح العربية القديمة ومع الاحاسيس الدينية الاسلامية . وكان لعوامل الغيرة الجغرافية أثرها أيضا . فلقد نقمت المدينة على الحكم بسبب نقل العاصمة الى دمشق . وكان فيها المرشحون الصالحون الذين يستطيعون اقامة مركز الخلافة فى مدينة الرسول ثانية . وكان على فى عهده القصير قد جعل من الكوفة عاصمة له وكانت هذه المدينة المتقلبة الجياشة بالفتن لا تزال تحلم بأن تصبح عاصمة الامبراطورية . واخيرا كان المسلمون الصادقون الواعون لا يزالون يعتبرون الخليفة أمير المؤمنين والخليفة المقدس لرسول الله ، ولذا كانوا يطلبون منه ان يكون متفوقا على جميع المسلمين فى دينه وتقاه ، وبدا لهم اختيار شاب متلاف فاسق كيزيد ، نشأ فى أحضان الترف وفى ربوع دمشق اللاهية شيئا يقرب من الكفر .

وكان معاوية مدركا كل الادراك للعقبات التى تقف فى طريق ولده لتولى الخلافة ، فعزم على التغلب عليها بأقصى ما يستطيع من جهد ، وراح يتشاور سرا مع عماله فى الامصار والاقاليم . ويحاول بما نسميه اليوم بوسائل الدعاية والاعلام تحسين سمعة يزيد عند عامة الناس ، وتحقيقا لهذه الغاية أوفده الى الجيش الذى يحاصر القسطنطينية رغبة منه فى أن ينال فضل الاشتراك فى الجهاد . وقدم معاوية فى بعض الحالات رشاوى نقديه لتخفيف حدة المعارضة لولاية يزيد ، واخيرا صدرت التعليمات الى أمراء الأمصار فى عام ٦٧٦ بأن يؤلفوا وفودا كل فى منطقته تصل الى دمشق لتطلب فى الظاهر من الخليفة اختيار ولده وليا لعهده ، وعندما وصلت الوفود الى العاصمة ، وافق معاوية على تلبية طلبهم وأعلن ولده يزيد وليا لعهده .

وسرعان ما تبين أن المدينة ستكون أكثر مدن الامبراطورية معارضة لخلافة يزيد • فقرر معاوية تبعا لذلك أن يمضى بنفسه اليها ليضمن عن طريق شخصيته ومكانته تحقيق النجاح فى اختيار ولده لولاية العهد . ووصـل أخيرا الى المدينة تحيـط به ثلة من الحرس تضم ألف فارس ، وسرعان ما وجد أن قادة المعارضة انفسهم يطمعون جميعا فى الخلافة . وكان الحسين بن علي أول هـؤلاء ، اذ أن أخـاه الحسـن كان قد انتقل الى رحمة الله . وكان هناك أيضا عبد الله بن الزبير الذى استشهد ابوه فى معركة الجمل بعد أن كان ينافس عليا على الخلافة وكان هناك أيضا عبد الرحمن النجل الأكبر البـاقى على قيد الحيـاة لأبى بكر ، وكذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب . وماكاد معاوية يصل الى المدينة حتى كان هؤلاء المعارضون جميعا يغادرونها الى مكة ، اما من تبقى من أهل المدينة فيها فقد بايعوا يزيد •

وتذرع معاوية برغبته فى أداء العمرة فسافر الى مكة حيث حاول أن يقنع الناس هناك بالموافقة على بيعة يزيد . وعند ما اتصل بعبد الله ابن عمر بن الخطاب ، رد هذا بأنه كان ثمة خلفاء قبل معاوية ، وكان لكل منهم أبناء . لا يقلون فضلا عن أبناء معاوية ولكن آباءهم لم يختاروهم لخلافتهم • وكان رد عبد الرحمن بن أبى بكر أكثر عنفا وشـدة ، اذ أعلن بصراحة معارضته لبيعة يزيد وذلك لأن اختيار الخليفة قضية تتطلب اقرار عامة المسلمين . وكان عبد الله بن الزبير أشد عنفا فى رفضه البيعة ليزيد • واضـطر الخليفة أخيرا الى العودة الى دمشق دون أن يأخذ البيعة ليزيد من منافسيه . (١)

---

(١) اختصر المؤلف أشد الاختصار قصة بيعة يزيد وقد دفعه اختصاره هذا على الغالب الى مخالفة الروايات الصحيحة . وأرى أن أسرد هنا الرواية مختصرة كما وردت في التواريخ الاسلامية :

كان المغيرة بن شعبة أول من اقترح بيعة يزيد ، اذ دخل على يزيد فقال : « لقد ذهب أعيان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم وانما بقي أبناؤهم وأفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة . ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟ قال يزيد : أو ترى ذلك يتم ؟ قال نعم. فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فأحضره معاوية وسأله عما قال ليزيد فقال : قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف ، فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة . قال ومن لى بذلك ؟ قال أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك. قال : فارجع الى عملك وتحدث مع من تثق به في ذلك وترى ونرى .

وجاء وفد الكوفة الى دمشق أول من جاء وزين الوفد لمعاوية بيعة يزيد فقال :

لا تعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجعوا وقوى عزم معاوية على البيعة ليزيد وأرسل الى زياد أمير البصرة ليستشيره ، فأشار عليه هذا بالتؤدة وعدم العجلة ، فقبل منه معاوية فلما مات زياد ، عزم معاوية على البيعة ليزيد ، فكتب الى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له : انى كبرت سنى ودق عظمى وخشيت الاختلاف على الامة من بعدى وقد رأيت أن اتخير لهم من يقوم بعدى وكرهت أن أقطع أمرا دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك ، فقام مروان في الناس فاخبرهم . فقالوا : أصاب ووفق ، وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو ، فكتب مروان الى معاوية بذلك فأعاد اليه الجواب فذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال : ان أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل ، وقد استخلف ابنه يزيد فقام عبد الرحمن بن أبى بكر ، وقال : ما الخيار أردتم لامة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل ، قام هرقل وأنكر ذلك الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير فكتب مروان الى معاوية بذلك .

وتمكن معاوية من ضمان البيعة لولده من أهل العراق والشام ثم سار الىالحجاز في ألف فارس ، فلما دخل المدينة خطب الناس . فذكر يزيد فمدحه وقال : من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه وما أظن قوما بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت ان اغنت النذر .

وكان المعارضون قد تركوا المدينة الى مكة فخرج معاوية وقضي بها نسكه ثم جمعهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون الذى يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية : قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لارحامكم وحملى ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم واردت ان تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسمونه لايعارضكم في شيء من ذلك فقال ابن الزبير : نخيرك بين ثلاث خصال . قال أعرضها قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف احدا فارتضى الناس أبا بكر، قال معاوية ليس فيكم مثل أبى بكر قال عبد الله وانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الامر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بنى أبيه قال معاوية : هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال: فانى أحببت أن أتقدم اليكم انه قد أعذر من أنذر ، انى كنت أخطب فيكم فيقوم الى القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس فاحمل ذلك فأصفح فانى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على أحد منكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع اليه كلمة حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا يبقين رجل الا على نفسه . ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبت بأمر دونهم ولا يقضي الا عن مشورتهم وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب راحلته وانصرف الى المدينة ثم الى الشام ويروى أن ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على أن أدخل فيما تجتمع عليه الامة فوالله لو اجتمعت على جيش لدخلت معها . (المعرب)

عاما ببعض شعرات النبى وقلامة اظافره ، وعندما شعر بدنو أجله أوصى بأن تجعل فى فمه وعينيه وأن يلبس عباءة كان رسـول الله قد أعطاه اياها ثم قال : افعلوا ذلك وخلوا بينى وبين أرحم الراحمين •

***

وهكذا انتهى عصر الفتوحات العربية العظيمة ، ففى أقل من خمسين عاما تمكن بدو الجزيرة العربية من أن يقيموا أعظم امبراطورية عرفها العالم آن ذاك ومن أعظم الامبراطوريات التى عرفها التاريخ • ولم تسبق لاية امبراطورية بمثل هذه الضخامة ، وذاك الاتساع ان أقيمت فى مثل الوقت القصير باستثناء امبراطورية الاسـكندر الكبير التى ما لبثت أن تمزقت عند موته ،أما الامبراطورية العربية فقد قدر لها أن تعمر وهى كاملة زهاء قرنين ونصـف القرن وأن تطول مدة تقلصـها زهاء سبعة قرون •

ولعل من الطريف أن نعقد مقارنة بينها وبين امبراطورية الاسكندر التى كانت تشغل تقريبا البلاد التى شغلتها امبراطورية العرب ، فهناك من ناحية واحدة على الاقل مفارقة غريبة كل الغرابة ، اذ أن امبراطوريه الاسـكندر مدينة بوجودها الى شـخصية رجل واحـد ، تعتبر فوق المستوى العادى للانسان . ولقد قيل من الناحية الاخرى : ان العرب اقاموا امبراطوريتهم لا بفضل قادتهم بل على الرغم منهم . (١)

وكانت الفتوح العربية فريدة فى نوعها من ناحية أخرى فقبل أن تبدأ هذه الامبراطورية كانت الدولتان العظيمتان فى العالم آن ذاك تنظران الى العرب نظرة الازدراء . ولقد عاشت اليمن فترة مستعمرة حبشية ثم عادت فأصبحت مستعمرة فارسية •

---

(١) انا لا افهم معنى هذا التعبير مطلقا ، ولا أستطيع أن أقبل هذه المقارنة على النحو الذى صيغت فيه فكما ان امبراطورية الاسكندر ، مدينة بوجودها الى شخصـية رجل فرد هو الاسكندر فان الامبراطورية العربية مدينة بوجودها الى شـخصية النبى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم اذ تمكن من توحيد العرب وجمع شملهم تحت راية الاسلام وابدلهم بنور الايمان أشخاصا آخرين حملوا كلمة الله لينشروها في العالم. فكانت تلك الفتوح العظيمة التى لم يشهد العـالم مثيلا لها من قبل . ولعـل الفـرق الجوهرى الذى فات المؤلف ان يذكره ، هو ان امبراطورية الاسكندر انهارت فور موته لانه لم يحمل للعالم رسالة كرسالة محمد صلى الله عليه وسلم أما امبراطورية العـرب فقد ظلت قرونا طويلة لانها اتصلت برسالة (محمد) وكانت تجسيدا لها ولم تضـعف هذه الامبراطورية وتصب بالانهيار الا بعد أن ضعف الاسلام في قلوب المسلمين .
(المعرب)

وكان الاميران العربيان الوحيدان اللذان يستحقان حمل هذا الاسم في الجاهلية خاضعين بدورهما لامبراطوريتي الروم والفرس ، ولم يكن العرب شأن يذكر في ميدان الحرب في أيام الجاهلية ، وكان الروم من الناحية الاخرى أشهر مقاتلين في تلك الايام . وترجع شهرتهم حتى الى الايام التي سبقت مجيء الاسكندر وفتوحه العظيمة . ولقد تطلب بناء الامبراطورية الرومانية قرونا طويلة من عمر الزمن ، وكانت فرنسا أقوى الدول الاوربية قبل مجيء نابليون بأمد طويل . اما العرب فكانوا فريدين في هذه السرعة التي تشبه سرعة العواصف والتي سار فيها مد فتوحهم بادئا من لاشيء .

ولقد غيرت السنوات الخمسون التي انصرمت بين عامي ٦٣٠ و ٦٨٠ خريطة العالم حقا . ولم يبق على هذه الخريطة من المعالم القديمة شيء . ولقد وصف البحر المتوسط في العهود القديمة بأنه حوض روماني ، اذ كان قلب امبراطورية الرومان ومركزها الحساس وكان الوسط الذي يرتحل فيه الرومان من مصر الى مصر ، ومن اقاليم الى اقليم . وكان الساحل الشمالي لافريقية جزءا من العالم الذي يضم فرنسا واسبانيا وايطاليا . وكان الشرق يبـــدأ عند الحدود الفاصلة بين رومة وفارس وهي الحدود التي تقوم الآن بين سورية والعراق . وجاءت الفتوح العربية فجزأت البحر المتوسط الى جزأين شمالي وجنوبي ، وعلى الرغم من أن بلدان الامبراطورية العربية لم تكن مأهولة بشعب واحد وعلى الرغم من ان الشمال الافريقي يختلف اليوم اختلافا كبيرا عن الجزيرة العربية ، فان الفتوح العربية فرضت كشـــكل ظاهري على الأقل طريقـــة الحياة نفسها على جميع البلاد الممتدة من فارس وحتى من الهند الى مراكش، وهي الطريقة التي ندعوها اليوم بالطريقة الشرقية . وقد يكون من الصعب علينا أن ندرك أن شعبا واحدا كان يســـكن الجزائر ومراكش في قارة افريقية ، واسبانيا وايطاليا ، في اوربا (١) .

---

(١) نحن نختلف مع المؤلف تمام الاختلاف في موضوع ما يقوم بين الجزيرة العربية والشمال الافريقي من فروق أو تباينات . فهو يصفها بانها كبيرة للغاية ، ولكننا لا نرى انها تزيد بأية حال على الفروق التي تقوم بين أهل اسكوتلندة مثلا وأهل ويلز أو بين أهل ولاية نيويورك وولاية شيكاغو أو بين بافاريا وبروسيا في ألمانيا فاللغة واحـــدة والعادات واحدة تقريبا ، والتاريخ واحد الى حد كبير بالاضافة الى وشائج الدين والدم والاماني والاهداف . وما قول المؤلف الا صورة من صور محاولات الاستعمار لايجـاد الفرقة بين أبناء الشعب العربي الواحد .

(المعرب)

وهناك ظلال عدة من المعانى لكلمة « عظيم » الا أننا على العموم نربط بين هذه الصفة وبين شيء اكثر من مجرد الحجم ، ونحن نتحرى دائما عن المزايا الروحية ، أو المعنوية التى فى انسان أو فى عمل نود ان نطلق عليه صفة العظمة ، وقد قدر للمسلمين بعد انتهاء الحروب الاهلية، ان يستأنفوا فتوحهم وأن يوطدوا أقدامهم فى الشمال الافريقى ثم يحتلوا اسبانيا ويغزوا فرنسا وايطاليا ويسيطروا على مالطة وصقلية لكن هذه العمليات العسكرية لم تعد كما كانت عمليات عربية صرفة . فلقد أصبحت الامبراطورية متعددة الاجناس والعناصر . ولم تعد صفة العظمة تطلق على هذه العمليات ، لانها لم تعد مستوحاة من ذلك الاخلاص العاطفى العميق العنيف الذى رافق فتوح العرب فى الخمسين سنة الاولى

***

تواريخ بارزة

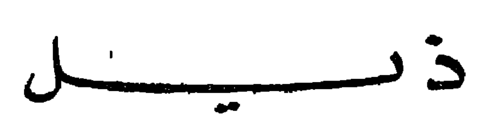
استتباب الامر لمعاوية	يوليو (تموز)	٦٦١
وفاة عمرو بن العاص		٦٦٣
وفاة المغيرة بن شعبة		٦٧٠
انشاء مدينة القيروان على يدى عقبة بن نافع		٦٧٠
هجوم العرب على القسطنطينية		٦٧٠
احتلال رودس		٦٧٢
وفاة زياد بن أبيه		٦٧٣
حملة عبيد الله بن زياد على بخارى		٦٧٤
تعيين عبيد الله أميرا على البصرة		٦٧٦
اعلان ولاية العهد ليزيد		٦٧٦
العدول عن حصار القسطنطينية		٦٧٧
وفاة معاوية		٦٨٠

شخصيات مشـــــهورة

معاوية بن أبى سفيان	خليفة المسلمين
عقبة بن نافع	فاتح شمالى افريقية حتى الاطلسى
المغيرة بن شعبة	أمير الكوفة وشمالى فارس
زياد بن أبيه	أمير البصرة وجنوبى فارس ، ثم أمير العراق وفارس كلها .

• عبدالله بن زياد	أمير خراسان ثم أمير البصرة
• سعيد بن عثمان بن عفان	امير خراسان
يزيد	ابن معاوية وولى عهده
الحسين بن على بن أبى طالب	
عبد الله بن الزبير	منافسو يزيد على الخلافة
عبد الرحمن بن أبى بكر	
عبد الله بن عمر بن الخطاب	




ذيل



لن يستطيع انســـــان أن ينكر أن الاحداث التى شرحتها فى هــذا الكتاب قد بدلت تاريخ العالم ، ولقد أثرت أيضا تأثيرا عميقا على حياتنا وما زالت تؤثر مثل هذا التأثير حتى يومنا هذا • ولقد أدى اهمالنا لتاريخ هذه الاحداث الى الحيلولة دون تفهمنا ومن ثم دون معالجتنا معالجة حكيمة لعلاقاتنا مع العرب خاصــة ومع المســلمين عامة ، ولهذا فان من المجدى أن نلخص بعض العبر التى نستقيها من هذه الاحداث ومن رواية تاريخها .

تستمد الطريقة الاسلامية فى الحيـــاة جذورها من مصـــــدرين رئيسيين أولهما رسالة محمد نفسه ، والآخر عادات العرب فى القرن السابع ولعــــل اســــهل طريقة نتبعها فى تحقيقنا هذا أن نبحث فى الموضوعات المختلفة وأن نتفحص كيف تأثر كل موضــــوع منها بهذين المصدرين اللذين ذكرتهما .

العلاقات الاجتماعية :

يبدو لنا بصورة عامة أن النبى كان انســـانا كريما ، ولقد أثر بعطفه على الفقراء والمحتاجين والضـــعفاء وبانصرافه عن المال وحبـــه للأطفال وحرصه على النظافة وحثه الناس عليهـــا على الطريقة الاسلامية فى الحياة تأثيرا كبيرا ، فهناك فى المجتمع العربى شعور بالرقة والحنان والعطف لا يفهمه المجتمع الأوربى •

وكانت طريقة العرب فى الحياة فى القرن السابع من الناحية الأخرى قاسية قد تصل فى قسوتها حدود الفظاعة . وقد ادى الافتقار الى أى شكل من أشكال الحكم المركزى الى أن يتولى اقرباء المجنى عليه أو المجنى عليه نفسه عقاب الجناة ولعل الثارات الدموية أكثر أمثلة هذا الشكل من اشكال القضايا بروزا وظهورا . فلم تكن هناك شرطة أو قوانين أو قضاة يتولون معاقبة القتلة • ولهذا كان أقرباء القتيل يحاولون أن يثأروا بقتل القاتل فان تعذر عليهم الوصول اليه ليقتل احــد اقــربائه . وينطبق القانون نفســه على الجنايات الصغرى والجنح كالاصابات بالجراح أو بالضرب أو السرقات . وقد ادى هذا النظام من الثار الى الكثير من الاعمال الوحشية الفظيعة كما سبق لنا أن رأينا فى أحداث هذا الكتاب •

وقد اقامت معظم الدول الاسـلامية منذ القرن السابع ، وفى مختلف العهود أنظمة قضائية فعالة ونظمت فرق الشرطة ، مما أفقد عمليات الثأر الشخصى ضرورتها ، ولكن فكرة الثأر لا تموت بسهولة ، واذا شئنا التوسع فى القول أمكننا القول بأن حق الثأر أو واجبه على الأصح قد بقى برغم جميع الاصلاحات الحديثة اذ أنه بات ، نتيجة جميع هذه الجذور القديمة ، مبدأ اخلاقيا يعترف به • ولعل هذه الناحية ، كما يبدو لى ، هى احدى نواحى التوجيه التى تختلف فيها المسيحية اختلافا بينا عن الاسلام ، فليس ثمة من توجيه للمسيحيين بأن يقابلوا الاساءة بالاساءة . أما فى الاسلام ، فان حق الثأر مشروع بل انه يعتبر فى بعض الحالات واجبا أخلاقيا (١) .

وقد سبق لى أن قلت ان النبى كان فى حياته اكثر تأثرا باليهودية منه بالنصرانية (٢) يضاف الى هذا ، ان عرب القرن السابع كانوا ولاشك يعيشون فى الاوضاع الاجتماعية التى عاش فيها العبرانيون أيام العهد القديم « من التوراة » •

ولقد كان ابراهيم وموسى النبيين المحترمين عندهم • وكان احترامهما يعادل ان لم يفق احترامهم لعيسى • والعهد القديم يضم الأفكار التى آمن بها العرب كالعين بالعين والسن بالسن أو واجب قتل الكفرة والمشركين • وكانت محبة الجار وكراهية العدو قاعدتين اخلاقيتين مقبولتين عند العبرانيين القدامى وعند عرب القرن السابع للميلاد •

---

(١) لا ادرى من أين استقى المؤلف هذا الانطباع الخاطىء اذ من القواعد الاسلامية التى يتعلمها المسلم منذ نعومة أظفاره الحض على مقابلة الاساءة بالاحسان لا بالاساءة كما يزعم المؤلف . والقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف مملوءان بالآيات والاحاديث التى تحض المسلمين على العفو والصفح ومقابلة الاساءة بالاحسـان ولا حاجة بى الى تعدادها او البحث فيها ، لان هذا المجال ليس مجالها . ومن الخصال الكريمة التى يحض عليها الاسلام العفو عنـد المقدرة . وهو أعظم ضروب العفـو ، ومقـابلة الاساءة بالاحسان .

(٢) اخطأ المؤلف اشد الخطأ فى قوله هذا . فالاسلام جاء مكملا للرسالات السماوية ومبشرا ونذيرا . والمسيحية هى آخر هذه الرسالات قبل الاسلام ولذا لا يجوز القـول بأن النبى كان أكثر تأثرا باليهودية منه بالنصرانية ، ولا سيما ان المسيحية نفسـها تعتبر العهد القديم (التوراة) جزءا من أساسها الدينى . ولعل خطأ المؤلف يظهر أوضـح ظهور فى قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » كما أن ما ورد فى القرآن الكريم عن عيسى بن مريم عليه السلام لا يقل ان لم يزد عما ورد عن موسى أو ابراهيم عليهما السلام . فكلهم من الانبياء والمرسلين الذين يجلهم الاسلام ويحترمهم كل احترام . (المعرب)

وقد أوحى المجتمع العربى فى القرن السابع للمسلمين أيضا بمشاعر قوية من الالتزام العائلى ، وهو رأى له حسناته وسيئاته وان كان غريبا كل الغرابة على الغرب المعاصر • فعلى الاسر فى المجتمع الاسلامى أن تعنى دائما بالعجزة من رجالها وباليتامى والمعتوهين وحتى بالفاشلين والخائبين .

ويختلف المجتمع الاسلامى فى هذه الناحية اختلافا بينا عن المجتمع الغربى الحديث الذى ينظر الى الاقارب عادة نظرته الى معارف غير محبوبين والذى يترك العجزة أو المصابين عادة الى أقدارهم أو الى رعاية المؤسسات العامة . واذا لم يكن المجتمع الاسلامى قائما على آساس الدولة التى تعنى بالخير العام للناس فانه قائم على الاقل على نظام «الأسرة التى تعنى بخير أفرادها» والتى ترعاهم حتى لو لم يكونوا يستحقون هذه الرعاية . لكن الوفاء للاسرة ينطوى على بعض السيئات اذ يغرى موظف الدولة على سرقتها أو على قبول الرشا ليؤمن مثلا لأطفاله تعليما صالحا أو ليضمن لأمه العجوز العناية الطبية اللازمة (١) •

وكان النبى ميالا الى النساء (٢) ولذا فقد سمح الاسلام لاتباعه بالزواج على الا تتعدى الزيجات اربعا كما سمح باقتناء الجوارى ولما كان عدد الذكور يعادل عدد الاناث فى كل مجتمع فان من المستحيل بحكم الواقع ان يتمكن غالبية الرجال من الزواج بأكثر من واحدة ، وازاء هذا التسامح كان النبى صارما كل الصرامة فى عقاب العلاقات الجنسية غير المشروعة • فعقوبة الزنا عادة هى الموت • وهناك عقوبات أخرى وضعت للغزل غير المشروع والتهتك . ولا ريب فى أن هذا الاسترخاء الراهن فى العلاقات الجنسية فى العالم المسيحى يثير تقزز المسلمين الصالحين

---

(١) حقا انها لفكرة في منتهى السخف فالرشوة او السرقة تتعلقان بأخلاق الموظف الشخصية لا باى شيء آخر وان كانت الدوافع المادية تترك اثرا . ولكن المؤلف كما يبدو نسي أن هناك أموال الزكاة التى نص عليها الاسلام ، وان هذه الاموال تنفق على المحتاجين والمساكين سواء أكانت العلاقات العائلية تفرض التزاماتها ام لا تفرضها ولعل سخف رأى المؤلف يبدو من الحقيقة الواقعة وهى أن السرقات والرشا توجد حتى في أكثر البلاد تنظيما لشئون اشتراكية الطب والتعليم ، ولا يخلو منهما اى مجتمع من المجتمعات مهما كان عظيما في تقدمه .

(المعرب)

(٢) سبق لى أن دحضت هذا الزعم الغربى المالوف في تعليق سابق بينت فيه اسباب تعدد زوجات النبى صلى الله عليه وسلم .

(المعرب)

ورعبهم . ومن هنا يتبين ان أتباع كلتا الديانتين ينظرون الى الآخرين نظرة الاتهام باللاخلقية فى الناحية الجنسية (١) .

الحكم :

سبق لى أن بينت ان حقيقة جمع النبى بين السـلطتين المدنية والدينية ، قد أدت الى خلاف جوهرى بين الدولتين الاسلامية والمسيحية ولقد ظل الحكام المسلمون طيلة التاريخ الاسلامى ، والى ما قبل اربعين عاما فقط يجمعون عادة بين هاتين السلطتين وقد أدى هذا النظام الى تجنب الصراع بين السلطتين ولكنه فى الوقت نفسه مكن الحاكم من ان يستخدم ضد خصومه السياسيين تلك العقوبات التى وضعها النبى للمرتدين ، ولعل من أعقد المشاكل التى تواجه غير المسلمين عند تفكيرهم بأوضاع البلاد الاسـلامية ان النبى لجأ الى استخدام الاغتيال ضـد اعدائه . ولما كان كل ما فعله النبى يعتبر سـنة صحيحة فان بعض الساسة يجدون المبرر للخلاص من خصومهم بهذا الاسلوب نفسه (٢) .

ولم يكن محمد كما رأينا نبى قومه فحسب بل كان حاكمهم أيضا وقد قضى القسم الاكبر من حياته فى صراع مرير سعيا وراء البقاء ، فى مختلف الميادين الاخلاقية والسياسـية والعسكرية . وكان اتباعه يطيعونه فى مثل هذه الظروف الخطرة الرجراجة طاعة عميـاء ، لانهم

---

(١) يبدو ان المؤلف لم يفهم حقيقة النص على تعدد الزوجات في الاسلام ، فالدين لا يبيح هذا التعدد بصورة اطلاقية ، حرة من كل قيد أو التزام ، فهو يبيح للمسلمين الزواج بأربع بشرط العدل بين الزوجات في كل شيء وهو يحدد الزواج بواحدة ان تعذر العدل وهو متعذر بالنسبة الى أغلبية الناس بحكم الغريزة والعاطفة . وقد أباح الاسلام هذا التعدد لمعالجة كثير من المشاكل الاجتماعية والحالات الجنسية الشاذة التى لا أريد الخوض فيها الآن . ولا اظن ان المؤلف يختلف معنا في أن الزواج بأكثر من واحـدة في حالات مقيدة ومشروطة خير لمنفعة المجتمع وكيان الاسرة من العلاقات الجنسـية غير المشروعة . اما بالنسبة الى الجوارى وهن الاسيرات في أيام الحروب فان السـماح بالعلاقات المشروعة منهن بالنسبة الى تلك الايام احفظ لسلامة المجتمع من تقييدها شرعا . لتنطلق الغرائز التي لا سبيل الى التحكم فيها حرة بصورة غير مشروعة . (المعرب)

(٢) مغالطة واضحة من المؤلف اذ يتهم النبى (صلعم) بسماحه بالاغتيال السياسي ناسيا أو متناسيا ، ان النبي كان «القاضي الاكبر» للمسلمين فاذا كان قد أمر اتباعه بقتل هذا أو ذاك من المرتدين أو المشركين او أعداء المسلمين فان أمره هذا حكم قضائى وتنفيذه لايعتبر اغتيالا وانما هو ايقاع لعقوبة أو قصاص . ومن هنا لايكون من حق الحاكم ان يفعل ما فعله رسول الله ولا سيما اذا لم يكن الحكم اسلاميا في كل شيء .
(المعرب)

يعتقدون ان كل ما يقوله أو يفعله انما هو من عندالله · وقد حاول خلفاؤه الأوائل ، كما سبق لنا أن رأينا ، كل ما فى وسعهم لاتباع سنته سواء فى أسلوب حكمه او فى طريقة حياته الخاصه ونتيجه لهذه السابقة الاولى · ظل الحكم الاسلامى مفردا كما كان الوضع فى أيام النبى وخلفائه الأوائل (١) ولكن على الرغم من أن أبا بكر وعمر كانا حاكمين مفردين ، فانهما لم يكونا من الطغاة المتكبرين الذين يعيشون فى عزلة عن رعاياهم فلقد كان من السهل كل السهولة الوصول اليهما وكانا ديمقراطيين ينظران الى الرعية نظرة الأب الى أولاده · وعلى هذا فالحاكم الاسلامى مفرد ولكنه ممنوع من الاستبداد ، بتقليد قوى من مشاعر العطف والابوة ·

وقد سبق لى أن اشرت الى الصعوبات التى واجهها المسلمون فى اختيار خلفاء رسول الله . ولم يكن العرب يعترفون قط بالوراثة اساسا كافيا للخلافة فهم عند اختيارهم لشيوخهم القبليين العاديين يراعون ان يكون الشيخ عادة أكثر أبناء الأسرةالحاكمة كفاية وقدرة · أما فى اختيار الخليفة فقد اتبعوا الطريقة الطبيعية جدا فى الاختيار ، وهى ان يكون اكثر المسلمين صلاحا للمنصب ، وقد روعيت هذه الطريقة ولو من ناحية نظرية فى اختيار الخلفاء الاربعة الأوائل . وادت صعوبة اختيار الاصلح فى الواقع وما نجم عن هذه الطريقة من تهديد بالحرب الاهلية الى اتباع طريقة اختيار البكر فى الاسر الاسلامية الحاكمة الاخيرة لكن العرب على أية حال لم يقبلوا قط مبدأ خلافة الابن البكر لأبيه خلافة رتيبة (أوتوماتيكية) .

ولعل من الغريب ان لا سابقة لفكرة تولى مجموعات من الرجال الحكم سواء كانت هذه المجموعات وزارات أو برلمانات أو لجانا فى التاريخ العربى ، ففكرة الحكم عندهم تتجسد دائما فى رجل واحد · ومن الواجب أن يكون هذا الحاكم دائما متواضعا خيرا تقيا كريما ويسهل الوصول اليه · ولا يسمح العرب بظهور طغاة مستبدين متعجرفين ولكن السلطة التنفيذية يجب ان تكون على أية حال فى يد رجل واحد . ويمكن تتبع جذور هذه التقاليد كلها والمودة بها الى القرن السابع .

---

(١) لم يكن الحكم الاسلامى مفردا قط وانما كان شورى دائما سواء فى عهد النبى او فى عهد خلفائه الاوائل . ولم يكن النبى او ابو بكر او عمر يستأثرون بالقرارات التى تتناول الشئون العسكرية أو السياسية او القضائية وانما يشاورون فيها أهل الشورى · ولذا لايمكن ان تطلق على الحكم الاسلامى صفة « الاوتوقراطية » التى يطلقها المؤلف عليه .

(المعرب)

وقد عملت الحكومات الغربية منذ عام ١٩١٨ وفى اوقات مختلفة جهد طاقتها لاقامة انظمة انتخابية ديمقراطية فى بلاد الشرق الاوسط ولكن الدساتير التى تنص على هذه الأنظمة ما لبثت فى جميع الحالات أن انهارت لتقوم مقامها حكومات عسكرية ، وعلى المرء الا يستغرب هذا لأن الحكم العسكرى اقرب الى تقاليد العرب العريقة من نظم الديمقراطية الغربية . (١)

الحرب :

كان العرب فى القرن السابع للميلاد يؤلفون شعبا محاربا للغاية ولكن اساليبهم فى القتال كانت بدائية ليس الا . وكانوا يعتمدون على روحهم الحربية وعلى شجاعاتهم الشخصية الفردية اكثر من اعتمادهم على علم الحرب وفنها . وقد عاشـــت هـــذه التقاليد حتى يومنـــا هذا وكثيرا ماكلفت المسلمين ثمنا غاليا فى الصراعات مع القتلة المحترفين الذين يحاربون بقصد الفوز . فكل طفل مسلم ينشأ وقد امتلأ عقله بقصص حياة الرسول وقصص الفتوح العربية التى تقوم على أساس الشجاعة الشخصية مع اهمال المهارة أو الفن ، وقد عاشت هذه القصص حتى يومنا هذا فى البلاد الاسلامية النائية وان كانت مطبقة اصلا فى الجزيرة العربية وحدها .

ومن واجبنا أن ندرك أن الجيوش البيزنطية والفارسية كانت أعظم القوات العسكرية فى ذلك العهد ، وكان ضباط تلك الجيوش يدرسون المؤلفات عن التاريخ العسكرى وفنون الحرب ، وكانت لكل من الجيوش تقاليدها العسكرية الخاصة بها والتى تبلغ فى عمرها عـــدة قرون وكان سلاحها من أحدث الأسلحة تقنية . ولم تكن تنظر الى الشعوب المتخلفة كالشعب العربى الا بعين الزراية والامتهان ، ولهذا فان الفتوح العربيـــة

---

(١) ان هذه النظم الديموقراطية التى يتحدث عنها المؤلف والتى أقامها الغـــرب كما اعترف هو في معظم بلاد الشرق الاوسط كانت صورة مزيفة للديموقراطية اذ أنهـــا كانت في الواقع تجسيدا لديكتاتورية راس‌المال والاقطاع وسيطرتهما على‌الحكم فالبرلمانات الزائفة التى خبرتها معظم البلاد العربية في ظل النظام الديموقـــراطى المـــزيف لم تكن في الواقع الا التجسيد العملى لحكم رأس المال والاقطاع المتعاونين مع الاستعمار والمرتبطين في وجودهما ومصالحهما معه اذ ان معظم أعضاء هذه المجالس كانوا في كل انتخاب يمثلون مصالح رأس المال المستغل والاقطاع المتحكم . ولهذا فلايمكن الحكم القائم على مثل هذه البرلمانات الزائفة أن يسمى بالحكم الديموقراطى .

(المعرب)

العظيمة تنطوى على كثير من الدروس التي يجب علينا أن نتعلمها ، واهمها أن من الخطأ الاعتماد كليـــة على التفوق التقنيي لكسب الحروب ، وكان الاجهاد من الحروب قد نال من الفرس والروم مانا له ، بالاضافة الى ماامتاز به هؤلاء من ادعاء وغرور واستخفاف بالآخرين· وكان الكثيرون من رعاياهم غير مخلصين لهم ، وكانوا يكرهون الحروب كما كان تشككهم فى الفائدة منها قد حطم معنوياتهم ، أما العرب فكانوا على النقيض من ذلك : بسطاء متحمسين وراغبين فى الموت ، ونحن نميل الى تناسى أن هذه المزايا ، لا العلم ، هو الاساس فى بناء الجندى ·

وهناك التباس ضخم اليوم حول ما للعرب من قيمة عســكرية ، فالمعروف أن الفـــاتحين العرب الأوائل لم يقوموا باية محاولة وان قاموا فبمحاولات لاشأن لها لتحويل الشعوب المحتلة الى الاسلام · وكان اصرارهم الوحيد هو أن تدفع هذه الشعوب الخاضعة ضرائب اضافية وقد هبطت الشعوب المهزومة من الناحية الاجتماعية الى مرتبة المواطنين من الدرجة الثانية على حد تعبير المصطلحات الحديثة · ولكن المسلمين لم يطلبوا اليهم اعتناق الاســلام · أما اذا تحولوا الى الاسلام على أية حال · فان هؤلاء سرعان مايصبحون أندادا للفاتحين ، ويغدون قادرين على الاختلاط بهم والتزاوج معهم · ولا يمضى طويل وقت حتى يصبح هؤلاء « عربا » ، حتى لو لم تكن هناك كما هى الحالة بالنسبة الى كثيرين منهم نقطة واحدة من الدم العربى تسرى فى عروقهم ، وهكذا أصبحت كلمتا العربى والمسلم مترادفتين وترمزان الى شىء واحد ·

ومع ذلك هناك ولا ريب تشابه ظاهرى بين جميع الشعوب الناطقة بالعربية من حدود فارس حتى مراكش(١) · ومن واجبنا ألا نرد هـــذا التشابه الى الجذور العنصرية بل الى تأثير الثقافة والدين ، ولم ينطو قبول غير العرب مع العرب على أساس المساواة الاجتماعية على التحول الى الاسلام فحسب بل انطوى أيضا على تبنى اللغة العربية كلغة قومية للجميع مما أدى الى قيام أدب مشترك وتعليم مشترك أيضا ·

---

(١) ان تعبير « الشعوب الناطقة بالعربية » تعبير استعمارى ماكر يقصد منـــه تجزئة الامة العربية الواحدة الى مجموعة من الشعوب تشترك في لغة واحدة هى العربية مع ان الشعوب العربية المقيمة بين فارس ومراكش شعب عربى واحـــد تؤلف اللغـــة المشتركة احدى خصائصه بالاضافة الى الاشتراك فى التقاليد والتاريخ والعادات والواقع المادى وأمانى المستقبل الواحد ،

(المعرب)

ولا تختلف العلاقة القائمة بين الشعوب الناطقة بالعربية اليوم عن تلك القائمة بين الشعوب الاوربية . فقد يبدو لنا نحن البريطانيين أن اليونانيين أو النرويجيين غرباء عنا . كما أنهم غرباء بعضهم عن بعض ، ولكن بالنسبة الى الآسيويين تبدو شعوب أوربا وامريكا الشمالية كلها متشابهة لانها تشترك فى تراث المسيحية المشترك . ومع ذلك فان السلوك الذى يسلكه النرويجيون فى أزمات الحياة يختلف عن سلوك اليونانيين ولا يكون التراث الدينى والثقافى المشترك بينهم حافزا قويا وكافيا لازالة الخصائص العنصرية لكل منهما . وهكذا فان اطلاق تعبير العرب على جميع الشعوب التى تعيش بين فارس ومراكش يشبه الى حد ما اطلاق تعبير الاوربيين على مجموعة الشعوب التى تشترك فى تراث دينى ثقافى واحد، وان اختلفت فى خصائصها العنصرية اختلافا كبيرا(١) .

وربما لا يكون البحث فى معنى كلمة عربى « آكاديميا » فحسب بل ينطوى أيضا على نواح سياسية مهمة . فلو هاجم بلد عربى بلدا عربيا آخر وغزاه فقد يدعى هذا البلد أن جميع العرب يمتون الى أمة واحدة وان عمله يجب أن يعتبر على هذا الاساس داخليا ومن شئون العرب المحليه لا حق للامم المتحدة ولا لأية منظمة غيرعربية أخرى بالتدخل فيه ، أما اذا اعتبرنا من الناحية الاخرى ان العلاقات بين البلاد العربية تشبه تلك التى تقوم بين شعوب أوربا الغربية فان غزو أى بلد عربى لبلد كآخر يصبح عدوانا دوليا يفترض من الامم المتحدة ان تحول دونه ، وهذا مثل آخر ولا ريب على علاقة التاريخ بالشئون الراهنة .

وتكشف قصة الخمسين سنة الاولى من الفتوح العربية بعض المزايا الخاصة التى لاتزال تنطبق على حياة أبناء الجزيرة العربية اليوم، اذ أن هؤلاء ظلوا على حالهم لم يطرأ عليهم أى تبدل منذ أيام النبى ، فهم بما عرف عنهم من صلابة واستقلال ووفرة فى الفضائل العسكرية مازالوا يعتمدون على الشجاعة أكثر من اعتمادهم على العلم . ولو أتيحت لهم المستويات نفسها فى التدريب والمعدات فقد يضاهون أعظم جنود فى

---

(١) تشبيه سخيف من المؤلف فالشعوب العربية من المحيط الى الخليج لاتشبه فى العلاقات القائمة بينها الشعوب الاوربية كما يقول المؤلف ، وانما تشبه مايقوم بين الشعب الاوروبى الواحد كالالمانى مثلا أو الانجليزى من علاقات وارتباطات . وعرب الجزائر مثلا لايختلفون عن عرب مصر أو عرب العراق الا كما يختلف البافاريون عن السكسونيين أو البروسيين أو كما يختلف أهل باريس من اهل نورماندى أو ديجون أو بريتانى . (المعرب)

العالم ، والاسلام أساساً دين الجندية اذ أنه انبثق عن هذا الشعب المحارب الصلب ومع ذلك فان الشعوب الباقية الناطقة بالعربية حتى يومنا هذا تختلف اختلافا جوهريا فى خصائصها العسكرية بحيث يستحيل التصميم بالنسبة اليهم كما يحاول البعض أن يفعلوا ٠

ومن خصائص ابن الجزيرة العربية البارزة أيضا صراحته ونظرته المستقيمة الى الحياة ، وحديثه بسيط ومباشر لايتضمن التفخيم أو تعابير الكياسة المنمقة ٠ فالعدو عدو بالنسبة اليه ، وهو يميل الى معاملته على مقاييس العنف البدنى ولا ريب فى أن السوريين واللبنانيين واليونانيين يختلفون عنه أوسع اختلاف اذ انهم يعتمدون على الادراك والمجاملة والدهاء وهم يميلون بدافع الغريزة الى الخلاص من أعدائهم بأساليب أكثر التواء من مجرد الضرب على الرأس بفاس أو بآلة حادة ٠ ولما كانوا يعيشون فى عالم يمتاز بالفكر والادراك فانهم لايميلون الى قبول أية حلول معدة وغير مصقولة بدلا من الحلول الصحيحة نظريا للمشـــاكل التى يواجهونها ، ولعل هذه الأمثلة القليلة كافية لايضاح هذه الخصائص العنصرية المختلفة أحيانا والمتعارضة تعارضا عموديا احيـــانا اخرى والتى تميز الشعوب المختلفة التى تشترك فى لغة عربية واحدة ودين اسلامى واحد(١) ٠

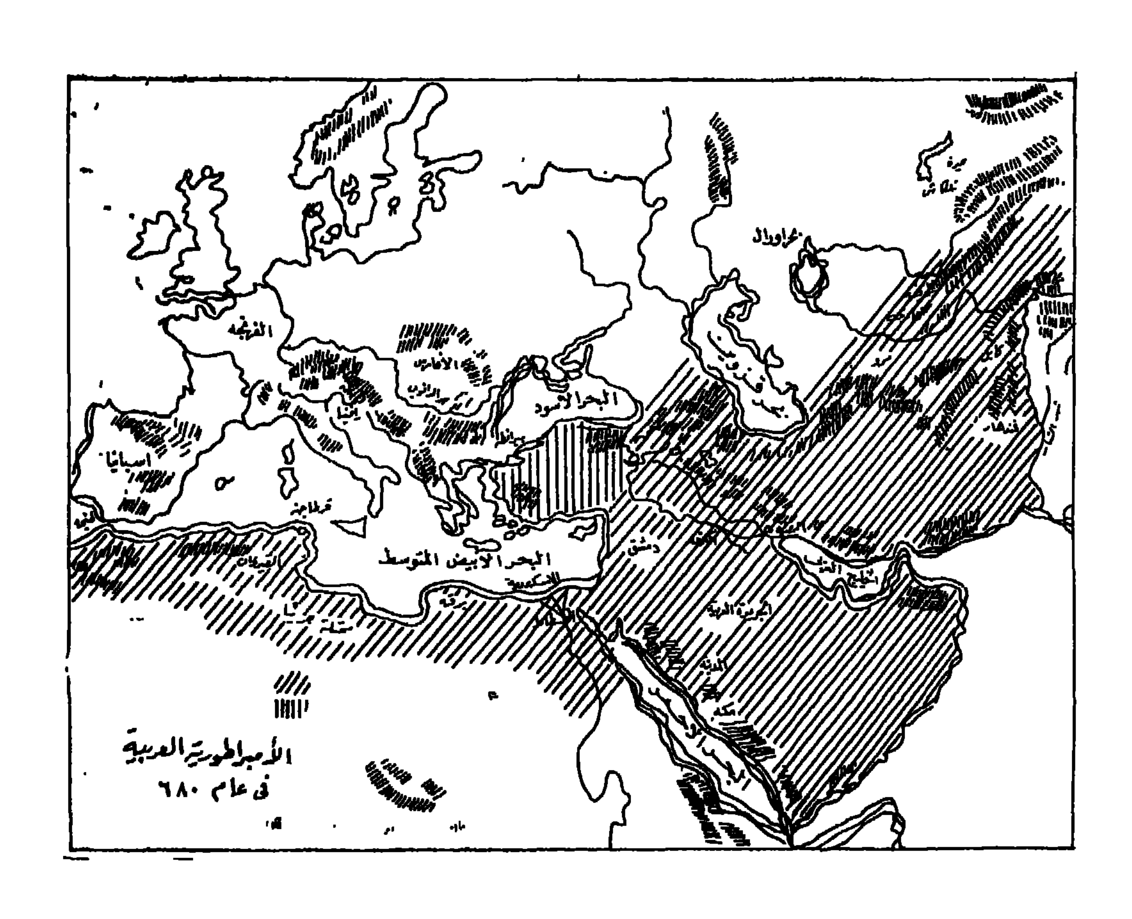
وتستحق العلاقات بين الاسلام والمسيحية فى هذه الايام شيئا من التعليق ٠ ولقد سبق للنبى أن أعلن أن اليهودية والمسيحية والاســـلام ديانات ثلاث مرتبطة بعضها ببعض ولو درسنا كل واحدة منها على حدة لتبين لنا ان مابينها من خلافات عميق كل العمق ، ولكننا اذا قارناها مع الهندوكية البوذية أو الالحادية الشيوعية فانها تبدو على سبيل المقارنة مترابطة بعضها مع بعض ، ولكن هناك كثيرين يعتبرون الاســـلام والمسيحية دينين متنافسين أشد التنافس وأنى لاعتقد أن هذا الرأى الخاطىء يستمد جذوره من الاسباب السياسية لا الدوافع الدينية ،

ولقد سبق لى أن أوضحت أن الفـــاتحين العرب الأوائل اعتبروا بيزنطة عدوهم الرئيسى الاول ، ولقـــد اتجهت حـــروب المســـلمين فى الفتوح اللاحقة فى شمالى افريقية والأندلس وفى الحروب الصليبية وغزو

---

(١) أنا لااعتقد أن الامثلة التى ضربها المؤلف كافية لاقناع اى انسان بوجودخلافات كالتى يشير اليها المؤلف بين العرب الذين يصر على تسميتهم بالشعوب الناطقة بالعربية ، فهى أمثلة واهية لاتنطوى على أية قوى اقناعية ناهيك بما فيها من تضليل ،

(المعرب)


الفرنجة
اسبانيا
البحر الأسود
البحر الابيض المتوسط
الأمبراطورية العربية
فى عام ٦٨٠

الأتراك العثمانيين للبلقان ومعاركهم الطويلة المستمرة مع روسيا القيصرية لمحاربة للمسيحيين ، أما الصراعات بين المسلمين والهندوس فى الهند فكانت على نطاق أضيق . كما أن المسلمين لم يشتركوا فى حروب ضد اليهود الا فيما ندر فى الماضى ، وفى الأربعين سنة الأخيرة فى فلسطين (١) .

ولا ريب فى أن هذه المنافسة الطويلة بين النصارى والمسلمين ترجع الى الاحداث السياسية العارضة والمصادفات الجغرافية أكثر من رجوعها الى خلافات دينية أساسية . أما وقد شرعت الالحادية المادية اليوم فى تحدى القيم الروحية فان فى وسع الديانتين الكبيرتين أن تشتركا معا فى محاربة أولئك اللذين ينكرون وجود الله كلية ، وانى لاعتقد بوجود مجال فسيح للتعاون بين الديانتين .

***

وقد عاد العالم الناطق بالعربية بعد أربعة قرون من حياة الظلام والنسيان الى مسرح التاريخ يؤدى دوره، وأرى أن من واجبنا ومن مصلحتنا أيضا أن ندرس دراسة متعمقة تاريخ هذه المجموعة من الأقوام وعقليتها ولا سيما ان لهذه المجموعة سجلا تاريخيا مملوءا بالامجاد والفضائل .

تم الكتاب

---

(١) يحاول المؤلف هنا جريا على ما الفناه من الاستعمار البريطانى طيلة وجوده في فلسطين ان يصور النزاع في فلسطين على انه نزاع دينى بين العرب واليهود وهى الصورة التى ضللت العرب مدة طويلة وخدمت مصالح الاستعمار ومكنته من أن يقيم قاعدته اسرائيل في قلب الوطن العربى مع أن مشكلة فلسطين مشكلة استعمارية لا طائفية ولا شأن للدين فيها ، فهى صراع من أجل التحرر بين العرب والاستعمار الذى خلق اسرائيل ومازال يدعم وجودها حتى اليوم .

(المعربه)



الأحداث التاريخية

	سنة
ولادة النبى محمد	٥٧٠
عام الفيل وهجوم الاحباش على مكة	٥٧٠
احتلال الفرس لليمن	٥٧٤
الروم يلغون دولة الغساسنة فى الشام	٥٨١
زواج النبى بخديجة	٥٩٥
كسرى الفرس يغزو امبراطورية الروم	٦٠٢
الفرس يلغون دولة المناذرة فى الحيرة	٦٠٢
هرقل يعلن امبراطورا	٦١٠
نزول الوحى على محمد	٦١٠
هجرة النبى الى المدينة	٦٢٢
ابحار هرقل من القسطنطينية لتطويق مؤخرة الفرس	٦٢٢
معركة بدر	٦٢٤
معركة أحد	٦٢٥
حصار المدينة ومعركة الخندق	٦٢٧
اغتيال كسرى ـ الصلح بين الروم والفرس	٦٢٨
صلح الحديبية	٦٢٨
معركة مؤتة	٦٢٩
فتح مكة	٦٣٠
وفاة النبى	٦٣٢
حروب الردة	٦٣٢ ـ ٦٣٣
يزدجر يعتلى عرش الأكاسرة	٦٣٢
احتلال الحيرة	٦٣٣
غزو فلسطين والأردن	٦٣٣ ـ ٦٣٤
مسيرة خالد عبر الصحراء	٦٣٤
معركة بابل فى العراق	٦٣٤

معركة اجنادين فى فلسطين	٦٣٤
وفاة ابى بكر	٦٣٤
معركة اليرموك الاولى	٦٣٤
معركة الجسر فى العراق	٦٣٤
فتح دمشق	٦٣٥
معركة البويب فى العراق	٦٣٥
معركة اليرموك الثانية	٦٣٦
معركة القادسية	٦٣٧
احتلال المدائن	٦٣٨
تمصير الكوفة	٦٣٩
غزو مصر	٦٤٠
موت هرقل	٦٤١
استسلام حصن بابليون	٦٤١
فتح الاسكندرية	٦٤٢
معركة نهاوند	٦٤٢
اغتيال عمر بن الخطاب	٦٤٤
فتح قبرص	٦٤٩
موت يزدجرد	٦٥٢
مقتل عثمان	٦٥٦
معركة الجمل	٦٥٦
معركة صفين	٦٥٧
اغتيال على	٦٦١
تمصير القيروان	٦٧٠
حصار القسطنطينية	٦٧٠ ـ ٦٧٧
وفاة معاوية	٦٨٠

فهرس



هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

بين مقاولى القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشاء المركز الثقافى والاجتماعى والمتحف والمكتبة بالاسماعيلية ويمكن الحصول على مستندات العملية بالحضور شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية — الادارة الهندسية (المشروعات) وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثين جنيها .

وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (الادارة الهندسية) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره خمسة آلاف جنيه ولن يلتفت الى أى عطاء يقدم بعد هذا الموعد أو غير مصحوب بالتأمين الابتدائى المذكور .





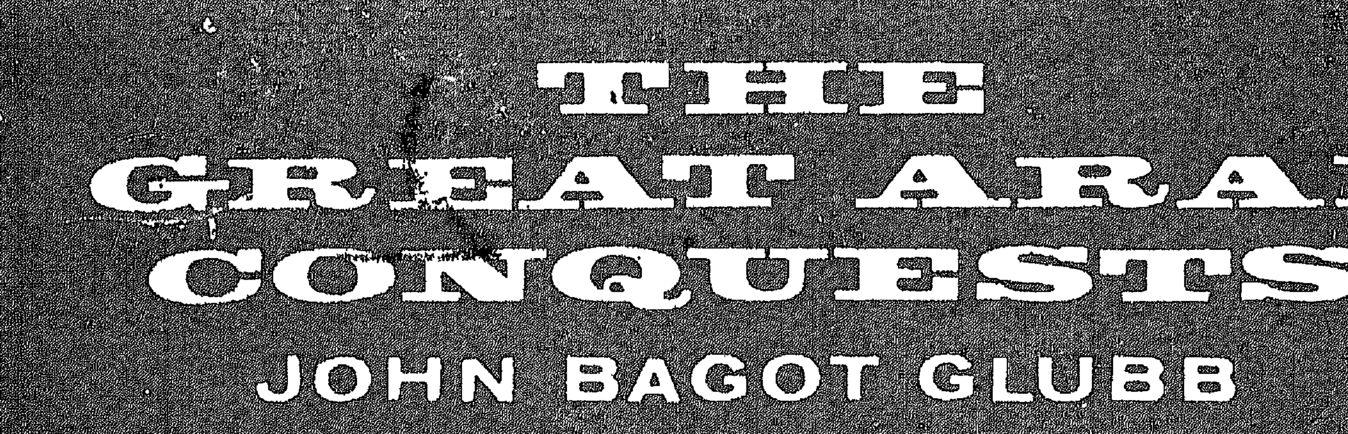






الدار القومية للطباعة والنشر
« فرع الساحل »





العـــدد ٨٤

الثمن ٦٥ قرش